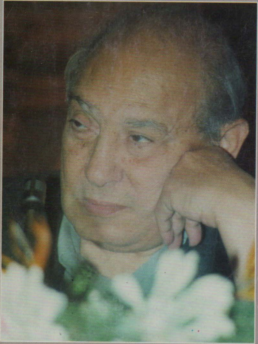
عمر فى العاصفة

سيرة ذاتية



أحمد عباس صالح

عُمَر في العاصفة

أحمد عباس صالح

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

صالح ، أحمد عباس

عمر فى العاصفة / أحمد عباس صالح. ـ

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

٣٦٤ ص : ٢٤ سم.

تدمك ٦ ٢٥٥ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ صالح ، أحمد عباس ـ التراجم التراثية.

٢ ـ الصحفيون المصريون.

(أ) العنوان :

رقم الإيداع بدار الكتب ٥١٥٢/ ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 255 - 6

ديوى ٩٢٠,٠٧

المشرف على هذه الطبعة :

محمد عبد الجواد

الإخراج الفنى :

مادلين أيوب فرج

أحمد عباس صالح

- وُلد بعد ثورة ١٩١٩ بأكثر من سبعة أعوام.
- عاش فى زمن الاحتلال الإنجليزى والباشوات وكبار المُلاك. ثم عاش فى قلب فترة ثورة ٢٣ يوليو، وكان على علاقة بعدد من قادتها ثم عهدَىْ السادات ومبارك.
- تعلم من التراث العربى والإسلامى وكتَّاب النهضة، وخرج إلى الحياة العامة فى وقت كانت فيه الحياة «مليئة بالشعر»، وكانت مصر تبحث عن شيء جديد وعن المستقبل.
- فى البداية مارس العمل السياسى السرى، ثم تعرف عن قرب بعدد من الشخصيات التى غيرت مجرى التاريخ السياسى والثقافى والفكرى والأدبى والفنى والإعلامى فى مصر والعالم العربى.
- بدأ بكتابة القصة القصيرة ثم التمثيليات الإذاعية والأفلام السينمائية، ونشر كتابه الشهير «اليمين واليسار فى الإسلام» الذى أحدث دويًا فى الأوساط الفكرية فى العالم العربى ورأس تحرير واحدة من أهم المجلات الثقافية، والتى قدمت لأول مرة، مجموعة من الموهوبين من الكتاب والأدباء الذين أصبحوا من المشاهير فيما بعد.
- فى هذه المذكرات يروى المؤلف ذكرياته عن أشهر الشخصيات السياسية والفكرية والثقافية والأدبية والفنية فى مصر والعالم العربى على امتداد أكثر من نصف قرن، ويراجع المسكوت عنه فى تاريخ مصر.
- ينتقل بنا المؤلف من الحياة فى القاهرة بأجوائها المتعددة إلى العراق بشخصياته الحاكمة والمحكومة ورموزه الثقافية، ثم ينتقل بنا إلى أوروبا وتياراتها الفكرية.. وإلى أمريكا، ونوعية الحياة فيها.
- تعرض للفصل من عمله أكثر من مرة فى مجلات وصحف «التحرير» و«روز اليوسف» و«الجمهورية» و«الشعب».
- تشبع بفكرة الوطنية المصرية والانتماء العربى والحداثة والديمقراطية والتعددية والعدل الاجتماعى، وهو من المفكرين الذين يشغلون أنفسهم بمستقبل الجنس البشرى كله.
- عند عودته إلى مصر بعد غيبة طويلة، أجهش بالبكاء ثم تساءل: «إلى هذا الحد نحب هذا البلد؛ ولكن.. ألم نضيع عمرنا من أجل أن نجعله بلدًا عظيمًا؟ حقًا.. شقينا فيه كثيرًا، ولكن.. كم لقينا فيه من السعادة.. وكم كنا نشعر بأننا نمتلكه أكثر من أى مكان آخر عشنا فيه».

نبيل زكى

القسم الأول
في شوارع ومنتديات القاهرة

١

صبى مشاكس

قد تعرفت بالأستاذ رشيد النحال المحامى فى حزب الأحرار الدستوريين. وكان الحزب يقع بالقرب من مبنى مجلس الشعب الحالى، وعلى بعد خطوات كان "بيت الأمة" الذى كان بيت سعد زغلول وفيه - الآن - متحفه، كما صار مدفنه على مرمى حجر من هذا البيت، وكان هذا المبنى الفرعونى الأنيق معروفا للجميع باسم ضريح سعد .

وأذكر أننى حين زرته صغيرا كنت أعتبره من أجمل العمائر التى شاهدتها . وقد قرأت أن «العقاد» حين خرج من السجن بعد أن قضى فيه تسعة أشهر، لأنه صاح فى البرلمان بأنه يتحدى أكبر رأس فى البلد، ذهب إلى هذا الضريح وألقى قصيدة رائعة يقول فى مطلعها :

لبثت جنين السجن تسعة أشهر وهأنذا فى ساحة المجد أولد

فى هذا المكان، ذلك المربع الرائع الذى يشمل منطقة عابدين والناصرية والسيدة زينب والمنيرة بما فى ذلك جاردن سيتى، ولدت وعشت حتى اليوم .

كنت فى السادسة عشرة تقريبا أو أقل قليلا حين ذهبت إلى مقر حزب الأحرار الدستوريين. كنت مع مجموعة من أصدقائى لا أدرى ما مصير أغلبهم الآن، لكنى أذكر بالطبع «شكرى سرحان» الذى كان طالبا فى المرحلة الثانوية ويحب التمثيل ويؤدى فعلا بعض الأدوار المسرحية وقد اتفق بشكل ما مع حزب «الأحرار» أن يؤدى مقطعا من دور فى إحدى المسرحيات حين يبدأ حفل سياسى فى مقر الحزب .

ذهبنا جميعا لنرى صديقنا ولنرى باشوات الحزب، وفعلا ظهر «شكرى سرحان» على المنصة وألقى حوارا شعريا طويلا، وقد جعل يلون صوته وقسمات وجهه وحركات جسمه حسب المعانى التى ينطوى عليها هذا الشعر . وأذكر تماما البيت الذى ألقاه بكل الانفعال اللائق :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

والعجيب أننى حين قرأت مذكرات محمد حسين هيكل رئيس الحزب بعد ذلك بأكثر من أربعين عاما وجدته يستشهد بهذا البيت .

بالطبع عجبت حين رأيت صديقى ينقلب إلى شخص آخر وأن هذا الصديق الوديع الذى نجاذبه الحديث برفق فى كل الأمور ينطوى على كل هذه الجراة، ويقف مشدود القامة، مجلجل الصوت، لا يرمش له جفن .

لا أذكر ما إذا كان الشاعر محمود حسن إسماعيل قد ألقى قصيدته الشهيرة فى هذا الحفل أم فى حفل آخر . وكان مطلع القصيدة الذى لا أنساه هو:

من ذلك السارى عليه سلام كادت تسير وراءه الأهرام

كانت الحياة مليئة بالشعر، وكان المصريون يغلب عليهم الانفعال . وكانت المبالغة مقبولة، وكانت فكرة أن أعذب الشعر أكذبه، تتفق مع الحالة العامة التى يريدها الناس . وفى هذا الوقت كان النجم الساطع الشاعر محمود حسن إسماعيل، وكنا نتداول ديوانا عنوانه «هكذا أغنى» وديوانا آخر هو «أغانى الكوخ» ولم نكن معجبين بالمدائح التى مدح بها الملك فاروق، وكان فى الديوان أو فى مكان آخر . لا أذكر . صورة الشاعر وهو يصافح الملك بالطريقة التى كانت متبعة فى تلك الأيام، الانحناء وتقبيل اليد .

منذ متى وعيت على الإيقاع السياسى للبلد ؟

كنت فى المدرسة الابتدائية حين مات الملك فؤاد وأخرجونا فى مظاهرة وسمعت هتافا عجيبا . مات الملك يحيا الملك . وكانت بعض النساء يبكين . وبعد ذلك تعودت على أن أنتبه حين أسمع أصواتا جماعية، كانت تصل إلى نوافذ الفصل الدراسى الذى أجلس فيه، وأتوقع أن يقترب الصوت وأن يصبح هديرا وأن نخرج من الفصول لنمشى فى المظاهرة .

كانت المظاهرة هى الشكل الذى أتقنته الطبقة الوسطى المصرية، وأبناء المدارس والجامعة بصفة خاصة، كان أهم ما تركه ميراث ثورة ١٩١٩ هو المظاهرة باعتبارها تعبيرا شعبيا، وهو إرث تمتد جذوره إلى أبعد من هذا كثيرا عندما كان يثور القاهريون بقيادة رجال الأزهر أو التجار للاحتجاج على ظلم أو ضريبة، وكانت هذه المظاهرات تبدأ من الجامع الأزهر وتنتهى فى القلعة حيث كان يجلس الوالى .

وفى الثورة العرابية قاد عرابى مظاهرة عسكرية كبيرة يحيط به فيها جمع غفير من الشعب إلى قصر عابدين حيث دارت محادثة شهيرة بينه وبين الخديو توفيق فى بواكير ثمانينيات القرن التاسع عشر .

ولا يكاد يوجد مصرى لم يمش فى مظاهرة، كثيرا ما كنا نصاب بضربة عصا من جنود الشرطة، وفى أحيان أخرى سمعت طلقات رصاص، وكان الأمر بالنسبة لى مغامرة غريبة، الطلبة يتحدون العساكر، والعساكر يهاجمونهم وقد لبسوا خوذات حديدية وأمسكوا فى أيديهم دروعا يحمون بها أنفسهم من الحجارة التى يقذفهم بها الطلبة وحينما يبدأ الصدام يحدث هرج ومرج وتتناثر القوى فى كل اتجاه، وبعد فترة ما تتوقف المظاهرة وأجد نفسى مع أصحابى فى مكان ما بعيدا عن المظاهرة محتقنى الوجوه، نمارس نوعا غريبا من الاغتباط والجيشان . فى هذه المنطقة كان يقع مقر البرلمان ثم من الناحية الأخرى قصر الملك، وفى أماكن متفرقة منها توجد مقار الأحزاب .

❖ ❖ ❖

كنت فى المدرسة الابتدائية عندما صحبنى زميل الفصل إلى مقر حزب مصر الفتاة وأذكر أن اسم صديقى هو على عبد الفتاح، وكان الأستاذ أحمد حسين، رئيس حزب مصر الفتاة، هو عمه شقيق والده .. كنا نذهب إلى مقر الحزب فى الصباح أيام العطلات الصيفية فلا نجد أحدا إلا نادرا . هناك نجد بعض الأدوات الرياضية كالعقلة والمتوازيين فنلعب بها . ولفت

نظرى وجود العلم المصرى الأخضر على مائدة مفروشا ومثبتا عليه ثلاثة أهرام على ما أذكر . وكنت أتأمل هذا العلم بدهشة وبمشاعر غريبة وأتساءل عن معنى وضعه بهذه الطريقة .

والواقع أن مصر الفتاة كانت قد أنشأت ما يسمى بالقمصان الخضر، وهم جماعة من الشباب على نمط القمصان السوداء للحزب الفاشيستى الإيطالى الذى كان فى قمة السلطة حينذاك فى إيطاليا، وكانوا يلبسون قمصانا خضراء ويعقدونها بطريقة ما . وكان اللون الأخضر سائدا فى هذا الحرب . وكان هذا العلم مفروشا على المنبر الذى يعلوه خطباء الحزب. والعجيب أن على عبد الفتاح لم يكن متحمسا لحزب عمه، ولم أكن أنا أيضا متحمسا، كنت مدفوعا فقط بفضول شديد، وكانت هناك أشياء كثيرة لا أفهمها وأحاول التعرف عليها بالاقتراب منها . على أننى فى هذا الوقت كنت أقرب إلى الطفولة، فقد تركت المدرسة الابتدائية منذ قليل .

كنت أجد فى بيتى قصصا ومجلات مصورة، ولكن القصص هى التى أعجبتنى، كانت كلها قصصًا مترجمة ترجمات سريعة بعنوان «روايات الجيب» وكانت تشفى الغليل على أية حال . ووجدت قصص ألف ليلة وليلة، ووجدت القصص الشعبية الشهيرة مثل قصة الأميرة ذات الهمة وسيرة عنترة وأبو زيد الهلالى، والغريب أنها لم تستهونى فى هذه السن .

❖ ❖ ❖

كانت مدينة القاهرة قد عرفت الراديو والسينما وعرفت الصحف اليومية منذ زمن بعيد وصدرت فيها مجلات عديدة .

وكنا إذا توغلنا قليلا بعيدا عن مقار بيوتنا خرجنا إلى مركز المدينة فى ميدان سليمان باشا (طلعت حرب الآن) وشارع قصر النيل وشارع فؤاد (٢٦ يوليو الآن)، وكانت السيادة فى الواقع للأجانب، إذ كانوا يمثلون الشريحة التى تتمتع بأعلى مستوى للدخل الفردى، وكان الذى يريد أن يدخل مطعما أو مقهى أو ناديا عليه أن يعرف على الأقل بعض الجمل الفرنسية والعادات الأجنبية، وكانت الطبقة الوسطى المصرية طبقة هامشية بالنسبة لأماكن اللهو الغنية، وكان على الشاب الصغير الذى يريد أن يستمتع بالأماكن الجميلة النظيفة وبمناظر النساء الجميلات المتعطرات أن يدخر شيئا من المال يناسب مغامرة الدخول إلى هذه الأماكن .

وعلى غير بعيد من بيوتنا كنا نلتقى دائما بالجنود الإنجليز فى ملابسهم العسكرية، وكان «قشلاق الإنجليز» يقع على النيل فى سراى ضخمة كانت فى الزمن القديم للخديو إسماعيل، وكنا إذا قصدنا منطقة الحدائق للنزهة أو لنرى مباريات كرة القدم فى النادى الأهلى نمر بهذا القشلاق العجيب ونلقى نظرات طويلة على هؤلاء الجنود الذين يجلسون أحيانا عرايا الصدور من فرط الحر، وهم يطلون من نوافذ القصر ويشربون البيرة .

وكان المصريون يشعرون بالقهر فعلا، وكانت كل حركة تصطدم بالواقع الذى يؤكد لهم أنهم لا يسيطرون على بلادهم وأن مصائرهم بيد آخرين .

وفى ذلك الوقت لم يكن من الممكن تمييز الباشوات وكبار الإقطاعيين من الأجانب، والحق أن هؤلاء كانوا قد اقتسموا السلطة مع الإنجليز والقصر . وكان كل مرادهم من أجل أن يتسع نصيبهم من السلطة، ذلك أن ما أعطى لهؤلاء كان هامشيا وقليلا، إذ احتفظ الإنجليز بالسلطة الحقيقية ومنحوا القصر الملكى تفويضا سلطويا يمارسه على الأحزاب، التى أصبحت تستمد

سلطتها من القصر ومن السفارة البريطانية حين تريد السفارة أن تعطل تفويضها للقصر أو تجنح إلى حزب دون حزب آخر .

ولعل المشاعر الحقيقية التى كانت تفيض بالشباب هى مشاعر الاغتراب والاستلاب، لم يكن المصرى يشعر بأنه يمتلك شيئا أو أن أحدا يشركه فى اتخاذ قرار، كان عليه دائما أن يرجو، وأن ينتظر سلطة ما أن تمنحه شيئا، أو كان عليه أن يتمرد، وكان القمع التدريجى الذى قام به الإنجليز لحزب الوفد قد جرد فى نفس الوقت الشعب المصرى من إحساسه بالقوة، وأعاد حالة الاستلاب مرة أخرى، تلك الحالة، التى بلغت أقصى درجاتها بعد الاحتلال البريطانى وهزيمة العرابيين .

استرد المصريون عقب الحرب العالمية الأولى إحساسهم بالذات وساروا جميعا خلف قيادة الطبقة الوسطى المصرية فى ثورة ١٩١٩ كان من الطبيعى أن يتم هذا عن طريق انفجار ضخم وهائل، على أن الطبقة الوسطى لم تستطع لسبب أو لآخر أن تستمر بهذا الانفجار إلى النهاية المرجوة، وفى خلال عقدين فقط أو ثلاثة كان شكل السلطة قد استقر على ثلاث قوائم ليست متساوية هى سلطة الاحتلال وسلطة القصر وسلطة الطبقة الوسطى التى صارت طبقة إقطاعية ورأسمالية .

وعادت الجماهير مرة أخرى إلى العزلة وإلى الاستلاب، فى هذا المناخ كان كل تفكير محفوفا بالمخاطر، وكل تحرك موضع تجريم كامل وعنيف، وكان المصرى يشعر بشكل أو آخر بأنه مذنب وبأنه متهم وبأنه قد يلتقى عند الناصية القادمة بمن يوجه له اتهاما ما لا يستطيع أن يدفعه، وكان على المواطن المصرى أن يعد دائما دفاعا لإثبات براءته من أى شىء، كان يراقب نفسه ويراقب خطواته، ولم تكن هناك مؤسسة ما يلجأ إليها هذا المواطن. وكان دائما يعيش على حافة خطر ما .

وأنشأت حالة الاستلاب رغبة فى التخفى، وكان هناك من يجد لديه الجرأة يتجه إلى تنظيم سرى للاغتيالات، أو تنظيم سرى يحلم بقلب السلطة، وكانت السرية هى التعبير الأسهل عن الرغبة فى التخفى والتمويه .

❖ ❖ ❖

فى تلك الفترة أو بعدها بقليل ذهبت إلى النادى السعدى، وهو نادى حزب الوفد القديم، فى صحبة صديقى الكاتب المسرحى نعمان عاشور وجلسنا فى صالون كبير، لم نكن وفديين ولكننا كنا نبحث عن مؤسسة تحمينا، عن تجمع ديمقراطى ننتمى إليه، كنا نريد هذا بغير وعى.

كان الصالون بالنسبة لنا فاخرا ولكننا لم نلحظ ذلك إلا عندما دخل فؤاد باشا سراج الدين الذى كان فى هذا الوقت سكرتيرا عاما لحزب الوفد، دخل فخما متألقا، ثيابه تلمع، ووجهه يلمع، وكان يمسك بسيجاره الشهير وحياه الجميع ثم جلس بالصدفة فى مواجهتنا مباشرة . كنا ننظر إليه بعمق فرمانا بنظرة فاحصة عميقة، أو هكذا هيئ لنا؛ وهنا تبينا أننا نجلس فى صالون فاخر جدا بالنسبة لنا، وأن أحذيتنا المتربة تغوص فى سجادة ثمينة، وأننا غرباء تماما، هبطنا على كوكب آخر!

فى الطريق ثرثرنا بكلام كثير أظن أنه كان يعبر عن الإحساس بالاستلاب .

قبل هذه الواقعة بسنوات قليلة كنت عائدا إلى بيتى فى المساء وحيدا، وكان على أن أخترق ميدان عابدين الذى يقع فيه القصر الملكى الضخم. ومبانى الحرس المحيطة به، فلاحظت شيئا غير عادى لم أتبينه من بعيد. ولقد كان على المصريين، على أية حال ألا يقتربوا من القصر أكثر من اللازم، كان الحرس عادة يقفون على بعد عدة أمتار من الأسوار، ولهذا كان العابرون يباعدون بينهم وبين الحرس والأسوار، وكان السائر يلقى نظرة على السراى من عند ساعة ميدانية فى مواجهة التصد وينحرف يمينا أو شمالا، ولكننى لاحظت دبابات كثيرة جدا، ووقفت أنظر فوجدت حص ارا كاملا مثل الذى فى الأفلام . كنت فى الخامسة عشرة، من عمرى تقريبا وكان ذلك منظراً فذا بالنسبة لى. ويبدو أن الدبابات كانت فى بداية عملية انتشارها لأننى شاهدت كيف تحركت الدبابات لتحيط بالقصر ولتوجه مدافعها ناحية القصر .

لم يكن هناك كثير من الناس بالميدان على أن القائمين بعملية الحصار لم يلقوا بالا إلينا نحن العابرين القليلى العدد ولعلى لاحظت سيارة السفير البريطانى أو سيارات أخرى .

ولقد أدركت بشكل غامض أن هناك شيئا غير عادى يحدث، ولكن هذا الشىء غير العادى لم يدهشنى كثيرا فقد كانت غارات الألمان تدك منازلنا القريبة من القصر وقد وقعت مثلا قنبلة قريبة ذات يوم وذهبنا إلى موقعها وشاهدنا البيوت التى تهدمت . كان ما رأيته شيئا يتعلق بالحرب ويتعلق بالإنجليز وبساكن القصر الذى لا تربطنا به أية صلة .

حينما أتذكر هذا الحادث أندهش تماما لمشاعرى حينذاك لم يكن الأمر يعنينى . ولا شك أن انفصالا تاما كان قد وقع بيننا وبين النظام القائم . بعد ذلك عرفت أن حصارا إنجليزيا قد وقع وأن الإنجليز قد فرضوا على الملك أن يأتى بوزارة وفدية .

والعجيب أننى لم أمش فى المظاهرات التى هتفت «إلى الأمام يا روميل» فى ذلك الوقت، ولم أكن متحمسا للألمان على الإطلاق مع أننى كنت أسمع أبى يتحدث بأن أى احتلال أفضل من الاحتلال الإنجليزى، وحينما اغتيل أمين عثمان باشا الذى كان وزيرا وفديا وعميلا مشهورا للإنجليز لم أهتم كثيرا .

ربما كان إحساسى بالاستلاب قد بلغ الذروة . على أننى أزعم أن هذه تقريبا كانت مشاعر أصدقائى الذين أحتك بهم يوميا .

❖ ❖ ❖

حينما بدأنا نقرأ كانت أمجاد ثورة ١٩١٩ قد انحسرت . لم ندرك تلك الانتكاسة التى شعر بها المصريون حينذاك، ولم نعاصر المعارك الفكرية الكبرى . لم نقرأ كتاب «الإسلام وأصول الحكم» بنفس العين التى قرأه بها آباؤنا . لم نقرأ كذلك كتاب «الشعر الجاهلى»، ولعلنا لم نلتفت إلى هذين الكتابين إلا بعد أن تقدمنا نوعا ما فى العمر . ولم نقرأ كتابات العقاد الجادة التى كان يدافع بها عن الدستور ضد الملك وضد الإنجليز، وحينما بدأنا القراءة كان العقاد يدافع عن الملك وعن الإنجليز، وعن أحزاب الأقلية، وكان على عبد الرازق مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» قد كف عن الكتابة تماما ولم يكن له أى دور بعد محنته مع النظام . وكان توفيق الحكيم . يكتب فى الصحف غير الشعبية متحدثا بكلام غريب عن حمار الحكيم، أو بقصص ومسرحيات تدعى الفكر والتأمل . وكذلك كان المازنى ! ولم نكن نثق على الإطلاق بكاتب .

ويبدو أن الجهاز الإعلامى كان قد أصبح جزءا من النظام، وكان النفاق والخوف والتزلف يغلب على الكثير مما يذاع فى الإذاعة أو ينشر فى الصحف وكان الشعراء والمغنون يتغنون بالملك بينما جميع الناس تبغضه .

وأظن أن غالبية الشباب فى هذا الوقت اتجهت إلى الثقافة الأجنبية، وكانت معرفة لغة أجنبية ليست مسألة ثقافية بل قضية تحرر، قضية يهرب بها الشباب من سجن الثقافة العربية المعاصرة فى ذلك الوقت إلى العالم الفسيح، إلى الحقائق التى لم يعتريها المسخ أو الكذب أو النفاق، وكانت الكتب المترجمة تمثل مخرجا أيضا، ولعل هذه الفترة كانت أكثر الفترات ازدهارا بالترجمة .

وأذكر أننى فى الفترة من سن العاشرة حتى العشرين لم أحظ بأية معرفة حقيقية من خلال الكتابات العربية المعاصرة، كنت قد غرقت تماما فى قراءات ملحة فى التراث كنت أظن أن ذلك تم بمحض المصادفة، فقد كان لدى فراغ كبير، وقد وجدت هذه الكتب فى مكتبة متواضعة لجدى لأمى، قرأت للغزالى وابن رشد والفارابى والكندى، وابن سينا، والتهمت كتابى الأغانى والعقد الفريد، ولم أترك كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة إلا بعد أن أصبح مزقا .

وقرأت قصصا وأساطير فلسفية، قرأت «حى بن يقظان» لابن طفيل، وقرأت رحلات ابن بطوطة ومقدمة ابن خلدون، وتفاسير مختلفة، لم أجد أحدا يرشدنى، كنت أخاف أن أسأل جدى الذى يحب كتبه جدا ولم يكن مرتاحا لطريقة استعمالى للكتب، ويبدو أنه كان يجد ألا جدوى لى من قراءة هذه الكتب لارتفاع مستواها عنى .

لم تكن هذه القراءة صدفة حيث كنت أظن، فقد اكتشفت بعد ذلك أن كثيرا من أصدقائى ومن جيلنا بشكل عام كان يفعل ذلك .

ووجدتنى فى حمى الاستلاب متدينا موغلا فى التدين، ولعل هذا هو سبب اتجاهى للتراث، كنت أصلى الفجر فى المسجد، وكنت أحضر درسا يوميا فى مسجد قريب من بيتنا، وإلى اليوم مازلت أذكر هذا الإمام الرائع الذى كان يعطى درس العصر . لقد نسيت اسمه ولكن شكله مازال أمام عينى . كان هذا الرجل بعد أن يصلى بالناس العصر يعتلى منصة صغيرة فى صحن الجامع يتربع عليها ثم يبدأ فى إلقاء درس من الدروس، ولم تكن هذه الدروس دينية كما يتبادر إلى الذهن، كان يتحدث فى التاريخ وفى الفقه وفى الفلسفة، وقليلا ما كان يتجه إلى الأحداث الجارية فهذا لم يكن مأمونا على الدوام، ولم تكن طبيعة الرجل على أية حال طبيعة سياسية .

لازمت الإمام فى درس العصر أربع سنوات تقريبا، كان قد التفت لأسئلتى الغريبة وفطن إلى أن لى قراءات لا تناسب سنى، على أنه كان بعد انتهاء الدروس ينتحى بى جانبا بعد صلاة المغرب ويحدثنى عما أسأل حتى إذا صلى العشاء عدت إلى بيتى .

❖ ❖ ❖

كنت صبيا مشاكسا، كنت ألعب كرة القدم باندفاع وحب شديدين حتى أن أمنيتى حينذاك كانت أن أصبح لاعب كرة دوليا كما يقولون عندنا فى ذلك الوقت . ومن أغرب المشاعر التى لم أنسها أبدا ومازالت محفورة فى ذاكرتى، هى التى فاضت بها نفسى فوق أرض الملعب، حيث كنا نلعب ضد فريق من حى آخر . كنا قد سجلنا أهدافا رائعة وهاهو ذا الشوط الثانى والأخير

يوشك على الانتهاء، وكان الوقت عصرا والشمس قد شحبت وضعف وهجها وضعفت حرارتها، وكنت ألعب جناحا أيسر وبذلت جهدا كبيرا وصارت الكرة بعيدا عن مرمانا، ولم نعد فى حاجة إلى نشاط آخر لنحافظ على فوزنا، كما أن التعب قد أدركنا جميعا، وتباطأ اللعب ولم يعد هناك أى أمل للفريق الآخر فى أن يحقق هدفا . جلست على الحشيش الأخضر أتابع الكرة بجوار خط دفاعنا، نسمات العصر رطبة وباردة تجفف العرق، أحسست بسعادة غامرة وتولدت فى عقلى فكرة أن أعظم شىء فى الحياة أن يصبح الإنسان لاعب كرة قدم، وصحب هذه الفكرة عزم أكيد على أن أوجه مستقبلى هذه الوجهة .

على أنه لم يمض على هذه الجلسة الحالمة فوق أرض الملعب أكثر من عام واحد حتى سيطرت علىّ تماما الرغبة فى الكتابة الأدبية . وإننى أتذكر الآن بدهشة كيف انطفأت هذه الرغبة الرياضية أمام الحب الجديد لما يسمى بالأدب . تلك هى الفترة التى أصبحت فيها أداوم على صلاة العصر فى المسجد وعلى دروس هذا الأستاذ الرائع .

كنت صبيا مشاكسا .. كنت ممتلئا بالاضطراب والقلق وكنت أجلس هادئا أصغى بانتباه شديد حتى يظن من يرانى أننى لست هذا الكائن الذى لا يعرف السكون لحظة، وكنت أجد صبية فى مثل سنى معى فى المسجد يصغون إلى هذه الدروس ويصاحبوننى فى الرواح، وكانوا أيضا من طلبة المدارس الثانوية .

وحينما أحاول الآن استعادة الخطوط الأساسية للأفكار التى كانت تقودنا فى هذه الحلقة الدراسية الحرة أرى أنها قد تربطنا ربطا قويا بالجزيرة العربية، وكنا نعرف بشكل ما أننا عرب، ولم نكن نجد مشكلة ما فى أننا مصريون وعرب، بل كنا نعرف أننا عرب مصريون، وكان مشهورا فى أحيائنا أن كل أسرة لها شجرة عائلة، وأذكر أننى سألت جدتى لأبى التى كانت تعيش معنا عن شجرة الأسرة، وقد أخرجت لى من «صحارة» قديمة ورقة صفراء كبيرة فيها رسم شجرة وأوراق على كل منها اسم، وبالطبع، وكالشائع فى تلك الأيام، كان جدنا الأعلى هو على بن أبى طالب .

ويبدو أن جميع أشجار العائلات فى مصر كانت تنتهى إلى هذه النسبة، وكان أبى رحمه الله رجلا مرحا ساخرا، وكان يعطينى بتهكمه على كل شىء شعورا بأن هذه الشجرة ملفقة، ولما كبرت بعد ذلك عرفت أن المجتمع المصرى لم يحتفظ بالمرحلة العشائرية طويلا حتى فى قبائله العربية التى وفدت على الوادى . وكانت الأسرة هى أكبر وحدة يعرفها هذا المجتمع، ومازلت أذكر الدهشة التى قابلت بها النظام العشائرى المنظم فى العراق حينما انتقلت للعمل به، ففى وادى الرافدين وفى كثير من الأقطار العربية الأخرى لم يزل التكوين العشائرى قائما، ومازال الطريق إلى الأنساب صحيحا وممكنا .

❖ ❖ ❖

كنا نذهب مع المدرسة إلى المناطق الأثرية . ومازلت أذكر الانبهار الذى شعرت به وأنا أرى الآثار الذهبية لتوت عنخ آمون، المقاعد والتماثيل والصولجانات والموميأوات.. كل شىء كان باهرا ..

ويبدو لى أن المصريين كانوا فى حاجة إلى هذه الآثار فى مرحلة ثورة ١٩١٩ وما بعدها بقليل ليؤكدوا الثقة بأنفسهم ويبحثوا عن نسب قوى يواجهون به الإحباط الذى أحدثته الردّات

المتتالية منذ معاهدة لندن ١٨٤٨ أيام محمد على إلى هزيمة الثورة العرابية والاحتلال البريطانى . وعندما نشأت كان وهج ثورة ١٩١٩ قد انطفأ وكانت قيادات هذه الثورة إما رحلت أو توزعت مرة أخرى بين السلطتين الأكثر ثباتا، الاحتلال والقصر . وكان حزب الوفد يحاول أن يكون سلطة تناوئ السلطتين عبثا ..!

ولذلك كانت الفكرة الفرعونية قد ضعفت، وكان التكوين الثقافى والحضارى العربى متغلغلا، مرتبطا باللغة وبالدين وبتاريخ طويل من التعايش فى إطار نمط خاص متراكم يشكل المزاج العام للمصريين، هو نمط عربى شرقى إسلامى بغير شك .

وفى هذه الفترة أيضا عشت لحظات من البهجة غريبة . كنت أصلى الجمعة فى جامع بمنطقة الجماميز . جامع فاضل . كان القارئ العظيم الشيخ محمد رفعت يتلو فيه كل جمعة جزءا من سورة الكهف، وكنت قد استمعت من جدى أو قرأت فى أحد الكتب القديمة، أن قراءة سورة الكهف قضية ضرورية لأن هناك فيما وراء سور الصين يقبع شعب يأجوج ومأجوج الذين جاء ذكرهم فى سورة الكهف، وكانوا نوعا من المخلوقات غريبا، أقرب إلى الكائنات الخرافية منهم إلى البشر، فقد بنى الإسكندر ذو القرنين . وقد كان مؤمنا ! . سورا يمنعهم من الخروج إلى المعمورة، لأنه يعلم أنهم لو خرجوا من سجنهم هذا لاندفعوا إلى الأرض يحطمون كل شىء ويأكلون الأخضر واليابس إذ أن لهم ألسنة حديدية قوية يستخدمونها الآن فى إذابة صخور السور التى تذوب تحت ألسنتهم العجيبة ويضعف السور ويتآكل حتى يوشك على السقوط، ولكن سورة الكهف توقف ذلك بقدرتها السحرية بحيث يعود السور، كما كان إلى أن يحل الأسبوع القادم .

مثل هذه القصص على غرابتها، وعلى الرغم من استرابتنا فى صحتها، كانت تصور لنا هذه المخلوقات أشبه بنوع من القوارض . وكنا نسرح بعقلنا الطفولى فى الصور المختلفة التى يستطيع أن يتصورها خيال شديد الخصوبة فى هذه السن .

ربما كان الخشوع الذى أشعر به، والبهجة التى تملأ نفسى وأنا أصغى لصوت الشيخ رفعت فى صحن الجامع الكبير . بلا ميكروفون . يرجع إلى هذه الخرافة، إلى جانب الصوت ذى القدرة الفائقة على استثارة النوازع الروحية فى نفس الإنسان .

كنت أحضر مبكرا لأجلس إلى جوار المقعد العالى الذى يتربع عليه الشيخ رفعت حتى أكون قريبا إلى الصوت .. وحينما يصل الشيخ تحدث حركة خفيفة فى الصفوف الخلفية فأقوم أنا ومن حولى من الناس صبية وشبانا لنتبل يد الشيخ الذى ألفنا من طول الاعتياد وأصبح يعرف أسماءنا ويعرف آباءنا ومدارسنا على الرغم من أن المقام لا يسمح بمبادلتنا الحديث لأكثر من لحظات وفى همس شديد .

وفى الأيام العادية يحدث أن أرى الشيخ رفعت سائرا فى الشارع الذى نسكن فيه، إذ كان بيته غير بعيد من حينا، فقد كان يسكن فى حى السيدة زينب، وكان يخترق شارعنا فى طريقه إلى بيته أو وهو فى طريقه من بيته.. والغريب أننى لا اذكر ما إذا كان معه أحد يساعده على العبور، إذ كان كفيفا، فكل ما أذكره أننى كنت مثل غيرى من الأولاد الذين يبحثون عن «البركة» أسرع نحوه وأقبل يده ولكنى لم أقل له أننى الصبى الذى يجلس إلى جانب مقعده العالى فى الجامع وأجاذبه مع الآخرين بعض الأحاديث القليلة جدا ..

فى كل مرة كنت أهم بأن أفعل ذلك، ولكننى كنت أخجل ولم أفعلها مطلقا ..!

ومازلت أذكر هذا الشيخ فى جبته وقفطانه الأنيقين والنظيفين وعمامته التى يتألق «شالها» الأبيض من فرط النظافة، كما كان يتضوع عطرا من ذلك النوع الذى يستعمله رجال الدين والذى تلتقطه حاسة الشم فى المساجد .

٢

منابع الثقافة

فى هذا الوقت كانت غالبية الصبية من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة يدركون - بشكل ما، وبسبب الثقافة السائدة - أن الزمن الذى نعيشه هو زمن متدهور، وأن الزمن المثالى هو زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكانت مكة - التى لم نرها - وكذلك المدينة .. حلما رائعا يتجلى فيهما السلام والعدالة والمحبة، وكنا نشعر بأننا ننتمى إلى ذلك المكان وإلى ذلك الزمان أكثر من أى شىء آخر . وبالطبع كنا نعرف من سيرة الرسول والصحابة أكثر كثيرا مما نعرفه عن محمد على أو تحتمس أو السلطان قايتباى . كانت السيرة النبوية والأحاديث والقصص الدينية الواردة فى كتب التفسير أو فى كتب التاريخ القديمة هى غذاءنا اليومى، نسمعها فى المساجد وفى البيوت وفى المدارس أيضا، وكان علينا أن نحفظ سورا من القرآن فى كل سنة دراسية، وعددا من الأحاديث النبوية، وكان التاريخ الإسلامى هو أكثر الصفحات إشراقا، ففى هذا التاريخ تتجلى الحكمة كاملة، ليس هناك أخطاء إلا الخطأ الضرورى، لكى يؤكد حكمة القادة المقدسين . ولما كان هذا التاريخ جزءا من العبادة فى الواقع كنا نصغى إليه بانتباه ونقرأ القرآن كذلك، ومع أننا كنا نحفظ الآيات دون فهم معناها تماما، إلا أننا كنا نتحمل هذا الجهد من أجل الحسنات التى سنحصل عليها فيما لو نجحنا فى حفظ هذه السورة أو تلك .

وأذكر أن هذه الثقافة كانت تجعلنا نفكر بطريقة خاصة فبشكل ما تبدو لنا الحياة الدنيا نوعا من الامتحان، وأن الإنسان منذ يولد يتعرض لامتحانات فاحصة تختبر تقواه وورعه، وعلى الإنسان الذكى أن يكون حذرا جدا، أن يكون متقشفا، وأن يدرك أنه يعيش حياة عابرة وقصيرة، وحينما يغفل لحظة واحدة عن هذه الحقيقة يقع فى المحظور الخطير، ويذوق الويلات فى الحياة الآخرة . وكنا نتصور «الصراط المستقيم» الذى يسير عليه الإنسان فى الآخرة فإذا انحرف يمينا أو شمالا وقع فى جحيم رهيب . كانت صور الرعب كثيرة جدا فى حياتنا، وكانت الكتب الأكثر تداولا بين أبناء الشعب هى تلك الكتب التى تمتلئ بصور الرعب الذى ينتظر الخاطئين .

وكانت هذه الثقافة تنتهى فى الواقع - دون أن نقصد - إلى فكرة جوهرية هى «الطاعة» وحيث توجد فكرة الطاعة توجد السلطة الأعلى، وهذه السلطة مطلقة، سلطة كاملة العدالة، سواء كانت سلطة إلهية، أو سلطة حكيمة مستمدة من السلطة الإلهية . وكانت السلطات التى

علينا أن نطيعها كثيرة جدا، تبدأ من الأم والأب إلى الأخ الأكبر أو الأخت الكبرى، ثم باقى أفراد الأسرة، ثم إلى المدرس والناظر والضابط، وهو ذلك الرجل الذى كان يقودنا فى طوابير المدرسة ويشرف على نشاطنا الرياضى ومراقبة تصرفاتنا أثناء «الفُسَحْ». وبالطبع لا نهاية لعدد الأشخاص الذين يتمتعون بسلطات، وعلينا أن نطيعهم .

وكانت الطاعة نوعا من السلوك الحسن الذى نُجزى عليه يوم القيامة، كما كانت نوعا من التأدب المطلوب فى الحياة الاجتماعية .

ولست أدرى مدى تأثير ثورة ١٩١٩ على فكرة «الطاعة» وشيوعها، فعندما وصلنا إلى سن التمييز كانت الأفكار الليبرالية التى جاءت بها الثورة قد ضعفت تماما، وعندما كنا نقرأ عن «سعد زغلول» أو نرى تماثيله التى نصبت فى الميادين أو صوره فى الصحف بعد أن توفى بأكثر من عقد من السنين، كنا نرى صورة الجد أو الأب، ومازلت أشتبه كثيرا فى أن جزءا من نجاح زعامة سعد، ليس فى أنه شخصية «كاريزمية» فحسب، بل لأن المصريين أيضا كانوا فى حاجة إلى قيادة أبوية، إلى سلطة تطاع ليس عن طريق القهر بل عن طريق الاختيار . وأعتقد أن العلاقة التبادلية بين القائد المختار و الشعب فى حاجة إلى تأمل ودراسة، فلدى اعتقاد بأن الشعب يصبح متواكلا جدا، ويفقد دوره التوجيهى، ويجرد نفسه من كل الحقوق ليطرحها عند القائد . وإنما يلجأ لهذا الأسلوب المبالغ فيه فى الحب والطاعة كحيلة سيكولوجية، تهرب بها الجماعة من المسئولية، وتتجاوب بها - فى نفس الوقت - مع تربية تاريخية مارسها القهر طويل الأمد، وتفسيرات دينية تم التفكير فيها واستنباطها تحت تأثير الخوف والإحساس بالعجز . وليس من المستبعد أن ينعكس هذا على القائد المختار فى شكل مشاعر أبوية، وبدلا من أن يعتمد القائد على الشعب، يشعر بتلك المشاعر التى تسيطر على الآباء بالنسبة لأبنائهم .. إنهم الأكثر فهما والأكثر خبرة وأصحاب القرار دون منازع . ولعل هذا يؤدى فى النهاية إلى أن الجماهير عبء على القائد، وعند الأزمات الكبرى لا يستطيعون شيئا .. فعندما يعجز القائد عن التفكير، تقف الجماهير عاجزة ..!

وربما كان هذا الظن يفسر عدم لجوء القيادات المختارة إلى الشعب فى الأزمات الكبرى.. وكنت ومازلت أعجب من الإحباط الكامل الذى شعر به سعد زغلول بعد مقتل السردار الإنجليزى السير لى ستاك ..

❖ ❖ ❖

فى سن التمييز هذه بين العاشرة والسادسة عشرة كنت أعانى من فكرة الطاعة، وحينما كنت أقبل يد جدى كنت فى الواقع أحاول قهر روح التمرد التى كانت تتبدى لى فكرة يوسوس بها الشيطان . وعندما كنت أقبل يد «الشيخ رفعت» كنت أعطى فكرة تبجيل الجد مغزاها الدينى ومبررها الروحى، وعندما كان يرتفع صوت الشيخ رفعت تدريجياً فى صحن الجامع وهو يقرأ سورة «الكهف» وما حدث بين سيدنا الخضر وتلميذه النبى موسى كنت أرتجف من روعة الصوت ومن أحداث القصة ذاتها .

فها نحن أولاء أمام رجل يقول الله عنه إنه عبد من عبادنا آتيناه الحكمة، وبين النبى موسى الذى يتمتع فى القرآن بمنزلة عالية فهو الوحيد الذى كلّمه الله مباشرة . ومع ذلك فإن

«الخضر» الذى هو عبد من عباد الله الصالحين كان معلما ومربيا للنبى موسى وقد آتاه الله حكمة وعلما يفوق كل ما لدى النبى من علم ومن حكمة . وكانت المشكلة الرئيسية هى الطاعة، فقد طلب المعلم من التلميذ أن يرى ويتعلم فقط دون أن يحتج أو يسأل مستنكرا . على أن النبى موسى - على ما يتمتع به الأنبياء من ميزات - لم يصبر، ولم يستطع أن يكون مطيعا . مما جعل المعلم ينهى رفقته بعد أن فسرّ له الأحداث التى لم تعجبه والتى بدت فى ظاهرها ظالمة وغير مقبولة من رجل تربطه بالله صلة قوية .

أدرك موسى أن ما كان ظالما فى الظاهر كان هو منتهى العدل فى الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان .

وكان علىَّ وأنا أصغى بانتباه فى المسجد للصوت المجلجل الرائع، الذى كنت أتصوره قادما من السماء مباشرة، أن أدرك عظمة وضرورة التسليم بما يقدم لى من أوامر ونواه دينية دون أى سؤال، وكان على أن أكون أكثر تعقلا من النبى موسى !

ربما لو كان المجتمع المصرى مختلفا عما كان عليه حينذاك، كان الصبية أمثالى قد وجدوا تفسيرا لقصة الخضر وموسى تختلف عن فكرة الطاعة .

وكان المسجد بالنسبة لى يفعل ما يفعل المسرح الإغريقى فى الشعب اليونانى . كانت مخاوفى تنطلق من مخابئها فى نفسى وأنا أسمع التلاوة وأنا أصغى لخطبة الجمعة، أو لتفسير المفسرين، أو حتى فى درس العصر، وحينما أغادر المسجد كنت أشعر بالتوازن، فقد تمرد بالنيابة عنى النبى موسى، وتعرض غيره من الأنبياء لمحن أخرى، وكان هذا يردنى إلى شىء من التوازن، ومازلت أعتقد أن هناك صلة بين الأداء الجماعى للشعائر والاحتفالات الدرامية التى كانت تقام فى العصور القديمة .

والواقع أن صلوات الجماعة، خاصة صلاة الجمعة وصلاة العيدين، تقوم على طقوس لافتة للنظر، بدءا من التجمع فى صفوف منتظمة إلى التلاوة القرآنية العالية، إلى إطلاق الأذان داخل المسجد كجزء من طقوس الصلاة، إلى التَّلْبيات المختلفة التى يتفوه بها المصلون كلما جاء ذكر النبى عليه الصلاة والسلام، إلى خطبة الجمعة والصلاة خلف إمام نقرأ خلفه ونقلد حركاته .. كل هذا يشبع الرغبة فى التظاهر الجماعى وفى إعادة التوازن . ومن يشارك فى صلاة العيد يجد أن الدور المتصاعد للمصلى يعطى فرصة أكثر اتساعا للمشاركة وللانفعال وللتنفيس عن المشاعر .

وقد ابتكر المسلمون صورا جماعية أخرى كتلاوة الأذكار الجماعية وحفلات الذكر التى يصدح فيها الناى العجيب وينشد المنشد بصوت من نوع خاص . ومازلت أفكر : هل لهذا علاقة بغياب المسرح عن الثقافة العربية التقليدية ؟

❖ ❖ ❖

وعلى الرغم من المصادر المتعددة للثقافة فى ذلك الوقت، إلا أنها - بشكل أو بآخر - كانت تؤدى إلى ترسيخ نظام معين للقيم . ومع أن الدين الإسلامى يلعب دورا أساسيا فيه، إلا أن غالبية المصريين من مسلمين ومسيحيين كانوا يعيشون فى ظل هذا النظام القيمى، ويتأثرون به ويتفاعلون معه، ومن المؤكد أن هذا النظام القيمى كان نتيجة تفاعل المسيحية المصرية والإسلام

المصرى، ولعل المنابع الواحدة للنوازع الدينية كانت تقوم بذلك المزج الغريب بين العقائد المختلفة لتشكل وحدة عامة للشخصية المصرية .

وأحاول أن أتذكر بشكل دقيق الآن، هل كنا نشعر بالمصرية كشىء مستقل عن الأقطار العربية المجاورة . أظن أن «مصر» لم يكن لها هذا المعنى الذى يجعلها مختلفة عن البلاد العربية الأخرى . كنا نحب مكة والمدينة وبغداد ودمشق والقدس وغير ذلك من أسماء المدن التى نعرف، بشكل ما، أن هناك رابطة قوية تربطنا بها . كنا . مسلمين أو مسيحيين . نتطلع دائما إلى بلد آخر حميم، سواء كان فى الجزيرة العربية أو فى فلسطين . وكانت للديانات الثلاث، المسيحية والإسلامية واليهودية، علاقة وثيقة بـ «مصر».

كانت مصر والشام والجزيرة مرتع هذه الحركة بالذهاب والإياب، وكنا حين نقرأ قصة موسى وفرعون وقصة المسيح والعذراء مريم وقصة ماريا القبطية والنبى محمد، وقصة عمرو بن العاص والفتح العربى نعرف أن هذه أشياء تخصنا، وأن هؤلاء الناس جزء أساسى من مجتمعنا، ليسوا قوما غرباء أو زوارا عابرين، كان موسى يخصنا، وكان إبراهيم أبو الأنبياء يتبعنا، وقد تزوج من هاجر المصرية، وكذلك بالطبع كانت مريم العذراء والمسيح والأنبياء، وكان النبى محمد نبينا والصحابة قادتنا، ولم يكن الصبى المصرى يتصور واحدا من هؤلاء مختلفا عن الرجال والنساء الذين يراهم فى الطريق العام .

ولا أظن أن المصرى كان يفكر بالطريقة التى يفكر بها الإنجليزى تجاه القارة الأوروبية حينذاك .. تجاه ألمانيا أو فرنسا مثلا .. ربما بسبب الحروب التى كانت بالأمس القريب، بل وفى الوقت الحالى بين دول هذه القارة . أما فى منطقتنا فكانت الحروب قد انتهت تماما منذ عدة قرون، وما بقى من الذكريات البعيدة لهذه الحروب لا يتعلق بالفكرة القومية التى لم يكن لها وجود فى ذلك الزمان، بل إن هذه الذكريات تتعلق بوحدة الحكم بين هذه الأقطار وتبعيتها بعضها للبعض الآخر تحت إطار مفهوم الجامعة الإسلامية أو حتى الجامعة الشرقية .

وليس هذا أفضل أو أسوأ من الوضع القومى فى أوروبا، فهذه مسألة تتعلق بمجموعة كبيرة من الظروف والملابسات لا تشكل ميزة أو عيبا بالمعنى الأخلاقى . ولعل لها صلة بعملية النضج أو التطور التى حدثت للجماعات البشرية منذ عصر النهضة الأوروبى حتى نشوء القوميات وظهور الطبقات الصناعية الجديدة والقوية .

وحينما أراجع اليوم التصنيفات السياسية للحركات السياسية أو الأحزاب السياسية منذ نشوء الحركة الوطنية فى مصر أقف موقف المتردد أمام كثير من الاجتهادات، مثل فكرة الجامعة الإسلامية التى يقال إن مصطفى كامل كان يدعو إليها فى مواجهة الجامعة الوطنية أو المصرية التى كان يدعو إليها حزب الأمة فى تكويناته الأولى، أيام مقالات لطفى السيد وكتابات قاسم أمين وغيرهما .

إن هذا التقسيم لم يكن محسوسا أو واضحا فى تلك السنوات ما بين الحربين وأثناء الحرب العالمية الثانية، كانت فكرة أننا مسلمون ومصريون فكرة بسيطة ولا تحتاج إلى شرح، وكانت فكرة أن مصر غير تركيا، وأنها فى نفس الوقت مثل سوريا أو الجزيرة العربية أو الشام، وبمعنى أوسع هؤلاء العرب الذين يتكلمون نفس اللغة ويعتقدون نفس الاعتقادات، ويعيشون أيضا بين ظهرانينا، يعيشون حياة تختلف عن الجاليات الأخرى الكثيرة التى كانت تعيش بيننا،

كالأتراك واليوجوسلاف المسلمين أو اليونان، أو الأرمن، وهؤلاء هم «أقرب» الجاليات إلى المصريين . إلا أنهم مع ذلك لم يكونوا فى حكم العرب، ليسوا مثل السورى أو المغربى أو الحجازى أو النجدى أو السودانى .. هؤلاء كان لهم وضع آخر، كانوا جزءا من تكويننا العرقى والحضارى .

بالطبع كان هناك دائما متحمسون للسلطة الأجنبية من أبناء العرب، سواء كانوا مصريين أو شوام، ولكن هذا لا يغير من مجمل الأحاسيس التى كان يشعر بها المصرى البسيط نحو الأنماط السكانية المختلفة داخل المدن المصرية .

وعلى الرغم من أن الشوام المقيمين بـ«مصر» كانوا يتشبهون بالأجانب، إذ كانوا يتعلمون فى مدارس أجنبية، ويتكلمون اللغة الفرنسية، ويزاحمون . على قدر استطاعتهم . الجاليات الأجنبية الأخرى فى الأنشطة التجارية والصناعية الحديثة، إلا أنهم فى الواقع لم يكونوا يختلفون كثيرا عن الطبقات المصرية الغنية التى كانت تتشبه هى الأخرى بالأجانب فى كل شىء حتى فى لغة الحديث داخل البيوت .. فقد كان البعض منهم يحاول أن يبدو أجنبيا .

وإلى جانب هذا كان هناك الشوام الذين يعملون فى المناطق الشعبية فى البقالة أو غيرها، وكان منهم الطلبة فى الأزهر أو فى الجامعات، وكان منهم الكتاب والشعراء الذين نقرأ لهم فى المجلات الثقافية .

وكان المصريون فى القاهرة بشكل خاص، يقولون عن شخص ما أنه «ابن عرب» تمييزا له عن الأجانب، حتى لو كانوا يونانيين أو أرمن بل وأتراكا أيضا . وبالطبع كان «ابن العرب» هذا من الممكن أن يكون مصريا أو سوريا أو عراقيا أو سعوديا أو أى شخص من أبناء الدول العربية المحيطة . بالطبع كان الدين يلعب دورا فى ذلك إذ أن مسيحيى الشام كانوا يفضلون أن يظهروا بمظهر «الخواجات»، وكان نشاط هؤلاء وغيرهم من مسلمى الشام فى الأنشطة التجارية أو الصناعية، وكانوا بالتالى بعيدين عن احتكاكات شخص مثلى يتحرك فى مجال محدود، لا علاقة له تقريبا بالمحلات التجارية الكبرى أو مجتمع المال والصناعة . لكن الفكرة التى كانت مسيطرة على شباب الطبقة الوسطى المصرية بدرجاتها المختلفة هى التقدم، والذى يعنى فى نفس الوقت اللحاق بالغرب .

٣

البحث عن طريق

كنا نشعر ونفهم أيضا أن الغرب هو المسئول عن تدهور أحوالنا الاقتصادية والسياسية المتمثل فى الاحتلال البريطانى، على أننا فى نفس الوقت كنا نعلم أن الغرب متقدم، وأن علينا أن نحتذى به .

بالطبع لم أكن فى سن القراءة الجادة عندما كتب طه حسين كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» سنة ١٩٣٨ والذى حدد هدفا لتعليم المصريين لا حيدة عنه هو أن نقلد الغرب فى إيجابياته بل حتى فى سلبياته، وأننا فضلا عن ذلك ننتمى إلى ثقافة البحر المتوسط وهى ثقافة تكاد تكون أوروبية بشكل كامل تتصل من جذرها المصرى القديم بالثقافة اليونانية والرومانية . وكنت متقبلا لهذا التصور حتى قبل أن أقرأ كتاب طه حسين بعقد كامل من السنين وقبل أن تتاح لى الفرصة لمراجعة المسكوت عنه فى تاريخ مصر منذ القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السابع، أى إلى الفتح الإسلامى فى منتصف القرن تقريبا . نعم عرفنا شيئا ما عن الإسكندر الأكبر وعن كليوباترا بصفة خاصة، وربما قرأنا وشاهدنا مسرحية شوقى «مصرع كليوباترا» ودرسنا فى المدرسة الابتدائية والثانوية عجالات فى التاريخ الفرعونى والحكم اليونانى ثم الرومانى مع شىء من التركيز على تاريخ مصر الإسلامى .

نعم كان هناك شىء من الفصل بين المصرى العادى . والذى قد يكون منحدرا من الأتراك أو المغاربة أو الشوام أو حتى من بعض الأصول الأوروبية . وبين الأجانب، خاصة أغنياء الأجانب الذين كانوا يسكنون فى مناطق بعيدة عن مناطق سُكنى المصريين . وفى مدن الموانئ والتى كانت فيها ثكنات عسكرية . كان الإنجليز يحرصون على تقسيم المدينة إلى قسمين، واحد للإنجليز ومن يسمحون لهم من الجنسيات الأخرى والقسم الباقى لأهالى البلد الأصليين، وبالطبع كانت مدينة الإفرنج نظيفة وجميلة ومنظمة ومستوى المعيشة الاقتصادى والثقافى فيها أعلى كثيرا من الأحياء الشعبية أو البلدية، كما جرت التسمية . على أننا كنا نتطلع دائما إلى هذه المناطق الراقية، وكنا ندخلها بالطبع ونذهب إلى المقاهى والمشارب الأجنبية .

ولكن الأمور لم تكن بهذه الحدة إذ كان الاختلاط مع الأجانب ممكنا، وكانت الطبقة الوسطى المتعلمة مؤمنة بالثقافة الغربية ونمط حياتها، وفى هذه الفترة بالذات كان تعليم اللغات الأجنبية فى توسع مستمر، فمنذ رفاعة الطهطاوى والمصريون يتعلمون اللغة الفرنسية

بصفة خاصة . وكان فى القاهرة وبعض المدن المصرية الأخرى مدارس أجنبية عديدة لتعليم بنات وأبناء هذه الأسر اللغة الفرنسية أو الإنجليزية .

وما من شخصية برزت فى الحياة السياسية أو الاجتماعية إلا وكان أول مؤشرات صعودها هو تعلمها للغة أجنبية، هكذا فعل محمد عبده وسعد زغلول من بعده، فضلا عن أن نظام التعليم الحكومى نفسه كان يتضمن تعليم اللغة الإنجليزية منذ الصف الأول فى المدرسة الابتدائية، أما اللغة الفرنسية فيدرسها الطالب إلى جانب اللغة الإنجليزية منذ الصف الأول الثانوى .

وكان هذا الجنوح الثقافى نحو الغرب يقابله جنوح آخر نحو التمسك بالثقافة الإسلامية التقليدية والحلم بعودة الخلافة التى تخلت عنها تركيا، وكان هذا المفهوم يعتقد أن هناك معركة مستمرة بين العالم المسيحى والعالم المسلم وأن الحروب الصليبية مازالت مستمرة، ولكن تحت عناوين أخرى، وكان يرجع ظاهرة التخلف التى تعيشها المجتمعات العربية والمجتمع المصرى بصفة خاصة إلى تخلى العرب والمصريون منهم عن الإسلام والعمل بشرائع وضعية مخالفة للشريعة الإسلامية وتبلور هذا التيار فى الإخوان المسلمين ودعوتها التى انطلقت منذ سنة ١٩٢٨ .والغريب أن هذه الدعوة لم تشدنى إليها على الرغم من نشأتى الدينية، على أننى كنت أشعر بأن النظام السياسى الذى نعيش فيه نظام فاشل تسيره المصالح الاستعمارية وحلفاؤها، وهو المسئول عن الفقر والتخلف الذى نعيش فيه.

كنت أجلس منصتا إلى أبى وأصدقائه وهم يتحدثون أحاديث السياسة وكانوا غالبا ما يحبون حزب الوفد، ولكنه بشكل ما كان ينقصه . فى رأيهم . شيء مثل الاهتمام بالعدالة الاجتماعية، إذ كانت البطالة متفشية بشكل خطير . وكانت هناك مشكلة شائعة هى الحفاء، إذ كانت نسبة عالية جدا من سكان المدن عدا سكان الريف لا يعرفون أى شكل من أشكال النعال . وكنت أرى فى صغرى أن الناس الذين يسيرون فى الشوارع، كالباعة وصبيان المحلات، يمشون حفاة بأقدام غليظة ومشققة وسوداء بلون التراب والطين الذى يغوصون فيه . كان الفقر مدقعا حقا ولم تكن أمام حزب الوفد حلول ظاهرة، وإن كان هناك حديث شائع فى الصحف عن هذه المشكلة الثلاثية : الفقر والجهل والمرض . ولذلك كان حديث أبى وأصدقائه كثيرا ما كان يجرى حول الثورة الروسية والحل الاشتراكى، وإن كانوا مصدقين للدعايات التى كانت منتشرة آنذاك عن إلحادهم وكفرهم وعن اختلال المفاهيم الأخلاقية عندهم بما يتنافى مع التقاليد الإسلامية .

كنت أصغى لهذه الأحاديث مندهشا وكلى آذان وكان بعضهم يصيح منفعلا بأن هذا الذى يحدث فى روسيا مع كل عيوبه أفضل مما نحن فيه . على أننى ما إن بلغت السادسة عشرة من عمرى، ومع إغراقى فى القراءة، بدأت أستوعب تلك المحادثات التى استمعت إليها صغيرا فى مجالس أبى، ولعلى كنت أتحدث فى هذه الموضوعات مع أصدقائى .

وفى أحد الأيام جاءنا واحد من أصدقائى ونحن نتحادث فى بيت أحدنا، أو فى مقهى لا أذكر، ودعانا لأن نلتقى برجل مهم، يتحدث فى هذه الأمور ويعرض علينا الدخول فى تنظيم سرى معه لتغيير النظام القائم . وبالفعل ذهبنا إلى شقة ذلك الرجل الذى عرفت فيما بعد أنه كان مدرسا للغة العربية فى إحدى المدارس الحكومية، وكان يسكن فى حينا قريبا من منازلنا .

بالفعل صعدنا الدرج ودخلنا شقة من تلك الشقق التى يسكنها أفراد الطبقة الوسطى الصغيرة بأثاثها التقليدى من حجرة الطعام إلى الصالون أو غرفة المسافرين والصور الفوتوغرافية المعلقة على الحائط لرب الأسرة أو لوالده . دخلنا حجرة المسافرين وسرعان ما جاءنا مشروب الضيافة ـ لست أذكر ما إذا كان شايا أو شيئا آخر - ثم راح يحدثنا عن الفساد المنتشر فى البلد وعن ابتعاد الحكومة والشعب عن كتاب الله وسنة رسوله، مما أدى إلى غضب الله وفساد المجتمع . وقال إننا مدعوون إلى الجهاد من أجل الدين ومن أجل الإصلاح . والذى أذكره تماما الآن هو أن الرجل بعد حديث استمر بعض الوقت أطفأ الأنوار بعد أن أمسك بالمصحف القرآنى وطلب أن نضع أكُفَّنا بعضها فوق بعض وفوق كفه، وأن نردد القسم وراءه الذى كان يعنى تعاهدنا على الجهاد وإطاعة أوامر الإمام وممثليه وألا نبخل فى سبيل ذلك بالروح أو بالمال .

ربما كنت فى السادسة عشرة على الأرجح، وكنت مستغربا لهذه الحركة التمثيلية، وكان وعيى بما يدور حولى فى غاية اليقظة، حتى أننى كنت أدور بعينى فى الظلام كأننى أراقب المشهد من كل جوانبه . والواقع أن هذه الحالة المسرحية لم تستطع أن تجذبنى إليها وتجعلنى أندمج فيها . وعندما خرجنا كان تأثير ذلك المشهد علينا مختلفا بين شخص وآخر، ويبدو أننا أصبحنا أعضاء تحت التجربة أو شيئا من هذا القبيل .

لم أحضر الاجتماع الثانى، وأظن أن باقى أصدقائى سرعان ما تخلوا عن هذه التجربة . ولست أذكر بالضبط سبب عزوفى عن الانخراط فى تنظيم الإخوان المسلمين، ولعلى وأصدقائى، كنا معجبين بالخطاب التحديثى الذى كان يصلنا عن طريق بعض كتاب النهضة مثل طه حسين وسلامة موسى وأحمد أمين . وكنت بالفعل قد بدأت أداوم على قراءة مجلة الثقافة، التى يرأس تحريرها أحمد أمين، ويكتب فيها مجموعة كبيرة من الحداثيين، وكان المشروع الحداثى مقنعا إلى حد كبير .

وكنت أقرأ أيضا مجلة «الرسالة» التى كانت ذات منحى يمينى بالقياس إلى مجلة «الثقافة» وإن كانت أكثر احتفاء بالأدب وفنونه، وفى هذا الوقت كنت أبحث عن الكتب المترجمة التى تتحدث عن الاشتراكية والمذاهب المختلفة، وعلى الرغم من قلتها بسبب الرعب الذى كان مسيطرا على الملك وبطانته من اليسار بشكل عام، إلا أنه أثناء الحرب العالمية الثانية وانضمام الاتحاد السوفييتى إلى الحلفاء كان هناك انفراج ما عن بعض الأفكار الاشتراكية . وأذكر أن ما قرأته حينذاك عن الاشتراكية كان من كتابات أعضاء حزب العمال البريطانى، والذى يمكن أن نسميه بالاشتراكية الديمقراطية . وإنى لأعجب الآن كيف بدا لى أن حل مشاكل مجتمعنا هو بالتطبيق الاشتراكى فى حدود فهمى القاصر حينذاك . وشرعت فعلا فى كتابة كتيب عن الاشتراكية وضرورة تطبيقها فى مجتمعنا قرأته على زملائى هؤلاء فبدا أنهم مقتنعون به .

والغالب أن مصر كانت تبحث فى هذا الوقت عن شكل جديد، وأن الخطاب السياسى يشتمل على أكثر من فكرة واتجاه، وأن الكثير من هذه الأفكار شغلتنا نحن الشبان الصغار، مع أننا لم نكن قد فارقنا بعد مرحلة الصبا . والحق أن مجموعة أصدقائى كانوا يفكرون بجدية فى مستقبل بلادهم، ولم يكونوا منعزلين عما يدور فى المجال الثقافى . وقد فكرنا أن

نذهب إلى حزب العمال الذى أنشأه النبيل عباس حليم، الذى كان شخصا غريبا يختلف مع الملك وربما يكرهه بسبب نزاعات متصلة بإرث المال والسلطة بينه وبين أولاد الملك السابق فؤاد ووريثه الملك فاروق . لم تكن محاولتنا الانضمام إلى حزب النبيل عباس حليم عن ثقة فى زعامته، بل حتى نتمكن من إسقاطه وإبعاده عن الحزب . على أننا فى الواقع لم نذهب إلى الحزب ولم ننضم إليه، وربما أدركنا بعد قليل من بزوغ هذه الفكرة مدى ما فيها من خيال وصبيانية .

ربما لأننا كنا نعيش فى هذا المربع الأكثر نشاطا فى مدينة القاهرة، والذى يضم أغلب الوزارات والبرلمان ومراكز الأحزاب والسراى الملكية، ويسكنه الموظفون فى هذه الأماكن، إلى جانب أصحاب الحوانيت وعمال الخدمات المختلفة، جاء اهتمامنا بالثقافة والسياسة، وكان أغلب المشاهير يسكنون فيه من الموسيقيين والمغنيين مثل : أم كلثوم وعبد الوهاب والقصبجى، الذى كنت أراه فى الصباح ببدلته السوداء الكاملة وهو يحمل طبقا فارغا ليشترى الفول المدمس لإفطار الصباح . وعلى مقاهيه كنا نشهد لاعبى كرة القدم المشاهير ونعرفهم بأسمائهم .

وفى هذه الفترة شاهدت أنور السادات فى بداية حياته، على مقهى فى شارع قولة له واجهة تطل على سراى عابدين، إذ كان يقع على ناصية بحيث يرى القصر الذى كان يملأ الميدان من أوله إلى آخره، كان ضابطا فى الجيش برتبة صغيرة، وكنت ألعب كرة القدم فى الشارع، وكنا نستعمل كرة التنس الكاوتش الصغيرة بدلا من كرة القدم الكبيرة وبدلا من كرة الشراب أيضا، وكنا حين نعطش ندخل المقهى لنشرب ونحن نتطلع إلى الجالسين، ومع أن أنور السادات لم يكن معروفا بعد، إلا أننى لاحظته بشكل جيد ولا أذكر حتى الآن السبب فى ذلك، وكان يتطلع إلى السراية سارحا، ولعلى تذكرت هذه الجلسة بعد ذلك حين ظهر أنور السادات مع ثورة يوليو وحمّلتها أكثر مما تحتمل .

بالطبع لمع اسم السادات قبل ذلك مع حادثة اغتيال أمين عثمان واتهامه بالاشتراك فيها، ومع أننى قابلته بعد ذلك فى مقهى عبد الله فى الجيزة، حيث كان يعمل فى سيارات النقل الكبيرة بعد أن فصل من الجيش، وكان ينزل أحيانا ضيفا على زكريا الحجاوى، الذى كان يسكن قريبا من المقهى . وكان يأتى إلى المقهى فى سنة ١٩٤٦ مبكرا قبل أن يصل الجُلاَّس من كبار الأدباء وأساتذة الجامعة الذين أتيت من أجلهم، فأجلس إليه وأتحدث معه وهو يشرب الشاى بصوت مسموع ويدخن سيجارة ويلمع حذاءه، وكان هو الذى يتحدث - على الأغلب - عن رؤيته السياسية التى كانت خليطا من برنامج الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل وحركات الاغتيالات السياسية مثل اليد السوداء . وكان فى حديثه العادى أقرب ما يكون إلى الخطابية والانفعالية، وكنت أجد متعة ما فى الاستماع إليه على الرغم من اختلافى تماما مع الكثير من آرائه .

كان مربع السكن إذن غاصا بالمشاهير، وأذكر أننا كنا نختلس النظر إلى حديقة بيت الشيخ مصطفى عبد الرازق الأستاذ الجامعى المعروف والوزير وشيخ الأزهر بعد ذلك، لنرى الجالسين معه وكان منهم طه حسين، وكان سور الحديقة يصل إلى عنق المارين بجواره فحسب وبغير أن نشرئب كثيرا كنا نستطيع أن نلمح الجالسين، ولكننا كنا نفعل ذلك بسرعة حتى لا نبدو

كالمتطفلين، وكنا بعد ذلك نحاول التعرف على أسماء الجالسين من الصور التى كنا نراها فى المجلات والصحف، وكذلك كنا نمشى بعد الظهر بجوار بيت أو قصر محمد محمود باشا الذى كان رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين، وكان يجلس فى شرفة قريبة من الشارع، بحيث يمكن أن يراه المارون بقليل من الالتفات وهو يشرب شاى العصر ويجالس شخصا أو أشخاصا نحاول بعد أن نخزن صورهم فى أذهاننا أن نتعرف عليهم، لأننا كنا نعرف أن الوقوف والحملقة فى الناس الجالسين لا يتفق وآداب السلوك . ورأينا بهذه الطريقة المشاهير الذين كانوا يجلسون فى بار اللواء . رأينا على عبد الرازق وفكرى أباظة وغيرهما من الكتاب المعروفين .

كانت مثل هذه الأشياء البسيطة تنعشنا، وربما كنا نريد أن نرى رأى العين الأشخاص الذين نقرأ لهم أو عنهم فنعتاد على صورهم الحقيقية، وليس تلك الصور التى نخترعها لهم فى خيالنا داخل هالات من صنع الخيال.

فى هذا الوقت كانت هناك انتخابات برلمانية، وكانت الدائرة الانتخابية التى يقع فيها هذا المربع ذات أهمية خاصة، وكان المرشحون يقيمون صوانات كبيرة تمتلئ بالناس، ويظهر المرشح أو مؤيدوه من الخطباء، ولكننا كنا نسأل عن الصوان الذى سيخطب فيه مكرم عبيد سكرتير عام حزب الوفد، الذى كان خطيبا مفوها بكلماته الفخمة وعباراته المسجوعة وتورياته البلاغية المختلفة . وكذلك كنا نذهب إلى أحمد حسين زعيم مصر الفتاة، الذى كانت خطاباته مليئة بالثورية والجرأة على نقد الحكومات .

على أن الذى لفت نظرى هو رجل بلبس (أوفر أول) ويجول فى الشوارع وهو يحدث الناس عن مصالح العمال وعن الاشتراكية . وكان يرفع على مدخل بيته، الذى كان يقع على ناصية شارع مجلس النواب وعماد الدين من ناحية الناصرية، لافتة باسم فتحى الرملى . . مرشح العمال والاشتراكية، وكان يعقد اجتماعاته الدعائية فى حوش بيته الواسع . وقد دخلت ذات يوم، واقتعدت مقعدا فى مواجهة منصة الخطابة التى راح يتناوب عليها عدد من المتحدثين كانوا مختلفين تماما عن أمثالهم فى صوانات الانتخابات الأخرى، وكانوا يتحدثون عن الاشتراكية بأصوات عادية بعيدة عن الخطابية تماما، وكانوا أشبه بالمعلمين الذين يشرحون لطلابهم قانونا فيزيائيا من فرط حيدتهم وهدوئهم. لعلى سألت جارا لى عنهم فقال بالتتابع هذا لويس عوض، وذاك رمسيس يونان ثم جورج حنين ولطف الله سليمان، ولم أكن أعرف واحدا منهم . ولم يكن لويس عوض الذى أصبح أكثرهم شهرة معروفا على نطاق واسع بعد . على أننى رحت أسأل أسئلة استفزازية ربما لأتغلب على خجلى، وكان فيها شىء من العدوانية مما حير المرشح وأصدقاءه . وفى تلك الأثناء كان من الممكن أن أكون موفدا من جماعة الإخوان المسلمين أو حزب مصر الفتاة لأفسد الندوة، أو من المباحث لأتجسس عليهم، وسرعان ما وجدت شخصا يجلس إلى جوارى ويهمس فى أذنى أن «تفضل» معه لنشرب الشاى فى شقة المرشح ونتجاذب أطراف الحديث . وبالرغم من الطريقة المريبة التى جاءت بها هذه الدعوة إلا أننى صعدت معه ووجدت أكثر من شخص راحوا يحاورونني ويستجوبونني ولعلهم أدركوا أننى مجرد فتى على الأعتاب المبكرة للشباب كثير الأسئلة ومشحون بأفكار غير منظمة أو غير دقيقة . شربت الشاى وعرض على أن أنضم إليهم فى تنظيمهم السرى الذى كان اسمه البراق «العصبة الماركسة». ما إن خرجت والتقيت بعد ذلك بأصحابى حتى قلت لهم ما حدث فطلبوا

أن ينضموا معى، وبالفعل ذهبت إلى فتحى الرملى وأعلنته بما حدث وكونا خلية أو مجموعة معا .

جاءنا مسئولنا ومعه محاضرات مكتوبة على الآلة الكاتبة عرفت بعد ذلك أنها مترجمة عن الدروس التى كتبها "بوليتزير" - وهو أحد الشُّراح الفرنسيين للماركسية - كدروس للعمال فى الحزب الشيوعى الفرنسى، وكانت تتناول النظرية الماركسية فى الفلسفة والاقتصاد والتاريخ وكانت صدمة بالنسبة لى . شعرت بعد عدد من المحاضرات أننى وقعت على ضالتى وأننى أصبحت أخيرا أعرف أسرار الدنيا، وبدأت أتعرف على شىء من التفصيل أكثر . وكانت تأتينا كتب صغيرة مترجمة تشتمل على ما هو أوسع من محاضرات "بوليتزير"، على أننى عرفت بعد ذلك أننى من غير إتقانى للغة أجنبية سوف تكون معرفتى بأدبيات الماركسية قليلة جدا . وهكذا نُصحت بأن أنضم إلى المعهد البريطانى، الذى أنشأه المجلس البريطانى فى الكثير من مدن البلاد الواقعة تحت الاحتلال الإنجليزى أو داخلة فى الـ "كومونويلث"، وكان المعهد يشترط معرفة سابقة باللغة الإنجليزية ولو بدرجة بسيطة . وبالفعل أمضيت حوالى أربع سنوات أدرس اللغة الإنجليزية وآدابها، وهناك التقيت بـ «جونسون ديفز»، الذى كان يدرس لنا الإنجليزية، وكان يعرف شيئا من العربية ومهتما بأدب القصة العربية، وكان يترجم إلى اللغة الإنجليزية بعض هذه القصص . ومرت السنون وإذا بى أعرف أن الرجل قد استقر أخيرا فى مصر وتزوج من مصرية، وأظن أنه مازال حيا يرزق وأنه لعب دورا كبيرا فى ترجمة الأدب العربى، ولعله كان أول من ترجم نجيب محفوظ إلى اللغة الإنجليزية، وأظنه جاوز الثمانين بكثير الآن .

أظن أننى كنت فى الثامنة عشرة من عمرى، وقد ظللت أعمل بحماسة فى التنظيم الذى انضم بعد ذلك إلى الحركة الكبيرة التى أنشأها هنرى كوربيل - وهو ثرى يهودى كان يعيش فى مصر، ويقال إن له أصولا إيطالية - باسم "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى"، وكانت تختصر بأحرفها الأولى «حدتو» . «كان عملى فى الحركة هو تجنيد عناصر جديدة وتدريس الماركسية للخلايا التى أجندها، أو التى تقرر اللجنة الأعلى تكليفى بالمسئولية عنها . وكان للتنظيم نشرة أسبوعية توزع على كل المسئولين تتناول الأخبار السياسية الجارية ورأى التنظيم فيها، وكان علينا أن نشرح ما فيها لأعضاء الخلية، ثم نواصل الدراسة النظرية .

لم يتحقق ذلك إلا بعد أن تمرست بدراسة الماركسية، أى بعد عدة سنوات . وتعرفت فى خلال هذا العمل السرى بعدد من الشخصيات التى برزت بعد ذلك فى الحياة الاجتماعية فى المجتمع المصرى، وارتبطت بصداقات وثيقة مع البعض منهم مثل الدكتور شكرى عياد، الذى كان يكبرنى بخمس أو ست سنوات . فى ذلك الوقت كان يعمل محررا بمجمع اللغة العربية، وكان يحضر للدكتوراه . ولعل الذى وثق صداقتنا هو هوايتنا المشتركة للأدب . كنت حين ذاك بدأت أكتب القصص القصيرة وكان هو كذلك، وكانت له قراءات عميقة وذوق أدبى رفيع المستوى . كنت أقرأ عليه قصصى وأقرأ أيضا قصصه، وكنا نلتقى كل يوم تقريبا، على أنه بعد أن أنهى رسالته للدكتوراه وأظنها كانت عن كتاب الشعر لـ «أرسطو» وترجماته العربية القديمة، عُين مدرسا فى كلية الآداب فى قسم اللغة العربية، ولم يلبث أن لمع نجمه كأستاذ للأدب العربى وأحد النقاد الكبار .

وعندما أصبحت رئيسا لتحرير مجلة «الكاتب» دعوته ليكون عضوا فى مجلس التحرير فقبل وكتب للمجلة مقالات رائعة تتناول أحدث مدارس النقد الأدبى فى العالم، وكان فى هذا

الوقت قد قبل عرضا للتدريس فى الجامعات السعودية . وكنت أخشى أن وضع اسمه على قائمة مجلس التحرير، قد يضره فى وظيفته الجديدة لسمعة المجلة اليسارية، ولكنه وافق على أن يظل اسمه باقيا فى شيء من مغامراته الشجاعة .

وفى الفترة التى كنت أتحدث عنها . أى فى حوالى سنة ١٩٤٨. صرنا أعضاء فى لجنة منطقة شبرا الخيمة فى تنظيم «حدتو» وكانت هذه اللجنة تجتمع فى شبرا الخيمة بعد أن تنهى اجتماعاتنا مع الخلايا المسئولين عنها، وكانت فى أغلبها مشكلة من قيادات العمال فى هذه البلدة العمالية المليئة بالنشاط الصناعى . وكنا بالفعل نملك قوة تأثير كبيرة .

وكنت مسئولا عن خلية تضم ألمع القيادات العمالية . وكنا نجتمع فى بيت واحد منهم لا أذكر إلا الاسم الأول من اسمه الآن وهو محمد، وكان شابا فى الثلاثين من عمره بينما لم أكن قد تجاوزت الثانية والعشرين . وكان رجلا أسمر اللون يرتدى عادة جلبابا أبيض بالغ النظافة، وكان يقابلنى فى شارع معين لنتجه إلى بيته فنمر على المقاهى والدكاكين فيقرأ على الجالسين السلام فأجد حماسة فائقة منهم حتى أنهم كانوا يقفون إجلالا له وردا على تحيته .

وكان رجلا متواضعا وبالغ التهذيب حتى أن مشيته تضطرب خجلا وهو يتلقى هذه الردود التبجيلية والمحبة . أما بيته فكان حجرة فوق سطوح منزل يشبه غيره من البيوت فى هذه المدينة العمالية التى لم تخل من الطابع الريفى، أما بقية السطوح، والذى لم يكن مبلطا، فكان مكنوسا ومرشوشا ونظيفا، وكنت ترى صينية نحاسية لامعة وعليها قلل الماء المغطاة بأغطية نحاسية تبرق كالذهب من فرط العناية . وكانت امرأته شابة وسيمة التقاطيع إلى حد الجمال اللافت للنظر، وكانت هى المسئولة عن كل هذه النظافة والعناية، وكان من الواضح أنها امرأة قوية تمثل أجمل ما فى المنظومة الأخلاقية السائدة فى هذا المجتمع العمالى مثل روح التضامن والأخوة الصادقة وتحمل المشاق . كانت كريمة حتى بشيء من الاندفاع، وكانت شديدة الفطنة والذكاء فضلا عن إحساسها باللياقة فى أعلى درجاتها . كنا نجتمع فى هذه الحجرة الصغيرة نفترش الأرض على حصير نظيف وشلت منجدة بشكل جيد، والبعض يجلس على السرير الوحيد فى الغرفة . كانت تخرج وتتركنا وحين تعد الشاى تطرق الباب ثم تدخل لنا صينية الشاى وتنصرف .

شغلتنى هذه الأسرة الجميلة فى هذه البقعة المليئة بالبؤس والمخاطر . وقد عجبت للأسلوب الراقى الذى يتعامل به محمد مع زوجته، فهو أبعد ما يكون عن سى السيد فى ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة «بين القصرين» وعلى الرغم من احتشامها إلا أنها كانت تحادث ضيوف زوجها كأخوة لها وليسوا رجالا أغرابا ودون خجل مدعى أو محاولة لتغطية الوجه أو الاختباء، وكان واضحا جدا أن بين الرجل وزوجته حبا غير عادى يصل إلى درجة فناء كل منهما فى الآخر، وكنت أرى ذلك فى عيون رفاق الخلية الذين كانوا جميعا من زعماء العمال فى هذه البلدة . وقد عرفت فيما بعد أن هذا الرجل كان يقتسم أجره مع من يتعطل من زملائه أو يصيبه المرض، فضلا عن بذل الجهد من أجل إعادة هذا العامل أو ذاك إلى عمله أو الصلح بينه وبين رئيسه فى أمر من الأمور الجارية عادة بين العمال فى مكان عملهم . وربما كان يُلجأ إليه فى حل المشاكل العائلية بين العمال وزوجاتهم أو أولادهم، وكانت زوجته تلعب دورا فى هذا المجال، وكانت لها . على صغر سنها . كلمة مسموعة فى البلد .

٤

مراجعة فكرية

فى يوم اجتماع خلية شبرا الخيمة فى تنظيم "حدتو" كان قرار تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب قد صدر من الأمم المتحدة، وكان موضع جدل بين الأحزاب السياسية فى مصر وعلى مستوى الحكومات العربية، وكان من رأى المنظمة الموافقة على القرار، وتضمنت النشرة الأسبوعية مقالا طويلا يبرر قبول القرار، ويبدو أننى كنت منضبطا إذ تقبلت هذا الرأى دون معارضة، ولعلى كنت أعتبر قبوله نوعا من تدريب النفس على المفاجآت الفكرية العديدة التى كنت أتعرض لها فى بداية قراءتى للماركسية، والتى كانت تقتلع من عقلى قاعدة فكرية ثابتة، لتحل محلها قاعدة أخرى قد تكون على نقيضها . ورحت بالفعل أشرح المقال وأؤيده بالحجج وفكرة الانفتاح العقلى مسيطرة على كفضيلة من فضائل الرجل المتحرر، وكذلك فكرة التسامح التى يجب أن تتسع للآخر إلى أبعد مدى . على أننى ما كدت أنتهى من شرحى واستدلالاتى حتى اعترضنى محمد . . هذا العامل الهادئ والشديد الحياء وراح يسفه هذا الرأى بقوة وأحيانا بشيء من الخشونة ولكن بحجج بالغة القوة .

كنت الأفندى المثقف والمتسلح بأعظم نظرية فكرية فى العالم والمدرب على التسامح لدرجة تقبُّل العدو، والمنفتح الحداثى الذى لا تخيفه الأفكار الجديدة، ورئيس هذه الخلية على أى حال . وكان أعضاؤها عمالا مازالوا يرتدون الجلابيب ومهما تكن زعامتهم لكل العمال فى المنطقة إلا أنهم مجرد تلاميذ فى بحر النظرية البالغ الاتساع. ربما كان شعورى هذا من الممكن ملاحظته رغم محاولتى لإخفائه أو حتى اقتلاعه، لهذا كان هجوم محمد على فكرة قبول القرار عنيفا ومندفعا كالقذائف النارية فى اتجاه قمعى وإبراز الخطل فى رأيى .

أذكر أننى تحمست لتسفيه رأيه وكنت أعد الحجج المختلفة لذلك . ولكن شيئا ما فى داخلى طلب إلى أن أصغى للرجل، وأن أتفهم حججه جيدا وأن أنزع عن عقلى الغرور والثقة البلهاء فى النفس، وشيئا فشيئا بدأت أتبين الحقيقة .

حقا لم يكن لدى أى عداء ليهود أو لأية ديانة أو عرق آخر، وكنت رافضا بل غاضبا لما فعله النازيون باليهود خلال الحرب العالمية الثانية، ولكن على أى أساس يتم إنشاء دولة لليهود على أرض الفلسطينيين ؟! ثم كيف تقام الدولة على أساس الدين وليس القومية ؟! وكنا أصلا ضد إقامة الدولة الباكستانية على أساس الدين وانفصالها عن الهند الأم . وكنا إلى جانب ذلك لا نعتد بالأساطير والخرافات حتى لو نسب بعضها إلى نص دينى، خاصة التوراة التى كنا نقرؤها

ككتاب فى التاريخ أو فى السير وفى الحكمة أحيانا وفى الشعر فى أحيان أخرى . وكنا كمسلمين نعرف أن النص الدينى المنسوب إلى الله يجب أن يشبه النص القرآنى الذى يتحدث باسم السماء بشكل مباشر . وكانت الماركسية مادية تماما ولا تعتد إلا بما له سند من الواقع والحقيقة المختبرة، فكيف يعتد بنص ما ورد فى كتاب العهد القديم ؟

كنت أصغى إلى محمد هذا وهذه الأفكار تدور فى ذهنى، وكان على أن أمتلك الجرأة على الاعتراف بالخطأ . وبالفعل وضعت النشرة الأسبوعية جانبا وبدأنا نتحاور متحررين من النص التوجيهى الوارد فى النشرة . لم يكن لليهود الذين يعيشون خارج فلسطين أى حق فى انتزاع الأرض من الفلسطينيين ولو كانوا فى بلد آخر غير عربى لما اختلف موقفنا، وكنا نعيش فى ظل الدولة العلمانية التى ليس لها صفة دينية وكان هذا مريحا للطائفتين الأساسيتين اللتين تكونان الشعب المصرى : المسلمين والأقباط إلى جانب أقلية يهودية . فكيف تطالبنا منظمة ماركسية جوهرها الأساسى العلمانية بأن نعتبر الديانة أولا هى قومية فى نفس الوقت، وبالتالى يصبح أية يهودى يعيش فى أى بلد من بلدان العالم له الحق فى أن يهجر بلده ويأتى إلى فلسطين فيطرد شعبها أو يقتسم أرضها غصبا ؟

على أن قرار الأمم المتحدة بالتقسيم كان مشبوها أصلا بسبب هيمنة الدول الخمس الكبرى عليها، وهى المسئولة عن الظاهرة الاستعمارية، التى كنا نعانى منها ونعرف جوانبها الظالمة، ونعيش نتائجها ونعرف عدم عدالتها ومعنى الغصب والقهر فى ممارساتها . وكنا نعرف القرارات المساندة للاستعمار، والتى أصدرتها المنظمة الدولية السابقة بوضع الدول تحت الانتداب، وكل الصيغ الأخرى التى تسمح للدولة الاستعمارية بأن تمارس احتلالها تحت علم عصبة الأمم . وفضلا عن ذلك فليس من سلطة أية منظمة دولية أن تغير فى الواقع التاريخى للدول .

انتصر محمد إذ كان جميع أعضاء الخلية من رأيه وقد انضممت بالفعل إلى هذا الرأى أنا الآخر . وعندما عدت إلى لجنة المنطقة التى كنت عضوا فيها وافقونى على ذلك . وكان من الطبيعى أن نراجع اللجنة المركزية بواسطة المندوب المشارك لنا فى لجنة المنطقة، ولكننا تعرضنا لمجادلات عقيمة مما شككنا فى جدية الحركة وفى تأويلاتها للماركسية . وكان من حقنا أن نتساءل عن معنى أن يكون زعيم المنظمة رجلا يهوديا بالذات، ولعلى فكرت : لو كان الرجل جادا ومخلصا للمبادئ الاشتراكية لخلع نفسه من الزعامة وتركها لرجل من المصريين، ولكنه لم يفعل ذلك أبدا إلى أن اضطر مرغما أن يهاجر إلى إيطاليا أولا، وأن ينخرط فى الحزب الشيوعى الإيطالى، والذى لم يلبث أن اختلف معه وسافر إلى فرنسا ممارسا نشاطه حول قضايا الشرق الأوسط حتى اغتاله شخص ما أو جماعة ما وهو متجه ليركب المصعد إلى شقته فى باريس . وقد صدر عن اغتياله وحياته كتابان أحدهما لمؤلف مصرى والآخر لمؤلف فرنسى، وقد قرأت الكتابين بعد مجادلات شبرا الخيمة بأكثر من أربعين سنة فلم تتبدد شكوكى التى خالجتنى فى تلك الأيام .

بالطبع قدمنا جميعا استقالاتنا بما فى ذلك تنظيم شبرا الخيمة كله وانقطعت صلاتى عن الجميع .

٥

فى عالم الأدب

توثقت علاقتى بشكرى عياد حتى أصبحت صداقة عميقة . كان شكرى ابنا لرجل من أساتذة اللغة العربية من خريجى الأزهر، وأظن أنه بعد وفاته كان مسئولا عن عائلته . وفى هذا الوقت كان يعمل بالمجمع اللغوى، واضطر للبحث عن عمل آخر ليستكمل أعباء مسئولياته العائلية، فوجد عملا فى مجلة كانت جديدة فى هذا الوقت اسمها «مسامرات الجيب»، أصدرها نفس الرجل الذى أصدر «روايات الجيب»، عمر عبد العزيز أمين، منذ ثلاثينيات القرن العشرين، والتى كنا نقرأها صغارا بشغف شديد . وكنت قد بدأت أنشر قصصى فى المجلات . نشرت فى جريدة الكتلة التى أصدرها مكرم عبيد بعد استقالته من الوفد، وكان سبب ذلك بسيطا جدا، فالرجل الذى صار سكرتيرا للجريدة كان هو نفسه رشيد النحال المحامى الذى دعانا منذ خمس أو ست سنوات لحضور احتفال لحزب الأحرار، والذى ألقى فيه شكرى سرحان مونولوجه الحماسى الذى سبق أن أشرت إليه . كان قد ترك الأحرار الدستوريين وانضم إلى حزب مكرم عبيد وبدأ يمارس نشاطه فى إصدار الجريدة، ودعانى للعمل معه . وأذكر أنه تحدد لى راتب قدره عشرون جنيها فى الشهر، وهو مبلغ ضخم حينذاك، لكننى - على ما أذكر - لم أقبض مليما واحدا وإن كنت قد نشرت عددا من القصص والمقالات وأصبحت معروفا بين الكتاب الجدد . ونشرت بعد ذلك فى مجلة «القصة» ومجلة «الفصول».

كنت أقرأ قصصى لشكرى عياد بصفة خاصة، وعندما قرأت عليه آخر قصة طلبها منى ليقدمها لمجلة «مسامرات الجيب» وواعدته أن ألتقى به فى المجلة، وبالفعل ذهبت إلى هناك فوجدته يجلس فى حجرة مع شخص آخر كان هو سكرتير تحرير المجلة، الذى قدمنى إليه باعتبارى مؤلف القصة التى أعطاها له منذ قليل . لم أكن جاوزت الثانية والعشرين بعد، وكنت متهيباً ومتردداً رغم اعتيادى النسبى على الذهاب إلى مقار الصحف والمجلات، على أنى كنت أذهب لأن لى صديقا هناك أحتمى به، ولكن سكرتير التحرير ما إن سمع اسمى حتى صاح : هذا عمل رائع أنت "أندرييف" المصرى[1] .

---

(١) الكاتب المسرحى الروسى ليونيد أندرييف.

وكان استقبالا خطيرا أثلج صدرى، وأذهب اعتيادى خوفى وحذرى، وسرعان ما ربطت بينى وبين هذا الرجل صداقة عميقة استمرت إلى اليوم . وكان هذا الرجل هو محمد عودة الكاتب الواسع الشهرة الآن أمد الله فى عمره .

كانت مصر بعد انتهاء الحرب العالمية تغلى بالرغبات والأنشطة المختلفة، وكان عدد كبير من المثقفين والكتاب يتحدث عن الاشتراكية وعن الحريات وعن الاستقلال . وكنا بالكاد قد خرجنا من المواجهة العسكرية مع «العصابات» الصهيونية بشىء من الفشل وبتبريرات مختلفة كالخيانة والأسلحة الفاسدة، وكان النظام القائم قد بدأ يهتز وأصبحت الثورة على الأبواب .

❖ ❖ ❖

فى جريدة الكتلة تعرفت على عدد من الكتاب فى سنى أو أكبر منى، تعرفت على زكريا الحجاوى ومحمد على ماهر ويوسف الحطاب وآخرين . ويبدو أن المجتمع المصرى كان يغص بهذا النوع من الشباب المهتم بالأدب والسياسة والذى . غالبا . ما كان يبحث عن شىء جديد، وكانوا يظهرون فى الصحف أو التجمعات الحزبية أو الثقافية، وكان الحجاوى وربما محمد على ماهر يسكنان فى الجيزة . وكان الحجاوى رجلا لم يكمل تعليمه ولكنه كان قارئا جيدا وذا ميول أدبية وله شطحات أشبه بحالات المتصوفة التى تتجلى لهم رؤية ربانية ولكنها فى الأدب وليست فى الدين وكثيرا ما كان يبهر صديقه محمد على ماهر الذى كان ينحدر فعلا من أسرة صوفية، وكان أبرز ما أنتجه فى الأدب الإذاعى بعد ذلك هو مسلسل «قصص القرآن» الذى صار من أنجح البرامج الإذاعية، وظل يذاع كل رمضان لسنوات طويلة، وقد انتهى به الأمر بالفعل إلى أن أصبح هو نفسه متصوفا .

كان ماهر مبهورا بزكريا الحجاوى، وأظن أن الرجلين كانا يعملان موظفين إداريين فى مستشفى قصر العينى . وكان زكريا الأكبر سنا والسابق إلى نشر قصصه والحديث عن اكتشافاته الخاصة فى الأدب والفنون والموسيقى بشكل خاص، وكان يضع كتابا عن سيد درويش، الذى كان قد أعيد اكتشافه بعد موته بأكثر من خمسة وعشرين عاما . اصطحبنى الحجاوى إلى المقهى الذى كان يرتاده بالقرب من بيته . وكان مقهى عبد الله مقهى عاديا فى ميدان الجيزة الذى كانت تتوسطه ساعة ميدانية عتيقة، مكونة من قطوع زجاجية للجالسين فى الداخل . وعلى الرصيف الواسع فى الخارج، تمتد صفوف الموائد والكراسى، حيث يجلس غالبية الناس فى شهور السنة فيما عدا شهور الشتاء الباردة . وكان المقهى يضم عددا غير قليل من أساتذة جامعة القاهرة، إذ كان هو أقرب مقهى إلى مقار بيوتهم التى اختاروها بالطبع لتكون قريبة من مبنى الجامعة . والغريب أن هؤلاء الأساتذة كانوا جميعا من كلية الآداب وأقسامها المختلفة . وكانت الصلة بين الأدب والجامعة وثيقة وكان الأساتذة الكبار مثل طه حسين وأمين الخولى وأحمد أمين مازالوا أحياء، وكانوا أدباء قبل أن يكونوا أكاديميين . وحول هؤلاء فى مقهى عبد الله اجتمع الكتاب من جيلهم أو الجيل الذى يليهم، وكنت أنا وافدا جديدا . وكان الناقد أنور المعداوى الذى يكتب مقالا أسبوعيا فى مجلة «الرسالة» رائدا يوميا للمقهى ويجمع حواليه الكثير من الكتاب، وكان أقرب ما يكون إلى المحافظة فى التفكير، وكان فيه شىء من الخشونة والاعتداد بالرأى ويبدو أن أحمد حسن الزيات كان مرتاحا له إذ لاحظت أن

له سيطرة ما على ما ينشر فى المجلة ذات الشهرة الثقافية الواسعة ليس على المستوى المصرى فقط، بل على مستوى العالم العربى كله .

كنت مستمعا فقط فى هذه الندوة الحرة فى أغلب الأحوال، فهنا رأيت الكتاب الذين كنت أعجب بهم وأسعى إلى متابعة مقالاتهم مثل محمد مندور ثم وجدت أن لويس عوض يرتاد المقهى أيضا والشاعر محمود حسن إسماعيل والكاتب السورى سامى الدروبى، الذى لم بعد ذلك وصار سفيرا لسوريا فى القاهرة، ثم وزيرا على ما أعتقد وكان قد ترجم الأعمال الكاملة للكاتب الروسى العظيم "فيدور دستويفسكى" والتى نشرتها هيئة الكتاب المصرية . وكذلك شاهدت على أدهم الذى كانت له كتب رائعة خاصة فى سيرة الشخصيات التاريخية، ولعلى كنت قد أنهيت قراءة كتابه عن الخليفة المنصور وانبهرت به .

هذا على الرغم من أن هؤلاء الكتاب كانوا ذوى نزعات يمينية، وكانت أفكارهم فى الشئون الأخرى تصدمنى، وكان اليمين المطروح ليس راجعا لخلفية واحدة فسامى الدروبى مثلا كان قادما من أفكار القومية العربية التى كانت فى بدايات ظهورها معادية تماما لليسار، وربما كان من مؤسسى حزب البعث العربى فى سوريا، وكذلك الأمر بالنسبة لأنور المعداوى، الذى كان يبغض التفكير الاشتراكى وكان من محبى عباس العقاد، الذى كان قد أصبح أكبر محارب للأفكار الاشتراكية من باب تقديسه لفكرة الحرية الفردية، التى بلورها الفكر اليمينى باعتبارها محور الليبرالية .

وكان هناك الذين قدموا إلى اليمين من الفكر الإسلامى كالإخوان المسلمين . ولكن إلى جانب هؤلاء كان يوجد الكتاب اليساريون أمثال نعمان عاشور، الذى أصبح بعد ذلك من كتاب المسرح المرموقين، وكذلك رشدى صالح، الذى أصدر أول مجلة يسارية فى مصر أو ربما الأشهر «الفجر الجديد» والذى كان أحد مؤسسى علم الفولكلور البارزين . وكان عبد القادر القط قد عاد من بعثته إلى لندن وله ميل إلى اليسار كما تجلى فى جمعية "الفابيين" ثم فى حزب العمال البريطانى، وكان شاعرا رقيقا ينشر شعره فى مجلة «الكاتب المصرى»، التى كان يصدرها طه حسين من شركة يهودية، اتهمت بعد ذلك بأنها كانت جزءا من حملة الدعاية الصهيونية، التى سبقت إعلان الدولة اليهودية بعد صدورها بقليل .

وكذلك رأيت على هذا المقهى الرسام فؤاد كامل وربما رمسيس يونان وكانا متحمسين للحركة السريالية فى الفن التشكيلى، ومن الشبان الصغار فى مثل سنى أو أصغر منى رأيت الشاعر صلاح عبد الصبور والكاتب رجاء النقاش والباحث عبد الجليل حسن الذى زاملنى طوال إصدارى لمجلة «الكاتب» بعد ذلك بأقل قليلا من عشرين سنة واستمر معى إلى أن استقلنا جميعا فى سنة ١٩٧٤ وكذلك القصاص أبو المعاطى أبو النجا والكاتب محمود السعدنى والروائى عبد الرحمن فهمى .

ويبدو أن المجتمع المصرى قد اكتشف أهمية المقهى كمكان للاجتماع وتبادل المعلومات والنقاش بعد الحملة البونابرتية الفرنسية على مصر، إذ سرعان ما امتلأت مدينة القاهرة بالمقاهى باعتبارها مجالس للكتاب والمفكرين والسياسيين، وكان نشاط جمال الدين الأفغانى الأساسى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى المقاهى واجتمع حوله فيها كل الطلائع الفكرية التى كانت وراء الثورة العرابية وفكر النهضة كله .

فى هذا المقهى "الموزاييك" استمعت إلى كل الأفكار التى كانت تشغل المصريين حينذاك، وتعرفت على الحجج والبراهين المختلفة والكتب المتداولة فيما بينهم، وكانت هذه الجلسة أمتع شىء فى حياتى حينذاك، وكانت أيضا اختبارا لمدى عمق ثقافتى الماركسية، ولعلى لا أبالغ حين أقول إنى تعلمت فيها أكثر مما تعلمت فى الجامعة بعد ذلك .

وعلى الرغم من اقتحامى للعمل السياسى وفى مجالاته الخطرة من وقت مبكر إلا أن السياسة لم تستهونى ؟.. كنت محبا للأدب وكنت قد تعلقت بكتابة القصة القصيرة وبدأت بالفعل أنشر هذه القصص، وفى هذا الوقت كان لحزب الوفد جريدة تتحدث باسمه أكثر مما تتحدث به جريدة «المصرى» الشهيرة، وكانت هذه الجريدة هى «صوت الأمة»، التى كانت تصدر من بيت فى المنيرة قريب أيضا من النادى السعدى مقر الحزب . وكانت الجريدة قد قررت أن تصدر مجلة للقصة وأسمتها بالفعل مجلة «القصة»، واختارت لرئاسة تحريرها الشاعر الشهير إبراهيم ناجى، الذى كان طبيبا فى نفس الوقت . كنا نحب شعر ناجى ونعرفه نحن المبتدئين، ولكنى لم أكن أعرف أنه ناقد كبير إلا بعد ذلك بسنوات طويلة، حيث قرأت له دراسات نقدية بالغة العمق وتنطوى على معرفة واسعة بالأدب ونظرياته .

وكانت الدار الصحفية قد اختارت له حجرة جانبية فى حوش واسع داخلها، وكنت قد أنهيت قصة قصيرة منذ قليل وقررت أن آخذها وأذهب إلى الدكتور إبراهيم ناجى، وبالفعل دخلت من بوابة البيت القديم ولا أذكر أنه كان هناك بواب أو حارس وأرشدنى شخص ما إلى حجرة الشاعر فطرقت بابها وسمعت صوت الإذن بالدخول، ففتحت الباب ورأيت رجلا قصيرا أصلع شعر الرأس تماما يجلس إلى مكتب ويتطلع إلى لم يلبث أن دعانى للدخول بشىء من الترحاب أذهب الكثير من اضطرابى، وأشار إلى كرسى إلى جانب المكتب فجلست وهو ينظر إلىّ متطلعا، فقدمت إليه القصة وبدلا من أن يضعها فى درج مكتبه ويعدنى بقراءتها فيما بعد إذ به يفض الأوراق ويشرع فى القراءة، وهو يسألنى عن نوع القهوة التى أشربها ويضغط على جرس فوق مكتبه فأجبته وعيناه على الأوراق، ولم يلبث أن استغرق فى القراءة، وقد تملكنى الاضطراب والخوف فهأنذا أدخل امتحانا قاسيا ووجها لوجه . ولعله لاحظ اضطرابى إذ أنه . وقد خلع طربوشه ووضعه إلى جانبه على المكتب . راح بين وقت وآخر يمسح على رأسه بكفه علامة على الإعجاب، وأظنه لم يفعل ذلك إلا ليطمئننى ويهدئ روعى، على أنه لم يكد ينهى القراءة حتى قام وخرج من وراء مكتبه وهو يعانقنى ويصيح بفرحة : إنى أعطى على القصة جنيها كمكافأة ولكننى سأعطيك ثلاثة جنيهات .

تنفست بارتياح شديد ورحت أتأمل الرجل وهو يحادثنى شارحا أسباب إعجابه بالقصة . كان واسع العينين يتفجر بالحماسة والطيبة، وعلى الرغم من أن الثقافة الماركسية . ربما فى بلاد العالم الثالث . كانت تمنح المتعرف إليها ثقة بالنفس بسبب ما تفتحه أمام دارسيها من مغاليق، وربما كان الانضمام لتنظيم سرى وما فى السرية من معنى الترفع والكتمان على الآخرين، خاصة إذا كان الإنسان فى مقتبل العمر، كل هذا كان ينعكس فى شكل شىء من التعالى وأحيانا الغرور، ولكنك أمام الشاعر العظيم الممتلئ بالعلم والمحبة تصبح سريعا مجرد مريد . وهذا ما حدث لى بالضبط وكنت محبا للشعر حبا شديدا وأصبحنا بالفعل صديقين .

كنت أذهب إلى المجلة لأخرج معه بعد أن ينهى عمله بصرف النظر عما إذا كانت لى قصة أم لا . وكنا نخرج من المنيرة إلى شارع قصر العينى الذى كان مظلما وفارغا تماما من العابرين

لأن أغلب مبانيه كانت حكومية، وكانت الإضاءة فيه ضعيفة، فيتلو آخر ما يكتبه من شعر، وفى هذا الطريق شبه المظلم كنت أصغى إلى صوته وهو يتلو شعره راقصا تقريبا مع وزن الشعر وإيقاعاته، وقد استمعت بصفة خاصة إلى قصيدة «الأطلال» التى غنت أم كلثوم مقاطع منها بعد ذلك بزمن طويل .

كنت مبهورا وكان الشعر بالغ الجمال، وأظن أنه لم ينه النظم مرة واحدة إذ كان يقرأ المقاطع التى انتهى منها، وفى اليوم التالى استمع إلى الجزء التالى حتى إذا أنهى القصيدة . كنا قد خرجنا من شارع قصر العينى المظلم إلى ميدان الإسماعيلية (التحرير) المتوهج بأنوار النيون الباهرة، التى تلمع بالإعلانات المختلفة فوق عمارات الميدان العالية .

كان سعيدا جدا وكنت قد بلغت الذروة فى الاستمتاع بجمال الفن وبالتجربة الرائعة البالغة الحساسية التى ترويها هذه القصيدة، حتى انعقد لسانى وعجزت عن الكلام . وكان على رأس الميدان محل للألبان والأيس كريم يدعى «أسترا» وبجواره محل ساطع الإضاءة يبيع السجاير والشوكولاتة وهدايا مختلفة . توقف إبراهيم ناجى أمام هذا المحل لحظة وكأنه يفكر ثم استأذننى ليدخل . وقفت وأنا مازلت تحت تأثير التجربة الشعرية الرائعة حتى أننى بالكاد تنبهت إلى عودته وإذا به يقدم لى علبة فلما ترددت قال : خذها إننى اشتريتها لك .

كانت علبة أنيقة مبطنة بالقطيفة الزرقاء الجميلة وكان فيها قلم حبر «باركر» الذى كان ثمينا بالنسبة لى . وقال ليشجعنى أو يطمئننى : إنك تستحقه لأنك تحب الشعر .

كنا نعبر ميدان الإسماعيلية (التحرير) وندخل شارع سليمان باشا ونعبر الميدان أيضا لنصل إلى شارع عماد الدين الذى كان معروفا بشارع الفن، إذ كان فيه مسرح الريحانى الشهير وعدد من دور السينما، فضلا عن المقاهى وربما بعض الكباريهات . وفى هذا الشارع، كان عدد من العمارات مبنية على الأسلوب الإيطالى غالبا، وكان إبراهيم ناجى قد استأجر غرفة واسعة فى أحد هذه المبانى لتكون مقرا لجمعية ثقافية أنشأها ضمت مجموعة من تلاميذه ومحبيه من المهتمين بالأدب والفن، وفيها التقيت أول مرة بعدد من الكتاب والشعراء الجدد منهم صلاح حافظ، الذى كان يكتب الشعر فى ذلك الوقت، والذى أصبح كاتبا صحفيا شهيرا بعد ذلك، ومحمد يسرى أحمد وكان يكتب القصة القصيرة، وكان معهما أيضا يوسف إدريس الذى نشر قصة أو قصتين فى مجلة «القصة».

لاحظت بالطبع أن كل هؤلاء كانوا طلبة فى كلية الطب وكان من الطبيعى أن يلتفوا حول الشاعر الشهير ناجى الطبيب أيضا . وكانت الجلسة فى هذه الشقة ممتعة وأقرب ما تكون إلى الجلسة على مقهى عبد الله فى الجيزة التى كانت مناقشاتها جادة وعميقة ومتحمسة أيضا، لدرجة العراك أحيانا . حقا كان فيها جلساء مرحون يتدخلون عندما يحتدم النقاش بنكتة أو قفشة فيعود الهدوء وربما شىء من البهجة واكتشاف فائدة فضيلة التسامح . أما جلسة ناجى فكان يحضرها بعض هواة التمثيل من الممثلات الجدد أو حتى المشهورات، ومع أننى كنت أسمع عن حب ناجى أو إعجابه بممثلة شهيرة هى زوزو حمدى الحكيم وأنه كتب فيها قصيدته «الأطلال» إلا أننى لم أرها فى الجلسات القليلة التى حضرتها، وكنت قد رأيت بعض الفتيات وكان هذا شيئا جميلا وجذابا جدا لى، وإن كنت أشعر بشىء من عدم الارتياح .

هل كنت - رغم ماركسيتى - مازلت ذلك الشاب المتزمت، والذى أتيح له شىء من التواصل الخفى والمستور مع الجنس الآخر، كان يضجره ويحمله بشىء من التأنيب والندم ؟ أو لعلى كنت أتهيب أولئك النساء الجريئات اللائى يثرن غريزة التحدى، أكثر مما يثرن الرغبة أو الحب . على أننى لا أتذكر ما حدث بالضبط بعد ذلك، وكيف انفضت هذه الجلسات، وإن كان يخايلنى أنه لأسباب أمنية، إذ كانت أجهزة الأمن فى ذلك الوقت تعتقد أن المثقفين خطرون على الأمن وأنهم يفكرون فى المذاهب «الهدامة» وأن اجتماعاتهم . مهما يكن ظاهرها . إنما تقصد قلب نظام الحكم .

هل كان توجس الدولة هذا صحيحا؟ يبدو كذلك لأننى كنت فى أغلب الأمكنة التى أتنقل فيها أسمع وأتحدث عن التغيير وعن الثورة، وعندما قرأت بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات، بعد سقوط النظام الملكى، المذكرات والتواريخ أو الأبحاث التى كتبها أصدقاء الملك السابق ومناصروه أو الباحثون فى تاريخه، وجدت أنه كان مضطربا غاية الاضطراب، وكان أخوف ما يخافه هو الثورة الشيوعية، وكان يعتقد أن نهايته مؤكدة وقريبة جدا . ولعله بسبب هذا الاضطراب، كان يمشى كالمنوم نحو هذه النهاية فيرتكب المزيد من الأخطاء والحماقات وكأنه يقرب إليه هذا اليوم الذى يخشاه .

لقد غيرت الحرب العالمية كل شىء فى الدنيا بما فى ذلك الأوضاع فى مصر بطبيعة الحال . كانت الكتب الاشتراكية تدخل مصر أثناء الحرب وبعدها بقليل بسبب تحالف الاتحاد السوفييتى مع الحلفاء . وبعد الحرب كنا نجد كتبا كثيرة، خاصة على أسوار حديقة الأزبكية، ابتداء من ميدان الأوبرا إلى ميدان العتبة الخضراء . وكان أكثر ما نجده الطبعات الرخيصة الإنجليزية مثل سلسلة كتب "بنجوين" أو "بليكان"، التى كانت تباع بنصف قرش، وغالبا ما كانت من متعلقات الجنود الإنجليز الذين تكاثروا فى مصر أثناء الحرب وبعدها، ولعلهم كانوا يلقون بها فى سلال المهملات فيلتقطها الخدم ويبيعونها بقروش قليلة لسور الأزبكية . فعلى السور قرأت لأول مرة ملخصا لكتاب فيليب متى الشهير «تاريخ العرب» وأذكر أنه كان فى حوالى مائتين وخمسين صفحة . وعلى الرغم من اطلاع لا بأس به على هذا التاريخ إلا أنه كان بالنسبة لى رؤية جديدة، بسبب إلمام المؤلف وسعة معلوماته، وإطلالته الأجنبية على هذا التاريخ . ولعلى قرأت على غلاف هذه الطبعة أنه طبع منها للجنود البريطانيين مائتان وخمسون ألف نسخة، فهذه الصورة مازالت فى ذهنى إلى اليوم وقد شغلنى التفكير فى هذه الطريقة المثيرة للتأمل، التى يتبعها الجيش البريطانى لتثقيف جنوده العاديين . كانت الجيوش البريطانية تتحرك على الساحة العربية طوال سنوات الحرب، وكان من الطبيعى أن يتعرفوا على تاريخ وجغرافية المكان الذى يحاربون ويتحركون فيه . وعندما قرأت الكتاب بالكامل بعد ذلك، ربما بأكثر من عشرين عاما، ازداد إعجابى به، لكننى كنت قد قرأت كتبا أخرى قد تكون أكثر تخصصا أو أحدث معرفة مثل كتاب ألبرت حورانى الأخير فى التاريخ العربى، الذى صدر منذ أقل من خمس سنوات، وقبل وفاته بقليل، أو مثل كتاب مونتجمرى وات «محمد النبى» و«محمد رجل الدولة». لكن كتاب فيليب متى ظل جذابا إلى هذه اللحظة .

وكان سور الأزبكية مليئا بالكتب النادرة إذ كان الأجانب الذين عاشوا فى مصر قد بدءوا يغادرونها لأسباب عديدة، لعل أهمها إحساسهم بأن هذا البلد مقبل على تغيير ما، لا يستطيع أحد التنبؤ بصورته القادمة، وكان أكثر ما تخلصوا منه الكتب التى كانت تباع بأغلفتها الفخمة

بقروش قليلة . ولعل أهم ما غيرته الحرب فى مصر هو الجو الثقافى والاهتمام بشئون العالم إلى جانب الشئون المحلية . وكان من الطبيعى أن تهتم كل الشعوب بخريطة العالم التى شرع المنتصرون فى إعادة تشكيلها حسب المصالح ونقاط التوازن التى تتوقف عندها . وكان أهم ما يشغل بالنا فى مصر هو الاستقلال، وأذكر أننى شاركت فى عدد من المظاهرات الكبرى، التى تهتف باستقلال مصر، وفى ميدان الإسماعيلية (التحرير)، حيث كنا قريبين من «قشلاق الإنجليز» سمعت طلقات نار ورأيت الدبابات والمصفحات تخترق جموع المتظاهرين . وفى هذه الفترة حدثت مظاهرات الجامعة المعروفة بمظاهرة كوبرى عباس، التى فتح فيها البوليس الكوبرى فتساقط الطلبة فى النيل وغرق بعضهم حتى الموت .

٦

ابن الطبقة الوسطى الصغيرة

كان العالم مختلفا تماما عما كان عليه قبل الحرب، واتسعت حركات التحرر فى العالم كله، وبدا أن الذى يغير فى الخريطة ليس القوى الكبرى المنتصرة فحسب، بل الشعوب أيضا، وهكذا امتدت المظاهرات والحروب إلى أغلب قارات الأرض . وعلى الرغم من أن الحركة الوطنية المصرية انشغلت بالحروب الإسرائيلية، ثم بإعلان قيام الدولة الإسرائيلية بتأييد واسع من القوى الكبرى . يمينها ويسارها . إلا أن التحرر من الاستعمار الإنجليزى كان هو القضية الكبرى .

وأننى لأتذكر الآن حالة الجيشان التى كانت تنتابنى من ساعة استيقاظى من النوم حتى ساعات الصباح الأولى، كانت النقاشات السياسية لا تتوقف وكان العمال والطلبة قد شكلوا لجنة سموها «لجنة الطلبة والعمال»، وكانت الأحزاب المعارضة . بصفة خاصة . فى أوج نشاطها . كان حزب الوفد باعتباره حزب الأغلبية سريع التأثر باتجاه شبابه وسرعان ما تشكلت الطليعة الوفدية التى كانت ذات طابع يسارى، وبدا أن تركيبة الحزب سوف تتغير . وكان حزب المؤتمر الهندى بزعامة غاندى نموذجا، إلى جانب الحركة الاشتراكية البريطانية التى يمثلها حزب العمال، الذى اكتسح الانتخابات بعد الحرب وأسقط المحافظين بزعامة تشرشل بطل الحرب، وجاء ببرنامج اشتراكى طبق فى كل الميادين بدءا من الصحة إلى التعليم وحقوق العمل للعمال . وكان الذى يعيد تشكيل خريطة العالم عوامل موضوعية لا تستطيع القوى السياسية الكبرى إلا أن تحاول تطويعها بكثير من المرونة حتى لا ينقلب نظام العالم كله.

وفى مصر انشغلت السلطات باحتواء الحالة الثورية وبدأت مفاوضات بين الدولة البريطانية ورئيس وزراء غير شعبى لا يثق فيه الجمهور هو إسماعيل صدقى الذى اعتقل عددا كبيرا من كتاب اليسار كان منهم بعض أصدقائى مثل : نعمان عاشور ورشدى صالح، ومن الكبار أيضا مثل محمد مندور . وسقط صدقى وجاء النقراشى زعيم الحزب السعدى رئيسا

للوزراء وأعد مذكرة جيدة ألقاها فى منظمة الأمم المتحدة، ولكنها لم تحقق شيئا من الناحية العملية . وبالفعل صار لدى غالبية الشعب اعتقاد بأن النضال الخطابى أو القانونى لا ينفع، وينبغى الاتجاه إلى الثورة المسلحة .

وكنت قد بدأت ألاحظ وأفهم أيضا أن حركة التحرر المصرية كانت تعتقد أن المفاوضات واللجوء إلى المؤسسات الدولية والرأى العام العالمى سوف يجعلها تنجح فى إجلاء الجيش الإنجليزى عن مصر وتحقيق الاستقلال، وكان السياسيون - من أيام سعد زغلول - من رجال القانون، وكان أسلوب كفاحهم هو إثبات حق المصريين فى الاستقلال استنادا إلى الحجج القانونية، ويبدو أن ثورة سنة ١٩١٩ كانت قد استهلكت طاقة المصريين على المواجهة العملية والثورة الجماهيرية . و لكن التفكير فى الثورة أصبح بعد حوالى ثلاثين سنة من الثورة السابقة يشغل القوى الشعبية بشكل عام، وأدركت جميع القوى - محليا ودوليا - أن مصر مقبلة على حدث كبير، ولذلك كان اللعب السياسى تحت الأرض منتشرا سواء من القوى الثورية، أو من القوى المحافظة .

وكانت الولايات المتحدة تتطلع إلى مصر منذ الحرب العالمية الثانية، وكثيرا ما كانت تتدخل بشكل أو بآخر إلى جانب القوى الشعبية أو الحكومية، وكان للأمريكان صلة بالملك فاروق نفسه أيام خصامه مع المندوب السامى البريطانى . وكانت تتسرب إلينا أخبار عن جمعيات لها منظور جديد ليبرالى يهتم بالطبقة المصرية المتوسطة ويعول عليها اهتماما كبيرا فى حكم مصر، وكان مفكرو هذه الحركة من الأساتذة الذين أتموا تعليمهم العالى فى أمريكا وسماهم الشارع السياسى بعد ذلك بالنادى الأمريكى . وكان الإنجليز يحاولون بطبيعة الحال مع رجال الأحزاب المصرية الذين عاشوا فى ركابهم، وكانت هناك بالطبع محاولات من المعسكر الاشتراكى والاتحاد السوفييتى بصفة خاصة .

ومع أننى كنت - حتى فى هذه السن المبكرة - أعتقد أن الظروف الموضوعية هى التى تصيغ التغيير وتحدد معالمه وأن تدخل الإرادة البشرية لا يستطيع إلا أن يكون فى المرتبة الثانية، إلا أننى وأصدقائى رحنا نلاحظ أن الإرادة المتدخلة كلما كانت مستندة إلى قوة كبرى بالمعنى الشامل - أى من حيث الاقتصاد أو القوة العسكرية أو النفوذ بشكل عام - كان تأثيرها بالغ الخطورة، وكانت فيما يبدو قادرة على توجيه ما يمكن أن يسمى بالمد الثورى الوجهة التى تريدها، أو على الأقل عرقلة اتجاه هذا المد عن الاتجاه الذى يشكل خطرا على مصالحها . منذ هذا الوقت بدأت نظرية المؤامرة تنتشر . وكانت التحاليل السياسية التى نتداولها قائمة على اكتشاف المؤامرة والتعرف على أهدافها، وهذه الاسترابة ظلت باقية إلى اليوم فى الفكر السياسى فى العالم العربى، وربما فى الكثير من دول العالم الثالث .

ففى هذه الفترة جاء حزب الوفد إلى الحكم وسرعان ما أعلن زعيمه مصطفى النحاس إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وسمح للحركات الفدائية أن تذهب إلى مدن القناة التى كانت المعسكرات البريطانية قد انتقلت إليها تنفيذا لمعاهدة سنة ١٩٣٦ وبدا أن الطليعة الوفدية تلعب دورا فى التأثير على سياسة الحزب الراديكالية بما فى ذلك تغيير القوانين العمالية بما يحقق كسبا فى الاتجاه نحو اليسار، وكنت قد عرفت بعد ذلك أن النحاس باشا وافق الشباب اليساريين الذين تحدثوا إليه عن تحويل الحزب إلى الاشتراكية الديمقراطية، تشبها بحزب العمال البريطانى، وأنه وافقهم على ذلك .

وفى هذا الوقت كان القصر، وربما قوى أخرى يحاولون عزل النحاس وتنصيب فؤاد سراج الدين الذى كان يمثل يمين الحزب، وكان ينحدر من أسرة إقطاعية كبيرة لها هيمنة على آلاف الأفدنة من الأراضى الزراعية، على أن هذا التغيير إلى اليمين كان غير ممكن . ولكن المد الراديكالى توقف بطريقة أخرى وهى إشعال حريق هائل فى القاهرة، ثم قيام انقلاب عسكرى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢بعد ستة أشهر من إشعال هذا الحريق .

لكن كيف كنت أعيش فى تلك الأيام العاصفة ؟

كنت الابن الأكبر لأسرة من الطبقة الوسطى الصغيرة مكونة من عشرة أبناء، خمسة من البنين وخمس من البنات، وكان أبى يملك دكانا لخياطة البدل التى كانت هى ملابس المتعلمين من أبناء الطبقة الوسطى، وهى مهنة تعلمها جيل أبى على أيدى الإيطاليين الذين تخصصوا فى خياطة البدل فى مصر، والتى كانت تستعمل الكلمات الإيطالية فى تفاصيل هذه الصناعة، وكان الزبائن ينتقون القماش من عينات كنت أراها وكان هناك دولاب كبير ذو رفوف تصطف فيها أثواب القماش، فكأن الدكان كان يتجر فى الأقمشة إلى جانب صناعة البدل .

وقد علمت من أبى أن جدى كان من تجار الجملة فى الأقمشة فى مدينة المنصورة، وكانت له وكالة فى سوق الخواجات فى هذه المدينة وكان أبى حريصا على أن يرينى إياها فى تلك المدينة المصرية الجميلة، على الرغم من أنها تحولت إلى مجموعة من الدكاكين تتجر فى أشياء أخرى من زمن بعيد . فقد مات جدى وأبى لم يكد يتجاوز السادسة عشرة من عمره بعد أن هاجر من المنصورة وجاء إلى القاهرة ليعيش وسط أهل زوجته القاهرية، التى كانت ابنة لشيخ جامع السيدة زينب، واشترى بيتين، سكن هو وعائلته فى أحدهما وأجر الثانى لسكان آخرين . ومن المرجح أن هجرة جدى كانت نتيجة لأزمة اقتصادية فى التجارة، ولعلها كانت فى فترة الأزمة التى أثرت على المجتمع المصرى فى سنة ١٩٠٧ وطالت الأرض الزراعية وامتدت إلى الأنشطة الأخرى الاقتصادية .

عندما كنت أقرأ تاريخ قاسم أمين وأراجع مذكرات صديقه الحميم سعد زغلول لاحظت أن الاضطراب المالى الذى عانى منه قاسم أمين كان فى تلك الفترة، وربما خسر فيها شيئا من أراضيه لأنه بدأ يقترض مبالغ كبيرة من صديقه، كما اضطربت أحواله العاطفية أيضا إذ تعلق بمغنية جميلة فى عصره، ثم خاصم سعدًا خصاما كبيرا، ذلك أنه حين وفاة الزعيم مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٨ تصادف أن سار فى الجنازة وبهره الحزن العظيم الذى شمل المصريين جميعا، وانتشر فى كل أرجاء القطر . وكان مصطفى كامل يمثل وجهة نظر أخرى غير وجهة نظر سعد زغلول وقاسم أمين وأصحابهما، إذ كانت فكرة الدولة الدستورية العلمانية مسيطرة عليهما، بينما كان مصطفى كامل محافظا على الجامعة الإسلامية والارتباط بالخلافة العثمانية، الذى يستمد منها الخديو عباس حلمى شرعيته . وكان سعد وقاسم يشتبهان فى أن علاقة مصطفى كامل بالخديو هى من أجل المصلحة وليست من أجل الوطنية . على أن قاسم بعد أن سار فى الجنازة وسط الحشود العارمة وفى حالته العاطفية والمالية المضطربة اجتذبه حزن المصريين الطاغى فغرق معهم فى حزنهم، وفى حب مصطفى كامل الذى فجر فى المصريين هذه العاطفة الجليلة . لعله دخل على سعد فى بيته منهكا من كثرة المشى، ومنفعلا بعواطف زاخرة، مما أغضب سعد للتحول الذى طرأ على صديقه العزيز وجعله ينفعل متحمسا للرجل الذى كانا يسخران منه، أو لا يثقان فيه على الأقل .

ومن المؤكد أن قاسم أفرط فى الدفاع عن وجهة نظره وربما وصل إلى الإساءة لصديقه الحميم الذى قاطعه بعد ذلك . وبالفعل ما إن مضت شهور قليلة حتى اتصلت به زوجة صديقه لتبلغه أنه فى حالة صحية خطرة، وعندما وصل سعد كان قاسم قد توفاه الله، وغرق سعد فى حزن مقيم على أنه بعد قليل حمد الله على أنهما تخاصما هذا الخصام العنيف قبل وفاته «لأنه لولا هذا لكانت روحه قد خرجت مع روحه فى نفس اللحظة».

أتذكر قصة قاسم أمين وسعد زغلول وتاريخها المتصل بسنوات الأزمة الاقتصادية، ولأمر ما رحت أسمح لنفسى بأن أعتقد أن هجرة جدى إلى القاهرة كانت بسبب هذه الأزمة لأنه فقد أغلب تجارته فيها . ومن المنطقى أن أتصور أن هذا الجد قد أرسل ولديه الصغيرين، عمى وأبى الذى كان أصغر أبنائه إلى أصحاب دكاكين البدل الإيطاليين الذين كان يورد لهم الأقمشة الصوفية . لم يعمر جدى طويلا إذ فاجأته أزمة قلبية وتوفاه الله .

عندما وعيت شيئا ما أتذكر دكانا فأخرا كان يقع فى شارع إبراهيم باشا «الجمهورية» كان ملكا لعمى وأبى مليئا بالأثاث الفاخر والمقاعد الجلدية الوثيرة يتصدره «بنك» أو قل طاولة مرتفعة يتم فوقها «قص» البدل ومعاطف الشتاء وفى الجزء الداخلى تقسم الدكان "صندرة" عالية يعمل فيها العمال فى كل مراحل الخياطة حتى تكتمل البدلة أو المعطف . وكان الدكان يقع بجوار قسم عابدين للبوليس، وأمامه سينما تسبقها سينما أخرى هى سينما "رويال" التى أصبحت الآن مسرح الجمهورية .

كانت هذه المنطقة تقع فى القسم الأوروبى وتكون جزءا من وسط مدينة القاهرة، إذ كانت على مرمى حجر من ميدان الأوبرا بحديقته الجميلة وتمثال إبراهيم باشا «أبو إصبع» ومسرح الأوبرا بالغ الأناقة وأمامه عدد من المقاهى ذات الأسماء الفرنسية مثل «كافيه دى لابيه» تشبها بميدان الأوبرا فى باريس ومقاهيه المحيطة بمسرح الأوبرا الفرنسى، والذى يحتوى بالفعل على المقهى الفرنسى الشهير "كافيه دى لابيه" .

وكانت حركة التحديث المصرية تتطلع إلى فرنسا بصفة خاصة، وتتشبه فى عمارتها بل ونمط معيشتها بالحياة الفرنسية بل الباريسية . والواقع أن التأثير الفرنسى ظل مطردا حتى بعد الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ وكانت الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨) ذات تأثير ملحوظ بالفعل، على الرغم من ثورات القاهرة الثلاث الشهيرة ضد الاحتلال الفرنسى، وهو تأثير لم ينقطع، إذ أنه فى الفترة ما بين سنة ١٨٠١و١٨٠٥ كانت مصر تنتقل من مرحلة إلى أخرى .

كانت فكرة الوطنية قد بدأت تشاغل أذهان المثقفين المصريين قياسا على الوطنية الفرنسية والإنجليزية التى كانت هى الرابطة الوحيدة بين سكان البلدين انشقاقا على الرابطة أو الجامعة الدينية .

حقا كانت بذرة الوطنية المصرية مازالت نبتة صغيرة، ومازالت الجامعة الإسلامية مفهوما راسخا إلى حد ما، والرباط بدولة الخلافة قويا وراسخا، ولكنه . فيما يبدو . كان رباطا معنويا أكثر منه رباطا واقعيا، لأن الذى بقى من رابطة التبعية العثمانية كان الهوية الدينية، وقدرا من المال يرسل إلى الآستانة كجزية مقررة على الولاية المصرية، ووالٍ ينصب من قبل مركز الخلافة لا يكاد يفعل شيئا حقيقيا إزاء السلطة الفعلية لأمراء المماليك .

لكن بعد الحملة الفرنسية تغيرت أشياء عديدة أولها انحسار سلطة المماليك الذين فروا أمام جيوش نابليون بونابرت، وطوال السنوات الثلاث التى بقيت فيها الجيوش الفرنسية لم يعد لهم موقع فى السلطة، وأصبح هناك فراغ حقيقى، وكان المجتمع المصرى يغلى بالأفكار والآراء . كان الكثير من المثقفين المصريين قد اختلطوا بالفرنسيين سواء فى المجالس الاستشارية التى عينهم فيها بونابرت أو عن طريق الاحتكاك بأعضاء المجلس العلمى والمثقفين الفرنسيين بشكل عام . وكانت فرنسا ذاتها قد جاءت إلى مصر من قلب حركة انقلابية كبرى فى الفكر والأدب والعلوم . كانت قد أصبحت كيانا دوليا تمتد أبصاره وحواسه إلى العالم كله، كانت عاصمة حضارية حتى بالنسبة لدول أوروبية كثيرة .

على أنه ليس صحيحا فى اعتقادى أن مصر كانت معزولة عن التطورات التى تحدث فى العالم الأوروبى، إذ كانت تحولات عديدة قد لحقت بالمجتمع المصرى . وإننى أصدق وأحترم رأى الأستاذ الإمام محمد عبده، الذى كان يرى أن النظام الإقطاعى المصرى فى طريقه إلى الزوال، إذ كانت الأراضى موزعة على الملتزمين من المماليك، وكانت لهم سلطة الأمير الإقطاعى فى المجتمعات الأوروبية، ولكن ومع مرور الوقت بدأت تتكون مدن صغيرة بين الإقطاعيات - أو قرى الالتزام - وتتوالى الصناعات التى يحتاج إليها سكان الإقطاعيات بما فيها الأمراء، مثل صناعة السروج والأسلحة والنجارة والبناء وغير ذلك من الصناعات، وكانت تقام فى الأسواق وهو بالضبط ما حدث فى أوروبا .

على أن الشيخ محمد عبده لاحظ أن القيادات المصرية بدأت تظهر، وكان بعض القادرين من المصريين قد استطاعوا أن يشاركوا المملوك الإقطاعى فى السلطة بسبب حاجة المماليك بشكل عام إلى قوة عسكرية إضافية لمقاومة الإغارات المختلفة، التى كانت تقع على القرى المصرية من جانب البدو الرحل المحيطين بالوادى، وبسبب الولاءات القبلية أو الأسرية التى كان يتمتع بها رؤساء الأسر المصريون على أقربائهم. وقد ضرب محمد عبده فى سيرة حياته مثلا ببعض هذه القيادات، التى كانت تملك الخيول والسلاح وتخوض المعارك جنبا إلى جنب مع المملوك، وبالتالى تشاركه فى السلطة فيما يختص بجمع الضرائب أو الفصل فى الخصومات أو إصلاح الترع والقنوات .

وكانت التجارة المصرية الخارجية قد عادت إلى شىء من الازدهار، وبالتالى ظهرت قيادات من التجار المصريين كانت تلعب دورا مشاركا فى السلطة إلى جانب مشايخ الأزهر والمثقفين المصريين بشكل عام . ومن الطبيعى أن يتأثر الفكر فى المجتمع المصرى بهذه التحولات الموضوعية على أرض الواقع، وبالفعل أصبحت الدراسات تتجه إلى تخليق فكر يتفق مع الطموحات الجارية وحلول للمشاكل الناتجة عن اتساع التعامل فى الشئون التجارية، ولهذا بدأ الاتجاه إلى التركيز على دراسة الحديث النبوى لسهولة استخلاص النصوص التى تحل المشاكل الناتجة عن النشاط التجارى والصناعى فى التعامل . ودون أن يقرأ الباحث الأمريكى "بيتر جران" ملاحظات الشيخ محمد عبده فى سيرة حياته، ذكر فى أطروحته «الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر» والتى ترجمت إلى اللغة العربية منذ سنوات قليلة، أن دراسة الحديث انتشرت فى هذه الفترة انتشارا واسعا وظهرت اجتهادات عديدة تتفق مع متطلبات المجتمع من تقنين لتسهيل التعامل فى الأنشطة التجارية والصناعية .

ومن هنا فإن ملاحظة الأستاذ الإمام من تحول المجتمع المصرى من الإقطاع إلى الرأسمالية لم تكن قولا مرسلا وغير مدروس . وعندما وصلت الجيوش الفرنسية إلى مصر

كان المجتمع - إلى حد ما - مهيئا لتأمل الفكر الوارد مع الحملة . ولا شك أن الكثير من القيادات المصرية التى شاركت فى المجالس التى ابتدعها الاحتلال الفرنسى صارت لديها تصورات واضحة عن الإصلاحات التى ينبغى أن تحدث لتطوير الأوضاع فى مصر وتحديثها . ولقد انقضت أربع سنوات بين جلاء القوات الفرنسية واستلام محمد على السلطة، لابد أنها كانت مليئة بالمناقشات والتصورات، ولابد أن محمد على أقنع هذه القيادات ببرنامج سياسى وإصلاحى متكامل، خاصة وقد اختار أن ينضم إلى الشعب فى مظاهراته واحتجاجاته على الضرائب، التى كان يفرضها الوالى التركى، ووثق علاقاته بالقيادات الشعبية من تجار وعلماء وحرفيين ومثقفين بشكل عام، وهو الأمر الذى وفر له شعبية واسعة بين غالبية المصريين .

لم تكن مصر فى سبات تام كما أكد الكثير من الباحثين الأجانب والمصريين الذين تناولوا تاريخ مصر الحديث . حقا قد تكون الحملة الفرنسية قد زادت المصريين تنبها للمتغيرات التى تحدث فى مجتمعاتهم وفى العالم، ولكنها لم تبعثهم من موات، وهو أمر ضرورى لاكتشاف التسلسل التاريخى الموضوعى للمجتمع المصرى فى تلك الفترة التاريخية الانقلابية بالغة الأهمية .

والحق أن معرفتنا بحقيقة تاريخنا الحديث كانت محدودة، إذ كان من الصعب على المؤرخين المصريين أن يتناولوا فترة محمد على وما بعدها إلى عهد الملك فاروق بالحياد العلمى، بسبب هيمنة النظام الملكى وحساسيته المفرطة، فضلا عن الافتقار التام إلى أية شفافية معلوماتية فى هذا الزمن . ولذلك عندما صدر كتاب الأستاذ محمود الخفيف عن الثورة العرابية، والذى كان أكثر جرأة وموضوعية من أية دراسة عربية سابقة عليه، قوبل بدهشة وإعجاب شديدين .

على أنه، ومهما يكن تقييم تجربة محمد على، فإن الفترة بين حكم محمد على فى سنة ١٨٠٥ إلى ثورة ٢٣يوليو سنة ١٩٥٢ كانت علمانية، بمعنى الاستناد فى المرجعية القانونية إلى القوانين الوضعية - خاصة فى فرنسا - مع الرجوع إلى الشريعة فيما يختص بالأحوال الشخصية والقليل من القواعد القانونية المستمدة من الشريعة الإسلامية فى بعض المعاملات . وقد نشأنا بالتالى فى مجتمع صار التعليم الأساسى فيه مدنيا أو قل غير دينى، مع أننا كنا ندرس حتى فى المدرسة الابتدائية شيئا من الدين مع حفظ سور من القرآن . أما التعليم الدينى، فقد انحصر فى الأزهر ومعاهده وكلياته، وكان قليلا بالنسبة للتعليم العام .

ولم يكن علينا نحن أبناء القاهرة أن ندخل الكتاتيب أو نحفظ القرآن كله كما يفعل الطفل فى الريف الذى يهيئه أهله للتعليم الأزهرى، وإن كان كثيرون من أبناء الريف الذين أتموا تعليمهم فى المدارس المدنية قد بدءوا بالكتاب الريفى وبمحاولة حفظ القرآن . وعندما أسترجع فترة الطفولة والصبا أجد أننى لم أتعرض لشىء من القلق بين عقيدتى كمسلم وبين الحياة فى مجتمع حديث يتركز تعليمه فى الشئون الدنيوية كالرياضيات والعلوم البحتة . وكان الفصل بين الدين والدولة قد مر بسهولة ويسر، فالتعليم الدينى لم يتوقف فى الأزهر ومؤسساته، بينما سار التعليم المدنى متوازيا معه ودون أى مشاكل منذ البدايات الأولى فى عهد محمد على .

ولاشك أن ثورة سنة ١٩١٩ الوطنية لعبت دورا أساسيا فى شيوع ثقافة جديدة تقوم على فكرة الحرية والمساواة، ليس فى المجال الاجتماعى وحده، إنما مع كل شعوب الأرض بما فيها الشعوب التى جاءت منها النزعة الاستعمارية ومرادفاتها من استعلاء وتمييز وقهر، والتى كان

المصريون يعانون منها وتؤثر على طريقة نظرتهم إلى الأجنبى والمستعمر، باعتبارهما أرفع مستوى وأكثر رقيا .

وكان والدى ابنا من أبناء ثورة ١٩١٩ وقد سار فى مظاهراتها، وكان فى أوائل العشرينيات من عمره عند اندلاعها وكان يحفظ فقرات غير قليلة من خطب سعد زغلول، وكان يروق له أن يلقيها على سمعى وأنا طفل فى السابعة من عمرى، كما لو كان يترنم بقصيدة من الشعر . ولدى اعتقاد بأن هذه الثورة قد غيرت تماما فى الثقافة المصرية وفى معنويات الشعب وطريقة نظرته إلى الحياة، فهى فى الواقع أول انتصار نوعى أو جوهرى فى كل مرحلة التحديث التى بدأتها مصر منذ عهد محمد على إلى يوم حدوثها، إذ انطلقت من فكرة أن المصريين أحرار تماما مثل الشعب الإنجليزى، وأنهم متساوون مع أى شعب آخر فى جميع أنحاء العالم .

وكان من الصعب، إن لم يكن مستحيلا، أن ينطق أى مصرى بعبارة عرابى حين ذهب إلى سراى عابدين بالجيش ووراءه جموع الشعب المصرى ليقول للخديو توفيق : «والله لن نستعبد بعد اليوم». والذى قاله سعد زغلول حين واجه المندوب السامى البريطانى بأن مصر لم تنضج بعد لتطلب الاستقلال وتدير أمورها بنفسها، كان شيئا آخر تماما يقوم على ثقة تامة ودون أى مركب نقص، وهو الذى أطلق شعار «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة».

وعلى أى حال فهذه الثورة هى التى وضعت سلطة الحكومة فى أيدى المصريين لأول مرة، وهى التى أدت إلى تجربة حقيقية فى العمل الديمقراطى، على الرغم من المحاولات التى لم تتوقف من أجل احتواء الديمقراطية وتفريغها من محتواها سواء من جانب سلطات القصر والقوى المحافظة والرجعية أو من الاستعمار بطبيعة الحال .

ومع أننى ولدت بعد هذه الثورة بأكثر من سبعة أعوام إلا أننى تربيت فى حجر والدين كانا يؤمنان بعظمة أرومتهما، وكانت الاكتشافات الفرعونية قد ملأت أسماع الدنيا . وكانت أصداء اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون مازالت تتردد على الأسماع فى كل أرجاء الأرض . وكان التاريخ الفرعونى قد بدأ يتكلم بعد أن أنطق شامبليون الفرنسى اللغة المصرية القديمة . أما من ناحية المواطنة فكانت فكرة الوطنية المصرية تتألق يوما وراء يوم، وكان اكتشاف المصريين لمصريتهم شيئا مبهجا، وكانت ألحان سيد درويش مازالت تتردد على أسماعهم : «أنا المصرى كريم العنصرين». حقا كانت هذه الصيحة تحديا للإذلال الذى كانوا يعانونه بسبب الاحتلال والسلطات الديكتاتورية للقصر ورجاله، ولكنها كانت بداية أولية للتعبير عن حس المواطنة والاعتزاز بها، الذى راح يزداد نضوجا بعد ذلك .

وبالنسبة لصبى مثلى لم تكن لدى عقد من أى نوع، خاصة من حيث الانتماء . وكانت تبهرنى الأغانى الوطنية وكنت أنفعل حتى يقشعر جسمى حين أسمع نشيد أم كلثوم «يا شباب النيل يا عماد الجيل «دعك من نشيد «بلادى بلادى فداكى دمى».

ومع أن أسرتنا بدأت تعانى من انتكاسات اقتصادية، ورحنا نصعد ونهبط نتيجة مؤثرات عديدة، مثل الأزمة الاقتصادية العالمية فى ثلاثينيات القرن العشرين، ومرحلة كساد طويلة استمرت حتى اشتعال الحرب العالمية الثانية، إلا أننى لم أنتبه تماما إلا حين عجز أبى عن أن يُلحقنى بالمدرسة الثانوية، ليس بسبب نقص المال لديه فقط، بل بسبب انشغاله فى مواجهة عمليات «التفليسة» التى كنت أسمع عنها دون أن أفهم شيئا، وأرى رجالا من كل نوع يفدون على منزلنا وأسمع ألفاظا مثل الكمبيالة والبروتستو والسنديك، وكلاما عن القضايا والمحامين.

وفى لحظة من اللحظات ظننت أن أبى قد نسينى تماما ووجدت نفسى قعيد البيت ولم يكن أمامى إلا أن أسلى وقتى بالقراءة، وكانت أمى قارئة جيدة ولعل جدى كان يعدها لتصبح مدرسة ولكنه زوجها وهى فى الثامنة عشرة من عمرها على أنها فيما يبدو ظلت على ولعها بالقراءة إلى آخر يوم فى حياتها . وجدت فى البيت روايات وقصصا مترجمة . وجدت ألف ليلة بأجزائها جميعا ووجدت القصص الشعبية مثل «الأميرة ذات الهمة» و «عنترة بن شداد» و«تغريبة بنى هلال» و«الظاهر بيبرس» وروايات مصطفى لطفى المنفلوطى وكتب مصطفى صادق الرافعى وربما بعض المجلات المصورة أيضا .

وعندما بدأت الدراسة فى المدارس واختفى أصدقائى وزملاء الدراسة فى مدارسهم لم يكن أمامى إلا أن أجلس فى بيتى وأضيع الوقت فى القراءة، وعندما أجهزت على كتب البيت، رحت أسطو على مكتبة جدى لأمى وهى مكتبة تقليدية بمعنى الكلمة، وكانت تحتوى على كتب أى طالب أزهرى سابق، لديه شىء من الرغبة فى التثقيف الدينى، بما فى ذلك الأبعاد الفلسفية والأدبية .

بالطبع رحت أنتقى الكتب السهلة إذ لم أكن قد بلغت الثانية عشرة من عمرى بعد، فقرأت "الأغانى" بكل أجزائها، ثم "العقد الفريد" ثم "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، الذى أمتعنى كثيرا، إذ كان يتحدث عن أجيال الشعراء من الجاهلية إلى صدر الإسلام، وكان يدلى برأيه النقدى فى شعر الشاعر مقارنا بأقرانه من معاصريه أو سابقيه أو لاحقيه، ثم كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ .

وربما بدأت أعرف دار الكتب فى نفس الوقت، إذ كانت قريبة من منزلنا ورحت أتردد عليها بين وقت وآخر حتى ألفنى موظفوها وراحوا يسمحون لى بالاستعارة، على أننى اكتشفت أننى أسعد بالقراءة داخل المكتبة ذاتها، إذ كان فيها مكان رائع بالنسبة لى، حيث يجلس القارئ إلى طاولة أنيقة وممتدة تضع عليها الكتب وأدواتك الأخرى وتشرع فى القراءة .

وفى الأيام الصيفية كان الجو الداخلى رطبا منعشا وكنت أظل جالسا منكبا على القراءة حتى ينتهى النهار دون أن أتناول شيئا من الطعام ثم أعود إلى بيتى . ولم أكن ألعب مع لداتى إلا فى الإجازة الصيفية بعد أن ينهى أصدقائى السنة الدراسية .

وكنت مهووسا بكرة القدم، على أننا كنا نتحادث فى موضوعات كثيرة، وكنت أريد أن أعرف ماذا يدرسون، وكان يغيظنى كثيرا إلمامهم برياضيات الثانوى التى كانت مشتملة على الجبر والهندسة والتفاضل والتكامل وغير ذلك من المواد الرياضية، والتى لم أكن أعرف عنها شيئا، والتى كان من المستحيل علىَّ أن أفهمها وحدى دون مساعدة من مدرس أو شخص أكبر منى ملم بها . وكذلك الأمر بالنسبة للغة الفرنسية التى كانت اللغة الأوروبية الثانية، إذ كنا ندرس اللغة الإنجليزية من الصف الأول الابتدائى . وأذكر أننى قرأت فى المدرسة روايتى »روبنسون كروزو" و"السندباد البحرى «بالإنجليزية وأنا فى السنة الرابعة أو الثالثة، كانت مبسطة بالطبع ولكنها كانت سهلة وممتعة إلى جانب غيرها من الروايات الإنجليزية .

كنت محبا للرياضيات أو قل للحساب، وربما كنت الأول على الفصل فى مادة الحساب بصفة خاصة، وكنت أجد متعة فى حل مسائله، ولعلى لذلك كنت غاضبا من نفسى لأننى لم أمض فى بحر الرياضيات الذى راح يسبح فيه زملائى السابقون الأقل منى موهبة .

٧

دراسة الحقوق

كنت قد بدأت أكتشف أن المجتمع لا يقدم لمواطنيه أية مساعدة، وأنه لا يوجد تكافؤ للفرص بين أبنائه، بل لا توجد عناية حقيقية بمصائر أبنائه . وكان أبى، بسبب تعثره فى عمله، دائم السخط والحديث عن نظام جديد تلعب فيه الحكومة فيه دورا اجتماعيا أكبر مما تلعبه فى هذا النظام السياسى البالغ القسوة . كان قد ترك دكانه الفخم وافتتح دكانا أقل منه فخامة . وكنت فى فترة البطالة التى قضيتها مرغما فى البيت آخذ كتابا وأذهب إلى دكان أبى فأجلس فى ركن منه وأشرع فى القراءة . وفى هذه الأثناء كان الزبائن يأتون ويذهبون، وكذلك أصدقاء أبى، وأستمع إلى أحاديث مختلفة حول الحياة بشكل عام . وكان لنا قريب يدعى حسن أفندى توفيق، يمر على أبى ويجالسه، ويتحدثان فى موضوعات كثيرة سياسية وغير سياسية . وكنت أسمع حسن أفندى توفيق يتحدث عن ابن له ترك الجامعة وهو فى الصف الثالث، وسافر إلى إنجلترا لتعلم التمثيل، وكان يسميه «الولد البايظ» وكان فى حديثه رنة إشفاق وحنين غريب، حتى أنى كنت أرفع عينى عن الكتاب وأتفرس فى ملامحه وهو يتحدث عن ولده بصوت ترتعش نبراته حبا أو اشتياقا .

وكان حسن أفندى توفيق رجلا أنيقا يلبس البدلة الكاملة بالصديرى والطربوش، ويمسك بمنشة يذب بها الذباب، وكنت أنظر إلى سلسلة الساعة الذهبية التى تتدلى من جيب صديريته، وحذائه ذى الرقبة، والذى لم يستطع تراب الشارع أن يغطى على نظافته ولمعانه. وكان الرجل مهووسا بقضية تتعلق بالأسرة، تزعم أن الأسرة تملك ميدان عابدين بمقتضى وثائق معينة كحجة الوقف أو غير ذلك . وكان منشغلا بهذه القضية ويمر على كل الورثة أو المستحقين ليأخذ من كل منهم جنيها لمصاريف القضية، وكان يأتى لأبى ليحصّل منه هذا الجنيه الذى كان بالغ الندرة فى ذلك الوقت مما يغضب أبى أحيانا، وكانت ثقة حسن أفندى توفيق فى أحقية الأسرة للميدان تثير دهشتى وتجعلنى أحلم معه بهذه الثروة الهائلة .

ومضت سنون طويلة وكنت قد بدأت أكتب للإذاعة تمثيليات وأثناء العدوان الثلاثى على مصر فى سنة ١٩٥٦ ثار المصريون العاملون فى إذاعة الـ «بى بى سى» اللندنية وقدموا استقالاتهم وعادوا إلى مصر التى ألحقتهم بوظائف شبيهة بوظائفهم السابقة فى الإذاعة المصرية، وكان منهم عدد من الموهوبين مثل محمود مرسى ومحمد توفيق وصلاح عز الدين

وآخرون . وفى أحد الأيام، وأثناء تواجدى بالإذاعة فى غرفة المخرجين، وجدت محمد توفيق يمسك بذراعى قائلا : تعال هنا لماذا لا تكتب لى ؟ ألا تعلم أن جدتك وجدتى شقيقتان وأنهما مدفونتان فى مقبرة واحدة وحملق فىَّ بعينين فيهما غضب ظريف، وعندئذ قفزت إلى ذهنى صورة حسن أفندى توفيق وهو يحكى لأبى عن ولده البايظ الذى ترك الجامعة وذهب إلى إنجلترا . فقلت له والكلمات تنطلق من فمى بسرعة «أنت الولد البايظ ؟». ورحنا نحن والزملاء الآخرين ننطلق ضاحكين خاصة بعد شرح القصة. وكان قد مضى على حديث الأب الوائه ما يقرب من عشرين عاما ولعله حينذاك كان قد توفاه الله .

ظللت هكذا أتردد على دكان أبى قارئا . ويبدو أننى لم أكن مهيأً للتدريب على أعمال الخياطة، أو أن أبى لم يكن متحمسا لذلك . ومع هذا، ليس من المعقول أنه لم يفكر فى مستقبلى، ولكنه كان حائرا . وكنت أذهب إليه أحيانا فى يوم إجازته إلى المقهى، وكان يقع قريبا من بيتنا فى حى الحنفى، وهو حى قديم يقع بين حى عابدين وحى السيدة زينب، وغالبا ما كان مركزا من مراكز المدينة القديمة، إذ ولد فى أحد بيوته الشاعر أحمد شوقى، كما كان الشاعر أحمد رامى يعيش فيه . وكثيرا ما كان يمر بالمقهى فيتناول فنجانا من القهوة مع الجالسين به . ويبدو أنه كان من عادة سكان هذه الأحياء القديمة أن يتزاور كبارهم مع صغارهم، وأن يحاولوا التواصل . لذلك كثيرا ما كان رامى يجالس بعض الرواد، وكان أبى واحدا منهم .

كنت بالكاد قد تركت المدرسة، ولعل أبى حاول أن يأخذ رأى رامى فى شأن مستقبلى، إذ نظر إلىّ رامى قليلا ثم قال : لماذا لا تجعله يشتغل جروما فى السراى الملكية ؟

عرفت بعد ذلك أن الجروم هذا ينبغى أن يكون صبيا فى مثل سنى، أى فى حوالى الثانية عشرة من عمره . وأنهم يلبسونه بدلة موشاة بالقصب وحذاء لامعا مع طربوش أنيق، وأن مهمته . عند توقف السيارة الملكية . أن ينزل ويفتح باب الأميرة أو الأمير . وأنه فى أثناء عمله يدرب على السواقة ليصبح من سائقى السراى . ولعل رامى قال لأبى إن مرتب هذه الوظيفة ستة جنيهات كاملة . كانت حالة أبى متدهورة تماما إذ كنا فى قلب الأزمة . ويبدو أن مبلغ ستة جنيهات كان كبيرا جدا لدرجة أنه أسال لعاب أبى . ذلك أن الشاعر وعد أبى أن يتدخل للتوصية على تعيينى . وما إن عدنا إلى البيت حتى راح أبى يزف الخبر إلى أمى . ولكنها بدلا من الترحيب راحت تهاجم الفكرة ثم انفعلت غاضبة معاتبة أبى : ألا تعرف أن هذا عمل الخدم ؟ كيف تريد لابنى أن يكون خادما ؟ بالطبع حاول أن يقنعها بمستقبل هذه الوظيفة، وأن سائق الملك الحالى يحمل لقب البكوية، و كان خصاما عنيفا انتهى بإغلاق الموضوع بشكل نهائى .

وعندما أحاول استرجاع هذا المشهد أرى أننى كنت متفقا مع أمى إلى حد ما لأننى فى الحقيقة سرحت فى أمر الستة جنيهات واستمتعت بتخيل هذا المبلغ وهو يدخل إلى جيبى كل شهر . وبعد قليل من هذه الواقعة الغريبة، ظهر قريب لنا كان موظفا فى المطبعة الأميرية فاقترح أن أقدم للمطبعة كعامل تحت التدريب ولا أذكر كم عرض من أجر حينذاك لكنه كان مبلغا زهيدا جدا، من ناحيتى كنت سعيدا بهذه الفكرة فهأنذا سأتعامل مع الحروف، ولم تعترض أمى . ولكن الرجل لأمر ما لم يوفق، وهنا كفت الأسرة عن التفكير فى مستقبلى بل لعلها لم تلحظ حتى وجودى بسبب المشاكل التى راحت تتراكم كثيرا .

على أننى منذ تبطلت من المدرسة فى سن الحادية عشرة لم أشعر بأى ملل . كانت القراءة اكتشافى الأكبر وكانت الصلاة والإغراق فى التدين قد سيطرا على . وكان أمامى أشياء كثيرة أريد أن أعرفها، وفى هذه الفترة والتى استغرقت أربع سنوات على الأقل، كنت أتلقى دروس العصر والمغرب فى الجامع القريب من بيتنا والتى حولتها أسئلتى إلى التاريخ والفلسفة . وفى أحد الأيام، وأنا جالس أقرأ فى مقعدى بدكان أبى، ظهر جارنا فى المنزل التى تقع الدكان تحته، واقترح على أبى أن يأخذنى إلى مكتب المحاماة الذى يعمل فيه ليعلمنى الكتابة على الآلة الكاتبة، وأنى سأحصل على مبلغ جيد . وبالفعل أخذنى إلى مكتب المحامى عبد الرحمن البيلى، الذى كان فى هذا الوقت من كبار المحامين وعضوا فى مجلس النواب ثم صار وزيرا للمالية بعد ذلك، وهناك تدربت على الكتابة على الآلة الكاتبة حتى أجدتها بالفعل، وأظن أنى أعطيت ثلاثة جنيهات مرتبا شهريا . وفى هذا المكتب، شاهدت المشاهير من رجال السياسة ورحت أقلب فى كتب القانون ولكنى أذكر أن اهتمامى تركز على محاضر جلسات مجلس النواب، إذ كنت أتسلى بها عندما يتركوننى وحدى فى المكتب نهارا .

كان البيلى يملك شيئا من الأطيان الزراعية، إذ كان كل أبناء الطبقة الوسطى يقيمون حياتهم على ملكية الأرض الزراعية، وكان من أبناء قرية أو مركز فى الدقهلية، وتعلم فى كلية الحقوق المصرية، وعلى الرغم من اشتغاله بالمحاماة ونجاحه فيها، إلا أن اهتمامه الأساسى كان السياسة وكان منتميا إلى الحزب السعدى فيما أذكر، وهو الحزب الذى كونه منشقون عن حزب الوفد بزعامة أحمد ماهر والنقراشى، ولم يلبث أن أصبح من أحزاب الأقلية تستعمله سلطة القصر والسفارة البريطانية فى مناوئة حزب الوفد . ولم أستفد من هذه الفترة إلا من اقترابى من هذه الشريحة العليا من الطبقة الوسطى وفهم أساليبها وطرق تفكيرها وطموحاتها السياسية . ولا أتذكر أنها ألهمتنى شيئا إلا تلك المعرفة المباشرة لهذا النوع من الناس .

وبدأت أتقلب فى عدة وظائف هنا وهناك حتى عملت أخيرا فى شركة للتأمين فى سنة ١٩٤٧ ، غالبا مساعدا لمحام أجنبى، كان عليه أن يحرر عقود الرهن التأمينى لزبائن هذه الشركة . وكان نظام الشهر العقارى أو التسجيل قد انتقل من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية وفقا لمعاهدة سنة ١٩٣٦ التى تنص على تعريب كل شىء . وكان على أن أتفهم تفاصيل الموضوع وشروط الرهن وأصوغ العقد باللغة العربية قياسا على نموذج منقول عن الفرنسية . وكان مرتبى قد قفز إلى خمسة وعشرين جنيها، وهو مبلغ كبير جدا بالقياس إلى هذا الوقت .

فى ذلك الوقت كانت مصر تنتقل من الناحية الرسمية والفعلية إلى استكمال استقلالها، من اعتبار اللغة العربية هى اللغة الرسمية إلى إلغاء نظام الامتيازات والمحاكم المختلطة ونقل المعسكرات الإنجليزية من القاهرة والمدن الأخرى إلى مدن القناة، وكنت أرى بوضوح أن تغييرا أساسيا يحدث إذ كانت مصر ممتلئة بنوع من الناس كنا نسميهم المتمصرين وهم طوائف وردوا على مصر من أماكن عديدة بعضهم كان من قلب الإمبراطورية العثمانية السابقة وبعضهم من مسيحيى البلاد العربية، وكان هؤلاء - لعدم انشغالهم بالقضية الوطنية - ميالين لأن يقلدوا فى حياتهم الغربيين، وكانوا يسكنون فى المناطق التى يعيش فيها الأجانب ويتحدثون الفرنسية كلغة أم أو الإنجليزية للقليل منهم، وكان معاشهم على الخدمات التى يؤدونها للشركات الكبرى الأجنبية أو فى مجال التقاضى كالمحامين أو الخدمات الأخرى، وكانوا متحمسين بطبيعة الحال للحياة الأوروبية قلبا وقالبا ويشكلون مجتمعا يكاد يكون مستقلا، يجمع بعض أبناء الطبقة

الوسطى المصرية الذين تعلمت بناتهم وأولادهم فى مدارس "الفرير" أو "الليسيه" أو "الميردى دييه" أو "فيكتوريا كولدج" أو "الأمريكان"، وهى البيئة التى نشأ فيها إدوارد سعيد فى القاهرة وكثيرون غيره من الشخصيات التى برزت فى الحياة الفنية بعد ذلك بصفة خاصة . وعلى الرغم من أن مواقفهم السياسية كانت يمينية إلى حد كبير إلا أن بعضهم كان فى أقصى اليسار وفى هذه البيئة نشأت الموجة الثانية للحركة الشيوعية فى أربعينيات القرن الماضى كما نشأت حركات أدبية وثقافية وفنية . . فالحركة السريالية فى الرسم والشعر كان بعض مؤسسيها من المصريين مثل جورج حنين، وهو شاعر يكتب بالفرنسية من أب مصرى صعيدى وأم إيطالية، على ما أظن، وقد أصبح بعد ذلك من كتاب اللغة الفرنسية المرموقين المدافعين عن الحركة الوطنية المصرية والحركات الوطنية العربية بشكل عام، والجزائر بصفة خاصة، وتزوج من حفيدة أمير الشعراء أحمد شوقى، وكذلك لطف الله سليمان، إلى جانب مصريى «خُلّص» إن صحت العبارة، مثل رمسيس يونان وألبير قصيرى، وغيرهما كثيرون . وفى هذه البؤرة الثقافية الحداثية كان طه حسين قوة الجذب الأساسية فى داخلها .

ولعبت الجامعة دورا أساسيا فى خلق هذه الشريحة المصرية المتأوربة . والواقع أن حركة التحديث كانت تشمل شرائح متعددة منهم هؤلاء المصريون المثقفون بثقافة أجنبية ومنهم التيار المتقدم فيما بين المتمصرين . وفى هذه الفترة، وجدتنى بين هذه الشرائح مع صديقى كامل زهيرى، الذى عرفته مبكرا ونحن صغار، وكان ابنا لأحد تجار الجلود فى المدابغ، وكذلك لطفى الخولى، وآخرون من أبناء جيلى .

حقا شعر المصريون منذ سنة ١٩٤٦، التى بدأ فيها تنفيذ باقى الشروط فى معاهدة سنة ١٩٣٦ بالحرية . وبدأ المجتمع المصرى يتخفف من التعلق باللغات الأوروبية الأخرى، خاصة اللغة الفرنسية، التى أصبحت لغة الشرائح الجديدة من الطبقة الوسطى فى فترة ما بين الحربين .

كانت أوضاعى الاقتصادية قد تحسنت وبدأت المجلات تنشر لى، ولكن العائدات كانت بسيطة جدا بالقياس إلى دخلى الآخر، وكان تركيزى كله فى الأدب . وكنت أنوى كتابة رواية واقعية تحكى عن حياة الناس فى حوارى مصر، عندما وجدت فى نافذة العرض فى مكتبة فتحت حديثا فى ميدان الأوبرا غلافا لرواية بعنوان «زقاق المدق» بقلم نجيب محفوظ عبد العزيز، دخلت على الفور واقتنيت نسخة، وما إن فرغت منها حتى فوجئت بأن ما أقرأه هو قريب إلى حد كبير من الذى كنت أفكر فيه وأصمم بنيانه وبهندسة بالغة الإحكام، ولم أتردد فى أن أعتبر الرواية حدثا جديدا فى عمر الرواية المصرية والعربية القصير . فى هذا الوقت كنت قد تعرفت على عادل كامل الذى كان يعمل محاميا وكتب عدة روايات، أذكر منها "مليم الأكبر"، و "ملك من شعاع"، وعندما قابلته بعد قراءتى لزقاق المدق بادرته بالحديث عنها كما لو كانت اكتشافا . والحق أنى كنت قد قرأت بعض القصص القصيرة لنجيب محفوظ فى مجلة "الرسالة"، ولم يلفت نظرى كثيرا ربما لأنه كان يهندسها بشكل واضح وكان - وربما لا يزال - فى القصة القصيرة قرابة ما بالشعر أو قل بالعفوية تنفر من الهندسة المحسوبة بدقة، وكانت له قصة جميلة اسمها «همس الجنون» وأظنها كانت عنوانا لأول مجموعة قصصية له، إلا أن نقاده فى هذا الوقت قالوا إنه بهذه القصة قد عقلن الجنون وهى مفارقة مضحكة بغير شك .

قلت لعادل كامل إن قصة «زقاق المدق» أعظم رواية عربية قرأتها فقال لى، وهو يتفحصنى جيدا : هل هى أعظم من قصة «عودة الروح» لتوفيق الحكيم ؟ فأجبته بالإيجاب دون تردد .

بعد أسبوع، أخذنى إلى كازينو أوبرا، والذى كان معروفا بكازينو بديعة، حيث وجدت نجيب محفوظ وجماعة لجنة النشر للجامعيين، وتعرفت إليهم جميعا، وكان بعضهم يعرفنى بسبب مقالات نقد كنت أكتبها فى جريدة «الكتلة» ومنهم على أحمد باكثير، الذى كنت قد كتبت نقدا لمسرحيته "مسمار جحا"، والتى كانت تعرض فى مسرح الأوبرا على ما أذكر حينذاك . وهكذا انضممت إلى ندوة نجيب محفوظ وأصحابه فى كازينو أوبرا .

كانت الظروف قد ازدادت تعثرا بأبى، ووجدتنى العائل الوحيد لأسرتى تقريبا . وكنت أكتب قصة واحدة فى الشهر، ولا أستطيع أن أزيد . ولم تكن المكافأة تزيد على جنيهات قليلة، ولم تكن الكتابة فى الصحف موردا ثابتا أو محترما للرزق . وفى محاضرة لطه حسين فى قاعة "إيوارت" فى الجامعة الأمريكية، التقيت بصديقى القديم يوسف الحطاب فعرفت منه أنه عين منذ أيام قليلة مخرجا بالإذاعة، وكان قد تخرج فى معهد الفنون المسرحية وطلب منى أن أكتب تمثيليات للإذاعة ليخرجها لى، فلما قلت له إننى لا أعرف كيف يكتب للإذاعة وعدنى بأن يقابلنى فى اليوم التالى ليعطينى كتابا فى الفن الإذاعى ونموذجا لإحدى التمثيليات، وبالفعل كنت ومجموعة من زملائى قد وقعنا فى غرام الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية، وكنت مفتونا بصفة خاصة بالموسيقى البولندى الرائع شوبان وحياته المأساوية وكنت بالصدفة أقرأ كتابا عن حياته، فعرضت على يوسف الحطاب أن أكتب تمثيلية عن حياته فوافقنى على الفور . وكتبت التمثيلية، وحضرت إخراجها لأول مرة بالنسبة لى، وكانت شيئا مغايرا عن كتابة القصة التى عادة ما كنت أنزوى فى ركن عندما تكتمل عناصرها وأكتبها فى خلوة تامة .

وكان فى عمل الفريق وتتابع عمليات التنفيذ من بروفات ومراجعات وأداء نشوة غريبة، خاصة إذا كنت أنت المؤلف . كنا مقبلين بالفعل على عملية تحديث كبرى . ولم تكن لدينا عقد بشأن نوع الأدب أو الموسيقى أو الفن الذى نتعامل معه، وكان طبيعيا أن نكتب تمثيليات أو كتبا أو مقالات عن فنانين وكتاب غربيين . فالفنان أو المفكر هو فناننا ومفكرنا، كما هو فنان فرنسا أو إيطاليا أو ألمانيا . بل كنا متطلعين إلى كل ما ينتجه العالم من أدب وفن . وهكذا كانت تمثيلية عربية عن موسيقى أوروبى شيئا عاديا ولا يشكل استثناء .

كنت قد صرت فى الثالثة والعشرين من عمرى، وكنت قد اشتركت مع مجموعة الأصدقاء فى إصدار مجلة اخترنا لها عنوان «الأديب المصرى»، حتى تتميز عن الاسم الشهير لمجلة «الكاتب المصرى» التى كان يصدرها طه حسين، وربما كانت المجلة الأخيرة قد اختفت . وقد قاد هذه المجموعة من الكتاب كاتب وشاعر مخضرم هو محمد مفيد الشوباشى إلى جانب عدد من الكتاب المرموقين، مثل لويس عوض ومحمد مندور ثم زكريا الحجاوى ونعمان عاشور وأنا وآخرون . وكنا عادة نعقد اجتماعا للتحرير ثم نتفق على مجمل مواد العدد القادم . وكان من التكليفات التى كلفت بها أن أكتب عن أدب الشباب فى مقابل كاتب آخر سوف يكتب عن أدب الشيوخ . وبالفعل عندما بدأت أفكر فى الموضوع وجدت أن هذا تصنيف غير دقيق فإذا كان المقصود بأدب الشباب هو الجدة والحداثة فإن هناك الكثير من الأدباء الشباب الذين يكتبون أدبا رجعيا ويفكرون بشكل متحجر، بينما أدباء شيوخ يعبرون عن أفكار حديثة ويمتثلون

بالحيوية . ورحت أقارن بين النوعين، وضربت مثلا بالناقد والكاتب أنور المعداوى كنموذج على الكتابة المحافظة والجامدة وسلامة موسى الذى كان مليئا بالحيوية .

ومضى المقال بعد ذلك لتحديد سمات أدب الشباب وأدب الشيوخ وإبعاد عامل السن كعامل وحيد يحدد نوع الكتابة . وكان من عادتنا أن نجتمع ونقرأ مقالات العدد ونقيمها وعندما انتهيت من قراءة مقالى هب الكاتب الآخر الذى كلف بالكتابة عن أدب الشيوخ وهاجم المقال هجوما عنيفا، أولا لأنه ناقش الموضوع من زاوية مختلفة عن الزاوية التى عالجه بها هو، وثانيا لأنه كان صديقا لأنور المعداوى، الذى كان صديقا لى أيضا، ولكن الكاتب كان غارقا فى اليمينية وربما أذاه رأيى ففقد أعصابه وصاح قائلا : كيف يقيم معايير الكتاب شخص ليس معه إلا الشهادة الابتدائية ؟ ورد عليه زكريا الحجاوى بشىء من السخرية : لا تنس شهادته من المعهد البريطانى فهى من كمبردج .

وقد تأملت هذا الحوار وأوجعنى خاصة إشارة الحجاوى التى تحتمل السخرية أيضا وإن كانت فى صورة الدفاع عنى .

فى هذه الليلة لم أنم حقيقة لا مجازا . وكنت لا أحب العقاد ولكنى كنت أسمع همسا من خصومه باتهامه بالجهل وأنه غير متعلم فى الواقع، مع أننى كنت أعتبره مفكرا كبيرا، وقلت لنفسى إنك مازلت فى البداية ومن الواضح أنك متجه إلى مصادمات كثيرة وزمانك غير زمان العقاد وسوف تعايَر كثيراً من ناحية الشهادة وعليك أن تحصل على شهادة .

عندما أتذكر هذا الآن، أرى كم كان فيه من عبث ومعاندة شخصية وتفاهة سواء من الشخص الذى هاجمنى أو منى الذى أخذت الأمر بشكل جدى، فلقد قلبت حياتى رأسا على عقب من أجل شىء عابث ومصارعة طفولية ومباهاة بالغة السذاجة . وبالفعل، ومع أنه لم يكن باقيا على انتهاء السنة الدراسية إلا أربعة شهور، حتى ذهبت إلى مدرسة ليلية، وعرفت أنه من الممكن لطالب المنزل أن يدخل امتحان السنوات الأربع لمرحلة الثقافة العامة التى تقتضيها الدراسة المنظمة فى سنة واحدة، وكان علىّ بالفعل أن أعرف بالضبط برنامج الامتحان بشكل كامل .

ولقصر المدة، كان علىّ أن أتفرغ تماما هذه الشهور الأربعة فقدمت استقالة من العمل. وكان لنا قريب فى وظيفة مهمة بإدارة الجامع الأزهر، فعيننى موظفا كتابيا بنصف المرتب الذى كنت أتقاضاه . وتفرغت للقراءة وتعلم اللغة الفرنسية والرياضيات بسنواتها الأربع . ونجحت فى الامتحان . وكان علىّ أن أواصل لأحصل على التوجيهية وأدخل الجامعة . وبالفعل استمر العناد، وحصلت فى السنة التالية فورا على هذه الشهادة، وحصلت على درجات متقدمة تؤهلنى لدخول الجامعة مجانا . وكانت صداقة قوية قد ربطت بينى وبين أحمد بهاء الدين .

وكان محمد زكى عبد القادر يصدر مجلة شهرية بعنوان "الفصول" حتى أثناء رئاسته لتحرير جريدة الأهرام وتركها تقريبا لبهاء، الذى كان من طبيعته المواظبة وتحمل المسئولية، وكنت أنشر فيها قصصى وتلتقى جماعتنا هناك . عندما جئنا لقرار دخول الجامعة تشاورت مع بهاء، الذى كان أقرب أصدقائى فى ذلك الوقت، وكنت حائرا، هل أدخل كلية الآداب ؟ علما بأن أغلب الأساتذة من أصدقائى، ونحن جميعا نحرث فى حقل واحد، فكيف أجلس أمامهم مجلس التلميذ ؟! ثم ما الفائدة فى ذلك، ولكن بهاء كان حاسما، وقد عالج الموضوع من زاوية

أخرى فقال لى: أنظر، إنك فى مجتمع لا أمان له وفى الوظائف أنت معرض للفصل فى أى وقت، ثم إذا تخرجت فى الآداب ليس أمامك إلا أن تصبح مدرسا فى المدارس الثانوية، وإن أسعدك الحظ، فستدخل فى هيئة التدريس، وفى كلتا الحالتين أنت معرض للفصل بسبب نشاطك الفكرى والسياسى، يجب أن تحصل على شهادة تعطيك الحق فى عمل مستقل كالحقوق مثلاً، إذ تستطيع أن تشتغل بالمحاماة، ولا تستطيع السلطات أن تفصلك .

من ناحيتى، كانت هذه الفكرة مخرجا من مأزق الدراسة فى كلية الآداب، وكانت أيضا صنعة فى اليد . وبالفعل، دخلت كلية الحقوق بجامعة القاهرة. لم أكن كارها لدراسة القانون ولكنى كنت مشغولا جدا إذ كنت موظفا حكوميا فى إدارة الجامع الأزهر، وكاتبا صحفيا، ومؤلفا للإذاعة، وطالبا فى الجامعة .

٨

فى رحاب الأزهر

عندما تم تعيينى فى إدارة الجامع الأزهر، كان قريبى الكبير مديرا للمستخدمين حسب التسمية الجارية حينذاك، ولكن بالصدفة كان لى قريب آخر وهو زوج ابنة عمى مديرا لمكتب شيخ الأزهر الذى كان الشيخ الشناوى، وكان أبى عندما عرف رغبتى فى الانتقال إلى وظيفة حكومية لأتمكن من بعض الوقت لمتابعة الدراسة قد خاطب قريبنا هذا لأسباب لا أعرفها مما أثار غضب زوج ابنة عمى، والذى كان قريبا جدا لنا أيضا، على أنه لم يعرقل تعيينى بحكم وضعه البالغ الأهمية كمدير لمكتب شيخ الأزهر بل اختارنى لأكون السكرتير الصحفى للشيخ. وبالفعل صار لى مكتب ملحق بمكتب شيخ الأزهر، وكانت الصحف تأتى إلىّ كل صباح وكان علىّ أن أقص كل ما يخص الأزهر وأضعه فى ملف وأعرضه على الشيخ عندما يحضر. وكثيرا ما كنت أعلق على هذا الخبر أو ذاك عندما يسألنى . وصارت القرارات الصادرة عن الأزهر تأتينا لأمليها على الصحفيين الذين يأتون من أجل هذا الغرض . وربما كنت أعيد صياغتها بما يناسب النشر فى الصحف .

قضيت ستة أشهر عندما دخل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر والذى كان نجما شهيرا تتابعه أغلب الصحف إذ كان يقود حملة لتحريم بيوت الدعارة المرخصة رسميا، وكثيرا ما كانت الصحف تصوره وهو يعظ الفتيات على البلاج وهن يلبسن المايوهات، أو يتحدث عن الآثار الضارة اجتماعيا بسبب إباحة الدعارة واستباحة العرى، على أنه كان أحد زعماء ثورة سنة ١٩١٩ الكبار الذين طالما هيجوا الشارع المصرى والطلبة مشتركا فى الخطابة مع القسس المصريين ومؤثرا تأثيرا بالغا على المجتمع المصرى، وكان فى الرجل ميل للدعابة المرحة ولكن المهذبة، ولم أكن أعلم أنه من أسرة صوفية لها شهرة فى الصعيد كبيرة وجدهم على ما أظن يعتبر وليا من أولياء الله ومسجده فى البلد مزار للناس .

دخل الشيخ أبو العيون مهرولا إلى مكتب شيخ الأزهر مارا بى وهو يحيينى وفتح باب الشيخ ثم أشار إلىّ بأن آتى وعندما أصبحت أمام الشيخ وأمامه قال : "أنا عاوز الواد ده" مشيرا علىّ . ضحك الشيخ الشناوى ولم يزد فعاد الشيخ أبو العيون يقول : لقد عين الشيخ..... لا أذكر الاسم . مدرسا وأصبح مكانه خاليا وأنا محتاج لهذا الولد . ضحكت بالطبع إذ كان يقول هــذا بأسلوب ظريف وفيه شىء من الألفة والتقدير . كل هذا وأنا بالكاد

بدأت أفهم أنه يريدنى للعمل معه فى مكتبه، ونظر إلى الشيخ وسألنى : ما رأيك يا أحمد ؟ فقلت : موافق . فضحك الشيخ وقال : بهذه السرعة ودون أن تفكر فينا على الإطلاق .

كنت فى الحق قد سئمت هذا العمل الروتينى البليد وإن كنت أحتاج للوقت الذى أوفره للمذاكرة . على أننى استدركت وقلت : هذا إذا أردت أنت يا مولانا . وضحك الرجلان وخرجنا معا أنا والشيخ أبو العيون وهو يمسك بيدى إلى أن وصلنا إلى مكتبه ونظرات الموجودين تتابعنا باستغراب، ومنهم قريبى مدير المكتب الذى يبدو أنه كان لديه علم مسبق بما حدث . وجدت حجرة سكرتير الشيخ أبى العيون السابق، والتى أصبحت حجرتى، نظيفة ومرتبة ولها شباك واسع يطل على الشارع أشبه بالمشربية الجميلة المشغولة بالأرابيسك تتفق مع الطراز العربى الجميل . وكان المبنى مازال أقرب إلى أن يكون جديدا .

أجلسنى الشيخ أمامه وراح يعدد لى اختصاصاتى وعملى معه . وكان عمل السكرتير كثيرا جدا، من الإشراف على الامتحانات، إلى تعيين المدرسين والأساتذة، إلى الترقيات، ومهمات أخرى كثيرة لا أكاد أتذكرها الآن، على أن أهم ما لفت نظرى هو مسئولية الشيخ عن مجلة الأزهر، التى كان يرأس تحريرها محمد فريد وجدى الذى كان من أساتذة الكتاب الإسلاميين، لعله من أصل شامى ويمت بصلة ما إلى الشيخ رشيد رضا الذى كان تلميذا للشيخ محمد عبده ويعتبر جناحه المحافظ الذى خرج من تحت عباءته . وكان الرجل قد قارب التسعين ولكن إدارة الأزهر لم تلغ عقده إجلالا له وكل ما فعلته أنها أسندت إدارة المجلة إلى الشيخ أبى العيون لسمعته الثقافية فيما يبدو .

وكانت مجلة الأزهر أكاديمية على مستوى العالم كله وكان النشر فيها مماثلا للنشر فى المجلات العلمية من حيث القيمة العلمية . وكانت تطبع جزء منها باللغة الإنجليزية فى الصفحات الأخيرة . وبالطبع راحت مواد المجلة تأتينى لأعرضها على الشيخ لإجازتها للنشر. وكان للمجلة سكرتير للتحرير غير أزهرى متخرج فى كلية الآداب قسم الفلسفة، وله إلمام جيد بالفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية بشكل عام، وبسرعة أصبحنا صديقين . فى هذا الوقت كان الأزهر حافلا بالمثقفين المتازين والمفكرين من طراز عال، بعضهم نشأ فى رحاب الأزهر، والبعض جاء إلى الأزهر من جامعات أخرى مدرسا للفلسفة أو اللغات أو التاريخ . وهناك تعرفت بأساتذة كبار مثل الدكتور محمد يوسف موسى والشيخ محمود شلتوت والدكتور عبد الله دراز، وهو غير وكيل الجامع الأزهر حينذاك الشيخ عبد اللطيف دراز ودارسين طوال النفس، مثل الشيخ محمود الشرقاوى الذى قام بدراسة ممتازة عن سيرة حياة الشيخ الجبرتى المؤرخ الشهير والذى دعوته بعد ذلك بأكثر من خمسة عشر عاما ليكتب فى مجلة «الكاتب» .

كان مكتبى يقع فى زاوية من المبنى، بحيث يسمح بدخول الشمس غالبية الصباح وربما إلى الظهيرة أيضا، ومع مرور الوقت أصبح مكتبى مقصدا للمشايخ كبار السن أو قل مشايخ الكليات الذين يأتون لمبنى الإدارة من أجل أغراض متصلة بعملهم لدى السكرتير العام، ثم بعد ذلك صاروا يأتون حتى من دون أن يكون لديهم عمل ما مع الشيخ أبى العيون، بسبب الشمس الدافئة فى نهار الشتاء وربما لتبادل الحديث . وصار المكتب مع مرور الأيام ندوة ثقافية كان يحضر فيها الشيخ الباقورى والشيخ محمد الغزالى والشيخ سيد سابق من السياسيين فضلا عن مشايخ الكليات، ولم أخف يساريتى وكنا نتناقش فى كل شىء وبحرية إلى حد ما . وأظن أن المجتمع المصرى كان كله يغلى بالجدل ولم يكن الأزهر مختلفا عن بقية المؤسسات، وكانت

فكرة التغيير قد صارت مؤكدة . وفى بعض الأحيان يمتد النقاش حتى إلى ما بعد انتهاء العمل، فكنا ننزل إلى قهوة الفيشاوى فيدعونا الشيخ الباقورى إلى غذاء من «الحلوجى» وهو صاحب مطعم شهير للفول والفلافل ويمتد النقاش حتى غروب الشمس .

كنت أقرأ مقالات الكتاب للشيخ أبى العيون فيسألنى رأيى فأجيبه . وشيئا فشيئا أصبح يترك لى القراءة وتقدير الموقف . وكانت هناك مقالات جادة وأخرى لا قيمة لها إذ كان النشر فى المجلة لا يستهدف المكافأة المالية إذ كانت مقررة حسب المقام العلمى، فمكافأة الأستاذ وعضو جماعة كبار العلماء خمسة جنيهات أما المدرس أو الأستاذ المساعد فثلاثة جنيهات، وكان هذا شيئا مربحا على أية حال، وكان الهدف من النشر من جانب الكاتب هو الاستعداد للترقية باعتبار ما نشره بحثا علميا . وبدأت أكتب للمجلة إلى جانب سكرتير التحرير الذى كان كاتبا جيدا بعد أن أقرأ الموضوع على الشيخ أبى العيون بطبيعة الحال . وفى إحدى المرات كتبت مقالا طويلا عن الاشتراكية والإسلام، وربما كان هذا أول محاولة لفكرة اليمين واليسار فى الإسلام، التى ظهرت بعد ذلك فى مجلة «الكاتب» بأكثر من خمس عشرة سنة . وكنت أقرأ المقالة على الشيخ قبل أن أدفعها للمطبعة، وكان يصغى بانتباه ثم بدأ يبدى إعجابه وموافقته ثم تحمس جدا وراح يردد : هذا صحيح .. هذا صحيح . وما إن فرغت حتى هب واقفا وقال : ضع اسمى عليها، يقصد المقالة .

كنت سعيدا لحماسه وأربكنى هذا الحماس حتى لم أفهم ما الذى يقصده بقوله : ضع اسمى عليها . على أننى بعد أن عدت لمكتبى والتقطت أنفاسى ورحت أتأمل الموقف وجدت أنه نظر إلى الموضوع نظرة أخرى تماما .

كان هو العالم الأزهرى المرموق والمرجع الدينى بغير شك، وكان التفسير الاشتراكى للإسلام بالصورة التى وضعتها ليس أمرا مسلما به فى الأوساط الدينية، وكان يريد أن يهب المقالة اعتماده وموافقته الصريحة . وهذا هو معنى «ضع اسمى عليها» وكان يفعل ذلك وكأنه يتحدى المعترضين الذين سوف يعترضون . ويقرر أن هذا الرأى المستخلص من هذه المقالة هو رأى معتمد رسميا من الشيخ أبى العيون، وليس السكرتير العام للأزهر فقط بل العالم الشهير المسلم المؤتمن على الإسلام . وهكذا نشرت المقالة باسم الشيخ بالفعل . ومن الناحية الواقعية صارت جزءا من الاجتهادات المقررة فى الثقافة الإسلامية .

لست أذكر السنة بالضبط التى نشرت فيها إنما أظن أنها إما فى أواخر سنة ١٩٥١ أو فى أوائل سنة ١٩٥٢ أليس هذا من علامات الثورة والأجراس المنبهة إليها والتى وقعت بعد ذلك بشهور قليلة ؟

❖ ❖ ❖

لم يكن الأزهر معزولا عن سائر المجتمع، وكان للريف المصرى علاقة وثيقة بالأزهر وكانت الثقافة السائدة مجدولة بالثقافة الإسلامية السنية، وإن كانت هناك تداخلات من الفكر أو العادات الشيعية مثل حب آل البيت وبعض العادات المتعلقة بذكريات شيعية قديمة . وكان للأزهر طابع دولى، وتعود الأزهريون على أن يروا بعثات قادمة من جميع أنحاء العالم الإسلامى وأن يختلطوا بثقافات عديدة . وإلى هذه الفترة كنت تجد شيوخا للكليات الأزهرية أتوا إلى مصر من الشام أو المغرب أو الجزائر أو غيرها من البلاد العربية أو الآسيوية أو

الإفريقية، وكان الطلبة من كل الأجناس تقريبا ولا يستغرب أحد لو جاوره طالب أو أستاذ قادم من أوروبا أو من أية قارة أخرى .

وبالفعل كان الأزهر مؤسسة تعليمية متخصصة لم تزعم لنفسها سلطة خارج حدود الفتوى، وكان كل شيء هادئا ولا يشعر أحد بقلق إزاء التحولات التحديثية فى نظم التعليم أو فى سن القوانين أو نظم المحاكم . وكان المشرعون غير منقسمين حول مصادر القوانين، إذ استقر الأمر على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للقانون وليست المصدر الوحيد، وكانت الأحوال الشخصية تخضع للشريعة بالنسبة للمسلمين، بينما كان المسيحيون يطبقون الشريعة المسيحية، وكذلك الطوائف الأخرى .

وظل الأمر كذلك إلى أن توحد القانون وألغيت المحاكم الشرعية وأصبح للمصريين قانون واحد ومحكمة واحدة مهما تكن دياناتهم . وكما قلت لم تعان مصر من أزمة سياسية أو فكرية فى الانتقال إلى نظام دنيوى للحكم فى الأمور الدنيوية، بما فى ذلك نظم التعليم والقضاء. وعندما جئت إلى الأزهر فى أول الخمسينيات كان دور الأزهر السياسى منقسما . مثل كل المصريين . بين الوفد والأحزاب الأخرى وكانت هذه القوى هى التى تحرك المظاهرات، على أنه كان للقصر الملكى علاقة قوية بالأزهر فى محاولة دءوب لاجتذاب الأزهر إلى جانب الملك ضد طموحات الأحزاب الراغبة بطبيعة الحال فى تقليص سلطات الملك المهددة للديمقراطية .

وقد ظللت أعمل مع الشيخ أبى العيون وأتأمل دون أن أقصد كيف يتصرف الرجل الذى كان قد جاوز السبعين من عمره حينذاك . كان يسكن فى مصر الجديدة ويأتى كل يوم فى المترو ثم يأخذ تاكسى إلى مقر الإدارة . كان رجلا نظيفا يرتدى الجبة والكاكولا، وعندما يصل إلى غرفته يخلع حذاءه ويتربع على كنبة فى مكتبه ويخلع عمته ليكشف عن شعر مقصوص نمرة واحد ويشرع فى قراءة جزء من القرآن، وعندما ينتهى يطلب من الفراش أن يستدعينى، ولعله كان يشرب عندئذ فنجانا من الشاى، وحين أدخل أجد مكانا نظيفا ذا رائحة طيبة فيحادثنى عما لدينا من عمل فى هذا اليوم، وكنت قد أخذت رأيه فى نوع الدراسة التى أتوجه إليها فى الجامعة، قال لى بشكل حازم : ادخل الحقوق .

وكان له ابن أو أبناء درسوا القانون وكان له أقرباء شغلوا وظائف مهمة فى السلك القضائى أو الجامعى بالنسبة لدراسة القانون، وكان منهم أحد عمداء كلية الحقوق المشهورين . ولذلك لم أشعر أننى أواجه ثقافة أخرى، وعلى الرغم من خلفيتى التى تكاد تكون حداثية بشكل مطلق . حتى بالمعنى الاصطلاحى . إلا أننى لم أشعر بأية مشكلة فى التفاهم أو اختلاف جوهرى فى الثقافة، وأظن أنه كان كذلك بالنسبة لى .

وكان من الواضح أن الثقافة الإسلامية جزء أساسى فى الثقافة السائدة فى المجتمع المصرى بالنسبة للمسلمين والمسيحيين، وأعتقد أن مصر كانت فى هذا الوقت فى مرحلة ازدهار ثقافى وكانت قد خرجت بواسطة أساتذة كبار من ثقافة عهود التدهور إلى ثقافة جاءت تأويلاتها متمشية مع العصر الحديث وتطلعاته، وكانت ذات منحى عقلانى شديد الوضوح، وكان الشيخ محمد عبده قد حسم موضوع الجدل بين العقل والشريعة وخطا خطوة تجاوزت ابن رشد إلى تحكيم العقل عند تعارضه مع نص شرعى دون حاجة إلى تأويل . ولم يكن الانقسام بين القديم والحديث أو بين الأصالة والمعاصرة، كما نحتها أحد المفكرين الغربيين، قد ظهر .

نعم قام جدل عنيف حول كتابين شهيرين فى عشرينيات القرن العشرين هما «الشعر الجاهلى» و«الإسلام وأصول الحكم» ولكن فى أواخر الأربعينيات كانت هذه المعركة قد حسمها نوع من التنازل المشترك، وحتى مع ظهور التيار الإسلامى فى السياسة على يد حركة الشيخ حسن البنا، إلا أن فكرة التحديث كانت مسيطرة على المجتمع المصرى، وكانت الثقافة الإسلامية ذاتها قد اتسع نطاقها وأعيد اكتشاف الفلسفات القديمة ذات المنحى العقلانى، وتحاور المثقفون المصريون، سواء من خريجى الأزهر أو الجامعات المدنية، مع الفكر الاستشراقى وتعايش المنهج العقلانى مع المناهج الروحية الأخرى من صوفية ودينية، وكان المشروع القومى المصرى يشغل فكر المجتمع فى الدرجة الأولى، المركّز فى الاستقلال والديمقراطية والرعاية الاجتماعية وتحديث كل شىء فى المجتمع، والقيام بثورة فى مجال التنمية .

ولم يكن الأزهر معزولا عن هذه الأفكار وكان . كمؤسسة أكاديمية . مليئا بالأساتذة الذين أتموا دراساتهم فى أوروبا، وكان فوق ذلك له دور فى نوع من السياسة الخارجية متعلقة بالبعثات الدينية فى الكثير من الدول التى تحتاج إلى خبرات وثقافات رجال الأزهر لنشر الدين الإسلامى وتنوير المسلمين فى هذه البلاد .

ظللت أتعرف على هذه الاتجاهات أثناء عملى مع الشيخ أبى العيون، كما تعرفت على الكثير من الزعماء السياسيين أو المفكرين الذين كانوا يزورون الشيخ، وفى هذه الفترة توفى الشيخ الشناوى وعين شيخ جديد للأزهر هو الشيخ عبد المجيد سليم، الذى كان من مشاهير المشايخ المجددين، وجاء معه بمجموعة من تلاميذه الذين كانوا قد أنهوا دراستهم فى ألمانيا أو فرنسا أو إنجلترا، وكان لهم تصور جديد بالنسبة للأزهر . ومن هؤلاء أكاديمى أزهرى درس فى ألمانيا هو الدكتور محمد البهى، الذى كان أستاذا للفلسفة الإسلامية فى إحدى الكليات الأزهرية، وفوجئت به بعد قليل جاء يطلب منى العمل معه فى إدارة أو لجنة جديدة سماها فى هذا الوقت «لجنة نشر الثقافة الإسلامية فى الخارج» ولست أذكر ما إذا كان الشيخ أبو العيون على قيد الحياة حينذاك أم كان قد توفاه الله تلك الوفاة المأساوية المؤلمة إذ تعثر فى جبته، وهو ينزل من مترو مصر الجديدة فسقط تحت عجلات المترو وقضى نحبه فى الحال .

وهكذا انضممت إلى فرق النشاط الجديد التى جاءت مع الشيخ عبد المجيد سليم، وعينت سكرتيرا لهذه اللجنة وكان البهى مقررا لها أما الأعضاء فكانوا من صفوة المثقفين الذين لهم صلة ما بالثقافة الإسلامية، مثل : الأستاذ أحمد حسن الزيات، رئيس تحرير مجلة «الرسالة» الذائعة الصيت، والأستاذ عباس العقاد، والشيخ شلتوت، والشيخ تاج، والشيخ الفحام، وهؤلاء جميعا صاروا مشايخ الجامع الأزهر بعد ذلك، والدكتور عبد الله دراز الذى كان أستاذا للفلسفة فى جامعة القاهرة، وآخرين من نفس المستوى لا أكاد أتذكرهم بالتفصيل . وكان عمل اللجنة وضع خطة عملية لنشر الإسلام فى الخارج أو مساعدة المسلمين فى البلاد التى تملك قاعدة تعليمية مناسبة لتثبيت الدين ونشره . وكان على اللجنة أن تعتمد القرارات التنفيذية التى يتخذها المقرر فى هذا الشأن، وكانت فى أغلبها تنحصر فى اختيار الأستاذ المناسب الذى يرسل إلى البلاد الإفريقية أو الآسيوية أو الأوروبية أو الأمريكية، وتلقى تقارير المبعوثين ودراستها والتجاوب معها . وقد اكتشفت أنه كانت هناك إدارة من هذا النوع فى النظام القديم، إلا أنها كانت تابعة للقصر الملكى، وكانت أشبه بوزارة خارجية أزهرية لها سياسات مرسومة يضعها رجال السراى بالاتفاق مع المسئولين الأزهريين .

ومثل أى أصحاب رسالة أو أيديولوجية، كان فريق الشيخ عبد المجيد سليم يحارب من أجل هيمنة فكرته على المجتمع المصرى والمجتمعات الإسلامية . وربما كان البهى أكثرهم تحمسا أو قل تعصبا، وكانت فكرته الأساسية أن على الإسلام أن يدحر الفكر الاشتراكى، ليس من باب الفلسفة فقط والجانب الإلحادى فى الفكر الماركسى، بل فى كل شىء بما فى ذلك نظم الملكية والنظام الاشتراكى بصفة خاصة . وكثيرا ما كنت أعتقد أن تحمسه للنظام الرأسمالى كان يجعله ذا حساسية خاصة تصل إلى درجة الاشمئزاز من فكرة العدالة الاجتماعية . والغريب أننى لم أصطدم معه كما أنه من جانبه كان يعاملنى بشكل جيد .

وكانت الثورة قد قامت بالفعل وبدا أن هناك تواصلا ما مع سياسة هذا الفريق الذى بدا كما لو كان قد استولى على الأزهر، وبعد قليل لاحظت أن أحد الملحقين السياسيين فى السفارة الأمريكية يزوره بصورة مستمرة، وأذكر أن اسم الملحق كان ماكى أو شيئا من هذا القبيل وكان يقضى معه وقتا طويلا، وكان من عادة البهى أن يستدعينى عندما يصل إلينا ضيف أجنبى لغته الإنجليزية لأترجم بينهما وكان هو يجيد الألمانية، ولكن ماستر ماكى كان يتكلم العربية بشكل جيد . ولا أتذكر كيف تركت الأزهر فى هذه الفترة، ربما لأنى كنت قد انضممت سريعا إلى العمل فى مجلة «التحرير» أول مطبوعة تصدرها الثورة ثم فى جريدة «الجمهورية» كل هذا وأنا أتابع دراسة القانون فى كلية الحقوق . على أنى أتذكر أنه فى هذه الفترة أو قريبا منها عين محمد البهى وزيرا للأوقاف .

عندما أتذكر فترة الأزهر تتتابع فى خاطرى جلسات ممتعة مع مشايخ الكليات الأجلاء بالفعل، وكيف كنا نتحادث فى موضوعات عديدة، وكان هناك علماء على قدر كبير من العلم أذكر منهم الشيخ عبد الجليل عيسى الذى كان عميدا لكلية اللغة العربية، وكان حديثنا فى الأدب وكان الرجل قد اقترب من السبعين من عمره وكان يجد فى شمس حجرتى أيام الشتاء ملاذا يقضى فيه ساعة أو بعض ساعة عندما يكون له عمل فى مبنى الإدارة، وكذلك رأيت الشيخ عبد المتعال الصعيدى الذى كان فقيها مجددا من امتداد مدرسة الشيخ محمد عبده، وما أكثر الأساتذة الكبار الذين استمتعت بالجدل معهم ومداعباتهم أحيانا فى مجادلات فكرية جريئة حتى فى الأصول .

كانت مشاكلى فى شأن استدراك ما فاتنى من التعليم الرسمى قد انتهت تقريبا . إذ كنت فى السنة الأولى، وقبل أن أنتقل إلى السنة التالية كنت قد أشبعت نفسى فى الاستماع إلى المحاضرات، ولم يكن على بعد ذلك إلا أن أحضر الفصول الصغيرة التى كانت تؤخذ فيها أسماء الغائبين وتؤثر على حسابات انضباطهم، وربما دخول الامتحان النهائى أو شىء من هذا القبيل، وأظن أن ذلك ليوم أو اثنين فى الأسبوع فكنت مضطرا للحضور .

٩

مع السادات.. بعد ٢٣ يوليو

كان لدينا استرابة فى هذا الانقلاب العسكرى. كنا نسميه كذلك فى هذا الوقت. فقد جاء بعد حريق القاهرة بشهور ستة فقط، وبعد اضطراب فى نظام الحكم إذ قامت عدة وزارات لم تكد تستمر فى الحكم إلا شهرا أو بعض شهر، وكنا نحس أن الحريق ثم الانقلاب قطعا المسيرة الشعبية التى بدأها حزب الوفد حين ألغى المعاهدة، وكانت الشروط التى نفذت من معاهدة سنة ١٩٣٦ فى سنة ١٩٤٨ قد «مصرت» مصر، وكان المصريون بالفعل يتسلمون سلطات عديدة، وكانت المقاومة الشعبية تزعج معسكرات الجيش البريطانى فى القناة. وكان الاتجاه الإصلاحى الاجتماعى يمضى قدما، إذ جاء طه حسين فجعل التعليم مجانيا حتى المرحلة الثانوية، كما جرت إصلاحات فى قوانين العمال، وكان من الواضح لكل القوى أن تغييرا ثوريا قادم فى اتجاه الاشتراكية الديمقراطية بشكل ما. فعلى الرغم من القوى المحافظة التى كانت فى حزب الوفد، إلا أن حركة الشباب الوفدى التقدمية كانت قوية إلى جانب نشاط القوى الاشتراكية الأخرى.

ولم يظهر من رجال الثورة إلا محمد نجيب، الذى لم يكن معروفا سياسيا لكن تعبيراته كانت محايدة ولا تكاد تكشف عن اتجاهه السياسى، وكان يتمتع بكاريزما شعبية، لكن بالنسبة لشاب مثلى لم يزل فى أوائل العشرينيات من عمره وقادم من ثقافة ماركسية وطموحات اشتراكية لم يكن الأمر مريحا. ولأنى كنت أعرف السادات فحين استمعت إلى بيان الثورة فى الإذاعة توزعت نفسى بين الفرح والقلق، فهذا رجل عريق فى الاتجاه اليمينى وإن كانت مواقفه الوطنية غير مشكوك فيها، وكان عمله مع الملك فى التنظيم الحديدى غير مرضى عنه. ولكنى لأمر ما، ربما لشخصية السادات الشعبية وحماسته الوطنية، ملت إلى شىء من التفاؤل، وبعد قليل بدا أن تنظيم الضباط يضم شخصيات من كل ألوان الطيف فى المجتمع المصرى، فقد كان فيه يساريون من أقصى اليسار ويمينيون من أقصى اليمين، فضلا عن عناصر الوسط المختلفة، وكان. على أية حال. قد تسرب إلينا شىء من منشورات الضباط الأحرار قبل أن تقوم الثورة، وكانت مؤشرات لا بأس بها، لكنها لم تكن مرضية تماما.

كنت أكتب للإذاعة بشكل مستمر وحين ذهبت إلى الإذاعة وجدت الدبابات تحاصر المبنى، ولكننى كنت أشعر أن هذه الأشياء تمت إلى وأنها ليست من قوى معادية. وكنا نجلس فى

مقهى بور فؤاد فى وسط البلد، وكنا نلتقى هناك ببعض المثقفين من ضباط الجيش مثل كمال الدين الحناوى وأحمد كمال أبو الفتوح وربما شعراوى جمعة على ما أذكر، وكانوا من الضباط الأحرار وكانت آراؤهم أقرب إلى اليسار والحناوى منهم بصفة خاصة، وإلى هذا المقهى كان يأتى بعض أساتذة الجامعة ربطتنا بهم صداقة ما مثل الدكتور حسين خلاف، وبالطبع كان يأتى إلى هذا المقهى الكثير من أصدقائنا مثل: لويس عوض ونعمان عاشور ورشدى صالح. ومن خلال جلسات النقاش بدأنا ندرك أن الحكم على هذا الانقلاب ليس سهلا وأن الحركة متعددة الاتجاهات، ولم نكن نعرف إلا محمد نجيب الذى كان ظاهرا لنا، ثم صلاح سالم الذى أصبح أشبه بالمتحدث الرسمى. وكنت إلى هذا الوقت لم أزل أعمل بإدارة الجامع الأزهر، وعرفت هناك أن الثورة استقطبت من الإخوان المسلمين الشيخ حسن الباقورى والشيخ سيد سابق والشيخ محمد الغزالى، وأن هناك انشقاقا فى صفوف الإخوان.

وعندما صدرت مجلة «التحرير» أول مطبوعة للثورة كان اتجاهها اليسارى واضحا وفيها عرفنا أسماء بعض الكتاب الضباط مثل: خالد محيى الدين وثروت عكاشة وأحمد حمروش، وكانت هذه أيضا علامة إيجابية. بالنسبة لنا. على اتجاه الثورة. ولم تمض إلا شهور قليلة حتى رأينا هؤلاء ينسحبون من المجلة ويتركونها. وكنت فى الإذاعة عندما جاءنى سامى داود الذى كان كبيرا للمذيعين وكاتبا معروفا، وقال لى: تعال معى، إن السادات يريدنا.

فهمت فى الطريق أن السادات أصبح مسئولا عن مجلة «التحرير» بعد أن تخلت عنها المجموعة اليسارية، وأنه يريد أن يحافظ على هذا الاتجاه، ولذلك أرادنا أن نحل محلهم وقد اختارنا لذلك. وكان السادات ينتظرنا فى مبنى دار الهلال الذى كانت المجلة تصدر منه. وهناك وجدناه فشرح لنا مهمتنا وعرفنا أنه أصبح رئيس التحرير، وأن سامى داود سيكون مدير التحرير، وأننى سأكون سكرتير التحرير. وعرفنا منه أنه بعد انسحاب المجموعة الأولى لم يجد جمال عبد الناصر الذى كان المسئول الحقيقى عن كل شىء أمامه، إلا أن يتصل بـ «مصطفى أمين» ليخرج العدد حتى لا يتوقف صدور المجلة وتثار الأقاويل حول توقفها، ولم يجد مصطفى أمين بالتالى وفى هذا الوقت القصير الحرج بدا من أن يستعمل بعض مقالات مجلة كان يصدرها حينذاك هى مجلة «الجيل الجديد» وعندما صدر العدد غضب عبد الناصر غضبا شديدا وسارع بتكليف أنور السادات بمصادرة المجلة. فمواد المجلة كانت بالغة الخفة ولا تتفق إطلاقا مع أول مطبوعة لثورة سياسية شاملة.

كان ضباط مجلس قيادة الثورة يفكرون فى إصدار صحيفة يومية وبالفعل شرعوا فى استصدار ترخيص جريدة «الجمهورية» باسم جمال عبد الناصر، وأثناء انهماكنا فى مواصلة إصدار مجلة «التحرير» دعانا أنور السادات إلى اجتماع فى مبنى جريدة «الزمان» بشارع الصحافة، وفى ذاك الاجتماع عرفنا بمشروع جريدة «الجمهورية» وأن رئاسة تحريرها أسندت إلى أنور السادات مع صحفى قديم هو حسين فهمى، الذى كان يرأس تحرير جريدة «الزمان» على ما أذكر، وظللنا نعمل فى التجارب عدة شهور.

كان أنور السادات معجبا بالحزب الوطنى الذى رأسه الزعيم مصطفى كامل وهو الحزب ذو السمعة الطيبة، وإن كان فى زمانه متمسكا بالجامعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية فى مقابل حركة المجددين التى ضمت عددا كبيرا من المثقفين، مثل أحمد لطفى السيد وسعد

زغلول وقاسم أمين وغيرهم، الذين دعوا إلى مصر للمصريين وإلى مجتمع ديمقراطى يستند إلى دستور تضعه لجنة منتخبة . على أن الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل وإسناد رئاسته إلى محمد فريد راح يقترب من فكرة مصر للمصريين وعندما نفى زعيمه الجديد إلى الخارج وانغمس فى الحياة السياسية فى قلب العالم تغيرت الكثير من أفكاره . وقد ذاق محمد فريد الويلات فى المنفى إذ حاولت كل القوى السياسية اللاعبة فى الشرق الأوسط أن تهيمن عليه وأول هذه القوى كانت تركيا التى ضغطت عليه إلى حد التهديد بالقتل إلى أن تمكن من الإقامة فى سويسرا وواصل جهاده فى الخارج بواسطة اتصال مع الداخل مهما يكن منظما، إلا أنه كان ضعيفا إلى حد ما .

وكانت زعامة محمد فريد رائعة فهو السياسى الذى لا تستطيع أية قوة سياسية الزعم بأن لها تأثيرا عليه يخالف ضميره، كما أنه عاش على أمواله الخاصة التى بددها بالفعل فى منفاه، وكنت محبا له مثل كثيرين من المصريين، فالرجل راح يتطور فى الغربة وكان هو مهتما بالفقراء، وبالعمال بصفة خاصة ولعب دورا فى تأسيس نقاباتهم، واجتذبته نشاطات الاشتراكيين وراح ينتظم فى حضور مؤتمراتهم ويزداد معرفة بالدراسات الحديثة فى عالم السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع الحديث بشكل عام . وأظن أن أنور السادات هو الذى اقترح على رجال الثورة أن يحتفلوا بذكرى وفاته إذ تقرر بالفعل أن يقام «صوان» كبير لهذا الاحتفال يحضره رجال السياسة المتعاطفون مع الثورة أو مع الحزب الوطنى، وانتهز أنور السادات الفرصة وقرر أن تصدر نسخة تجريبية من مشروع جريدة «الجمهورية» تحتوى على دراسة لتاريخ هذا الرجل على أن توزع أثناء الاحتفال كنموذج لما ستكون عليه «الجمهورية» عند صدورها بالفعل ووجدت السادات يطلب منى كتابة هذه الدراسة .

فى أثناء عملى بلجنة نشر الثقافة الإسلامية فى الخارج كان يزاملنى فى اللجنة أستاذ للغة الفرنسية هو الدكتور خليل مدكور، وكنا نجلس معا، وكان رجلا فى عمر أبى له شمائل بالغة الندرة فهو متواضع إلى أقصى درجة، وطنى إلى درجة البذل بالحياة وكان من مريدى محمد فريد طوال أيام منفاه، كان يدرس هناك للحصول على الدكتوراه وتعلق بالزعيم حتى أصبح أقرب المقربين إليه وصار يقوم بكل أعماله حبا وتطوعا، وكنا نجلس طوال اليوم فيحدثنى عن الزعيم وعن المصريين المناضلين فى الخارج، وكان قد قضى حوالى تسع سنوات كاملة ما بين فرنسا وسويسرا فى صحبة محمد فريد منغمسا فى كل النشاطات السياسية، ومع أنه اتصل بكل الأفكار التى كانت سائدة فى أوروبا أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها، إلا أن فكرته الأساسية ظلت تدور حول استقلال مصر، وحول الاستعمار البريطانى وخفايا سياساته بالنسبة لـ «مصر» وكم حاولت أن أتعرف على رأيه فى الماركسية وغيرها من التيارات السياسية التى كانت منتشرة فى أوروبا فى هذا الوقت، إلا أن هواه كان مصر واستقلالها لدرجة أنه مع انتباهه لهذه الأفكار وربما إعجابه بها لم يجد لها مكانا راسخا فى قلبه، وربما كان زعيمه محمد فريد أكثر تتبعا منه . وكان الرجل ذا إيمان دينى راسخ وكان يؤدى الفروض ولكنه مع ذلك كان عصريا فى الكثير من مظاهر الحياة .

أعتقد أننى قضيت وقتا طيبا مع الأستاذ خليل مدكور، وتعلمت منه أشياء كثيرة وكان من المستحيل مجاراته فى إنكار ذاتــه وتواضعه، وكذلك فى صدقه وزهده أو قناعته . ولذلك عندما كلفنى السادات بكتابة ملخص لسيرة حياة محمد فريد، اتجه ذهنى فورا إلى الدكتور خليل مدكور، فذهبت إليه وفاتحته فى الموضوع فأمدنى بصور فوتوغرافية ورسائل متبادلة

تغطى غالبية سنوات المنفى، وحين كانت توجد ثغرة كان يشير على أن أسترشد بأشخاص آخرين كانوا على اتصال به أثناء غيابه هو، وبالفعل اتصلت بهم واستكملت غالبية الثغرات وأصبح لدى أخيرا تصور جيد عن حياة هذا الرجل، مع أن الكثير من الوثائق المتصلة بتاريخه لم تكن قد نشرت بعد . بالطبع استعنت بكتاب المؤرخ عبد الرحمن الرافعى عن حياة الزعيم، ولكن المعلومات التى حصلت عليها من بقايا الأحياء الذين صاحبوا محمد فريد كانت جديدة تماما وأذكر أنى كتبت الموضوع بشىء من العاطفة، رغم تنبهى لضرورة النظرة الحيادية ولعلى ركزت على مظاهر النزعة الاشتراكية باعتبارها اكتشافا ما فى حياة هذا الزعيم .

وعندما أنهيت الكتابة وسلمت الموضوع لرئاسة التحرير أعطيت المادة لـ «عبد السلام الشريف» الفنان التشكيلى وأستاذ الفنون الجميلة الذى خاض تجربة «التوضيب» الصحفى، وكان مكلفا بأن يصمم شكل الجريدة وكان بالفعل قد اهتدى إلى شكل رأس الصفحة الذى يعتبر من أهم الإنجازات، لأنه سيكون الشكل الدال على الجريدة حتى وهى مرصوصة على الأرض، وكان عبد السلام رجلا فريدا أيضا إذ كان أستاذا بطبعه ومثل كل الأساتذة الموهوبين. كان بالغ التواضع ويملك حاسة خفية لاكتشاف المواهب ورعايتها، وهو الذى تخرج على يديه فنانو التوضيب الصحفى الذين دفعوا الصحافة سنوات عديدة إلى الأمام مثل : حسن فؤاد وعبد الغنى أبو العينين وغيرهما كثيرون . وناقش عبد السلام الشريف فكرته معى وهى أنه سيترك لفنان من تلاميذه هو ممدوح عمار الذى كان رساما بارعا وكان قد تخصص فى الحفر على الخشب أن يرسم لوحة كاملة لوجه محمد فريد على الخشب لتتحول اللوحة إلى كليشيه ضخم يملأ الصفحة الأولى كلها وتطبع بحبر رمادى خفيف تطبع عليه حروف المقال، ثم نثر الصور الفوتوغرافية وأكليشيهات الرسائل فى الداخل إذ كان هذا النموذج مكونا من فرخ ورق بحجم الجريدة تمتلئ صفحاته الأربع بقصة حياة الزعيم التى كتبتها . وعندما طبع هذا النموذج فرح به الجميع ونجح نجاحا باهرا، وكان عنوانا جيدا على ما ستكون عليه هذه الجريدة .

وفى أحد الاجتماعات قررت الجريدة إصدار ملحق ثقافى يصدر كل أسبوع . ربما كان يوم الجمعة . وأسندت إلى سكرتارية تحريره فوجدتنى مسئولا عن جمع كل مواده من الكتاب المختلفين الذين كانوا مسئولين عن تحريره، وكان الملحق قد قسم لأقسام عديدة فهناك قسم للمسرح وآخر للسينما ثم للإذاعة ثم للفنون التشكيلية ثم للموسيقى، وهكذا أصبحت أعمل مع عدد من نجوم الثقافة فى المجتمع المصرى، إذ كان زكى طليمات مسئولا عن المسرح و مدحت عاصم عن الموسيقى . ولست أذكر مسئول السينما، ولكن الإذاعة كان مسئولا عنها صديقى يوسف الحطاب، أما الأدب فكان يقوده طه حسين مع إسماعيل مظهر الذى كان أحد الأساتذة التنويريين الكبار، وكان يصدر مجلة ذات شأن تتناول الموضوعات العلمية الحديثة فى الفيزياء أو البيولوجى أو الكيمياء، وكان قد تعرض لمجادلات وهجوم بسبب احتضانه لنظرية داروين فى التطور وتعلقه بعد ذلك بالأفكار المرادفة عن السوبرمان[1] وما كان يحيط بذلك من أجواء أدت إلى انتشار بعض النزعات الديكتاتورية . ولأنى لم أكن فى سن القراءة عندما كانت هذه المجلة تثير الزوابع داخل المجتمع المصرى، فأنا لا أعرف على وجه الدقة كيف انتهت ولماذا .

(١) فردريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) كتب عن الإنسان الأعلى أو السوبرمان (Ubermensch).

وكان إسماعيل مظهر شيخا وسيما مرحا وعصريا إلى أقصى درجة وكان يعرف أنه يدربنا على أن ننفتح على الحياة العصرية فيصحبنا إلى المحال ذات الطابع الأوروبى، كما يستقبل بناته الشابات حين يمررن عليه ويعرفنا بهن وكن على جمال رائع وكياسة وقوة شخصية، وكانت تربيتهن أوروبية بشكل كامل .

وكذلك كان لويس عوض يكتب للملحق إلى جانب الجريدة اليومية بالطبع، وكذلك الدكتور محمد مندور ولست أذكر ما إذا كان الدكتور عبد الحميد يونس قد انضم إلى الجمهورية فى هذه الفترة أم بعدها وكان أحد الرواد الذين أنشأوا دراسة الأدب الشعبى فى الجامعة، وكان شقيقا للمهندس محمود يونس، الذى هندس الاستيلاء على قناة السويس من الشركة الأجنبية، وهو الذى حقق معجزة إدارة القناة اعتمادا على المصريين اعتمادا كاملا .

لقد استغرقت تماما فى هذا الجو الثقافى البالغ الثراء، وتعلمت الشىء الكثير وكنت أنشر قصصى القصيرة فى هذا الملحق إلى جانب ما أكلف به من موضوعات .

١٠
مع العقاد

فى أحد الأيام اقترح على لويس عوض أن أجرى حديثا صحفيا مع الكاتب عباس محمود العقاد الذى كان صامتا تقريبا منذ اندلاع الثورة، وكان قد مضى أكثر من عام ونصف العام عليها . وكان العقاد يهاجم كل الاتجاهات اليسارية بعنف وكان مشهورا أنه قد تهادن مع الإنجليز خصوصا أثناء اشتعال الحرب العالمية الثانية وأنه كتب كتابا عن الزعيم النازى أدولف هتلر بتكليف منهم وقبض مبلغا كبيرا عليه . وقد أساء الكتاب إلى الزعيم النازى لدرجة أن أجهزة الدعاية الألمانية هاجمته وهددته . ولذلك حين اقتربت الجيوش الألمانية من مصر فى معركة العلمين فكر فى الهرب إلى السودان والاختفاء فيه .

لم أكن أحب العقاد بالطبع ولكنى كنت أستغرب حين يتحدث عنه لويس عوض بإعجاب، وكذلك نجيب محفوظ دعك من تلاميذه الكبار مثل زكى نجيب محمود وعلى أدهم وغيرهما. وكنت أعرف منهم أنه كان أقوى مدافع عن الدستور والديمقراطية، وأن السلطات سجنته تسعة شهور بتهمة سب الملك فى مجلس النواب الذى كان عضوا فيه . ولكن يبدو أننى قرأت له الكثير من أعماله الرائعة مثل كتابه عن ابن الرومى، الشاعر العباسى العظيم، وكتابه عن الزعيم سعد زغلول، الذى كان تحفة فى أدب السير وكتبه الأخرى، التى كانت بالنسبة لى ممتعة خاصة تلك الكتب التى كتبت بعيدا عن آرائه السياسية .

وبالنسبة للعبقريات التى كتبها عن الخلفاء الراشدين وبعض آل البيت فقد فتنت بكتابه عن الحسين بن على واستشهاده، إذ كان بحثا علميا غير مسبوق ومثيرا لدهشة الذين تعودوا أن يقرءوا الدراسات الأوروبية ويعجبوا بها، وأعتقد أنه كان له تأثير كبير على حين بدأت أخطط لكتابة كتاب «اليمين واليسار فى الإسلام» جنبا إلى جنب مع كتاب "الفتنة الكبرى" لطه حسين وكتاب "روجيه جارودى" عن تاريخ الإسلام، وكتاب "مونتجمرى وات" عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام كداعية ورجل حكم وغير ذلك كثير من الكتب الممتازة التى تناولت الموضوع. وعندما أحاول التذكر الآن أشعر بالبهجة التى انتابتنى وأنا أقرأ هذا الكتاب الصغير الذى فتح أمامى طاقات جديدة كانت مغلقة تماما . وعلى الرغم من ذلك لم أكن أحب العقاد، وخاصة بعد ارتمائه فى أحضان أحزاب الأقلية ومحاربة كل الاتجاهات الشعبية .

اتصلت بالأستاذ العقاد وحصلت على موعد وكان بيته بـ «مصر الجديدة» ولم تكن لى خبرة بهذا الحى الذى كان بعيدا بالنسبة لنا وقلما كنا نرتاده . ولست أدرى هل بسبب هذه الكراهية، والتى من الممكن أن تؤدى إلى شىء من عدم الاحترام أو بسبب سوء تربيتنا وعدم إدراكنا لأهمية الالتزام بالمواعيد أو لكل هذه الأسباب مجتمعة وصلت متأخرا ساعة كاملة . والحق أن جزءا كبيرا من هذا الوقت ضاع فى السؤال عن العنوان والبحث عنه . وعندما ضغطت على جرس الباب ولم أجد جوابا سريعا عدت فضغطت على جرس الباب مرة ثانية وثالثة، وهنا سمعت صوت أقدام داخل الشقة ولكن الباب لم يفتح وعندئذ ضغطت مرة أخرى، ولم أدرك ما أحدثه تأخيرى على الأستاذ العقاد، الذى كان حريصا على المواعيد بشكل قاطع ولأنه ربما يكون معتقدا بأنه مغضوب عليه من رجال الثورة وأن هذا الصحفى القادم إليه من جريدة الحكومة نوع من الاختبار . ثم هذا الإصرار على دق الباب رغم عدم الرد هل له معنى ما ؟ كنت كالريفى الساذج الذى يخوض فيما لا يعلم .

على أنه بعد قليل من التردد فتح الباب فظهر أمامى خادم نوبى أو أسوانى صاح فى غاضبا : الأستاذ مش موجود .

فقلت له مندهشا : ولكن لدى موعد معه فكيف يكون غير موجود ؟

وهنا لمحت شبحا يختفى وراء الرجل وكان هو العقاد نفسه الذى كان يغلى من الغضب، وكان يلبس بيجامة مقلمة وطرطورا فوق راسه من نفس القماش على الأغلب، وكان الغضب قد بلغ ذروته حتى أنه لم يتمالك إلا أن يظهر ويؤنبنى ويرفض مقابلتى، دفع العقاد خادمه وواجهنى . ويبدو أنه كان يتوقع أن يرى شخصا ضخم الجسم عابس الوجه يتحدث باسم الثورة العسكرية مفترا بمصادر هذه القوة، ولكنه بدلا من ذلك وجد شابا نحيلا فى البدايات الأولى من سنيه العشرين مرتبكا ومرهقا من كثرة السعى بحثا عن العنوان فقال لى : لقد تأخرت وقد ظننت أنك لن تأتى فخلعت ثيابى واستعددت للنوم .

فقلت معتذرا : إننى كنت أبحث عن العنوان لأننى لا أعرف مصر الجديدة جيدا .

فقال والغضب مازال مسيطرا عليه : هل فى مصر إنسان لا يعرف بيت العقاد؟

كان منفعلا، وكان مضحكا فى طرطوره وعصبيته العنيفة وعينيه المتورمتين فقلت له وأنا تقريبا أضحك : نعم المكوجى تحت البيت لا يعرف العنوان .

صمت قليلا ثم ضحك . ويبدو أن خادمه كان لسبب ما مقاطعا لهذا المكوجى ولهذا لم يتعاون معى عندما سألته عن العنوان . نظر إلى العقاد قليلا ثم قال : سوف أستقبلك لكن إياك أن تظن أننى خائف من الثورة أو من محمد نجيب .

وأفسح لى مجالا لأدخل حيث تابعته إلى أن دخلنا حجرة جلوس عادية مثل أغلب هذه الحجرات فى بيوت أبنـــاء الطبقة الوسطى، وقال بشىء من العتاب أو الحزن . أنت ترى أن عينى متورمتان وأننى كنت طريح الفراش لمدة أسبوعين، وأنت أول ضيف أسمح له بالمجىء بعد المرض .

انقبض قلبى وبدأت أكتشف كيف كنت سخيفا وجاهلا، ولأمر ما شعرت بأن هذا الرجل أقرب إلى أن يكون أبى وأننى قد آذيته دون أن أدرى . ويبدو أنه لاحظ غضبى على نفسى

وإحساسى بالذنب فبدأ يتلطف فى الحديث وطلب عصير الليمون والقهوة، واسترخى فى مقعده وراح ينظر إلى جيدا وهو يقول : هل هذه ثورة ؟ إنها ثورة مضادة . حملقت فى وجهه وخطرت على ذهنى الخاطرة التى كانت مخبأة فيه : هل هذه الثورة بديل للثورة التى كانت متوقعة ؟ هل هى جزء من السياق الذى تم فيه حريق القاهرة لإبعاد حزب الوفد عن الحكم ووقف الاندفاع نحو الإصلاح ومقاومة الاستعمار مقاومة عنيفة وإقامة نوع من الحكم الاشتراكى الديمقراطى ؟ صمت قليلا وأنا أسرح فى هذه الأفكار ويبدو أنه اكتفى بهذا أو أن مناقشة الموضوع لم تكن مناسبة فى هذه الظروف، لكن كيف أمن لى الرجل أم أنها إحدى شطحاته المعروفة عنه والتى أوردته السجن فيما مضى ؟

كنت أتكلم معه بحرية تامة، وكنت أواجهه بالاتهامات التى كان اليسار يهاجمه بها، وكنت على طبيعتى تماما لا أتكلف أو أحذر من شىء حتى تلك التهم الجارحة أحيانا، والغريب أنه كان يحتملنى . وعندما انتهت جلستنا كنا قد أمضينا حوالى ثلاث ساعات نتكلم وكنت قد رأيت رجلا جديدا، واسع المعرفة ملما بأدق تفاصيل الدراسات الفلسفية ونظرياتها سواء فى اليمين أو فى اليسار، وكان مفكرا عقلانيا ويعلم الكثير عن التاريخ الإسلامى والأفكار الأساسية فيه .

حقا لم يكن يحب الجماهير إذ كان يعتقد أنها وحش هائل لا عقل له، وأن على المفكرين المبدعين ألا يعرضوا بضاعتهم على الغوغاء، وكان موافقا لتيار معروف فى تاريخ الفكر الإسلامى يخفى عن العامة الحقائق الكبرى التى توصلوا إليها خوفا من أن تعمل هذه الأفكار على إرباكهم وهياجهم العقلى أو النفسى، وكان ابن رشد واحدا من هؤلاء ولعله كان أكبرهم، وهو الذى جعل للقرآن ظاهرا وباطنا ومشى فى التأويل بحيث ابتكر نظرية كاملة، وكان العقاد من هؤلاء إذ كانت آراؤه التى أفصح لى عنها بالغة الجرأة وكانت كأنك تجادل فيلسوفا ماديا أوروبيا موغلا فى العصرية . وقبل أن يكتب الكتاب المعاصرون عن موت الإنسان بمعنى أنه لم يعد السلطة القادرة على ضبط هذا الكون أو عقلنته بعد الاكتشافات الخطيرة فى الفيزياء والفلك والبيولوجى والدراسات الاجتماعية التى ترصد حركة الجنس البشرى وتكتشف ما فيه من خطل وقصر نظر، وأنه لا يمكن أن يكون مناط التغيير أو الإصلاح أو التأثير فى الكون. حدثنى العقاد عن عبث أشياء كثيرة وأنه خير لهذا العالم أن يقتصر عدد البشر فيه على مائتى مليون من النبهاء والمثقفين من أن يعيش فيه عدة مليارات من البشر لا قيمة لهم فى اعتقاده .

بالطبع لم أضمن الحديث شيئا من هذا، إذ تركز حديثنا للنشر فى قضايا متعلقة بإعادة كتابة التراث والفرق بينه وبين طه حسين ومحمد حسين هيكل وبعض القضايا الفكرية العادية، وكان جريئا كعادته وربما كان قاسيا عندما تحدث عن طه حسين، وكان يسميه الشيخ طه. وعندما أخذت الحديث إلى الجريدة وقرأه لويس عوض وإسماعيل مظهر ترددا وخشيا إذا نشراه واحتج عليه من جاء ذكرهم أن ينكر ما قاله لى ويوقعهم فى حرج، فطلبوا منى أن أذهب إليه مرة ثانية وأطلب منه التوقيع على الحديث . ومع أنه كان مطلبا سخيفا إلا أننى أخذت المقال بعد أن أعددت صياغته النهائية وذهبت إلى العقاد، وقرأته عليه فلما أقره طلبت منه أن يضع توقيعه عليه ففعل دون تردد .

ضاع من ذاكرتى متى وكيف نشأت علاقة حميمة إلى حد ما بينى وبين الأستاذ العقاد، لكننى أتذكر أنه كان يتصل بى تليفونيا ويسألنى ما إذا كنت مشغولا أو لدى بعض الوقت، فكنت

أقول بالطبع أنه ليس لدى أى شىء وأننى جاهز للقدوم . وكان عادة ما ينزل من بيته فى مصر الجديدة ويأتى إلى ناشر أعماله صبحى، صاحب مكتبة الأنجلو المصرية الشهيرة، حيث نجلس خلف قاطوع للكتب ونتحدث فى كل شىء، وقد تبينت بعد ذلك أنه غالبا ما يكون ضائقا أو متعبا عندما يتصل بى . كان يعرف أنى لا أحب اجتماع يوم الجمعة الذى يحضره مريدوه إذ كانوا جميعا من غلاة المتعصبين، وربما القليلى الحظ من المعرفة العلمية المعاصرة . كنت أذهب إليه فى مكتبة الأنجلو فأجده متوترا وغاضبا ويفتح معى على الفور حديثا فى سب الدنيا. وكانت لديه مشاكل صحية فى القولون كثيرا ما كانت تؤلمه أشد الألم . وقد مات بهذا الداء فعلا . فيتغير مزاجه تماما .

مع مرور الوقت، ومنذ سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦٤ أى حوالى عشر سنوات، كانت علاقتى بالعقاد شبه مستمرة، وكانت له عادة أن يمر على مكتبة الأنجلو بشارع عماد الدين مرة أو مرتين ـ لا أذكر ـ كل أسبوع . وكان صاحب المكتبة يعامل العقاد كما لو كان مريدا له، وكان العقاد يعطى بعض مواعيده فى المكتبة . كنت دائم السؤال عنه بالطبع، ولكنه كان أحيانا عندما يغادر بيته فى مصر الجديدة إلى المكتبة فى عماد الدين يتصل بى تليفونياً ويبلغنى بأنه ذاهب إلى المكتبة ويدعونى إلى مقابلته - إن كان لدى وقت - وكان دائمــا لدى وقت لمقابلة العقاد .

ومع تكرار هذه اللقاءات لاحظت أنه يكون غالبا غاضبا من شىء ما لأنه كان طوال الوقت يشكو ويتذمر وربما كانت آلام القولون تشتد عليه فى هذا اليوم . وفى آخر لقاء فى هذه المكتبة كان غاضبا جدا، وعندما وصلت وجدته فى مكانه خلف قاطوع من الخشب يضم الكتب المعروضة ويخفيه عن أنظار رواد المكتبة وأمامه أحد أصفيائه "طاهر الجبلاوى" فعندما سلمت أشار إلى صديقه أن يترك لى مقعده لأن المساحة الفارغة وراء هذا القاطوع لا تتسع لأكثر من مقعدين ومائدة نحاسية صغيرة من موائد المقاهى البلدية يوضع عليها عادة فنجان من القهوة وكوب من الماء .

ترددت قليلا لأن صفيه هذا كان فى سن أبى وكان من الكتاب المجيدين، فأشار إلى بلهجة الآمر أن أجلس، وبالفعل جلست . وراح يتحدث أغلب الوقت بالطبع وأنا أصغى إليه، وأذكر أنه قال لى بشىء من الغضب، مهاجما البلد، بأنها لا تقدر نوابغها، فقد استوزرت من لا يستحق، ولم يحاول حزب من الأحزاب أن يستوزره . كنت حينئذ أنظر إلى وظيفة الكاتب فى المجتمع على أنه أجلّ وظيفة وأنها تعلو على أى منصب . فقلت له - صادقا - أنت أكبر من أية وزارة. وبدا أن مثل هذه الكلمات كانت تخفف من غضبه وعصبيته . وبالفعل عندما هم بالانصراف كان أهدأ منه عندما قابلته، وخطوت إلى جانبه حتى غادر المكتبة ووقفت أتابعه وهو يمشى وإلى جانبه صديقه فوجدته يمشى منحنى الهامة ضعيفا فى خطوه وكان صديقه يتأخر نصف خطوة عنه احتراما له . ظللت أتابعه حتى اتجه يسارا ليختفى عن ناظرى فى الشارع الآخر .

أحسست بشىء من الحزن والإشفاق على الرجل الكبير الطيب . كان قد بلغ الخامسة والسبعين تقريبا . وانشغلت وأنا أمشى متجها إلى قهوة بور فؤاد لألتقى بأصدقائى، بهذه الصداقة الغريبة بينى وبين العقاد . وجالت بذهنى عدة أفكار عن هذا الرضاء الغريب عنى من جانبه، على الرغم من أنه يعرف تماما آرائى اليسارية . ولعلى فكرت أننى كنت أحترمه

وأحبه وأقدر جهاده الثقافى وتفوقه، على الرغم من نزعاته اليمينية المتطرفة، فقد كان جوهر فكره إيجابيا، وكان يريد أن يرتقى بالحياة الإنسانية إلى أعلى درجة من المعرفة والسلطان على الطبيعة، وكانت كراهيته للجهل تجعله يكره الجموع غير المتعلمة ويعتبرها كائنا وحشيا يندفع مدمرا بغرائزه دون أن يعرف ماذا يفعل . ولهذا كان من الممكن التجاوز عن رأيه هذا بسبب فهم دوافعه . هل كان يريحه أن يجد شخصا من المعسكر الآخر يعجب به ويقدره بل يحبه كإنسان ؟ ربما كان هذا هو السبب الأساسى . وفى اللقاء العاصف أول مرة ظننت أنه تذكرنى عندما كنت سكرتيرا للجنة نشر الثقافة الإسلامية فى الخارج والتى كان عضوا بارزا فيها إلا أنه لم يحدثنى عن ذلك وأظن أنه لم تصادفنى مناسبة لأحدثه عن ذلك أيضا .

ظللت مشغولا بهذا اللقاء الأخير فقد أحزننى حقا شعور العقاد المحبط وهو فى هذه السن مع مرض القولون المؤلم، وكان من الواضح أن علاقته بسلطات الثورة واهية وربما سيئة، ويبدو أن المستقبل قد أغلق أمامه . على أية حال لم يمض إلا أسبوعان حتى وافته المنية بعد نوبة من نوبات الألم التى كانت تصادفه .

كنت قد أصبحت رئيسا لتحرير مجلة "الكاتب" التى كانت تصدر عن دار التحرير فى هذا الوقت فجعلت المقال الرئيسى فى المجلة عن حياة العقاد محاولا أن أرسم صورة قلمية له، وسميت المقال "عظمة العقاد ومأساته" وقد استغرقت فى تتبع حياته ووجدت كم كانت الحياة صعبة عليه وكم مر بضائقات مالية بالغة السوء حتى باع مكتبته عدة مرات ، وأنه بعد وفاة سعد زغلول زعيم الوفد التاريخى اصطدم بخلفائه وأنه اعتقد أنهم خذلوه بعد وفاة الزعيم وأنهم جحدوا دوره ولم يقدروه قدره . وأدى هذا الخصام إلى اضطراب نفسى عظيم لأن العقاد كان فى حياة سعد زغلول الكاتب الأول لحزب الوفد و"صاحب القلم الجبار" كما كان يسميه الزعيم، والمحبوب على نطاق واسع فكيف ينكرونه ؟ وبالفعل كان هناك إشارات إلى محاولته الانتحار وكأنه كان يريد أن يقول لمنكريه إن الحياة بكل ما فيها لا تهمه وأنهم طامعون فيما لا قيمة له عنده .

على أنه قد أسعف ولم يمت ثم واصل كتابته بعيدا عن الحزب منضما إلى الأحزاب الأخرى وخاصة التى تكونت من انشقاقات عن الحزب . ويبدو أن هذه الفترة كانت من أشق فترات حياته وهى التى باع فيها مكتبته واضطر إلى الاقتراض من بعض معارفه .

كان العقاد فى الثامنة والثلاثين عندما توفى سعد زغلول وكان فى قمة عطائه . ولكن جحود الحزب كان طاغيا وبالغ التأثير . كان رجلا بالغ الحساسية لديه شعور قوى بمواهبه وبكرامته وبما تستحقه هذه الكرامة من احترام وتقدير . ولعله لهذا السبب أبغض حزبه القديم وانتقل هذا البغض إلى برامجه وسياساته وشعبيته . وبسبب كراهيته هذه، كره الجموع الشعبية أيضا من زاوية الجهل وهيمنة الغرائز .

ومع أن العقاد تغلب سريعا على الظروف المصاحبة لخروجه من الوفد، إلا أن الجرح ظل غائراً إلى نهاية حياته . وتجربته هذه من التجارب البالغة الأهمية، والتى تستحق أن تفرد لها دراسة لمعرفة موقع الكاتب فى مجتمع مثل المجتمع المصرى، كان مقسما إلى أحزاب، ولا يجد الكاتب المنشق على حزب الأغلبية إلا سلطات رجعية وأحزاب، إلى جانب سلطة الاحتلال بطبيعة الحال . فأين يذهب ؟ ومن الذى سيفتح صفحاته له، قبل أن تصبح الصحافة أو النشر

صناعة تهدف إلى الرواج لدى القراء ؟ إذ كانت فى خدمة أهداف الناشرين الحزبية مهما تكن ضآلة شعبية هذه الأهداف . لم تكن الصحافة تعتمد فى تمويلها على عائداتها من متابعة القراء والمعلنين بل على المولين الذين يتخذونها لسانا لحال أهدافهم السياسية أساسا . وفى ظل هذه الظروف الصعبة وجد العقاد نفسه وعانى ما عانى ربما إلى آخر يوم فى حياته .

نشرت مقال "عظمة العقاد ومأساته" فى صدر المجلة وذكرت فيه بالطبع لقائى الأخير معه فى مكتبة الأنجلو وحزنه وإحباطه وإشارته إلى أن أحدا لم يستوزره فى الوقت الذى استُوزر من هم أقل منه كثيرا .

عندما أصدرنا الكتاب فى يناير سنة ١٩٦٤، اقترح على صديقى محمد عوده الذى كان فى نفس الوقت عضوا فى مجلس التحرير أن نذهب إلى طه حسين فى بيته، وأن نترك له نسختين كهدية باعتباره أستاذا لنا جميعا، وبالفعل ذهبنا إلى البيت وتركنا النسختين وأصبح طه حسين على علم بالمجلة الجديدة ويبدو أنه ظل يتابعها . لست أذكر فى أى شهر نشر مقال العقاد. ففى اليوم التالى لصدور العدد وجدت مكالمة من طه حسين ليهنئنى على مقالة العقاد، وأضاف قائلا : بالطبع كان يريد أن يكون وزيرا وكانت لديه رغبة جامحة فى ذلك .

لم يكن قد مضى على وفاة العقاد إلا أسبوعين وكنت متألما لذلك خاصة بسبب الظروف المصاحبة لتلك الوفاة . وقد شغلتنى وآلمتنى تلك الملاحظة . فبصرف النظر عن أى مقارنة بين طه حسين والعقاد، يبدو أن عميد الأدب العربى كان يعطى اهتماما كبيرا للوزارة وأنه ظفر بها دون العقاد . بالطبع لم أعلق على هذه الملاحظة وسكت حتى انتهاء المكالمة التى كانت تفضلا من طه حسين .

١١

ديموقراطية .. أم حكم سلطوى

فى سنة ١٩٥٤، كانت مصر تغلى بالأفكار، وتتصارع فيها الاتجاهات، ولم يكن مجلس قيادة الثورة يشكل برنامجا سياسيا واحدا، ولم يكن لديهم تصور واضح عما سيفعلون . هل سيعيدون الحياة الديمقراطية التى كانت مضطربة تماما بسبب ضغوط القصر والاستعمار البريطانى ؟ هل سيدعون الشعب لانتخاب جمعية تأسيسية لصياغة دستور جديد يتخلص من معوقات الديمقراطية مثل سلطات الملك الواسعة ؟ أم هم فرع من أيديولوجية الإخوان المسلمين فيحكمون البلد حسب الرؤية الإخوانية التى لم تكن ترحب بالديمقراطية المتعارف عليها ؟ وهل هم أبرياء حقا من أى علاقة بالقوى الكبرى الخارجية وخاصة الولايات المتحدة ؟ وأذكر أننى كنت ألتقى مع صديقى يوسف إدريس وأصدقاء آخرين فى كافيتريا فندق سميراميس القديم الذى كانت له شرفة واسعة مطلة على النيل . وفى ذاك اليوم كنا وحدنا، أنا ويوسف إدريس ولم يلبث أن انضم إلينا الدكتور حليم دوس، الذى كان شقيقا لصديقتنا ليلى دوس، الأستاذ فى الجامعة الأمريكية آنذاك، وكان هو الطبيب الخاص للسفارة الأمريكية . وكنا نعرف العلاقة بين الثورة والسفير الأمريكى كافرى . وكانت الصحف الأجنبية تسمى ضباط الثورة بأولاد كافرى، لكننا لم نكن نعرف طبيعة هذه العلاقة .

كان المعارضون وخاصة من المضارين من قانون الإصلاح الزراعى والأحزاب القديمة بشكل عام يتهمونهم بأنهم أتباع لأمريكا . وكان اليساريون يتهمونهم بأنهم أقرب إلى فكر الإخوان المسلمين، ولم يستبعدوا بالتالى علاقتهم بالولايات المتحدة . وكان الحديث الذى دار بيننا وحليم دوس عن هذه التبعية الأمريكية بالطبع . لم نكن متأكدين وكنا نجادل الطبيب المصرى ولكنه أخرج من جيبه كتابا صغيرا باللغة الإنجليزية هو كتاب "لعبة الأمم" الذى أصبح شهيرا بعد ذلك، وكان من تأليف "مايلز كوبلاند"، الذى كان ملحقا بالسفارة الأمريكية فى القاهرة ممثلا للمخابرات، وفيه شرح للصلة بين بعض رجال الثورة والسفارة التى بدأت من سنوات قليلة قبل الثورة . وزعم هذا الكاتب أن تدبير الثورة كان بالاتفاق ومساعدة الولايات المتحدة. ومع أن هذا الكتاب ترجم بعد ذلك بسنوات إلى اللغة العربية إلا أن الصفحات الخمس التى أطلعنا عليها الدكتور حليم دوس لم تكن موجودة فى الترجمة .

على أنه بعد ذلك بسنوات، وكانت قد ربطتنى صداقة بمجدى حسنين - أحد الضباط الأحرار ومنشئ مشروع مديرية التحرير - والذى أصبح يساريا إلى حد ما، بعد أن نشأت بينه وبين الاتحاد السوفييتى علاقة بسبب مشروع مديرية التحرير، الذى كان قفزة فى نظريات الإصلاح الزراعى، وبعد أن خدم سفيرا فى جمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية . وربما كانت ميوله الاشتراكية ذاتية مع أنه ينحدر من عائلة شبه إقطاعية فى الريف المصرى . وكنت أحاول دائما أن أتعرف على تفاصيل أحداث الثورة من الذين شاركوا فيها ويعلمون أسرارها وخفاياها . وفى إحدى الليالى، وبسبب أسئلتى، حكى لى مجدى حسنين قصة غريبة كانت هى الحافز الأساسى فى الإقدام على الثورة . قال مجدى حسنين إنه كان أمين الصندوق لتنظيم الضباط الأحرار، وكان يتولى قبض الاشتراكات وتوفير ما يحتاجه التنظيم من مصروفات، مثل شراء آلة كاتبة وطابعة لكتابة وطباعة منشورات الضباط الأحرار وكانت الاجتماعات تتنوع فى أماكنها تجنبا لمراقبة البوليس . وفى ذلك اليوم، الذى يروى لى عنه، كان الاجتماع فى بيته، وكان أعضاء مجلس الثورة مجتمعين عندما دق بواب العمارة جرس الباب فخرج له مجدى حسنين ليجد البواب يقول له إن ضابطا يدعى جمال سالم تحت ويريد الاستئذان فى الصعود إليهم . وكانت مفاجأة بطبيعة الحال، لأن جمال سالم لم يكن عضوا فى التنظيم، ولعلهم التفتوا إلى صلاح سالم شقيقه وكأنهم يتهمونه بأنه أفضى لأخيه بموضوع التنظيم، ولكن صلاح نفى ذلك تماما . وبعد مناقشة، رأى جمال عبد الناصر الذى كان قد انتخب رئيسا للتنظيم منذ وقت مبكر أن يسمحوا له بالصعود، وبالفعل قال للبواب أن يجعله يتفضل بالصعود .

وعندما وصل جمال سالم بدا أن لديه شيئا مهما يريد قوله لهم وأشار إلى أنه يريد أن ينفرد بجمال عبد الناصر، وبالفعل أدخلهما مجدى حسنين فى غرفة أخرى وتركهما وحيدين. ولم يستغرق وجودهما معا أكثر من ربع ساعة وخرجا معا ليعلن لهم عبد الناصر أن جمال سالم انضم إلى التنظيم .

وقال مجدى حسنين إن جمال سالم كان يشكو من آلام فى الظهر، وكان فى حاجة إلى جراحة دقيقة، فأُرسل إلى الولايات المتحدة حيث أجريت له جراحة ناجحة فى مستشفى القوات الجوية الأمريكية، (فى مذكرات عبد اللطيف البغدادى ذكر أن سفر جمال سالم كان إلى إنجلترا) وأنه أثناء وجوده فى المستشفى جاءه شخص وقال له إنه يعمل فى المخابرات الأمريكية، وأن لديهم معلومات عن تنظيم للضباط الأحرار فى مجلس قيادته شقيقه صلاح، وأن الولايات المتحدة ترحب بهذا التنظيم وتوافق على أهدافه بما فى ذلك خلع الملك وتغيير النظام، وأن الولايات المتحدة تؤمن بالطبقة الوسطى وأهميتها وأن من حقها أن تحكم . وهم يعلمون أن العقبة الحقيقية الوحيدة ضد سيطرة الجيش على الحكم هو الجيش البريطانى المتمركز فى قواعده فى مدن القناة، ووعد بأن الولايات المتحدة ستتكفل بتحييد الجيش الإنجليزى .

كان هذا نبأ صاعقا بغير شك، وكانت تقديرات رجال الثورة بأن تحركهم لا يمكن أن يبدأ قبل مضى سنتين أو ثلاثا حسب ما ذكر فى أكثر من مناسبة فى قصة الثورة . وكان هذا الضوء الأخضر هو الذى جعل قيام الثورة ممكنا دون مزيد من الانتظار . وبالفعل تم تنسيق

بين السفارة الأمريكية والتنظيم، وتكفل بهذه المهمة على صبرى، الذى كان ضابط طيران، مع الملحق العسكرى الأمريكى الذى كان هو الآخر ضابط طيران .

ولكن هذه القصة لم تظهر حتى فى مذكرات عبد اللطيف البغدادى الذى كان هو أكبر مسئول لسلاح الطيران فى قيادة التنظيم، ولكن هاهو مسئول آخر بالغ الأهمية لسلاح الطيران ينضم إلى التنظيم هو جمال سالم . وكانت الإشارة إلى العلاقة مع السفارة الأمريكى تأتى عابرة، وكانت قيادة الثورة ترسل على صبرى ليطمئن السفارة على رعاية الأجانب والمصالح الأجنبية، وكان اختيار على صبرى بالذات بسبب علاقة صداقة تربطه بالملحق الجوى . وقليلا ما وجدت تفسيرا أو حديثا صريحا أو حتى غير صريح عن هذه العلاقة التى كانت حديث الصحف الأجنبية إبان الثورة .

على أن حديثا لخالد محيى الدين، عضو مجلس قيادة الثورة حينئذ، تحدث فيه مؤخرا إلى نبيل زكى، رئيس تحرير جريدة "الأهالى" قال فيه أنه ذهب ومجموعة من مجلس قيادة الثورة من بينهم جمال عبد الناصر إلى منزل عبد المنعم أمين، أحد أعضاء خمسة جدد انضموا إلى المجلس تلبية لدعوة على العشاء، حيث وجدوا السفير الأمريكى "جيفرسون كافرى" ومستشار السفارة السياسى "إيفانز". وجرى الحديث على العشاء حول رغبة الولايات المتحدة وبريطانيا فى إزاحة الوفد عن العمل السياسى بسبب تجاوب الحزب مع الضغوط الشعبية . وكان آخر عمل لهذا الحزب فى الوزارة هو إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وتشجيع الأعمال الفدائية حول المعسكرات الإنجليزية فى مدن القناة، وأن هذا التجاوب قد يؤدى إلى الشيوعية . وقال خالد محيى الدين بالضبط : "القوتان الرئيسيتان أمريكا وبريطانيا لم تكونا متحمستين لعودة حزب الوفد . ومن ناحية أخرى فإن الحياة النيابية من شأنها تقوية اليسار والشيوعية" .

وكان من الواضح أن ضباط الثورة كانت تربطهم ببعضهم البعض الرغبة فى الإصلاح، وكان قد أمكن نشوء رأى عام داخل الجيش هو الذى أدى إلى نجاح مرشح التنظيم فى انتخابات نادى الضباط محمد نجيب ضد مرشح السراى الملكية حسين سرى عامر . ومن يقرأ وثائق الثورة من مذكرات أو سير ذاتية، سوف يدرك أن عبد الناصر نجح فى أن يهيمن على التنظيم، ثم إدارة الثورة ثم الاستئثار بالقيادة، وإبعاد جميع زملائه الذين عارضوه . وكان فى مقدمة المبعدين، اليساريون الذين أبعدوا منذ وقت مبكر جدا، خالد محيى الدين ويوسف صديق، رغم دورهما البالغ الأهمية فى نجاح الثورة وخاصة يوسف صديق . وحسب مذكرات عبد اللطيف البغدادى كان عبد الناصر يحابى الإخوان المسلمين ويبدو أنه كان يريد نوعا من التحالف يقوده هو، بينما كانت قيادة الإخوان تريد أن تعتبر المنظمة العسكرية تنظيما تابعا لها، وأنها هى التى توجهه، وهكذا اصطدم الفريقان .

وعندما أتذكر بعض هذه الأحداث فى البداية أرى أنه كان من الصعب أن يستطيع جمال عبد الناصر إغراء بعض قيادات الإخوان بالانضمام إليه والانشقاق على الإخوان مثل حسن الباقورى ومحمد الغزالى وسيد سابق وغيرهم بعد ذلك، ما لم يكن لدى هؤلاء اعتقاد بأن إيديولوجية الثورة إخوانية أو متفقة معها على الأقل . وعندما انضممت إلى محررى جريدة الجمهورية فى بدايتها كانت تضم مختلف ألوان الطيف من الكتاب والصحفيين وأذكر أننى كنت أجلس فى حجرة واحدة مع سامى داود، الذى كانت لديه نزعات اشتراكية، ومع عميد الإمام

الذى كان فلسطينيا من الممكن أن يحسب على اليسار أكثر من أى شىء آخر . إذ كان حداثيا على الأقل، وكذلك محمد على ناصف الذى كان ملحقا فى سفارة مصر فى واشنطن قبل أن ينضم إلى أسرة تحرير جريدة الجمهورية، وكان أمريكيا متعصبا يدافع عن مكارثى دفاعا مجيدا ضد المخربين الشيوعيين الأمريكان . وكان يعتقد أن مكارثى يؤيد العرب فى الصراع العربى الإسرائيلى !

وكان هناك أيضا شاب أسمر نحيل القامة لم يزل يلبس الطربوش هو عبد العزيز عبد الله، الذى جاء إلينا من الجامعة الأمريكية، والذى برزت مواهبه فى العمل النقابى بعد ذلك. فى هذه الحجرة العجيبة والتى كانت تشكل "مطبخ" الجريدة جاءنا خالد محمد خالد لأول مرة ليشترك فى الكتابة . كان شابا نحيلا دخل هذه الحجرة مترددا إذ أدرك على الفور أنه يدخل مكانا على اليسار منه، على الرغم من سمعته الثورية منذ كتابه "من هنا نبدأ" .

وربما كان هذا الوضع معبرا تماما عن طبيعة الثورة وفسيفسائها المتعددة . وكان من مواريث الحركة السياسية فى مصر هؤلاء المجاهدون الذين يؤمنون بضرورة العنف لتحقيق الأهداف الثورية بما فى ذلك الاغتيالات السياسية . ومثل هذه الإيديولوجية كانت تؤمن بالزعامة وتقدير الزعيم واتباعه، وربما كانت صورتها "المستبد العادل" والتقيت بعدد من هؤلاء الذين كانت لهم صلة بالفن أو الأدب أو الفكر ومنهم الموسيقى مدحت عاصم بسمته القوى ومشيته الواثقة وكان اكثر تعبيرا عن مثل هذه الأفكار بحركة جسمه من فتحى رضوان وأحمد حسين . وكان للحزب الوطنى بعض من هذه الأفكار أيضا توارثها هؤلاء الرجال .

الحق أن مصر بالفعل كانت حبلى بالثورة، وكان التغيير قد أصبح مطلبا أساسيا، عليه إجماع من غالبية القوى السياسية، وكان هذا حال ضباط الثورة أو الانقلاب . ويبدو أن الرجل الذى كان أكثرهم مرونة وطواعية لمقتضيات الواقع هو جمال عبد الناصر، الذى كان كثيرا ما يتحدث عن الديمقراطية ويهدد بالانسحاب من التنظيم عندما يطالب زملاؤه بالحكم السلطوى "لدواع أمنية أو ثورية"، ولكنه كان أكثرهم اعتمادا لمبدأ القوة . هكذا تم إعدام عمال كفر الدوار الذين أضربوا عن العمل فى بداية الثورة هو لإرهاب الآخرين، وكان هو الذى يأمر باعتقال الشيوعيين والوفديين قبل أن تسوء علاقته بالإخوان . وفى مذكرات عبد اللطيف البغدادى لم يستغرق الحديث عن إعدام عاملى المحلة وكفر الدوار إلا سطورا قليلة ودون أى إحساس بالقلق .

١٢

اتهمونى بتدبير مؤامرة

من ناحيتى، لم أكن واثقا من اتجاه الثورة . إذ كنت متشبعا بفكر الحداثة والديمقراطية الحقيقية وبفكرة العدل الاجتماعى، التى تقتضى شيئا من إعادة توزيع الثروة، ومسئولية الدولة الاجتماعية عن المشاكل الناتجة عن عدم تكافؤ الفرص بين أبناء الشعب . ولكن الإصلاح الزراعى الأول كان مؤشرا جيدا وكنا نشعر بشكل ما أن هذه الثورة ليست إلا مشروعا سوف تشكله الأحداث، وسوف تضطره إلى الالتزام بالإصلاحات الضرورية التى حلم بها الشعب المصرى والطبقة الوسطى بشكل خاص .

وعلى الرغم من شبح فكرة "الثورة المضادة"، فإننا لم نفقد الأمل فى التطور نحو الأسلوب الذى نعتقد بصحته .

حقا كان إعدام عاملى كفر الدوار "خميس والبقرى" مؤشرا آخر على نزعة فاشية عنيفة، ولكننا كنا نكتب فى اتجاه التحولات الاشتراكية دون أن نُمنع بشكل صريح . كنا غير متأكدين من اتجاه الثورة الحقيقى، وكنا نعرف أن القيادة مشكلة من عدة اتجاهات وليس من اتجاه واحد .

كان اهتمام الثورة بالإذاعة سابقا لكل اهتمام بسائر وسائل الإعلام، ومنها الصحف، وسرعان ما أنشئت إذاعة صوت العرب، التى كانت موجهة إلى البلاد العربية، وكانت صوتا جديدا بالنسبة للإذاعات، واستطاع أحمد سعيد، وهو إذاعى شاب موهوب، أن يجعلها صوتا مسموعا . حقا كان يشرف عليها رجل مخابرات كبير هو فتحى الديب، الذى كان ضابطا من الضباط الأحرار فى نفس الوقت، ولكن موهبة أحمد سعيد كانت السبب المباشر فى نجاح هذه الإذاعة .

وكنت أعرف أحمد سعيد، ولعلى اشتركت فى كتابة التمثيليات بناء على طلبه . وأذكر أنه استدعانى ذات يوم، وطلب منى أن أكتب تمثيلية قوية ضد الاستعمار البريطانى بغرض تعبئة الجماهير العربية ضدهم، وبسبب عدم ثقتى، سألته عن مدى الحرية فى كتابة مثل هذه التمثيلية، فقرأ علىّ تعليقا إذاعيا له بالغ القوة . وبالفعل كان صديق لى هو عبد العزيز فهمى الذى، كان مديرا للأخبار فى الإذاعة قد وضع كتابا بعنوان "الاستعمار عدو الشعوب" وكان قد

أهدانى نسخة منه قبل وقت قليل . وكنت قد قرأته . وكانت فكرته الأساسية هى إثبات أن الظاهرة الاستعمارية ليست لاستغلال الشعوب المستعمرة فقط، بل إنها تستغل حتى شعبها نفسه . وأن النهب الاستعمارى لا تستفيد منه إلا الطبقة الرأسمالية، بينما يعانى الشعب من الاستغلال الداخلى . وضرب أمثلة على ذلك عمليات الإضراب العمالية التى كان يقوم بها العمال الإنجليز فى بلادهم .

وعندما عرضت فكرة اعتمادى على هذا الكتاب فى كتابة التمثيلية على أحمد سعيد وافق متحمسا . ويبدو أنه أثناء المفاوضات الجارية بين حكومة الثورة والحكومة البريطانية بشأن الجلاء عن مصر، كان المصريون يفكرون فى حصار الإنجليز بحملة دعائية قوية فى كل أنحاء العالم العربى، وهو الأمر الذى بلغ لأحمد سعيد ورأى، أن يستعين بى .

كتبت التمثيلية بالفعل، وتركتها لأحمد سعيد ليختار مخرجها ويدفع بها إلى التنفيذ . وفى هذه الأثناء عينت الحكومة السيد بدير، الذى كان ممثلا ومخرجا ناجحا، مديرا للتمثيليات بالإذاعة . وكنت قد كتبت تمثيلية أو اثنتين أخرجهما لى السيد بدير، وكان لديه اعتقاد بأنى كاتب يسارى "ثورجى" . وقد كلفنى بكتابة تمثيلية عن حادثة ٤ فبراير سوف أوافق . . فقد جاء ذكر الحادثة فى أدبيات الثورة بمعنى أنها نبهت الضباط الأحرار إلى الإذلال الذى أحدثه الاستعمار البريطانى، عندما أحاطت الدبابات البريطانية بسراى عابدين، حيث يقيم الملك فاروق، وأمر السفير البريطانى له بأن يستدعى النحاس باشا زعيم الوفد لتشكيل الوزارة فورا، أو يوقع على وثيقة تنازله عن العرش .

وجرت حادثة ٤ فبراير فى وقت كان القائد الألمانى روميل يدق فيه أبواب مصر فى معركة العلمين . وكانت حياة الناس بالغة الصعوبة، إذ يقف الناس فى طوابير طويلة للحصول على الخبز أو الدقيق . وكانت مظاهرة قد سارت فى شوارع القاهرة تهتف : "تقدم يا روميل" . وقد أساءت حادثة ٤ فبراير إلى شعبية حزب الوفد، والتى اتخذها رجال الثورة ذريعة لتشويه سمعة الحزب .

كان السيد بدير يريد أن يقول لقيادة الثورة أنه يفهم تماما ما يريدونه من الإذاعة ومن الفن، وأنه قادر على تحقيقه . ولذلك استدعانى وطلب منى تمثيلية "قوية" عن حادثة ٤ فبراير . وقال لى أنه سيذيع هذه التمثيلية فى ٤ فبراير سنة ١٩٥٤ الذى يصادف يوم خميس، والذى ستغنى فيه أم كلثوم لأول مرة فى عهد الثورة، بعد رجوعها من رحلة غياب طويلة للعلاج من مشكلات "الجويتر" (تضخم الغدة الدرقية) ومضاعفاته، وأن رجال الثورة سوف يحضرون جميعا هذا الاحتفال فى سينما ريفولى . واستطرد موضحا أن نشرة الأخبار تنتهى فى التاسعة والنصف لتدخل التمثيلية مباشرة ليعقبها على الفور صوت أم كلثوم، الذى تجمعت له كل الأسر المصرية بجوار الراديو، وكأن مصر كلها سوف تستمع إلى هذه التمثيلية . لكننى لم أكن مقتنعا بخيانة حزب الوفد .

وقد تحدثت من قبل عن مشاهدتى للدبابات الإنجليزية وهى تحاصر قصر عابدين أثناء عودتى إلى مسكنى، الذى كان قريبا من القصر، وعن شعورى اللامبالى بما يحدث للملك وللنظام كله . والغريب أننى لم أكن أحب الألمان ولا الإنجليز بطبيعة الحال على العكس من الفكرة السائدة بالتحالف مع الألمان لإجلاء الإنجليز، وكان هذا رأى أبى .

ومن المؤكد أننى لم أكن لأنضم إلى المظاهرات التى تهتف : "تقدم يا روميل" . بل كنت متفهما بصورة ما أن هذه الحرب هى بين الفاشية والديمقراطية، وأنه لو قدر لى الاختيار لاخترت الديمقراطية، ثم نصفى بعد ذلك وضعنا مع الاستعمار . كيف وصلتنى هذه الفكرة حينذاك وقد كنت فى الخامسة عشرة من عمرى أو أكثر قليلا ؟ كنت قد اتصلت بالتنظيمات اليسارية، ومن المؤكد أن مثل هذه الفكرة تلقيتها منهم . وكنت - مثل أغلب المصريين - أحب النحاس باشا أكثر من أى سياسى آخر. ولا أتصور أن قبوله للوزارة وتعنته مع الملك يعتبر خيانة، أو أنه جاء للمنصب على أسنة الرماح، كما جرى بذلك القول آنذاك .

وها قد مضى أكثر من اثنى عشر عاما على هذا الحادث، عندما كلفنى السيد بدير بالكتابة عنه، ولكن فكرتى عنه ما زالت كما كانت . وقد عشت هذه الفترة وأنا أرى وأشارك فى المظاهرات التى تدعو إلى الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية . وهاهو ذا مشروع التحديث ذو البعد الاجتماعى الذى كان يعبر عنه شباب الطليعة الوفدية ويتقبله النحاس باشا وعدد من رجال الحزب الكبار - فى ظننا على الأقل - ثم راحت القرارات التقدمية تتتابع، بدءا من مجانية التعليم التى جاء بها طه حسين، الذى كنا نحبه فى كل مراحله، ومهما يكن موقعه من هذا الحزب أو ذاك، إلى إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وإصلاح القوانين العمالية، فضلا عن إغماض العين عن الفدائيين الذين ذهبوا إلى معسكرات الإنجليز فى مدن القناة، وراحوا يهددونها .

وعندما أتذكر تلك الأيام، أشعر أننى كنت أعيش حلما عظيما بالحرية والتقدم، وأن تحقيقه أصبح قاب قوسين أو أدنى . ولكن الأمور لم تمض بعد ذلك إلى ما حلمت به، وإن جاءت ثورة أو سلطة جديدة قلبت النظام القديم كله، ولكننا نشتبه فيها، غير قادرين على الاستسلام لها بشكل نهائى ولا مقاومتها ومعارضتها بشكل مؤكد، على أن الشىء الذى كنت واثقا منه هو أن حادث ٤ فبراير لم يكن عارا على حزب الوفد . ولذلك اعتذرت للسيد بدير دون أن أشرح له الأسباب، إذ كنت أعتقد أن اعتذارى سيجرنى إلى جدل معه لا طائل من ورائه .

وكان طلب السيد بدير كتابة هذه التمثيلية قبل موعد الإذاعة بأسبوعين، وبالفعل كان من الصعب علىّ أن أنجزها فى هذا الوقت القصير، وأظن أن ذلك كان عذرى للسيد بدير، ولكنه لم يتملكه اليأس، وسألنى عما إذا كان لدى أى عمل إذاعى جاهز له طابع سياسى، فقلت له إننى كتبت تمثيلية سياسية ضد الاستعمار الإنجليزى لإذاعة صوت العرب وأنهم لم ينفذوها بعد، وأنها لدى أحمد سعيد، ويستطيع أن يطلبها منه .

ويبدو أن الرجل كان يعتقد أنه بعرضه تمثيلية سياسية فى هذا اليوم المشهود لأم كلثوم سوف يثبِّت وضعه لدى رجال الثورة، الذين يظنون أنه مجرد فنان لا علاقة له بالسياسة. وبالفعل ذهب إلى أحمد سعيد وطلب منه التمثيلية ثم دفعها إلى مخرج قادر على الإثارة هو يوسف الحطاب، الذى كان صديقا لى أيضا، والذى أبلغنى على الفور بأنه سيشرع فى إخراجها واقترح علىّ اسما بالغ الإثارة هو "مصاصو الدماء"، ولم أعترض رغم كراهيتى الطبيعية للمبالغة، ولكن يبدو أن الحطاب وربما السيد بدير أيضا كانا سعيدين جدا بهذا العنوان .

أبلغني الحطاب بموعد البروفة الأولى، وكان علىّ أن أحضر لأشترك مع الممثلين فى تصحيح النسخ المكتوبة على الآلة الكاتبة، وانني كانت دائما مليئة بالأغلاط . ذهبت إلى الإذاعة بشارع الشريفين، ودخلت غرفة البروفات ففوجئت بالحاضرين . لم تكن التمثيلية من ذلك النوع الذى يتشكل من "شخصيات" أو ذات طابع أدبى خالص. إنما كانت الشخصيات التى أظهرتها فيها يشار إليها بصوت (١) أو (٢) وبالتالى ليست فى حاجة إلى ممثل كبير، ولكننى وجدت يوسف وهبى ومنسىّ فهمى وأمينة رزق وغيرهم من كبار الممثلين الذين لا تناسبهم مثل هذه البرامج ذات الطابع الإعلامى والسياسى .

وقفت مذهولا حتى نبهونى بأن أجلس وأتابع القراءة للتصحيح . وسرحت بطبيعة الحال فى هذا الاحتشاد الهائل لتمثيلية، مهما تكن فهى مجرد تحويل كتاب سياسى خالص إلى عمل درامى إذاعى . على أننى قلت لنفسى : "لا دخل لك، هما أرادا ذلك"، أعنى المخرج ومدير التمثيليات، وربما كانت لديهما وجهة نظر ما .

وفى يوم الإذاعة اصطحبت صديقا لى كان من زملاء التنظيم السياسى اليسارى قبل أن أعتزله ليسمع التمثيلية ويقول لى رأيه فيها . وأذيعت التمثيلية فى هذا الجو الصاخب من عودة أم كلثوم واهتمام الناس جميعا بهذه المناسبة . وما إن انتهت حتى رأيت وجوما على وجوه الجميع، إذ كنا نستمع إليها فى بيتى، وقال صديقى الذى كان مدرسا للغة الإنجليزية فى المدارس الثانوية : "كيف وافقوا على هذه التمثيلية ؟!" وقبل أن أجيب وجدت أبى يخرج من حجرة أخرى ويقول لى : "كيف تكتب فى الإذاعة الحكومية مثل هذا الكلام الشيوعى الصارخ ؟!"

وعلى الرغم من قلقى خاصة بعد سماع التمثيلية التى برع يوسف الحطاب فى إخراجها البالغ الإثارة، فقد قلت لهم: إنكم تظلمون الثورة، إنهم تقدميون حقيقيون .

خرجنا من البيت أنا وصديقى، الذى صار عليه أن يراجع موقفه من الثورة بعد سماع التمثيلية فلابد أن تكون الحكومة موافقة على هذه الآراء وإلا كيف أذيعت على الناس فى هذا اليوم الباهر ؟

كنا عادة ما نذهب إلى الإذاعة فى اليوم التالى لإذاعة البرامج التى نكتبها لنقبض مكافأة التأليف . وكان على الداخل إلى مبنى الإذاعة أن يهبط درجتين حيث يوجد مصعدان على الجانبين يجلس بينهما عادة رجل أمن من موظفى الإذاعة، وكان من عادتى أن أحيى هذا الرجل أو زميله وأنا أتجه إلى المصعد، وكان الرجل سمح الوجه لطيفا، وعلى الرغم من أنه لم يجر بينى وبينه أى حديث طوال السنتين الماضيتين، أى منذ الثورة، إلا أن شيئا من الارتياح النفسى كان قائما بينى وبينه، ولعله كان يتابع تمثيلياتى ويشعر بشىء من الرضا عنها. وكالمعتاد حييت رجل الأمن وأنا أتجه إلى المصعد حيث اتجهت إلى الحسابات لأحصل على إذن صرف المكافأة، وكانت مزدحمة بالمتعاملين مع الإذاعة، فوقفت أنتظر دورى . وبعد قليل وجدت شخصا يهمس فى أذنى من ورائى قائلا : "لا تنظر خلفك . إن اثنين من المخبرين جاءا من أجلك وقد أشرت لهم عليك . . خذ بالك" . وشعرت بالهامس وهو يبتعد ولم أملك إلا أن أختلس إليه نظرة سريعة وأنا أشعر أنى مراقب، فوجدت هذا الرجل الطيب، رجل أمن الإذاعة .

لم أضيع وقتى فتركت إذن المكافأة وصعدت إلى مكاتب الموظفين لألتقى بـ "أركان حرب الإذاعة"، وكان هذا هو لقبه، إذ كان يرأس الإذاعة صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الإرشاد القومى، ويديرها "أركان حرب". وكان هذا الرجل (عبد المنعم السباعى) ضابطًا فى الجيش محبا للصحافة والشعر قبل أن تندلع الثورة، وكنت أعرفه من خلال عملى فى الصحافة وخاصة مجلة "روز اليوسف" التى كان يكتب فيها . كان ممتلئ البدن خشن المظهر، لكنه ذو قلب رقيق، وكتب بالفعل أغانى جميلة بالغة الرقة فى الحب والحياة، غناها عبد الوهاب وأم كلثوم . وكنت أمر عليه فى غرفته فأشرب معه فنجانا من القهوة ونتحدث قليلا فى أمور حياتنا حتى أصبح بالفعل صديقا لى . قررت أن أذهب إليه مباشرة وأعرف منه ماذا حدث بالضبط . كان من عادتى أن أفتح بابه دون المرور على سكرتيره، الذى كان أيضا "صولا" من الجيش . وما إن اقتربت من باب مكتبه حتى قفز هذا الصول واعترضنى قائلاً إن "البك" لديه اجتماع .

وقفت مذهولا وصور كثيرة تتداعى على ذهنى، ولعلى كنت أفكر فيمن يجب أن أذهب إليه لأعرف حقيقة ما حدث وخطر على بالى بالطبع يوسف الحطاب، مخرج التمثيلية وشريكى فى "الجريمة"، وكان لمخرجى الإذاعة غرفة تضم عددا من المكاتب، فذهبت إليها على الفور، وما إن فتحت الباب حتى وجدت يوسف الحطاب ممدداً فوق مكتبين ضما إلى بعضهما البعض ليتسعا لجسده الممدد، وكانت المذيعة آمال فهمى تهوِّى على وجهه بورقة ووقفت إلى جانبها المذيعة فضيلة توفيق، فى محاولة للترويح عن زميلهما المخرج فاقد الوعى أو المضطرب. حييتهم تحية الصباح بصوت غير سوى فإذا بيوسف الحطاب يهب جالسا ويصيح فى وجهى : وديتنا فى داهية يا ...

وجدتنى أقمعه بعنف ربما بسبب خوفى واضطراب أعصابى، وأظنه جلس فوق المكتب وراح يجيب على أسئلتى فيما يشبه الهلوسة . وفهمت أن هناك اتهاما خطيرا بالمشاركة فى مؤامرة ضد الثورة .

كنت أعرف رقم التليفون الداخلى لعبد المنعم السباعى – أركان حرب الإذاعة – فجلست إلى مكتب من هذه المكاتب الفارغة وطلبته فأجاب على قائلا فى استعطاف : "أرجوك أبعدنى عن هذا الموضوع، إنه موضوع خطير وليس لى دخل به" .

كان من الواضح أن الخوف قد استولى على الجميع، وكان لابد أن أذهب إلى مكان آخر. كنت أعمل بجريدة الجمهورية وكذلك يوسف الحطاب، الذى كان يزودنا بأخبار الإذاعة وببعض التعليقات على أعمالها، وكان رئيس التحرير هو حسين فهمى، الذى كانت تربطه برجال الثورة علاقة ما قد يكون لها خلفية عائلية، وكان قبل الثورة رئيساً لتحرير جريدة "الزمان"، التى كان يصدرها صحفى من أصل لبنانى متمصر هو إدجار جلاد . وكان مهنيا جيدا وإنسانا جيدا أيضا فطلبته فى التليفون فما إن سمع صوتى حتى صاح : "أنت فين ؟ تعالى فورا، أنت ويوسف الحطاب" .

عندما وصلنا إلى مبنى الجريدة رأينا نظرات الاسترابة فى عيون رجال الأمن المسئولين عن استقبال الداخلين سواء من العاملين أو من غيرهم . وفى حجرة حسين فهمى عرفنا الموضوع .

كُتب تقرير عن التمثيلية يقول إن هناك مؤامرة دبرها اليساريون بانتهاز فرصة اليوم الذى يحتشد فيه المصريون لسماع أم كلثوم فتذاع هذه التمثيلية التى تشجع إضراب العمال وتحضهم على التظاهر، خصوصا عمال كفر الدوار، الذين أعدم منهم عاملان هما خميس والبقرى منذ فترة قصيرة، فتشتعل كفر الدوار ثم تنتقل المظاهرات إلى المدن العمالية الأخرى وتنضم إليها الحشود الشعبية ويعمل المدبرون على إسقاط الحكومة .

ولكن كيف أذيعت التمثيلية مع وجود رقابة حاسمة على كل كلمة تذاع من الإذاعة ؟ فقيل إننا خدعنا المسئولين ومررنا التمثيلية دون أن يلتفت إلى خطورتها أحد منهم .

واتضح بعد ذلك أن التمثيلية لم يقرؤها أحد، لا السيد بدير ولا أركان حرب الإذاعة ولا أى مسئول آخر . أما يوسف الحطاب، المخرج، فربما كان متواطئا هو الآخر . ولم يتم القبض علىّ ولا على يوسف الحطاب ريثما يرجعون إلى صلاح سالم الوزير المسئول ليعرف تفاصيل الموضوع بالضبط، وبناء على ذلك يتم التعامل معنا .

بعد أن أوضح لنا حسين فهمى القصة، طلب منا ألا نغادر مبنى الجريدة حتى يتم التحقيق ويتخذ قرار بشأننا . كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة صباحا وانصرفت إلى مكتبى. وكان جميع العاملين فى الجريدة قد عرفوا بالقصة وأصبحوا ينظرون إلىّ بنوع غريب من الإشفاق لا يكاد يقل عن الشماتة، فهاهو ذا واحد من بينهم يساق إلى مذبحة . ليس مهما أن تعرف القصة بالضبط ولكن هكذا يكون مصير سيئ الحظ، الذى يخطئ فى حق السلطة القائمة .

كنا قريبين جدا من شهر مارس، الذى ستقع فيه الأحداث الشهيرة باسم "أزمة مارس"، وكانت الصراعات بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر قد بدأت . وكان التوتر مسيطرا على جو مجموعة الضباط بسبب النزاع على من تكون له اليد الطولى فى توجيه سياسة الثورة أو الانقلاب . على أنى كنت أرى زميلا يأتى إلىّ فيخبرنى أن الموضوع حفظ أو أن هناك قرارا من وزير الداخلية، وأظنه كان زكريا محيى الدين بالقبض علىّ، وظل هذا حالى حتى الساعة العاشرة مساء، حيث جاء القرار بأن يوسف الحطاب بعيد عن فكرة التآمر وأننى الذى خدعته، وبناء على ذلك تقرر إبعاده من الموضوع وتركه يعود إلى بيته . وبالفعل عاد الحطاب إلى بيته آمنا، وبقيت أنا فى انتظار عودة صلاح سالم من السودان .

كان ضباط الثورة يلتقون ليلا فى مبنى جريدة الجمهورية فى حجرة أنور السادات، الذى كان رئيساً لمجلس إدارة الدار . وبقيت منتظرا وأنا أحسب ألف حساب لهذه الكارثة، ولسوء الفهم العجيب الذى يحيط بى . وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل استدعيت لأمثل أمام صلاح سالم ورفاقه فى حجرة السادات . كان مكتب السادات فى صدر الغرفة من ناحية الباب، بينما كان هناك كنب يغطى كل الحائط المجاور للباب وكذلك الحائط المتفرع منه، وفى مواجهة الداخل يوجد مقعدان كان يجلس على الأول منها أنور السادات وعلى الثانى صلاح سالم . فى هذا الوقت لم يكن مثلى يعرف محمد نجيب إلا من صوره ومن ظهوره للجمهور بين وقت وآخر، وكنت بالطبع أعرف أنور السادات وصلاح سالم الذى كان يلعب دور المتحدث الرسمى باسم الضباط . أما الباقون فلم أكن أعرف منهم أحدا .

عندما دخلت إلى الغرفة، تلفت يمينا وشمالا فشاهدت عددا كبيرا من الضباط فى زيهم العسكرى ولم يشذ أحد . . حتى صلاح سالم وأنور السادات، كانا فى ثيابهما العسكرية أيضاً،

على أنى التفت فوجدت حسين فهمى واقفا خلف المكتب يتطلع إلىّ مشفقا . كنت منهكا إلى حد السقوط، فهأنا منذ الصباح وحتى الآن أعانى من توترات المصير المشئوم الذى راحت تهددنى به التنبؤات المختلفة التى كانت تأتى طوال الليل . وهأنذا أقف أمام هؤلاء العسكر الذين يملكون السلطة الكاملة على الدولة، والذين تصدر قراراتهم بلا مراجعة من أية سلطة أخرى . وأحسست أننى فرد وحيد أمام سلطة مطلقة لا رادع لها . لم تحمنى نقابة أو صحافة أو حزب أو رأى عام . وحيد تماما ربما لم أعرف هذا النوع من الوحدة والضياع من قبل. وأدركت مدى بشاعة الظلم الذى يشعر به الإنسان فى مثل هذه الظروف . كان صلاح سالم خشنا إلى درجة غير عادية وابتدرنى قائلا بشكل عدائى : قل لى من معك فى هذه المؤامرة ؟ قل وإلا سوف ترى الويل .

الحق أننى أحسست إلى جانب الشعور بالوحدة والظلم، أن الموقف كله عبثى والأمر ما تملكتنى شجاعة تأتى من اليأس فى العدل، وأننى لم أرتكب فى الحقيقة أى خطأ فرحت أحكى لصلاح سالم كيف كتبت التمثيلية لصوت العرب، وأن الذى أخذها دون أن يقرأها هو السيد بدير والآخرون المسئولون عن القراءة، وأن سياسة صوت العرب مختلفة عن سياسة البرنامج العام . ولكنه كان يقاطعنى ويزعم أنه سأل أحمد سعيد فأنكر هذه القصة، فطالبته بأن يأتى بأحمد سعيد ويواجهنى . وكنت بين لحظة وأخرى ألقى نظرة سريعة بين سؤال وجواب على هؤلاء العسكر، فأشعر بجو عدائى يحيط بى من كل جانب، ولكن السادات كان يعقب على أقوالى قائلا بصوته المميز : "صح" وكان هذا هو الشىء الوحيد المطمئن بين تلك المساحة المليئة بالتوتر والتحفز .

لست أذكر بالضبط كم استغرق هذا الاستجواب، ربما خيل إلىّ أنه استغرق ساعات، لكنه لم يستغرق فى الغالب أكثر من عشرين دقيقة . وأثناء جدالى ودفاعى عن نفسى، وأنا أواجه صلاح سالم، شعرت بأن خطرا يتهددنى خلف رأسى، حتى أننى شعرت بأن شعر رأسى يقف وأن علىّ أن أنظر خلفى سريعا حتى أقفز بعيدا عن هذا الخطر . وهنا رأيت الرجل الذى يجلس على حافة الكنبة خلفى ويتكئ بذراعه على جانب الكنبة، كان مائلا إلى الأمام يصغى بانتباه، وكان ذا عينين لهما لون غريب بين الأصفر والرمادى، وعندما واجهت عيناى عينيه انصرف عنى ولوح بيده لصلاح سالم الذى قال لى : تفضل . . امش . .

وقفت ثوانى مترددا ثم استدرت خارجا وخرج فى إثرى حسين فهمى، الذى كان فرحا بالنتيجة وقال لى إن الموضوع قد انتهى، وهنأنى على ذلك . ولكنى سألته عن هذا الرجل الجالس ورائى، والذى أعطى الأمر بإنهاء التحقيق، فقال إنه جمال عبد الناصر .

كنت فى العشرينات من عمرى، ولا أملك أى شىء من أسباب القوة، ولذلك كان غضبى شديدا وشعورى بالظلم والإهانة كان طاغيا ولعلى عرفت فى تلك الليلة بشكل مباشر الوجه البشع للسلطات المطلقة .

عندما أويت إلى فراشى قررت أن أمسح مشاهد اليوم من ذاكرتى ومن حياتى، على أننى عندما ذهبت إلى الجريدة فى ظهر اليوم التالى، جاءنى سكرتير رئيس التحرير ليعطينى خطاب فصلى من العمل . وفى نفس اليوم علمت أن لافتة كبيرة وضعت على الباب الخارجى لمبنى الإذاعة بمنعى من الدخول .

١٣
فى بلاط "روزاليوسف"

كنت العائل الأول المسئول عن أسرتنا المكونة من تسعة أبناء والوالدين، وكان فصلى من العمل بالجمهورية ومنعى من الكتابة للإذاعة كارثة بمعنى الكلمة، وكنت ما زلت موظفا بالأزهر، وكان مرتبى من هذه الوظيفة هو الدخل الأقل فى جميع نشاطاتى، ولكنه كان رقما موجودا على أية حال .

وكنت أعرف أننى أبحر فى بحار عميقة بلا أية مساعدة . كنت أعرف بالضبط ما هو المطلوب منى فى هذه الحياة . كنت أطمح إلى عالم عادل بفرص متكافئة للجميع، وربما لأننى وجدت فى زمن التغيرات المتلاحقة، فكنت أعتقد أنه من الممكن أن أستغل قلمى فى اتجاه هذه الأهداف . وكنت أعرف المشاكل المختلفة التى تعترض طريق الإنسان الباحث عن الحقيقة، خاصة فى موضوع المعتقدات الفكرية، وصعوبة الاهتداء إلى هذه الحقيقة والاقتناع بها .

على أنى كنت مرتاحا إلى أن الاشتراكية هى الحل العادل الذى ينبغى أن يطبق فى مصر لتنهض الحياة بها . وكنت من خلال قراءة أظنها جيدة فى التراث لازمتنى منذ سن الثانية عشرة إلى سن السابعة والعشرين - حين حدثت تلك الأحداث - أميل إلى فلسفة ابن رشد العقلانية، وأرفض فلسفة الغزالى ذات الطابع الميتافيزيقى، بل كنت أعتبره صوتا للسلطة الغاشمة فى عصره، وأن تأويلاته كانت تخدم هذا الاتجاه . وكنت مؤمنا بالديمقراطية لدرجة أن فكرة ديكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة) فى الماركسية كانت تضايقنى بشكل ما، لكننى كنت مؤمنا بالثورة على الظلم لتغيير النظام، وكنت أقف قلقا أمام الاشتراكية الديمقراطية بسبب السلطات الواسعة التى تمتلكها الطبقة المسيطرة والتى تعاكس التغيير الديمقراطى إلى الاشتراكية بوسائلها وقدراتها المختلفة، ويبدو أن فكرة الثورة المضادة بالنسبة لثورة يوليو المصرية كانت تهز ثقتى وتقلق حياتى . وهأنذا أبعد - على أية حال - من أحضان هذه الثورة. وفى هذا الوقت بالذات مارس سنة ١٩٥٤ كان صراع رجال الثورة قد تبلور بين محمد نجيب وخالد محيى الدين، وبين عبد الناصر وباقى أعضاء مجلس قيادة الثورة حول الديمقراطية. كنت بالطبع مواليا بفكرى للجانب الديمقراطى .

فى ذلك الوقت، رأت الولايات المتحدة أن تنشئ إذاعة فى القاهرة باسم "صوت أمريكا" وبدأت تستعد لتوظيف بعض الإعلاميين المصريين والعرب، واختارت إعلاميا مصريا أظنه قضى وقتا طويلا فى العمل بلندن بإذاعة الـ (بى. بى. سى.) الإنجليزية هو عبد الحليم

البشلاوى . وطوال عملى بالإذاعة المصرية تعرفت على الكثيرين وبصفة خاصة من المخرجين. وكان لى صديق طيب هو كامل يوسف الذى قضى فترة غير قصيرة فى بريطانيا يدرس التمثيل والإخراج، وقيل إنه كان الطالب المفضل للممثل الإنجليزى الشهير "لورانس أوليفييه" وأنه أخذ جائزة باسم هذا الممثل فى فن الإلقاء .

عرف كامل يوسف بالطبع ما حدث لى ومنعى من العمل بالإذاعة المصرية، فجاءنى وعرض علىّ أن أكتب للإذاعة الأمريكية التى يستعدون لها الآن، وقال إنه فاتح المشرفين على إعدادها فرحبوا بى ككاتب للتمثيليات، وما على إلا أن أذهب لمقابلتهم فى مبنى السفارة الأمريكية بجاردن سيتى . ولعله فى نفس الجلسة حصل على موعد بالتليفون مع المسئول الأمريكى ومساعده المصرى عبد الحليم البشلاوى . أعتقد أننى ناقشت كامل يوسف فى مسألة حريتى فى اختيار الموضوعات، فقال إننى حر فى أن أكتب ما أشاء وأنه ناقشهم فى ذلك قبل أن يقترح عملى معهم فوافقوا .

فى الموعد ذهبت فقابلت البشلاوى ورجلا أمريكيا كان يتكلم العربية بشكل جيد فقال إنه سمع بأعمالى الدرامية للإذاعة المصرية، وأنه يرحب بعملى معهم، وأننى حر فى اختيار موضوعاتى ولا حجر علىّ فى أى شىء، وأن هذه الإذاعة أنشئت لتعريف الشعب المصرى والعربى بشكل عام بالولايات المتحدة ومبادئها الديمقراطية، وليس لها أى هدف آخر . ومن هنا فإن اختيار موضوعات متعلقة بالولايات المتحدة سواء كانت تاريخية أو فكرية سوف تكون مناسبة جدا، وأنهم مع ذلك يرحبون بأية مادة أخرى خارج نطاق الولايات المتحدة . ولعلى كنت قد فكرت بينى وبين نفسى فيما سأقترحه عليهم قبل هذا اللقاء، واستقر عزمى على اختيار الجانب التقدمى فى حياة وتاريخ الشعب الأمريكى . وبالفعل وقع اختيارى على قائد حرب الاستقلال الأمريكى "جيفرسون" وعلى محرر العبيد "لنكولن" . أما من الناحية العربية، والتى كانوا يحتاجون إليها لجذب انتباه المستمعين العرب، فقد اخترت حياة المتنبى وأبى العلاء المعرى . ووافقنى الرجل الأمريكى بشىء قليل من الامتعاض .

أنهيت واحدة من هذه التمثيليات لست أذكر أيها، فتلقاها منى البشلاوى بترحاب، وجعلنى أوقع على عقد اتضح منه أن أجرى على التمثيلية التى تستغرق إذاعتها نصف ساعة ستين جنيها . وكان ذلك مبلغا ضخما بالقياس إلى أجرى فى الإذاعة المصرية، الذى كان عشرين جنيها عن النصف ساعة . وكان هذا هو الفئة العالية فى تصنيفاتها الثلاثية، التى تبدأ بثمانية جنيهات، ثم بخمسة عشر جنيها، وأخيراً العشرين جنيها . وعندما سلمته التمثيلية الثانية أبدى لى إعجابه وحماسه للنص السابق، وشجعنى على المضى فى كتابة التمثيليات الباقية. وطوال لقاءاتى معه تبينت أنهم كانوا يتوقعون منى شيئا آخر، ولكننى كنت قد تذرعت بهذه الخيارات من حيث معالجات اللحظات المضيئة فى التاريخ الإنسانى، سواء فى الولايات المتحدة أو العالم العربى أو أى شعب آخر .

وفى خلال حوالى شهرين أو ثلاثة حصلت على مائتين وأربعين جنيها غطت بالفعل احتياجاتى، إلا أنهم فيما يبدو تبينوا أننى لن أكون مفيدا لهم، وأننى أتغابى وأختار الموضوعات غير المناسبة لمشروعهم الدعائى . وهكذا انقطعت صلتى بهم نهائيا . وبعد أن اشتغلت هذه الإذاعة لم تذع هذه التمثيليات إطلاقا . وبعد عدة سنوات التقيت بالكاتب السودانى "الطيب

صالح" فى بريطانيا، والذى كان مسئولا عن قسم التمثيليات بالإذاعة البريطانية، والذى استكتبنى لهذه الإذاعة، وأظن أننى أعددت رواية "بداية ونهاية" لنجيب محفوظ فى ستة وعشرين حلقة، وكانت قد نشأت بينى وبينه صداقة هادئة ومستمرة حتى الآن، على الرغم من الانقطاعات الطويلة . وفى إحدى الليالى، حكى لى - ضاحكا - أن إذاعة صوت أمريكا حولت له تمثيلياتى الأربع للاستفادة منها فى الإذاعة، ولعله كان يقصد الإذاعة السودانية، التى كان له بها صلة ما .

وكانت علاقتى السريعة بإذاعة صوت أمريكا تجربة هائلة للتعرف على الطريقة التى تدير بها الدول الكبرى والصغرى آلتها الدعائية، ووسائل استقطابها للكتاب والفنانين، والتى كانت شائعة بشكل مخيف طوال فترة الاستقطاب الإيديولوجى والصراع الثقافى بين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الرأسمالى أثناء الحرب الباردة، والتى خسر فيها كتاب كبار أنفسهم وسمعتهم مثل "جون شتاينبك" ، الذى استقطب كل يسار العالم بروايته الرائعة "عناقيد الغضب"، عن كفاح عمال زراعة العنب فى الولايات المتحدة، فضلا عن أعماله الأخرى ذات الطابع الإنسانى، فقد أركبته المخابرات الأمريكية طائرة مروحية راح يلقى منها منشورات بقلمه على الجمهور فى شوارع هانوى بفيتنام، أثناء الحرب هناك لصالح السياسة الاستعمارية فى هذه الحرب . حتى "هيمنجواى"، لم يخل من الاستجابة لضغوط هذه المنظمة، دعك من كتاب مثل "كيستلر" و"جورج أرويل" وغيرهما من الكتاب المعروفين بيساريتهم .

بعد حوالى أربعة أشهر، وبعد أن انتهت أزمة مارس بانتصار الاتجاه المعادى للديمقراطية، أو قل الذى يدعو إلى الاستمرار فى بقاء الهيمنة العسكرية على المجتمع من أجل إحداث التغييرات التى قامت الثورة من أجلها . أصبح على المثقفين أن يتعايشوا مع الجولة الجديدة. وكانت الثورة قد ألقت القبض على إحسان عبد القدوس، الذى كان رئيسا لتحرير مجلة "روز اليوسف"، ووضعته قيد الاعتقال، مما ألجأ السيدة روز اليوسف أو قل "فاطمة اليوسف"، والدته وصاحبة المجلة، إلى إسناد عمل ابنها إلى أحمد بهاء الدين، الذى كانت علاقته بالمجلة أن يقدم لها كل أسبوع عمودا صغيرا تحليلا للأخبار الجارية . كان بهاء كاتبا سياسيا موهوبا التقطته السيدة فاطمة اليوسف وطلبت منه أن يقوم بأعمال رئيس التحرير حتى الإفراج عن ابنها . وكان بهاء صديقا لى . وكنت أنشر قصصى القصيرة فى مجلة "الفصول" التى كان يملكها ويرأس تحريرها محمد زكى عبد القادر، الذى كان صحفيا مرموقا، ولعله حينئذ كان رئيسا لتحرير الأهرام . وكان بهاء يقوم عمليا برئاسة تحرير مجلة الفصول نيابة عن زكى عبد القادر . واستطاع بهاء بالفعل أن يضم إلى هذه المجلة عددا كبيرا من الكتاب الجدد منهم عبد الرحمن الشرقاوى وفتحى غانم ومصطفى سويف ونعمان عاشور ويوسف الشارونى وغيرهم. وكنت أنا الأكثر ارتباطا بالصحافة منهم بسبب اشتغالى المبكر فى مجلة التحرير ثم فى جريدة "الجمهورية"، ولعله لهذا السبب فكر بهاء فى الاستعانة بى فى مجلة "روز اليوسف" فاتصل بى للعمل معه، وعندما قلت له إننى ممنوع من العمل قال لى : ألست تعرف أنور السادات ؟ اذهب إليه وقل له إننا سنعمل معاً فى مجلة "روز اليوسف" .

وبالفعل ذهبت إلى السادات فى مكتبه فى جريدة "الجمهورية" فاستقبلنى استقبالا جيدا كعادته، وطلب منى أن أنتظر خارجا حتى يتصل بالتليفون . علمت بعد ذلك أنه اتصل بعبد

الناصر، وبعد قليل استدعاني وقال لي إنني أستطيع أن أذهب للعمل مع بهاء . وأضاف وكأنما يريد أن يعتذر عما حدث لي من فصل وإبعاد عن الإذاعة أنهم (أي هذا المجلس المكون من ضباط الثورة الذين حاكموني) كانوا يريدون فصلي من الأزهر أيضا لولا تدخله هو وإلحاحه في إبقائي في هذه الوظيفة .

كان السماح لي بالعمل في "روز اليوسف" يعني أيضا إبطال القرار السابق بمنعي من العمل في الإذاعة، وبالفعل أصبحت أستطيع العودة للكتابة للإذاعة . وانضممت إلى بهاء حيث أصبحت مسئولا عن إعداد الملزمة "الحمراء" كما كانت تسمى حينذاك، لأن اللون الأحمر يظهر فيها وهي الملزمة المعنية بالثقافة والفنون بشكل عام، وكان بهاء مسئولا عن كل ما هو سياسي .

كانت المجلة مغضوبا عليها منذ حبس إحسان عبد القدوس رئيس تحريرها والذي كان قد كتب مقالا عنيفا أثناء أزمة مارس معتقدا أن محمد نجيب الداعي إلى الديمقراطية وحليفه خالد محيي الدين قد انتصرا، واصفا أعضاء مجلس الثورة بأنهم عصابة قد استولت على مصر بليل، وكان مازال محبوسا عندما انضممت إلى المجلة، وبالتالي كانت الرقابة تعاكس المجلة . كان لدينا محرر مرضى عنه (ممدوح رضا) ويقال إن له علاقة بأجهزة المخابرات، وكان هو الذي يأخذ مقالات المجلة إلى مكتب صلاح سالم، الذي كان وزيرا للإرشاد والرقيب العام في نفس الوقت . وكان قد ترك مهمة الرقابة لنائب له هو اليوزباشي محمد أبو نار، الذي كان من ضباط الصف الثاني للثورة، وكان الرجل يراجع المواد وربما بواسطة مساعديه فيعيدها إلينا وقد شطب نصفها، وكان هذا يحدث يوم الجمعة، إذ أن طبع المجلة يبدأ من يوم السبت ويستمر إلى يوم الأحد، لتطرح المجلة في السوق صباح الإثنين . وكان هذا يقتضينا أن نسهر للصباح أحيانا لنعد موادا أخرى غير التي شطبها الرقيب وقد أصبح شبحا كريها بالنسبة لنا . وكان بهاء ربانا ماهرا يخوض هذا البحر المتلاطم بحذر وذكاء، وكان يدرك أن أعضاء الثورة يهمهم أن تظهر أخبارهم في المجلة التي كانت لها شهرة جيدة، فكان يعاقب من يريد معاقبته منهم بعدم ذكر اسمه على الإطلاق . وظللنا على هذا الحال إلى أن تقرر الإفراج عن إحسان عبد القدوس بعد سنة كاملة من الحبس .

كنت قد تعرفت على السيدة روز اليوسف عن قرب، إذ كانت تداوم على الحضور يوميا إلى المجلة وكانت هي المديرة المالية للمجلة حتى في حضور ابنها . كانت امرأة في حوالي الخامسة والستين من عمرها أو أزيد قليلا، كانت مازالت امرأة جميلة، مع أنها كانت أميل إلى القصر وعلى شيء من البدانة بالطبع بالنسبة لهذه السن، ولكنها كانت مليئة بالحيوية وكانت متزوجة - فيما أظن - من ابن قاسم أمين، الذي كان له عمل بالصحافة من قبل، ولست أذكر ترتيبه بين الأزواج الذين عاشرتهم، وإن كان الأخير بالطبع . كنت أتأمل هذه المرأة التي قيل إن مشاهدي المسرح فيما بين الحربين كانوا يطلقون عليها "سارة برنار" الشرق .

كان لها صوت رفيع رنان ربما يصل في طبقاته العليا إلى قوة أسرة أعجبت معاصريها. وكان بياض بشرتها مشربا بحمرة خفيفة ولم يكن في وجهها شائبة ما . وكانت تمشي مستقيمة الهامة مرفوعة الرأس، وئيدة الخطو بالطبع ولكن بثبات، وكانت قد تعودت أن تأمر فتطاع، ولعله لهذا السبب كانت تبدو أحيانا قاسية نوعا ما، وكثيرا ما كنا نسمع صوتها وهو يجلجل غاضبا لأمر ما وهي توبخ أحد العاملين بالمجلة . ولست أذكر ما هي الدواعي التي

كانت تدعونى للدخول فى حجرتها، وكنت -فى الواقع -معجبا بها كامرأة قوية استطاعت أن تنشئ هذه المجلة القوية على الرغم من أن تعليمها الرسمى كان ضئيلا جدا، بل قيل إنها لم تكن تعرف القراءة والكتابة حين جاءت إلى مصر فى سن صغيرة، وتلقت دروسا فى اللغة حتى استطاعت النطق بلغة عربية سليمة .

واشتغلت مع مخرجين كبار مثل عزيز عيد، الذى يعتبر أحد مؤسسى المسرح المصرى منذ بدايات القرن العشرين . جاءت من عائلة مسلمة من لبنان، وبمساعدة المتمصرين الشوام عموما والعاملين فى مجال التمثيل والصحافة وجدت طريقها إلى المسرح ونبغت فيه حتى أصبحت النجمة المسرحية الأولى فى البلد . ولعلها فى البداية تزوجت الممثل الكوميدى محمد عبد القدوس والد إحسان عبد القدوس، ثم تزوجت بعد ذلك زكى طليمات فأنجبت منه ابنة (آمال طليمات) لعلها جدة الآن . ومن المؤكد أنها كانت محط أنظار رجال عصرها من النخب المثقفة فى مصر، وكان تأثيرها عليهم كبيرا حتى أنها عندما فكرت فى إنشاء مجلة، انضم إليها كبار الصحفيين والكتاب من أمثال محمد التابعى والعقاد واستطاعت أن تستمر بالمجلة إلى اليوم، رغم كل الظروف الصعبة التى صادفتها المجلة . وهاهو ذا ابنها حبيس السجن وهى بالتالى مهددة بإغلاق المجلة أيضا .

كانت شديدة الذكاء، قوية الملاحظة، لديها إحساس طاغ بأنوثتها حتى فى هذه السن. ولست أدرى كيف اكتسبت هذه القوة فى مقاومة الأحداث وأعتى الرجال وكان لديها إحساس قوى بذاتها وبكرامتها . وفى هذا الوقت لم يكن لديها مشاكل مالية، وكانت تدير المجلة بكفاءة عالية واختيارها لأحمد بهاء الدين لسد فراغ ابنها المحبوس، دليل على كفاءتها فى الاختيار، وبالفعل كانت تفاجئنى بآرائها البالغة النضوج فى كتابات الكتاب الذين يكتبون فى المجلة، أو فى غيرها من الصحف . وكانت تعيش حياة مطمئنة - بشكل ما - مع زوجها الذى ينحدر من صلب ذلك الرجل الذى دعا إلى تحرير المرأة فى السنوات الأولى من القرن العشرين، تسكن فى شقة جميلة فى الدقى على ما أذكر وتدعو إلى بيتها أحيانا بعض العاملين معها أو الأصدقاء . وكانت ماهرة فى الطهو أيضا وشغوفة بالحياة، وكانت تملك سيارة أقرب ما تكون إلى الفخامة يقودها سائق قديم .

لا أذكر اليوم الذى أفرج فيه عن إحسان عبد القدوس، ولعله كان فى سنة ١٩٥٥ .وعندما عاد إلى العمل كان يوما عظيما بالنسبة لها، وأظن أنه بعد يوم أو اثنين، جاءها خبر بأن وفدا من مجلس قيادة الثورة جاء ليزورها ويهنئها بالإفراج عن ابنها علامة على المصالحة، وعودة إلى الصداقة القديمة التى كانت تربط بين إحسان والكثيرين من قادة الثورة، وكان الوفد على ما أذكر مكونا من جمال سالم وعبد اللطيف البغدادى وربما شخص آخر . كنت واقفا فى حجرتها ونحن نترقب وصول هذا الوفد، وكان لديها "بوف" تضع عليه ساقيها عندما يتعبها الجلوس، وفى هذه اللحظة دخل ساعى مكتبها مسرعا ليقول لها إن الضباط قد وصلوا وأنهم يصعدون السلم الآن، فأشارت إليه بسرعة أن يقرب "البوف"، وما إن فعل حتى مدت ساقيها عليه، ودخل الضباط ليسلموا عليها فمدت يدها إليهم معتذرة بعدم قدرتها على الوقوف على قدميها بسبب آلام فى ساقيها، وتقبل الجميع هذه الحجة ولعلهم انحنوا على يدها فقبلوها. وجلسوا جميعا قليلا ريثما شربوا شيئا من القهوة أو العصائر وراقبتها وهى تتصرف كامرأة

عظيمة دون أن تهتز لها شعرة، وكانت تعطى انطباعا بأنها غاضبة لما حدث لابنها ولكنها تتقبل الاعتذار ولا تقدم الشكر على الإفراج عنه .

عندما انصرفوا، كنت واقفا فى الحجرة أنظر إليها بإعجاب شديد، فقامت واقفة ونظرت إلىّ وكأنها تقول : هل أعجبك هذا يا ولد؟

عشت فى "روز اليوسف" سعيدا، وخاصة بسبب هذه المرأة الذكية الفاهمة . وكنت قد تعرفت على زوجتى وخطبتها وكثيرا ما كنت أتفق معها على أن تأتينى لنخرج معا لحضور دعوة ما أو الذهاب إلى المسرح أو تناول العشاء، وعلى الرغم من أن دخلى من عملى سواء هنا أو فى الإذاعة كان كبيرا، بالقياس إلى زملائى، إلا أن مسئولياتى الكبيرة كانت تجعلنى أحتاج إلى قرض صغير أنفقه فى هذه الليالى الجميلة، وكان علىّ أن أدخل إلى "الست" فى مكتبها وأطلب منها أن توافق على أن يصرف الصراف الجنيهات التى أريدها، وغالبا ما كانت توافق بعد أن تزجرنى غير جادة بشكل ما، وكنا فى الصيف فى ذلك اليوم وكانت خطيبتى (زوجتى وأم أولادى بعد ذلك) قد وصلت قبل أن أتمكن من الحصول على السلفة، وقبل أن يغادر الصراف المبنى، ولذلك أسرعت فاقتحمت حجرتها . لم أطرق الباب كما يتطلب الأمر، ولذلك فوجئت بى واقفا أمامها، وكانت قد خلعت شالا يغطى كتفيها وذراعيها العاريين، فوقفت مذهولا وخجلا فى الوقت نفسه من هذا الاقتحام غير المهذب، وحملقت فى كتفيها وذراعيها اللذين كانا بالغى الجمال، كأنهما لفتاة فى العشرين من عمرها . كانا بلون بشرتها الصافية المشربة بالحمرة وجميلين فى استدارتهما، وكانا بغير شك يدعوان إلى الإعجاب بل الدهشة لامرأة فى سنها . لعلها لاحظت ذلك فغضبت غضبا مفتعلا، لكنها شعرت بالخجل كامرأة وسارعت بتغطية كتفيها وذراعيها بالشال وكأنها عذراء تفاجأ برجل يقتحم خلوتها وخصوصيتها .

أعطتنى موافقتها المكتوبة للحصول على القرض ثم قالت لى مازحة : لست أدرى ماذا وجدت فيك هذه البنت الحلوة لتتعلق بك ؟ وكانت تحب امرأتى وترحب بها عندما تلتقى بها أثناء قدومها لنخرج معا . بعد خروج إحسان ، استقطبت المجلة الكثير من الشباب اليسارى، وبلغت المجلة ذروة قوتها فى هذه السنوات، التى بدأ فيها نجم عبد الناصر يلمع بعد اختفاء محمد نجيب، وكنت تجد أعظم رسامى الكاريكاتير . وكان الرسام عبد السميع نجما ذائع الصيت بسبب اللوحة التى تتصدر غلاف المجلة والتى كانت وحدها بمثابة مقالة ناقدة بالغة العمق . وبعد ذلك انضم إلينا صلاح جاهين وزهدى وبهجت وحجازى وجورج البهجورى . أما الكتّاب، فكان منهم أحمد بهاء الدين ومحمود أمين العالم ومحمد عوده وكامل زهيرى وإسماعيل الحبروك وغيرهم كثير من طلائع المثقفين . وكان الرسامون يشكلون نخبة مختارة من شباب الفنانين مثل حسن فؤاد وعبد الغنى أبو العينين وجمال كامل . وكنت مهتما بالتراث الشعبى، وكان أحمد رشدى صالح وعبد الحميد يونس وسهير القلماوى، قد بدءوا يهتمون بالفولكلور ويترجمون الكتب المراجع ويتحدثون عن فن الشعب الذى كان متمشيا تماما مع الاتجاهات التى تتحدث عنها الثورة وهو اتجاه كان سائدا فى العالم كله ، وصار الفنانون يلتمسون هذه الفنون الشعبية فى كل شىء، فى الموسيقى وفى الرسم والنحت والأدب . وتمشيا مع هذا الاتجاه رحت أنشر قصصا من الأدب الشعبى أو من الأدب العربى القديم، ولأن عملى الكبير كان إعادة كتابة سيرة عنترة بن شداد، التى كنت أحبها وكنت أصغى لها صغيرا وأمى

تقرؤها على أبى فى ليالى الشتاء بين طقطقات أبو فروة، الذى كان يوضع على صفيحة فوق "وابور الجاز"، كنت أسمع وأنا بين النوم واليقظة "وشيش" الوابور وطقطقة أبو فروة وصوت أمى الرتيب وهى تقرأ، فأصحو وأذهب إلى حجر أبى الذى كان يلقمنى من حبات هذه الثمرة اللذيذة وهو يصغى بشغف، فتلتقط أذناى بعض الكلمات فتبدو كالحلم اللذيذ . أحببت هذه السيرة التى كانت منشورة فى مجلدات هى عبارة عن الإضافات العديدة التى راح يزيدها الرواة أو قل شعراء الربابة جيلا وراء جيل، حتى بلغت صفحاتها الآلاف مطبوعة على ورق أصفر باهت وقديم .

ولست أذكر متى بدأت قراءة هذا الأدب، ولكننى أذكر وأنا فى السابعة من عمرى تقريبا، أن أمى اختطفت منى كتاب "ألف ليلة وليلة" ومنعتنى من قراءته، ولم أعرف السبب إلا عندما كبرت شيئا ما وقرأت فيه عبارات الأدب المكشوف المنتشرة فى الكثير من قصصه . وكانت جدتى لأبى امرأة قاهرية من أسرة قديمة فى القاهرة وكانت تحفظ من الحواديت العشرات وتضع رأسى فى حجرها وتحكى لى من الحواديت ما لم أنسه أبداً حتى أننى عندما أصدرنا مجلة "صباح الخير"، رحت أنشر هذه الحواديت بعد إعادة صياغتها وفق مفهوم جديد، وكان يرسمها فنان ممتاز هو صلاح مأمون - لا أدرى أين هو الآن - وكانت أغلب هذه الحواديت من التى روتها لى جدتى .

وأثناء عملى فى الحواديت، فوجئت عدة مفاجآت، أولها أنى وجدت بعضها مرويا فى حواديت أو حكايات "أيسوب" اليونانى القديم، مما جعلنى أعرف أن العالم كان دائما متصلا ببعضه البعض بصورة أو بأخرى حتى قبل ثورات الاتصال المختلفة . وكذلك اشتريت من على سور حديقة الأزبكية كتابا باللغة الإنجليزية بعنوان ترجمته "حكايات من الأراضى الواطئة" فوجدتها مطابقة لبعض ما استمعت إليه من جدتى إلا بفارق واحد، فبدلا من الصحراء، و"بلاد تشيله وبلاد تحطه"، كانت البحار والقصور، وبدلا من ابن التاجر الغنى، كان الأمير . أما الشخصية الشريرة فى القصة التى كانت ترويها جدتى - وهى امرأة الأب - فإنها فى قصة الكتاب الأجنبى ساحرة لها أنف طوله اثنتا عشرة بوصة . وفيما بعد، وعندما كنت معنيا بنشر قصص قصيرة مترجمة بعنوان قصة فى خمس دقائق فى ملحق لجريدة "المصرى"، قرأت قصة فى مجموعة للكاتب الأمريكى من أصل أرمنى "وليام سارويان" بعنوان "بنت الراعى"، وجدت أنها هى نفسها التى استمعت إليها من جدتى بعنوان "صنعة فى اليد"، كل ما هنالك أن سارويان بدأ القصة بأن روى أن جدة أرادت أن تؤدب حفيدها الذى كان يخرب كل شىء فى البيت، فروت له هذه القصة حتى يتعظ بأهمية العمل، حيث أنقذ فى هذه القصة بطلها من موت محقق . ومن حبى لهذه القصص كتبتها دراما إذاعية ولاقت نجاحا طيبا . وهو ما حدث لملحمة عنترة ابن شداد، التى كتبتها فى ثلاثين حلقة إذاعية لصوت العرب فى الغالب . ثم طبعتها بعد ذلك فى كتاب .

كنت أفكر فى هذه الحواديت وأنا أستمع إليها من هذه الجدة العجوز، إذ كان أبى أصغر أبنائها، وكانت تملأ خيالى بالبهجة وتطرح على ذهنى أسئلة كثيرة . ولعلنى لهذا عندما بدأت أعيد كتابة هذا الأدب الشعبى كنت أقرؤه قراءة جديدة بقصد تفسيره واستخراج المعنى الذى تنطوى عليه القصة أو حتى الملحمة . هكذا فعلت بالنسبة لسيرة عنترة وبالنسبة لسائر الحواديت الأخرى .

كان من عادة الكتاب العرب الذين يكتبون عن السير أو التاريخ، أن يبدءوا من بداية الخلق حتى ينتهوا إلى الفترة التى يعيشونها وكذلك كان الراوى فى الملاحم، إذ كانت سيرة عنترة تبدأ من سيرة أبى الأنبياء إبراهيم، الذى كان ابنا لوزير الملك النمرود . وكان العرافون قد تنبئوا للملك بأن صبيا سيولد لرجل من أقرب الناس إليه، وهذا الولد سوف يكبر ويقضى عليه وعلى ملكه، فراح يقتل كل الأطفال . ولكن الوزير أخفى ابنه الذى ولد فى هذه الفترة حتى كبر ثم قام بالدعوة إلى عبادة الله ورفض عبادة الملوك . وبالفعل قضى على النمرود وتغير العالم ونعم الناس بالحرية والسعادة على أيدى النبى إبراهيم . وقد قرأت فى هذه القصة أن الناس يعرفون أنه مهما بلغ سلطان الملوك الطغاة فإن المقاومة تنشأ وتتطور وتكبر حتى من تحت أقدام هذه السلطة التى تألهت وظنت أنه ليس فى مقدور أحد أن يبعدها عن هيلمانها وجبروتها . وبالفعل نشأ إبراهيم من بذرة الوزير التابع للملك والمطيع لأوامره والمنفذ لخططه حتى أسقطه .

كتبت هذا الجزء من الملحمة فى "روز اليوسف"، بعد معاناتى من سلطة رجال الثورة المطلقة أثناء تلك المحاكمة الفظة والغريبة، وكأنى أقول لهم وللناس من أمثالى لا تبتئسوا إن المقاومة تولد فى نفس اللحظة التى تظن السلطة أنه لم تعد لها حدود، وأن أحدا لا يستطيع مقاومتها، وأن هذه السيرة القديمة كانت تقول هذا لقرائها أو مستمعيها فى تلك الأزمنة، وأن هذه خبرة إنسانية كامنة فى اللاوعى البشرى . أما عنترة فكان يبحث عن العدالة والمساواة، وعندما امتلك القدرة على الفتك بأعدائه طلب حكم الجماعة أو قل حكم القانون ولم يفتك بهم .

والغريب أن هذه الحلقات شدت انتباه القراء جدا لدرجة أننى كنت قد انشغلت بشىء ما فتوقف نشر بعض الحلقات، فإذا بالرسائل والمكالمات التليفونية تغرق المجلة . والطريف أن السياسى الوفدى القديم، وزير الخارجية السابق محمد صلاح الدين، جاء إلى المجلة ليعرف لماذا توقف نشر هذه السلسلة، وعندما انطلق مستمعوه فى الضحك أبدى استغرابه لذلك، ولكن عندما عرف الضجة التى حدثت قبل ملاحظته أغرق فى الضحك هو الآخر . وقد تبينت بشكل واضح أن الرسالة التى قصدتها وصلت إلى القراء على مختلف مستوياتهم .

مهما يكن من أمر فقد قضيت وقتا سعيدا فى مجلة روز اليوسف، ولكن أجمل ما فيها من ذكريات هو علاقتى الجميلة بالسيدة روز اليوسف، التى كثيرا ما كنت بعد أن أنهى عملى أدخل إلى حجرتها وأصغى إلى أحاديثها . وكانت فى الحق ذات خبرة عميقة بالحياة الثقافية والسياسية فى مصر . كنت بالطبع أسمع كل القصص التى تروى عادة عن النساء اللائى يشتغلن بالقضايا العامة وخاصة بفن التمثيل، على أنى لم آخذ هذه القصص على أنها مسلمات، فمن الناحية الأخلاقية اعتقدت بعد قليل من الاستماع إلى هذه السيدة أنها على خلق قويم بل على شىء من المحافظة . نعم كنت أعرف أنها عرفت فى حياتها أكثر من رجل، وكانت تروى لى باعتداد أنها لم تجمع فى حياتها بين رجلين فى وقت واحد، وهذا كان تعبيرها بالحرف . وكانت تعرف كل قصص العلاقات السرية بين رجال ونساء من النخب البارزة يدّعون البراءة والنقاء . ولكنها كانت تقول ذلك فى صيغة النقد، وليس فى صيغة التجريح . وكانت ملمة بتفاصيل الحياة السياسية وراء الكواليس، وما زلت نادما على أنى لم أفكر فى تدوين هذه الأحاديث البالغة الأهمية . على أننى أتذكر أن أحمد بهاء الدين قد نشر شيئا من

مذكراتها فى كتاب، ولكنه اهتم بالجانب السياسى والتاريخى أكثر من الجانب الاجتماعى والتجربة الذاتية وهذا شىء طبيعى باعتبار اهتماماته .

عندما أستعيد ذكرى تلك الأيام أرى أنها كانت جميلة وكانت بالنسبة لمجلة "روز اليوسف" من أزهى عصورها . فقد ضمت إليها غالبية نجوم اليسار الجدد، والذين كانوا، على الرغم من كل شىء، متفائلين بالثورة وكانوا موهوبين، بغير شك، ككتاب أو فنانين . ولذلك فكر إحسان عبد القدوس فى إصدار مجلة أخرى عصرية وخفيفة تخاطب الشباب، ودار الحديث حول هذه المجلة فترة غير قصيرة . وفوتح بهاء فى أن يتولى رئاسة تحريرها، بمساعدة إحسان، على أن تكون السيدة روزا اليوسف هى رئيس التحرير الرسمى، أو الظاهر، بينما يظهر اسم بهاء كمدير للتحرير . ولكن بهاء رفض ذلك وصمم على أن يكون هو رئيس التحرير ورفض إحسان هذا الاقتراح ولا أعرف موقف السيدة روزا اليوسف . لم أكن أعرف بهذه المفاوضات الجارية فى السر ولم يفاتحنى أحد بها . وفى هذه الفترة كان من العبث أن أستمر فى الوظائف الحكومية وقررت أن أتفرغ للعمل الصحفى . وبالفعل، استقلت وجلست مع إحسان لوضع الخطط المتعلقة بتوسيع اختصاصاتى وتعديل مرتبى، وفى هذه الجلسة حدثنى إحسان عن مشروع مجلة صباح الخير المزمع إصدارها واقترح علىّ أن أكون أنا رئيس التحرير الفعلى لكن تحت مسمى مدير التحرير، لأنهم ينوون وضع اسم السيدة روزا اليوسف كرئيس للتحرير .

يبدو أننى كنت قد سمعت بالطبع عن هذا المشروع لكن لم أكن أعرف شيئا عن التفاصيل. وكان العرض بالنسبة لى مقبولا . ويبدو أننى لم أجعل الصحافة كمهنة هى مستقبلى . ولعلى كنت أفكر فى نفسى ككاتب قبل أى شىء آخر . وعلاقتى بالصحافة كانت من هذا الجانب. ولم أكن أعتبر رئاسة تحرير مجلة هو غاية مرادى، وربما كان هذا سبب تقبلى للفكرة . زد على ذلك، حبى للسيدة الكبيرة، ورغبتى فى إرضائها، على أننى استمهلت إحسان حتى أفكر فى الأمر . وعندما غادرت مكتبه طرأ على ذهنى أن أستشير بهاء، باعتباره الصديق الأقرب لى فى المجلة، فضلا عن أن بهاء كان رصين وهو لم يزل شابا فى العشرينات بعد . فذهبت إليه فى مكتبه، وما أن فاتحته فى الموضوع حتى وجدته يهب واقفا زاعقا فى غضب مرددا بعصبية : وأنا مالى ... وأنا مالى!

دهشت من رد فعله، لأنى لم أكن أعرف شيئا عن خلفية الموضوع ولكنى لم أقابله بغضب بل ذهبت إلى صديقى الآخر، الذى كنت أحبه، عبد السميع عبد الله رسام الكاريكاتير، وما أن فاتحته فيما حدث، حتى انطلق مقهقها بصوته الجهورى . بعد أن أفاق عبد السميع من ضحكاته، شرح لى كل شىء فوجدت أن من واجبى أن أتضامن مع بهاء، وأن أعتذر لإحسان. وبالفعل، لم أضيع الوقت وذهبت لإحسان واعتذرت له عن قبول هذا الترشيح .

وأذكر أن الموضوع تأجل شهورا أخرى إلى أن اضطروا فى النهاية للموافقة على شروط بهاء . وبدأنا الإعداد للمجلة وكنت أنا نائبا لرئيس التحرير . بينما كان حسن فؤاد هو المصمم والفنان الذى قام بتصميم كل شىء، من الغلاف إلى كل الصفحات الداخلية . وصدرت المجلة، وأظن أننى كنت أكتب فى الصفحة الأخيرة عرضا للكتب سماه بهاء "عصير الكتب" . ووافقته رغم أنه لم يكن يعجبنى تماما . وأشرفت على المواد الثقافية كما كنا فى روز اليوسف . ورحت

أكتب صوراً قلمية "بورتريه" عن الكتاب الكبار، إلى جانب كتابتى للحواديت المرسومة بصور جميلة بريشة الرسام الرائع صلاح مأمون .

وفى إحدى المرات قررت أن أكتب عن توفيق الحكيم .

كنت أقرأ كل شىء تقريبا عن الكاتب قبل أن أذهب إليه . وفى الواقع كنا قد قرأنا من قبل أغلب أعمال هؤلاء الكتاب، وقرأنا بالطبع ما كتب عنهم من نقد أو دراسات . وكانت طريقتى أن أوجه بعض الأسئلة التى أعتبرها مفاتيح للشخصية . وقد تستغرق الجلسة أو الجلسات عدة ساعات، ثم أراجع هذا كله وأكتب الموضوع محاولا أن أقدم للقراء لوحة كاملة تبرز الملامح الفكرية والنفسية لهذا الكاتب . وعندما هممت بالذهاب إلى توفيق الحكيم، وكان مديرا لدار الكتب فى ذلك الوقت، جاءنى محرر شاب كان قد بدأ يكتب القصص القصيرة، ورجانى أن يذهب معى ليجلس إلى توفيق الحكيم ولما قلت له ماذا ستفعل قال : سأكتب كل ما تقولون. أمام هذا الاقتراح الطريف الذى يعفينى من الكتابة - لم تكن أجهزة التسجيل متداولة بعد - قبلت . وبالفعل، ذهبنا إلى دار الكتب . ولا أذكر ما إذا كنا قد أنجزنا عملنا فى جلسة واحدة أم أكثر . ولكننى وجدت أن فهمى حسين قد سجل أكثر من عشرين صفحة .

الحق أن توفيق الحكيم كان أكثر كتابنا الكبار دراية بالكتابة الأدبية، وخاصة فى فن الرواية وفى فن المسرح . وكان ملما بصنعته ودارسا لأهم مبادئها ونظرياتها، وقبل كل ذلك، كان ذواقة على مستوى عال . وعندما تحدث عن الروائيين، كان حديثه صائبا . فوصف أعمال طه حسين الروائية بأنها محاولات ليست ناجحة، وكذلك وصف أعمال الآخرين، بمن فيهم يوسف السباعى، وإحسان عبد القدوس، وعبد الرحمن الشرقاوى، ومحمد عبد الحليم عبد الله، وثروت أباظه وغيرهم، بأنها فى أحسن حالاتها، متوسطة . بل وأصدر أحكاماً قاسية على البعض منهم . ولم يطر أحدا إلا نجيب محفوظ، ويوسف إدريس . كان يتحدث إلىّ على سليقته، ولكن عندما جلست لأكتب الموضوع، بذلت جهدا كبيرا لأجعل آراءه فى الكتاب الذين تحدث عنهم غير جارحة بقدر الإمكان ثم دفعت بالمقال إلى المطبعة . وعندما صدرت المجلة هاجت الدنيا ففى أول اجتماع للمجمع اللغوى الذى كان يرأسه طه حسين - وكان الحكيم عضوا فيه - رفض عميد الأدب العربى أن يرد على تحيته . أما الآخرون الذين لم يمتدح أعمالهم فقد ذهبوا إليه محتجين، فبدلا من أن يبرر آراءه ويدافع عنها زعم لهم أنه لم يقل هذه العبارات وأنى تزيدت فيها وأظهرتها بهذا الشكل الذى يرفضونه . وفوجئت بالأخبار والتصريحات التى تتهمنى بالتزوير والإيقاع بين الأدباء وبكل ألوان الشرور التى تخطر على البال . وكان اتحاد الأدباء قد أنشئ حديثا فتقرر جمع المجلس ومحاكمتى وفصلى من الاتحاد. وكان أكثرهم غضبا وتحمسا لمعاقبتى، يوسف السباعى بينما اتصل طه حسين بإحسان عبد القدوس ليشكونى أيضا وحين أعطانى إحسان التليفون، وجدت الرجل الكبير يكلمنى بقسوة، فلم أرد عليه، ولعلى رددت السماعة إلى إحسان، الذى كان ضدى لأن الموضوع قد مسه هو الآخر . ولم يصدق أحد منهم أن هذه الآراء التى قالها توفيق الحكيم عن أعمالهم صحيحة وأن ذائقتهم الأدبية ضعيفة وأن الناس لا يستطيعون أن يحسنوا النظر بشكل موضوعى إلى أنفسهم وإنجازاتهم . وقد عرفت من هذه التجربة أن الكاتب لا يستطيع أن يكون مبدعا حقا ما لم يكن هو نفسه ناقدا جيدا ويمتلك بالخبرة والمعاناة والشكوك فى ذاته قدرا من الموضوعية والحياد ويتدرب على امتلاك ذائقة فنية عالية المستوى .

وفى حومة هذه المعركة الحامية، حيث توالت الاقتراحات بفصلى من اتحاد الأدباء وربما بفصلى أيضا من المجلة، جاء يوسف السباعى ومعه مقال ملىء بالسباب ضدى لينشر فى المجلة ردا على "بورتريه" توفيق الحكيم. كنت أنفى للجميع أننى تصرفت فى أقوال توفيق الحكيم، بل لعلى قلت لهم إننى خففت من العبارات التى قالها عن الكتّاب، ولكن أحدا لم يصدقنى، لأن الحكيم أكد لهم أنه لم يقل هذا الكلام . طلبت الحكيم فى التليفون فحاول أن يهرب وأن يعتذر بطرق ملتوية . ووضعت السماعة وأنا أتساءل كيف أرد على هؤلاء الناس، وأبين لهم الحقيقة . وهنا تذكرت أن "فهمى حسين" كان معى، ليس هذا فقط، بل إنه هو الذى كتب الحديث بخط يده، ولأمر ما كان قد أخذ المسودة بعد أن أنهيت المقال . وعندما سألته عن المسودة التى بخط يده، فوجئت بأنه مازال يحتفظ بها، فوقع الخبر علىّ بردا وسلاما، وأخذتها منه، وكان السباعى قد وصل إلى المجلة ومعه مقاله الفاحش السباب، وقبل أن ندخل فى معركة قلت له : انتظر ثم اقرأ بنفسك هذا .

ورويت قصة الزميل فهمى حسين، وأن النص المكتوب هو بخطه، وأنه شخصيا موجود هنا الآن، وتستطيع أن تستجوبه . كان هذا خبرا صاعقا للسباعى، وجلس بالفعل يقرأ حتى إذا ما أنهى القراءة، كان منهارا تماما ولم يستطع أن يفعل أكثر من أن يعطينى مقاله ويعطينى الحق فى أن أحذف منه ما أشاء، ولكننى رفضت وتركته يفعل فى مقاله ما يشاء . ولعله لم يدفعه للنشر لأننى لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك . ولكن الحملة تساقطت وتبددت ولم يستطع أحد أن يواجهنى .

استمر عملى فى صباح الخير، ولعلى كتبت مذكرات رشيد عالى الكيلانى، الزعيم العراقى الذى قام بانقلاب عسكرى ضد الاحتلال الإنجليزى أثناء الحرب العالمية الثانية، واتهم بأنه كان متفقا مع الحزب النازى . كان الرجل قد لجأ إلى مصر وأعطى سكنا فى مصر الجديدة. كنت أذهب إليه وأستمع له، ثم أكتب هذه المذكرات التى كانت أول كتابة لمذكرات هذا الرجل، لكننى لم أجمعها فى كتاب على أهميتها، وربما كان هذا بسبب اهتمامى فقط بما هو أدب .

ولكن التجربة الكبرى التى هزت كيانى لم تكن متعلقة بالعمل الصحفى أو الكتابة الأدبية، بل بالحرب . فعندما اشتعلت حرب سنة ١٩٥٦ وسقطت بور سعيد بدأنا نفكر فى المقاومة الشعبية . وكانت قد نشأت قيادة لهذه المقاومة من ضباط الجيش ربما كان قائدها فى منطقة المنزلة "كمال رفعت" كان المقاومون يتسللون منها إلى بور سعيد . وكان الضابط المسئول عن تلقى المتطوعين وتسهيل إبحارهم فى بحيرة المنزلة هو محمد أبو نار، الذى صار صديقا لى منذ منتصف الخمسينات، وكان هو الرقيب الذى عذبنا أيام اعتقال إحسان عبد القدوس، بحذف المقالات حذفا يكاد يكون عشوائيا . ولكن فى إحدى السهرات التى جمعتنا، ثار بيننا جدل قوى حول السودان، وكان هو نائبا لصلاح سالم فى هذه القضية، وبدلا من أن يؤدى هذا الجدل إلى خصام، أدى إلى صداقة قوية استمرت حتى وفاته منذ عدة سنوات . لعلى ذهبت للانضمام إلى المقاومة فى بور سعيد مرتين، فأذكر أن الأولى كانت تضم عددا من زملائى، كان منهم كامل زهيرى ويوسف إدريس وسعد زغلول فؤاد، وكانت الثانية مع حسن فؤاد المسئول عن الإدارة الفنية لمجلة صباح الخير، وربما كانت الرحلة الأولى مع حسن فؤاد، وقد مررنا أنا وهو بمشاكل كثيرة حتى وصلنا إلى المنزلة . وكان الشيوعيون هم الذين أداروا المقاومة الشعبية فى

بور سعيد وجمعوا الناس حولهم، ونجحوا فى إقلاق الجيش البريطانى الذى احتل المدينة. فأثناء سفرنا إلى القناة، رأينا المئات من العربات المصفحة المصرية مرصوصة على طول الطريق مصابة بقذائف ومطبقة كأنها علب من الورق المقوى ضغطتها يد قوية . كان شيئا محزنا ومثيرا للغضب . وكان عبد الناصر، غالبا، هو الذى أصدر قرارا بالانسحاب كما قيل. وحتى اليوم ليست هناك دراسة واضحة عما حدث بالضبط من الناحية العسكرية . كل ما هنالك أن الناس عرفوا أن الدولتين الكبريين فرنسا وإنجلترا بالتحالف مع الدولة الإسرائيلية قد اعتدوا على البلاد ووصلوا بالفعل إلى احتلال بور سعيد . ولاشك أن تصوراتى عن المقاومة وعن الحرب كانت خيالية، إذ كان انطباعى عن الضباط الذين قابلتهم طوال هذه الرحلة الشاقة أن عزمهم على الحرب ليس كما كنت أتصور، ومن المحتمل أن الاحتراف العسكرى شىء، وخيالات المدنيين من أمثالى شىء آخر .

ومن المؤكد أننى ورثت —مثل غالبية الشعب المصرى - الإحساس بالإحباط العسكرى. فمنذ هزيمة العرابيين أمام الجيش البريطانى فى نهاية القرن التاسع عشر، بل قبل ذلك، منذ هزيمة محمد على أمام القوى الكبرى، ومعاهدة لندن سنة ١٨٤٠، وتصفية الإمبراطورية التى أنشأها هذا القائد الألبانى الطموح، والهزائم والانكماشات تلاحق الحياة فى مصر . وحتى فى المواجهة مع الإسرائيليين، الذين كنا نعتبرهم عصابات لا قيمة لها من الناحية العسكرية، انهزمت الجيوش العربية . ومازالت هذه الوقائع الغريبة غير مفسرة حتى الآن . على أن الشعور بالإحباط ظل يتراكم علينا حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، ولكن هاهو ذا أول صدام عسكرى مع التحالف الثلاثى بين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل يحدث هذه الكارثة، ويدمر كل السلاح الذى نجحت مصر فى تعبئته من خلال الصفقة التشيكية الشهيرة . على أن الظروف الموضوعية أخرجت مصر من مأزق الهزيمة، إذ كانت الولايات المتحدة تخطط لأن تحل محل الاستعمار القديم الفرنسى والإنجليزى، وبالفعل ظهرت بعد جلاء قوات هذا التحالف الثلاثى فكرة أو نظرية ملء الفراغ، التى دعا إليها الرئيس الأمريكى حينذاك "دوايت أيزنهاور" .

أظن أنه كانت لدينا أسباب كثيرة حتى قبل الثورة لأن نشعر بالاعتزاز الوطنى . كنا نقاوم الهزائم بالماضى المجيد الذى أكدته الاكتشافات الأثرية الجديدة فى الربع الأول من القرن العشرين عن الحضارة الفرعونية، ثم إصدار الدستور فى سنة ١٩٢٣، وقيام الأحزاب، رغم الاحتلال البريطانى والثقة بأننا سوف نتحرر من هذا الاستعمار . وعندما قامت الثورة، ومهما تكن شكوكنا، فإنها فتحت الطريق أمام حياة جديدة . ولكن هذه الخيبة العسكرية أقلقتنا وأحبطتنا . بالطبع لم نكن نطمح فى الانتصار على ثلاث دول، منها الدولتان الأعظم فى ذلك الوقت، إنجلترا وفرنسا، إلا أن أداءنا العسكرى كان ضعيفا جدا ومثيرا للدهشة . على أن النجاح الدبلوماسى، ووجود الاتحاد السوفييتى كقوة مساندة، أنقذنا من اليأس الكامل .

كنا نعتقد أن الاتحاد السوفييتى قوة ثورية جديدة تمتلك القدرة على مساندة حركات التحرير فى العالم، وأننا بواسطة تحالف مع المعسكر الاشتراكى، نستطيع أن نعيد بناء أنفسنا، وأن نتغلب على كل الأزمات التى ورثناها من النظام القديم المتهالك . وكنا نراقب ما يحدث داخل الاتحاد السوفييتى بصفة خاصة . وكنا قد أصدرنا بالفعل صباح الخير حين ألقى

خروشوف خطابه الخطير فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى الروسى، والذى فضح فيه حكم ستالين، وكان مفاجأة مذهلة لجميع اليساريين فى أنحاء العالم وبصفة خاصة فى العالم الثالث، الذى لم تكن لديه متابعة واضحة، أو قل جيدة، لمجريات الحياة فى المجتمع السوفييتى، وطيرت وكالات الأنباء هذا الخطاب، وهنا رأى أحمد بهاء الدين أن ننشر هذا الخطاب كاملا فى روز اليوسف، وأعطانى النص الإنجليزى فترجمته، وأصدرناه بالفعل فى نفس الأسبوع .

وهكذا كانت الأحداث تتلاحق، والكثير من الأفكار التى كانت مستقرة فى أذهاننا بدأت تهتز، وأصبح علينا أن نعيد التفكير فى الكثير من الثوابت . وكنت قد بدأت أشعر بشكل شخصى بأسبقية الحرية على أى شىء آخر على الرغم من أننى كنت أعرف تماما تأثير الفقر والحاجة على كيان الإنسان كله .

❖ ❖ ❖

مضى عملى فى "صباح الخير" و"روز اليوسف" مع شىء من المشاكل ويبدو أننى لم أكن اجتماعيا بالشكل الكافى وكان المطلوب الكثير من التنازلات سواء على المستوى السياسى بالنسبة للسلطات أو بالنسبة للمجتمع الثقافى، لكننى أظن أن فى مصر شيئا مثيرا للدهشة، هو حماية المواهب، على الرغم من كل الظروف المحبطة . ولست أدرى كيف تعمل هذه الآلية على أرض الواقع، إذ كنت عضوا فى كل التنظيمات الثقافية، وكنت أكتب للإذاعة بشكل منتظم، ثم كتبت للسينما دون أن تقف أمامى عوائق مستحيلة أو بالغة الصعوبة . وعندما أمضيت سنوات النفى الاختيارى التى قاربت الثلاثين عاما، حدثنى البعض عن اهتمام المجتمع الثقافى بكتاب جدد كنت أعرفهم من قبل، ولا أتوقع أن ينتجوا عملا جيدا، ولكننى عندما قرأت هذه الأعمال الجديدة وجدتها بالفعل تستحق الاهتمام .

❖ ❖ ❖

كان إحسان عبد القدوس يكتب قصصا أبعد ما تكون عن اهتمام جيلنا، بل وحتى الجيل الذى سبقنا . إذ كنا قد استوعبنا الإنجازات الكبرى فى الرواية سواء فى الأدب الروسى أو الفرنسى أو الإنجليزى والأمريكى والألمانى، وكان طموحنا إلى هذا النوع . ولم يكن الأدباء الصحفيون أمثال إحسان عبد القدوس، أو يوسف السباعى، أو أمين يوسف غراب، أو محمود كامل المحامى (هكذا كان يكتب اسمه) يشد انتباهنا . وكان إحسان ناجحا على المستوى الشعبى وكان يغيظه أن النقاد الجدد لا يلتفتون إليه ولا يكتبون عنه . وفى إحدى الليالى، وكنت سهرانا فى المجلة لأنهى المواد المتراكمة عندى فى الموعد، وكان إحسان فى حجرته يكتب دون أن أعرف . وفى حوالى الساعة الثانية عشرة تقريبا، وأنا أهم بالخروج من المجلة، وجدت إحسان قادما نحوى . تبادلنا التحية ولكننى وجدته مكفهر الوجه وكأنه يعانى شيئا من الضيق أو التعب، فسألته : مالك يا إحسان ؟

كان بالفعل متوترا وكان قد أمضى خمس أو ست ساعات فى الكتابة، ولعله عندما وضع قلمه سرح فى تلك المقاطعة - التى بدت له غريبة - من جانب النقاد، بل وأيضا من النخب الثقافية . ولعله كان يعتقد أن المجتمع لا ينظر إليه نظرة الاحترام التى يتوقعها . ولعله كان يظن أن ذلك بسبب أمه وشهرتها كممثلة . فراح يهاجم المجتمع ونفاقه وادعاءاته الكاذبة بالالتزام الأخلاقى، بينما الفجور هو جوهر حياتهم، وأن رسالته فى الحياة ككاتب أن يكشف عوراتهم ولا أخلاقياتهم ويفضحهم .

كان غاضبا جدا وعصبيا، ولكنه بالنسبة لى كان شابا طيبا مجتهدا فى مجاله، وكان صحفيا مهنيا جيدا . حقا كان أكبر منى بعدة سنوات، ولكنه أثار إشفاقى وتألمت لألمه ورؤيته السوداوية، ورأيت أن من واجبى أن أعمل على إزالة توتره وغضبه . وأشرت إلى أن الناس تحبه على عكس ما يتصور، وأنه كاتب ناجح، وأنه مقاتل أيضا وقد دفع ثمن شجاعته عندما نقد ضباط الثورة. ولكن عندما تحدثت عنه ككاتب ناجح صرخ : إذن لماذا لا تكتبون عنى ؟! أنت مثلا، لم تكتب عنى حرفا واحدا مع أنك كتبت عن توفيق الحكيم ويحيى حقى ونجيب محفوظ ؟

لعلى قلت له كيف أكتب عنك وأنا أعمل معك ؟ إن الناس سوف يقولون إننى أجاملك، وأنا لا أحب أن أبدو أمام القراء بهذه الصورة، فقاطعنى مسرعا اكتب خارج المجلة فى أى مكان آخر .

كان مجهدا وحزينا ومحبطا، وتضايقت من أجله كثيراً، ولعلى وعدت بأننى سأفعل حتى أهدئ من ضيقه وغضبه . وبالفعل لم أتركه إلا بعد أن انفثأ غضبه .

لم يكن شخصا كريها، بل كان وسيما، وكان له معجبات كثيرات يأتين إلى المجلة لرؤيته، وكان جليسا ظريفا، لكنه لم يكن فى حماقة جيلى الذى ضيع عمره فى القراءات الصعبة وفى الأحلام الكبرى والنظريات المعقدة والطموحات المبالغ فيها . وبالتالى كانت قراءاته محدودة إلا فيما هو منشغل به . وقيل إنه نجح فى امتحانات الحقوق من خلال مذاكرته مع زميل له كان يقرأ له الكتب المقررة بصوت عال، وكان هو يستمع إلى هذه القراءة ويدخل الامتحان بناء عليها . ولم يكن الصحفى الناجح يحتاج إلى أكثر مما يمتلكه إحسان من علم أو ثقافة وكانت علاقاته الاجتماعية جيدة وهى أساس للعمل الصحفى الجيد . على أية حال، كنت ميالا له، وبالتالى مشفقا عليه، وأشعر أن من واجبى أن أعمل على إزالة توتراته ومساعدته على تقبل الحياة بشكل رحب .

انتهت هذه الليلة وأنا أشعر بأننى خففت عن صديق . على أنه بعد أيام قليلة استدعانى إلى مكتبه لأجد عنده يوسف السباعى، وقال لى إنه اتفق مع يوسف على أن يخصص لى الصفحات التى أريدها لكتابة المقالة التى وعدته بها لتنشر فى مجلة الرسالة الجديدة التى يرأس تحريرها السباعى . وهى مجلة استُعير اسمها من مجلة الرسالة الشهيرة التى كان يصدرها أحمد حسن الزيات، ويكتب فيها كبار الكتاب فى مصر والعالم العربى .

لاشك أننى تضايقت من هذه الطريقة، ولعلى وعدتهما بأننى سوف أكتب، ولم يتركانى إلا بعد أن حددا لى موعدا لتسليم الموضوع . وهكذا وجدت نفسى فى مأزق وعلىّ أن أكتب، وكنت - دون ادعاء أو مباهاة - قد اعتبرت أن الكتابة للناس شيئا مقدسا، وأن الصدق شرط لا بديل عنه للكتابة، بل كنت عرفت أيضا أن الصدق يستلزم التحرى والتدقيق والإلمام الجيد بالموضوع الذى أتطرق إليه، وأنه يستلزم دربة طويلة ومجالدة لكل غوايات النفس، فماذا أفعل وأعمال إحسان عبد القدوس لا تلقى القبول عندى ؟

كنت قد قرأت أغلب أعماله، ولكننى قررت أن أعيد قراءة أحسنها . وبالفعل، أمضيت أكثر من أسبوع فى هذه القراءة، وأنا أنبه نفسى إلى أننى ربما أكون قد غمطت حقه فيما مضى. وكانت قراءة مضنية، ولم أستطع أن أغير رأيى السابق، فشرعت فى الكتابة برفق وباحتياط شديد، ولكننى قلت ما أعتقد أنه صحيح . وأعطيت المقالة بالفعل إلى يوسف السباعى الذى نشرها فى الموعد . ولكن إحسان لم ترقه المقالة واعتبرها معادية له وخاصمنى خصاما شديدا تعداه إلى إيذائى فى عملى . وكان لابد أن أترك العمل فى دار روز اليوسف .

١٤

علاقتى بالسودان وصلاح سالم

كانت جريدة الشعب اليومية قد صدرت، ورأس مجلس إدارتها الضابط لطفى واكد ورأس تحريرها حسين فهمى، الذى كان رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية عند إصدارها، والذى عملت معه أثناء التحضير للإصدار وبعد الصدور حتى صدر الأمر بفصلى بسبب قصة الإذاعة السابقة . لعل صديقى محمد أبو نار هو الذى اتصل بلطفى واكد الذى رحب بانضمامى إلى جريدة الشعب ككاتب من كتابها . وبالفعل، عندما ذهبت لمقابلته، وجدت رجلا بالغ الحفاوة وقد أمطرنى بالإطراء حتى أخجلنى . وكان عنده الضابط على صبرى الذى أصبح بعد ذلك رئيسا للوزراء . تحدثنا قليلا وتم الاتفاق على العمل بعد أن انضم إلينا حسين فهمى . كان يكتب فى جريدة الشعب كتاب كبار من بينهم محمد مندور ولويس عوض وعبد المنعم الصاوى، وغيرهم كثيرون من الكتاب والصحفيين المرموقين . وأظن أن الرسام عبد السميع قد لحقنى بعد أن خاصم إحسان لسبب من الأسباب لا أتذكره .

كان لطفى واكد من ضباط الثورة، ولعله مديراً لمكتب جمال عبد الناصر، وكان ينحدر من أسرة كبيرة، وكان خاله لطفى السيد، الذى كان الكثير من الكتاب على رأسهم طه حسين يعتبرونه أستاذ الأساتذة . وأظن أن لطفى واكد روى لى أن رجال الثورة فكروا فى أن ينصبوه رئيسا للجمهورية، ولكنه اعتذر عن ذلك حسب ما أتذكر . اشتغلت مع لطفى واكد وحسين فهمى، وكنت سعيدا معهما ومع أغلب الذين كانوا يعملون معنا . حقا كان هناك موظف مخصص له مكتب، تأتيه كل مواد الجريدة ليراقبها، بناء على جدول يعطى له بالممنوعات وبالتوجيهات، التى ينبغى أن تبلغ للمسئولين عن النشر فى الجريدة، وأن على الجميع إطاعتها. ولكننا كنا نتحايل على هذه التعليمات حتى نعبر عن آرائنا الحقيقية، أو نخوض فى موضوعات أخرى لم تهتم بها الرقابة .

لست أذكر كم مضى من الشهور قبل أن نسمع خبرا عجيبا هو القبض على لطفى واكد بتهمة التآمر ضد الثورة، وأنه والمشتركون معه حوكموا عسكريا وأنه صدر ضده حكم بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما .

كانت هناك دائما تصفيات بين ضباط الثورة وكنت أعرف الأجنحة المختلفة داخل بنيان الثورة من محمد أبو نار، الذى أصبح صديقا حميما لى وكنا نلتقى يوميا أو عدة مرات فى الأسبوع . وكان مشغولا بقضية السودان، باعتباره نائبا لصلاح سالم، الذى كان مسئولا من قبل مجلس الثورة عن معالجة هذا الموضوع . وكان يناقش معى أحداث السودان . وكان موضوع العلاقة بالسودان قد وصل إلى نقطة التحول . كانت مصر تحاول أن تحقق الوحدة مع الأحزاب الاتحادية فى ذلك الوقت . وكان رسولها إليهم هو صلاح سالم . وكنت —على المستوى الشخصى —أطمح إلى الاتحاد مع السودان لأنى كنت أعرف أن لدى السودانيين ميلا إلى الديمقراطية، وأنهم لأسباب عديدة كانوا قد اعتادوا على العيش فى مجتمع مدنى، ربما بسبب اتساع رقعة السودان وصعوبة الحكم المركزى فيها، وربما للقبلية التى كانت مازالت منتشرة فضلا عن التنظيمات الطائفية، التى تتكون الولاءات فيها على أساس الانتماء الدينى أو الطائفى بين المهدوية والميرغنية . وكنت أعتقد أن مصر - عند الوحدة - ستضطر إلى اتباع نظام ديمقراطى، حتى تتوافق مع التقاليد السودانية . حقاً كان تفكيرا ساذجا، لكن هكذا فكرت فى ذلك الوقت . ولذلك كنت أحفز محمد أبو نار إلى العمل من أجل الوحدة وأساليب استمالة الأحزاب والطوائف السودانية للوحدة . ووجدته عندما أعرض عليه رأيا من آرائى يطلب منى أن أكتب هذا الرأى فى تقرير، حتى يعرضه على صلاح سالم لأن الكتابة مقنعة أكثر من النقاش . وبالفعل كنت أكتب هذه الملاحظات أو قل المقترحات بالحلول على ضوء ما يرويه لى أبو نار من التفاصيل التى تصادفهم على أرض الواقع .

كانت الوحدة السودانية المصرية تبدو أساسية للمصريين منذ العهود الملكية . وبصرف النظر عن أن هذه العلاقة لم تقنن أبدا بشكل صحيح، إذ كانت الوحدة فى العصر الملكى تستند على حق الفتح، والقليل من الإشارات إلى الروابط الجغرافية أو الثقافية والاجتماعية .. وكانت إثارة العواطف السودانية من أجل الاستقلال أسهل كثيرا من استثارتها فى اتجاه الوحدة بسبب هذا الطرح القديم الفاسد . ولاشك أن قوى كثيرة كانت تحاول أن تخلق العقبات أمام الوحدة سواء داخل السودان أو خارجه . وكانت الوحدة تحتاج إلى استعدادات خاصة من جانب قيادات الثورة المصرية، التى كان عليها أولا أن تثبت أقدامها داخل المجتمع المصرى، منها على سبيل المثال، النظام الاجتماعى .

لا أذكر عدد هذه التقارير التى كتبتها لمحمد أبو نار، ولكنها كانت كثيرة، وامتدت طوال فترة التعامل مع موضوع السودان . إلى أن استقر الأمر على إقامة استفتاء شعبى حول الوحدة أم الاستقلال، وانتهى الاستفتاء باختيار الاستقلال . كان هذا بالطبع فشلا لسياسة صلاح سالم، وقد علمت فيما بعد أن مجلس قيادة الثورة عقد اجتماعا لمراجعة دور صلاح سالم وأسباب فشله، على الرغم من الظروف والملابسات الكثيرة التى تبشر بنجاح الوحدة . وحضر هذه المحاكمة محمد أبو نار . وقد روى لى بعد ذلك كيف كان عبد الناصر يمسك بملف السودان أمامه وفيه هذه التقارير التى كتبتها وقدمها أبو نار إلى جمال عبد الناصر - أولا بأول - دون أن أعلم شيئا عن ذلك، وكان يرسل نسخة بالطبع إلى صلاح سالم فى الوقت الذى يرفع نسخة أخرى إلى عبد الناصر . وانتهت المواجهة أو المحاكمة إلى إثبات فشل صلاح سالم وأنه حتى لم يلتفت إلى تقارير مساعده محمد أبو نار، التى كان فيها الكثير من النصائح السديدة .

وكما فوجئنا بالقبض على لطفى واكد وسجنه، فوجئنا باستقالة صلاح سالم من وظائفه واختياره ليخلف لطفى واكد رئيسا لمجلس الإدارة فى جريدة الشعب . كنت أعرف صلاح سالم بسبب لقاءاتى بـ "أبو نار"، وزياراتى الكثيرة له فى مبنى قصر عابدين، الذى كانت تحتل جزءا منه وزارة الإرشاد القومى التى كان وزيرها صلاح سالم . وأذكر أنه جرت مناقشة بينى وبين صلاح سالم حول أن الشيوعيين السودانيين يعملون ضد الوحدة، ولعله كان قد لاحظ توجهاتى اليسارية وتحمسى للوحدة فى نفس الوقت، فأراد أن يفهم على أى أساس فكرى يرفض هؤلاء الوحدة . وأظن أننى تحدثت عن أسانيد نظرية، واستعملت رطانة يسارية تؤيد الو حدة كمعل تقدمى من وجهة نظر اليسار . ولكننى أتذكر أننى كنت متحمسا بالفعل للوحدة وكان أغلب أصدقائى من اليساريين المصريين يؤمنون بها، وربما قال صلاح سالم إنه يعرف أن التكوينات الأولى للنشاط الشيوعى السودانى تمت بمساعدة الشيوعيين المصريين، فإذا كان هؤلاء يؤمنون بالوحدة فلماذا لا يناقشون رفاقهم السودانيين .

فى ذلك الوقت، كانت الثورة قد اعتقلت عدداً من الشيوعيين وأودعتهم السجون، ولعلى قلت لصلاح سالم إنكم تعتقلون الشيوعيين، فكيف تريدهم أن يساعدوكم، فقال متحمسا : قل لى من هم أصحاب التأثير الأكبر على الشيوعيين السودانيين، فقلت إننى لا أعرف . وكنت لا أعرف بالطبع، وربما قلت له إن على أن أسأل ، وأذكر أننى لجأت إلى الشاعر كمال عبد الحليم، الذى كان مسئولا كبيراً فى حركة حدتو الشهيرة وعرفته بمحمد أبى نار، فرشح له مجموعة من الشيوعيين المعتقلين على أنهم كانوا مسئولين فى التنظيمات الشيوعية عن المسئولين السودانيين الحاليين، وأعطاه بعض الأسماء، منها أخوه الكاتب إبراهيم عبد الحليم. وهنا أدركت أن المسألة كلها اجتهاد من كمال عبد الحليم للإفراج عن المقربين إليه، فقلت فى نفسى لماذا لا أستفيد أنا من هذه الفرصة فأضع اسم صديقى يوسف إدريس، الذى كان معتقلا منذ أكثر من عام ونصف عام . فقلت لأبى نار أن يضع اسم يوسف إدريس من بين الذين ينبغى الإفراج عنهم للمساعدة فى إقناع السودانيين بصواب الدعوة إلى الوحدة. وبالفعل وضع الاسم وتم الإفراج عن الأربعة أو الخمسة المختارين . وفى يوم الإفراج انتظرت فى مبنى قصر عابدين لأرى صديقى يوسف إدريس . وبالفعل، جيء بهم إلى ذلك القصر المهيب، الذى كنا نراه من خارج الأسوار فقط، والذى كان يطل علينا من شرفته الخارجية الملك فاروق فى سالف الأزمان . ظهر الرجال الخمسة فى ثياب شبه متسخة وممزقة وهم فى حالة ذهول . وعندما استقبلت يوسف إدريس بالأحضان، كان مذهولا ولم يكن يعرف كيف أفرج عنه ولماذا . والأعجب من كل ذلك، ما علاقتى أنا بالموضوع، وما الذى جاء بى إلى هذا المكان ؟! وربما لم يكن يعرف علاقتى الشخصية بمحمد أبى نار تلك العلاقة التى نشأت – فى الغالب – ويوسف إدريس فى المعتقل . وكانت الأمور كلها مشتبها بها . فنحن نسمع بين وقت وآخر عن علاقة زميل أو آخر بالسلطة، وهى علاقة مشبوهة لصلتها بالأمن والتجسس، فهل أنا صديقه الموثوق من هذا النوع من الناس ؟

على أنه كان فى حاجة إلى أن يخلع عنه عثاء السجن ويستحم بدنا ونفسا قبل أن يعيد التفكير فى أى شيء . ربما ذهبت إليه فى اليوم التالى ورويت له تفاصيل القصة . وكان موضوع السفر إلى السودان قد بهت شيئا ما، إذ كان صلاح سالم يلعب أوراقه الأخيرة وكان الوقت قد فات لتدخل المثقفين المصريين اليساريين لإقناع زملائهم السودانيين بفضائل الوحدة .

ويبدو من هذه القصة أن كل فرد من قيادات الثورة كانت له صلاحيات واسعة فيما يخص موقعه . إذ أن الإفراج عن هؤلاء المعتقلين تم بناء على أمر منه للمسئولين عن الاعتقالات. فعندما كنت أقترح عليه الأسماء قال لى إنه سيصرف لكل شخص مبلغ مائتى جنيه كمعونة سريعة لترتيب أحوالهم بعد السجن، ولكننى طلبت خيرا من ذلك أن يعينوا فى الصحف، إذ كانوا كتّاباً ورسام كاريكاتير واحد هو زهدى . فقال لى إنه لا يملك تعيينهم إلا فى مجلة الإذاعة التى كانت تتبعه كوزير للإرشاد القومى أو قل الإذاعة . إن المركزية التى راحت تتركز يوما بعد يوم فى يد رئيس الجمهورية، لم تكن قد ظهرت بعد . أظن أننا كنا فى شتاء سنة ١٩٥٥ .

بعد أن استقال صلاح سالم من مجلس قيادة الثورة ومن الوزارة عين رئيسا لمجلس إدارة جريدة "الشعب" التى كنت أعمل فيها، وقد سارت الأمور طبيعية . وربما ذهبت لمكتبه مع بعض الزملاء لتحيته بمناسبة تعيينه فى الجريدة، لكننى لم أجد ما يبرر التعامل معه فى شىء إلا إذا استدعانى هو . ولم ألحظ عليه أى تغير من ناحيتى أثناء هذا السلام العابر .

ولكن بعد قليل من الوقت نشب خلاف بينى وبين زميل لعله كان عبد الرحمن الشرقاوى، فاستدعانا صلاح سالم معا إلى مكتبه لنجده يثور ثورة عارمة وخاصة تجاهى وكأنه لم يعرفنى ولم يكن بينى وبينه أحاديث طويلة، مما ذكرنى بعنفه السابق فى أزمة برنامج الإذاعة الذى حقق معى بشأنه فى أوائل سنة ١٩٥٤ .وعندما انتهت الأزمة وجلست مع نفسى لم أستطع أن أفهم سبب تحامله الشديد علىّ . لم أكن أعرف قصة استقالته، ولا التحقيق الذى أجرى معه بشأن موضوع السودان، ولا الإشارة إلى التقارير التى كتبها لمحمد أبى نار وإشارة عبد الناصر لها . فهذه كانت وقائع خطرة ولم يجرؤ أبى نار على أن يرويها لى . ولكن بعد زمن طويل وربما بعد وفاة صلاح سالم روى لى تفاصيل القصة، ويبدو أن صلاح سالم كان يتسلم هذه التقارير من محمد أبى نار فلا يقرؤها . وربما كان رأيه فى مساعده أنه لن يقدم له فى تقاريره شيئا جديدا . وعندما فوجئ بهذه التقارير، وانتهت المحاكمة إلى ما انتهت إليه، راح يفكر فيمن كتبها، ولعله خمن أننى كاتبها لعلاقتى بمحمد أبى نار . وكانت هذه أول فرصة يلقانى فيها ويفرغ فىّ كل غضبه .

عندما روى أبو نار لى القصة، قال إن صلاح سالم راح يستقصى عمن كتب التقارير حتى عرف أننى كاتبها، وهو شىء ممكن على أى حال، سواء استنتج ذلك أو دله أحد عليه . وقد آذتنى هذه القصة أذىً كبيرا. إذ بعد قليل من تسلم صلاح سالم رئاسة مجلس الإدارة لجريدة الشعب فى المرة الثانية، جاءت فكرة ضم الشعب إلى الجمهورية، التى كانت مستمرة فى الصدور ولكن بعد أن ضعفت كثيرا، فتقرر ضم الجريدتين معا، وكلف صلاح سالم بإصدارهما فى جريدة واحدة تحت اسم "الجمهورية .. جريدة الشعب" . وكانت هذه فرصة للتخلص من عدد من الصحفيين . كنت قد ضممت إلى الشعب صديقى عبد الرحمن الخميسى، وكنت أحد الكتاب الأساسيين فى الجريدة . وكانت تربطنى بالخميسى صداقة قوية . وجاءنى ذات يوم أثناء إجراءات ضم الجريدتين وسألنى عما إذا كانوا قد حرروا معى عقد الانتقال إلى الجمهورية، فلما أجبت بالنفى قال لى : كيف ذلك ؟! لقد وقعوا معى عقد الانتقال، ثم قال لى قم معى نذهب إلى صلاح سالم . واستغربت كثيراً لأن موقعى فى الجريدة كان قويا جدا،

على أنى ذهبت مع الخميسى إلى مبنى الجمهورية، وكان صلاح سالم موجودا فى مكتبه، فدخلت عليه وكان معه وجيه أباظه، وهو من ضباط الثورة، وكان مديرا عاما لإدارة الجريدة أو لشركة الإعلانات الشرقية التى تتبعها، لا أذكر بالضبط . وسألنى صلاح سالم عن ماذا أريد، فقلت له إنهم لـم يوقعوا معى عقـد الانتقال إلى الآن فقال باقتضاب : لم نوقع عقودا مع أحد بعد . فقلت له إنهم وقعوا فعلا عقدا مع عبد الرحمن الخميسى . فقال بغضب : لم نوقع معه شيئا . فقلت إنه معى فى حجرة سكرتيرك الآن . وهنا استشاط غضبا وراح يسبنى ويسب الخميسى سبابا عنيفا حتى أنه وقف فوق المكتب .

كل ذلك كان فى حضور وجيه أباظه، فلم أملك إلا أن أقول له : إنك تكلمنى بهذا الأسلوب لأنك جالس فوق هذا المكتب، ولولا ذلك ما كنت تجرؤ على مثل هذا الكلام . وهممت خارجا فاستشاط غضبا وصاح فى : تعال هنا . اتجهت نحو الباب وأنا فى قمة الغضب والعجز عن مبادرته بالمثل، وكنت أريد أن أخرج قبل أن أختنق . ولكن وجيه أباظه جرى نحوى وطوقنى بذراعيه ومنعنى من الخروج، بينما هدأ جنون صلاح سالم وجلس على كرسيه وأقعدنى وجيه أباظه غصبا عنى .

مرت لحظات صمت ربما لا تقل عن نصف دقيقة، ودق صلاح سالم على الجرس فجاء الساعى ليطلب لى فنجانا من القهوة، ثم انقلب فجأة من النقيض إلى النقيض . وراح يبرر عصبيته بالظروف المصاحبة لضم الجريدتين، وللمشاكل الناتجة عن ذلك بالنسبة للعاملين والإدارة، وأنه كان قد قرر بالطبع أن يحرر معى عقدا، لكننى فاجأته وهو مثقل بالتعب ولم يكد يلتقط أنفاسه . وانتهت هذه المقابلة العاصفة بتحرير العقد وخرجنا أنا والخميسى ونحن نعجب لتصرفات هذا الشخص الغريبة، وانتقاله المفاجئ من حالة إلى نقيضها فى نفس اللحظة .

بدأت العمل فى الوضع الجديد كما كنت، ولم أكن ألتقى بصلاح سالم إلا فى اجتماعات موسعة . وكان قد ضم عددا من الصحفيين، وعين بعضهم رؤساء للتحرير، فقد كان للجمهورية عدد من رؤساء التحرير منهم إسماعيل الحبروك، الذى كان شاعرا غنائيا وكاتبا لقصص رومانسية، وكانت تربطه بصلاح سالم علاقة ما . وكان إسماعيل شابا مرحا بسيطا فيه كل سمات شاعر الأغانى من رقة وسماحة . ودون أن نعرف السبب وجدنا اسم إسماعيل الحبروك قد اختفى من قائمة رؤساء التحرير . كان إسماعيل صديقا لى من أيام روز اليوسف، وعندما رفع اسمه من الجريدة، رأيت أن علىّ أن أذهب إليه وأن أجعله يتقبل هذا الوضع بصدر رحب، وكان مكتبه إلى جوار مكتبى . عندما دخلت عليه كان متوترا جدا . حدثته بالطبع عن أنه كاتب، والكاتب أكبر من أى منصب، وأنه شاعر مرموق وكاتب جيد، ولعل هذه فرصة ليتفرغ لإصدار الكتب . وبدا أنه يصغى لى وهو سارح، وفجأة انتصب واقفا وخلع قميصه وقال : أنظر هل هناك شىء فى ظهرى ؟ كان ظهره ممتلئا ببقع حمراء، ونصحته بأن يخرج من هنا ويذهب إلى الطبيب . وعندما عدت إلى بيتى رحت أتأمل تلك الظروف التى نعيشها فهذا هو إسماعيل الحبروك الذى كنت أظنه فى وضع آمن . إذ لم تكن له اهتمامات سياسية إلا فى حدود فكرة الوطنية بما يجعله بعيدا عن الخصومات السياسية أو التدخل فى المجالات الصعبة . ولكن هاهو ذا تطوله اليد العصبية التى تتلاعب بالكتاب وبكل شىء فى حياتنا الاجتماعية الجديدة .

كنت فى المساء أذهب إلى مقهى إنديانا، التى انتقلت مجموعة الأدباء وأساتذة جامعة القاهرة، التى ترتاد مقهى عبد الله بالجيزة إليها . وكان يوسف إدريس قد تزوج أخت زوجة إسماعيل الحبروك، وإذا بشخص يأتى للمقهى ليسر فى أذن يوسف بشىء ما فنهض مضطربا ولما سألته عما حدث قال لى إن إسماعيل الحبروك نقل إلى المستشفى مصابا بنزيف فى الدماغ . ذهبت معه إلى المستشفى ولكن الإصابة كانت خطيرة ولم يستغرق الأمر إلا ثلاثة أيام حتى فارق الحبروك الحياة .

لم تتحسن علاقتى بصلاح سالم وكان هو يعانى من مشاكل فى الكلى . وكنا إذا التقينا داخل الجريدة لسبب أو لآخر، نتبادل تحية مقتضبة بل لعلها باردة من ناحيته . وفى اليوم التالى لوفاة إسماعيل الحبروك اجتمعنا فى حجرة أحد رؤساء التحرير لعله كان موسى صبرى، وكان الغرض من الاجتماع هو التشاور فى إجراءات الجنازة التى تقرر أن تحدث أولا فى القاهرة، ثم فى دمنهور بلده، حيث سيدفن هناك . جلست صامتا حتى قال صلاح سالم : "الحمد الله لقد مات راضيا عنى . لقد صالحته" .

لست أدرى ما الذى دفعنى لأنفى هذا الزعم، إذ قلت على الفور ودون أن أحسب حسابا لتأثير ذلك النفى، ورويت لقائى بالحبروك فى مكتبه وحديثى معه، والبقع الحمراء التى أرانيها على ظهره فى نفس اليوم الذى أصيب فيه بنزيف الدماغ .

خرج منى هذا النفى القاطع دون تحسب، واكتشفت ذلك حتى وأنا أكمل حديثى، وأصررت على المضى فيه . صمت الجميع لعدة ثوان وإذا بصلاح سالم يشحب وجهه ثم يتجه إلى فيما يشبه الاستجداء : "إذن قل لى ماذا ينبغى أن نفعل ؟" ثم استطرد : "سوف أضع اسمه على الجريدة فى قائمة رؤساء التحرير" . ولكنى كنت أهتم بشئون المعيشة أكثر من أى شىء آخر، ربما بسبب ظروفى ومسئولياتى المادية إذ قلت : لا بأس لكن الأهم من ذلك هو أن تقرر له معاشا استثنائيا يمكن زوجته وأولاده من المعيشة الكريمة . ولعلى شرحت أننا - نحن الكتاب - لا نكاد نملك شيئا إلا مرتباتنا وعائداتنا البسيطة من الكتابة فى هذا المجال أو ذاك .

التفت صلاح سالم إلى مدير مكتبه وراح يملى عليه القرارات وأنا أقترح عليه اقتراحات أخرى متعلقة بتكريم إسماعيل الحبروك .

تحولت علاقتى بصلاح سالم بعد هذه الحادثة تحولا انقلابيا تماما، فأصبح فى الكثير من أمور الجريدة يستدعينى ليأخذ رأيى أو حتى ليدردش معى . ولكن حالته الصحية راحت تسوء إلى أن توفاه الله .

عندما أستعيد هذه الخبرة بواحد من أبرز رجال الثورة، أرى أن المهام التى ألقيت على كواهلهم كانت ثقيلة جدا . ومع أنهم استعانوا ببعض المثقفين، إلا أنهم لم يستعينوا بهم بالقدر الكافى، بل كان لديهم نفور من المثقفين رغم حاجتهم إليهم ولم يخف عبد الناصر فى كتاب فلسفة الثورة المنسوب إليه استخفافه بالمثقفين وهو الشىء الذى وجدته إلى حد ما لدى صديقى محمد أبى نار . وأظن أن اعتماد قيادات الثورة على رجال من الجيش فى كل المناصب كان سببه الخوف من الإنتلجنسيا المصرية وأن الهدف الذى كان يقودهم إلى قراراتهم هو أمن نظامهم واستقراره . على أنهم فى نفس الوقت كانوا يحترمون المعرفة والتخصص ولكن فى قرارة أنفسهم، ودون أن يعبروا عن ذلك . وكان عبد الناصر بصفة خاصة يعرف الضباط

معرفة جيدة، وأظن أننى اعتقدت فى وقت من الأوقات أنه يختار رجاله من الجيش، بما يتوافق مع معرفته الجيدة باتجاهاتهم، واستطاعته استنباط سلوكهم المستقبلى تجاه سلطته . وبالفعل كانت هناك إشكالية حول ما سمى: أهل الثقة وأهل الخبرة .

والواقع أنهم استلموا نظاما لم تكن مؤسساته كاملة، وكان هو نفسه يحتاج إلى إصلاحات كثيرة، وكان السياسيون السابقون تشغلهم عن الإصلاح الحقيقى، الصراعات غير الاعتيادية على السلطة . كان الاستعمار هو القوة الأساسية إلى جانب الملك وإداراته المختلفة وطموحه لأن يكون الحكم الفيصل فى كل شىء . كان النظام المصرى أيام الملكية لا يكاد يستقر على شىء، إذ عرفت الانتخابات المزيفة من خلال ضغط الملك، الذى كان كارها لشعبية حزب الوفد ووجد من يؤازره من السياسيين، الذين كانوا إما منشقين عن الوفد أو معادين لاتجاهاته السياسية بحكم انتماءاتهم المختلفة . وكان من الصعب النظر إلى النظام على أنه دولة بالمعنى الحقيقى، وكانت مصر على أية حال، احتمالا جيدا لظهور دولة حديثة بكل المؤسسات التى تبنى عليها الدول . ولكى يتحقق ذلك كانت فى حاجة إلى ثورة شعبية، ولكن الذى حدث هو أن الذى قام بالثورة كان تنظيم الجيش، وكان من الطبيعى أن تحدث كل الحوادث التى حدثت حتى يومنا هذا .

١٥

صداقتي مع يوسف إدريس

كانت صداقتى بيوسف إدريس ترجع إلى ما قبل الثورة بقليل . كنت قد انضممت إلى مجموعة الشباب الملتفة حول الشاعر إبراهيم ناجى أثناء رئاسته لجلة القصة، وكان منهم يوسف إدريس . إلا أننى لم ألتق به أثناء الفترة القصيرة التى قضيتها مع هذه المجموعة من الأدباء الشبان . لكنى كنت قد قرأت قصة أو اثنتين نشرتا فى مجلة القصة ولم أتوقع له تفوقا بعد . وربما كانت قد فاتت سنة أو أكثر عندما بدأت أقرأ قصصا قصيرة جدا باسم يوسف إدريس فى جريدة المصرى . وفى تلك الأيام كنت ألتقى بشكل شبه يومى مع صديقى شكرى عياد، الذى بدأ ينشر قصصه القصيرة فى جريدة المصرى، حيث كان زميله وصديقه محمود عبد المنعم مراد مسئولا فى هذه الجريدة . كانت قصص يوسف إدريس مذهلة، إذ لم تكن تزيد على أربعمائة كلمة، ولكنها بالغة التركيز . إذ كانت تمسك بلقطة قصيرة ذات دلالة كبيرة فيصورها بأسلوب خال من أية زخرفة، فى مجتمع لم يزل غارقا فى الزخارف اللفظية . كنت أراقب كل من يكتبون القصة لأعرف موقعى بينهم، وبصفة خاصة حجم ما يمكن أن نسميه تجاوزاً موهبة ولم أكن قد وضعت يوسف إدريس فى موقعه الصحيح . وعندما حدثت شكرى عياد عن إعجابى المفاجئ به قال أنه تعرف به فى جريدة المصرى. واتفقنا على أن يدعوه للتقى به فى إحدى المقاهى التى كنا نرتادها، وبالفعل تم اللقاء، فوجدت شابا وسيما لم يزل الطابع الريفى مسيطرا عليه، ولكنه كان مقداما فى مجال التفكير، وكان بالفعل مرتبطا بالتنظيمات الشيوعية وهو طالب فى كلية الطب وكان مسئوله على ما أذكر هو الدكتور فؤاد محيى الدين، الذى كان يسبقه فى الدراسة بعام أو عامين، وهو الذى لمع نجمه بعد ذلك وأصبح رئيسا للوزراء فى عهد السادات .

كان الذى لفت نظرى فى أعمال يوسف إدريس هى قوة إبصاره الفنية، إن صحت العبارة. إذ كانت قدرته على الإلمام بالأماكن والشكل الخارجى للأشخاص قوية جداً، وكأنه آلة تصوير شديدة الحساسية، لا تكاد تغفل شيئا مهماً فى الصورة . وكنت على عكسه تشدنى العوالم الداخلية للإنسان، الأفكار والأحاسيس والتركيبات المعقدة داخل الشخصية الإنسانية، وكانت قراءتى ليوسف إدريس هى التى نبهتنى إلى أننى أمر على الأشياء والصور مرورا عابرا، إلا ما كان متصلا بالهواجس والانفعالات . وهذه النظرة البصرية تكونت عنده من تركيزه على مسرح

الأحداث التى تدور فيها حياتنا فى مصر . كان يراقب السلوك والشكل والأصوات وأكاد أتصور أنه لم يستبطن أحدا من شخصياته إلا فى القليل النادر، وكان يعرف أنه لكى يكون مصورا جيدا لحياة الناس فى بلاده، عليه أن يفتح عينيه وأذنيه تماما، دون أن يسقط عليهم شيئا من أفكاره أو انفعالاته . وهو يكون فى أحسن حالاته التعبيرية عندما يدور فى هذه الدائرة بالغة الأهمية . وهو يستغرق فى تصوير أبطاله وسلوكهم، وأثناء ذلك يكتشف الدلالة الكبرى التى يعنيها شكل هؤلاء الناس وسلوكهم وأماكن حياتهم وزمن وجودهم، فتضىء هذه الدلالة كما لو كانت كشافا باهر الضوء . وكنت أظن أنه فى تأمله لموضوع القصة التى سيكتبها، يكتشف تلك الدلالة، فيبدأ فى بناء القصة لتنبثق منها هذه الدلالة . ولكنى عندما سألته فى نقاشاتنا المتعددة، وجدت أن هذا الكشف يأتى أثناء الكتابة، وكأن نسيج القصة العفوى هو الذى يكشف بشكل مفاجئ عن المغزى أو الدلالة فيقتنصها . وينتقل السرد العفوى والبسيط فى الكثير من الأحيان إلى مغزى فلسفى بالغ العمق . فى بعض الأحيان لا ينجلى السرد عن هذا الاكتشاف الثمين، فتكون القصة عادية على الرغم من الجمال الطبيعى الذى يثيره السرد الواقعى الأمين والذكى فى نفس القارئ .

ربما كانت دراسة يوسف إدريس للطب مسئولة عن طريقة تفكيره، فقد كان قارئا جيدا للنظريات العلمية فى الفلك وفى الفيزياء والبيولوجى بصفة خاصة . ومن تأمله للكشوف العلمية فى هذا الجانب أو ذاك، كان يستنبط أفكاره، أو قل فلسفته، وقليلا ما كان يستغرق فى قراءة الفلسفة ولكنه كان قارئا جيدا للأدب . وعلى الرغم من أن دراسة الطب فى مصر كانت باللغة الإنجليزية، وبالتالى كان مجيدا لهذه اللغة، إلا أنه - مع ذلك - انخرط فى فصل لدراسة اللغة الإنجليزية فى المعهد البريطانى بالقاهرة أثناء دراسته فى الجامعة، فكان قادرا على إلقاء محاضرة أدبية بالإنجليزية عندما يتطلب الأمر ذلك . ولعلى أستطيع القول بأن جزءا كبيرا من معرفته أو ثقافته يرجع إلى الحياة ذاتها فى الشارع أو القرية أو المدينة، فقد كان شغوفا بمخالطة الناس، وخاصة الطبقات الشعبية وكثيرا ما كان يخرج من كلية الطب فى قصر العينى ليقضى بعض الوقت فى حى الماوردى الشعبى، بالقرب من مبنى الكلية، وعلى مقاهيه تعلم أشياء كثيرة . وكان ينظر إلى المجتمع البشرى الممثل —على سبيل المثال —فى مدينة أو قرية أو حتى دولة كظاهرة طبيعية تنبتها الطبيعة وفق شروط أو قوانين نابعة من تلك الظروف التى أنتجت فيها . ولقد تولد لديه اعتقاد بأن القوة الحقيقية لأى تجمع بشرى، تكمن فى الجموع عندما تلتقى لسبب أو لآخر . وأن كل ما ينعكس على الأفراد على اختلاف مواهبهم ومدركاتهم ووضعهم الاجتماعى، هو من إبداع هذه الجماعة، وربما تحولت فكرة "الشعب" عنده إلى قوة خفية كامنة لها تأثيرها الحاسم على مجريات الحياة وتكاد تتسم بشىء من القداسة الغامضة . من هنا كانت الشخصيات الشعبية التى يروى جانبا من حياتها ذات طابع أسطورى وتنطوى على أسرار وقدرات لا تدركها النظرة الخاطفة . وكان إيمانه بالشعب أشبه بالإيمان الدينى . وقد خطر ببالى ذات مرة أن هذه "العقيدة" تولدت لديه بسبب حاجته وحاجة المصريين عامة وخاصة من أبناء الطبقة الوسطى ذوى الاتجاهات العقلانية والعلمية إلى الاستناد لقوة كامنة أقوى من أية قوى فردية أو حتى نظامية لمواجهة أسلوب من الحكم كان دائما جاثما على أنفاس المصريين . ويبدو أننا - أبناء الطبقة الوسطى المصرية - الذين بدأنا التمرد بعيد الحرب العالمية الثانية . كنا نقاوم الاستبداد والتحقير الذى كانت تزاوله سلطات

أجنبية تحتقر الفلاح المصرى وتتندر به، كنموذج للجهل والتخلف لفترة طويلة، قد تكون امتدت من العصر المملوكى إلى العصر التركى، ونشرت مواريثها الثقافية هذه حتى عصر الاحتلال البريطانى، فكان علينا أن نقدس هذا الفلاح ونكتشف فيه قوى قدسية معجزة، واللبنة الأساسية الساحرة التى تشكل ما يسمى بالشعب . إنه نوع من عبادة الشعب والإيمان به بشكل مطلق . ولقد تفتح وعى يوسف إدريس السياسى أو قل الاجتماعى فى المظاهرات، فمن جرب السير فى مظاهرة كبرى يدرك القوة المضافة التى يكتسبها عندما تذوب فرديته فى جمهور المظاهرة .

ربما كان هذا هو السبب فى عقيدة يوسف إدريس الشعبية والتى راح يلتمس دلائلها فى قصصه الجميلة التى لا تعلن عقيدة مبدعها أو انحيازه للجماهير، بل اكتشافه لحقيقة علمية "موضوعية" هى القوة الهائلة الكامنة فى الجماهير . وليس من المستبعد أن مثل هذه الأفكار جاءت من اهتمامه بالإجرام وملاحظته أن الجرم الأكبر يجتذب الجرم الأصغر فى كل شىء فى الطبيعة وعالم الاجتماع البشرى أيضا فالجموع هى القطب الأكبر فى المجتمع وهى أكبر من الدولة ومن القانون، بل إن كل هذه الأشكال، إنما هى من إبداع الجموع ومنها تستمد شرعيتها ووجودها .

الحق أن يوسف إدريس شغلته الكثير من القضايا الفكرية، ولكن عبادة الشعب هذه كان لها أكثر من مصدر، فمن المؤكد أن الفلسفة الماركسية كان لها تأثير كبير فى تنبيهه إليها . ولكن الحقيقة أن الشعب المصرى بعامة صارت له خبرة تاريخية متوارثة فى القوة التى تملكها الجماهير فى اجتماعها حتى من قبل ثورة سنة ١٩١٩ ثم مظاهرات ما بعد الحرب العالمية الثانية .

كان يوسف إدريس - مع كل ذلك - رجلا دنيويا واقعيا وكان مهتما بأن يكون له موقع اجتماعى متميز من حيث المال أو الجاه ومن أجل ذلك كان يقوم بمحاولات لم تكن كلها صحيحة وكانت أحيانا خائبة أو جارحة وكنت أخشى من تأثير هذه الخيبات على أحاسيسه وثقته بنفسه، التى كانت ركن إبداعه الركين . ولكن الذى أدهشنى هو تغير حالته عند الإبداع عن شكله الاجتماعى الذى يقابل به المجتمع . كان يتحول عند الكتابة إلى ملائكية بالغة الشفافية والنقاوة . ومن يدرس أعماله لن يجد فيها أى تنازل أو مجاوزة للموضوعية أو الصدق .

فى المعتقل كتب قصة طويلة نسبيا "نوفوليت" فى مائتى صفحة تقريبا، سماها "قصة حب"، وكنت أعمل فى روزا اليوسف، وكان بيته قريبا من مبناها القديم، فكنا عادة نلتقى عنده . وبعد خروجه من المعتقل بأيام قليلة، أبلغنى أنه أنهى فى المعتقل قصة يريد أن يقرأها لى . وكنت مصابا بنزلة برد فاقترحت عليه أن نقرأها غدا أو بعد غد، ولكنه أصر ثم ادعى أنه سيعطينى حبة دواء سوف تذهب البرد عنى فورا، وتنشطنى إلى حد مدهش . وطبعا لم أكن أثق فيه كطبيب، وكان يحاول كثيرا أن يجعلنى أصدقه فى الشئون الطبية . على أنه على أى حال أعطانى حبة صفراء صغيرة بينما ابتلع هو حبتين . كانت الساعة العاشرة مساء عندما بدأ يقرأ وربما انتهينا من القراءة فى الثالثة بعد منتصف الليل . وظلت المناقشة محتدمة حول القصة حتى تنبهت فجأة إلى أن الساعة صارت السابعة صباحا . لم أكن قد تزوجت بعد، ولم

يكن هو أيضا قد تزوج . وكان على أن أعود إلى بيت الأسرة الذى أعيش فيه . وبالفعل عندما وصلت إلى البيت كانت الساعة قد أوشكت على الثامنة صباحا، ودخلت إلى فراشى على الفور، وحاولت أن أنام فلم أستطع . وظلت حالة الأرق هذه معى ثلاثة أيام بلياليها لم أنم فيها دقيقة واحدة حتى خلت أن رأسى سوف يطير عن عنقى . فى اليوم الرابع بدأت هذه الحالة تنقضى وعرفت النوم أخيرا، وكان هذا بسبب تلك الحبة الصفراء البالغة الخطورة . وتساءلت بينى وبين نفسى، كيف ابتلع يوسف إدريس حبتين ولم يحدث له ما حدث لى ؟! ولعلى أرجعت هذا إلى أن طلبة الطب لهم بطبيعة دراستهم جرأة على الأدوية، التى ننظر إليها نحن البعيدين عن هذه الدراسة على أنها شىء مخيف لا ينبغى أن يتعاطاه الإنسان، إلا بناء على توصية من "الحكيم" . وهذا الدواء أو المخدر منشط للذهن أو منبه وليس مخدرا، وعرفت فيما بعد أن طلبة الطب كثيرا ما يلجئون إليه ليساعدهم على السهر أثناء "المذاكرة" . على أن يوسف كان قد تعود عليه . ولقد أوغل بعد ذلك فى ممارسة كل ما هو غير عادى، وكأن رغبة جامحة كانت تدفعه دفعا لتجريب كل شىء ليتعرف على طبيعة التكوين البشرى، أو على الأقل ربما كان هذا أحد دوافعه لهذه التجارب المهلكة . وبالطبع كانت تمر به فترات مرضية متصلة بمناطق الاتزان النفسى أو العقلى، ولكنه كان يخرج منها سليما معافى، وقد كان على أى حال واعيا تماما بالأهمية القصوى لاحتفاظه بعقله سليما . وكان إيمانه برسالته ككاتب، إيمانا قويا جعله محور حياته كلها . ونتيجة لإسرافه فى تعاطى تلك المنبهات، اقتضى الأمر أن ينقل فورا إلى إنجلترا . فعندما استدعيت إلى بيته كان فى حالة أقرب ما تكون إلى الغيبوبة، ولكن الذى كان مريضا هو معدته . إذ تناول ثلاث حقن من عقار بالغ الخطورة أدى إلى تحجر المعدة حسب ما قاله لى الطبيب، وأن حقنة واحدة من هذا الدواء كفيلة بأن تخدر جملا . حدث أن ذهبت إلى إنجلترا بعد ذلك بأيام قليلة، وذهبت لرؤيته فى المستشفى بضواحى مدينة لندن فإذا به يستنجد بى لأوقف مشروعا للعلاج يتطلب جراحة فى المخ، وكان تعبيره الصارخ لى : لا تدعهم يلعبون فى عقلى . وكان طبيبه البريطانى يرى أن هذا هو العلاج الصحيح . على أننى نجحت بمعونة السفير المصرى فى لندن فى ذلك الوقت المرحوم كمال رفعت فى منع هذه الجراحة وبالفعل عاد إلى القاهرة بعد ذلك بوقت قليل ومارس عمله فى مصر لفترة أخرى بشكل طبيعى أو قريب من الطبيعى .

١٦

كيف نجوت من الاعتقال

كانت علاقتنا بالثقافة الغربية سلسة وطبيعية وكانت تلك الثقافة قد صارت عالمية على مدى القرنين الماضيين، ربما تكون قد بدأت بالانبهار والإعجاب كما انعكست على رفاعة الطهطاوى وجيله ثم تطور هذا الانبهار إلى موافقة مع شىء من الجدل كما ظهر فى جيل طه حسين والعقاد ثم أصبحت تكون الجزء الأكبر من ثقافة الجيل التالى لهما مثل نجيب محفوظ ومحمد مندور ولويس عوض، وعندما وصلت إلى جيلنا كانت فكرة عالمية الحياة البشرية تشكل رؤيتنا حتى بالنسبة لقضايانا الوطنية . وكانت الماركسية باعتبارها فلسفة كونية قد جعلت كل تفكير يتصل بامتداداته الكونية، حتى لا تصبح النظرة قاصرة . وفى نهايات القرن العشرين كان كل نظر إلى الثقافة الغربية يأتى من داخلها، بصرف النظر عن المكان الجغرافى الذى تصدر منه هذه النظرة، سواء كانت من قلب العالم الغربى جغرافيا أو من خارجه وهكذا كان النقد الموجه إلى هذه الثقافة من قلبها مثل نقد "فرانز فانون" الإفريقى أو "إدوارد سعيد" الفلسطينى أو "تشومسكى" الأمريكى . ولم تكن لدينا نحن شباب الأدباء المصريين، الذين بدأنا محاولة التأثير فى مجتمعاتنا منذ بداية الخمسينيات أية مشكلة بالنسبة لما هو غرب وما هو شرق . وكان مصطلح الأصالة والمعاصرة الذى ابتكره المستشرق الفرنسى "جاك بيرك" الذى عاش فترة غير قصيرة فى الجزائر، ليس مهما أو حتى صادقا بالنسبة لنا، إذ كانت نظرتنا إلى واقع حياتنا فى مصر والعالم العربى تنطلق من منظور عالمى، ولم نشعر على الإطلاق بأن هناك فرقا فى نمط التفكير بيننا وبين أى كاتب جاء من هذا البلد الأوروبى أو ذاك . وكنا بالفعل نزاول اتصالات شبه يومية أحيانا مع الكتاب الغربيين من خلال المؤتمرات الثقافية أو اللقاءات الشخصية . وكنا - على المستوى الفردى أحيانا - نندهش من أن التواصل بين المثقفين أسهل كثيرا من التواصل مع البيئات غير المتعلمة فى بلادنا، أو حتى فى البلاد الغربية، التى كان مستوى التعليم فيها أعلى كثيرا . وكنا نظن أنه بسبب تطور تكنولوجيا المعلومات، يمكن أن نتواصل مع كل النشاط الثقافى فى العالم . وكان هذا طوال النصف الثانى من القرن العشرين، وقبل تلك الثورة التكنولوجية الأخيرة، التى جعلت كوكب الأرض قرية واحدة كما يقال . ولعله لهذا لم تشدنا الدراسات الحديثة نسبيا مثل البنيوية . إذ كانت فى النهاية تحاول أن تثبت أن لكل مجتمع بنيته الثقافية المختلفة أو الخاصة به نتيجة ظروف

عديدة منها ما هو جغرافى وما هو ثقافى أو تاريخى . وربما كنا مغالين، ولكن فكرة الثورة العالمية التى جاءت بها الماركسية كان لها تأثير كبير فى هذا النظر الكونى فضلا عن تدفق الثقافة من مراكزها المختلفة إلى كل أنحاء الكرة الأرضية وكان أغلبها من المراكز الغربية .

لعله لهذا السبب كنا نحاول أن نربط بين الانقلاب العسكرى الذى حدث فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، وبين الانقلابات العسكرية فى أمريكا اللاتينية وصلتها بالولايات المتحدة، ونفسره على ضوء الاستقطاب الدولى بين المعسكر الرأسمالى والمعسكر الاشتراكى . كنا بالطبع منحازين إلى المعسكر الاشتراكى، وبالتالى فنحن مناضلون ضد الفلسفة الليبرالية وتطبيقاتها فى العالم، الذى تحول منذ الانقلاب الصناعى فى بداية القرن التاسع عشر إلى غزو البلاد الضعيفة واستعمارها ونهب ثرواتها، وخلق تراكم رأسمالى . وكنا نحن فى مصر نعانى من هذا الاستعمار ونعرف أنه معاد للقيم الإنسانية وللعالم الذى نحلم به، من تكافؤ الفرص للناس أجمعين وتوزيع الثروة توزيعا عادلا . وكانت فكرة الثورة العالمية تشاغل أذهاننا بالطبع، وهو ما يتفق تماما مع الثقافة التى نتعامل معها ونحياها ونعبر عنها أيضا وتفد علينا من أكثر من مركز، سواء كان فى الغرب أو الشرق . ولكن ثورة ٢٣يوليو لم تكن مجرد حركة انقلاب عسكرى تشبه انقلابات أمريكا اللاتينية العسكرية الموالية للولايات المتحدة . حقا أنها حاربت الاتجاهات اليسارية من أول وهلة، وقاومت الحركة العمالية بعنف لا يقل عن عنف شبيهاتها فى أمريكا اللاتينية . فقد أعدمت العاملين اللذين قادا إضرابا عماليا فى كفر الدوار . ولكننا كنا على المستوى الفردى نعرف بعض المشتركين فى الثورة، ونعرف ميولهم الثورية الصادقة. وكانت الثورة أصلا ضد النظام الملكى الرجعى، والمعادى للشعب، ثم ظهور اتجاهات لإعادة توزيع الثروة على أسس عادلة إلى حد كبير . كان الأمر محيرا، ولعلنا أدركنا - بشكل ما - أن هذه الحركة العسكرية قابلة للتأثر وأنها ليست قادمة بأيديولوجية وعقيدة سياسية مسبقة تريد أن تفرضها على المجتمع . على هذه الأرضية تم تعرفى باليوزباشى محمد أبو نار الذى كان من ضباط الصف الثانى للثورة .

كان هذا الضابط - الذى أزعجنا كثيرا قبل الإفراج عن إحسان عبد القدوس فى دوره الرقابى على الصحف باعتباره نائبا لصلاح سالم المسئول عن الصحافة فى هذا الوقت - يزور مجلة روز اليوسف بين وقت وآخر، وكانت قضية الوحدة بين مصر والسودان فى قمة نشاطها، وكان الطلبة السودانيون بالجامعة المصرية يأتون إلينا بين وقت وآخر لمناقشة موضوع الوحدة البالغ الاشتعال فى هذا الوقت . وتصادف أن محمد أبو نار كان موجودا بالمجلة عندما جادلت الطلبة السودانيين - كانوا يساريين فى الأغلب - فى ضرورة الوحدة من أجل صالح الدولتين. ويبدو أن حجج اليسار السودانى كانت قوية . ولكننى من أرضية اليسار، كنت أجادل إلى جانب الوحدة مما أثار دهشة أبو نار، الذى كان يعانى هو وصلاح سالم من انقلاب اليسار عليهم فى السودان . فى هذا اليوم ضمتنا أول جلسة، إذ كانت لى زميلة صديقة حميمة لصديقة أو خطيبة هذا الضابط، وكانت هى السبب المباشر فى اجتماعنا وقضاء سهرات ظريفة يعرفها المجتمع المصرى منذ القدم، تتجمع فيها النخب المصرية من رجال ونساء، ويتناول فيها الحديث كل الموضوعات الساخنة فى السياسة أو فى الأدب والفن . وبالتالى غالبا ما كانت تضم الفنانين والأدباء والسياسيين من الجنسين . ومثل هذه المجالس هى التى أبرزت كبار الرجال، مثل سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين والعقاد وطه حسين وغيرهم من النجوم البارزة،

والتى لعبت دورا أساسيا فى حياة المجتمع المصرى . فى هذه الجلسة نشب نقاش حاد بينى وبين محمد أبو نار الذى يبدو أنه أخذ دور محامى الشيطان، أى أن يدافع عن الخط المعارض ليس لإيمانه بالمعارضة، بل لاستثارة الجانب الآخر لإبراز كل ما عنده والتوصل إلى الحقيقة. وأذكر أن إحسان عبد القدوس كان معنا فى هذه الجلسة، فعرض على أن يوصلنى بسيارته إلى بيتى، وفى الطريق أبدى قلقه الشديد من مناقشتى الصريحة جدا والبالغة الحدة مع رجل من رجال الثورة . بالطبع كانت تجربة الاعتقال المريرة التى مر بها هى التى جعلته يتخوف من نتائج هذا الحديث، الذى وجه الكثير من النقد لحركة الجيش فى سياق الحديث عن الوحدة مع السودان . وعندما غادرت السيارة وصعدت إلى بيتى، كانت المخاوف قد بدأت تخايلنى. فأنا نفسى قد تعرضت لمحاكمة مازال تأثيرها علىّ قويا . وتوقعت على أى حال، نتيجة ما لهذا التهور فى الحديث .

والواقع أن محمد أبى نار كان شابا وسيما رغم مظهره الخشن . كان شابا فى العشرينات فى مثل سنى تقريبا، وكان أنيقا فى لباسه المنتقى بعناية وبذوق جيد، وكان إلى جانب هذا، ورغم مظهره الخشن، مهذبا ورقيقا فى الحديث ومرنا فى الجدل، وربما كان حبه للنساء هو السبب فى تلطفه هذا وكانت خطيبته فتاة جميلة ذات جرأة محببة وكانت تحبه إلى حد الهوس . على أنه كان من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة إذ كان أبوه يعمل فى شركة سكة حديد الدلتا التى كانت تسير قطارات صغيرة بين قرى مديرية الدقهلية وكان هو قد ولد وتربى فى مدينة المنصورة التى كان فيها محكمة مختلطة وجاليات أجنبية كبيرة تكاد تأتى بعد الإسكندرية مباشرة . وبالطبع كانت فيها مدارس أجنبية وبالفعل أدخله أبوه المدرسة الفرنسية ربما كانت الليسيه أو الفرير لا أذكر . وبعد أن أنهى شهادته الثانوية أدخله أبوه الكلية الحربية وتخرج فى نفس الدفعة التى تخرج فيها شمس بدران الذى أصبح بعد ذلك وزيرا للحربية والذى نشر اسمه بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ والخلاف بين جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر كرئيس مؤقت للجمهورية بعد أن يتنحى عبد الناصر عن الرئاسة، وكان فى نفس الدفعة شخص آخر سوف يصبح صديقا حميما لى هو عبد الحى شعبان، الذى التقيت به بعد ذلك بسنوات عديدة فى بريطانيا، حيث كان يعمل أستاذا فى جامعة إكستر البريطانية، ورئيسا لقسم الدراسات الشرقية بها، وربطت بيننا صداقة وطيدة إلى أن توفاه الله فى القاهرة بعد غربة أربعين عاما تقريبا .

كنا قريبين أنا وأبى نار من حيث وضعنا الاجتماعى، وكانت دراسته الثانوية الفرنسية تشده بشكل ما إلى تلك الرؤية التى أسميها عالمية . بمعنى زوال الحواجز العقائدية أو القومية التى تفصلنا عن الغرب وثقافته، والتعامل بشكل طبيعى بعيدا عن أى تهاويل مع أو ضد هذا العالم. وكان محبا للحياة منغمسا فيها إلى أقصى درجة، بحيث لم تبق لديه وقتا للقراءة المعمقة، وإن كانت تغرقه فى ثقافة الحياة مباشرة بما فيها من خبرات فى التعامل مع البشر، ومواجهة المشاكل المترتبة على العلاقات اليومية من شتى جوانبها، سواء كانت تعاملا بسيطا أو تعاملا سياسيا عمليا، أو حتى فكريا . وكان يعرف أن خبرته الثقافية محدودة، ولذلك كثيراً ما كان يؤكد على أهمية ثقافة الحياة . وكان يقول لى : إن هذا المثقف الذى تتحدث عنه بإكبار لا يستطيع أن يشترى بطيخة من السوق دون أن يخدعه البائع .

ومع ذلك كان محمد أبى نار ميالا إلى معاشرة الكتاب والمثقفين بشكل عام . وقد عرفته بأصدقائى المقربين فى هذا الوقت مثل محمد عوده وكامل زهيرى ويوسف إدريس وغيرهم. وكثيراً ما كنا نلتقى فى مناسبات عديدة فى مجالس الحديث الممتعة، التى كانت أسلوبا من أساليب الحياة المصرية وتقاليدها الراسخة . وقد نفعت هذه العلاقة فى حادثة صغيرة ولكن لها دلالة كبيرة . ففى سنة ١٩٥٩ خاصم جمال عبد الناصر الاتحاد السوفييتى، فقرر اعتقال جميع الشيوعيين، بل اليساريين بشكل عام . وكانت وزارة الداخلية بناء على أمر من جمال عبد الناصر تعد كشوف الاعتقال . وكان الوزير فى هذا الوقت هو عباس رضوان، الذى كان صديقا حميما لمحمد أبى نار، وكان هذا الأخير فى زيارة له فى مكتبه وكانت هذه الكشوف أمامه على المكتب وامتدت يد أبى نار فأمسكت بالكشوف وراح يقرأ الأسماء فإذا به يجد اسمى واسم يوسف إدريس ومحمد عوده وكامل زهيرى ونعمان عاشور، ولعله فكر قليلا وتذكر أننى - بصفة خاصة - العائل الوحيد لأسرتى الكبيرة، ولعلنى كنت قد تزوجت فى هذه السنة، فقال للوزير : ألا يمكن شطب هذه الأسماء ؟ إنهم أصدقائى الحميمين، وسوف يكون موقفى محرجا لو تم القبض عليهم ؟

وكان عباس رضوان شخصا طيبا، وقد عرفته عن قرب بعد ذلك بسنوات قليلة . تردد قليلا ثم قال لأبى نار سوف أغير الكشف وأشطب أسماءهم . ولكن من عادة عبد الناصر أن يقرأ الكشوف اسما اسماً، وأحيانا يشطب اسماً، وأحيانا أخرى يضيف اسماً، فإذا أضاف أسماء هؤلاء لن أستطيع أن أفعل شيئا . وبالفعل أعيدت كتابة الصفحة التى تحتوى على أسمائنا وذهبت الكشوف ولم يتذكر عبد الناصر أى اسم منا وهكذا نجونا من اعتقالات سنة ١٩٥٩ .

هكذا كانت الحياة السياسية فى مصر بكل بساطة . لم تكن هناك جريمة معينة أو موقف سياسى خطير معاد يسعى أو يقدر على قلب السلطة . وكان اعتقال الناس رسالة رمزية لا أكثر ولا أقل فى بعض الأحيان . ولكونك يسارى بشكل ما، كان عليك أن تحذر الفصل من العمل أو الاعتقال حسب الأحوال المزاجية أحيانا . ويبدو أن عملية الاعتقال لم تكن شيئا مقلقا بالنسبة لمصدر القرار .

طبعا لم أعرف هذه القصة إلا بعد زمن طويل من حدوثها، وبعد أن أصبح أبو نار آمنا ليرويها لى . ولكنى أذكر تلك الأيام العصيبة وما فيها من مفارقات تدعو إلى الضحك أحيانا، فقد كنا نعرف أن حملة الاعتقالات قد بدأت وطالت حتى غير الشيوعيين من الكتاب والمفكرين، وإن كان من الممكن نسبتهم إلى اليسار . فى هذا الوقت كنت أعمل فى جريدة "الشعب"، وكنت ألتقى مع زملائى وأصدقائى فى قهوة ريش ساعة الغداء، وقبل العودة إلى بيوتنا وكنا نستطلع أخبار الاعتقالات فنعرف أن فلانا قد اعتقل أو أنهم يبحثون عن فلان ونتوقع بالتالى أن نعتقل، وفى الساعة الثالثة ظهرا ظهر لويس عوض فى مشيته المترنحة العجيبة ليقول لنا : أبشروا انتهت الحملة .

طبعا أسرعنا بالتصديق ودخل الاطمئنان إلى قلوبنا وكان الجالسون بالمصادفة هم هؤلاء بالذات أنا وعوده وكامل زهيرى ويوسف إدريس ونعمان عاشور . وعدنا إلى بيوتنا بشىء من الاطمئنان . وكان من عادتى أن أذهب إلى الجريدة بعد المغرب لأزاول عملى المسائى . كنت

أصعد درجات السلم القليلة إلى الدور الأول بمبنى الجريدة فى شارع قصر العينى، الذى كان مبنى جريدة المصرى من قبل، فإذا بى أرى الدكتور محمد مندور يقف على بسطة السلم ليلقانى، فبادرته على الفور : انتهت الحملة يا دكتور . لكنه نظر إلى غير مصدق وسألنى من الذى أخبرنى بذلك ؟ فرويت له كيف أن لويس عوض هو الذى أخبرنا بعد ظهر اليوم . ضحك مندور وقال لى أن لويس قد ألقى القبض عليه منذ قليل .

لم أصدق، وبادرت بالاتصال بزوجته الفرنسية فقالت لى بعربيتها المكسرة إنه أخذ حقيبته وذهب إلى المصيف . وكانت تعتقد أن هذه إجابة آمنة ورمزية عن الذهاب إلى المعتقل. وعندما عدت إلى مندور مندهشا وقلقا قال لى بمكره الريفى الظريف : أنا ذهبت إلى المشير عامر وقلت له إننى سان سيمونى ولا علاقة لى بالفكر الشيوعى، فأمنه المشير ووعده بأنه لن يعتقل . استمعت إليه وأنا شديد القلق سارحا فى هذه الحجة العجيبة عن سان سيمون وهل بالفعل يعرف المشير عامر ما هو المذهب المنسوب إلى سان سيمون .

وانتهت الحملة بالفعل دون أن نعتقل، ولـم تكن هناك أية ضرورة لمعرفة الأسباب . وأظن أن الاعتقال طال لخمس سنوات لهؤلاء الذين اعتقلوا فى هذه الحملة، ولم يستثن من ذلك إلا لويس عوض الذى خرج بعد عام ونصف عام أو شيئا من ذلك، ولا نعرف الأسباب التى عجلت بخروجه قبل الآخرين .

وفكرة الاعتقال فكرة غريبة ولا تمت إلى القانون بصلة . فهى تحفُّظ على شخص ما بإيداعه فى سجن أو معتقل لمدة غير محدودة، وبدون أية تهمة، إلى أن يتيسر للسلطة اعتقاد بأن خطر وجود الشخص على المجتمع قد زال لسبب أو لآخر . وهو من صلب قوانين الطوارئ الاستثنائية، وانتى تعتبر خروجا على القواعد والمبادئ الدستورية . وهى الفكرة التى لجأت إليها الولايات المتحدة وبريطانيا بعد حوادث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ .وما زالت مصر تمارس حق الاعتقال حتى اليوم استنادا إلى إعلان حالة الطوارئ . على أن مصر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر توسعت جدا فى الاعتقال . وأذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر قال فى إحدى خطبه مهددا أنه ألقى فى السجن عشرات الألوف من معارضيه، وأنه على استعداد ليزيدهم عددا . وكما رأينا كان اعتقال الشيوعيين فى سنة ١٩٥٩ ردا على موقف لم يقبله من السوفييت، وكأن المصريين الذين اعتقلهم ليسوا مصريين، بل أتباع للسوفييت، ولم يكن هذا صحيحا فى الواقع . وحدث نفس الشىء بالنسبة للإخوان المسلمين .

١٧

كتبت استقالة عبدالحكيم عامر

كانت الحياة صعبة بغير شك على المثقفين والمهتمين بالشأن العام، ولكنهم كانوا قد اكتشفوا أن هذه السلطة العسكرية لا تصدر فى قراراتها الداخلية إلا بدوافع أمنها، ونادرا ما تكون لأسباب سياسية كما حدث فى اعتقالات سنة ١٩٥٩، وكان تنبيهها إلى فكرة ما، سواء فى الشأن الداخلى أو الخارجى من الممكن أن يوجهها إلى احتضان الفكرة وتنفيذها ولكنى أذكر أن سنة ١٩٦١ كانت سنة حرجة فى تاريخ الحكم العسكرى، ربما لبوادر الصراع بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . وكنت بالصدفة، ولعلاقتى بمحمد أبو نار أعرف هذا الصراع وتطوراته، وكان هناك تفكير فى الانقلاب على عبد الناصر من أتباع المشير، وكان عددهم كبيرا . وكان أغلبهم من ضباط الجيش ومن عناصر الثورة الذين خرجوا من الجيش وتولوا أعمالا تنفيذية هنا أو هناك . وفى هذا الوقت كان الجمود يسيطر على الحياة تقريبا . كانت المعتقلات مليئة بالمعتقلين، وكانت وطأة الحياة على الناس ما زالت صعبة، وقد انعكس هذا على حالة هؤلاء الضباط الموالين للمشير عامر، والذين يفكرون بالفعل فى الانقلاب عليه، وكنت بسبب علاقتى (بأبى نار) قد قابلت الكثيرين منهم، وصار الحديث معى صريحا أحيانا حتى أننى شاركت صديقى يوسف إدريس فى هذه الجلسات التى لم تكن شيئا منظما بل دردشة سياسية عفوية، وكان هؤلاء يتحدثون معنا عن الديمقراطية والحريات وعن اتجاهات شعبية أيضا فى الشئون الاقتصادية . وكانت علاقة محمد أبو نار بالمشير عامر قوية ولكنها ازدادت قوة بعد أن عين أخوه الأصغر - أحمد أبو نار - مديرا لمكتب عبد الحكيم عامر. ولعلنى فى ذلك العام كتبت نص الخطبة التى كان سيلقيها المشير عامر بناء على طلب من محمد أبو نار فى يوليو . وكنت قلقا بالطبع من هذا الصراع بين الرجلين الذى وصل إلى درجة التفكير فى إزاحة عبد الناصر . على أن الخطبة التى ألقاها عبد الناصر فى ٢٢ يوليو لمناسبة الاحتفال بعيد الثورة، كانت مفاجأة كبرى، وكان يوسف إدريس عندى فى البيت ونحن نسمع خطاب عبد الناصر وإذا به يعلن أول قرارات التأميم . نهضنا واقفين ونحن لا نكاد نصدق. ولكننا أدركنا على الفور أن هذه ضربة قاصمة لجماعات المشير . وأن مشروع أى انقلاب ضد عبد الناصر سوف يئول على الفور بأنه عمل رجعى مضاد للثورة "الشعبية"، وسوف يكون من العسير، إن لم يكن من المستحيل القيام بأى عمل ضد عبد الناصر بعد هذه القرارات، التى

هيجت الشارع المصرى فى جميع أنحاء الجمهورية . وفى العام التالى صدرت جميع قرارات التأميم الأخرى وقانون الإصلاح الزراعى الأخير، والذى أنزل حق ملكية الأرض الزراعية إلى خمسين فدان . وكانت هذه بداية المنحى الاشتراكى، وبداية الاعتماد على الاتحاد السوفيتى فى بناء السد العالى ثم فى السلاح بطبيعة الحال .

نعم كان عبد الناصر يستعين ببعض المثقفين ذوى الاتجاهات الاشتراكية، ولكنهم كانوا قلة. وكان الذين يتولون إدارة المشروعات المؤممة أبعد ما يكونون عن الاشتراكية والإيمان بها كوسيلة للإصلاح، بل كان أكثرهم معاديا للفكرة الاشتراكية . حتى أن كتابات غير قليلة ظهرت فى بعض الصحف تقول : لا اشتراكية بلا اشتراكيين . وكنا نتساءل بيننا وبين أنفسنا عن هذا الخلط العجيب

بالطبع لم تنجح التنمية الاقتصادية بواسطة الملكية الاشتراكية ربما بسبب افتقاد المديرين لأية حماسة للفكر الاشتراكى بل ومعاداتهم لهذا الفكر . ومن المحتمل أن هيمنة الدولة على كل الاقتصاد، كانت سلطة مطلقة للرئيس بحيث امتد سلطانه لكل صغيرة وكبيرة، كما يتردد فى الأوساط الناقدة لسياسات هذا الرئيس .

أظن أنه قبل القرارات الاشتراكية، كان الصدام بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قد بلغ الذروة، إذ كان المشير يريد أن ينفرد بكل شىء فى الجيش، بينما كان عبد الناصر يريد أن تكون له الكلمة العليا باعتباره رئيسا للجمهورية، وقد أدى هذا الخصام لأن يعتكف عبد الحكيم فى بيته وبدأ قواد الجيش يتوافدون عليه كما لو كانت إشارة لتضامن القواد معه . كنت أسمع تفاصيل هذه القصص من صديقى محمد أبى نار . كان نقدى الأساسى للثورة يتركز على قضية الديمقراطية، فقد كانت كل المؤسسات مختارة بدقة بما فى ذلك البرلمان . وكان محمد أبى نار يعرف رأيى، ولعله لذلك طلب منى أن اكتب استقالة المشير عندما احتدم الخلاف بين الرجلين . وكتبت بالفعل استقالة تضمنت شروطا حصرتها فى عدة نقاط كان أهمها نص اخترته من كلاسيكيات العمل الديمقراطى من "الماجنا كارتا" أو "العهد الأعظم" فى القرن الثالث عشر فى بريطانيا ينص على أنه لا يجوز القبض على شخص أو توقيفه إلا بناء على تهمة ونص فى القانون . وفوجئت بأن هذه الاستقالة قد طبعت ووزعت على النواب وأعضاء الثورة ومن حولهم .

كان عبد الناصر حكيما، إذ ذهب إلى بيت عبد الحكيم عامر ليجد تلك الحشود العسكرية فى البيت ولكنه اعتمد على العلاقة التاريخية بينه وبين المشير واستطاع استمالته وأن ينتهى اللقاء بنوع من الصلح، ولكن عندما استمعت إلى بيان سحب الاستقالة والشروط التى اتفق عليها لم أر نص "الماجنا كارتا"، وظل حق القبض على الناس دون حاجة إلى إثبات تهمة أو الاعتماد على نص فى القانون مباحا للسلطة . كنت فى مقهى إنديانا بالدقى ألعب الشطرنج مع الدكتور عبد القادر القط عندما بدأ الراديو يذيع القرارات الأخيرة . أوقفت اللعب ورحت أصغى باهتمام حتى إذا انتهى الخبر عرفت أن هذا البند الذى كان أساس كل شىء لم يتمسك به المشير عبد الحكيم عامر أيضا .

❖ ❖ ❖

كانت القرارات الاشتراكية نقطة حاسمة فى وقف الصراع بين المشير عامر والرئيس عبد الناصر . كذلك قرار تخفيض الملكية الزراعية للفرد إلى خمسين فدان كان قد صدر أيضا، وقامت مشاكل عديدة فى التطبيق، منها حوادث كمشيش التى استشهد فيها صلاح حسين وهو أحد الاشتراكيين وكان يقاوم سيطرة أسرة إقطاعية على البلد، وترتب عليها تحقيقات واجتياحات للقرية من فصائل للجيش لتثبيت الأمن كما وضع المشير على رأس لجنة تصفية الإقطاع . وكان من الواضح أن عبد الناصر كان قد اتجه إلى خيار الاشتراكية والتحالف الوثيق مع الاتحاد السوفيتى، الذى كان قد بدأ فى بناء السد العالى . ولست أدرى ما إذا كان اختيار عبد الناصر للاشتراكية قد جاء بسبب الطابع الشمولى الذى كان سمة التطبيق الاشتراكى فى كل البلاد الشيوعية، وإمكان انفراد الزعيم أو الرئيس بالسلطة . فى هذا الوقت ـ سنة ١٩٦٢ـ كنت قد بدأت القلق من فكرة ديكتاتورية البروليتاريا، ومن عملية الزعامة المطلقة التى تميز بها ستالين ثم ماوتسى تونج، ومن فكرة الديمقراطية فى المجتمعات الاشتراكية، ولم اقتنع بتلك الديمقراطية التى تدور فى إطار حزب واحد . وقد جاء فى ذلك الوقت هجوم خروشوف على ستالين فى المؤتمر العشرين للحزب، ثم نشوء اتجاهات أوروبية تعتمد التعددية الحزبية أساسا، وميزت نفسها عن التجربة السوفيتية والصينية والألبانية بطبيعة الحال بأنها الشيوعية الأوروبية . وفى هذا الوقت أيضاً كانت الأحزاب الشيوعية الأوروبية تحظى بنسبة كبيرة من الأصوات فى الانتخابات، كما حدث فى إيطاليا وفى فرنسا ولكنها كانت تقاوم بعنف من قوى المجتمعات الرأسمالية وبصفة خاصة من القوى الكبرى، سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة . وكانت كتابات نظرية كثيرة قد ظهرت فى نقد التجربة الاشتراكية، ولكن وعلى الرغم من كل ذلك كان اختيار عبد الناصر للاشتراكية تنظيما وتطبيقا بالغ الأهمية بالنسبة لنا .

فى هذا الوقت جاء إلى جريدة الجمهورية كمال الحناوى، الذى كان من ضباط الثورة المهمين، وكنت أعرفه أيضا من جلسات قهوة بور فؤاد، وكان فى فترة من الفترات قد انضم إلى تنظيم شيوعى قبل أن يطالب تنظيم الضباط الأحرار أعضاءه بأن يستقيلوا من أى تنظيم آخر . حدث هذا بالفعل للكثيرين سواء من الشيوعيين أو من الإخوان المسلمين . وكان الحناوى شاعرا وذا نزعات أدبية، وكان هو وصديقه ثروت عكاشة ينشطان فى الكتابة - قبل الثورة - سواء فى جريدة المصرى أو فى الكتب، وأظن أنهما اشتركا فى كتابة كتاب واحد . وكان كلاهما ذا نزعة تقدمية إلى جانب اهتماماتهما الأدبية والثقافية . ولقد أحدث تعيين الحناوى رئيسا لمجلس إدارة دار الجمهورية تطورات خطيرة فى هذه الدار وفى الصحافة المصرية بشكل عام مما سأتحدث عنه بعد ذلك .

لا أكاد أتذكر الأسباب التى أدت إلى اختيار الاشتراكية للتنمية الاقتصادية . هل هى المشاكل الاقتصادية التى كانت تعترض عملية التنمية بسبب ضآلة رأس المال ؟ وفكرة التأميم التى من الممكن أن تجمع كل رأس المال المتاح فى البلد، وبالتالى توجيهه للمشروعات الكبرى . أو هو اختيار سياسى دفعت إليه عدة أغراض منها هيمنة الرئيس على كل الأنشطة فى كل المجالات، بما فى ذلك المجال الاقتصادى، وهو المتصل بأرزاق الناس حسب النقد الذى كان يوجه إليه من بعض معارضيه ؟

ويبدو أنه بعد عام أو عامين من تنفيذ قرارات التأميم الاشتراكية فكر عبد الناصر فى الاستعانة بالشيوعيين، وكانت المعتقلات مليئة بهم، فقرر الإفراج عنهم، وألحق كلاً منهم فى

الوظيفة التى تتناسب مع تخصصاته . وفى نفس الوقت اقتنع عبد الناصر بأن ينشئ تنظيما سريا سماه التنظيم الطليعى، بنى على فكرة أنه التنظيم النواة المحاط بالتحالفات الطبقية المختلفة، حسب مفهوم الاتحاد الاشتراكى، مثل الرأسمالية الوطنية والمثقفين والعمال والفلاحين . ولكن هذا التحول لم يعجب الكثيرين من الكوادر الكبرى التى استعان بها جمال عبد الناصر، وكانت هناك مقاومة داخلية لهذا التنظيم . أما على المستوى النظرى، فكانت هناك اتجاهات عديدة تدور فى دائرة الاشتراكية لكنها تعارض الاشتراكية الماركسية، أو على وجه التحديد التفسير السوفييتى للاشتراكية، وتنادى بعض المفكرين بالاشتراكية العربية، واجتهد بعضهم فى التمييز بينها وبين المفاهيم الماركسية . كما بدأ التوصيف لعمليات التأميم على أنها نوع من رأسمالية الدولة . وأذكر أننى تدخلت فى هذا الجدل وقلت فى إحدى مقالاتى أن الفارق بين رأسمالية الدولة والاشتراكية هو عائد المشروع الاقتصادى، فإذا كان يعود بالفائدة على العمال والفلاحين - أى الطبقات الكادحة ـ فإنه مشروع اشتراكى مثل السد العالى، الذى تستفيد منه الزراعة التى أصبحت ملكيتها فى الغالب ملكية اشتراكية . أما إذا كان يعود بالفائدة على ملاك أو استثماريين يعتمدون على ملكيتهم لرأس مال ما، فإنه يكون رأسمالية الدولة . هذا على الرغم من أن فائض القيمة الناتج من المشروع قد يعود على الدولة، ذلك أنه سيصبح هنا ملكية عامة تصرف فى المشروعات الجديدة ذات العائد أو الفائدة لجماهير الكادحين . كنت متحمسا بالطبع لهذه الإجراءات وإن كنت قلقا من ناحية التنفيذ فالكثير من مديرى المشروعات المؤممة كانوا يحسبون فى اليمين المصرى المعادى للفكر الاشتراكى . وربما كانت تحولات عبد الناصر إلى الفكر الاشتراكى أسرع من قدرة معاونيه المقربين على مثل هذا التحول . وليس من المستبعد أن إنشاء التنظيم الطليعى كان يستهدف تجميع الكوادر القادرة على الحلول محل الكوادر القديمة ، فهو إلى جانب ذلك، قرر إنشاء معهد للدراسات الاشتراكية تدرس فيه القيادات المختارة سواء من الكوادر القديمة أو الجديدة الفكر الاشتراكى، ليوكل إليهم بعد ذلك إدارة عملية التغيير التى ينشدها .

كنت فى هذا الوقت أصدر مجلة "الكاتب" التى كانت تعتمد الفكر الاشتراكى فى الإصلاحات الداخلية والفكر الوحدوى فى علاقات مصر بالعالم العربى . وكان اجتهادنا فى تأصيل فكرة الوحدة العربية مستخلصا من الفكر الاشتراكى مما أعطاه حجية جديدة أقوى من الحجج التقليدية التى كانت تعرضها الأحزاب الوحدوية الأخرى، مثل حزب البعث مثلا، الذى كان يعتمد على المشاعر العرقية والعواطف أكثر مما يعتمد على العلم والموضوعية، كما كنا نظن فى ذلك الوقت . والواقع أن الماركسية كانت ترى أن التفسير العلمى للتطور الاجتماعى يؤدى إلى حتمية الحل الاشتراكى . وهكذا لم تكن الاشتراكية مجرد اختيار، بل أمراً حتمياً مبنياً على دراسة القوانين العلمية، التى اكتشفتها الماركسية والتى تقود التطور الاجتماعى إلى الاشتراكية .

ومع ذلك لم تكن مجلة الكاتب مجلة شيوعية، بل اجتهاداً لتركيب مفاهيم جديدة تتناسب مع اهتمامات ومصالح المجتمع المصرى والمجتمعات العربية ، ولذلك كان فيها عناصر من المفكرين الماركسيين التقليديين ومن المفكرين اليساريين الذين يؤمنون بالتعددية الديمقراطية كما كان هناك اجتهاد بارز فى استخلاص الاتجاهات الاشتراكية والشعبية من الفكر الإسلامى .

كانت مجموعة الكاتب قد تعرفت على كمال رفعت الذى كان وزيرا وعضوا فى مجلس الرئاسة . وكان هو الجسر الذى يربط بيننا وبين عبد الناصر . وكان ضابطا من ضباط الثورة، له تاريخ فى الوطنية المصرية منذ العمليات الفدائية المصرية ضد معسكرات الإنجليز قبيل الثورة، وكان ذا نزعة اشتراكية، وراح يكتب معنا فى اتجاه التحولات الاشتراكية، ويساندنا فى تخطى المشاكل الكثيرة التى كانت تعترض طريقنا . وعندما تشكل التنظيم الطليعى فاتحنى كمال رفعت، كما فاتحنى من قبله كمال الحناوى، فى الانضمام إلى هذا التنظيم، فانضممت إلى الحناوى وخلاياه بسبب سبق اتصاله بى، كما كنت أعمل إلى ذلك الوقت فى جريدة الجمهورية وكانت الكاتب تصدر منها، على أن بعض كتاب الكاتب انضموا إلى كمال رفعت ومنهم الدكتور محمد أنيس عضو مجلس التحرير، والذى كان أستاذا للتاريخ الحديث فى كلية الآداب جامعة القاهرة، ويرأس قسم التاريخ الحديث بالكلية، وكان ذا اجتهادات علمية أثرت تأثيرا كبيرا على الدراسات التاريخية فى مصر والعالم العربى . وكنت ومحمد أنيس مقربين جدا إلى كمال رفعت، الذى كلفه عبد الناصر فى هذا الوقت بوضع برنامج للدراسة فى المعهد الاشتراكى المزمع إنشاؤه . وكان من عادة عبد الناصر أن يكلف أكثر من مجموعة بالمشروعات التى يفكر فيها، فإذا انتهوا اختار منها ما يتوافق مع تصوراته . وبالفعل جلسنا أنا ومحمد أنيس وبالتشاور مع كمال رفعت لنضع البرنامج التعليمى للمعهد الاشتراكى .

بالطبع كان لنا انتقادات ما للفكر الماركسى التقليدى، ولم نكن نختلف عن الكثير من الاتجاهات الماركسية التى راحت تشكل مفاهيم جديدة من قلب النظرية الماركسية فى العالم كله . على أننا لم نتصور أن نظام ثورة ٢٣ يوليو الحالى يسعى إلى الفكر الماركسى التقليدى، والذى كان هو الأثبت فى مختلف أنحاء العالم، فقررنا أن نضع برنامجا وسطا حتى أقل مما نعتقد بوجوبه باعتبار ذلك خيرا من لا شىء . وقدمنا البرنامج إلى كمال رفعت الذى قدمه بدوره إلى جمال عبد الناصر . بعد فترة قصيرة قد تكون أسبوعا أو أسبوعين، وأثناء اجتماع للتنظيم الطليعى، قدم لنا كمال الحناوى البرنامج الذى اختاره جمال عبد الناصر، وكان غير برنامجنا، وكان من وضع مجموعة الدكتور إبراهيم سعد الدين، الخبير الاقتصادى، والماركسى الذى لم تغره مراجعات الماركسيين ونقدهم للنظرية ولتطبيقاتها فى دول الاتحاد السوفييتى والمعسكر الاشتراكى بشكل عام . كان برنامجا ماركسيا وفقا للمفاهيم التقليدية الثابتة، وليس فيه أى تنازلات . أدهشنى هذا الاختيار، ولكنه أسعدنى فى نفس الوقت، فها هو ذا عبد الناصر يتجه مباشرة إلى الأصول غير مكترث بتحفظات أو تعديلات المتحفظين أو الناقدين من أمثالنا . إذن فالاتجاه نحو التطبيق الاشتراكى لاجدال أو تردد فيه .

كان عبد الناصر رجل سياسة من الدرجة الأولى . وكانت قناعاته تختلف أحيانا عما يحدث فى الواقع الحياتى الذى تحكمه عناصر متعددة، ولم يكن الاتجاه نحو الاشتراكية بمعناه التقليدى له أنصار فى الدوائر السياسية المحيطة به . ولعله اعتقد أن هذا المعهد كفيل بأن يروض بعض قياداته ثقافيا ويجذبهم إلى الاشتراكية . ولكن أساتذة المعهد كانوا يقابلون بتحد يبلغ درجة التعصب الانفعالى أحيانا من بعض الدارسين . ومع أن لجان المعهد كانت هى التى تقابل المتقدمين للدراسة وتختارهم بناء على نتائج هذه المقابلة، إلا أنه كثيرا ما كانت تأتى تعليمات بقبول هذا الطالب أو ذاك من مكتب الرئاسة نفسه ومن المعروفين بعدائهم للفكر الاشتراكى .

كان من الصعب أن تنشئ حزبا من فوق، حتى لو جعلته سريا . ومهما تكن قوة الزعامة وكاريزميتها فإنها تتعامل مع قوى تم اختيارها بناء على قواعد معينة، لعل أهمها الثقة الشخصية، ومن الممكن التنبؤ بردود أفعالها كما سبق القول . ومع مرور الوقت تتكون مراكز قوى يصعب حتى على الرئيس أن يتخلص منها أو يغير اتجاهها .

والذى كنت متأكدا منه أن مجموعات المشير عبد الحكيم عامر لم تكن تنظر بارتياح إلى فكرة التنظيم الطليعى . وكان صديقى محمد أبو نار يقول لى أن هذا التنظيم السرى ليس إلا تجميعا لليساريين ليوضعوا تحت عين المؤسسات الأمنية للدولة، ولتبلغ المعلومات عنهم لعبد الناصر أولا بأول . أى أنها ليست اتجاها حقيقيا إلى الاشتراكية كما أتوهم . ولم تكن جماعات المشير هى الوحيدة غير المرحبة بهذه التوجهات .

وعلى الرغم من سلطات جمال عبد الناصر الواسعة، إلا أنه كان من المستحيل على شخص واحد مهما تكن أهمية موقعه أن يسير أمور الدولة فى كل تفاصيلها، وكانت خلافات المشير عامر وعبد الناصر مازالت تفعل فعلها . وأظن أن عمليات المصالحة كانت تتحقق بالتدريج، سواء حول سلطة المشير، باعتباره قائداً للجيش والمتصرف فى كل شئونه مع حق للرئيس عبد الناصر فى التدخل فى بعض هذه الشئون باعتباره القائد الأعلى للجيش ورئيس الجمهورية. ومن بين الخطوات المهمة فى هذه المصالحة أن وافق عبد الناصر على أن يترك «دار التحرير» التى تصدر عنها الجمهورية والكثير من المجلات والصحف الأخرى مثل الجريدة الفرنس «البروجريه» «والإنجليزية» الإيجيبشيان جازيت» ـ للمشير عبد الحكيم عامر . وهنا صدرت ترقية لكمال الحناوى، إذ عين وزيراً للوحدة فى أحد مشاريع الوحدة المتعددة التى حاولتها مصر مع بعض الدول العربية .

كانت مشروعاتنا فى «دار التحرير» رائعة بحق، إذ كان لدينا مشروع لتطوير جريدة «الجمهورية» كتبته أنا والزميل كامل زهيرى، فضلاً عن مجلة سوف يصدرها الزميل محمد عودة، إلى جانب مجلة «الكاتب» التى كانت قد صدرت بالفعل منذ أكثر من ثمانية أشهر، إلى جانب مشروع لإصدار الكتب الثقافية ومجلة أسبوعية للأطفال هى «كروان» بيعت كل نسخها المطبوعة فى أول عدد من أعدادها وكان رئيس تحريرها صديقنا نعمان عاشور مع الفنان محيى الدين اللباد .

وقبل أن نتمكن من استكمال هذه المشاريع وبصفة خاصة مشروع تجديد جريدة «الجمهورية» والمجلة السياسية جاء قرار تعيين كمال الحناوى وزيراً فى وزارة للوحدة وأصبحت دار التحرير بكل إصداراتها تحت سلطة المشير عامر، الذى عين لها رئيساً جديداً بدأ بإبعاد أغلب كتاب الجريدة . فلقد كان هو نفسه كاتباً متواضع المواهب وليس محسوباً فى الإنتلجنسيا المصرية، بينما حاولت سلطة عبد الناصر توزيع هؤلاء الكتاب والصحفيين على الصحف، وكان أغلب هؤلاء الكتاب من الممكن حسابهم فى اليسار . كان منهم عبد الرحمن الشرقاوى وعبد الرحمن الخميسى وأحمد رشدى صالح ونعمان عاشور وأنا، وأظنهم كانوا حوالى ثلاثين كاتباً .

وقد انتهت هذه الأزمة بأن تحول الخميسى والشرقاوى إلى مديرى إعلام الشركات المؤممة، فالخميسى عين فى «شركة باتا لصناعة الأحذية» وتحولت أنا إلى «شركة القطن»

والشرقاوى إلى شركة مماثلة . على أنه بالنسبة لى صدر قرار بانتدابى للعمل بمجلة «المجلة» التى كانت تابعة لوزارة الثقافة، ثم ندبت للمجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية .

وكانت هذه القرارات مذبحة للكثير من الصحفيين، وتم التعامل معهم كما لو كانوا شيئاً هامشياً . ولست أذكر لماذا لم أحل الموضوع مع جماعات المشير التى كانت صلتى بهم قوية، ربما لأنى لم أتصور أن أعمل مع رئيس التحرير الجديد الذى لم أكن أحترمه مهنياً، وربما لأن الموضوع كان عبثياً كله . إذ كيف يتم التعامل مع البعض منا الذين كانوا أعضاء فى اللجان المتقدمة للتنظيم الطليعى، الذى قيل إنه مدرسة الكادر الجديدة، ومنهم تختار كل القيادات بهذا الاستهتار . وكيف يمكن تغيير مهنة الإنسان غصباً عنه ؟ وبدا لى وأنا جالس بينى وبين نفسى، أن العملية مهزلة كلها وصراع فارغ بين أشخاص يتناهبون السلطة فيما بينهم دون دوافع سياسية أو فكرية أو حتى عقائدية من أى نوع .

١٨

أبوذر الغفارى ينتقد حمدى غيث

على أننى استطعت أن أخرج من الجمهورية ومعى مجلة الكاتب، التى رحنا نبحث لها عن تمويل . واضطررنا أن نصدرها دون أية مكافآت للتحرير وبالاعتماد على الصداقات الشخصية . فقد استطاع كمال رفعت أن يحصل على عقد إعلانات من شركة للدخان، كما استطعت أن أقنع صديقى محمد أبى نار، الذى صار فى هذا الوقت رئيسا لمجلس إدارة الشركة التجارية للأخشاب المؤممة، بأن يكتب معى عقدا للإعلانات بكل ميزانية الإعلان للشركة . وقبل كل العاملين بالمجلة من كتاب وفنانين أن يعملوا بالمجان . وأخيراً جاءنا عرض من وزارة الثقافة بأن ننضم إليها . عندئذ تنفسنا الصعداء وبدأت الأمور تسير سيرا حسنا إلى حد ما .

ولكن الإدارة المصرية بشكل عام كانت مثقلة - طوال تاريخها القديم كله - بالكوادر اليمينية المتطرفة . وكانت قيادة الثورة نفسها - كما سبق القول - مكونة من فسيفساء تشمل اتجاهات كثيرة، من بينها كل الاتجاهات المحافظة بدرجاتها المختلفة . وكان الوزراء من ضباط الثورة لهم صلاحيات واسعة فى البدء، فعمل كل منهم على توجيه الوزارة وترتيب الموظفين حسب اعتقاداتهم الإيديولوجية . وكانت قيادة عبد الناصر قد اكتشفت أنه من الممكن توزيع التيارات السياسية فى الصحف بدلا من الأحزاب، فكانت الجريدة الواحدة تضم درجات اليمين ودرجات اليسار والوسط ويكتب الجميع فى صحيفة واحدة .

وهكذا كان الجمهور على مختلف توجهاته يجد فى نفس الجريدة الكتاب الذين يعبرون عن رأيه . ولكن هذا التنوع وربما التناقض فى الآراء كان وسيلة لإرضاء جميع الميول واحتوائها، على أن الصراعات كانت شديدة داخل الجريدة الواحدة، وكل اتجاه يتعلق بمركز قوة يكون هو نفسه متعلقا بأصل الشجرة التى هى الرئيس أو من يشبهه فى قوة السلطان . ولكن الكوادر الإدارية، فى الغالبية العظمى من الوزارات، كانت تتوارث ثقافة يمينية محافظة تعتبر الوظيفة سلطة وعلوا اجتماعيا، وكانت مدربة على المداهنة، وكارهة لكل فكر جديد، وبصفة خاصة الفكر اليسارى . وكان هذا الجهاز البيروقراطى قادرا فى الواقع على إفشال أى مشروع له طابع تجديدى بأية صورة من الصور .

نعم حدثت فى بداية الثورة عملية تنقية واسعة فى الجهاز الإدارى تحت تسمية حركة التطهير، لكنها فى الواقع كانت تدور حول الفساد، وغالبا ما لعبت الوشايات دورا فيها، وربما أوقعت فى شباكها الكثير من الأبرياء . وظل الجهاز الإدارى تحكمه تلك الثقافة القديمة، التى تربت فيها البيروقراطية المصرية منذ العهود التركية حتى زماننا هذا . وهكذا صارت مجلة الكاتب كاليتيم فى مأدبة اللئام تتلقى كل يوم طعنات من هنا أو من هناك . وحتى عندما يكون الوزير رجلا متقدما أو مستنيرا يداهنونه ويوغرون صدره على من يعتقدون أنهم ليسوا من طينتهم . ولم يكن غريبا على أى حال أن ترى موظفا كبيرا، وربما على درجة رفيعة من التعليم الأكاديمى، يكذب على وزيره فى تقرير من أجل أن يدفعه إلى إلغاء مشروع أو ضرب اتجاه. ولعلهم كانوا يعتقدون أن هذا جهاد من أجل الحفاظ على ما يعتقدون أنه الأصل والمرجع .

عانينا من هذا حتى فى عهد وزراء متعاطفين معنا . كانت ثقافة النظام البيروقراطى المصرى يمينية تكاد تصل إلى درجة التشدد اليمينى، ولكن العقائد الفكرية كانت تتحول لدى المصريين إلى تزمت ثم عداء صريح يصل أحيانا إلى نوع من التعصب الأعمى، الذى يشبه الهوس والجنون . ولقد رأيت أحد الكتاب المعروفين، والذى خاصم نظام عبد الناصر على أسس طبقية وعقائدية مبنية على تعصبه المطلق، يرقص فرحا أمام عينىّ فى صالة فندق "سميراميس" القديم، عند هزيمة الجيش المصرى فى حرب سنة ١٩٦٧ .نظرت إلى وجه الرجل الذى كان محتقنا وعيناه كانتا زائغتين وفى حالة جنون تام . لعلى سرحت كيف تصل الكراهية إلى حد الشماتة فى هزيمة الوطن نفسه من أجل كراهية لرئيس النظام السياسى، أو النظام السياسى بشكل عام . ومثل هذه التجربة الدالة على الهوس الجنونى الذى يؤدى إليه التعصب، وكراهية المختلفين إلى حد تدمير كل شىء بما فى ذلك الوطن من أجل هزيمة هذا العدو الفكرى أو العقائدى، تبدو سمة أساسية فى نمط التفكير المصرى . ففى هذه الهزيمة قال داعية إسلامى اكتسب شعبية واسعة وكان كارها للنظام إلى أقصى درجة، أنه صلّى ركعتين شكرا لله على هزيمة مصر فى حربها ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ من أجل التخلص من حكم عبد الناصر . لقد راقبت التحزبات المختلفة فى الغرب أثناء إقامتى الطويلة هناك، لكن الذى عرفته فى مصر لم يكن حزبية أو اختلافا فى الرأى، بل عداءً حاسما يستبيح كل الوسائل فى خصامه مع المخالف، بما فى ذلك اقتراف الكذب أو الدس أو حتى الخيانة، وربما أيضا القتل. رغم أن ظاهرة التعصب هذه لفتت نظرى حتى فى سنى المبكرة، فقد رأيت كيف يتحزب الوفدى لحزبه بشكل انفعالى مبالغ فيه . وكذلك شأن المنتمين إلى الجماعات أو الأحزاب الأخرى . لكن الخصومات الفكرية فى عهد الثورة كانت جنونا مطبقا، وبصفة خاصة من جانب القوى اليمينية المخالفة . ولعلى أدركت أن المخالف لا يستطيع أن يرى أى جانب إيجابى لدى خصمه . إن الرفض هنا رفض مطلق . وحين كان جمال عبد الناصر يظن أنه مسيطر على الموقف تماما، كانت هذه القوى المعادية للفكر الاشتراكى ولتطبيقاته التى حاولها عبد الناصر منذ قرارات التأميم، تصرف الأمور على عكس توجيهاته . لكنها، فيما يبدو، كانت تصور له الأمر على أنها تنفذ هذه التوجيهات . وأذكر أنه بعد قرارات التأميم، راحت إذاعة المملكة العربية السعودية تهاجمها وتتهمها بأنها خروج على الإسلام، وربما أوعز عبد الناصر إلى وزير الإعلام فى ذلك الوقت، الدكتور عبد القادر حاتم، بأن يقاوم هذه الدعاية، فكلف أحمد سعيد مدير إذاعة صوت العرب بذلك، وفوجئت به يستدعينى ويشرح لى الأمر . وكنت

منذ زمن بعيد مؤمنا بأن أصوليات الإسـلام تتفق مع النزعـة الاجتماعية أو قل الاشتراكية - لم أكن قد بدأت كتابة كتاب اليمين واليسار فى الإسلام بعد - وبالفعل اقترحت عليه أن أكتب للإذاعة سيرة الصحابى أبى ذر الغفارى، والذى كانت له ميول اشتراكية بالغة الوضوح . وكنت أحب هذه الشخصية منذ قراءات الطفولة . ورحت أجمع المواد، وهى نادرة إلى حد ما بسبب هيمنة الاتجاهات السلطوية على التاريخ الإسلامى . وكتبت السيرة فى شكلها الدرامى الإذاعى وأنا شبه متبتل . وعندما سلمتها لأحمد سعيد رشحنا معا الإذاعى الشاب - فى ذلك الوقت - أمين بسيونى الذى جلست معه لاختيار الممثلين، ورأيت أن اصلح من يؤدى الدور هو الفنان حمدى غيث. ولكن هذا الممثل كان موقوفا عن العمل بأى منبر من منابر الفن، لأنه شارك فى مؤتمر للسلام فى إحدى الدول الأوروبية، واتهم بتوجهاته الاشتراكية أو اليسارية بشكل عام . ولعله كان مفصولا من كل وظائفه بما فى ذلك عضويته بفرقة المسرح القومى. على أننى صممت على أن الوحيد الذى يصلح للدور هو حمدى غيث . ولذلك كان على أحمد سعيد أن يتصل بالدكتور عبد القادر حاتم ويستصدر منه قرارا بعودته للعمل . حدث كل هذا والدولة تتجه إلى الاشتراكية وتعيش تطبيقاتها وتسعى للدفاع عنها إعلاميا . ونجح أحمد سعيد فى أن يستصدر قرارا بالغ الغرابة والقسوة . فقد وافق الدكتور حاتم على أن يعمل حمدى غيث فى هذا البرنامج فقط وبعد ذلك يمنع من أى عمل آخر فى أجهزة الدولة التى كانت تملك كل شىء متعلق بالميديا أو الفنون الدرامية .

وبدأنا العمل فى التمثيلية وأدى غيث الدور وكأنه بالفعل أبو ذر الغفارى . وأذيع البرنامج فى توقيت غريب أيضاً، أظنه كان فى الثانية عشرة مساء . وكان من عادة عبد الناصر أن يقلب فى الإذاعات يستمع إلى الأخبار أو البرامج قبل أن ينام . وفى هذه الساعة المتأخرة من الليل جاءت يده على محطة صوت العرب فسمع حوارا يتكلم فيه أبو ذر فشده وظل يستمع إلى أن انتهت التمثيلية وكانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحا، إذ كانت التمثيلية معدة لسهرة كاملة تطول إلى ساعتين، وهو توقيت أية مسرحية طويلة . وعندئذ طلب الدكتور حاتم فى التليفون ليهنئه على التمثيلية، وأبدى إعجابه الشديد بأداء حمدى غيث وسأل أين هو فقال له حاتم إنه موقوف أو مفصول من العمل، فصاح عبد الناصر مندهشا، ثم أمر وزيره بأن يستدعيه ويعيده إلى العمل، بل يختاره لأحد مناصب الوزارة الكبرى، ثم أوصاه بأن يستدعينى لأكتب هذه السيرة فى فيلم سينمائى . كان حمدى غيث يعيش متخوفا من أجهزة هذه السلطة، التى اعتبرته معاديا وطردته من وظائفه . ولست أدرى ما الذى حدث بالضبط وجعل الدكتور حاتم يكلف أجهزة الشرطة بأن تبعث فى طلب حمدى غيث . هل حاولوا الاتصال به بالتليفون أو بالوسائل الأخرى فلم يفلحوا ؟ أحس غيث بأن سيارة شرطة تسأل عنه فراح يتهرب منها، ولكن بعد ثلاثة أيام أمكن "القبض" عليه وأخذوه أخذا إلى مكتب الدكتور حاتم . حكى لى غيث كيف ركبه الرعب وهم يسوقونه إلى الوزير، ولكن عندما دخل المكتب وجد الوزير يخرج من خلف مكتبه ليستقبله بالأحضان . وروى له القصة كلها وتم تعيينه وكيلا لوزارة الإعلام لشئون مسرح التليفزيون .

خرج غيث من هذه التجربة المذهلة بأن الذى حدث مجاوز للعقل والمنطق، ولابد أنه متصل بالقوى العليا، وأنها إرادة إلهية هى التى غيرت كل شىء بسبب أدائه الصادق المعبر عن إيمان حقيقى لدور هذا الصحابى العظيم . وبالفعل راح يصلى الفرائض ويغرق فى التدين . من

ناحيتى، اتصلوا بى لألتقى بالدكتور حاتم فى مكتبه، وذهبت لأسمع منه القصة وليطلب منى أن أحول هذه التمثيلية الإذاعية إلى فيلم سينمائى، ثم سلمنى لمسئول كبير فى الوزارة مختص بهذه الشئون، وعندما جلست إليه وتحدثنا فى الموضوع، وجدته ضد المشروع تماما وراح يختلق صنوفا من الأعذار مما أضجرنى فانسحبت ولم أحاول معاودة الاتصال به . وإلى اليوم لم يخرج هذا المشروع إلى النور . هذا مثال صغير على أن إرادة الرئيس، مهما تكن هيبته وهيمنته على شئون الدولة، يمكن أن يتم تجاهلها ولا تنفذ، خاصة فى الشئون التفصيلية مهما تبلغ من الأهمية . وهذا كان يحدث فى كل شىء، حتى فى بنيان الجيش، دعك من مشروعات التصنيع والتنمية فى بلد أحوج ما تكون إلى التنمية .

١٩

انكسار يونيو

أذكر أن محمد أبى نار طلب منى أن أكتب خطبة المشير عامر فى احتفالات الثورة سنة ١٩٦٦، وكانت تتناول بالطبع الإنجازات التى حققها المشير فى الجيش، ولذلك جىء لى بملف خاص بالمشير مكتوب عليه سرى جدا أو شيئا من هذا القبيل، وفيه عرض عن هذه الإنجازات مثل صاروخ القاهر أو الظافر وطائرات مقاتلة وغير ذلك من الأسلحة التى قيل إن الجيش قد حصل عليها . قرأت الملف بشكل جيد حتى أكتب شيئا مفيدا، ولكننى شعرت أن غالبية هذه الأشياء قائمة على التهويل والمبالغة، وعلى الرغم من ثقافتى العسكرية لا شىء تقريبا، إلا أن القراءة العادية تكشف هذه المبالغات التى تصل إلى الأوهام . فضلا عن الركاكة المبالغ فيها وعدم الاعتناء الواضح لا بالكتابة ولا بطريقة العرض، ولا حتى بالحديث عن هذه الإنجازات. كتبت الخطبة وأنا حزين ويائس، غير أنه لم يمض إلا أقل من سنة وبدأت مقدمات حرب سنة ١٩٦٧ من أخبار الحشود الإسرائيلية، إلى ذلك الحديث الغريب عمن يبدأ الضربة الأولى، هل هو مصر أم إسرائيل ؟ وقصص من هذا النوع .

فى ذلك الوقت كان ابن عم لى قد درَس التصوير السينمائى فى ألمانيا وعاد إلى الوطن بعد غياب دام حوالى خمس سنوات، وطلب منى أن أساعده فى إيجاد وظيفة، فساعدته لكى يعيّن مصورا فى استديو مصر ولكن المرتب كان ضئيلا، فألح علىّ أن أجد له وظيفة أخرى . وعندما فاتحت أحمد أبو نار، الذى كان حينئذ مديرا لمكتب المشير، عيّنه مصورا فى الجيش بمرتب معقول فى ذلك الوقت . لم تكن لابن عمى هذا أية اهتمامات سياسية، ولكنه بسبب وجوده فى ألمانيا الغربية وتأثره بالدعاية الألمانية فى الصحف أو محطات البث التليفزيونى، كان مؤمنا بالنظام الرأسمالى وبالاتجاهات الغربية بشكل عام وكارهاً للمعسكر الاشتراكى، حتى دون أن يعرف شيئا ذا قيمة عن الرأسمالية أو الاشتراكية . كانت ميوله غربية بشكل عام، وكان قد التحق بوظيفته تلك قبل حرب سنة ١٩٦٧ بستة أو سبعة شهور . على أنه فى هذه الفترة أصبح يتكلم مثل الضباط المحيطين بالقيادة، وكانت لهم ألفاظ مثل الوحش والجن وغير ذلك من العبارات، ثم لم يلبث أن غير اتجاهه وأصبح يبغض الاتجاهات الغربية . وعندما أصبحت الحرب على الأبواب وتحركت حشود مصرية إلى الحدود، وكان هو هناك بالطبع يصور هذه الحشود، سألته : كيف الحال ؟ فقال إننا نستطيع أن ندمر حتى أمريكا لو جاءت إلينا .

لم أقل له شيئا، ولكننى دهشت كيف يكون ذلك وأنا أعرف بالضبط حالة الجيش، ولكننى سكت ورحت - مثل جميع المصريين - أتابع التطورات، إلى أن اشتعلت الحرب بالفعل . وراحت إذاعتنا تدعى أننا أسقطنا عشرات الطائرات الإسرائيلية . كنت بالطبع بجانب التليفزيون والراديو وأظن أننى دخلت على زوجتى مذهولا وقلت لها : كيف حدث هذا ؟ إن الجيش لا يستطيع أن يفعل ذلك . إلا إذا كان هناك اتفاق انقلابى بين عبد الناصر والسلطة الأمريكية وقرروا إنهاء الوجود الإسرائيلى لسبب أو لآخر . ولكن بعد يوم أو اثنين بدأت الحقيقة تظهر، وعرفنا أن طائراتنا ضربت وهى على الأرض حتى قضى عليها تماما، وأن الجيش قد انسحب بناء على أوامر عليا، وأن سيناء كلها وقعت فى أيدى الإسرائيليين .

كيف إذن تحدث هذه المغامرة والجيش ليس مستعدا ؟! ألم يكن عبد الناصر يعرف هذه الحقائق ؟ ألم يقرأ هذا الملف ؟ وكيف يمكن أن يحدث هذا ؟

فى ذلك الوقت، كان الضباط الذين قد أرسلوا إلى بعثات تعليمية عسكرية وحصلوا على أرقى تعليم وتدريب مبعدين لأسباب متعلقة بالولاءات، وليس بالكفاءة أو الخبرة، بسبب الصراعات الفظيعة التى قامت بين الشخصيتين الرئيسيتين، جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر .

كان انكسار ١٩٦٧ خطيرا علينا جميعا، فهو فى الحقيقة لم يكن إلا نتيجة للإهمال البشع ولحماقات مثيرة للدهشة . واستمرت القصة المعروفة إلى أن انتحر المشير وعادت المسئولية إلى عبد الناصر وبدأ يعيد بناء الجيش وحرب الاستنزاف . وكنا نسمع أخبارا جيدة عن نشاط جنودنا فى هذه الحرب . وفى يوم من الأيام تلقيت دعوة من وزير الثقافة فى ذلك الوقت ثروت عكاشة، لحضور اجتماع فى الهرم نلتقى فيه مع قائد حرب الاستنزاف . وكان الغرض من اللقاء هو طمأنة الكتاب والفنانين المصريين بأن الحرب قائمة على قدم وساق وأن مصر تستنزف جيش الاحتلال الإسرائيلى . جلسنا فى القاعة، وجلس إلى المنصة الوزير وإلى جواره أركان حرب الجيش، الذى كان يقود حرب الاستنزاف، وكان رجلا غريبا مطمئنا غاية الاطمئنان بينما كنا فى أقصى درجات القلق . وبين لحظة وأخرى يشير إلى أحد الضباط الجالسين معنا فى الصالة فيقول له : قوم يا محمد قل لنا عملت إيه يوم كذا ؟ فينهض الرجل ويقول وكأنه يلقى قطعة محفوظات كيف أنه ومجموعته هاجموا حامية إسرائيلية وفتكوا بها. ولأمر ما وجدت أن هذا قول على عواهنه وأننى أحضر تمثيلية سيئة لا صلة لها بالحقيقة. وقررت بينى وبين نفسى أن أغادر المكان . عندما وصلنا إلى مداخل هذا المبنى كان محصنا بالبراميل الحمراء وبضباط الجيش الذين يحرسون المكان ويدققون فى هوياتنا وكأننا سنرى اجتماعا خطيرا . وعندما هممت بالخروج، صاح فىّ ثروت عكاشة : رايح فين ؟ فقلت أننى ذاهب إلى دورة المياه ولكننى لم أرجع . قد أكون محبطا جدا وظلمت هذا الاجتماع فقد علمت بعد ذلك أن عبد الناصر بذل بالفعل جهدا كبيرا ليعيد بناء الجيش . على أن الظروف لم تمهل الرجل فقد توفى بعد هذه الحرب بثلاث سنوات فقط وقبل أن يستكمل استعداداته لتحرير سيناء واسترداد شرف البلد.

جاء أنور السادات ومرت مصر بظروف بالغة الصعوبة، فلم نكن نعرف ما الذى يحدث بالضبط . وثار الطلبة فى ميدان التحرير وباتوا فى الميدان وهم يطالبون بالحرب وكان السادات يرد بعبارات غامضة عن الضباب أو أشياء من هذا النوع .

ربما كان قد مضى عامان على وفاة عبد الناصر وتولى السادات وكان لى مشكلة تأجيل تجنيد أحد إخوتى، الذى كان مبعوثا من الجامعة إلى الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراه، فذهبت إلى مدير إدارة التجنيد، الذى كان قد أعطانى موعدا . وعندما وصلت استأذننى فى أنه سيغيب عدة دقائق بسبب اجتماع طارئ وأجلسنى فى ركن من غرفته وأمر لى بالقهوة، وعلى مائدة أمامى، وجدت مجموعة من المجلات العسكرية باللغة العربية فمددت يدى إليها لمجرد قطع الوقت والتسلية، وإذا بى أقرأ مقالات عميقة مثل التى نقرأها فى مجلة أوروبية أو أمريكية فى هذا المجال وليس من الضرورى أن يكون الإنسان ملما بالثقافة العسكرية ليعرف أن هذا المقال أو ذاك رفيع المستوى . ورحت أقرأ التوقيعات فإذا بها لضباط يحملون درجات علمية عالية فى أحدث الدراسات العسكرية . ولعلى رحت أتساءل كيف هذا ؟ وأين كانوا ؟

عرفت بعد ذلك من أصدقائى الضباط القدامى، أن نقل الجيش المصرى من حالة الضعف والفوضى كان يسيراً جداً، فالذى فعله السادات هو أنه أعاد إلى الجيش كل الضباط الذين درسوا دراسات عالية فى الخارج وأبعدوا لأسباب متعلقة بالولاءات . وكان بالفعل قد عين قائدا جديدا للجيش وأخرج ذلك الرجل الذى قابلناه فى الاجتماع الذى دعانا إليه ثروت عكاشة . ولعلى سألت صديقى كمال الحناوى عن ذلك القائد الجديد - وكان من دفعته - فقال لى أنه رجل فذ أثناء الكلية وبعد دراساته العليا فى الاتحاد السوفييتى التى تفوق فيها على أسماء لامعة فى الجيش الروسى نفسه .

وعندما قامت الحرب فى أكتوبر سنة ١٩٧٣، كان الذى حارب جيش مختلف تماما عن الذى حارب فى سنة ١٩٦٧، وذلك بشىء صغير جدا من التعديل، وهو الاستفادة من كل الإمكانيات العقلية والعلمية التى كان يذخر بها الجيش والتى أبعدت بسبب التفكير الشللى والجهل والاستهتار . كذلك تمت الاستفادة من الجنود المتعلمين تعليما عاليا . ومنذ هذه الحرب وأنا أعتقد أن مصر كمجتمع ودولة أشبه بآلة ضخمة رائعة ولكن أسلاكها مقطوعة وغير متصلة بمصدر الطاقة .

نعم حدثت انتكاسة فى هذه الحرب، وهى أيضا نتيجة ظروف عديدة قد يرجع بعضها إلى الثقافة السيئة السائدة . وربما كانت مشكلتنا الحقيقية وثيقة الصلة بثقافتنا المختلة والتى لم تعالج بجدية طوال الخمسين سنة الماضية بسبب حالة الذعر الأمنى الذى استولى على إداراتنا طوال هذه المدة وشتت الكثير من الفضائل التى كنا نتمتع بها . فإن الخوف وفقدان الكرامة سرطان أخلاقى لا يترك الإنسان إلا وهو "خرقة" لا تصلح لشىء .

٢٠

نظام مركزى أبوى

فى الفترة من سنة ١٩٦٢ إلى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ كنا نشعر أن مصر فى أزهى حالاتها، إذ كان العمل فى السد يمضى على قدم وساق . وزرت مكان السد العالى، أنا ومجموعة من الزملاء لعلهم كانوا نعمان عاشور ومحمد عوده ويوسف إدريس . وكان المقاول المصرى الذى يقوم بالأعمال الإنشائية معاديا للفكر الاشتراكى، وكعادة المصريين كان متعصبا ضد الاشتراكية وكارها لها إلى درجة الانفعال، ولذلك كان مهندسوه وربما عماله أيضا ينظرون إلى المهندسين الروس باحتقار، أو على الأقل بعدم احترام . وقد تحدثنا معهم لنعرف مشاكلهم فوجدنا أنها متعلقة بهذه المشاعر الكارهة التى تنعكس على العمل نفسه . وكانت هناك تعليمات أمنية - فيما يبدو - تنصحهم بعدم الاختلاط بالروس . وبالفعل انعزل الفريقان بعضهما عن بعض وكان هناك ظن بأن المهندسين الروس ليسوا فى الحقيقة إلا دعاة للشيوعية، وسوف يقومون بالدعاية فى صفوف العمال والمهندسين المصريين، ويغرسون فيهم العقيدة الشيوعية . ومثل هذا العبث أثر كثيرا على مجرى العمل حتى عين عبد الناصر المهندس محمد صدقى سليمان، وهو رجل متدين لكنه كان مهندسا وإداريا موهوبا ووطنيا محبا، وقد زرنا السد العالى بعد أن تولى صدقى سليمان المسئولية، فوجدنا كل شىء قد تغير، وانتظم العمل بل ودبت الحماسة فى نفوس الجميع من روس ومصريين .

كان السد العالى سوف يكتمل فى سنة ١٩٦٦ وكان يعطى مصر مساحة هائلة من الأراضى الزراعية الخصبة، وينهى زراعة "التحاريق" القديمة إلى الأبد . وكان عبد الناصر قد اتجه بجدية إلى تحديث مصر وكان يتحرك - على الأغلب - بسبب الضغوط التى تقع عليه من جانب الجماهير فى شكل تقارير تصل إليه عن أحوال الناس . وكان قد أصدر عدة قرارات لتسهيل حياة الغالبية العظمى من الجماهير وهم الأكثر فقراً . فبالإضافة إلى مجانية التعليم فى جميع المراحل، أى حتى الجامعة، إذ كان التعليم إلى ما قبل الثورة مجانيا إلى الدراسة الثانوية فقط، أصدر قانونا بتخفيض إيجارات المساكن ثم قرارا بالتشغيل الشامل لجميع الأفراد فى سن العمل . واستطاع بالفعل أن يقضى على البطالة وبدأ الناس يشعرون بجدوى

التعليم وصلته برفع مستوى معيشتهم واقبلوا عليه بحماسة شديدة وكذلك استقرت حياة الأسر، إذ أصبح أكثر من شخص فيها يتكسب مالاً . حقا اعترض بعض أساتذة الاقتصاد بسبب أن قوة الإنتاج الاقتصادية كانت أضيق من أن تستوعب كل هؤلاء الذين انضموا إلى قوة العمل . ولكن كان هناك من يرون أن هذا التشغيل الشامل مفيد للاقتصاد وكان هؤلاء مهتمين بنظرية الاقتصادى الإنجليزى "كينز"، وقد انضموا بالفعل إلى العمل مع عبد الناصر وتولى بعضهم منصب الوزارة .

على الرغم من أن الجهاز البيروقراطى المصرى - فى أغلب قطاعاته - كان ضد التحول الاشتراكى، الذى بدأ عبد الناصر يطبقه، إلا أن الأمور كانت تسير، وراح الناس يشعرون بالاستقرار والراحة إلى حد كبير . وكان القلق الأمنى قد خفت حدته . ولم يعد عبد الناصر يستعمل سلاح الاعتقال ضد معاكسيه من هذا الاتجاه أو ذاك .

لم نكن مطمئنين تماما، فماكينة المجتمع لم تكن تعمل بكامل طاقتها، كما كانت مركزية عبد الناصر فى قمتها . وأصبحت الكتابة بالتالى توجه إليه لا إلى جماهير القراء، لأنه أصبح القوة التنفيذية المطلقة فى المجتمع . وبالفعل كان الكاتب يناقش موضوعا من الموضوعات الساخنة، ويقترح اقتراحا، فيجد أن عبد الناصر قد تجاوب معه، وظهر ذلك فى خطبة من خطبه، أو فى قرار من قراراته . ومع أن هذا كان شيئا جيدا وعمليا إلى حد كبير، إلا أنه كان ينطوى على شىء من القفز على الجمهور وتخطيه، بل وإهماله فى الحقيقة . ومهما تكن الملاحظات الناقدة لهذا الأسلوب، إلا أن ثقتنا كانت قوية فى أن كل الأخطاء سوف تصحح، وأن عجلة التقدم والتحديث تدور حتى بالنسبة للديمقراطية .

وفى هذه الفترة رحنا نساير الكثير من مفكرى الاشتراكية، الذين كانوا يعتقدون أن الديمقراطية ليست شكلا بل مضمونا فى الأساس، وأن جوهرها هو نوعية القرار الذى تصدره السلطة . فإذا كان القرار يحقق مصلحة للغالبية العظمى من الناس، فهو قرار ديمقراطى، مثل قرار مجانية التعليم، أو قانون الإصلاح الزراعى، أو قرارات التأميم، أو تخفيض إيجارات المساكن . وكنا نسمى ذلك ديمقراطية اجتماعية، ونوافق على السير فيها إلى مداها النهائى، لأنها أساس الديمقراطية السياسية التى كانت تستلزم تحرير المواطن المصرى من قهر لقمة العيش، حتى يحسن استعمال حقه فى الانتخاب أو الترشيح .

نعم كانت الديمقراطية السياسية جوهرية بالنسبة لنا، لكن تلك القرارات الرائعة وعوائدها على حياة الناس، كانت تبرر إلى حد ما التباطؤ فى السعى إليها . ولكنى كنت أشعر بالقلق. ولعلى اعتقدت أن سنة ١٩٦٦ نقطة فارقة فى تاريخ ثورة ٢٣يوليو، فسوف يكتمل السد العالى، وأظن أن مشروع السنوات الخمس الثانى كان فى طريقه إلى الاكتمال . وكان هناك تحسن هائل فى أحوال الاقتصاد المصرى وأمل كبير فى المستقبل لتصحيح الكثير من الأخطاء . ولعلى توقعت أن حربا ستقوم لتوقف هذا التحول، إذ كان لدينا إدراك بأن أى تقدم فى المجتمع المصرى غير مرغوب فيه، حتى لا تتحول مصر إلى دولة مركزية تفسد المشروع الصهيونى الذى أنشأ الدولة الإسرائيلية والسياسة الأمريكية الاستراتيجية فى المنطقة . وما زلت إلى اليوم أعتقد أن عرقلة مصر فى تقدمها، سواء اقتصاديا أو سياسيا، جزء أساسى فى الاستراتيجية الأمريكية والصهيونية بشكل عام إلى اليوم . وربما توقعنا حربا تشنها إسرائيل قبل أن تستكمل

مصر مشروعاتها الاقتصادية الإصلاحية، ويصبح من الصعب أن لم يكن من المستحيل، وقف انتشار التأثير المصرى فى المنطقة، والذى كان فى الحقيقة من أجل إعادة بناء المنطقة فى صورة حداثية متقدمة . وكانت الجماهير العربية مدركة لهذا وراغبة فيه، حتى أصبح عبد الناصر زعيما يحبه العرب أكثر مما يحبه المصريون .

والحق أن المدرس المصرى وأستاذ الجامعة والمهندس والطبيب ورجل القضاء وعامل البناء أو الصانع والصحفى بل والفنان، كل أولئك كانوا يخدمون فى كل الدول العربية، حتى أننى وأنا فى زيارة لإحدى دول الخليج - فى فترة الستينيات هذه - وقفت أتأمل هذه المظاهرة الحضارية وأقول لنفسى : هذا هو "الباكس ايجيبسيانا" أو السلام المصرى، الذى ينشر الخير فى كل الربوع حواليه، دون إجبار أو قوة عسكرية .

❖ ❖ ❖

كانت الحرب الباردة بين القوتين العظميين : الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى قائمة على قدم وساق كما يقولون، وكان من أخطر مظاهرها نشوء قوة محلية استقطابية إلى جانب هذه الدولة الكبرى أو تلك . واستخدمت فى هذه الحرب كل الوسائل وفى مقدمتها الحرب الثقافية . وكان المعسكر الاشتراكى يملك نظرية كبرى بالغة القوة هى النظرية الاشتراكية وتطوراتها المختلفة، ولكنه فى نفس الوقت يحكم شعوبه حكما بوليسيا. ومهما تكن الأسباب التى أدت إلى شيوع هذا الحكم البوليسى، مثل الحصار المحكم الذى يفرضه العالم الرأسمالى القديم والراسخ حوله، فضلا عن الاختراقات الأخرى، مما جعل المشكلة الأمنية فى مقدمة كل مشكلات التطبيق الاشتراكى وسمح بتوسع متفاقم فى الأجهزة الأمنية، حتى هيمنت الاسترابة والشك على كل التفكير وأصبح للمؤسسات الأمنية الكلمة العليا . وبالتالى فإن حجم الحرية ظل يتناقص حتى اختنقت الكثير من الطموحات العلمية والفكرية، إلى أن وقع "الجمود" فعلا، ليس فى الاقتصاد فقط، بل فى كل نشاط إبداعى . ومع مرور الوقت ضعفت القدرة الاستقطابية للتجربة الاشتراكية، بينما استطاعت قوة المال أن تستقطب الكثير من المثقفين والفنانين فى العالم، الذين كانوا قلقين من التجربة السوفييتية بصفة خاصة من زاوية الحريات والحتميات القطعية، التى كانت تزخر بها الفكرة الاشتراكية. على أن أهم شىء فى هذه الحرب، كانت حرب النماذج . ففى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، اقتسمت القوتان الأعظم أجزاءً كثيرة من العالم، كما حدث فى ألمانيا، إذ انقسمت هذه الدولة إلى شرقية وغربية وضخت الولايات المتحدة ليس الأموال فحسب بل كل وسائل التشجيع لتحقق نهضة اقتصادية، بينما وقع الجانب الشرقى من ألمانيا فى فخ المشكلة الأمنية، وأصبح هو الآخر بالتالى يعيش فى خنّاق الحرية والجمود . وكذلك الأمر بالنسبة للبلاد الأخرى فى كل القارات تقريبا، مثل الكوريتين الشمالية والجنوبية والفيتناميتين، وغير ذلك فى أكثر من مكان فى العالم . بالطبع كان هدف الاستقطاب هو إسقاط الأنظمة المعادية، أن لم يتيسر استقطابها . وهكذا كانت مصر فى منطقة الشرق الأوسط البالغة الأهمية . وكانت مصر مرشحة لأن تكون الدولة المركزية والنموذج . وقد حاولت ذلك منذ أيام محمد على، الذى كان لديه طموح بأن يرث السلطة العثمانية المتهالكة، وقد أوشك أن يفعل ذلك، لولا تدخل القوى الكبرى وضربه عسكريا فى تحالف دولى غربى . واليوم فى منتصف ستينيات القرن

العشرين بدأ أن مصر - التى أفلتت من الاستقطاب الأمريكى - توشك أن تتحول إلى هذا النموذج المعادى للاستراتيجية الأمريكية والغربية بشكل عام . وهكذا أصبح تحطيمها أمرا ضروريا . والحرب الإسرائيلية المصرية، أو قل حرب الأيام الستة (يونيو سنة ١٩٦٧)، تم التحضير لها بالاتفاق مع، وبمساعدة الولايات المتحدة . ولقد حدث هذا فى أكثر من موقع. وسقطت ضحايا هذه الحرب الاستقطابية أنظمة عديدة فى أكثر من قارة، وليس فى أمريكا اللاتينية وحدها . ولم ينج من هذا المصير إلا كوبا، التى لم يزل نظامها قائما وإن لم يستطع أن يكتشف المعادلة الصحيحة، التى تركز على الحرية والتعددية والإصلاحات الاجتماعية فى نفس الوقت .

هكذا توقعت حربا تقوم بها إسرائيل، وكان ذلك موضوع أحاديث جماعتنا سواء فى التنظيم الطليعى أو فى جلساتنا الخاصة . ولم يكن ذلك يحتاج إلى فطنة خاصة أو ذكاء خطير . وكان الوقت مناسبا للاستراتيجية الأمريكية الصهيونية، فالجيش موزع بين المشير عامر وبين جمال عبد الناصر، وكذلك العامل الأمنى الذى كان يهيمن على كل شىء ويخنق كل الطموحات الإبداعية، سواء فى السياسة أو فى الثقافة أو الصناعة، ويزرع الخوف فى قلوب الكثيرين. والمجتمع الديكتاتورى والذى قد يأخذ شكل النظام الأبوى الذى يتمثل فى ضرورة الطاعة للحاكم الأب، الذى يعرف كل شىء ويعمل لمصلحة الجميع، وليس عليهم إلا الطاعة، أو الحديث بالأدب والتردد الذى تتطلبه الحالة الأبوية .

كان المواطن المصرى يعيش هذه الحالة من الخوف أو التردد، وكان هو بطبيعة الحال الجندى والضابط فى الجيش . هل كانت الهزيمة فى حرب سنة ١٩٦٧ راجعة إلى هذه الحالة النفسية السيئة ؟ أم راجعة إلى عنصر من العناصر الكثيرة الأخرى مثل الانقسام بين الولاء للمشير ولعبد الناصر ؟ هل كانت راجعة للإهمال وقصور النظر إلى الظروف العالمية واحتمالات الصدام ؟

المرجح أن مصر كانت على أعتاب حركة نهوض فى الكثير من المجالات، ربما أيضا فى المجال الديمقراطى، ولكنها لم تكن قد استكملت هذه الحركة نحو المستقبل الأفضل، وبالتالى وقعت الهزيمة وتغيرت كل الموازين .

حقا لم يسقط النظام بسبب الهزيمة، وظل عبد الناصر فى السلطة محاولا إصلاح ما أفسدته السياسات السابقة، ولكنه كان هو شخصيا قد جرح جرحا كبيرا، ولم يتصور أن تغيير النظام تغييرا جوهريا هو المطلوب، بما فى ذلك وظيفته هو التى ينبغى أن ترجع إلى اختيار حر حقيقى ومنافسة بينه وبين قرناء، يقوم بها الشعب ومنظماته الحزبية الحرة . وكان من المرجح - مع كل ذلك - أن أى انتخابات حرة كانت ستأتى بالحزب والرئيس الذى يلتزم بخط عبد الناصر فى الإصلاح الداخلى وفى السياسة الخارجية . ولكنه لم يفعل على أى حال، وسقط مريضا وتوفاه الله بعد آلام نفسية وبدنية مبرحة .

٢١

انقلاب السادات

عندما توفى عبد الناصر، كان النائب الوحيد له هو أنور السادات، ولكن موضوع الوراثة كان بينه وبين آخرين منهم زكريا محيى الدين وربما حسين الشافعى، وكنت أنا ومحمد أنيس نفضل أنور السادات، فتاريخه الوطنى ورومانسيته الوطنية، إن صحت العبارة، كانت أفضل كثيرا بالنسبة لنا من صرامة ويمينية زكريا محيى الدين . وأذكر أننى ذهبت أنا ومحمد أنيس إلى أكثر من شخص ممن نعرفهم فى مجلس الوزراء، الذى كان يملك البت فى هذا الاختيار، وظننا أننا أقنعنا بعض أعضاء هذا المجلس باختيار السادات، ولكن ربما كان لمرونة السادات وجاذبيته الخاصة الدور الأول فى اختياره من غالبية هذا المجلس، إذ كان له معارضون غير قليلين، وكنت أثق فى وطنية السادات مع معرفتى باتجاهاته اليمينية، وكنت أعرف ولعه بأن يلعب دورا بطولياً أمام مواطنيه، ولكن كمال الحناوى، الذى كان مسئولا كبيرا له تأثير فى اتخاذ قرار الاختيار، جادلنى قائلا : إنك لا تعرف السادات معرفة حقيقية . إنه واقعى جداً وبراجماتى إلى حد النخاع، وبالتالى أبعد ما يكون عن الرومانسية الوطنية التى تتحدث عنها .

عندما تسلم السادات السلطة، بدأ يتجه يساراً، إذ كان مساعده الأول هو محمد عبد السلام الزيات، أمين عام مجلس الشعب فى عهد رئاسة السادات للمجلس، وكان مثقفا يساريا وسياسيا وعمليا وكثيرا ما اشترك معنا فى ندوات مجلة «الكاتب» وكان أيضا شقيقا للكاتبة اليسارية والمناضلة السياسية لطيفة الزيات، التى انتخبت وهى طالبة فى كلية الآداب، بُعيد الحرب العالمية الثانية، رئيسة للجنة الوطنية للطلبة والعمال، التى لعبت دورا بارزا فى مواجهة الاحتلال البريطانى، وكان صهرا لأحد المناضلين الشيوعيين هو محمد الخفيف، وصديقا للكثير من اليساريين . وكانت علاقتى به قد توثقت، ولعلى بدأت أتفهم معنى أن يكون الإنسان سياسيا ومعنى مصطلحات شائعة مثل أن السياسة هى فن الممكن، إذ كان هو وراء كل الأفكار التى تعامل بها السادات مع عبد الناصر طوال رئاسته لمجلس الشعب، وأذكر من ذلك أنه بعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧، واقتناع الكثير من المقربين إلى جمال عبد الناصر، أن المسئول عن الهزيمة فى الأساس هو عبد الحكيم عامر، الذى حجب الجيش تماماً عن رئيس الجمهورية، كما أنهم كانوا يعتقدون أن عبد الناصر يهدف حقا إلى تغيير النظام إلى الاشتراكية وإلى نوع من التغيير الديمقراطى فى بناء اتحاد اشتراكى يجمع القوى الوطنية من الطبقة الوسطى

والطبقات العاملة . وبالتالى كلف الزيات بأن يعد قرارا يصدر من مجلس الشعب بتفويض الرئيس جمال عبد الناصر تفويضا مطلقا باتخاذ الإجراءات أو إصدار القوانين المتعلقة بإعادة تسليح الجيش وحرب الاستنزاف إلى أن تتم المواجهة مع جيش الاحتلال الإسرائيلى . وقد دعانى عبد السلام الزيات وصديقاً آخر كان مستشارا بالمحاكم لنصيغ قانون التفويض هذا. وقد اجتمعنا بالفعل ووضعنا الصياغة التى صدرت بعد ذلك ووافق عليها البرلمان بالإجماع .

الآن أتذكر هذا وأتساءل هل كان هذا تفكيرا سليما ؟ الواقع أننى كنت موافقا على مثل هذا التفويض ربما خالطنى شىء من القلق، ولكن الهزيمة كانت بشعة وربما كانت معرفتى بخلفيات ما حدث فى الجيش، واعتقادى بأن جمال عبد الناصر أقدر على إعادة بناء الجيش، كانت وراء موافقتى على إعطائه صلاحيات مطلقة للتحرك بحرية . هذا ما كنت أفكر فيه بينى وبين نفسى . إذ كان مجرد اشتراكى فى صياغة مثل هذا القرار يتطلب نوعا من الاقتناع. ويبدو أننى كنت معتقدا إلى حد ما بصحة هذا التفويض، وإن كنت أرى الآن وأنا أراجع هذه الذكريات أنه كان موقفا خاطئا . حقا لم يكن لى دور فى إقرار التفويض أو رفضه، ولكن الاشتراك فى الصياغة نفسه فيه شىء من مسئولية الضمير . وعلى الأغلب كنا قد تناقشنا فيما يجب عمله، ولعل هذا التفويض نشأ من هذه المناقشة . وربما كان الزيات قد فاتح السادات فى هذا الاقتراح ووافق عليه أو لعله فاتحه بعد هذه المناقشة ثم اقترحه عليه .

وهأنذا أتذكر أننى كثيرا ما تدخلت فى مثل هذه الأفعال مثل كتابة دراسات موضوع السودان وبعض خطب المشير عبد الحكيم عامر ثم الاستقالة الشهيرة، ولكنى أذكر أننى فى جميع هذه الحالات كنت متفقا مع نفسى فيما كتبته وإن لم يكن باسمى ولم أتحمل مسئوليته أمام الناس .

لم أكن مضطورا على السياسة مثل زملائى الآخرين، وإن كنت أشارك فى الجدل حول الأمور السياسية باعتبارها النشاط الخطير فى ذلك الوقت الذى يعمل على تحقيق المشروع القومى الذى كنا نحلم به جميعا من إقامة نظام عادل وقوى تتحرر فيه البلاد العربية وتعيش به حياة مستقرة وبناءة إلى حد ما، ولم أكن مثل عبد السلام الزيات، الذى وجد فى العمل مع السادات كأمين عام لمجلس الشعب وسيلة مقبولة للتحرك نحو أهداف هذا المشروع القومى، ونحو تحسين الأوضاع فى مجرى ثورة ٢٣ يوليو، ثم عمل معه بعد انقلاب مايو الشهير وزيرا للإعلام، ثم نائبا لرئيس الوزراء، قبل أن يتبين أن السادات عندما أصبح رئيسا للجمهورية، كان قد اتخذ بينه وبين نفسه طريقا ثانيا مختلفا تماما .

استعان السادات باليساريين بخطوات أبعد حتى من التى اتخذها جمال عبد الناصر، فقد عين وزيرين شيوعيين هما فؤاد مرسى وإسماعيل صبرى عبد الله ثم عقد معاهدة مع الاتحاد السوفييتى . ولكنه كان يبطن شيئا آخر، ولعله لم يكن قد بلور فكرته بعد أو مشروعه الذى سار عليه بعد ذلك، وهو أن القوة الحقيقية تكمن فى الولايات المتحدة التى تملك ٩٩٪ من كل أوراق اللعب، كما راح يقول بعد ذلك فى خطبه، وأن مهادنتها قد تكون طريقا إلى استرداد الأرض التى احتُلت فى حرب سنة ١٩٦٧ .ومن المؤكد أنه أجرى حوارا مع الإدارة الأمريكية ولاقى ترحيبا بشرط تحريك الوضع عسكريا بما يرغم الإسرائيليين على المفاوضة ثم الانسحاب . وكانت مشروعاته بالنسبة لسياسة الانفتاح الاقتصادى إعلاناً عن مشروعه

الجديد المخالف لسياسة الاقتصاد الموجه . ومن الطبيعى أن يتضمن المشروع نظاما ديمقراطيا يقوم على تعدد الأحزاب . وأذكر أنه بالفعل شكل لجانا لتنظر فى مستقبل الاتحاد الاشتراكى ووضعنى ومحمد أنيس فى إحدى اللجان الثلاث التى أنشأها لمناقشة الاتحاد الاشتراكى، وإحلال نظام آخر بديل، وكنت فى هذه اللجنة قد دعوت إلى فك الاتحاد الاشتراكى القائم على تحالفات بين قوى الشعب المختلفة وإعطاء الحق لكل قوة فى بناء حزبها المعبر عن أفكارها ومصالحها، وهو الأمر الذى أخذ به بعد ذلك، ولكنى من الناحية الاقتصادية لم أكن موافقا على إلغاء التأميم وفتح الاقتصاد لقانون السوق لما سوف يحدث من ضياع لشرائح عديدة فى المجتمع المصرى مثل العمال وصغار الموظفين والقوى العاملة بشكل عام، التى ستترك لقوانين السوق التى عادة ما تترك هامشا كبيرا للبطالة، وهو ما حدث بالفعل وما زلنا نعانى منه إلى الآن .

والواقع أن المصريين صاروا يعيشون تحت مظلة الدولة التى تحميهم من البطالة والفقر فضلا عما تؤديه من خدمات أخرى فى مجال الصحة والتعليم، وبالفعل ارتعب الناس عند رفع مظلة الدولة، وراحوا يجرون جريا وراء ما يؤمن حياتهم أياً كان المصدر الذى يأتى منه المال. ومنذ هذا التاريخ والناس يتناهبون كل ما يمكن الحصول عليه بالخير أو بالشر، واضطربت المنظومة الأخلاقية للمصريين اضطرابا كبيرا .

انقلب السادات على الأسلوب السابق كله، وألغى معاهدته مع السوفييت بل وطلب منهم سحب خبرائهم وقطع صلته بهم تماما، وبدا أن خياره الأمريكى أصبح كاملاً . ودخل الحرب حتى قبل أن يستكمل كل معداته . ولكنه نجح نجاحا باهرا أولاً، ثم بدأت الثغرة، ولكن بعد أن هز المجتمع الإسرائيلى هزا، وبعد أن أثار دهشة وإعجاب العالم . وعلى الرغم من أنه لم تنقض أكثر من ثلاث سنوات على استلامه السلطة كرئيس للجمهورية، إلا أنه استطاع أن يستوعب كل الخبرات المصرية القتالية فى الجيش وأن يحقق - على أى حال - نصراً كان بعيد المنال .

ولقد بنى خطته على أن تكون حربه من أجل تحريك قضية الاحتلال وليس إزالته بالكامل. فهل لم يكن يملك إلا قوة التحريك ؟ لقد أوقف تقدم الجيش ثم بعد ذلك انقلبت الآية وأقامت إسرائيل الثغرة ودخلت مدينة السويس هل كان ذلك كل ما يملكه من قوة أم أنه كان ينفذ شرطا أمريكيا لم يكن الغرض منه أكثر من هذا التحريك، وليس هزيمة الجيش الإسرائيلى بالكامل ؟

❖ ❖ ❖

بمجرد أن جاء السادات للسلطة، أعادنى إلى «الجمهورية» وكنت متحمسا له، ولكن فى حدود مهمتى ككاتب . لم تكن لى طموحات سياسية أو حتى صحفية، كنت أريد أن أكتب شيئا يسعد الناس ويفيدهم، حتى أننى عندما كنت أمرّ بأزمة، أترك نفسى لها ولآلامها ومتاعبها وكأنها تجربة ستفيدنى عندما أكتب، وكانت توجهاتى للأدب وبخاصة الرواية أو المسرحية، ولكننى وجدت نفسى أكتب الدراما الإذاعية أو السينمائية، ربما بسبب عائداتها المالية السريعة والجيدة نسبيا وخاصة السينما، وكنت كارها لذلك، إذ كانت غايتى هى الأدب الخالص مثل الرواية بصفة خاصة . وعندما فكرت فى أن أكف عن الكتابة للإذاعة، عُرض علىّ أن أكتب للسينما، وكانت المكافأة كبيرة، فلم أكد أنفذ قرارى بالنسبة للإذاعة، حتى

وجدتنى أضيع وقتى فى السينما ثم فى المقالات الأسبوعية التى كنت أكتبها فى «الشعب» ثم «الجمهورية» فضلا عن مسئولياتى فى مجلة «االكاتب».

ولهذا، كانت اختياراتى السياسية ذات طابع مثالى، وبعيدة عن المرونة التى يتطلبها العمل السياسى ومبدأ فن الممكن . وكانت علاقاتى الاجتماعية تسير فى هذه الأطر بعيدا عن الانتماءات السياسية أو الفكرية . وكان لى بالتالى أصدقاء من كل الاتجاهات، وفقا للطبائع الشخصية والميول الخاصة، أكثر منها انتماء إلى هذا الاتجاه الفكرى أو ذاك . بالطبع كانت أكثر علاقاتى يحكمها التقارب الفكرى والاشتراك فى الحلم بالمشروع القومى، الذى كان يحلم به جميع المثقفين المصريين، وإن اختلفت الطرق إليه . وكانت صلتى بموسى صبرى جيدة، وكان صحفياً حتى النخاع، وكانت السياسة إلى جانب الصحافة هى حياته، وكان هو الصحفى الأقرب إلى السادات ثم صار المتحدث باسمه والمروج لأفكاره . وكان يعرف أن لى انتقادات على مراكز القوى القديمة أيام حكم عبد الناصر، ولذلك عندما قامت الأزمة بين السادات وهذه المجموعات اتصل بى ليقول لى أن صفحات الأخبار مفتوحة أمامى لأكتب ضد هؤلاء. وكانت الأزمة المعروفة بأزمة مايو أو ثورة التصحيح . وقال لى إن عبد الرحمن الشرقاوى بدأ الكتابة فى هذا الاتجاه، وأن السادات يتوقع أن أدخل هذه المعركة الإعلامية إلى جانبه .

وكنت بالفعل مؤيدا للسادات ولكننى لم أستطع أن أقنع نفسى بالهجوم على هؤلاء بعد أن سقطوا بالفعل وصفاهم السادات، بل وأودعهم السجن، وهو الأمر الذى لم يكن مريحا بالنسبة لى، تهربت من الكتابة ولم أكتب سطرا فى الهجوم على هؤلاء الناس . والواقع أن حماسة عبد الرحمن الشرقاوى ضدهم كان لها ما يبررها، إذ كان أخوه الدكتور عبد المنعم الشرقاوى، الذى كان أستاذا للمرافعات فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة، قد اعتقل فى منتصف الستينيات، وعذبته أجهزة المخابرات المصرية آنذاك بطريقة وحشية . وأذكر أننا كنا أعضاء فى لجنة القصة والمسرحية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب أنا والشرقاوى، وكانت لجنة تضم أغلب كبار الكتاب، إذ كان يرأسها توفيق الحكيم وينضم إلى عضويتها عدد من كبار الكتاب، مثل محمود تيمور ويحيى حقى، فضلا عن نجيب محفوظ ويوسف جوهر وعلى أحمد باكثير وغيرهم. عندما دخلت القاعة، وجدت اللجنة منعقدة ولكن فى حالة صمت تام ووجوم شديد . وجدت مقعدا خاليا إلى جانب نجيب محفوظ فجلست وهمست فى أذنه : ما الحكاية ؟ فأشار إلى عدة أوراق أمامه ثم دفعها إلى لأقرأها فوجدتها بلاغاً من عبد الرحمن الشرقاوى عما حدث لأخيه الأستاذ الجامعى من تعذيب وإهانات بغرض استنطاقه والحصول على اعترافات بإدانته، وكانت بالحق بشعة وشديدة الإيلام . بعد قليل قلت لهم أننى سآخذ هذه الشكوى وأعطيها لكمال رفعت، الذى كان يساندنا فى مجلة «الكاتب» وبالفعل عندما قرأها ظهر عليه الغضب وأعطاها لجمال عبد الناصر الذى أمر بإلقاء القبض على المسئول عن هذا التعذيب، وكان ضابطا كبيرا، ومحاكمته .

كان الهجوم على العهد السابق جميعه دون تخصيص له ما يبرره بالنسبة للشرقاوى، ولكننى على الرغم من انتقاداتى الكثيرة، وجدت أن الكتابة ضد بعض المسئولين الذين أودعوا السجن بالفعل ليس أكثر من شماتة، وهو أمر لم أكن أشعر به ولا أريده .

هل غضب السادات منى ؟ لست أدرى . على أن حادثة تعذيب الدكتور عبد المنعم الشرقاوى هذه ظلت عالقة بذهنى، فبعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧، والمصادمات بين عبد

الناصر وعبد الحكيم عامر ورجالهما التى انتهت بانتحار المشير، أُلقى القبض على صديقى محمد أبو نار ووضع فى المعتقل فترة، ثم نقل إلى مستشفى مع مجموعات أخرى من أنصار المشير كتخفيف عن المعتقلين من ضباط الجيش، وكان منهم هذا الرجل الذى أشرف على تعذيب الدكتور الشرقاوى، ليس باعتباره من شلة المشير، بل بصفته الشخصية، وربما كان هو موجودا مع آخرين فى المستشفى كمكان للاعتقال أفضل من السجن الحربى أو السجون الأخرى .

كان على أن أزور أبو نار مهما تكن الظروف، وإلا سوف يظن أننى تخليت عنه، وبالفعل أخذت تصريحا لأحد أزواج أخواته وذهبت إلى المستشفى واكتشفت أن أمر هذه الزيارة صار سهلا بحيث أصبحت أزوره كل يوم تقريبا وكان شهر رمضان قد حل فرحت أذهب إلى هذا المستشفى قبيل الغروب وأتناول معه طعام الإفطار، وأتحدث معه فترة من الزمن ثم أعود إلى بيتى . وفى أحد الأيام تأخرت قليلا عن موعد الإفطار وعندما وصلت كان قد جلس يتناول الإفطار مع عدد من المعتقلين، لكنه خرج ليدعونى إلى الانضمام إليهم، وسألته عمن يجلس معه فذكرهم لى، وكان من بينهم هذا المسئول الكبير الذى قام بتعذيب الدكتور الشرقاوى، فرفضت الانضمام إليهم، وتركته يذهب ليكمل إفطاره . ويبدو أن مشاركيه على المائدة سألوه لماذا لم أنضم إليهم فقال لهم أننى رفضت أن آكل مع هذا الشخص . وبعد انتهاء الإفطار، جاءنى أبو نار وفى أعقابه ذلك الضابط "الجبار" الذى حيانى بأدب كامل، بل وبشىء من الرقة، وقال إنه سمع من أبو نار أننى رفضت أن أجلس معه على مائدة الإفطار بسبب ما سمعته عنه من تعذيب المعتقلين وامتهان كرامتهم، ولم يكن هناك مفر من أن أعترف له بأننى فعلت ذلك بالفعل بل قلت لهإننى أنا الذى أوصل مذكرة عبد الرحمن الشرقاوى لعبد الناصر، وربما رويت له تلك الجلسة الصامتة الكئيبة التى حدثت فى اللجنة التى تضم أكبر كتاب مصر .. بدلا من أن يغضب أو يثور قال بهدوء تام : أى نظام سياسى فى العالم تحترمه ؟ الولايات المتحدة، أم الاتحاد السوفييتى ؟

لعلى سكت ولم أجب، فاستطرد قائلا : إن هذه مسائل أمن الدول ولا علاقة لها بالعواطف أو الأخلاقيات العادية أو حتى المبادئ السياسية، لقد أخذت "كورسات" استنطاق المتهمين فى أمريكا وفى روسيا على السواء، وهذه إجراءات تقوم بها الدول حتى فى أرقى الديمقراطيات، وكنت أقوم بواجبى فقط فى كل الذى تؤاخذنى عليه .

لم يدرك أنه جعلنى أسقط فى حالة من الإحباط والحزن العميق، وأرى أن الجنس البشرى ينطوى على شرور تكاد تكون بلا حدود، وأن مستقبل الحياة لهذا الجنس لا يمكن أن يبشر بخير، وهذا الرجل ليس إلا نموذجا لرجال كثيرين فى الشرق والغرب، وأن نزعة الخير ليست ضعفا فحسب بل هى شىء غير واقعى وغير موضوعى .

هكذا كانت الحياة تعلمنى كل يوم شيئا جديدا . وكان علىّ أن أخوضها وأنا أدفع عن نفسى وعقلى كل تلك الهجمات القاتلة لكل خير فى نفس الإنسان . وفى يوم من الأيام وقد فاض بى الكيل، ربما كان هذا فى بدايات الثمانينيات من القرن العشرين، وكنت قد وصلت إلى بريطانيا فى نوع من النفى الاختيارى . كنت جالسا وحدى فى غرفة المعيشة أسترجع كل حياتى السابقة . كانت زوجتى قد انضمت إلىّ وكذلك أولادى بعد أن فصلوها من العمل وبخسوا

معاشها إلى الحد الأدنى ورحت أتساءل عن معنى هذه التجربة وما أهمية الحياة فى هذه الظروف المقيتة . وكدت أصل إلى درجة التشاؤم المطلق ولكن بصيصا ضئيلا من النور تسلل إلى عقلى وأدركت أننى لا أعرف شيئا ذا قيمة فى هذه الحياة أو مغزى وجودى حيا، وأن علىّ فى الحقيقة أن أحاول التعرف الصادق أو القريب من الحقيقة وأن هذه المعرفة شىء يستحق أن يعيش المرء من أجله .

بالطبع لم أكن من الحماقة بحيث أعتقد أننى سوف أتعرف على شىء ذى قيمة فى الحياة بمجرد أن أعيش عاما آخر أو عشرين عاما، ولكن أى خدش يمس أسرار الحياة المغلقة سوف يكون مفيدا ومبررا للحياة. ومع ذلك لم أكن زاهدا على الإطلاق فى الحياة بل كنت مندفعا إلى الانغماس فى كل شهواتها، وحتى الحسية منها كانت تتحقق عندى فى شكل جمالى يحمى الميل الجسدى من الابتذال . وكان يحدث أن أشعر بالامتلاء، فأنخرط فى مثل هذه الشطحات الروحية أو قل الفكرية . وربما كنت فى هذه الفترة مشبعا إلى حد الثمالة، فلم تعد تغرينى هذه الشهوات، بما فيها الثروة أو الشهرة أو حتى الجمال، والاستمتاع به فى الفن والطبيعة، إذ كانت حياتنا توشك أن تكون خالية من المعنى . هل كان هذا نوعا من مرض الاكتئاب ؟ وهل هذه التساؤلات التى تبدو فلسفية تماما ليست إلا أعراضا للمرض ؟ يا للضياع ! فحتى التمييز بين ما هو مرض وما هو فكر أو تأمل يصبح صعبا ومتداخلا . فكيف إذن تتجلى الحقائق أمامنا ؟ وهل من سبيل للإنسان لأن يحصل على يقين بالنسبة لشىء ما ؟ ولكن شكرا للعلم وتطبيقاته فى تكنولوجيا العدد والآلات . فربما كان هذا هو الدليل الوحيد على أن ما نسميه القانون العلمى قد يكون صحيحا .

٢٢

أمر رئاسي بالتحقيق معي

عشت فترة حرب سنة ١٩٧٣ وقلقها، ولكنها على أية حال كانت أول أداء عسكري جيد، رغم أنها صارت إلى نصف انتصار ونصف هزيمة . وكان خيار السادات النهائى هو الانضمام إلى المعسكر الرأسمالى، والاعتماد على الولايات المتحدة الأمريكية فى معالجة موضوع احتلال إسرائيل لسيناء . وكانت إدارة الرئيس الأمريكى نيكسون تعانى من أزمة "ووتر جيت" والتى انتهت إلى استقالته . لم أكن قد قرأت سيرة هذا الرئيس بعد، التى كتبها سياسى وكاتب بريطانى . ولم أكن قد قرأت كتابه الذى نشر بعد اعتزاله بعنوان : "انتهاز الفرصة" . ولكن كان من الواضح أنه يترنح تحت ضربات اللوبى اليهودى، أو قل الصهيونى، وكان مخاصما لوزير خارجيته كيسنجر، الموالى تماما لإسرائيل . ولكنه صار ينافسه فى التحيز لإسرائيل . وفى سيرة الحياة تلك عرض تفصيلى لهذه الفترة الحاسمة . وعلى الرغم من قراءتى المتأنية للكتابين ـ وكنت قد ترجمت ونشرت سبع حلقات طوال من كل منهما فى جريدة الشرق الأوسط، التى كنت أعمل بها فى لندن، تلخيصا لأهم ما فيهما، خصوصا بالنسبة لنا فى مشكلة الشرق الأوسط - إلا أننى بالكاد فهمت أن له حلا للمشكلة الإسرائيلية أفضل كثيرا من كل الحلول التى عرضت بعد ذلك . إذ كان على الأقل يؤمن بحق الفلسطينيين فى إقامة دولة . ولعله أيضاً كان موافقا على عودة اللاجئين الفلسطينيين . ومن حسن الحظ إلى حد ما، أن الذى انتخب لرئاسة الولايات المتحدة، كان الديمقراطى جيمى كارتر، الذى كان رجل سلام، وهو الذى كان عراب اتفاقية كامب ديفيد التى أدت إلى استرداد سيناء . ولكن السادات كان قد اختار بشكل نهائى المعسكر الرأسمالى، وراح يغير فى كل التركيبات الاجتماعية السابقة، بما فى ذلك الموقف الفكرى . وفى دولة مثل مصر، وكان الإعلام فى قبضة السلطة بشكل كامل، بدأ السادات يعيد ترتيب الصحف والإذاعة والتليفزيون، بحيث يبعد منها كل هؤلاء الذين يعبرون عن فكر مجتمع يقوم على الاقتصاد الموجه، والفكر الاشتراكى بشكل عام، ويأتى بمن يظن أنهم يؤمنون أو يوافقون على اقتصاد السوق، وعلى رفع يد الدولة عن المظلة الحكومية، التى كان يستظل تحتها الناس، وخاصة القطاعات الضخمة للطبقة الوسطى والعمال والفلاحين . ونتيجة لهذا تخلص أنور السادات من كل معاونيه اليساريين، بمن فيهم مساعده

الأول، محمد عبد السلام الزيات . وجاء الدور على "الكاتب"، وكان قد عين يوسف السباعى وزيرا للثقافة . وكان من عجائب الحياة أن هذا الوزير كان صديقا حميما للسلطات السوفييتية ومع ذلك كان أكثر عداء للفكر الاشتراكى من أى متعصب يمينى .

كانت "الكاتب" تطبع فى مطابع وزارة الثقافة . وكان عمال المطبعة متعاطفين بالطبع مع المجلة وسياستها . وكان مدير المطبعة قد تسلم خطابا من الوزير يأمره فيه بألا يطبع أية مقالة فى مجلة "الكاتب" دون الرجوع إلى كاتب من الضباط السابقين يدعى عبد العزيز صادق، وكان قد عينه سراً مديراً لتحرير المجلة . على أن العمال سربوا هذا الخطاب إلينا، فذهبت لأعلم من الوزير ماذا حدث بالضبط، فراح يقنعنى بأن مدير التحرير الجديد سوف يتلقى التعليمات منى مباشرة، وكان من الواضح أن هذه مجرد حجة فرفضت هذا التعيين . وظللنا نتجادل فى هذا الموضوع إلى أن تبين لنا أنه مصمم على أن يفرض سيطرته على ما ينشر فى المجلة . وأظن أننى كتبت برقية إلى الرئيس السادات ووقعت عليها أنا ومحمد أنيس، ولكننا لم نتلق رداً رغم صلتنا الطيبة بالرئيس . وقرر مجلس تحرير المجلة أن يلتقى بالوزير فذهبنا أنا ومحمد أنيس وكمال رفعت وعبد العزيز الأهوانى، وجلسنا نناقش الموضوع معه لكن دون جدوى، فقدمنا استقالة جماعية وتركنا المجلة . وحاول السباعى أن يجد رئيسا للتحرير، ولكن هذا كان صعبا، إذ كان أكثر المثقفين ضد إحداث أى تغيير فى سياسة المجلة . على أن الرجل صمم على المحاولة فظلت المجلة تصدر بفكر يمينى دعائى إلى أن انفض القراء عنها وأغلقت بشكل نهائى ولم يستغرق هذا إلا سنة أو بضعة شهور .

فى ذلك الوقت، وأثناء زيارة لى للعراق طلبت منى جريدة الثورة العراقية أن أكتب لها مقالا أسبوعيا فقبلت، ورحت أكتب لهذه الجريدة . وكانت الصحافة فى العراق أشبه بصحافتنا فى مصر، إذ كانت تابعة لحزب البعث الحاكم، وكانت علاقة مجلة "الكاتب" ببعض المسئولين فى هذا الحزب مثل طارق عزيز وغانم عبد الجليل وغيرهما قوية جدا . وكان غانم عبد الجليل، بصفة خاصة، قد قال لى أنهم أثناء اعتقالهم فى السجون العراقية، قبل الانقلاب البعثى، كانوا يقرءون المجلة ويجدون فيها تفسيرا جديدا للمشاكل الفكرية التى كانت تشغلهم حينذاك . ولذلك عندما وصلوا للسلطة، حرصوا على أن تكون متوافرة لجمهور القراء فى العراق . وكان وزير الإعلام العراقى، منذ سنتين على الأقل، قد طلب الاشتراك فى المجلة بعشرة آلاف نسخة، وأبلغنا وزارة الثقافة المصرية آنذاك بذلك، وتولت إدارة التوزيع فى مصر التعامل مع الوزارة العراقية . وفى ذلك الوقت كنت أكتب كتاب "اليمين واليسار فى الإسلام" وأنشره على حلقات فى مجلة "الكاتب"، هذا فضلا عن الكتابات الأخرى للزملاء حول غالبية القضايا المطروحة على الساحة العربية . وعرفت أن المجلة التى كان ثمنها مائة فلس عراقى، أى حوالى عشرة قروش وهو ثمنها فى القاهرة، صارت تباع بحوالى دينار عراقى أى بعشرة أضعاف ثمنها الأصلى فى مصر والعراق، بسبب اختفائها السريع من السوق والإقبال الشديد عليها .

استقلت مع زملائى من مجلة «الكاتب»، لكن ظللت أكتب فى الجمهورية، على أنى لاحظت أن بعض مقالاتى كانت تؤجل دون سبب واضح، ولعلى لهذا كنت أكتب مقالات جريدة الثورة العراقية متناولا المشاكل التى أعتقد أنها مهمة . وكنت أخشى أن مشروعات التحول الديمقراطى التى بدأها السادات لن تتم . وهاهو ذا عصر السادات تغلق فيه مجلة "الكاتب"، ويُبعد الكتاب اليساريون، وتؤجل مقالاتى فى الجمهورية . وكان الجهاز الإعلامى يحاول أن

يظهر للرأى العام العالمى وخاصة فى الغرب، أن الحكم يتجه بالفعل إلى الديمقراطية والتعددية الحزبية، بينما كان السادات يسعى إلى تركيز السلطة فى يده، ويستعين بنفس الأجهزة الأمنية . فكتبت أحذر من أن الدولة الجديدة من الممكن أن تصبح دولة بوليسية، لا تختلف عن أية دولة بوليسية أخرى من التى ينتقدها الإعلام الجديد .

فى هذا الوقت كان الدكتور محمد حافظ غانم هو أمين عام الاتحاد الاشتراكى، وكان صديقا لى، وكان - على أى حال - رجلا مستنيرا، ولديه نفس أحلام المثقفين المصريين بالمشروع القومى، وفوجئت به يتصل بى ويطلب منى أن أزوره فى مكتبه بالاتحاد الاشتراكى . وبالفعل ذهبت إليه فأخبرنى أن لديه أمرا من الرئيس السادات بالتحقيق معى فى مقال نشرته فى جريدة الثورة العراقية أقول فيه أن الدولة أصبحت بوليسية، وأخرج من درج مكتبه صفحة من الجريدة العراقية فيها مقالتى، وتحت بعض سطورها خطوط حمراء . وقال لى بسبب ما بيننا من صلة أن الذى أرسل هذه المقالة للرئيس السادات ووضع العلامات الحمراء عليها هو يوسف السباعى، وزير الثقافة . فشرحت له أننى لم أقل أن الدولة صارت بوليسية، إنما حذرت من ذلك وبينت الأسباب . كان الدكتور غانم قد قرأ المقالة ووافقنى على رأيى . وقال لى أنه سيرسل إلى الرئيس تقريرا بذلك، واعتبر الموضوع منتهيا . لعلنا جلسنا وتحدثنا فى أشياء كثيرة، وكان غانم نفسه ليس سعيدا تماما . إذ كانت المفاوضات مع إسرائيل ما زالت جارية ولا تبشر بخير، وكان التحول عن التجربة الاشتراكية مسألة انقلابية خطيرة، ولكن الناس لم تثر لأن التجربة، قبل الإصلاحات التى كانت ضرورية، لم تكن نعيما مقيما . وكانت الإجراءات الأمنية مازالت جاثمة على أنفاس الناس . ولعلهم رأوا فى الدعاية التى يتحدث بها إعلام النظام عن الديمقراطية والحريات أملا من الممكن أن يتحقق . والحق أن مشكلة الحريات، كانت أهم ما يشغل بال المجتمع المصرى بمثقفيه وشرائحه المختلفة .

ولكن هأنذا أجد الخناق يطبق علىّ، حتى فى المقالات التى كنت أكتبها فى الصحيفة العراقية، فضلا عن التعامل المتوتر مع مقالاتى فى الجمهورية . فى هذا الوقت دعيت لزيارة العراق فصحبت زوجتى وولدين من أولادى وذهبنا إلى هناك . كانت بغداد خالية من الفنادق الكبرى، ولم يكن فيها إلا فندق بغداد القديم . ولكنهم بدءوا يبنون فنادق جديدة . وكانوا قد انتهوا من مبنى جديد دعينا إليه، وعندما دخلنا بهو الفندق وجدت صديقى ألفريد فرج، كاتب المسرح المعروف وزوجته، فكانت هذه بشرى جميلة، وبالفعل انضممنا إليهما . وكنت قد جئت فى إجازة وكان طارق عزيز وزير الإعلام العراقى فى ذلك الوقت، قد دعانى وهو فى زيارة للقاهرة أن آتى للعراق لأقضى إجازة هادئة بعد الجهد الذى أرهقنى فى صراعنا من أجل استنقاذ مجلة «الكاتب» من الضياع .

كان فى العراق حركة مسرحية متقدمة، وكان العراقيون قد عرفوا المسرح بعد مصر بعقد أو اثنين، وكانت لديهم فرق مسرحية وأساتذة درسوا المسرح فى أوروبا والولايات المتحدة، وممثلون ومخرجون بارعون . وإلى جانب معهدهم القديم، أنشأوا الأكاديمية التى خصصت قسما كبيرا للدراسات المسرحية . وفى هذا القسم كان يعمل عدد من أساتذة التمثيل والإخراج والديكور من المصريين . وحين عرف هؤلاء أننى وألفريد موجودان فى بغداد، جاءوا لزيارتنا فى الفندق، واقترح أحدهم أن نلقى محاضرة فى قسم المسرح بالأكاديمية .

والواقع أننى كنت إلى جانب عملى فى الصحافة ألقى دروسا فى معهد الفنون المسرحية

فى مصر منذ سنة ١٩٦٢، وقد زاملت أغلب الأساتذة الذين زارونا ودعونا لإلقاء المحاضرات فى المعهد العراقى . وبالفعل وجهت إدارة الأكاديمية الدعوة إلينا . وذهبنا إلى المكان حيث انعقدت المحاضرة فى قاعة المسرح التابعة للقسم . تحدث ألفريد فرج عن تجربته فى التأليف المسرحى . وطلبوا منى أن أحاضرهم عن مسرح الكاتب الألمانى برتولد بريخت، الذى جاء بنظرية جديدة فى فن المسرح سماها المسرح الملحمى، وكانت انقلابا على نظريات المسرح التقليدى ووليدة عملية نقدية بالغة العمق وتحتاج إلى شروح عديدة .

وقد استغرقت المحاضرة الأولى حوالى ساعتين، ولكنهم طلبوا أن آتيهم فى الغد لأن لديهم أسئلة كثيرة .

بالفعل حضرت فى اليوم التالى فقد راقنى الجو العام، وكانت هيئة التدريس عالية المستوى، كما كان الطلبة من محبى المسرح بالفعل . وكان يوما جميلا دار فيه حوار ممتع حول النظرية الملحمية وتفسيراتها المختلفة . وكان بريخت كاتبا ومفكراً يسارياً . وكان أغلب الأساتذة العراقيين من الذين يمكن حسابهم على اليسار . وبعد أن أنهيت المحاضرة وجلسنا فى غرفة العميد، فوجئت بأحد الأساتذة يدعونى إلى العمل فى الأكاديمية أستاذا لمادتى "نظرية الدراما" و"النقد التطبيقى" .

لم يكن فى نيتى أن أعمل خارج مصر، ولم أخطط لذلك على الإطلاق . ثم إن هؤلاء الأساتذة لا يعرفون شيئا عن علاقتى الوثيقة ببعض الوزراء العراقيين ومنهم غانم عبد الجليل، الذى كان وزيراً للتعليم العالى الذى تتبعه جامعة بغداد بالطبع . على أنى وجدت أن هذه الدعوة تعبير جيد عن الامتنان والتقدير فلم أرفض ولكننى لم أعد، على أن الأستاذ صاحب الاقتراح عاد وطلب منى أن أكتب صحيفة مؤهلاتى .

كان فى الاعتذار شيء من التعالى وقلة الذوق فكتبت ما طلبه هذا الأستاذ حتى نفض هذا الموضوع . قضيت معهم بعض الوقت ثم استأذنت منصرفا .

لعلى وألفريد فرج وزوجته وأسرتى رحنا فى رحلة استغرقت أكثر من أسبوع زرنا فيه عددا كبيرا من المدن العراقية، كما استضافنا أصدقاؤنا فى بيوتهم . وكانت بالفعل إجازة ممتعة سعدت بها زوجتى وولدانا . وعندما عدنا إلى القاهرة كنا أحسن حالاً .

❖ ❖ ❖

كنت متعبا إلى درجة الإنهاك . لعلى لم أتأمل صورتى فى المرآة آنذاك لأعرف كيف أثرت تقلبات الأحوال على صحتى . ذلك أنه بعد تلك الفترة بأكثر من عشر سنوات، وبعد أن استقر بى المقام فى مدينة لندن، وكنت فى زيارة صديق لى مصرى يعمل أستاذا بجامعة لندن، وكان قد استضاف أحد زملائه من أساتذة الجامعات المصرية للعمل بالجامعة البريطانية لمدة سنة، وكان هذا الضيف يعرفنى من القاهرة، نظر إلىّ طويلا وهو يصافحنى ويذكرنى بمقابلة حدثت بيننا منذ عشر سنوات . ولعلى تذكرت هذه المقابلة، على أنه لم يلبث أن قال لى : "الحمد لله صحتك تبدو جيدة، فأنا أتذكرك فى تلك المقابلة كنت شديد الشحوب ومنهكا إلى أقصى حد"

حينما استرجع هذه الظروف أعجب للهدر الذى كنا نهدره لحياتنا . كنت متحمسا لأشياء كثيرة منها فكرة العدل وكانت الماركسية تعلمنا أن التقدم هو قانون الحياة، وأن هذا التقدم يتحقق نتيجة الصراعات التى تدور بين الجماعات البشرية، أو قل طبقات المجتمع، والعدل

يخطو خطوة خطوة مع التقدم . وإذا كان التقدم هدفاً، فإنه يتحقق بواسطة هذا الصراع . فالصراع هو المحرك لقانون الحياة، وبه تتطور وتتقدم . على أن الناس فى ممارستهم لإنتاج حاجاتهم المعيشية يبتكرون عُددا وآلات وأفكاراً تُطور أدواتهم وأفكارهم، وبالتالى تتغير البنيات الأساسية للنظام القائم بحيث يصبح تغيير النظام أمرا حتميا، ولذلك تحدث الثورات . أعنى أن هذا النوع من الثقافة يجعل الصراع أساس الحياة، وأن على الإنسان أن يحقق التقدم، وأن هذه هى رسالة الإنسان الواعى، المدرك لسر أسرار تقدم الحياة . وقد يؤدى مثل هذا الاعتقاد إلى تضحيات جسيمة من جانب المؤمنين به، قد تصل إلى الاستشهاد فى بعض الظروف .

هذا الموقف ليس جديدا وربما نشأ مع العقائد الدينية وأصبح ركنا أساسيا فى المنظومة الأخلاقية التى ابتكرها الجنس البشرى للتعايش والتغلب على مشاكل الحياة . ولذلك أمضيت كل سنين عمرى وأنا أعتقد أننى أخوض معارك . ولم يكن هذا شعورى وحدى بل جيلى فى أغلبه . بالطبع كان لنا انتصارات، ولنا أيضاً هزائم . ومثلى كان يعتقد أن معركته متصلة بالعملية التنويرية، وأن تقديم المعلومة الصحيحة أو دلالات الخبرات الحياتية، هو الأسلحة التى تساعد على انتشار الاستنارة وتقوية الرأى العام . ويبدو أيضاً أن هذا كان اعتقاد السلطات طوال القرنين الماضيين منذ أيام محمد على إلى ثورة ٢٣ يوليو، إذ كان هناك خوف من الكلمة المكتوبة .

وقد عرفت مصر الرقابة على الصحف وعلى الأفكار المتداولة، منذ سيطرة الإدارات الاستعمارية البريطانية على الحكم . وهذا الخوف من الكلمة المكتوبة، أو حتى المنطوقة، سواء فى الإذاعة أو المسرح أو غيرهما من منابر التعبير، جعل الكتاب والمفكرين يقدرون الكلمة وربما يضخمون من قيمتها وقدرتها على التغيير . والحق أنه فى الأيام الأخيرة من حكم عبد الناصر، كان الكاتب يشعر بأن أفكاره تجد تجاوبا من السلطة التنفيذية . وكانت إدارة عبد الناصر أقرب إلى أن تكون محايدة ولديها القدرة على الاختيارات الموضوعية . أى أنها لم تكن مقيدة بإيديولوجية تمنعها من الاستجابة لهذا الرأى أو ذاك . أو قل أن توجه عبد الناصر إلى الاشتراكية، كان هو المسئول عن التجاوب مع الأفكار التى يثيرها الكتاب الاشتراكيون، بينما كنا نؤوِّل هذا القبول للأفكار الإصلاحية ذات الطابع الشعبى بسبب ما نظنه من حياد وموضوعية . ذلك أن القرارات التى صدرت قبل التحول إلى الاشتراكية، كانت ذات طابع شعبى، مثل مجانية التعليم وتخفيض إيجارات المساكن وتأميم قناة السويس .

ولقد صدرت غالبية هذه القرارات الشعبية، والكثير من أعضاء المنظمات اليسارية فى المعتقلات وكانت إدارة عبد الناصر تعتمد فى الأساس على كوادر ذات توجهات يمينية، وبصفة خاصة المستشارين الاقتصاديين، الذين كان عبد الناصر يعتمد عليهم . وكان الجميع يريدون الهرب من النظرية الاقتصادية التى تقدمها الماركسية . وكانت الدراسات الاقتصادية التى تلقى فى الجامعات أو تنشر فى الكتب أو الصحف والمجلات معادية تماما . وكان من المثير للدهشة، أن يختار النظام وزراء الاقتصاد من الأساتذة ذوى الاتجاهات اليمينية المعادية للفكر الاشتراكى.

ويبدو أن كتاب اليسار واليمين كانوا يعتقدون أنهم يخوضون معركة ثقافية عاتية لتغليب اتجاه أحد التيارين على الآخر . ومن أمثلة ذلك أن جريدة الأخبار كان لها من صحفييها وكتابها من يهاجم الفكر الاشتراكى، وغالبا ما كانوا يعتمدون فى ذلك على أساتذة الاقتصاد

المقربين إلى إدارة جمال عبد الناصر كمستشارين اقتصاديين، وهم كما قلت كانوا معادين للنظرية الاقتصادية الماركسية .

وأراد أحد صحفيى جريدة الأخبار أن يتحدث عن "الاشتراكية الفابية" دون أن يقرأ شيئا حقيقيا عن هذه الاشتراكية . فبدأ بالكلام عن مؤسس النظرية أو الجمعية، بأنه مستر "فاب" خالطا بين القائد الرومانى "فابيوس"، الذى قاد نوعا من الحرب التكتيكية ضد هانيبال حتى أنهكه ثم هزمه فى النهاية . وقد اختارت هذه الجمعية الاشتراكية الحديثة فى بريطانيا اسم هذا القائد، كناية عن التغيير التدريجى الذى اختارته الجمعية بعيدا عن فكرة الثورة، التى كانت أساسية فى التفكير السائد فى المعسكر الاشتراكى فى ذلك الوقت. بالطبع أمسك الكتاب اليساريون بهذه الغلطة وسخروا من هذا الكاتب المصرى الذى يكتب عن شىء لا يعرفه . ولعل الذى بدأ كان محمد عوده أو أحمد بهاء الدين، وشاركت أنا وسامى داود وآخرون . ولكن هذا الصحفى ذهب إلى معلمه المستشار الاقتصادى فى رئاسة الجمهورية، الذى انبرى للدفاع عنه فى مقالة لم تكتب بعناية، وفيها شىء من الاستهتار . فكتبت مقالا عنيفا ضد هذا الأستاذ الذى كان سعيدا - فيما يبدو - بأن له مدخلا إلى النشر فى جريدة الأخبار عن طريق هذا الصحفى. وأظن أنى اخترت عنوانا لهذا المقال "المزيفون" . ولست أعرف ما حدث بالضبط وراء الكواليس، إذ استدعانى كمال الحناوى الذى كان رئيس مجلس الإدارة، وقال لى أن المقال طلب من الرئاسة . وقد انتظرت قلقا عدة أيام ولكن لم يحدث شىء . على أن الحناوى عاد وطلبنى فذهبت إلى مكتبه لأجد رجلا يجلس معه فقدمه لى على أنه الأستاذ الذى هاجمته، وأنه جاء يرد على مقالتى، لكنه يطلب منى ألا أرد عليه . فرفضت بالطبع فراح يرجونى ألا أرد لأن وضعه فى الجامعة أصبح سيئاً - وكان أستاذا فى جامعة عين شمس - وأنه بالأمس فقط عندما دخل إلى قاعة المحاضرات وجد الطلبة يدقون بأقدامهم على الأرض وبقبضاتهم على طاولات المقاعد احتجاجا على مؤازرته للصحفى الذى تحدث عن مستر فاب، وعلى مقاله الضعيف الملىء بالمغالطات . ولعل اللقاء انتهى بأن سحب مقاله وانصرف .

هكذا كانت التيارات السياسية المتعارضة تتعايش فى المجتمع المصرى وكل منها يرجم بالغيب عن الاتجاه الحقيقى للسلطة . وربما كان فى هذا تنفيساً - كما سبق أن قلت - عن الكبت الشعبى الناجم عن غياب الأحزاب . على أننا منذ قرارات التأميم سنة ١٩٦٢، كنا نشعر أن تجاوب السلطة مع ما نعتقد أنه صحيح، أصبح قاب قوسين أو أدنى . ولعلنا تصورنا أن جمال عبد الناصر يتجه إلى الاشتراكية وهو يجر جهازا إداريا معاكسا يشده إلى الخلف ويتفنن فى وقف الاندفاعة إلى الاشتراكية .

والغريب أنه منذ سنة ١٩٦٠ تقريبا _ عندما بدأ الصراع بين عبد الحكيم عامر وجمال عبد الناصر - كان فريق عبد الحكيم يتحدث عن الديمقراطية بل وعن العدالة الاجتماعية . وكنت بسبب صلتى بمحمد أبى نار وأصدقائه الضباط أتناقش معهم حول الديمقراطية وكانوا يبدون متحمسين للديمقراطية لدرجة التفكير الجدى فى الانقلاب على عبد الناصر من أجلها . كانت غالبية المنظمات اليسارية بل واليساريون غير المرتبطين بتنظيم فى السجون وبالآلاف ولذلك عندما طلب منى أن أكتب استقالة المشير بسبب نقص الديمقراطية بادرت بكتابة هذه الاستقالة كما سبق القول . على أنه عندما وصلنا إلى سنة ١٩٦٤ كان الوضع قد تغير وأصبح رجال المشير أميل إلى المحافظة والفكر اليمينى . وأظن أنه منذ سنة ١٩٦٤ حتى حرب يونيو

سنة ١٩٦٧ كانت الأفكار اليمينية قد بدأت تشتد وكانت تستند فى الغالب إلى تأييد منظمة الجيش . وكان أهم الاعتراضات على فكرة التنظيم الطليعى والإفراج عن جميع اليساريين وقرارات التأميم تأتى من جانب هؤلاء الرجال الذين كانوا متحمسين جدا للديمقراطية وللعدالة الاجتماعية مما أكد لى أن الموضوع كله هو صراع على السلطة لا أكثر ولا أقل . وليس معنى ذلك أن الرؤى السياسية كانت منعدمة تماما إذ كان كل قطب من أقطاب مجلس الثورة له تصور سياسى ما .

كان كمال الدين حسين له رؤية يمينية أقرب إلى فكر الإخوان المسلمين وبالنسبة لرجل آخر هو عبد اللطيف البغدادى ولزميله زكريا محيى الدين كانا أقرب إلى الفكر اليمينى المحافظ. على أنه، وعلى الرغم من كل ذلك، لا نستطيع أن نحكم بشكل قطعى على أى أساس تمت تصفيات أعضاء مجلس الثورة . هل على أساس جموح عبد الناصر نحو التمتع بسلطة مطلقة ؟ أم على أسس سياسية أو مذهبية ؟ وكان كثيرون من هؤلاء قد اعتزلوا العمل السياسى لسبب أو لآخر، ومنهم كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى . وكان عبد الناصر ممثلا حقيقيا للطبقة الوسطى المصرية .

فى بداية الثورة كان الأمريكان يتحدثون عن إيمانهم بالطبقة الوسطى وأهميتها بالنسبة لهم فى تسلم السلطة . وكان مثل هذا التفكير موجودا لدى أساتذة الجامعات، الذين أتموا دراساتهم العليا فى الولايات المتحدة . وكان الناس يسمونهم فى هذا الوقت بالنادى الأمريكى، وكان عبد الناصر معتمدا عليهم . وهؤلاء هم الذين تسلموا وظائف الشركات الأجنبية والمصرية التى أممت . وكان من الواضح أن هذه الطبقة هى المستهدفة بالإصلاحات . نعم جاءت قرارات الإصلاح الزراعى لصالح الفلاحين وكذلك الأمر بالنسبة للقوانين العمالية التى منعت على الأقل الفصل التعسفى إلا أن القوة الأساسية التى تقوم بهذه الإصلاحات هى قوة الطبقة الوسطى التى كانت هى القوة الأساسية المحركة للاقتصاد والتصنيع فى مصر .

ويبدو أن هذه الفكرة كانت واضحة لدى عبد الناصر ورجال الثورة منذ اليوم الأول . إذ أن أول شعار للثورة كان هو تمصير الاقتصاد . وهو تعبير بالغ الأهمية، لأنه يحل محل الأجانب وغيرهم قوى الطبقة الوسطى المصرية، التى كانت قادرة بصورة أو بأخرى على أن تتسلم هذه السلطات وهذه الوظائف، والتى أبعدت عنها طوال فترة الحكم الملكى إلى حد كبير . وكان اتحاد الصناعات "المصرى" الذى يرأسه إسماعيل صدقى باشا يتشكل من ٨٠٪ من الأجانب قبل الثورة . ولذلك كانت عبارة "التمصير" ذات مغزى خاص بعيدا عن فكرة التأميم أو الاقتصاد الموجه . ومنذ سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٧٠، وهى السنة التى توفى فيها عبد الناصر، كانت الشرائح العليا من الطبقة الوسطى قد كونت شيئا من المدخرات، وكانت تطمع إلى استثمارها . وبدأت تشعر بأن مسار الثورة أصبح يضيق الخناق على العملية الاستثمارية شيئًا فشيئا . ويقفل الأبواب أمام المشروع الذى كان يحلم به هؤلاء الذين صاروا يكونون بالفعل الجهاز البيروقراطى والتكنوقراطى فى مصر . وكانوا بالتالى يقاومون التحولات الاشتراكية، التى بدأ يتجه إليها عبد الناصر منذ منتصف الستينيات . وكانت هذه الطبقة تتكون أساسا من ضباط الجيش وأسرهم إلى جانب المثقفين التكنوقراط الذين تربوا فى هذا المناخ الفكرى المختلف حيث أصبح الكثيرون يعتقدون أنهم ورثوا الطبقات الأرستقراطية القديمة وصار لدى الكثيرين منهم الرغبة فى التزاوج مع أبناء الطبقة الأرستقراطية المنهارة . وأظن أن هؤلاء هم

الذين ساندوا أنور السادات فى الانقلاب على السياسة الاشتراكية التى كان عبد الناصر قد اتجه إليها قبل وفاته بقليل .

كان الانقلاب سهلا لأن هذه الشريحة من الطبقة الوسطى، كانت هى المسيطرة على الجهاز الإدارى والتكنوقراطى وغالبية مؤسسات الدولة، وكانت تسعى إلى نظام اقتصادى يسمح لها بالاستثمار بعد أن اكتسبت خبرة فى إدارة الأعمال بانغماسها فى العملية الاقتصادية التى قام بها جمال عبد الناصر وأعوانه . وبالفعل صار انقلاب السادات على اشتراكية عبد الناصر سهلاً، وجرى بانسياب مريح . وعندما أعلنت سياسة الانفتاح الاقتصادى، لم تجد القوى الاجتماعية المضرورة أى مجال للاعتراض، إذ كانت غالبية المؤسسات مدنية أو حكومية تحت سيطرة الطبقة الوسطى، صاحبة المصلحة فى التغييرات، التى طالب بها أنور السادات . وكانت العناصر السياسية المرتبطة بعبد الناصر أو قل مراكز القوى غير ممتدة الجذور فى هذه الطبقة العريضة التى تمسك بكل مراكز السلطة الحقيقية .

وأظن أن حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ كانت حربا استباقية بالمعنى الذى يتردد الآن . إذ أنها استبقت التحولات إلى تنمية اقتصادية قوية وإلى التحولات إلى شىء من النظام الاشتراكى، وأوقفتها قبل أن تترسخ فى قلب المجتمع المصرى . وهو ما حدث بالفعل ووفقا لتخطيط لا تكاد تخطئه عين المراقب المحايد .

شاهدت وأنا صبى الحرب العالمية الثانية وهرعت مع من هرعوا إلى المخابئ عندما كانت تدوى صفارات الإنذار . ثم هاجرت مع أسرتى إلى الريف عند أقربائى فى قرى المنصورة، إذ كان أبى وأمى ينحدران من المنصورة وريفها . وقضينا عدة شهور فى هذا الريف تعرفت خلالها على حياة مختلفة . واستفدت منها خبرة مختلفة إلى حد كبير عن الحياة فى مدينة القاهرة . ثم عاصرت واشتركت فى نضالات ما بعد الحرب العالمية الثانية، والمظاهرات الصاخبة فى ميدان التحرير . وشاهدت حريق القاهرة، ثم ثورة يوليو، وحرب سنة ١٩٥٦ . وشاهدت بعينى رأسى مصفحاتنا المضروبة والملقاة على جانب طريق يمتد عشرات الكيلومترات . وشاهدت كارثة حرب سنة ١٩٦٧ وأسلحتنا المدمرة، وجنودنا الذين تبعثروا فى صحراء سيناء . حتى أنى شاهدت قريبا لى من الجنود سار فى الصحراء عدة أيام إلى أن وصل إلى البيت وهو يحمل بندقيته على كتفه . وأخيرا عشت حرب ١٩٧٣ يوما بيوم والانتصار الأول ثم ضياعه . وأخيرا انقلاب كل الأفكار التى عشنا من أجلها بل ورفض السلطات الجديدة لوجودنا ذاته .

كيف لا ينعكس هذا كله على حياتنا ويدمر صحتنا البدنية والنفسية ؟

كانت زيارتى للعراق فى ربيع سنة ١٩٧٥ بعد أن انسحبنا من مجلة الكاتب بسبب ضغط وزير الثقافة آنذاك وعدم اكتراث الرئيس السادات . وكان عدد من كتاب الكاتب قد ذهبوا بالفعل إلى العراق وعملوا فى صحافته . ولكنى كنت مصمما على أن أستمر فى العمل فى مصر . وكنت إلى جانب وظيفتى فى الجمهورية، أدرِّس فى المعهد العالى للفنون المسرحية، وأكتب للإذاعة وللسينما، وأفكر فى الكتابة للمسرح على الرغم من كل هذا الانقلاب . وربما كنت معتمدا على أن السادات - مهما تكن الظروف - لن يؤذينى أو يقفل جميع الأبواب أمامى . على أننى - فيما يبدو - كنت متعبا جدا وكان هذا واضحا للجميع إلا لى . على أننى من الناحية الأخرى كنت محظوظا من الناحية العائلية .

كنت قد تزوجت بعد قصة حب جميلة . كنت قد عرفت زوجتى وهى طالبة فى كلية الحقوق، وكانت حياة المصريين منفتحة تماما وحضارية بكل معنى الكلمة وخاصة فى إطار أبناء الطبقة الوسطى . وكانت فكرة أننا، مع كوننا عربا ومسلمين أو مسيحيين، ننتمى إلى ثقافة البحر المتوسط - كما علمنا طه حسين وزملاؤه - كنا نقرأ نفس الكتب التى يقرأها الأوروبى أو الغربى فى باريس أو لندن أو مدريد أو برلين أو نيويورك . وكانت القاهرة، إلى جانب ذلك، مدينة كوزموبوليتانية، أى كونية تضم جاليات أجنبية عديدة . وكانت المقاهى والأندية وصالات السينما والمسرح بل وبيوتنا كلها على نفس النمط، الذى تعيش فيه شعوب تلك الحضارة، التى نسميها أوروبية أو غربية أو قل بحر أبيض متوسط .

وكانت الطبقة الوسطى المصرية على أية حال متطلعة إلى نمط الحياة الأوروبية . وكان الكثيرون من أبناء هذه الطبقة قد تعلموا المراحل الابتدائية والثانوية فى المدارس الأجنبية وبصفة خاصة الفرنسية . وكثيرا ما كنت ترى أن اللغة الفرنسية منتشرة وسط شريحة كبيرة من المثقفين المصريين، الذين درسوا هذه اللغة فى مصر ومن خلال بعثاتهم فى فرنسا، حتى أنه نشب خلاف بين المثقفين بالفرنسية والمثقفين باللغة الإنجليزية . وكان الأولون يطلقون على أنفسهم الفرانكفونيين والآخرون يسمون أنفسهم بأصحاب الثقافة الأنجلوساكسونية .

كان طه حسين على رأس الفريق الأول، وكان العقاد على رأس الفريق الثانى . وكانت فكرة الوطنية المصرية قد حلت محل الرابطة الإسلامية التى لفظتها الدولة العثمانية عندما تحولت بقيادة مصطفى كمال أتاتورك إلى دولة تورانية قومية وتركت العالم الإسلامى منفرط العقد واحتلت الكثير من أجزائه الدول الأوروبية الناهضة وخاصة بريطانيا وفرنسا . وكانت مصر قد عاشت لفترة طويلة تمتد إلى أكثر من سبعين عاما فى جو أوروبى غالب منذ محمد على إلى إسماعيل .

كان الفكر الذى يقود طموحات محمد على، ثم من بعده حفيده إسماعيل، فكرا أوروبا، لدرجة أن بعض المؤرخين الأمريكان المعاصرين زعم بأن محمد على كان عضوا فى جماعة السان سيمونيين الفرنسية، حتى قبل أن يأتى إلى مصر، وكان استخدامه للمهندسين والأطباء والعلماء الفرنسيين - وكانوا جميعا من السان سيمونيين - يرجع إلى هذا الانتماء . حقا كانت اللغة التركية لم تزل هى الغالبة لكن اللغة العربية بدأ عودها يشتد . وفى هذه الفترة فتحت المدارس المدنية غير الدينية فى المراحل الابتدائية إلى التعليم العالى إلى جانب الدراسة فى الأزهر ومعاهده .

نشأنا فى جو تسيده ثقافة أوروبية، أو قل غربية، لحوالى مائة وخمسين عاما أو أكثر، بما لا يتناقض مع ثقافتنا الدينية، تلك الثقافة التى راح كتاب هذه النهضة يعيدون النظر فيها، ويتأملونها تأملا عقليا، ويفسرونها تفسيرات عقلانية، أو حتى قل حداثية . وقد انقضى النصف الأول من القرن العشرين كله، بل وامتد إلى ما بعد ذلك فى إعادة النظر فى التراث الدينى ولا تكاد تجد كاتبا مصريا لم يخض فى تجديد التراث والنظر فيه . فالجميع تقريبا كتبوا من طه حسين إلى العقاد وهيكل وأحمد أمين وحتى توفيق الحكيم، الذى كتب شيئا من أدب السيرة النبوية إلى جانب استخدامه للتراث فى كتابة مسرحياته مثل أهل الكهف وشهرزاد .

لم أدرك تلك الفترة التى صورها نجيب محفوظ فى ثلاثيته الشهيرة "بين القصرين" ولم تكن أمى مثل أمينة ولا أبى مثل السيد أحمد عبد الجواد، إذ كان أسلوب الحياة مختلفا . كانت البدلة الأوروبية هى اللباس الشائع بين أبناء هذه الطبقة . وكان الطلبة فى كل المدارس وفى مراحلها المختلفة يلبسون البدل ويتعلمون اللغات الأجنبية . وكنا نذهب إلى السينما والمسرح وحفلات الموسيقى والأوبرا ونقرأ الروايات والقصص والشعر ومقالات كتابنا الكبار الذين كانوا مشغولين بعرض الآداب الأوروبية وشرحها . وكانت السيدات يلبسن اللباس الأوروبى ويستعملن أيضاً القبعات، ويمسكن الحقائب الجلدية الأنيقة ويتعاملن مع أدوات الزينة من منتجات العالم الأوروبى . وفى الجامعة كان الشبان والشابات يلتقون، وكذلك فى العمل . كنت أعمل فى الصحف مع زميلات وأكتب التمثيليات ليمثلها رجال ونساء من الممثلين والممثلات وكذلك الأمر بالنسبة للسينما . لم تكن فكرة الحجاب مطروحة ولا التفرقة بين الرجال والنساء . ولذلك كنا نلتقى فى كل ساعات النهار والليل، وربما كان جيلى هو الذى استمتع بهذه الحياة الرحبة والسعيدة أكثر من الأجيال التى سبقتنا والتى لحقتنا . وأغلب أصدقائى وزملائى تزوجوا بنفس الطريقة . إذ كثيرا ما كان المرء ينغمس فى صداقات جميلة مع زميلات فى العمل أو فى الحياة الثقافية بشكل عام، ولكن يحدث فى لحظة معينة أن تنطلق شرارة الحب ويكون الزواج، فى علاقة تقوم على الزمالة والإعزاز والمشاركة فى كل شىء . هكذا تزوجت وعشت حياة كلما استرجعتها، أرى أنها كانت سعيدة إلى أقصى حد، وأننى استمتعت بها وبعطاءاتها الروحية والحسية التى لا تعد .

عندما عدت من زيارتى إلى العراق، كان قد مضى على زواجى أكثر من ستة عشر عاما . وكان أكبر أبنائى قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، وأظن أنه لولا الحب الذى كانت تحيطنى به هذه الأسرة، بدءا من الزوجة إلى الأبناء، لكانت حياتى بالغة القسوة . وفى يوم من الأيام نظرت إلى أبنائى وهم مشغولون بشىء ما واكتشفت فجأة أن الجهد الذى يبذله الآباء والأمهات من أجل تربية الأبناء وما فيه من تضحيات يقل كثيرا عن العطاء الذى يقدمه الأبناء لوالديهم . إنه التأييد القوى والثقة خاصة إذا كانوا يملكون القدرة على النقد واستخلاص الموقف الصحيح .

كانت لدينا متاعب بالطبع ولكن أحدا لم يشك أو يتذمر . وفى صباح يوم من أيام شهر يوليو سنة ١٩٧٥ تلقيت مكالمة تليفونية من السفير العراقى فى مصر الذى كان صديقى ومن رجال حزب البعث ليقول لى مازحا : أنت تتآمر من خلف ظهرانينا ؟ لقد تلقيت عقدا باسمك للعمل بجامعة بغداد فى أكاديمية الفنون .

القسم الثانى

أيام فى بغداد

٢٣

الانتقال إلى العراق

الحق أننى كنت قد نسيت الأمر تماما، ربما لأننى لم أخطط لأعمل فى العراق. عندما ذهبت إلى السفارة عرض علىَّ السفير نسخة العقد وخطابا يرجو السفير أن يستشيرنى فى اختيار الأساتذة الذين تطلب أكاديمية الفنون التعاقد معهم . وإلى أن غادرت مبنى السفارة لم يكن رأيى قد استقر على شىء . ولكن عندما وصلت إلى البيت وجدت زوجتى ترحب بهذا العرض بل تحضنى عليه وقالت لتقنعنى أنها أحبت بغداد والمدن العراقية الأخرى التى زرناها واستشهدت بالولدين من أولادى اللذين صاحبانا فى تلك الزيارة وكانا سعيدان بالسفر .

يبدو أننى كنت مرهقا بالفعل ولعل زوجتى أدركت أننى سوف أواجه معاناة أخرى لو بقيت فى مصر، فراحت تشجعنى بحماسة . وبالفعل ذهبت إلى السفارة العراقية ووقعت العقد ورحت أتخذ الإجراءات المطلوبة، كالحصول على إجازة بدون مرتب من جريدة الجمهورية وكذلك الأمر بالنسبة لزوجتى .

حقا لم أفاتح أى شخص من المسئولين العراقيين فيما حدث فى أكاديمية الفنون عندما عرض علىَّ أحد الأساتذة أن أعمل بالأكاديمية أثناء تلك الزيارة . على أنى قررت أن أسبق الأسرة فى السفر لأدبر مكان السكن والتحاق الأولاد بالمدارس العراقية . وكان الكبار فى المرحلة الثانوية والإعدادية والصغار فى المرحلة الابتدائية .

كان السفر فى نهاية شهر أغسطس، وكان الحر مذهلا . ولعلى عرفت عندئذ معنى أن مصر جوها معتدل صيفا وشتاءً . وذهبت رأسا إلى الأكاديمية، وهناك تمت التحضيرات التى سبقت الأسرة من أجل إعدادها . وساعدنى بعض الأساتذة، على أن الرجل الذى ساعدنى كان أستاذا فى التاريخ الإسلامى لا علاقة له بالأكاديمية ولست أذكر ما إذا كان قد ترك الجامعة أم مازال مستمرا فى العمل بها . وكان هو من الجيل القديم، إذ كان يساريا، وكان وزيرا سابقا

للتعليم فيما أذكر . وهو الكاتب الذى قدم أطروحة شهيرة عن ثورة القرامطة نوقشت فى جامعة القاهرة التى تعلم فيها أصلا كان هو الدكتور فيصل السامر الذى صاحبنى فى كل خطوة خطوتها بما فى ذلك تأثيث المنزل الذى استأجرته . وكنت قد تعرفت فى زيارتى السابقة إلى أستاذ آخر للأدب العربى فى كلية الآداب بجامعة بغداد، هو الدكتور صلاح خالص، الذى كان متزوجا من أستاذة مصرية متخصصة فى الأدب الروسى على ما أذكر . وكان الدكتور فيصل والدكتور صلاح من المفكرين المرموقين على مستوى العالم العربى كله . وقد ظلا حفيين بى وبأسرتى طوال إقامتنا بالعراق .

طبعا كانت قبضة حزب البعث العربى الاشتراكى على المؤسسة التعليمية شديدة، وكان الحزب قد قام بتصفية الأساتذة اليساريين، إلا حين يعجز عن أن يجد بدائل لهم . وكانت الأكاديمية تعج بالأساتذة اليساريين، لأن الحركة المسرحية العراقية فى تطوراتها المختلفة كانت قد اجتذبت الفنانين اليساريين أكثر من غيرهم . وكان أغلبهم قد أرسل فى بعثات إلى الولايات المتحدة والدول الأوروبية . ومن حسن الحظ أنهم كانوا من قراء مجلة "الكاتب" . وكانوا قد تابعوا بعض المقالات التى كتبتها حول المسرح . كما قرءوا كتابى "اليمين واليسار فى الإسلام"، الذى ظن مثقفو الشيعة أن الذى كتبه عراقى شيعى متحمس للمذهب الشيعى تحت اسم مستعار هو اسمى . وقد راج هذا الكتاب رواجا كبيرا أثار دهشتى فى العراق حتى بين أهل السنة .

ولعلى قبل أن أذهب إلى العراق، كنت قد كتبت لجريدة الثورة اليومية - وكانت جريدة الحزب الرسمية _ لأكثر من سنة . وكان المثقفون العراقيون يعرفوننى، على أنى اكتشفت أن هذا لم يكن مريحا لهم، وكل مودة حصلت عليها، كانت من أجل مجلة "الكاتب"، إذ كانوا يستريبون فيمن يجتذبه النظام إليه من الكتاب العرب غير العراقيين .

على أنى عندما جلست إلى نفسى أفكر فيما ينبغى أن أختطه من طريقة للتعامل مع هذا المجتمع الجديد، وجدت أنه ينبغى أن أكف عن الكتابة لجريدة الثورة . ليس بسبب قلق المثقفين العراقيين من ناحيتى فى هذا الشأن فقط، بل حتى لا يقال فى القاهرة أننى عندما ذهبت إلى العراق، رحت أهاجم "مصر" . وكانت وما زالت هناك خدعة خبيثة تفسر أى نقد للسياسات الجارية فى مصر بأنه ليس نقدا للسلطة الحاكمة بل لمصر وكأن مصر تجسدت فيمن يحكمونها وبصفة خاصة قياداتها العليا . وكان النظام يسجن المصريين ويعذبهم، وفى نفس الوقت يتحدث عن حبه الواله لمصر، وكأن مصر فكرة غيبية هلامية لا علاقة لها بالمصريين . وكم كتبت وأنا فى مصر أن مصر تعنى المصريين ولا شيئا آخر . ومن يسىء إلى المصريين أيا كان السبب فهو يسىء إلى مصر . ولكن فكرة مصر، ذلك التابو المعبود الغريب كانت متغلغلة فى اللاوعى لدى الكثيرين من المثقفين وكان تجريد مصر يعنى أبعادها عما يدور فيها حاليا من تدهور حضارى وتبعية واستعمار وسلطات استبدادية وشعب يعانى من كل ذلك .

وربما كان هذا التصور وراء فكرة كتاب" شخصية مصر" لأستاذ الجغرافيا جمال حمدان . حقا كان الرجل كدارس للجغرافيا قد تعلم أهمية المكان بالنسبة للظروف المصاحبة لأحوال سكان هذا المكان وربما انحاز لمدارس الجغرافيا التى جعلت للمكان التأثير الأول فى حياة سكانه بما يجعل للجغرافية حتمية مطلقة لا تملك الجماعات البشرية أن تفلت من حكمها .

والواقع أنه كانت لى قصة مع جمال حمدان بسبب هذا التفسير . فقد جاءنى إلى مجلة الكاتب ومعه المقالات الأولى لما صار بعد ذلك مجلدات كتاب "شخصية مصر" . كان رجلا طويل القامة أحمر الوجه يرتدى البدلة الكاملة، شديد التحفظ، حتى أنه لا يخاطبك إلا بالألقاب . كان قد نشر جزءا من هذه المقالات فى مجلة "المجلة"، التى يرأس تحريرها يحيى حقى . وكانت مقالات جيدة بالطبع ولا أتذكر السبب فى أنه اختار الكاتب لينشر مقالاته الجديدة فيها . على أننا رحبنا به بطبيعة الحال ثم نشأت بيننا علاقة أقرب إلى أن تكون صداقة، وكان من الأصل صديقا لصديقى الوثيق شكرى عياد وعلى معرفة ما بمحمد أنيس . لم أعرف شيئا عن خلفياته وربما قال لى أحد الأصدقاء من زملائه أنه ترك الجامعة مستقيلا لظلم وقع عليه وأنه يعيش على معاشه القليل وعائدات مقالاته التى كانت بسيطة أيضا .

كان الحديث إلى جمال حمدان ممتعا، فهو قارئ جيد حتى خارج دائرة اختصاصه . وكان سلوكه المهذب والمتحفظ يجعل المتحدث يقفز إلى الموضوعات الثقافية عابرا كل ما له علاقة بالحياة اليومية أو الأحوال الشخصية . وربما لأكثر من عام وعلاقتنا ممتدة ولكن فى هذه الحدود . كانت المجلة تعج بالمفكرين والأدباء الاشتراكيين . ولكننى مازلت حتى الآن أعتقد أنه لم يلقِ بالا إلى السياسة، ولا يمكن تصنيفه - بشكل دقيق - فى أية جماعة سياسية . وأظنه نشر مجموعة من المقالات من الممكن أن تشكل كتابا، وبالفعل نشر هذه المقالات فى كتاب فرأيت أن أرحب بالكتاب فشرعت فى كتابة دراسة طويلة عن ذلك الكتاب .

كنت مؤمنا بأن تطور المجتمعات البشرية يرجع أساسا لسلوك أفراد وطبقات هذا المجتمع أو ذاك، وأن تعامل البشر مع محيطهم السكانى يفرض عليهم سلوكا معينا . لكن الفيصل فى التقدم أو التأخر، يرجع أساسا لطاقات وخبرات هذا المجتمع . وربما كنت ميالا لنظرية المؤرخ والمفكر البريطانى أرنولد توينبى، الذى كان يعتبر حركة تاريخ المجتمعات البشرية تقوم على التحدى والاستجابة . وقد يكون الوضع الجغرافى نوعا من التحدى يستجيب له المجتمع البشرى بطريقة أو بأخرى . على أن الاستجابات تختلف، فتاريخ المجتمعات التى تعيش على الأنهار الفيضية ليست بالضرورة متطابقة أو حتى متشابهة .

وكنت إلى جانب ذلك أعرف أن العنصر البشرى فى النظرية الماركسية هو أساس كل تغير أو تطور . نشرت هذه المقالة كنوع من التحية للكتاب الجديد، ولكنها أغضبت جمال حمدان غضبا شديدا . وبدلا من أن يأتى ليعاتبنى أو يناقشنى أرسل لى رسالة غريبة تفتقر إلى التهذيب المتكلف الذى كان يعاملنى به . على أنه لم يحاول أن يكتب ردا على هذا النقد . وأذكر أن البرنامج الثانى فى الإذاعة المصرية وكان برنامجا ثقافيا له وزنه، قرر أن يقدم مناقشة حول الكتاب فدعانى ودعا جمال حمدان وسهير القلماوى فحضرنا فيما عداه وتحدثنا عن الكتاب كل من زاوية رؤيته . على أننى بعد قليل قلت لنفسى لماذا لا أبدأ أنا بمصالحته ؟ وفاتحت صديقى شكرى عياد فصحبنى إلى شقة فى الدور الأرضى بعمارة فى الدقى، وقال لى أن الطريقة الوحيدة للقائه هى أن نترك رسالة تحت عقب الباب، فيلتقطها هو ثم يسعى إلى لقائنا . وكان شكرى يعتقد أن صداقته به وطيدة . ولكنه لم يظهر فى محيطنا بعد ذلك . وعرفت من أصدقائى الذين يعرفونه جيدا أنه يعيش فى شقته هذه وحيدا تماما ولم يسع إلى امتلاك خط تليفونى ولا يفتح باب شقته لأحد ويخدمه خادم لبضع ساعات ثم ينصرف .

عكف جمال حمدان على فكرته وراح يتوسع فيها حتى حولها إلى أربعة مجلدات كبرى ربما تعدت صفحاتها أربعة آلاف صفحة . وكانت رسالة الكتاب إلى قرائه أن شخصية مصر تبلغ من العظمة أقصى مدى . وراح يعرض التاريخ كما لو كان طبقات جيولوجية تتراكم طبقة وراء أخرى، محاولا إثبات ما سماه بعبقرية المكان .

وهكذا أصبحت مصر الجغرافية كائنا يتسم بالعبقرية، وولدت لها شخصية تكاد تكون منفصلة عن ناسها . وأظن أن هذا كان تعبيرا عن محاولة فصل مصر عن شعبها وإمكان التغنى بها بشكل تجريدى باعتبارها مكانا جغرافيا فذا . وهو ما كان يحدث بالفعل على مستوى الفكر أو الثقافة السائدة لدى المصريين منذ بدايات الحركة الوطنية فى أوائل القرن العشرين وإلى ثورة سنة ١٩١٩ وربما إلى اليوم .

وساق جمال حمدان الأدلة (التاريخية) على أن عظمة المكان هى التى أدت إلى نشوء الحضارة الفرعونية وسائر النهضات التى مرت بها مصر . وقد قال ذلك فى قالب من "البحث العلمى" الذى يتسم بالحياد الموضوعى ولكن بأسلوب ملىء بالانفعال والحماسة اللغوية .

كتب الكتاب بعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧، وما أحدثته من إحباط مفاجئ بلغ حد اليأس وكراهية الذات لدى غالبية المصريين، بحيث ظنوا أنهم مهزومون ومتخلفون بسبب طبيعتهم العرقية وليس بسبب أخطاء القيادات . ويبدو أنه عندما تفقد الشعوب ثقتها فى نفسها ينحل ترابطها النفسى والأخلاقى . ومثلها مثل الفرد تفقد مبررات احترامها لنفسها، فتسقط فى الرذائل وكأنها تعاقب نفسها وتتحلل من كل قيمة . وفى هذه الفترة ظهرت الأغانى المخنثة والتسيب الأخلاقى وانتشرت المخدرات وانفكت المنظومة الأخلاقية وانفلتت المعايير .

فى مثل هذه الظروف يكون رد الفعل على هذا الخطر الماحق بطريقتين : إما بمواجهة كل ما حدث ونقده واكتشاف الأخطاء ثم العمل على إعادة البناء والتغلب على أسباب الهزيمة؛ وإما بتقوية العزيمة بالاعتزاز بالنفس وبتاريخها وبث الحماسة فى النفوس . وخطورة الاتجاه الثانى هو أن تنسب الهزيمة إلى ظروف خارجية ويتولد نوع من المكابرة وتجاهل الأسباب الحقيقية، وتبقى الأخطاء وخوار العزيمة كما هو فى الحقيقة وتستمر الأزمة لفترة أخرى . والحق أن كتاب جمال حمدان كان يقدم الحل الثانى . وقد جاء فى وقته ليعيد الثقة إلى المصريين وفى مقدمتهم مثقفوهم . وقد قرأت لبعض كبار الكتاب وصفا لكتاب "شخصية مصر" على أنه سفر عظيم من الأسفار الكبرى . ولكنه فى الحقيقة كان تعويضا عن عقدة الشعور بالنقص بالادعاء بالتفوق بدلا من معالجة مشاكل النقص .

والمؤسف أن الحركة الثقافية المصرية استنامت لهذه المقولات التى جاء بها الكتاب، وتوقف النقد وتوثقت روح الطنطنة والتفاخر والمكابرة . وعلى الرغم من الإصلاحات التى جاء بها السادات فى الجيش إلا أن الأوضاع الداخلية لم تناقش بجدية وظل النظام السياسى كما هو سلطة تستند إلى الجيش دون أن تستند إلى اختيارات الناس الحرة . ودون أن تستفيد من التقسيم الثلاثى أو الرباعى الذى جاءت به الديمقراطية . بل إن السلطة الرابعة (الصحافة) ظلت أداة فى يد الحكومة، وظل الإعلام يمتدح كل التصرفات وكل الشخصيات المتنفذة دون أى نقد حقيقى يصحح به المجتمع أخطاءه . بل أصبح النقد عدوانا على مقدسات لا يجوز العدوان عليها . وإذا كان هذا النقد من الخارج فانه يعتبر سبا لمصر وتصغيرا لها فى عيون

الأجانب، وقد يصل الأمر إلى درجة الخيانة . ولذلك قررت التوقف عن الكتابة وتفرغت تماما للتدريس وملأت أكاديمية الفنون العراقية حياتى .

ولست أذكر متى جاء محمد أنيس إلى العراق أيضاً . إذ سرعان ما انضم إلى كلية الآداب بجامعة بغداد وراح يدرس التاريخ الحديث . وكان قد سبقنا إلى العراق زملاء مجلة "الكاتب"، نبيل زكى وجلال السيد فضلا عن أصدقاء آخرين من الصحفيين النابهين وأساتذة الجامعة . وعوملنا جميعا معاملة جيدة .

أدخلت أولادى المدارس المناسبة كما كنت قد اخترت بيتا قديما كان لوزير صحة سابق قبل الثورة، ولكنه أُخلى وأُهمل لحساب مشروع بناء ضخم للتليفزيون والإذاعة، ولأمر ما تأجل هذا المشروع، وتركت المنازل التى صودرت من أجله خاوية وخربة .

وكانت هذه المنازل المتروكة تحت سلطة طارق عزيز، الذى كان وزيرا للإعلام فى ذلك الوقت . وعندما علم أنى أبحث عن سكن قال لى : لماذا لا تذهب إلى هذا الموقع وتختار بيتا ؟ وبالفعل وقع اختيارى على هذا البيت، ولكنه كان فى حاجة إلى إصلاحات كثيرة . والواقع أنى تحملت نفقات إصلاح هذا البيت . ونفعنى فى ذلك صديقاى العزيزان بحق صلاح خالص وفيصل السامر، اللذان أقرضانى كل ما احتجت إليه من مال للإصلاح والتأثيث . وعندما وصلت أسرتى كان البيت جاهزا إلى حد ما .

كانت بغداد مدينة قديمة مختلفة عن القاهرة التى كانت حتى ذلك الوقت أشبه بمدينة أوروبية عصرية إلى جانب أقسامها المملوكية العريقة . على أن البيوت فى بغداد كانت أشبه بالفيلات الصغيرة المحاطة بالحدائق . وكان العراقيون، حتى من أبناء الطبقة الوسطى، يسعون لامتلاك بيت مستقل . وكان من النادر أن تجد عمارات سكنية عالية وشققاً للإيجار . ولأمر ما، كانت صناعة أثاث المنازل قليلة جدا وليست جيدة على الإطلاق، ولعلهم كانوا يستوردون الأثاث من الخارج . وأذكر أن فراش مجلة الكاتب كان له ولد يعمل بالنجارة، فوجئت به وقد جاء إلى العراق، وعمل فى بغداد، وهو الذى صنع لى مكتبا ومكتبة وربما سريرا أيضا . وكان نجارا عاديا متوسطا أو حتى أقل من المتوسط ولكنه كان فى بغداد صانعا مهما . وظلت غرفة الجلوس فى بيتى سيئة جدا، إلى أن دعت الحكومة العراقية عددا من صناع الأثاث من مختلف أنحاء العالم، وأقامت معرضا كبيرا للأثاث . ومن هذا المعرض اقتنيت غرفة جلوس من فنلندا كانت بالغة الجمال، وظلت مفخرة فى هذا البيت إلى أن غادرت العراق .

لم أكن بعثيا، بل لعلى كنت ناقدا لفكر البعث، ولكننى كنت وحدويا . مع ذلك فقد دخلت إلى عالم الثقافة عن طريق التراث العربى والإسلامى . ويبدو أن الفترة التى تنبهت فيها إلى الحياة والثقافة كانت بعيد الحرب العالمية الثانية، والتى انضممت فيها إلى الحركات الشيوعية السرية، واندمجت فى الحركة الوطنية، التى عمادها هو حركة التحرر الوطنى . وكانت كراهيتنا للاستعمار، ومواجهة جنوده ومصفحاته فى مظاهرات ميادين القاهرة، تدفعنا للتمسك بقوميتنا، وربما للتعصب لها، وتدفعنا بالتأكيد إلى الإحساس بأننا مختلفون عنهم.

وهكذا كان شعورنا بالانتماء القومى قويا والغريب أن هذا لم يشكل تناقضا فكريا عندنا على الرغم من النزعة العالمية التى تفرزها الثقافة الماركسية فى المنتسبين إليها، وتفسيرها الطبقى للانتماء . على أننا فى مجلة الكاتب، كنا قد أدركنا أنه من الضرورى أن نعمل على

إزالة التناقض ما بين النزعة القومية والانتماء العالمى . وقد فعلنا ذلك من خلال مجموعة من الدراسات قام بها كتاب ماركسيون فى الأساس، اشتغلوا بالقضايا الوطنية والقومية فى إطار ما يمكن أن يسمى بالثورة العالمية .

وكانت الدعاية الشيوعية فى روسيا قد ركزت على الانتماء الوطنى أثناء الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد الخصومة التى نشبت بين تروتسكى وستالين بعد وفاة لينين، وتبنى ستالين الفكرة الوطنية والثورة الاشتراكية فى بلد واحد، ثم استيعاب القوميات فى محيط واسع من الوحدة . وأظن أن كتابات كتاب الكاتب فى هذا المجال هى التى شدت انتباه البعثيين الشباب والذين كان أغلبهم فى معتقلات أو سجون العراق آنذاك .

فى الخمسينيات جاء ميشيل عفلق – مؤسس حزب البعث – إلى القاهرة. وأذكر أنه زارنا فى مجلة صباح الخير واستقبله أحمد بهاء الدين، الذى كان أكثر منى ميلا إلى الفكر البعثى، وسلمت عليه وجلست معهما أستمع إليه . كان رجلا رقيقا مهذبا واسع الثقافة بغير شك . على أن ما قرأته له قبل ذلك لم يشدنى إليه ولم أستطع أن اعتبره عملا علميا مقنعا . وكان لحزب البعث نشاط فى مصر فى ذلك الوقت . وقد اجتذب إليه بعض المثقفين المصريين ومنهم بعض الأصدقاء والمحيطين بنا بشكل عام . ولكننى كنت أنتقد الفكر البعثى وأربط الفكرة القومية بالمشروع البورجوازى للوحدة، قياسا على النقد الماركسى الذى ينسب النزعة القومية إلى سعى الطبقة البورجوازية لتوحيد السوق وربطه بعضه ببعض . وهو أمر لم يلتفت حزب البعث العربى إلى تفسيره فى ذلك الوقت .

ومن المفارقات المزعجة إلى حد ما أن أحد أصدقائنا المصريين هؤلاء هو الدكتور يحيى الجمل، دُعى إلى العراق لإلقاء محاضرة فى معهد تابع لجامعة بغداد للدراسات العليا فى الاشتراكية وكنت أحاضر فيه . وحضرت بالطبع محاضرات الدكتور الجمل الذى بدأ يحكى عن تاريخ انضمامه للحركة البعثية فى القاهرة، وأشار إلىّ قائلا للطلبة الحاضرين وأساتذتهم، أننى فى ذلك الوقت كنت أهاجم أفكار حزب البعث هجوما عنيفا . قال ذلك مازحا فحدث شىء من الاضطراب فى القاعة والتفت الجميع إلىّ، ولكننى ضحكت ولم أعلق . والحق أننى لم أزعم فى يوم من الأيام أننى بعثى . وكان على العراقيين أن يقبلونى على هذا الأساس أو يرفضونى .

وقد بدأت الفكرة القومية فى سوريا فى أربعينيات القرن الماضى، وربما كانت رد فعل للنزعة القومية التركية، التى انسلخت عن الرابطة الإسلامية وتذرعت بالفكرة القومية . وكان العرب منذ وقت مبكر حتى قبل انسلاخ تركيا عن الجامعة الإسلامية يتحدثون عن الرابطة القومية العربية وكان من الطبيعى أن يتحمس لها المسيحيون العرب الذين كانوا يبحثون عن رابطة غير دينية تربط الشعوب العربية . على أنه فى تلك الفترة كانت الأفكار القومية منتشرة فى العالم وتعتبر قاعدة أساسية للفكر النازى والفاشى بشكل عام . وقد انتشرت هذه الأفكار فى مصر، ونشأت للدعوة لها بعض الحركات السياسية، مثل مصر الفتاة وبعض شباب الحزب الوطنى . وقد كان هذا مفهوما إلى حد ما فى مصر بسبب الضخامة النسبية للسكان فيها، وما اكتسبته الوطنية من أنصار بسبب الحركة الوطنية وثورتها الكبرى فى سنة ١٩١٩. وكان من السهل بطبيعة الحال أن يتقبل بعض الشباب المثقف فى مصر توسيع دائرة الانتماء الوطنى

إلى الدائرة القومية. وبالنسبة لسوريا كانت الفكرة القومية جاذبة للكثير من القوى الشعبية؛ ففيها نسبة من المسيحيين أعلى مما هى عليه فى مصر . كما كان نضالهم ضد استبداد الحكم التركى قد ربط بينهم ووحدهم فى مواجهة هذا الاستبداد الذى كان يتستر بالإسلام .

ولكن بالنسبة لنا، كانت الوطنية المصرية كافية، وكانت بالفعل حلا لمشكلة الانتماء فى الوسط المسيحى . وفى الحركة الوطنية المصرية كانت الديمقراطية والفكر الليبرالى بشكل عام هو الفكر الشائع، وبها وفيها تحققت فكرة المواطنة للجميع، واتسع إلى حد ما، مفهوم التعددية وتداول السلطة وحرية التعبير والاعتقاد وغلبة الفكر العلمانى على التفكير الدينى . وكنا نسعى بالفعل إلى شىء من الحداثة فى الفكر وتحرير العقل من الوصاية التى يفرضها المفهوم الضيق للاعتقاد الدينى سواء على الجانب الإسلامى أو المسيحى . لهذا لم تكن فكرة الوحدة العربية ضرورية بالنسبة لغالبية المصريين فى ذلك الوقت، ولكنها أيضاً لم تشكل عقبة تعترض الفكر السائد . ولعلها بدأت تنتشر بسبب التطورات التى حدثت بعد الحرب العالمية الثانية، حيث راح العالم يتشكل فى كتل، ثم تحت مسميات مثل العالم الأول والعالم الثانى والعالم الثالث . وكان من الطبيعى أن يبحث المصريون عن تكتل أوسع من المساحة الوطنية القطرية، وأن يتجهوا إلى الفكرة القومية ويرتبطوا بها . وكانت هناك أشياء كثيرة مرتبطة مثل اللغة والثقافة والتاريخ المشترك . وبالنسبة لشخص مثلى كان أبطاله التاريخيون عربا من خلال قراءاتى الدينية والتاريخية والأدبية، كان من الطبيعى أن يتكون لدى إحساس بالانتماء العربى إلى جانب انتمائى المصرى . وأظن أن هذا كان موقف الكثيرين من أبناء جيلى .

لذلك لم يكن لدى مشكلة مع الفكر البعثى خاصة من ناحية القومية والانتماء. كان خلافى فى الفكر الاجتماعى وفى الحلول الاقتصادية والاجتماعية . ولكن حزب البعث راح يطور نفسه ويضيف إلى شعاراته الاشتراكية . ولم يبق من خلاف بين الاشتراكيين والوحدويين البعثيين إلا شىء مضحك، هو أيهما أسبق فى الترتيب، الوحدة أم الاشتراكية !! إذ كان شعار حزب البعث هو : "الحرية والوحدة والاشتراكية"، بينما كان الاشتراكيون يعتقدون أنه عند تحقق الاستقلال تطبق الاشتراكية ثم تليها الوحدة . ولكن الحقيقة أن الفريقين لم يثقا مطلقا فى بعضهما البعض وكانت الأرضية التى انطلق منها الفكر البعثى مختلفة تماما عن الأرضية التى جاء منها الفكر الماركسى الاشتراكى .

لم أنضم إلى البعث، ليس بسبب مثل هذا التلاعب بالكلمات بل لأسباب أخرى. إذ كنت فى الحقيقة متشبعا بالنظرة العالمية وكان انتمائى المصرى والعربى والإسلامى جزءا من التركيب الكلى لسكان هذا العالم ولا يشكل لدى أية مشكلة تعوقنى عن الانتماء الأوسع للإنسانية كلها . كيف جاءتنى هذه الفكرة وكيف ترسخت فى نفسى حتى أصبحت أفكر فى حياتى وتاريخى ومستقبلى على هذا الأساس ؟ لست أدرى بالضبط . هل هى النزعة العالمية للفكر الماركسى الاشتراكى الذى كانت تأويلاته لتاريخ العالم على أسس عالمية ؟ هل لتعدد المصادر التى تلقيت منها معلوماتى وموقفى فى الحياة ؟ والغريب أننى حتى فى سنوات الحياة المبكرة كان لدى استعداد كبير لتفهم الخلافات بين الناس والتسامح بشأنها وكان لدى ميل قوى نحو العقلانية ولم احتج إلى جهد أثناء قراءاتى الأولى للفلسفة الإسلامية لكى أنحاز إلى ابن رشد على حساب الغزالى على الرغم من هيمنة فكر الغزالى على الثقافة السائدة فى مصر والعالم العربى فى ذلك الوقت .

وربما لم أنضم إلى حزب البعث لأننى أيضاً لم أكن فى طبيعتى رجلا سياسيا أو لشعورى أن فى هذا الانضمام وأنا خارج مصر شبهة المصلحة . لاشك أن هناك أسباباً كثيرة . وعندما كثرت محاولات الشبان الصغار من أعضاء البعث «تجنيدى» فى الحزب، تحدثت إلى غانم عبد الجليل أو طارق عزيز ضاحكا، فكانا من الذكاء بحيث أُعطيت تعليمات لكوادرهما بأن يبتعدوا عنى . وبالفعل تقبلونى على هذا الأساس، وهذا أعطانى شيئا من الحياد يسمح لى بإبداء الرأى دون حرج كلما ناقشنى شخص أو جماعة فى موضوع من الموضوعات الجارية . والغريب أن هذا كان موقف جميع الزملاء المصريين من الذين عملوا فى الكاتب وفى مقدمتهم محمد أنيس ونبيل زكى وجلال السيد .

ومع مرور الوقت توثقت علاقتى بالكثير من قيادات الحزب الذين كانوا يتولون مناصب قيادية وبعضها وصل إلى حد الصداقة الوطيدة . وكنت بحكم هذه الصداقة، عندما تُطرح أمامى خلافات هذه القيادات، كنت على الفور لا أتدخل أو أبدى رأيا، بل كنت حريصا رغم حبى لبعض هؤلاء الأصدقاء على ألا يشركونى فى عدائهم لبعضهم البعض أو لتحالفاتهم .

وأذكر أنه عندما حدث الانقسام فى صفوف الحزب، حين أراد صدام حسين أن ينحى رئيس الجمهورية ورئيس الحزب، أحمد حسن البكر، أن دعانى غانم عبد الجليل وبعض أفراد أسرتى إلى قضاء إجازة آخر الأسبوع فى الحبانية، حيث كانوا قد أنشأوا مسبحا كبيرا وأحاطوه بفيلات جميلة، خصوا كل واحد منهم بواحدة منها . كانت هناك عدة موائد حول المسبح وجلست بالصدفة إلى واحدة منها . وبعد قليل جاء طارق عزيز فجلس معى، بينما كانت زوجتى مع زوجة غانم والأولاد يسبحون أمامى فى المسبح .

وكانت الثورة الإيرانية قد حدثت وأسقطت الشاه، وكنت سعيدا بهذا، ولكننى وجدت العراق يهاجم الثورة، وكنت قد قرأت مقالا بغير توقيع ينتقد بعنف هذه الثورة، على أننى خمنت أن الكاتب هو طارق عزيز لمعرفتى بأسلوبه . ولما سألته فى هذه الجلسة إن كان هو كاتب المقال، أجابنى بالإيجاب . وجرى بينى وبينه حديث طويل أردت فيه _ فى الحقيقة _ أن أتفهم لماذا يعارض نظام ثورى كالنظام العراقى الثورة الإيرانية . أفادنى النقاش فى إدراك الحساسية الشديدة للنظام فى العراق أيا كان هذا النظام لما يحدث فى إيران وتأثير ذلك على العراق. وكان من الطبيعى أن يخاف النظام العراقى العلمانى من ثورة دينية، فهو نظام للسنة فيه اليد الطولى . وهو على الرغم من طبيعته البوليسية والأمنية الشديدة، يعرف هشاشة الأيديولوجية التى يعرضها أمام الاعتقادات الدينية وخاصة فى جانب الشيعة . وكانت الثورة الإيرانية ثورة شيعية بالطبع وسبقتها كتابات عديدة متعلقة بتجديد العقيدة ونقد نظام حكم الشاه والدعوة إلى تصورات جديدة تستند إلى المرجعية الدينية .

لاحظت أن غانم عبد الجليل لم ينضم إلينا، خاصة وقد جاء بعض الأقطاب الآخرين وشاركونا فى الجلسة . ثم وجدته يخرج من فيلته ويشير إلى أن آتى، وعندما ذهبت إليه ودخلنا الفيلا، كانت زوجتى تريد منى شيئا ما لا أتذكره، ولعلى أجبتها ثم هممت بالانصراف، فصحبنى غانم إلى الباب وهو يهمس فى أذنى : "لا تجالس هذا الشخص . . إنه خائن" .

استمعت إلى هذا التحذير منتبها، ويبدو أننى لم آخذ هذا التحذير على محمل الجد ونسبته إلى الخلافات الحزبية وصراعات السلطة . ولكن عندما اقتربت من المائدة التى كنت

أجالس فيها طارق عزيز، وجدت أنه من الصعب علىّ أن أبتعد إلى مائدة أخرى، وأن فى مثل هذا التصرف شيئا من الطفولة لا يليق . ثم إننى ينبغى أن أنتهز الفرصة لأُعرِّف غانم بشكل عملى، أنه ليس من حقه أن يختار لى أصدقائى . وأننى فى العراق بعيد عن خلافاتهم، ولا أريد أن أتخذ أى موقف فى خصوماتهم . وأظن أن غانم قد أدرك ذلك وربما أقرنى عليه بينه وبين نفسه لأنه لم يحاول بعد ذلك أن يكرر ما حدث فى مناسبات شبيهة .

فى ذلك الوقت بدأت العلاقات تتحسن بين سوريا والعراق ودعت القيادة السورية إلى الوحدة بين البلدين، وكان من المفترض أن الحزب الذى يحكم البلدين حزب واحد هو حزب البعث العربى الاشتراكى وأن انقسمت قيادته بين البلدين . ولاحظت فى ذلك الوقت أن غانم عبد الجليل وأصدقاءه كانوا فرحين بعرض الوحدة . ولعلهم سعوا إليها سعيا . ولكن صدام حسين اعتقد أنه لو قبل الوحدة بشكل عملى فسوف يفقد منصبه، وكان حينذاك نائبا لرئيس الجمهورية . وكان عليه أن يخطط لإفشال مشروع الوحدة . ولعله اعتبر المتحمسين للوحدة هم أعداؤه .

على أن الأمور مضت بعد ذلك عادية إلى أن وجد صدام حسين الوقت مناسبا لخلع حسن البكر . ويبدو أنه لم يجد ترحيبا من زملائه، وكلهم من المجموعة التى تضم غانم عبد الجليل . وكنت أعرفهم جميعا، وأحسد العراق على أنهم مجموعة من الشباب المثقف والذكى والممتلئ بالنوايا الحسنة، والقدرة على التعلم والاستفادة من تجارب الحياة . ولم استبعد أبدا أنه لو جرت الأمور بشكل ديمقراطى وصار الرأى للجماعة وليس لزعيم فرد لأصبح العراق من أحسن البلاد العربية . وكنت قد عرفت من غانم عبد الجليل، الذى عين بعد تأميم البترول رئيسا لمجلس إدارة الشركة المؤممة، أنه بعد أن تسلم وثائق الشركة واطلع عليها، وجد أن العراق يعوم على بحر من البترول . وأن الاحتياطى العراقى يتساوى مع المخزون السعودى وربما يفوقه . وأن هناك مساحات كبرى لم يبدأ استغلالها بعد .

وكان الجهاز التعليمى يتحسن وكان هناك إدراك أن على العراق أن يندفع فورا نحو سياسة فاعلة للتنمية، وأن رأس المال الذى تحتاجه حركة تنمية واسعة متوافر فى هذا المخزون البترولى العراقى الهائل . وإلى ذلك الوقت كان أكثر من ٩٠٪ من دخل العراق يأتى من البترول بينما لا توجد صناعة أو حتى زراعة . وكان العراقيون يعرفون أن العراق فى الفترة العباسية كان يزرع حوالى ثلاثين مليون فدانا وأنه ما زال يملك هذه المساحة وإن كان جزء كبير منها قد تملحت أرضه للإهمال وسوء الاستعمال، وأنه من الممكن إصلاح هذه الأراضى . وكنا نحن المصريين نسمع من هؤلاء السياسيين أنهم سيستدعون من مصر ثلاثة ملايين فلاح للمشاركة فى الثورة الزراعية والاستيطان أيضاً لمن يريد منهم . وقد حدث شىء من هذا بالفعل بعد ذلك

فى الفترة من سنة ١٩٧٥ حتى انتهاء السبعينيات تقريبا، تحول العراق إلى نقطة جذب للعديد من المثقفين العرب . وكان المشروع القومى الذى راح يتكون طوال عهد الثورة المصرية منذ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، قد تطور إلى مشروع عربى مسنود بالفكر الناصرى، الذى راح يتكون بين شد وجذب. وكان فيه شىء من العنف والمصادمات أيضاً . إلى أن بدأت التحولات الاشتراكية، وكما سبق أن قلت جاءت حرب سنة ١٩٦٧ لتوقف هذا المشروع، خصوصا وأن

تحولات إيجابية إلى حد ما قد حدثت فى مجال التنمية الاقتصادية، مثل انتهاء مشروع السد العالى، ثم مشروعات السنوات الخمس . وكان الثانى منها قد أوشك أن يصل إلى نهايته . وعلى الرغم من هـزيمة ١٩٦٧ إلا أن الأمل فى الإصلاح والتغلب على الهزيمة كان يراودنا . وكانت مقدمات حرب الاستنزاف ومحاولة إعادة بناء الجيش، كل ذلك كان يشجعنا على مواصلة التحدى ضد المشروع الصهيونى ومسانديه فى الولايات المتحدة .

على أن السادات جاء وقلب المشروع رأسا على عقب . وعندما سافرت إلى العراق فى خريف سنة ١٩٧٥، كان من الواضح أن السادات يخطط للانسلاخ الكامل من المشروع القومى المصرى، الذى احتضنه جمال عبد الناصر . وكنا مازلنا نعتقد أن إصلاح مصر ممكن وأن عملية التنمية عن طريق مشروعات السنوات الخمس والاقتصاد الموجه بشكل عام مع تطبيق الوحدة العربية سوف يوسع الأسواق ويؤدى إلى ازدهار اقتصادى . وكان لهذا المشروع تأثير كبير على الشارع فى مصر والعالم العربى . لكن استرداد الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى حرب سنة ١٩٦٧، كان هو المطلب الأساسى، وصاحب الأولوية فى أى عمل وطنى . وكانت حرب سنة ١٩٧٣ بنصف انتصارها ونصف هزيمتها قد فتحت باب الجدل مع إسرائيل بمعونة الأمريكيين وما زالت المحاورات قائمة .

لم يكن لدينا حل واضح لمسألة الديمقراطية . ولعلنا كلنا أو بعضنا رحنا نظن أن انحياز جمال عبد الناصر للاشتراكية مكسب مهم ينبغى أن نتمسك به، ربما نجد حلا لمشكلة الديمقراطية . وفى ذلك الوقت استنمنا لفكرة أسبقية الديمقراطية الاجتماعية على الديمقراطية السياسية . بمعنى أن الإصلاح الاقتصادى على الأسس الاشتراكية مقدم على الديمقراطية السياسية . ولكننى أعتقد أن فكرة الديمقراطية لم تغب عن الأذهان خاصة وعمليات التطبيق الاشتراكى كانت تتعثر بشكل مثير للدهشة . وسوف أتحدث فيما بعد عن بعض الخبرات التى جعلتنى أشك فى عملية التنمية من أساسها .

عندما ذهبنا إلى العراق كان العراق يضع أمام الشعب مشروعا للنهضة قريب الشبه تماما بالمشروع المصرى أو قل إنه كانت هناك حركة شعبية واسعة على مستوى العالم العربى كله تقوم على الوحدة ونهضة كبرى تشمل الاقتصاد والثقافة والموقف من الاحتلال الإسرائيلى . وعندما بدأ السادات يقاوم هذا المشروع من ناحيته الاقتصادية والثقافية، بدا العراق مركزا بديلا للمركز المصرى السابق وأنه عن طريق مشاركته فى السعى لتحقيق المشروع من الممكن الانتهاء من مشكلة تحديث المجتمعات العربية وإعادة توزيع الثروات توزيعا عادلا . وهكذا استقطب النظام العراقى عددا كبيرا من الكتاب والمفكرين وأصبح بالفعل مركزا ثوريا بالغ الأهمية فى المنطقة .

وفى هذه الفترة عشنا مرة أخرى هذا الجو الثورى الملىء بالحركة والحلم بمجتمع جديد قوى وحر واشتراكى . وهو الجو الذى عشناه فى القاهرة فى الستينات، حيث كانت القاهرة ملاذا لكل القوى المعارضة المؤمنة بالمشروع القومى العربى، سواء من كانوا يحاربون الاحتلال الأجنبى، أو يسقطون الأنظمة الرجعية. وامتلأت المقاهى والأندية الثقافية بالثوار العرب من كل البلاد . وبالتالى نشأت لنا صداقات مع غالبية العاملين بالسياسة أو الثقافة فى العالم العربى كله . وكذلك صارت القاهرة قوة جذب للكثيرين من العالم الغربى ليشهدوا تحولاتها

وجدلها السياسى . ونوقشت على موائد القاهرة كل قضايا العالم العربى . وانفتحت أمامنا نحن المصريين صورة هذا العالم بكل تفاصيلها الدقيقة من خلال أحاديث ونقاشات ممثلى البلاد العربية المختلفة . وما من زعيم وطنى ظهر بعد ذلك فى هذا البلد العربى أو ذاك، إلا وكانت لنا به صلة، ابتداء من علال الفاسى والحبيب بورقيبه، إلى أحمد بن بيللا وهوارى بو مدين وصالح بن يوسف وميشيل عفلق وغيرهم كثيرين يستعصون على الحصر .

عدنا مرة أخرى إلى هذا الجو البالغ الحيوية . وكان لدى العراقيين رغبة فى أن يرثوا المشروع المصرى وأن يمضوا به . وكان صدام حسين يؤهل نفسه للحلول محل عبد الناصر، ولكنه كان يفتقر إلى الكاريزما التى كان يتمتع بها عبد الناصر. وكان شبه عييّ حين يخطب، وإن كان يتمتع بقيادة حزب له قواعد منتشرة فى كل مكان، منذ بداية الانقلاب البعثى على عكس عبد الناصر الذى تحرك بتنظيم للضباط لم يزد عدد أعضائه على تسعين ضابطا .

وكان الطابع القبلى فى العراق محسوبا فى الحساب السياسى، وهو شىء لم نعرفه فى مصر . فلم يكن للعائلات المصرية إلا تأثير ضئيل، بينما تلعب العلاقات القبلية فى العراق دورا ملحوظا، وهو الذى كان أضفى على سلوك صدام حسين شيئا من الغرابة بالنسبة لنا كمصريين .

كنا بالطبع نلتقى مع الكثير من المثقفين العرب الذين اجتذبهم النظام العراقى ومشروعه القومى . وازدادت معرفتنا بالمجتمعات العربية . على أننى كنت إلى ذلك الوقت أركز اهتمامى فى أدب المسرح بصفة خاصة، وهى المادة التى كنت أدرسها فى أكاديمية الفنون العراقية . على أن صداقة جيدة ربطت بينى وبين اثنين من مفكرى البعث، هما إلياس فرح، الذى كان نسيبا أو قريبا لميشيل عفلق، ثم عبد الرحمن منيف الذى كان مستشارا اقتصاديا لصدام حسين وهو بعد نائب للرئيس .

كان إلياس فرح رجلا سوريا لجأ مع ميشيل عفلق وعدد من مؤسسى حزب البعث السورى إلى العراق بسبب الخلافات التى نشبت بين أعضاء الحزب فى سوريا وأدت إلى الانقسام وإلى اعتقال من اعتقل أو اغتيال من اغتيل . ويعتبر إلياس، المفكر والمفسر لأفكار الحزب . كان يحاضر فى الجامعة ويؤلف الكتب، محاولا أن يقدم صياغة علمية للأفكار الرئيسية للحزب . إذ كان الفكر الشائع أشبه بمقولات لقائد الحزب، وكانت على الأرجح تحتاج إلى إعادة صياغة . وهو ما حاول أن يفعله إلياس فرح مستفيداً من المنهج الماركسى . وكنت أقرأ كتابات إلياس فرح فأشعر بالقلق، بسبب صعوبة تطويع الأفكار الأساسية للحزب للصياغات الحديثة . ولكنه كان رجلا رقيقا مخلصا فى اتجاهاته وكان عليه - بشكل أو بآخر - أن يستقرئ الاتجاهات الحقيقية لقيادة الحزب، التى كانت فى الواقع مركزة فى صدام حسين، حتى قبل أن يصبح رئيسا، حتى لا يصطدم بها فى كتاباته الغزيرة . والواقع أن الحياة فى هذه الظروف كانت صعبة على المفكر؛ إذ كانت كل كلمة تراجع وتستنتج منها استنتاجات قد لا تكون خطرت على بال قائلها . وكان البعثيون قد راحوا يزجون فى السجون أو يقتلون . وبدأنا بالفعل نسمع بين يوم وآخر عن عضو بارز فى الحزب العراقى قد قتل لأنه كان يدبر اغتيالا لحسن البكر وصدام حسين . وكان على مفكر مثل إلياس فرح أن يراعى كل ذلك .

كنت فى الواقع أتحرك فى أغلب صداقاتى فى العراق مع محمد أنيس وخاصة فى المجال الثقافى وكانت علاقاتنا بعبد الرحمن منيف قد توطدت حتى أننا كنا نلتقى كل أسبوع تقريبا . وكان منيف قد انحدر من أب سعودى وأم عراقية وكان متزوجا من سيدة سورية . وكان قد بدأ

يكتب الرواية وأظن أننى كنت قرأت له رواية "شرق المتوسط" قبل أن آتى إلى العراق . وكانت رواية جيدة تبشر بكاتب موهوب بغير شك . وكان فى ذلك الوقت عضوا فى القيادة القومية للحزب .

على أننا بعد قليل بدأنا نتعرف على الارتباكات الكثيرة التى كانت تعوق النظام العراقى عن أن يكون قائدا لتحول نهضوى فى العراق وفى العالم العربى . وكان عبد الرحمن منيف قد بدأ ينفر ويقلق من التوجهات الديكتاتورية فى الحزب . ومن نقده وملاحظاته من داخل الحزب، بدأنا نعرف أن مهمة الحزب الأولى أصبحت أشبه بجهاز ضخم للمخابرات . إذ كانت تعاليم الحزب تقضى بأن على العضو أن يبلغ عن أى شىء يمس أمن الحزب حتى لو كان هذا الشىء متصلا بالأب أو الأخ أو القريب .

وهكذا تحول الحزب دون مبالغة إلى جهاز أمنى أكثر منه جهازا سياسيا . وعندما ترك منيف مكتبه فى القصر الجمهورى ليصدر مجلة شهرية عن البترول عرفنا أن خلافه مع النظام لم يعد خافيا . وبالفعل بعد قليل ذهب إلى فرنسا وعاش فيها بعض الوقت ثم تركها ليعيش بقية حياته فى دمشق مع زوجته وأم أولاده السورية وتفرغ كلية لكتابة الروايات وأظنه صار من أهم كتاب الرواية العربية بعد ذلك .

كنت أيضاً قد ركزت نشاطى فى العراق فى الأكاديمية ومتابعة المسرح وكانت علاقتى بفنانى المسرح العراقيين قد توطدت وكان فيهم فنانون ممتازون . وفوجئت بقرار بتعيينى فى لجنة المسرح والسينما التابعة لوزارة الإعلام، التى كان طارق عزيز وزيرا لها . وبالفعل وضعت همى فى عرض أحلامى بالنسبة للمسرح أمام اللجنة والعمل على تنفيذها . كنت فى القاهرة عضوا فى اللجنة العليا المشرفة على الفرق المسرحية . وكنت أيضاً عضوا فى لجنة المسرح القومى، وكانت لنا أحلام عريضة بمسرح متطور . وعندما عينت عضوا فى لجنة المسرح العالمى بمصر، مشاركا لمجموعة كبرى من محبى المسرح واختصاصيه، وقفنا وراء مشروعات الترجمة التى صدرت تباعا والعروض الناجحة للمسرحيات العالمية الحديثة، واستطعنا بالفعل أن نضع الجمهور المصرى على نفس المستوى مع الجمهور فى أوروبا وأمريكا . وعرف المصريون الأعمال الحديثة وقرءوها وشاهدوها على المسرح . عرفوا برتولد بريخت ويوجين أونيسكو وبيتر فايس ودورينمات وغيرهم من الكتاب الذين حاولوا التجديد فى المسرح . قلت لنفسى هاهى ذى فرصة أخرى للمشاركة فى عمل نهضة مسرحية . والواقع أننى كنت أعيش بشكل كامل فى هذا الجو المسرحى سواء فى الأكاديمية أو فى النشاط المسرحى وهأنذا أجد نفسى فى قلبْ اللجنة المنوط بها التخطيط للمسرح العراقى .

لم تكن اللجنة مختصة بالمسرح فقط بل بالسينما أيضاً . وفى اللجنة وجدت صديقى توفيق صالح المخرج السينمائى المصرى الذى كان قد جاء إلى العراق هو الآخر. كتبت ورقة للجنة تشمل أغلب أحلامى بالنسبة للمسرح وكذلك فعل توفيق صالح بالنسبة للسينما وكانت ورقة جيدة بالفعل وقد احتضنت اللجنة الورقتين واعتبرتهما أساسا لمشروع نهضة للمسرح والسينما معا . ولكن بعد عدة جلسات، وجدنا أن المقصود بالتخطيط للمسرح أو السينما، هو السير بهما فى اتجاه الحزب ومقولاته، وأن ما نتخذه من قرارات يخضع لمراجعة الوزير وتعليمات الحزب . وأظن أننى لم أنجح إلا فى رفع أجور التأليف المسرحى، الذى كان فى حدود مائة وخمسين دينارا فجعلتها خمسمائة دينار .

٢٤
فى قلب المواجهة

اكتشفت أنا وزملائى المصريون، وبصفة خاصة زملائى فى إصدار مجلة «الكاتب» أن النظام العراقى ليس بديلا عن المشروع المصرى، وأن المشكلة الأمنية هى مفتاح العمل السياسى كله فى العراق وهو الشىء نفسه الذى كان فى مصر، ولكننا لم نيأس بعد . وأذكر أننى وضعت فى لجان أخرى وكانت اللجنة تناقش قضية ثم تتخذ قرارا ولكن بعد قليل يأتى مسئول كبير فيهمس فى أذن رئيس اللجنة فإذا به يطالبنا بتعديل القرار إلى ما همس به هذا المسئول الكبير وبلغ الأمر أحيانا أن هذا المسئول كان يقول لنا جميعا بصوت عال أن القيادة العليا ترى فى هذا الموضوع شيئا آخر، فيتحول القرار فورا إلى ما قاله هذا المسئول ودون أى تردد . وكانت هذه اللجان متعلقة عادة بتنظيم مؤتمر ثقافى أو ندوة فكرية .

على أن الحدث الذى هز كياننا هو سفر الرئيس «السادات» إلى إسرائيل واستقباله فى الكنيست وإلقاؤه خطابا أمام المجلس الإسرائيلى . لم يخطر على بالنا على الإطلاق أن هذا سيحدث ولكن هانحن نراه أمام أعيننا على شاشة التليفزيون . لم اقتنع أبدا بأن من حق منتسبين إلى أى ديانة أن يحتلوا أرضا لقوم آخرين وأن يقيموا عليها دولة . ولم اقتنع بأن من حق الأمم المتحدة أو منظماتها أن تفرض على أرض شعب شعبا آخر دون موافقة هذا الشعب ومازلت إلى الآن أعتقد أن إنشاء إسرائيل بهذه الصورة قد دمر النظام الأخلاقى الذى جعل العدل قيمة مطلقة أساسية للجنس البشرى، وأن هذا الخروج عن تلك القيمة العليا خلخل الكون البشرى وأنه لن يستقيم إلا بتصحيح هذا الخطأ، وهو شىء أشبه بالتراجيديا اليونانية إذ يجعل التصحيح ضرورة كونية . وكثيرا ما أراجع نفسى هل اتخذت موقفى هذا بناء على كراهية عنصرية ؟ ولكننى لا أجد لدى شيئا من هذا على الإطلاق . نعم أننى منذ الصغر كنت أكره الهولوكوست وأرفض كل ما جرى لليهود فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية لكننى لم اقتنع أن الحل هو ما حدث على أرض فلسطين وهانحن نرى أنه على الرغم من مضى أكثر من خمسين سنة على إنشاء الدولة الإسرائيلية لم تزل المنطقة مشتعلة ولم تتوقف الحروب واستنزاف الثروات وسفك الدماء وكل الشقاء الذى نعانى منه فى المنطقة فضلا عن التدهور الأخلاقى الذى سقطت فيه قيادات سياسية فى أرقى الدول الديمقراطية فأصبحوا يجحدون الحقيقة ويكيلون بمكيالين حتى فقد الناس الثقة فى حكامهم . كما جرت حملات واسعة

لتبرير هذا الخطأ ولتراكم المزيد من الأكاذيب والخروج على أبسط المبادئ الأخلاقية لدرجة قلة الحياء . ومازلت اعتبر أن حل المشكلة اليهودية بالصورة التى تمت بها على الأرض الفلسطينية قد سمم جميع الآبار التى يشرب منها الجنس البشرى وسوف تؤخر تقدمه عقودا طويلة من السنين على الرغم من كل التطورات التى حدثت فى مفاهيم الناس عن حياتهم على هذا الكوكب .

كان البعثيون العراقيون أول من سمى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ حرب «تحريك» لا «حرب تحرير» وأنها تنطوى على تواطؤ بين السادات والحكومة الأمريكية . ولكننى لم أتصور أن يسوق أنور السادات الجنود المصريين إلى القتال وهو ينوى وقفه ولمجرد أن يجد مبررا للتفاوض الذى كانت ترفضه إسرائيل قبل الحرب .

حقا ظهر بعد ذلك فى الكثير من المذكرات التى كتبت بعد الحرب أن وزير الخارجية الأمريكية هنرى كيسنجر قد ناقش مع مبعوث السادات مسألة التفاوض مع إسرائيل للجلاء عن سيناء وأن كيسنجر قال أن مثل هذه المحاولة محكوم عليها بالفشل ما لم يحدث شىء على أرض الواقع يدفع إسرائيل إلى قبول التفاوض . ولكن هذا لا يعتبر دليلا على التواطؤ . وقد ظهر فيما بعد أن طاقة الجيش المصرى حينذاك لم تكن قادرة على قتال طويل الأمد يمتد إلى الحدود الإسرائيلية .

وفى العراق وبعد الحرب بقليل التقيت بالضابط المهندس الذى كان وراء هدم خط بارليف وهو سد ترابى كان العالم أجمع يعتقد أنه يستعصى على أية محاولة لهدمه وكان محصنا بطريقة تؤكد هذه الاستحالة . وكان العراقيون قد استدعوا هذا الضابط المهندس ليعمل معهم بعد انتهاء الحرب فى مصر . حدثنى الرجل عن فكرة هدم الجدار بخراطيم المياه الضخمة وأنهم فى مصر توصلوا إلى هذه الفكرة بعد دراسة مركزة وتبينوا أنه لا يذيب التراب ويهدم جباله إلا الماء . وبالفعل بدأ العمل فى إيجاد المعادلة التى تحدد حجم الخرطوم ومعدلات تدفق المياه منه وقوة اندفاعها . ولم تكن الصناعة فى مصر تملك القدرة على صناعة مثل هذه الخراطيم فلجئوا إلى ألمانيا التى تقبلت الموضوع على أنه خاص بإطفاء الحرائق ولم يخطر على بالهم أنه لهدم السد الترابى الضخم . كان المصريون يعرفون أن الجواسيس اليهود منبثون فى كل مكان وكان عليهم أن يخفوا خططهم خاصة حين التعامل مع الحكومات أو المصانع الأجنبية . قال لى المهندس أنهم أجروا تجربة على الأرض فى مصر لقياس قدرة المياه على إسقاط جبل التراب ونجحت التجربة وهكذا راحوا يصنعون هذه الخراطيم الجبارة، على أنهم وقبل أن يتسلموا كل الخراطيم المتعاقد عليها جاءهم الأمر بالهجوم فى ٦ أكتوبر وأن عليهم أن يكتفوا بما تسلموه من خراطيم . وهذا ما حدث بالفعل مما يدل على أن الإعداد للحرب لم يكن كاملا، ليس فى الخراطيم فحسب بل فى أشياء كثيرة أخرى . وكان على «السادات» أن يحرك الرمال الساكنة معتمدا على الوعود الأمريكية بالتدخل فى اللحظة الحاسمة ووقف القتال والبدء فى التفاوض .

طوال سنوات الحرب كنت فى مصر وكنت فى جريدة «الجمهورية» أجلس بالطبع فى حجرة ماكينات التيكرز التى تنقل رسائل وكالات الأنباء فى هذا الوقت دقيقة بدقيقة وقد قرأت استغاثات جولدا مائير للولايات المتحدة للتدخل لوقف القتال وبأن تنقل إليها دبابات جديدة بصفة خاصة بدل الدبابات التى دمرها الجيش المصرى وأن إسرائيل فى وضع بالغ الخطورة .

على أننى بعد كل ما حدث وخاصة فى موضوع الثغرة عرفت أن «السادات» دخل فى مغامرة كبرى مغريا الولايات المتحدة بأنه سوف يخرج من إطار الاستقطاب السوفييتى وسينضم إلى الولايات المتحدة . وكان هذا ثمنا غاليا فى ذلك الوقت إبان اشتعال الحرب الباردة وأظن أنهم قبلوه . وعلى الرغم من كل غضبى على هذه السياسة فى ذلك الوقت إلا أننى لم أستطع قبول أن ما حدث هو خيانة من جانب «السادات». وعندما ذهبت إلى العراق وكان موضوع المفاوضات مع إسرائيل مازال قائما لم أستطع تقبل فكرة الخيانة التى كان الكثير من قيادات حزب البعث الجديدة يعتقدونها، ولعلى أثرت دهشة الكثيرين منهم عندما رفضت فى غضب هذه الفكرة فى جلسة فى بيت صديق من المسئولين العراقيين، وكان وزير الخارجية العراقى . آنذاك . يحاول أن يفسر ما يجرى من أحداث من باب التواطؤ الخيانى .

سكت الجميع ونظروا إلى باستغراب ولعلى رحت أشرح وجهة نظرى وهى أن فكرة تحرير الأرض هى المسيطرة على فكر السادات، وأنه رأى أن طريقته لاسترداد الأرض هى الأنسب بمقتضى الظروف والأكثر فاعلية . كان الجالسون من مسئولى الحزب فى الوزارات المختلفة، وربما كان هناك ضيوف من لبنان أيضا . وكانوا جميعا من خيرة القيادات السياسية العربية وأظن أن صدام حسين قد صفاهم جميعا جسديا عند اصطدامه بمعارضتهم لانقلابه على أحمد حسن البكر ولعرقلته لعملية الوحدة مع سوريا .

ولكن زيارة السادات لإسرائيل كانت خارج تصوراتى وجعلتنى أعدل عن ابتعادى عن الكتابة فى السياسة وبالفعل كتبت مقالا نشرته جريدة «الثورة» العراقية بعنوان «الطريق إلى تل أبيب» فسرت فيه هذه التحولات على أسس اقتصادية منذ انقلاب «السادات» على التخطيط الاقتصادى وسياسة الانفتاح وهى التى كان تتطلع إليها قطاعات كبيرة من أبناء الطبقة الوسطى فى قلب النظام والتى استطاعت أن تكون مدخرات أثناء توليها السلطات فى عهد عبد الناصر، وفى السنوات الأولى لحكم «السادات» وأنه لا طريق إلى حريتهم فى التوسع فى استثمار أموالهم إلا بسياسة الانفتاح الاقتصادى وإنهاء الخلاف مع الولايات المتحدة وإسرائيل .

لم يقف الشارع المصرى ضد هذه السياسة بشكل ظاهر . ويبدو أن ثقة المصريين بهذه القيادات لم تكن كبيرة، ولعل انقلاب الانتصار العسكرى فى الحرب إلى هزيمة سياسية أقلقهم ونبههم إلى الخسائر البشرية الكبرى التى تكبدوها فى حروب ثلاث كبرى، فضلا عن الأموال التى أهدرت فى هذه الحروب. لقد وعدهم السادات بأن هذه الحرب هى آخر الحروب، ولعلهم أيضاً كانوا فى حاجة إلى استرداد أنفسهم .

عند واقعة ذهاب السادات إلى إسرائيل نشطت أجهزة الإعلام العراقية لاستطلاع آراء المصريين فى العراق فامتلأ بيتى بكاميرات التليفزيون لتسجيل أقوالى وكانت ضد الزيارة بطبيعة الحال . على أن مقدم البرنامج اتجه إلى زوجتى فسألها عن رأيها فإذا بها تقول : "إننى أوافق عليها وأوافق على الصلح . أنا ضد الحرب وعندى خمسة أولاد ولا أريد أن أفقدهم فى الحرب" .

أدهشتنى الإجابة لكنها نبهتنى إلى الجانب الآخر من الموضوع . فها هى حروب ثلاث أفقدت الكثير من الأمهات والآباء أولادهم دون أن يطرأ أى تحسن على حالتهم ودون أن يستفاد من الأخطاء التى أدت إلى خسارة الأرواح والأموال ودون أن يظفر المواطن المصرى

بحقه فى الاحترام والرعاية من جانب الدولة . لم تكن هناك أحزاب ولا مؤسسات اجتماعية تحمى الأفراد، وكانت تلك السلطات مع ذلك تطالبهم بهذه التضحيات الكبرى بلا مقابل على الإطلاق . وكان من الطبيعى أن يسكت الشارع على انقلابات «السادات» وعلى زيارته لإسرائيل حتى يسترد أنفاسه بأمل أن تتصلح الأمور فى الداخل .

على أننى لم أر الموضوع من هذه الزاوية بل من زاوية انهيار المشروع القومى الذى كنا نحلم به منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وكان لدينا اعتقاد قوى بأن مصر قادرة بشىء من الإصلاح البسيط على أن تصبح دولة حديثة مزدهرة مثل أى دولة أوروبية خرجت من محنة الحرب العالمية الأخيرة . وعلى الرغم من التعثرات الكثيرة التى جرت بعد قيام الثورة إلا أننا كنا ندفع هذه القيادة إلى تصحيح الأخطاء وإلى توجيهها إلى أهمية الإصلاح السياسى وإشراك الشعب فى كل الأمور الجارية عن طريق تمثيل نيابى حقيقى . حقا لم ننجح فى شىء من ذلك لكن الأمل كان قائما دائما، ولكن هاهو ذا «السادات» ينكفئ على عقبيه ويقول بشكل مباشر أنه لا أمل فى مواجهة التحدى القائم فى المنطقة، إلا بالانضواء تحت ذراع الولايات المتحدة القوية ونسيان تلك المشروعات الطموح والبالغة الخطورة .

ويبدو أن القيادة العراقية رأت أن الفرصة مناسبة لتتولى قيادة التيار الثورى فى العالم العربى والعمل على إبعاد مصر . وبالفعل بدأ التفكير فى عقد مؤتمر قمة عربى وسط بيانات اشتركت فى التوقيع عليها مع محمد أنيس وعبد المجيد فريد وعبد الرحمن الخميسى وآخرين . وكان العالم العربى كله هائجا ضد سياسة المصالحة التى اتبعها السادات وأصدر المؤتمر قرارات بإبعاد مصر ونقل الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس وغيرها من قرارات المقاطعة .

وكانت أكثر من قيادة عربية تحاول أن تلعب دورا فى هذه المحنة وأنشأت ليبيا محكمة عربية لمحاكمة السادات ودعيت إلى الاشتراك فيها ولكننى رفضت لعلمى أنها مجرد دعايات سياسية ولشكى فى الكثير من الأنظمة العربية التى لم تظهر فى الحقيقة أى نزعة للمشاركة الديمقراطية أو احترام القوى الاجتماعية التى تخالفها . ولكننى قبلت أن أرأس الوفد المصرى فى مؤتمر عربى عقد بـ «ليبيا» وألقيت فيه الورقة المصرية التى كتبتها بالاشتراك مع «محمود أمين العالم» الذى كان عضوا فى هذا المؤتمر .

وقد قرأت منذ وقت قريب تصريحا لمحمود أمين العالم يقول : أنه كتب الورقة وأنا الذى قرأتها ولكن الصحيح أننى كتبت الورقة ولكن العالم جاءنى وكان قد أعد ورقة لتلقى فى المؤتمر أثناء تبليغه بالمؤتمر وهو فى منفاه بـ «باريس» .

وكنا ونحن فى ليبيا قد اجتمعنا كمصريين وجرى انتخاب شخص ليرأس الوفد المصرى وكان الاختيار قد وقع على . ولذلك عكفت على كتابة الورقة وعرضتها على المشاركين ووافقوا عليها، إلا أن العالم جاءنى ومعه الورقة التى كتبها فى باريس وكانت جيدة فعرضت عليه وعلى الزملاء الذين كانوا موجودين أن أدمجها فى الورقة التى كتبتها، وبالفعل انتقيت منها ما هو مناسب مع سياق الورقة التى كتبتها وربطتها معها وكانت نسبتها إلى كل مجمل الورقة الثلث تقريبا .

وقد نجحت الورقة تماما إذ كانت كل الأنظار موجهة للمصريين بصفة خاصة باعتبارهم محور قضية المؤتمر وصفق لها الحاضرون كثيرا . وكنا قد اخترنا عبد المجيد فريد ليرأس

المؤتمر لما له من خبرة في عقد المؤتمرات أثناء عمله مع جمال عبد الناصر الذى كان يوكل إليه تنظيم المؤتمرات التى كان يعقدها وكنت قد كتبت أيضاً الكلمة التى ألقاها «فريد» فى الافتتاح.

وأسفر المؤتمر عن لجنة دائمة تتابع ما يجرى فى مصر وتقوم بشىء من المعارضة المنظمة للمشروع الذى جاء به السادات على عكس ما كانت تجرى عليه الأمور . وانضممت إلى عضوية اللجنة الدائمة وأصبحت رئيسا للجنة الإعلام التى كانت مكونة من ثلاثة أشخاص وكان العضوان الآخران أحدهما عراقى هو فاضل الشاهر، الذى أصبح سفيرا للعراق بعد ذلك، والآخر فلسطينى هو فضل شرورو، وعكفت على كتابة ورقة لخطة إعلام المؤتمر بتفويض من الزميلين الآخرين، وأظن أننى . بعد محاولة لتحليل الموقف . اقترحت إنشاء إذاعة موجهة إلى الشعب المصرى بصفة خاصة لمتابعة مجريات الأمور وإعلام الجمهور المصرى ـ بصفة خاصة ـ بما يجرى على الساحة العربية والعالمية، وكذلك إنشاء مركز أبحاث للدراسات العربية يبحث فى تفاصيل السياسات الجارية وتصحيح ما فيها من أخطاء أو دعايات ثم إصدار مجلة ثقافية شهرية لمناقشة الفكر السياسى المطروح عربيا وعالميا .

عندما عدت إلى بغداد كانت هذه الورقة قد وصلت إلى المسئولين وفوجئت بأن لديهم رغبة فى تنفيذها بالكامل، وكلفت بالفعل بوضع خطة لتنفيذ الاقتراحات الواردة فيها . بالنسبة لمركز الدراسات شرعت فى وضع برنامجه وأقسامه واشترك معى أمين عز الدين الذى كان وكيلا لوزارة العمل بمصر قبل ذلك، وكان من الكتاب البارزين فى السياسة العمالية وكتب كتابا مهما فى تاريخ الطبقة العاملة فى مصر، وكان قد حصل على ماجستير من جامعة إكسفورد البريطانية فى مجال علم الاجتماع إبان دراساته الجامعية فى فترة شبابه . وبالفعل انهينا الدراسة وقدمناها إلى «طارق عزيز» الذى كان وزيرا للإعلام فوافق عليها، وطلب منا اقتراح الأسماء التى ستشرف على العمل بالمركز .

الحق أن عبء تنفيذ هذه العملية وقع علىّ وعلى أمين عز الدين، وكان معنا عبد المجيد فريد الذى بدا كمعارض لسياسة السادات، وكان قد سافر إلى الجزائر وعمل بها مستشارا سياسيا للرئيس بو مدين وفكر فى إنشاء حزب ناصرى ومعارض وجاء إلى العراق فيمن جاءوا من السياسيين والمفكرين العرب الذين اجتذبهم العراق الثورى فى ذلك الوقت . لم يطل بنا التفكير أنا وأمين عز الدين، إذ كانت لـ عبد المجيد فريد خبرة إدارية قديمة وكان أمين عز الدين قد عمل معه من قبل فرشحناه ليكون المدير الإدارى لمركز الأبحاث واقترحنا أن يؤسس المركز فى مدينة لندن لمركزها الإعلامى الدولى من ناحية وليكون بعيداً عن أن ينسب إلى العراق من ناحية أخرى . وكان ترشيحنا لعبد المجيد فريد لإدارة المركز يستند أيضاً إلى أنه لم يكن يعمل بأية جهة بعد أن ترك الجزائر . ثم رشحنا مجلس الإدارة الفنى حيث أنشأنا حوالى ست إدارات فنية للدراسات الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية والثقافية وغيرها وكلفت بالإدارة الثقافية وكلف أمين عز الدين بالدراسات الاجتماعية . انضم إلينا أستاذ فى التاريخ العربى من العراق وأستاذ سورى أظن أنه أصبح مسئولا عن الفكر السياسى وأستاذ فلسطينى وأذكر أن الفكرة القومية كانت مسيطرة علينا، ولذلك تشكل المجلس من أكثر من بلد عربى . وبالفعل بدأ المركز عمله واستطاع عبد المجيد فريد أن يؤجر شقة فى لندن وأن يقوم بكل الإجراءات الخاصة بالتأسيس بما فى ذلك اختيار الموظفين الإداريين، وأذكر أن طارق عزيز

رصد ميزانية لأعمال إنشاء المركز بلغت مائتين وخمسين ألف جنيه إسترليني، سلمت بالفعل إلى عبد المجيد فريد وأظنه كان يقدم بشكل منتظم كشوفا بمصروفاته إلى طارق عزيز .

وبالنسبة للإذاعة اقترحت إنشاء لجنة تدير الإذاعة من المصريين الموجودين بالعراق وكان أغلبهم من الصحفيين المشهود لهم بالخبرة فى المجال الإعلامى، ولعلنى رشحت صديقى فاروق خورشيد الإذاعى الشهير ليكون المدير المسئول، وجاء فاروق بالفعل إلى العراق ولكنه اختلف مع العراقيين فى عدة أمور وانسحب عائدا إلى مصر .

كنت قد وضعت الخطوط العريضة للأسس التى ستقوم عليها الإذاعة وكان الغرض الأساسى هو تقديم الأخبار الدقيقة عن كل ما يدور فى الشأن العربى والمصرى بصفة خاصة، وفيما يدور فى الصراع العربى - الإسرائيلى وعلاقات التحالفات المختلفة فى عالم الحرب الباردة بين القوتين الأعظم : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .

وإلى الآن لم نكن فكرنا بعد فى مشروع المجلة الثقافية، ويبدو أننى قد أرهقت تماما ولم نكن كمصريين لا أنا ولا محمد أنيس ولا جلال السيد بصفة خاصة، مهيئين للعيش خارج المناخ المصرى الثقافى والاجتماعى، فضلا عن المناخ الجغرافى، وكان نبيل زكى قد غادر بغداد . لم يعرف المصريون الاغتراب وربما كانوا أقل أبناء الدول العربية هجرة إلى الخارج ولفترات طويلة من حياتهم . حقا كنا محاطين برعاية من المسئولين العراقيين ولم تكن لدينا شكوى محددة ولكننا لأمر ما كنا قلقين . والحق أننى لم أفكر أبدا فى أنه سيأتى يوم وأغادر مصر مهما تكن الأسباب، ولكنى وجدت نفسى خارج البلد بعيدا عن أهلى والأقربين إلىّ والكثير من أصدقائى الذين عشت معهم طوال حياتى .

وذات يوم رنحن فى هذه الدوامات من العمل، وكنت مدعوا أنا وصديقى محمد أنيس إلى عشاء مع بعض رجال السياسة والفكر العرب، وما أن أنهينا العشاء وعدنا وأنا أقود سيارتى لأوصل أنيس أولا ثم أعود إلى بيتى، شعرت بآلام حادة فى صدرى، فجاهدت بكل قدرتى على التحمل حتى أصل إلى بيتى بأسرع وقت . وبالفعل أدخلت السيارة إلى الجراج ودخلت مندفعا إلى البيت، وكان لى حجرة أعمل فيها تقع بعد المدخل مباشرة ثم سقطت على الأرض مغشيا علىّ وأنا أعانى ألما حادا . أفقت بعد قليل لأجد نفسى بين يدى أولادى الذين فزعوا جدا . وأظن أن محمد أنيس هو الذى أجرى اتصالاته بالمسئولين العراقيين . ونقلت بالفعل إلى المستشفى وأجريت لى الإسعافات الأولية . وظللت فى غرفة الرعاية المركزة فترة، ثم أبقيت فى المستشفى أسبوعين آخرين وتقرر بعد ذلك سفرى إلى بريطانيا لعرضى على أطباء اختصاصيين فى أمراض القلب . كنت أدخن بشراهة فتوقفت عن التدخين بالطبع طوال إقامتى فى المستشفى، وما أن خرجت حتى انتهزت الفرصة ولم أعد إلى التدخين مطلقا منذ هذه الحادثة .

الحق أننى تلقيت رعاية طبية ليس من أصدقائنا المسئولين البعثيين فحسب، بل من الكثير من المثقفين والكتاب وأساتذة الجامعة . وكانت أعجب زيارة لى هى التى قام بها الشاعر العراقى الكبير محمد المهدى الجواهرى، الذى أوقفت زيارته لى كل عمل المستشفى تقريبا، لأن كل العاملين من أطباء وممرضين وموظفين تجمهروا حوله فى كل خطوة يخطوها، ولعلى لم أر فى حياتى شاعرا له هذه الشعبية المثيرة للدهشة . وكنت قد تعرفت على «الجواهرى» أثناء زيارته للقاهرة بدعوة من طه حسين الذى كان وزيرا للمعارف فى حكومة الوفد فى سنة ١٩٥٠

والتففنا نحن الشبان المصريين حوله إذ كنا نقرأ شعره المنشور فى المجلات العربية المختلفة وربما كان منها مجلة «الهلال» القاهرية الشهرية على ما أتذكر . وكان العديد منا يحفظ الكثير من شعره .

وكان الشعر آنذاك هو صوت الشعب فى المناسبات الوطنية المختلفة، وكانت قصائد الجواهرى تلقى فى التجمعات العراقية فتتحول إلى مظاهرات كبرى . وكان للجواهرى نفسه كاريزما خاصة فضلا عن شعره بالغ الجودة وربما كان أكبر شاعر عربى فى ذلك الوقت . وأذكر أننى قرأت مقالا لطه حسين فى مجلة «الكاتب المصرى» . التى كان يرأس تحريرها . يرشحه لأن يكون أميرا للشعراء العرب وفقا للطريقة التى نصب فيها الشاعر المصرى أحمد شوقى أميرا للشعراء فى عشرينات القرن العشرين .

التففنا حوله فى القاهرة وعلى الرغم من أنه كان فى سن آبائنا إلا أنه كان يتمتع بروح شبابية وكان معه ابنه «فرات»، الكاتب أيضاً، وكان فى مثل سننا، إلا أن الجواهرى كان يجارينا فى كل شيء حتى فى السهر . وكثيراً ما كنا نقضى الليالى الطويلة بعد جولات عديدة فى أحياء القاهرة فى قهوة الفيشاوى فى حى الحسين الذى كنا نسميه الحى اللاتينى، لأنه فضلا عن أنه يضم القاهرة القديمة بمبانيها الرائعة كان هو مركز الجامعة الأزهرية العريقة التى لم تكن تختلف عن السوربون الفرنسية التى كانت تتوسط ما يسمى بالحى اللاتينى فى باريس . وكان الرجل بالنسبة لنا رائعا من كل النواحى، كان محدثا شديد الجاذبيــة وكان على ثقافة عربية بالغة الاتساع والعمق . وكان محبا للحياة بشكل يعدى مصاحبيه . وأظنه قضى معنا وقتا طيبا على الرغم من أن إقامته فى القاهرة بناء على دعوة طه حسين لم تكلل بالنجاح بسبب معاداة الأجهزة الأمنية المصرية له إذ كانوا يحسبونه فى صف الشيوعيين وكانت مصر الملكية ترتعد من فكرة الشيوعية . وكان الرجل قد جاء إلى مصر هربا من الاضطهاد فى العراق . ومن بين الكتاب والشعراء المصريين الذين لازموه كل أيام إقامته فى القاهرة ثلاثة: أنا والكاتب عبد الرحمن الشرقاوى، الذى كان معجبا به أيما إعجاب، ونعمان عاشور الكاتب المسرحى . وفى هذه الإقامة على قصرها عرف أغلب كتاب مصر الذين كانوا يحبونه كثيرا على اختلاف توجهاتهم الفكرية .

عندما سقطت مريضا فى بغداد، كان الجواهرى مقيما فيها فى إحدى الإقامات النادرة بسبب التوترات التى يحدثها بالنسبة للنظام السياسى بسبب شعره المعارض فى غالب الأحوال . ولعلى فزت بزيارته فى بيته والتقيت فيه بشاعر ممتاز أيضاً هو "الحلى"، الذى كان شاعرا بعثيا من المؤسسين الأوائل، وهو الذى وضع نشيد البعث، ولكنه لم يلبث أن نفر من الأوضاع الديكتاتورية وبدأ يبتعد عن العمل السياسى، وبالتالى يقضى أغلب لياليه مع الجواهرى . وفى ذلك الوقت حاول رجال النظام العراقى الجديد أن يجتذبوه فدعوه أن يترك منافيه الكثيرة ويعود للاستقرار فى بغداد، وبالفعل طبعوا دواوينه ولكنه مع ذلك لم يكن سعيدا .

ذهبت إلى مدينة لندن البريطانية التى كنت قد قضيت فيها عاما كاملا فى عام ١٩٦٨ أثناء إجراء جراحة فى القلب لأحد أبنائى . على أن الطبيب الذى رآنى أفهمنى أن الانسداد الذى حدث للشريان الرئيسى عندى قد أصاب عشرين بالمائة من عضلة القلب بالتليف، وأنه يمكننى أن أعيش حياة طبيعية بالبقية الباقية إذا التزمت نظاما معينا فى الحياة . وبالفعل بدأت أمشى على هذه التعليمات بدقة .

٢٥

تجربة مثيرة

عندما عدت من إنجلترا بدأت أعاود نشاطي في الأكاديمية العراقية، ولست أذكر ماذا فعلت بالنسبة لمركز الدراسات العربية وللإذاعة، إذ كانت الأحداث مازالت تتلاحق . ولكنني على الأرجح عدت إلى تسلم مسئوليتي في مركز الدراسات، وأنا في بغداد . وربما عدت أيضاً إلى لجنة الإذاعة، التي كنت مازلت رئيسها . كما عدت أيضاً لأمارس مسئولياتي في اللجنة الدائمة للمؤتمر العربي، الذي انعقد في طرابلس بليبيا .

تبينت أن ما يقوم به المثقفون العرب وبعض الأنظمة العربية المعارضة، والتي سماها أنور السادات بدول الرفض، لم تكن جادة ولم تكن الأنظمة ذاتها سوية من حيث توجهاتها الديمقراطية أو قدراتها على أن تقود عملية نهضوية كبرى، تجتذب الشعوب العربية وتحقق المشروع الذي كنا نحلم به جميعا . وكان لكل نظام من هذه الأنظمة أجندته الخاصة جدا والتي كانت تصطدم مع أجندات الأنظمة الأخرى، وكانت أحيانا متعادية . ولم يكن العراقيون مثلا يرتاحون للجنة الدائمة للمؤتمر العربي هذه، ولا للسياسة الليبية، ولا للرئيس الليبي نفسه وتركيبته السياسية . وأذكر أنني سافرت إلى طرابلس لأحضر اجتماع هذه اللجنة، وكان قد مضى على إصابتي بالأزمة القلبية حوالي سنة . وقد ظلت اللجنة منعقدة حتى الساعة الحادية عشرة ليلا . وكنت أتابع المناقشات وأنا أشعر بشيء من اليأس . وكان فيها ممثلون من غالبية الدول العربية، كانت هناك أنظمة متعددة وصلت إلى السلطة في أغلبها إن لم يكن فيها جميعا عن طريق انقلابات عسكرية سميت بعد ذلك بالثورات، ولكن بعض الثورات كانت لها قيمة كبرى مثل الثورة الجزائرية ومثل المنظمات الفلسطينية . ولكن كان من المستحيل ألا يؤثر المناخ العربي العام في هذه الثورات تأثيراته السلبية بصورة أو بأخرى .

وأظن أن هذه المسألة تحتاج إلى وقفة تعيد النظر في الثقافة التي كانت سائدة في ذلك الوقت وتأثيراتها المختلفة ونقاط الضعف فيها وهو ما أرجو أن أفعله إذا كان في الأجل بقية .

أنهينا تلك الليلة وذهبت إلى فراشي بعد تناول العشاء ونمت بشكل عادي، وفي الصباح استيقظت كالمعتاد، وبدأت أمارس عاداتي، وإذ بي أشعر بألم بالغ القسوة في ظهري، سرعان ما تزايد حتى أصبح لا يحتمل . أدركت على الفور أنني أتعرض لأزمة قلبية أخرى أعنف من التي

عانيتها منذ عام . زحفت إلى الفراش زحفا ورفعت سماعة التليفون طالبا أحد أعضاء الوفد المصرى ـ عبد المنعم الغزالى - الذى أتى معى من العراق، ولعلى قلت له بصوت واهن أننى أعانى أزمة ثم أغمى علىّ .

الحق أنها كانت تجربة غريبة مثيرة للدهشة، وبصرف النظر عن كل الأساطير أو الحقائق التى تقال عن تجربة الوقوف على حافة الموت، فإننى أثناء معاناتى من الآلام التى لا تطاق، شعرت فجأة بتراجع الألم بشكل تدريجى، ثم شعرت براحة ممتعة تشبه تلك الراحة التى يشعر بها الشخص الذى هده أرق طويل ثم فجأة يأتيه النوم ويستسلم له بسعادة فائقة . على أننى وجدت نفسى أنزلق فى نفق أشبه بأنبوب طويل ثم أخرج إلى فضاء رحب شديد الاتساع يغمره ضوء بالغ النقاء وأحسست أننى أطير وأنفصل عن عالمى الأرضى انفصالا تاما . وكنت أنظر إلى جسدى الممدد على الفراش وكأنه لا يمت إلىّ بأية صلة، ولكن الأعجب من كل ذلك أننى أطللت على أسرتى ـ زوجتى وأولادى ـ وكنت أنظر إليهم بمشاعر محايدة جدا وكأنهم لا يمتون إلىّ بأى صلة ، أو كأنهم ينتمون بالنسبة لى إلى عالم غريب وهم غرباء عنى غربة عالمهم هذا . والعجيب أننى اندهشت من هذا الشعور، فلم يكن هناك شيء فى عالمى الأرضى أحب إلىّ من هذه الأسرة وهو حب كان يصل إلى حد الهوس، نظرت إليهم باستغراب وانقطاع تام ولم تشغلنى أى مخاوف أو قلق حول حياتهم بعدى، كانوا غرباء عنى تماما .

قيل لى بعد إفاقتى أن غيبوبتى استمرت حوالى عشرين دقيقة . وعندما أفقت وجدت خادم الدور الذى كانت فيه غرفتى وهو شاب صغير لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره وكان سودانيا أو نوبيا وكنت أعامله كابنى، لعله لهذا تعلق بى تعلقا شديدا . كان يجلس على حافة السرير ممسكا بمعصمى، وإذ به يقول بصوت هستيرى : "النبض عاد . النبض رجع" . نظرت إلى الفتى بارتياح، ووجدت أمامى شخصا آخر عرفت أنه الطبيب الذى هب لإنقاذى، وكان فلسطينيا، ولمحت عيناى أمامى عبد المنعم الغزالى ثم نعيم حداد، وهو وزير عراقى وعضو بعثى كبير فى القيادة الوطنية وكان رئيس اللجنة العراقية فى المؤتمر، وكان صديقا حميما لى، وهو من الذين أعدمهم صدام حسين فى تلك المؤامرة المشهورة بعد ذلك بسنوات قليلة .

كنت فى الواقع مندهشا من هذه التجربة، وظننت أننى مررت بتجربة الموت المرعبة للأحياء جميعا، ولكنها بالنسبة لى كانت أقرب إلى أن تكون جميلة، التفت إلى الأصدقاء الحاضرين وقلت لهم لا تخافوا أن الموت سهل جدا، أنه ليس مخيفا على الإطلاق .

لعلهم نظروا إلىّ بدهشة، ولم أكن أملك القوة لأستفيض فى الشرح، ولعلهم اعتقدوا أن قولى هذا ليس إلا من هلوسة المرض أو الأزمة الصحية . على أننى إلى اليوم لم أفهم كيف خطرت على عقلى هذه التصورات الغريبة وما صلتها بالمنطق أو بالحقيقة أو بالعلم، على أننى جريت على أن أستبعد كل ما هو خارج عن الطبيعة التى نظن أننا نعرفها، حتى لا أفسد نظام حياتى المعرفى، فقد حدث لى فى الواقع ما هو أخطر من هذه التجربة كثيرا .

ولد ابنى البكر بعيوب خلقية فى القلب . وأخذناه إلى بريطانيا لإجراء جراحة له وتصحيح هذه العيوب الخلقية، وكان فى الثامنة من عمره وأجرى له العملية أحد كبار الجراحين البريطانيين فى أحد مستشفيات لندن الكبرى، ولكنه مر بعدة مضاعفات . إذ كانت هذه الجراحة جديدة، وكان من المفروض أن تجرى على مرتين، لكن الطبيب قرر أن يجريها مرة

واحدة . مس الطبيب حزمة أعصاب بالغة الدقة لا ترى بالعين المجردة أثناء العملية، وهى التى توصل الذبذبات الكهربية التى تجعل القلب ينبض بشكل متوافق مع غرفه الأربعة، ترتب على هذا الخطأ أن كف القلب عن العمل، بسبب عجزه عن تلقى الإشارات التى يرسلها المخ، فركبوا له جهازا كهربيا لتنظيم ضربات القلب . وكذلك توقف الجهاز التنفسى عن العمل، فركبوا له جهازا للتنفس الصناعى، وكان فى ذلك الوقت ماكينة ضخمة يسمع صوتها من مسافة بعيدة . ووضع . على أية حال . فى غرفة العناية المركزة تحت رعاية متواصلة طوال الأربع والعشرين ساعة . عندما دخلت عليه فى هذه الغرفة، أنا وأمه، لم يكن يستطيع الكلام، فخرطوم التنفس فى زوره ولكن عينيه كانتا قادرتان بشكل مثير للدهشة على التعبير البالغ القوة والإبانة . نظر إلى بهاتين العينين صائحا بهما : أنقذنى يا أبى .

طمأنته بالقدر الذى أملكه من الأمل، ولكننى لم أشعر بالعجز والشلل فى أى يوم فى حياتى مثلما شعرت بهما فى هذه اللحظة، ولقد أدركت كيف أن ابنى متعلق بالحياة إلى أقصى درجة

خرجت من القاعة وسألت الطبيب المشرف عليها أن يعطينى صورة عن حالته، وكان الرجل خشن المظهر أقرب إلى أن يكون كائنا سخيفا، جلس إلى مكتب صغير خارج القاعة وقال لى بجفاء : "ما الذى تريد أن تعرفه، إن ابنك قلبه يعمل بماكينة كما أنه يتنفس بماكينة، وفضلا عن ذلك فإن كليته لا تعمل، ونسبة البوتاسيوم فى الدم ارتفعت إلى درجة خطيرة" .

قال ذلك بسرعة ثم نهض واقفا وتركنى واقفا فى ذهول . كانت زوجتى واقفة تسأل رئيسة الممرضات عن حالة الولد وكانت أيضاً أكثر قسوة حتى من ذلك الطبيب الألمانى، الذى لم يعبأ بالألم الذى سببه لى، ولكننى سمعت الممرضة الإنجليزية ترد على سؤال زوجتى : هل هناك أمل ؟.. بقولها : "أمل ضئيل جدا جدا جدا"، ثلاث مرات . دارت زوجتى حول نفسها من هول الصدمة، وخرجنا وعدنا إلى البيت الذى كنا نسكنه فى ضاحية من ضواحى لندن الهادئة والقريبة إلى حد ما من المستشفى، وكان ملكا لصديق لى مصرى يعمل فى الإذاعة البريطانية .

لعلنا لم نتكلم، ولكنى عندما وصلنا شعرت أننى فى حاجة إلى أن أنفرد بنفسى وأروضها على قبول أسوأ الاحتمالات، فخرجت إلى طرقات هذه الضاحية المحفوفة بالشجر فى ذلك اليوم البالغ القسوة . وكنت منهارا تماما فليس هناك أشد قسوة من أن يتلقى الأب استغاثة من ابنه الذى يحبه كل الحب ولا يملك أن يفعل له شيئا . وكانت الحياة بالنسبة لى رحلة شاقة، وإذا كان هذا الولد يريد أن يحياها بهذه الرغبة الجامحة فلماذا لا يحصل عليها !؟ ولعلى قلت بينى وبين نفسى : يا رب إذا كان هذا الولد متعلقا بالحياة إلى هذه الدرجة، فلماذا لا يأخذ ما تبقى من عمرى، فقد عشت حياتى طولا وعرضا وما عدت أريد المزيد .

ولعل عيناى اغرورقتا بالدموع، وبعد أن أنهكت نفسى بالمشى، عدت إلى البيت وأويت إلى الفراش، ربما دون أن أنبس بكلمة لزوجتى .

فى الصباح كان على أن أصعد إلى دورة المياه لأستحم وأحلق ذقنى . كنت قد هممت بالحلاقة، وكان الصباح ضبابيا كعادة الطقس فى مدينة لندن، وكان الحوض يقع بجانب شباك يطل على الحديقة، وكنت أشعر بجسمى كما لو كان مخدرا . ولعل شعورى لم يكن يختلف عن شعور الشخص الذى يعلم أنه يساق إلى ساحة الإعدام . كان هناك مصباح كهربائى فوق مرآة

الحوض، وعلى ضوئه القوى كنت قد فرغت من غمر خدىّ بالصابون وبدأت أجرى «بالموس» على خدى، وإذ بى ألاحظ أن الضوء قد تغير، نظرت إلى المصباح فوجدته كما هو فتوجهت بنظرى إلى الشباك فإذا بالضباب يغمر الحديقة فى الخارج، فعدت إلى الالتفات إلى كل مكان فى الحمام فوجدت ضوءا أقرب إلى الاصفرار ينتشر داخل الحمام، أعدت النظر مرة أخرى إلى الخارج فإذا الضباب منتشر كما كان ولكن الضوء كان قد بدأ ينتشر بغزارة، ورغم دهشتى، فإننى لم أخَف بل رحت أراقب التجربة وأنا مستسلم لها . ربما بشغف . وأحسست كما لو كان هذا الضوء، الذى راح ينتشر ببطء له كثافة ما رحت ألمسها على جلدى، تركت نفسى لهذا الضوء ذى الملمس حتى خيل إلى أنه يحملنى برفق بالغ وأدركت دون أن أسمع أى صوت أن ابنى قد شفى .

لم يكن لدى شك فى هذا الذى رأيته ولامس جلدى ورأيته بعينى وكان يقينى بأن معجزة قد حدثت . لم أفكر فى شىء، إلا أن دموعى راحت تنحدر على وجهى بغزارة، حتى إذا هدأت أعصابى، أكملت حلاقتى وخرجت من الحمام لأرى زوجتى واقفة على أولى درجات السلم تنتظر أن أنهى حمامى لتصعد بعدى . قلت بإيجاز وحزم : الولد شفى .

صعدت الدرجات جريا ثم تساءلت هل كلمك المستشفى فى التليفون ؟

أعدت القول باقتضاب : الولد شفى . ثم نزلت إلى غرفتنا فارتديت ثيابى . ولعلى تناولت فطورى .

لم تهتز ثقتى فى صحة هذه الرسالة العجيبة، أنا الماركسى العقلانى المادى، على حد التعبير الشائع . كان يقينى بأن الولد شفى حقا، لا يتزعزع .

عندما وصلنا إلى مدخل قاعة العناية المركزة كان من عادة زوجتى أن نقف عند باب مروحى مصنوع من البلاستيك الثقيل غير الشفاف لنستمع إلى صوت ماكينة التنفس، وكان صوتها كما سبق القول مسموعا عن بعد فبهذا تعرف أن ابنها مازال على قيد الحياة، ولكننى دفعتها وقلت لها ادخلى، ألم أقل لك أن الولد شفى .

عندما ندفع هذا الباب المروحى، يقابلنا بضع درجات من سلم صغير يؤدى إلى بسطة عريضة تضع فيها الممرضات طاولة صغيرة عليها أدوات متعلقة بالتمريض وبها عدة مقاعد قد تصل إلى ثلاثة . وغالبا ما يشربون فى هذا المكان الشاى أثناء تبادلهم أوقات الراحة أو العمل . وكان من الطبيعى أن تظر الممرضة التى تسند ذراعها على درابزين السلم إلى المدخل لترى من القادم بعد أن تسمع صوت اندفاع هذا الباب المروحى البلاستيكى . وقعت عين الممرضة على فصاحت فرحة: "يا سيد صالح مبروك أن ابنك قد شفى وتجاوز الخطر على حياته" .

جرت زوجتى مندفعة بينما صعدت أنا بثقة ورزانة، وعندما وصلنا إلى سرير ابننا وجدناه جالسا نصف جلسة وهو يبتسم ويشير إلى رقبته إذ كانوا قد نزعوا الخرطوم وأوقفوا ماكينة التنفس، وقد قاموا بتدليك عضلات الصدر التى تشترك فى سيمفونية التنفس التى يقوم بها الجسم البشرى، عندئذ دخل الجراح الكبير متهللا والتفت إلى قائلا: "يا سيد صالح، إنها معجزة . وراح يكرر كلمة معجزة، ذلك أن كل الإفرازات الأخرى سواء من عمل الكلى أو غيرها رجعت إلى المقياس الطبيعى .

حتى قبل أن أقرأ الفيلسوف الألمانى البريطانى «كارل بوبر» بشىء من التفصيل كنت قد نحيت عن تفكيرى موضوعات ما وراء الطبيعية، واعتبرت أنها خارجة على نطاق العقل، وأن العملية المعرفية لا مجال لها خارج الطبيعة والأشياء المنظورة التى نعيشها، ولعلى لذلك اشتبهت فى صحة هذه التجربة، هل هى شىء من الوهم بسبب رغبتى الشديدة فى إنقاذ ابنى؟ ولكننى كلما أستعيدها لا أستطيع الفكاك من تصديقها، لأننى فى الواقع امتحنتها أثناء حدوثها أكثر من مرة، هل كنت فى حالة غير واعية فانطلقت تصوراتى الخيالية وأدت إلى هذه التصورات ؟ ولكن ما أغرب أن يتوافق ذلك مع حقيقة أن الولد قد شفى بالفعل بما يقال عنه معجزة على حد قول الجراح البريطانى الذى أجرى العملية "بروفيسور بنتال" . ثم إذا افترضت أن هذا حدث بالفعل فى عالم الواقع فلماذا ؟

شغلت كثيرا بالموضوع فهو يمس نظام تفكيرى كله ويقلب فهمى لنظرية المعرفة الحديثة رأسا على عقب، ولكننى وقفت طويلا عند حقيقة لا مجال فى الشك فيها بالنسبة لى، وهى أننى كنت صادقا صدقا خالصا أو قل كليا فى أن أهب ما تبقى من عمرى لابنى، هل الصدق هو المدخل فى قانون الكون الأساسى ؟ وعندما تأملت كلمة "الصدق" وقفت عندها كثيراً . ووجدت أن الصدق عملية بالغة الصعوبة . وأن الإنسان لكى يصل إلى أن يكون صادقا فى أمر ما، عليه أن يتخطى عقبات كثيرة جدا، أن يخرج من ذاته على الأقل، أن يستبعد جميع التحيزات الطبيعية التى تفرض نفسها علينا بحكم تركيبنا البيولوجى، وهى التى تجعل نظرتنا إلى أى شىء مشوبة بهذه المعوقات الطبيعية . وهنا يبدو الصدق كما لو كان قانونا علميا تجرى عليه كل الاختبارات حتى يخرج من الذاتية إلى الموضوعية . وفى النهاية ارتحت إلى أن الصدق مفتاح مهم جدا يحصل به الإنسان على كل النتائج الإيجابية، وأنه بالفعل ربما يكون مدخل الإنسان إلى ما وراء المظاهر الكونية والاتصال بسر الأسرار فى هذا الوجود .

ارتحت إلى هذا التفسير ليس بشكل قطعى، وربما كان أهم ما استفدته من هذه التجربة هو الهيام بالصدق ومحاولة تجربته، والفشل المستمر بطبيعة الحال فى الوصول إليه ومعاناته . على أننى أخرجت التجربة من عقلى حتى أستطيع التعامل مع الحياة وظواهرها المختلفة بشكل عملى وحقيقى .

والحق أن تجربة علاج ابنى تستحق أن تروى . لم تكن جراحة تصحيح الأخطاء الخلقية فى القلب معروفة فى مصر بعد، وكان اكتشافها فى العالم لم يزل حديثا حتى فى بلد مثل إنجلترا، وبالتالى كانت نفقات العلاج باهظة، وكان علينا أن نقوم بالعملية لأسباب طبية فى سنة ١٩٦٧، وكنا قد خرجنا من حرب يونيو فى هذه السنة بتلك الهزيمة المعروفة . كنت رئيسا لتحرير مجلة شهيرة مهمة فى مصر والعالم العربى وكنت مازلت عضوا فى الكثير من المجالات المتعلقة بالثقافة فى مصر، وكنت أكتب للسينما وللإذاعة وألقى الدروس فى المعهد العالى للفنون المسرحية . وتوقعت بناء على كل ذلك أن تساعدنى الدولة فى تحمل نفقات علاج ابنى فى الخارج، حيث لا يتوافر العلاج فى الداخل . وكانت ثقافتى الاشتراكية تجعلنى أعتقد أن تحمل الدولة لعلاج ابنى حق من حقوقى لا جدال فيه، كنت بالطبع أومن بمسئولية الدولة فى المجتمع الاشتراكى عن التعليم والعلاج والعمل، وأن هذه حقوق أساسية تلتزم بها الدولة . لم أكن أظن أن تحمل الدولة لعلاج ابنى منحة أو تفضلا . بالطبع كان ذلك على المستوى النظرى، إذ كنت أدرك أن الأمور لا تسير على هذا الأساس على أرض الواقع . ولذا لجأت إلى

أصدقائى من أهل السلطة لأطلب صدور قرار من الدولة بالعلاج. كان رئيس الوزراء هو زكريا محيى الدين، فلجأت إلى خالد محيى الدين وإلى كمال رفعت ليتوسطا لى فى إصدار القرار . ولكنهما لم ينجحا وقالا لى أن رئيس الوزراء اعتذر بسبب الموقف المالى السيئ للدولة، نتيجة لحرب اليمن والأعباء الثقيلة الملقاة عليها . صدقت الخبر وقلت لنفسى علىّ أن أدبر أمرى . ولم تكن لنا ثقة بالدولة، لأننا بالفعل أنا وزوجتى كنا قد ادخرنا لمثل هذا الموقف حوالى ألف وخمسمائة جنيه .

كنا فى شهر نوفمبر سنة ١٩٦٧، عندما تلقينا دعوة من سفير كوبا فى القاهرة للمشاركة فى مؤتمر كبير تعقده كوبا فى عاصمتها هافانا من علماء وكتاب وفنانى العالم وفقا للتسمية التى أطلقت على هذا المؤتمر . وكان الكوبيون قد توسموا فى مجلة «الكاتب» أنها أقرب إلى فكرهم من غيرها من المجلات المصرية والعربية . والحق أن الزميل نبيل زكى كان يكتب سلسلة من المقالات المدروسة جيدا عن الثورة الكوبية . وكان المصريون بشكل عام متعاطفين مع هذه الثورة . ولذلك كاد السفير الكوبى يترك لنا ترشيح الأعضاء المصريين الذين يستحسن أن يشاركوا فى هذا المؤتمر . وقابلت أنا والصديق نبيل زكى هذا السفير فى مقر سفارته . وكان شابا وسيما فى الثلاثينيات من عمره، وكانت له زوجة بيضاء جميلة وممتلئة بالحيوية .

وبالفعل سافرنا إلى كوبا وكان أغلب الأعضاء من أسرة مجلة «الكاتب» إلى جانب بعض الزملاء من مؤسسات صحفية أخرى وأظن أن الوفد كان يضم حسين فهمى، الذى كان أحد رؤساء تحرير جريدة «الأخبار» اليومية، إلى جانب عبد الرحمن الشرقاوى، الذى كان شاعرا يساريا وكاتبا شهيرا، إلى جانب آخرين. ولست أذكر السبب الذى اعتبرتنا إدارة المؤتمر أنا ومحمد أنيس رئيسى الوفد المصرى، ربما كان هذا اختيار سائر الأعضاء الآخرين دون أن يخبرنا أحد بذلك .

كانت رحلتنا إلى كوبا بالغة الروعة إذ قابلنا نجوما عالمية فى الأدب والفن والسياسة لم نكن نحلم بأن نراهم ونتحدث إليهم، وهى تجربة جديرة بأن تروى بشكل تفصيلى .

كان علينا فى رحلة العودة أن نمر بمدينة «براج» عاصمة «تشيكوسلوفاكيا» الدولة الشيوعية المركبة من التشيك والسلوفاك فى ذلك الوقت . وكان سفيرنا آنذاك هو مجدى حسنين، الذى كان صديقا لنا . وكنا ثلاثة فقط من الوفد المصرى الذى حضر مؤتمر كوبا الذين اختاروا هذا الطريق أنا ومحمد أنيس والطبيب محمد رواش الديب، الذى كان من كتاب الكاتب أيضا . ولم نكد نستقر فى «براج» حتى فوجئنا بدعوة موجهة إلينا من وزارة الثقافة التشيكية لزيارة المعالم الإسلامية فيها ولقاء المسئولين عن الفكر والثقافة فى الحزب والدولة . ولست أدرى ما إذا كان مجدى حسنين هو المسئول عن تدبير هذه الدعوة، أم أن إدارة المؤتمر فى كوبا هى التى أوعزت إليهم بذلك .

وصلنا إلى «براج» أثناء الأزمة السياسية الكبرى التى بدأ الحزب الشيوعى التشيكى يختلف فيها مع الاتحاد السوفييتى حول السياسات وحول العلاقات التنظيمية بينهما . وكان الزعيم التشيكى «دوبشك» هو الذى يقود هذا التذمر .

كنت طوال الوقت أفكر فى الوسيلة التى أعالج بها ابنى فى بريطانيا على أن مجدى حسنين قال لى : أن العلاج الطبى فى تشيكوسلوفاكيا متقدم، وأنه يضمن لى علاجا كاملا فيها على نفقة الدولة التشيكية . عندما اتصلت بـ «مصر» لأبلغهم بهذا العرض رفضته زوجتى

رفضا كاملا بعد الرجوع إلى الدكتور حمدى السيد، الذى كنا نراجعه فى مسألة علاج ابننا . ولذلك اعتذرت شاكرا عن العرض وذهبت إلى بريطانيا فى صحبة صديقى رواش الديب، الذى كان مدعوا من وزارة الصحة البريطانية لقضاء شهر للتدريب فى مستشفياتها، وهو نظام كانت تتبعه الوزارة بالنسبة للأطباء فى الكثير من البلاد .

لم تكن هذه أول مرة أزور فيها بريطانيا، ولذلك لم أضيع وقتى طويلا ورحت أجرى اتصالاتى حتى أحدد موعدا لمجىء ابنى وأمه والدخول فورا فى العلاج . لم يكن معنا شىء من المال إلا القليل جدا الذى قد لا يكفى لقضاء ليلة أو ليلتين فى فندق رخيص، وقد بحثنا أنا ورواش الديب عن فندق فى منطقة «بادينجتون» التى نزلنا فيها بمحض المصادفة وبإرشاد إحدى شركات السياحة فى مطار «هيثرو»، والتى كانت معقلا لليونانيين المهاجرين أو المقيمين والقليل من المصريين.

ولعل موظفة الشركة السياحية خمنت أننا قد نكون يونانيين أو شيئا قريبا من ذلك، تجولنا فى منطقة الفنادق فى هذا الحى حتى إذا وجدنا لافتة مكتوباً عليها أماكن خالية دخلنا نتفرج على الغرف وكانت بطبيعة الحال شيئا يتناسب مع افتقارنا تماما إلى أى مال، إذ كان محرما على المصرى أن يغادر القاهرة بأكثر من خمسة دولارات، ولكننا فيما يبدو دبرنا شيئا من هذه الدولارات قد لا تزيد عن عشرين دولارا .

صحبنا صاحب الفندق وكان يونانيا مهاجرا وهو يرينا حجراته الضيقة، ويقول أن إيجار الليلة هو جنيه ونصف جنيه إسترلينى، وكان هذا المبلغ يساوى تقريبا أربعة دولارات، لم تكن الغرف مريحة وتحدثت مع رواش الديب باللغة العربية بلهجتنا المصرية بالطبع عن عدم موافقتى على الإقامة فى هذه الغرف، وإذا بنا نفاجأ بأن الرجل اليونانى يصيح فينا بلهجة مصرية خالصة : بتقول إيه يا أستاذ ؟

ضحكنا بالطبع، وانتقلنا للحديث معا عن رحلة هذا الرجل الذى عرفنا أنه كان يعمل مع مقاول مصرى يعمل لحساب معسكرات الجيش البريطانى فى مديرية الشرقية فى ذلك الوقت وأنه هاجر إلى بريطانيا بمعونة بعض المسئولين البريطانيين فى هذا المعسكر قبيل حرب سنة ١٩٥٦، واستقر فى مدينة لندن عاملا فى مجال السياحة الفندقية .

انتقى لنا الرجل غرفتين أفضل من التى رأيناها معه . وسرعان ما ربطت بيننا صداقة جميلة، وهو نفسه الذى أرشدنى إلى الطبيب البريطانى الذى أجرى العملية، إذ تصادف أن للرجل بنتا كانت تعانى من نفس العيوب الخلقية وأجرى لها العملية، ولما سألت الأسرة الدكتور حمدى السيد عن ذلك الطبيب وافق عليه، وكان أيضاً قد عمل معه فى مستشفى «هامر سميث» ويعرفان بعضهما بعضاً جيداً .

لم تصل النقود التى حولناها من مصر ونفدت نقودى تماما، بينما حل رواش المشكلة بانضمامه إلى المستشفى التى كانت قد دعته للتدريب فيها، حيث أقام هناك وراح يتناول الوجبات الثلاث بانتظام مع حاجاته الأخرى وفقا لبرنامج الدعوة .

لم يكن «هامبوليدس» وهذا هو اسمه اليونانى، قد قبض شيئا بعد من أجر إقامتنا وكان قد مضى علينا أكثر من أسبوع فرحت بالتالى اقترض منه . وكان يقرضنى بسهولة جعلتنى أستغرب لسلوكه الإنسانى الرائع، إذ كنت إلى جانب ذلك أستعمل تليفونه فى الاتصالات

الدولية التى أجريها مع القاهرة . وذات يوم قلت له : إلا تخشى يا «هامبوليدس» أن أتركك واختفى بعد أصبحت مدينا لك بما يزيد على مائة جنيه ؟

أجاب ضاحكا : "أنا مش مغفل يا حبيبى، أنا ابن سوق وعارف بعمل إيه" .

كنت قد حادثت شقيقا لى يدرس بالولايات المتحدة فأرسل لى على الفور حوالى مائتى دولار تقل قليلا عن الدين، فنفعتنى فى ألا ألجأ لمزيد من الاقتراض. على أن المصريين الذين كانوا يعملون فى إذاعة الـ "بى بى سى" العربية عرفوا بوجودى فى لندن فجاءوا لزيارتى، حيث دعونى إلى زيارة الإذاعة وهناك عرضوا على الاشتراك فى برنامج "ضيف لندن" وهو برنامج حوارى مدته حوالى ساعة، أجراه معى صديقى صلاح عز الدين الإذاعى الشهير وكاتب السيناريو السينمائى بعد ذلك فى مصر، وهو الذى كتب فيلم «بداية ونهاية» الذى أخرجه صلاح أبو سيف . وهكذا انفتح أمامى باب للعمل وكسب شىء من المال، إذ لم البث أن تلقيت شيكا من الـ "بى بى سى" بمبلغ مائة جنيه، فسددت ديونى، فى الوقت الذى وصلت فيه التحويلات . وعندما وصلت زوجتى وابنى إلى مطار «هيثرو»، صحبنى هامبوليدس فى سيارته إلى المطار وعدنا معا، حيث وفر لنا إقامة أوسع إلى أن دبر لى أصدقائى المصريون فى الإذاعة سكنا فى بيت أحدهم.

ظل هامبوليدس صديقا لى وكان فى الواقع أكثر من صديق، وكنت حينما أجىء إلى لندن أنزل عنده، وكان أحد أحلامه أن يأكل طبقا من البيض المقلى بالسمن البلدى، وبالفعل كنت أستحضر له هذا السمن من مصر فيسعد به كثيرا .

دخلنا فى دوامة العملية الجراحية وما حدث فيها من مضاعفات، طالت فيها إقامة ابنى فى المستشفى، وزادت التكلفة زيادة كبيرة، وكنت لا أدرى ماذا أفعل وقد تركت وحدى دون أى مساعدة . وفى أحد الأيام وجدت البروفيسور «بنتال» يتجه نحوى فى أحد ممرات المستشفى، ليقول لى : "أنا خارج توا من اجتماع لمجلس إدارة المستشفى وقد قررنا إعفاءك من مبلغ ألف جنيه" . ثم أضاف : "كان هذا اقتراحا منى لكن الجميع وافقوا عليه فورا فجئت لأهنئك" .

فى اليوم التالى، كنت فى الإذاعة البريطانية لسبب ما فإذا بالطيب صالح القصاص السودانى الشهير - لم يكن قد عرف بعد على نطاق واسع - يطلب منى أن أكتب مسلسلا إذاعيا، واقترح على رواية نجيب محفوظ «بداية ونهاية»، وكان هو مدير التمثيليات بالإذاعة .

تعجبت من هذه الحوادث المتلاحقة . هل عرف البريطانيون أننى أعانى من ضيق مالى ؟ ولماذا يقدمون هذه المساعدة ؟

٢٦

لقاءات فى أوروبا

كنت ألتقى بالكثير من المصريين الذين يدرسون فى جامعة لندن أو يعملون فى الصحف وذات يوم تعرفت على فتاة مصرية تدرس للحصول على الدكتوراه فى موضوع من موضوعات المسرح، فرحت أساعدها فيما تسألنى فيه من مراجع، إذ كان من عادة الأساتذة البريطانيين المشرفين على الرسائل أن يعطوا لطلابهم اهتماما محدودا، ربما ليدفعوهم إلى البحث بأنفسهم فى مجالات كانت أشبه بالمتاهات الواسعة .

كانت فتاة جادة وبالغة الرقة عرفت فيما بعد أنها كانت شقيقة لأحد الوزراء، فهى والحق يقال لم تشر إلى ذلك إطلاقا قبل أن أعرفه من زملائها . سألتنى ذات يوم ما الذى جاء بى إلى إنجلترا ؟ فقلت لها أننى جئت لأعالج ابنى . نظرت إلى ساهمة وقالت : ولكنك لم تأت إلىّ .

كانت الفتاة تعمل سكرتيرة بالسفارة المصرية لشئون العلاج الطبى، ويبدو أن ذلك كان نوعا من المساعدة لسد نفقات الإقامة أثناء دراستها . وكان لديها بالفعل القوائم التى تضم المرضى القادمين من مصر للعلاج على حساب الدولة . واستغربت أن اسم ابنى ليس موجودا بها، فقلت لها أننى حاولت استصدار قرار بذلك ولكنهم اعتذروا بسبب ظروف ما بعد الحرب، فإذا بها تفاجئنى بأن هذا كذب صراح إذ لديها أكثر من ثلاثين اسما يعالجون على حساب الدولة . فسألتها ما إذا كانت مستعدة أن ترينى هذا الدفتر فوافقت على الفور . وبالفعل ذهبت إليها فى مكتبها وأخرجت لى القوائم . وأخذت أقرأ الأسماء وأنواع الأمراض والنقود التى تصرف يوميا للمرافق، وكانت تصل إلى عشرين جنيها فى اليوم، وهو ما يكفى لإقامة ممتازة فى مدينة «لندن» فى ذلك الوقت . ولقد أغاظنى أننى قرأت أمام اسم أحد هؤلاء المرضى أنه جاء لإجراء جراحة فى إصبع قدمه الكبير، لأن الظفر قد دخل فى اللحم، ولم يكن هذا الفتى ابنا لرجل مسئول، إنما لموظف فى الرئاسة ليس ذا شأن . وكذلك غالبية المرضى الثلاثين .

كيف ذلك وبأى حق !؟ وكيف يصل الكذب والحرمان من الحقوق إلى هذه الدرجة !؟ وكنت قد عانيت معاناة شديدة منذ تحركت من مدينة "براغ" إلى مدينة لندن، ووقر فى نفسى ألا أعود إلى البلد . كانت الحلقات قد أذيعت بالفعل، وأثناء زيارة لى للطيب صالح فى مكتبه بالإذاعة، قال لى أن الإذاعة تعرض علىّ عقدا للعمل بها لمدة أربع سنوات، على أن أكتب لها

أربعة مسلسلات فى السنة فى مقابل مرتب سنوى قدره خمسة آلاف جنيه، وكان متوسط المرتبات للعاملين بالإذاعة فى ذلك الوقت لا يزيد على ألفين وخمسمائة جنيه فى السنة . وصحبنى إلى المدير البريطانى المسئول، الذى رحب بى وكرر على العرض، فسألته أن يعطينى مهلة صغيرة لأفكر فى الأمر وأدبر أمورى . وكان المبلغ كبيرا بالنسبة للأسعار فى ذلك الوقت، إذ كان من الممكن أن يشترى الإنسان بيتا من البيوت البريطانية الشائعة فى حدود أربعة أو خمسة آلاف جنيه، وكنت أتناول طعام غداء أو عشاء جيد فى مطاعم لندن فى حدود نصف جنيه أو أكثر قليلا . ولكننى لم أفسر ذلك على أساس مهنى، بل على أنه نوع من الشراء فقد كنا خارجين من هزيمة عسكرية قاسمة للظهر، وكنا نعتقد أن القوى الاستعمارية تريد بلادنا شرا وأنها تستخدمنا فى دعاياتها .

ناقشت الأمر مع زوجتى التى رحبت بالعرض، خاصة وسوف يحتاج ابننا المداومة على العلاج والمراجعة فى بريطانيا، وكانت قد أحبت الحياة فى مدينة لندن . ولكننى لم أستطع أن أرى الموضوع من هذه الزاوية . ولم يكن المصريون الذين يعملون بالإذاعة سعداء تماما، على الرغم من أن أغلبهم كان ساخطا على البلد لسبب أو لآخر . ولكن بعد ما عرفته من تجاوز يصل إلى درجة أبعد من مجرد الإهانة قررت قبول العرض البريطانى والإقامة بلندن .

وعندما انفردت بنفسى، بعد لقائى بفتاة القسم الطبى بالسفارة، كنت غاضبا غضبا شديدا، ووجدتنى أشرع فى كتابة خطاب لعبد الناصر أعبر فيه عن غضبى، ولكننى مزقت كل المسودات التى كتبتها، وبدلا من الكتابة للرئيس، قررت أن أكتب لأصدقائى، فكتبت لكمال الحناوى ولكمال رفعت ولشعراوى جمعة، وكانوا كلهم وزراء فى الحكومة، وتربطنى بهم علاقات قوية . وملأت الخطابات الثلاثة بكل ما فى من غضب واحتجاج . فقد كان شعورى، أننى خدعت أو أن هناك نوعا من الخيانة .

نسيت الموضوع بعد ذلك ورحت أرتب أمورى للإقامة فى بريطانيا، على الرغم من عدم ارتياحى . على أننى بعد يومين أو ثلاثة وجدت مكالمة من السفارة المصرية عرفت منها أن قرارا قد صدر فى القاهرة بالعلاج على نفقة الدولة، وأنه ليس على أن أتحاسب مع المستشفى على الإطلاق، لأن السفارة هى التى ستتولى ذلك، كما أنه سيصرف لى مبلغ خمسة جنيهات كمرافق . تذكرت العشرين جنيها المقررة لهذا الشاب الذى جاء لإجراء جراحة فى إصبع قدمه. على أننى لم أستغرق وقتا فى التفكير، إذ قررت على الفور الاعتذار عن قبول عرض الإذاعة البريطانية، وشاركتنى زوجتى بالطبع، وأمضينا الوقت الذى بقى لنا حتى ينتهى العلاج بشىء من الارتياح لم نذقه على الإطلاق .

كنا قد قاربنا على نهاية سنة ١٩٦٨ وبذلك نكون قد قضينا قرابة سنة فى بريطانيا وهى أطول مدة قضيتها فى بلد أوروبى حينذاك . وقد بدأت أكتشف بالتدريج كيف كنا مثقلين بالكثير من التوترات العصبية والفكرية . نعم كان العالم كله يقف على حافة الحرب أثناء الحرب الباردة، ولكننا فى الشرق الأوسط وربما فى مصر بصفة خاصة، كنا نعيش قلقا أكبر من أى موقع آخر على خريطة العالم. كانت الأحداث التى عاشها شخص مثلى ثقيلة الوطء . عشت فترة الأزمة الاقتصادية العالمية وما أدت إليه من كساد فى مصر أثر على حياتنا الأسرية. وفوجئت وأنا فىْ سن صغيرة، بأن ذهابى إلى المدرسة صار مشكلة مالية .

وعشت فترات الحرب العالمية بين الغارات والقلق والهجرة لعدة شهور إلى الريف المصرى عند أقربائنا، حيث كانت مياه الشرب تقطر منزليا، وحيث لم يكن هناك صرف صحى ولا كهرباء . ومنذ وعيت وأنا أشعر أن حقوقى وحقوق مواطنى مغتصبة من سلطة أجنبية وحكومة رجعية، وأن علىّ أن اشترك مع الناس فى مقاومة كل ذلك بما يجلبه من مخاطر ويثيره من توترات . وبدلا من أن تقوم الثورة التى كنا نحلم بها، قام بها ضباط من الجيش توزعتهم اتجاهات مختلفة لم تكن فى حسابنا كثيرا . وانتهت إلى سلطة قلقة تعطى للأمن أهمية كبرى، وانساقت إلى تحويل البلاد إلى حكم بوليسى مستريب ومتربص، ولم ينج من سجونه واعتقالاته إلا القليل النادر من المثقفين بضربة من ضربات الحظ . كان الخوف والشك يملآن كياننا وكنا نشعر أن هناك من يتآمر علينا دائما أينما توجهنا فى العمل أو خارج العمل . وكان للخيانة فى حياتنا دور وكان "يهوذا" فينا أكثر خبثا أو دناءة من يهوذا خائن المسيح، الذى انتحر ندما . أما يهوذا الذى رافقنا فكان بلا ضمير، بل كان يتقدم دائما ويخوننا دائما . ولذلك كنا أسرع ما نكون إلى الظن بأن هناك مؤامرة كبرى تتربص بنا على المستوى الاجتماعى والسياسى وعلى المستويين الداخلى والخارجى . ولست أدرى هل نحن الذين اخترعنا نظرية المؤامرة أم الذين اقتنعوا بها وبنوا حياتهم وتصرفاتهم على أساسها . أنظر مثلا إلى شكى فى الدوافع التى كانت وراء رفضى للعرض البريطانى للعمل فى الإذاعة البريطانية . وخيل إلى ربما من تضخيم الذات أو تمشيا مع نظرية المؤامرة، أن المعاملة الطيبة التى لاقيتها فى بريطانيا، سواء فى المستشفى أو فى مجال العمل بالإذاعة، إنما هى بغرض جرّى إلى العمل معهم، وتسخيرى فى مؤامرة لإسقاط النظام الوطنى فى بلدى . فكرت قليلا فى أن إعفائى من مبلغ ألف جنيه إسترلينى من نفقات علاج ابنى، هو نوع من التعويض عن الخطأ الذى وقع فيه الجراح عندما أصاب الحزمة العصبية فى قلب ابنى، التى توصل إشارات المخ الكهربية إلى فصوص القلب، ثم قفزت إلى أنها جزء من المؤامرة التى تريد استدراجى للعمل معهم، والانقلاب على قضايانا الوطنية . تفكير يبدو ساذجا، ولكنه كان مسيطرا علىّ بسبب الكثير من الأوجاع والأوهام والشكوك التى تربينا عليها . حقا علمت أن ميزانية إذاعة الـ "بى بى سى" العربية تأتى من المخابرات البريطانية، وأنها تعمل بتوجيه من السياسة البريطانية إلى حد ما، ولكن هذا لا يعنى أن كل ما حدث كان الغرض منه استدراجى للعمل معهم . ولم أكن أملك القدر من التواضع الذى يجعلنى أرى نفسى فى حجمها الطبيعى . على أننى كنت فى الواقع أشعر بالامتنان لما حدث لى فى بريطانيا أثناء محنة علاج ابنى . ولعل تعلقى بمدينة لندن - بصفة خاصة بعد ذلك - يرجع إلى هذا الشعور بالامتنان . وكذلك كان شعور زوجتى، الذى فاق شعورى بمراحل، إذ لم تكن تعانى من هذا العصاب الذى كنت أعانيه .

أذكر أننى تلقيت دعوة لزيارة ألمانيا الشرقية وكان لى صديق مصرى مقيم فى ألمانيا منذ مدة طويلة وأظنه كان يعمل فى إحدى الجامعات فى العاصمة الألمانية هو مصطفى هيكل، الذى كان مسئولا مهما فى أحد التنظيمات الشيوعية فى الأربعينيات وبعد أن اعتقل لفترة هاجر إلى فرنسا أولا ثم إلى ألمانيا بعد ذلك حيث استقر به المقام ولعله حصل على الجنسية الألمانية .

قبل السفر قررت أن أحول المبالغ التى أودعتها فى البنك إلى بنك فى ألمانيا، لأن هذا المبلغ أصبح خالصا لى بعد أن تدخلت الحكومة المصرية وتحملت نفقات علاج ابنى . وكان

المبلغ حوالى ألف وخمسمائة جنيه إسترلينى، إذ أعطتنى الإذاعة البريطانية حق إعادة إذاعة التمثيلية لست مرات، وهو الحد الأقصى للإعادة، مما رفع المبلغ إلى هذا الرقم . وكان المبلغ كبيراً بالنسبة لذلك الوقت، حتى أننى عندما ذهبت إلى البنك، وكان فرعا صغيرا فى المنطقة التى أسكن فيها، خرج مدير الفرع ليرى هذا الرجل الذى يريد تحويل هذا المبلغ الكبير، وعندئذ سألنى عما إذا كنت أعمل مقاولا فى الإذاعة . فلم يتوقع أن يكون هذا المبلغ من أى عمل آخر . وحين عرف أننى كاتب أكبرنى كثيرا وساعدنى مساعدة جيدة فى إجراءات التحويل.

رأيت حائط برلين، واستغربت كثيرا . وكانت برلين الشرقية مدينة شبه خالية من البشر بالنسبة لمدينة لندن أو القاهرة . ولم ينقض وقت طويل حتى شعرت بوقع الأمن الحذر والاسترابة على المدينة، ولعلى ظننت أنه أكثر كثيراً مما كنا نعانيه فى مصر . وسرعان ما ظهر المصريون الذين لا أعرفهم، والذين أعرفهم . ولكننى أذكر صيدليا مصريا استقبلنا دون أن يعرفنا، وقدم لنا خدمات رائعة بما فى ذلك إقراضنا بعض المال ريثما تصل تحويلاتنا . وظل هذا المواطن يساعدنا مساعدات رائعة، حتى بعد اتصالنا بالجهات الداعية واستقرارنا فى الزيارة . وفى برلين أيضاً اتصل بنا شاب مصرى آخر كان يعمل فى شركة الـ "بى إم دبليو" لصناعة السيارات . وكان هو الذى أغرانى بأن اشترى سيارة مرسيدس مستعملة. وقد كلفتنى فى ذلك الوقت حوالى خمسمائة وخمسين جنيها إسترلينيا مع أن عمرها كان سنتين فقط . وكان بالصدفة من الحى الذى نسكنه فى القاهرة، وعن طريقه تعرفنا إلى حد ما على بعض أشكال الحياة فى ألمانيا الشرقية. إذ كانت له صديقة ألمانية، وكان قد أنجب منها طفلة. وعرفنا أن القانون الألمانى قد جعل للصديقة التى تعايش صديقها بشكل دائم أو مستقر لمدة ستة شهور حق الزوجة بشكل كامل بما فيها نسب الأطفال والحقوق الأخرى . ولعل ما حدث لى مع الألمانى الذى كان وكيلا للمعرض الذى باعنى السيارة، هو الذى نبهنى إلى أن الفهلوة ليست وقفا على المصريين، وأن هذا الألمانى الجاد والذى يحاول أن يبدو محترما، تحايل علىّ فزعم أولا أنه لا يعرف اللغة الإنجليزية . ولذلك ظلت مساومتنا معه باللغة الألمانية عن طريق صديقى المصرى، وعندما انتهت الصفقة تكلم معى بالإنجليزية مهنئا ثم مازحا بلغة إنجليزية جيدة . كان ذلك فى برلين الغربية بالطبع .

وعندما دخلنا بالسيارة إلى برلين الشرقية، وكنت أبحث عن عنوان صديقى مصطفى هيكل، فوجئت بعملية تجمهر حول السيارة ووجدت أكثر من ثلاثين شخصا يحيطون بها . ويبدو أنه لم يكن فى برلين الشرقية سيارة مرسيدس واحدة . وكانت هناك سيارة صغيرة كئيبة الشكل شاهدتها بعد ذلك هى التى تصنعها ألمانيا الشرقية وتبيعها للجمهور، وكان مصطفى هيكل يملك واحدة منها، وعندما سألته عن ثمنها قال لى رقما مخيفا لا يتفق مع تواضع السيارة . كانت العيون المحملقة فى السيارة تعبر عن الحسد والحسرة والحرمان . وقد آلمتنى هذه النظرات كثيرا . وقد تكررت بعد ذلك عندما دخلت إلى متجر يبيع هدايا بالعملة الصعبة، منها السجائر الأمريكية والخمور الفرنسية والإنجليزية الباهظة الثمن بالنسبة للمارك الألمانى الشرقى، الذى كان متدنيا . وكان الجمهور الألمان قد تجمهر أمام الفاترينة الزجاجية الكبيرة فى الشارع، وهو ينظر إلى هذه السلع وإلى الجمهور الذى يشتريها فى الداخل .

نعم كان لدينا فى مصر شىء من ذلك إذ كانت العملة الغربية صعبة أيضاً وكانت هذه

السلع الغالية الثمن نادرة إلا أنها كانت موجودة بطريقة أو بأخرى، ولم يكن لدينا على الأقل جدار حاجز فى قلب المدينة الواحدة مثل حائط برلين . إذًا فالاشتراكية عاجزة عن المنافسة حتى فى جزء من دولة واحدة . فما السبب؟ وكيف تنافس الاشتراكية المجتمع الرأسمالى وهى فى قلب أوروبا عاجزة عن الشىء القليل من المنافسة . ثم كيف لم يتبين المشرفون على شئون الحكم فى ألمانيا الشرقية أن وجود المحلات التى تبيع بالعملة الصعبة نوع من التحدى للجمهور وإذلاله . إذ كان هؤلاء الذين يشترون بالعملة الصعبة أشبه بالطبقات الأرستقراطية التى يحقد عليها الفقراء فى هذه المجتمعات . ولم أستطع أن أجد تبريرا لإيجاد مثل هذه المحال فى المجتمع الألمانى الشرقى، حتى وإن كان سيوفر شيئًا من العملة الصعبة قد تحتاجها الحكومة . وكان الاتجار فى العملة يجرى على قدم وساق وكان من الممكن أن تغير الدولار بعشرة ماركات وهو سعر باهظ بالطبع . وكان من السهل على الزائر العادى أن يتبين أن حياة الناس صعبة فى ذلك المكان .

كان مصطفى هيكل متزوجا من ألمانية أكاديمية تخصصت فى دراسة الأدب والفنون الصينية، وكانت امرأة جميلة مثقفة ثقافة واسعة . ودار الحديث معها عن الحالة الثقافية فى مصر، فحدثتها عن لجنة المسرح العالمى، وعن المسرحيات الألمانية الحديثة التى قدمناها فى القاهرة لـ "بيتر فايس" و"دورينمات" و"ماكس فريش" وغيرهم، فهاجت هياجا عارما وقالت تصور أن هذه المؤلفات ممنوعة هنا . ونحن لا نعرف شيئًا عن الأدب الألمانى الحديث فى بقاع العالم المختلفة دعك من الآداب الأخرى .

قابلت وزير الثقافة الألمانى فى هذه الزيارة، وكان مثقفا له اهتمامات بالأدب الفرنسى بصفة خاصة . كان أنيقا وكان يضع أمامه علب السجائر الأمريكية . والأمر ما أتذكر أنه كان لديه بار صغير فى المكتب اصطفت فيه زجاجات الويسكى والكونياك الفرنسى الغالى الثمن . حدثنى عن الكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية وكان معجبا بمحمد ديب وكاتب ياسين وغيرهما . وعندما حدثته عن نجيب محفوظ، بدا أنه لم يكن متحمسا له . على أنه ذكرنى بأشباهه من المثقفين العرب الذين يتبوءون مراكز فى السلطة لسبب رئيسى هو العلاقة الأمنية المضمونة أو المنضبطة . ولعله كان مثلهم يضع متعته الخاصة فى المقام الأول وهو ما توفره هذه العلاقة .

زرت ألمانيا الشرقية بعد ذلك كثيرا، وكنت أقضى إجازة الصيف فى مدينة ليبزج، لأننى لم أكن أستطيع الذهاب إلى مصر، وهى مدينة تاريخية رائعة سكنها كبار الأدباء والموسيقيين العظام . وكنت أذهب إلى ميادينها المبلطة بالبلاط العريض لأستمع إلى عزف من رباعى الوتريات حيث كان الجمهور يتحلق حول فرقة العازفين، وأجلس فى المقاهى الجميلة التى تطل على ميادين واسعة أعلى من مستوى سطح الأرض، وبالتالى لا تخوضها السيارات . ولكنى كنت أعانى من مشكلة الريجيم الذى كان علىّ أن اتبعه، حتى أتجنب أى زيادة فى الوزن . وكان هذا يستلزم أن أركز على الفاكهة، ولكننى لم أجد هذه الفاكهة متوافرة دائما . وأظن أن أحد أصدقائى قال لى أن أذهب إلى محل معين وصلته كمية كبيرة من التفاح، وبالفعل ذهبت إلى المكان فوجدت طابورا طويلا يقف عند شوال كبير مملوء بالتفاح الأخضر غير الناضج تماما، ولم يكن منظره مشجعا على الإطلاق فعدت إلى فندقى مكتفيا بما يقدم لى فى الوجبات المختلفة من الفاكهة المحفوظة أو الخضراوات الطازجة بشكل عام .

وكان علىّ على أية حال عندما أصل إلى المدينة، وأذهب لحجز غرفة فى الفندق أن أضع

داخل جواز سفرى دولارا أو دولارين حتى يعطينى مسئول الاستقبال حجرة مريحة، هكذا نصحنى الأصدقاء . على أننا فى تلك الزيارة فى صحبة زوجتى وابنى، عدنا إلى القاهرة وعدت إلى مباشرة عملى وتسلمت السيارة الفاخرة وبعت سيارتى الـ "موسكوفيتش" التى كنت قد اقتنيتها قبل ذلك بحوالى خمس سنوات . وعندما جلست لأقود السيارة الجديدة شعرت بالفرق الخطير بين هذا المقعد الوثير الذى يوشك أن ينافس أى "فوتى" فى صالون فاخر وبين مقعد السيارة الموسكوفيتش البالغ الخشونة .

لم يكن فى حياتى شىء من الرفاهية، ولكننا كنا نعيش حياة مستورة يذهب فيها أولادى إلى المدارس المنتقاة، ونقضى إجازاتنا فى الإسكندرية، وأصطحب زوجتى إلى كل حفلات المسرح والسينما والمطاعم الجيدة فى صحبة الزملاء والأصدقاء . وكان امتلاكى لسيارة مرسيدس، حتى لو كانت مستعملة شيئا يدعو إلى الخجل وكأننى ارتكبت فعلا فاضحا أمام مواطنى الذين كانوا يعانون معاناة شاقة إلى حد ما، وإن كانت الأوضاع قد تحسنت كثيرا عما كانت عليه منذ اتجه نظام عبد الناصر إلى إنهاء البطالة . إذ أصبحت غالبية الأسر المصرية تملك دخلا ثابتا، وهو أمر لم تعرفه قبل ذلك القرار الخطير بالتشغيل الشامل فى كل تاريخها . لم تكن لدينا إلا مدخرات قليلة جدا . ولكننى كنت واثقا أن الاشتراكية «الحقيقية» قادمة .

وكان تصورى عن التطبيق الاشتراكى، أن الملكية الخاصة الاستغلالية سوف تختفى، وأن كل ما نستطيع أن نمتلكه هو تلك الأملاك التى نستخدمها استخداما شخصيا مثل شقة فى مدينة الإسكندرية أو سيارة جديدة أو شقة فاخرة فى القاهرة، أما غير ذلك من الأملاك التى تتطلب نوعا من الاستثمار، كامتلاك الأراضى أو العمارات السكنية فلا نريدها ولا علاقة لنا بها .

وكنت أتصور أن التعليم والصحة والعمل، كل ذلك سوف تتكفل به الدولة، فلماذا أدخر شيئا من المال للمستقبل ؟ وعندما كانت زوجتى تناقشنى فى ذلك، كنت أسخر من تشاؤمها، وعندما شاهدت خروشوف فى التليفزيون، وهو يتحدث بثقة عن حتمية الحل الاشتراكى أمام الرئيس الأمريكى، لم يخالجنى أى شك فى ذلك . وعلى الرغم مما شاهدته فى ألمانيا الشرقية، وفى العاصمة التشيكية "براغ"، بل وفى "هافانا" فى كوبا، إلا أننى كنت انسب هذا إلى أخطاء فى التطبيق، وإلى ضخامة تأثير الحصار الرأسمالى وتهديداته لأمن هذه الدول والعمل على إسقاطها .

على أنه من الناحية الأخرى، كانت هزيمة سنة ١٩٦٧ تجثم على أنفاسنا وتشككنا فى المستقبل . وكان تواطؤ العالم المتقدم مع إسرائيل نوعا من التهميش أو الإبعاد والاستلاب المرضى . وأذكر أننى ذهبت ذات يوم إلى بيت الصحفى الروسى آنذاك "بريماكوف" فى الزمالك بالقاهرة، والذى أصبح فيما بعد رئيسا للمخابرات الروسية الـ كى جى بى" ثم رئيسا للوزراء . ذهبت فى صحبة صديقى محمد عودة، فهالنى أن الحديث كله دار حول كيفية التفاوض مع إسرائيل . ولم يتطرق إلى عدم شرعية إسرائيل بل كان الخوض فى مثل هذا الكلام نوعا من التخلف الفكرى ، وكنت أعرف أن بريماكوف ينحدر من أب يهودى، وكانت نظرية المؤامرة التى تسللت إلى قلوبنا وعقولنا، تجعلنا نستريب فى كل شىء . وكان من الصعب علينا أن نتصور وجود يهودى واحد ليس متعاطفا مع إسرائيل أو ليس عميلا لـ "الموساد" مهما يكن انتماؤه الوطنى .

والحق أننى كنت أقاوم مثل هذه الأفكار بينى وبين نفسى، ولكن المشكلة اليهودية كانت بالطبع مؤرقة لجميع اليهود، فقد مروا بالكثير من الصدامات العنيفة على مدار التاريخ . وأذكر أن حوارا حادا جرى بينى وبين أحد زعماء الحركة الشيوعية من اليهود فى مصر، فقال لى بشىء من الغضب : أنت لا تعرف ما جرى لليهود على مدى التاريخ بدءا من الفراعنة إلى البيزنطيين والرومان ثم الأوروبيين المحدثين . أنت لم تقرأ شيئا فلا تتكلم حتى تقرأ وتعرف الحقيقة .

أظن أننى فكرت فى هذا الكلام بعد جلوسى مع نفسى، ولكننى لم أقتنع أن هذا يكفى مبررا لاغتصاب الأراضى الفلسطينية وطرد الشعب الفلسطينى بل والعمل على إبادته . وقد شغلتنى هذه القضية طول حياتى من الناحية الإنسانية والأخلاقية . على أن بعض التجارب التى مرت بحياتى، راحت تنمى فكرة المؤامرة . ففى براغ - العاصمة التشيكية - التقيت مع مجلس تحرير المجلة الشهرية النظرية، التى كانت تصدر عن الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى، وكان معى على ما أذكر صديقى المرحوم الدكتور رواش الديب والفنان سعيد عارف عند عودتنا من مؤتمر كوبا . كنت معتقداً أن الفكر العلمانى الشيوعى سوف يرفض مبدأ إقامة الدولة الإسرائيلية على الأساس الدينى . وعندما تطرق الحديث إلى هذه النقطة، تحول الحوار إلى نوع من الصدام الحاد، بل والخالى من أى ذوق أو مجاملة . ولعلى احتددت على محاورى من أعضاء مجلس تحرير المجلة، متذرعا بالموقف العلمانى . ولكن أحد المحاورين قال لى بشىء من الكراهية الواضحة : ما رأيك إذًا فى دولة باكستان التى قامت على أساس دينى ؟ ولعلى أجبته بأننى طبعا لم أوافق على إقامة دولة باكستان على هذا الأساس الدينى .

كان الحاضرون من التشيك حوالى عشرة أشخاص، لم يقف إلى جانبى فى الحوار منهم إلا محرر واحد كان قد قُدّم لى على أنه المختص بشئون الشرق الأوسط . وكان رئيس التحرير محايدا إلى حد ما . عندما انصرفنا غاضبين جرى خلفنا ليودعنا هذا الرجل المسئول عن قضايا الشرق الأوسط . كان منفعلا لدرجة احتقان وجهه . وبعد أن جاوزنا الباب، أمسك بذراعى وهمس بصوت مضطرب : لا تغضب . هل تعلم أن كل هؤلاء يهود ما عدا رئيس التحرير ؟! إنهم صهاينة .

كنا كما سبق أن قلت نزور براغ أثناء انقلاب الرئيس "دوبشك" . وكان هناك الكثير من الأقاويل التى تردد أن لليهود الشيوعيين دخل فى تدبير الانقلاب أو الحض عليه . كانت هذه إشاعات سمعناها، وأعقبها التدخل الروسى العنيف بالمدرعات والدبابات، والتى أذهلت العالم كله، وأغضبت الرأى العام العالمى وأسقطت حكم الرئيس "دوبشك" .

٢٧

أيام فى ضيافة فيديل كاسترو

كان هناك ضباب كثيف حول كل القضايا التى نصادفها . ولعلى تذكرت على الفور زيارتنا لكوبا فى هذا المؤتمر الذى دعى إليه علماء وأدباء ومفكرون من مختلف أرجاء العالم، فقد حدث أيضاً شيء من هذا النوع عندما جئنا لصياغة البيان النهائى الذى سيصدر عن المؤتمر .

كنت قد وُضعت أنا ومحمد أنيس فى اللجنة السياسية . وقد ألقى كل منا كلمته فى اللجنة . وكان معنا أيضاً الزميل طاهر عبد الحكيم، الذى ألقى هو الآخر كلمة . بالطبع كان حديثنا حول العدوان الإسرائيلى، إذ كان انعقاد المؤتمر بعد الهزيمة بأقل من ستة شهور . وفى هذه اللجنة تحدث رجل يهودى من إيطاليا من عائلة "شوارتز" المعروفة . كان مصريا فى الأصل، أى كان من اليهود المصريين، أو الذين عاشوا فى مصر، فزعم أن الاضطهاد العنصرى فى مصر قديم . فالمصريون يضطهدون أبناء النوبة ويعاملونهم كالعبيد . وكان هذا كذبا صراحا . فإذا كان هناك شيء من هذا فنحن أعلم به من غيرنا . على أنه مضى فى اتهاماته إلى تشويه صورة مصر والمصريين . كان عصبيا حتى أنه كان يرتعش وهو يلقى كلمته . ولكن الذى تصدى له كان الكاتب الفرنسى الشهير "مكسيم رودونسون"، وهو يهودى أيضا . فسفه آراءه بشكل قوى وجارح بحيث لم يترك لنا فرصة للرد عليه .

والحق أن "رودونسون" لم يكن وحده الذى هاجم "شوارتز"، إذ شاركه فى الهجوم آخرون . على أننا التففنا حول رودونسون، ولعلى أنا الذى جادلته أولا حول شرعية إقامة الدولة الإسرائيلية، وحول الحركة الصهيونية باعتبارها حركة عنصرية . وكان الرجل هادئ الأعصاب، يستمد من سمعته العلمية وحياده العلمى قوة تأثير كبرى . التفت إلى قائلاً : لا تتسرع فى الحكم على الحركة الصهيونية. إن لها ما يبررها .

كنا نتكلم فى دهاليز المؤتمر، وفى استراحة من الاستراحات بين انعقادين . ولم نستطع أن نكمل النقاش . وقد ظللت مستريبا فى الرجل حتى ظهر كتاب له بعد ذلك بسنوات قليلة يشجب فيه الاحتلال الإسرائيلى بعد حرب ١٩٦٧ . وقد ترجمناه ونشرناه على حلقات فى "الكاتب" . ولكن الشيء المريب والذى لم أستطع أن استوعبه حتى الآن، هو ما حدث بعد ذلك . إذ عندما جئنا لصياغة البيان النهائى، أصر أعضاء الوفد المصرى على أن يتضمن البيان إدانة للعدوان الإسرائيلى على مصر . وما كدنا نعرب عن رغبتنا هذه، حتى هاجت الدنيا .

وكان من الصعب على مؤتمر ينعقد فى كوبا المناضلة ضد التدخل الأمريكى فى خليج الخنازير وغيره، أن ينكر حقنا فى إدانة العدوان . وربما انقسم المسئولون عن المؤتمر فى هذا الموضوع، على أن غالب الرأى كان يتجه إلى أنه من الأفضل إقناع المصريين بسحب هذه الفقرة، تقديرا لظروف المؤتمر الذى انعقد لتجميع شمل مثقفى العالم ضد النوايا الأمريكية لغزو كوبا، وإسقاط الحكم الاشتراكى فيها .

كنت أنا ومحمد أنيس نسكن فى «سويت» فى فندق هيلتون الحرية فى العاصمة الكوبية مع سائر الوفود . وفوجئنا فى الظهر بقرع على الباب، وعندما فتحنا وجدنا الصحفى الفرنسى "إيريك رولو"، وهو يهودى مصرى عاش كل شبابه فى مصر وتعلم فيها حتى تخرج فى كلية الحقوق المصرية، ثم سافر إلى فرنسا بسبب ظروف التحولات السياسية فى مصر . وكان يعمل فى جريدة "لو موند" ذات الشهرة الواسعة . وكان له أصدقاء كثيرون فى مصر . وكان جمال عبد الناصر يحبه ويثق فيه، ويستقبله أو يستدعيه عندما يكون لديه شىء يريد أن يقوله للعالم . وكان رولو أيضاً قد تربى فى حركات اليسار المصرية . دخل رولو مندفعا وقال حتى قبل أن يلتقط أنفاسه " :ما هذا الذى تفعلونه ؟ أتريدون إفساد المؤتمر للناس الذين دعوكم ؟ ألا تعلمون أن عددا كبيرا من أعضاء هذا المؤتمر من اليهود ؟ وأن إثارة موضوع إدانة إسرائيل لن يوافق عليه أحد، وسوف تهدمون المؤتمر رأسا على عقب" .

استغرق حديثنا وقتا غير قليل، وكان أشبه بالعراك . فالقائمون على المؤتمر، أو جزء منهم رأى أن يرسل إلينا إيريك رولو باعتباره مصريا سابقا، وله سمعة طيبة لدى المثقفين المصريين، ليقنعنا بسحب اقتراحنا بتضمين البيان إدانة للعدوان الإسرائيلى . كنا نتناقش بالعربية المصرية بالطبع، ولكن الذى أثار انتباهى هو حماسته الزائدة وانفعاله الذى وصل إلى درجة الغضب والهياج . وفى النهاية لم نملك إلا التمسك برأينا ومطالبة المؤتمر بأن يضمن البيان النهائى هذه الإدانة . وخرج رولو غاضبا غضبا شديدا . لعلنا تساءلنا أنا وانيس عن سر حماسته هذه، هل هى حقا من أجل إنقاذ المؤتمر من الانهيار بسبب رغبتنا هذه ؟ أم أن إحساسه اليهودى هو الذى أخرجه عن الموضوعية، وعن العواطف التى مازالت تعيش فى وجدانه بالنسبة لمصر .

لم يكن الأمر سهلا، إذ استُدعينا لمقابلة مسئول كبير فى الحزب لنناقش نفس الموضوع، فصممنا على موقفنا . ولم تستطع لجنة الصياغة، وكنا ممثلين فيها أن تستبعد قرار الإدانة . وبالفعل صدر البيان وفيه الفقرة التى صغناها وكان انتصارا كبيرا للوفد المصرى .

وفى المساء وفى الحفل الختامى على ما أعتقد، كان الرئيس كاسترو يتوسط قاعة الاحتفال، فذهب إليه زميلنا نبيل زكى ليعاتبه على الإشكالية التى حدثت أثناء إعداد الصياغة النهائية للبيان الختام، فرد عليه غاضبا : وهل نحن الذين انهزمنا وانسحبنا أمام الجيوش الإسرائيلية ؟

كنت أراقب المشهد من قريب، واحتد النقاش قليلا، ولكن كاسترو عاد فخفف من وطأة الحديث . بينما لاحظت عينى نبيل زكى وهما تغرورقان بالدموع .

مهما يكن من أمر، فان كوبا لم ترفض طلبنا وتجاوبت معنا، وكذلك لجنة الصياغة . ولكن الذى أثار دهشتنا هو حماسة إيريك رولو الذى لم نره أو نكلمه بعد ذلك . ولم يكن موقفه فى

الحقيقة بأسوأ من موقف بريماكوف . إذ كانت فكرته عن السلام بين إسرائيل والعالم العربى متشابهة، أى التسليم الكامل بقيام الدولة الإسرائيلية على الأسس العنصرية، وليس على حق المواطنة، بصرف النظر عن العرق أو الدين . وقد ظل رولو يعمل فى صحيفة "لو موند" إلى أن عين سفيرا لفرنسا فى تونس على ما أذكر . وما زال يعتبر خبيرا فى الشئون العربية يظهر فى الفضائيات العربية بين وقت وآخر .

على أننا إذا استبعدنا كل هذه القصص السياسية، فإن زيارتنا لكوبا كانت حدثا جميلا بالنسبة لنا . كانت «هافانا» مدينة بالغة الجمال، وكان الجو رائعا لا هو بالبارد ولا بالحار . وعندما دعانا السفير المصرى فى بيته، خلنا ونحن نجتاز بوابته الحديدية ونمشى فى الحديقة الواسعة الواقعة على شاطئ البحر، أننا نمشى داخل قصة من قصص ألف ليلة وليلة . وكانت الأنوار تتلألأ فى فوانيس كلاسيكية الطراز تعيد إلى الذهن ثريات الشمع القديمة . وصعدنا سلما مرمريا لامع الدرجات متدرج فيما يشبه القوس، حيث صاحبتنا فوانيسه الجميلة أيضا .

كان السفير من ضباط الجيش المصرى السابقين، وكان إنسانا رقيقا محبا للفن والأدب وللحياة، إذ قضينا لديه سهرة من أمتع السهرات، وعرفنا منه الشىء الكثير عن الحياة الاجتماعية فى كوبا، وعن علاقات الرئيس كاسترو النسائية، وكذلك عن الرجل الرائع "تشى جيفارا"، الذى لم يكن موجودا أثناء المؤتمر . ولعل هذا الغياب كان بسبب الخلافات التى نشأت بينه وبين كاسترو . فقد كان جيفارا أقرب إلى الشاعر منه إلى السياسى . وكان قد نذر نفسه للثورات الشعبية وللعمل من أجل حريات الناس . وكان قد صار العدو الأول للولايات المتحدة فى كل أمريكا اللاتينية . وقد ظلت تطارده عدة سنوات إلى أن تمكنت من قتله قتلة بشعة .

وكانت حياة الكوبيين الجنسية طريفة جدا وملفتة للنظر . كانوا شعبا خليطا من كل الأجناس، وكان للجنس الأسود وجود بارز . وعندما حضرنا حفلا جميلا فى ساحة مستطيلة كبيرة، تتصدرها كنيسة قديمة، وتحيط بها شرفات البيوت الأقرب إلى الطراز الأندلسى، بينما اصطفت الموائد فى قلب الساحة حيث جلس المدعوون، رأينا عرضا جميلا يحتوى على الرقص والغناء ووجدناه يعبر تعبيرا واضحا عن خليط من الثقافة الوثنية القديمة والمسيحية . وكانت تجلس إلى مائدتنا المرافقة الكوبية التى عينتها لنا إدارة المؤتمر، وكانت تجيد اللغة الإنجليزية . كانت فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها رائعة الجمال، وعندما سألتها عما إذا كانت متزوجة ؟ أجابت بالإيجاب . ثم ضحكت وقالت هذه هى زيجتى الثانية، وكانت قد أنجبت من زيجتها الأولى طفلين، وقالت بكل بساطة أنها تركتهما لوالدة الزوج الأول، ثم راحت تشرح لنا حقيقة بالغة الغرابة، وقد استغرقت شخصيا فى تأملها بينى وبين نفسى، وهى أن العلاقات بين الشبان والشابات حرة تماما، وليس هناك أى خوف، لو حدث حمل أثناء هذه العلاقة، فمن المسلم به أن تعطى الطفل لأم صديقها، فهى مسئولة عن تربيته ورعايته، إلا إذا أرادت الفتاة الاحتفاظ به . وكانت الأمهات الكبيرات، أو قل الجدات اللائى لهن عدد كبير من الأبناء الصبيان، يرعين أحيانا عددا أكبر من الأحفاد والحفيدات . ولا يعفيهن من ذلك إلا أن يلتئم شمل الولد والبنت بالزواج ويستقلان عن الأهل .

وكان من السهل على أى زائر، حتى فى الظروف القاسية التى كانت تمر بها كوبا، أن يلحظ كيف يحب الكوبيون الحياة . وكان من المناظر الغريبة أن ترى كناس الشارع الذى يكنس الأوساخ بمقشة قديمة وهو يدخن السيجار .

وكنت أسير فى شوارع هافانا مبتهجا بهذه الحياة الرائعة، وبهؤلاء الناس الذين أطلقوا لأنفسهم العنان فى كل شىء، دون أن تنفرط المنظومة الأخلاقية انفراطا ضارا .

وأثناء تجوالى، رأيت أمامى السفير الكوبى فى القاهرة ومعه امرأة سوداء . سلمنا عليه ورحب بنا وسألنا عما إذا كنا نستمتع بالزيارة، ثم التفت إلى المرأة السوداء وقدمها لنا قائلا : زوجتى . ولعله ذكر لنا اسمها .

بُهتُّ تقريبا فقد رأيت زوجته فى القاهرة وكانت امرأة بيضاء تعد بكل المقاييس من الجميلات . فما الذى حدث ؟ وكان هو رجلا أبيض وسيم الصورة بشكل ملحوظ . تحدثنا فى أشياء عديدة ونحن واقفون، ولكننا لم نتطرق إلى هذا الموضوع الشخصى . وكالعادة رحت أتأمل وجهه وأحاول أن أقرأ فيه تفسيرا لهذا الطلاق وذلك الزواج فلم أستطع أن أقطع بشىء .

بالطبع كانت هناك توترات كثيرة بسبب الحصار الأمريكى، وخوف الثورة من الاختراق أو الدسائس بشكل عام . وبالتأكيد كان لديهم - بناء على كل ذلك - اهتمام وتركيز على المسألة الأمنية وما يعكسه ذلك على الحياة فى كوبا . إلا أنهم بسبب هذا الحب القوى للحياة، لم يشعرونا بالتوتر أو بشىء من القلق كالذى شعرنا به بعد ذلك فى ألمانيا الشرقية أو غيرها .

وكانت كوبا قبل الثورة مشهورة بالاستعراضات الراقصة (عروض الكباريه) . وقد حضرنا حفلاً استعراضياً باذخاً من تلك العروض التى كانت معدة قبل الثورة لتسلية المليونيرات الأمريكان، الذين كانوا يعتبرون كوبا ملهىً سياحياً يقضون فيه إجازاتهم الطليقة، مستمتعين بهذه الفنون وبالحياة المتحررة . وفى هذه الحفلات الصاخبة يقدم الـ "ستيك" الكوبى الشهير، وهو كتلة ضخمة من اللحم، مع شىء من التوابل المطهوة بشكل جيد تماما، إلى جانب المشروبات الكحولية التى كانوا يشربون كميات هائلة منها . وبالفعل كانت سهرة مليئة بالمرح والصخب والعلاقات السهلة والسريعة بين أفراد لا يعرفون بعضهم البعض إلا منذ لحظات .

ربما لهذا السبب أحب "همنجواى"، الكاتب الأمريكى الشهير، كوبا واشترى بيتا فى هافانا عاش فيه أغلب حياته، ولكنه كان قد توفى قبل ذلك بسبع سنوات . وفى هذا البيت الكوبى، كتب رائعته "العجوز والبحر" وأظنه انتحر فيه أيضاً بعد أن مر بحالة حادة من الاكتئاب المرضى . والرواية نفسها محاولة للإفلات من الشعور بعدم الجدوى، وأن الأخلاق والقيم بشكل عام لا وجود لها خارج الكيان الإنسانى، وكأن الإنسان محبوس فى كيانه الذاتى، وليست له أية مرجعية أخرى . وأن جدوى أى نشاط فى الحياة الإنسانية، هى لتأكيد تفوقه أو إحسانه لذاته، وليس لأى كيان آخر . فالصياد العجوز فى الرواية، اصطاد بعد جهد جهيد سمكة كبرى، واستخدم فى ذلك خبراته المهنية وبراعته العقلية والعضلية، ولكن سمك القرش أكل السمكة وهو يسحبها إلى الشاطئ ولم يبق منها إلا هيكلها العظمى . وكأن هذا الجهد المضنى مصحوبا بكل المهارات، لم يكن من أجل الاستفادة بل من أجل إثبات إصرار الإنسان ومهاراته وقدرته على عمل ما يشبه المعجزات . ولكم خاض "همنجواى" من مغامرات، ولعله كان يحاول البحث عن جدوى للحياة أو معنىً . وكنت شخصيا من المعجبين به عندما بدأنا القراءة وخاصة

روايته الرائعة "لمن تدق الأجراس؟"، وكانت عن الحرب بين اليمين الفاشى فى إسبانيا وبين الثوار الاشتراكيين، والتى انتهت بهزيمة اليسار هزيمة نكراء، وظلت إسبانيا أسيرة حكم "فرانكو" العسكرى الفاشى، الذى كان حليفا للمعسكر النازى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية . وكنت قد نشرت بالفعل ترجمة لرواية "العجوز والبحر" فى جريدة الشعب على حلقات فى أواخر الخمسينيات .

كان الجو فى "هافانا" رائعا بل قل غريبا إذ كنت أشعر أن صحتى تتحسن، وأن حواسى جميعا قد دب فيها نشاط ملفت للنظر . وأقبلت على الحياة بشغف ويبدو أن هذا هو ما حدث لزملائنا حتى كبار السن منا إذ جاءت الينا - أنا ومحمد أنيس - المرافقة الكوبية لتشكو من تحرشات جنسية من بعض أعضاء الوفد، وأنها جاءت لتخبرنا أنها طلبت من المشرفين على المؤتمر إعفاءها من العمل معنا . وكانت الفتاة متأثرة جدا لدرجة البكاء . ولكننا طيبنا خاطرها ووعدناها بأننا سنفاتح زملاءنا الذين تحرشوا بها لنطلب منهم أن يكفوا نهائيا عن ذلك . ولعل الحرية الصريحة التى أحسسنا بها جميعا جعلت الزملاء يظنون أنهم بمجرد إبداء رغبتهم فى المعاشرة الجنسية لأية فتاة كوبية، سوف تندفع إليهم مستجيبة . أو لعل هذا الجو أو الطقس المدهش هو الذى أثار زملاءنا دون أن يفطنوا إلى أن الحريات هنا مربوطة بالرغبة المشتركة والاحترام المتبادل .

لم نكن قد قرأنا لأدباء أمريكا اللاتينية إلا القليل جدا فى ذلك الوقت حتى أننى عندما رأيت فى المؤتمر شيخا ضخما أقرب إلى أن يكون ضريرا وسألت عنه فقيل لى أنه "بورخيس" . وكان الرجل أعظم شخصية أدبية فى كل أمريكا اللاتينية . وكان فى كل تحركاته محاطا بالاحترام لدرجة ملفتة للنظر . ولكننى لم أعرف قيمته الحقيقية إلا بعد أن قرأته وقد أذهلنى بالفعل . كما حدث بالنسبة لكاتب آخر لم أكن أعرف عنه شيئا قبل أن أعيش تلك الفترة القصيرة نوعا ما فى بريطانيا، وهو الكاتب السويسرى الألمانى "هيرمان هسه" فقد نبهتنى إليه صديقة عراقية كانت تعمل فى الإذاعة البريطانية . وكانت ثورة الطلبة فى إبان اشتعالها حينذاك، فوجدت أن تأثير «هيرمان هسه» على الشباب فى البلاد الغربية كلها كبير جدا . وكانت الصحف المتابعة للثورة تقول أن المتظاهرين يحملون فى أيديهم كتب "هيرمان هسه" إشارة إلى التأثير الثقافى الخارق لهذا الكاتب على الشباب .

كنا فى مصر وفى العالم العربى أيضاً مشغولين بمتابعة كتاب اليسار . كنا نعرف أغلب الكتاب اليساريين فى العالم حتى هؤلاء الذين يحسبون - فى واقع الأمر _ كتابا متوسطين . كنا معجبين مثلا بكاتب أمريكى هو "هوارد فاست"، الذى كتب رواية عن "سبارتاكوس"، الذى قاد ثورة العبيد فى الإمبراطورية الرومانية . وكانت أهمية الكتاب أنه تفسير لمفهوم الصراع الطبقى فى النظرية الماركسية وتطبيقاته الواقعية ومنها ثورة «سبارتاكوس»، وكان ماركس قد أشار إلى هذه الثورة بالفعل فى كتاباته . وأذكر أن المثقفين العرب ترجموا بعض أعمال هذا الكاتب، وشاعت بين القراء العرب فى ذلك الوقت . ولكن بعد عقدين أو أكثر قرأت لهذا الكاتب، الذى لم يكن فى الواقع كاتبا قديرا، مقالا جارحا بالغ السخافة دفاعا عن إسرائيل فى أحد مواقفها العدوانية التى لا يمكن لعاقل أن يدافع فيه عنها، وكان مليئا بالتجريح للعرب وكراهيتهم . وعرفت أنه يهودى أيضا . ولكننا كنا نعرف كاتبا وشاعرا آخر من أمريكا اللاتينية هو "جورج أمادو" الذى كان موهوبا بحق .

كان "بورخيس" ملء السمع والبصر عندما رأيته فى هافانا، ولكننى كنت من الجهل بحيث لم أعرفه. وعندما سألت أحد المرافقين الكوبيين اكتفى بأن قال لى أنه "بورخيس"، ظنا منه أن مجرد ذكر الاسم كاف بالنسبة للتعريف به . وتكفيرا عن هذا الذنب رحت أبحث عن كتبه بعد ذلك . ووجدتنى أعيش معه مرحلة فكرية أخرى، فأنا هنا أقرأ مفكرا وفنانا تجاوز كل الثقافات المطروحة بما فى ذلك الفكر الماركسى ومرادفاته المختلفة من إنجازات المفكرين الماركسيين المعاصرين الكبار . استوعب "بورخيس" الأفكار الرئيسية التى أنجزت على مدار التاريخ البشرى وراح ينظر إلى العالم الإنسانى نظرة من الممكن أن نقول أنها فوق النظريات المعروفة أو المتجاوزة لها . قرأته فى التراجم بطبيعة الحال وفتح لى آفاقاً جديدة . وقد حدث لى نفس الشىء بالنسبة لـ "هرمان هسه" الألمانى . وكانت "ذئب البرارى" هى التى بدأت بها قراءته وثنيت بـ "لعبة الكريات الزجاجية" ثم قصصه القصيرة . وكان مثل "بورخيس" متجاوزا للنظريات، ذا نظرة شاملة لرحلة الإنسان فى وجوده على ظهر كوكب الأرض . وكنت أعجب للحوار البارع الذى يتناظر فيه محاورون من طراز فكرى رفيع جدا، فيتعذر على القارئ أن ينحاز إلى أى منهم، بسبب قوة الحجج التى يطرحها كل منهم لدحض آراء الآخرين . وأذكر بالنسبة لـ "هيرمان هسه"، أننى عندما عدت إلى القاهرة فى نهاية سنة ١٩٦٨، تحدثت عنه فى مقالاتى بجريدة الجمهورية، ولعلى أعطيت رواية "لعبة الكريات الزجاجية" لنجيب محفوظ، وبعد فترة سألته أن كان قد قرأها، فقال أنه قرأ منها أجزاءً طويلة، ولكنه لم يعجب بها لإغراقه فى التفكير الفلسفى أكثر من السياق الفنى . وقد صدمنى هذا الرأى إذ كنت مفتونا بها . ولكنى راجعت نفسى، فأنا أعرف أن نجيب محفوظ ينتمى إلى مدرسة أخرى فى أدب الرواية هى مدرسة "توماس مان" الألمانى أيضا .

كان تأثير هذا الأخير على أدب الرواية كبيرا فى العالم . وقد فاز بجائزة نوبل فى أوائل الثلاثينيات، على ما أذكر، بينما لم يحصل "هيرمان هسه" على هذه الجائزة إلا فى سنة ١٩٤٦، إذا لم تخوننى الذاكرة . وربما لولا اهتمام شباب ثورة الطلبة بكتاباته فى سنة ١٩٦٨ لظل مجهولا بالنسبة لكثيرين من سكان العالم الثالث . ومن حسن الحظ أن المثقفين المصريين من دارسى الأدب الألمانى انتبهوا إليه فصدرت ترجمات متلاحقة لكتبه الأساسية قام بها أستاذ بارع هو الدكتور مصطفى ماهر . ولعلى أغريت صديقى فؤاد كامل، الذى عمل لفترة ما مديرا لإذاعة البرنامج الثانى فى القاهرة، والذى درس الفلسفة وعاشها حتى فى حياته الخاصة، وترجم أعمالاً معاصرةً بالغة الأهمية، منها الكثير من قصص «هسه» القصيرة وإن كانت، عن الإنجليزية على ما أذكر . على أن "بورخيس" لم يترجم إلى العربية إلا مؤخرا منذ عقد أو عقدين على الأكثر . والعجيب أن «بورخيس» كان قد عاش فترة طويلة من حياته أمينا عاما لمكتبة كبرى، وكذلك «هيرمان هسه». فهل هناك علاقة ما بينهما بسبب هذه الوظيفة ؟ أم بسبب فرصهما المشتركة فى القراءات العميقة ؟

أحسست - بشكل ما - وأنا أتجول فى شوارع هافانا والمدن الكوبية الأخرى التى زرناها، كما لو كنت هنا من قبل فى زمن ما . فالعمارة الكوبية أشبه بالعمارة الأندلسية، أو قل العربية، فالشرفات مسوَّرة بالحديد الأسود المشغول، و النوافذ ذات "الشيش" الخشبى المقطع، والوجوه تشى بأنها من سلالات عديدة، مرت بها كل الألوان ما بين الأسود والأبيض والأصفر والأحمر، وتجعل أغلب البشرات أميل إلى اللون القمحى الذى يسود فى شوارعنا فى غالبية البلاد

العربية. والعيون السوداء المذهلة تطل عليك من وجه مشرق مشرب بالحمرة محاط بإكليل من الشعر الأسود المموج . وحين يبرق بياض العينين بالفهم والإعزاز، فجأة يخطف القلب خطفا فيدور الإنسان حول نفسه ويكتشف جمال الحياة الذى كان خافيا لسبب أو لآخر .

نمنا ليلة أو ليلتين فى جبال "سيرا مايسترا" الشهيرة فى عشش مثل عشش مصيف رأس البر فى مصر، محاطة بالبوص وما يشبه الحصير فى ذلك الجو المذهل، الذى يغلف أجسامنا فينعشها ويوقظ حواسها حيث يدرك الإنسان لسبب ما عذوبة وعظمة أن يكون حيا، وهو أمر لم أعرفه فى حياتى إلا قليلا . قد تكون سائرا فى شارع من الأسفلت أو متمشيا فى حديقة غناء، أو مسترخيا فى مقعد فى شرفة من الشرفات، فتشعر فجأة أن جسدك يعمل فى كامل كفاءته، وهذا هو أعظم شىء يحدث لإنسان . وبالفعل وقع أحد رفاقنا فى الحب حتى أنه بسبب ما لقيه من صد حاول الانتحار بابتلاع كمية من أقراص الأسبرين، ولكنه أنقذ على أية حال دون أن يشفع له ذلك عند الحبيبة . وقد عرفت بالمصادفة الحبيبة وجلست إليها أداعبها معاتبا كيف تمنعت على الرجل حتى أوشكت أن تقضى عليه . ورغم أنها كانت تعرف أنى أداعبها، هزت كتفيها ولمعت عيناها بزهو عجيب وبدت لى كما لو كانت قد نبتت فجأة من قلب هذه الأرض الشديدة الخصوبة، قطعة حية بالغة الجمال والحيوية، وكأنها تلقى كل ما حدث على الطبيعة الأم التى خلقتها على ما هى عليه، من قوة الجذب التى لا حيلة لها فيها .

لم أكن أيضاً قد قرأت "جارسيا ماركيز" ولعلى لم أتعرف إلى كتاباته إلا فى النصف الثانى من سبعينيات القرن العشرين، عندما قرأت لأول مرة روايته "مائة عام من العزلة" فأثارتنى فنا وفكرا، بل لعلها أقلقتنى لمدة طويلة . فها هى ذى مجموعة من البشر جاءت إلى حافة نهر وأقامت مدينة وعاشت فى هذا المكان مائة عام، دون أن تحتك بأى جهة أخرى، ثم راحت تنقرض فردا وراء آخر حتى انتهت تماما . وجاء النمل القارض فأكل كل شىء بحيث لم يبق أى أثر يدل على أن قوما ما عاشوا فى هذا المكان فى زمن ما . وهى رؤيا مخيفة طالما راودتنى . هل عاش على هذه الأرض أقوام لم نعرفهم ولم يبق منهم أثر ؟ وهل من المعقول أنه طوال مليارات السنين التى عاشتها الأرض وفقـا لتقـديرات الجيولوجيين، لم تنتج الطبيعـة إلا الـ "هوموسيبيان" _ الإنسان - والسلالات التى سبقته وأدت إليه أو الأنواع الأخرى، التى قضَى عليها أو قضت عليه لسبب أو لآخر من أسباب الطبيعة . ثم إذا كان الأمر كذلك، أليس من المحتمل جدا أن هذا الـ "هومو سيبيان" من الممكن أن ينقرض تماما ولا يترك أى شىء يدل على أنه كان هناك فى يوم من الأيام نوع من الكائنات عاش مائة ألف أو مائتى ألف أو حتى ثلاثمائة ألف سنة، واجتاز الفضاء وأنتج أدبا وفنا، وتطلع بقلق إلى هذا الكون البالغ التعدد والاتساع، وتفلسف على قدر طاقته ثم اختفى تماما وكأنه لم يكن . وهاهى ذى أخطار الانقراض أمامنا، حتى دون تدخل الطبيعة . فهاهى، ذى بعد عدة قرون من الحضارة، وتقدم هذا النوع من الأحياء، مازالت الحروب بين أفراده وجماعاته قائمة وهاهو ذا سلاح خطر فائق الدمار تمتلكه جماعاتهم المتخاصمة، يستطيع أن ينهى الحياة على الأرض . ثم أليست كل الدلائل تدل على أن الحظ وحده هو الذى يبقى هذا النوع حيا، وأنه من المحتمل فى أى لحظة من لحظات هذا الكون السرمدية أن يضرب كوكب الأرض نيزك، فينهى الحياة فيها بشكل كامل ؟ وما معنى كل ذلك ؟ وما تأثيره على أفكارنا وحياتنا ؟ أليست مثل تلك الأفكار هى التى قتلت همنجواى ؟

على أن "جارسيا ماركيز" لم يغلق جميع النوافذ فى روايته الرائعة هذه، إذ كان هناك دائما شىء أقرب إلى أن يكون سحريا، أو قل روحيا، يحلق حول هذه القرية العجيبة، يأتى به عابر جوال، وكأنه موفد من عوالم أخرى يتكلم بالألغاز أو بالإيحاء . ثم هناك الخوارق البسيطة، حيث تطير الأشياء أحيانا دون علاقة سببية معروفة ؟

على أن تلك اللحظات الكونية والتى استغرقت فى روايتنا مائة عام كانت مليئة أيضاً بالحيوية التى يفجرها الحب والعلاقة بين جنسَىْ هذا الكائن العجيب «الهوموسيبيان»، والتى تبدو على الرغم من كل شىء أقوى من مجرد متعة عابرة، وربما كان فيها سرٌ كونى لم يكتشفه أحد بعد .

ولكن هل هذه شطحة من شطحات الفن وأمنيات الإنسان فى مواجهة الهلاك الساحق ؟ وأن الكون فارغ فراغا باردا ولا منجاة منه على الإطلاق ؟ وكم يبدو الدين هنا ضرورة مطلقة لاستمرار حياة هذا الكائن العجيب ؟

وإلى جانب كل ما تثيره هذه الرواية من أفكار، كانت الحياة فى أمريكا اللاتينية شديدة الوضوح . هذا الشعب المحب للحياة والمتهالك عليها ثم جنوحه الديكتاتورى بعسكرييه وإبائه السلطويين . أليس هذا ما لمسناه إلى حد ما فى تلك الفترة التى قضيناها فى كوبا ؟

ولست أدرى ما الذى جعلنى أشعر بأن هناك صلة بيننا نحن أبناء الشرق الأوسط وبين شعوب أمريكا اللاتينية . إنهم أيضاً عاشوا الحضارة التى تكونت من تداخل العرق العربى والثقافة العربية مع هذه الشعوب، التى سكنت ما يسمى بأمريكا اللاتينية ومنابعها فى أسبانيا العربية والإسلامية واليهودية والمسيحية بل والوثنية السحرية .

٢٨

عالم التمثيلية الإذاعية

كانت هواية الحكْى عندى أساسية . وكان دخولى إلى الأدب عن طريق الشعر أولا ثم القصة القصيرة تمهيدا لكتابة الرواية . كتبت الشعر بالفعل وأذكر أننى قرأت قصيدة كنت قد نظمتها على الكاتب المسرحى والشاعر على أحمد باكثير، الذى كانت تربطنى به صداقة جميلة فأعجب بها ولكنه قال وكأنما بشكل عابر : أنت تفكر كثيرا فى شعرك وهذا ليس من طبيعة الشعر .

يبدو أن المبتدئين فى الإبداع الأدبى يريدون إبهار الآخرين بما يبدعون، وليس مجرد الإعجاب . ولما لم ينبهر باكثير بما قرأته، رحت أراجع نفسى فى مسألة الشعر .

كنت بالطبع أحب الشعر جدا وأقرؤه منذ الصغر . ولعل أول ما قرأته بعناية وحب كان كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الذى وجدته فى مكتبة جدى لأمى، وكان عرضا موسوعيا للشعر العربى ونقدا له . وعن طريق هذا الكتاب، عرفت الشعراء العرب ورحت أبحث عن دواوينهم، ثم رحت أتابع أشعار المعاصرين فى مجلتىّ الرسالة والثقافة ثم المجلات الأدبية الأخرى . والحق أننى كنت أفكر بالفعل كما قال لى باكثير، وكنت أشعر أن الشعر أضيق من أن يحتمل ما أريد أن أعبر عنه . وقد حاولت أن أكتب مسرحية بالشعر، وقضيت وقتا وأنا أحاول التحرك بحرية فى محبسى الشعرى . ولعلى قلت لنفسى أن الشعر ليس مجالى . على أنى عرفت بعد ذلك أن الشعر نوع من الإبداع الشديد التركيز والمصفى إلى أقصى درجة، ولعلى قلت لنفسى هو ماس الكلام . على أننى كنت فى نفس الوقت أكتب القصة القصيرة والنقد الأدبى . وكان تعرفى بباكثير ونجيب محفوظ وزملائهما عن طريق مقالات نقدية كتبتها فى جريدة الكتلة فى أواخر الأربعينيات، ثم فى مجلة الفصول، التى نشرت فيها بعض قصصى أيضا . على أننى استُدرجت لكتابة التمثيلية الإذاعية . وكنت فى حوالى الثانية والعشرين من عمرى عندما أذيعت لى أول تمثيلية . وعلى الرغم من أننى لم أعتبرها أدبا، إلا أننى اكتشفت أنها أكثر تركيبا أو تعقيدا، فهى تصل إلى جمهورها عن طريق الصوت فقط، وأنه على الكاتب أن يتعامل مع الصوت فقط وليس أمامه شىء آخر . الموسيقى والأصوات الأخرى كوقع المطر أو طرق على باب أو موتور سيارة دائر إلى آخر الأصوات التى تذخر بها حياتنا . وللصوت دلالة خاصة، سواء فى الكلمة ونطقها، أو فيما يسمى بالموسيقى التصويرية، أو المؤثرات

الصوتية الأخرى، وأن كل ذلك يكوّن تركيبة صوتية تقدمها التمثيلية الإذاعية، وكأن فيها شيئا من توليفة الأصوات فى المقطوعة الموسيقية إلى جانب التجربة الحياتية التى تجسدها .

شدتنى الكتابة للإذاعة إليها بسبب مكافأتها المالية الأكبر، إذ كانت الصحف تدفع لنا ما لا يزيد على خمسة جنيهات عن القصة، بينما أعطتنى الإذاعة عشرين جنيها عن التمثيلية . طبعا كان هواى مع القصة، ولكن العشرين جنيها كانت مبلغا كبيرا فى ذلك الوقت، وكنت فى حاجة إليها بسبب ظروف حياتى حينذاك، والتى لم تكن سهلة على الإطلاق .

وقد لاحظت – على كل حال – أن القصة تحتاج منى إلى الفكرة والتعايش معها فترة ما حتى تنضج، وتكاد تملى نفسها علىّ، بينما كان الوضع أسهل بالنسبة للتمثيلية الإذاعية، إذ كان يكفى التخطيط العام، ثم المضى فى نسج الموضوع . وكنت قد أقنعت نفسى أننى أكتب للإذاعة بشكل مؤقت إلى أن أملك التفرغ للكتابة الأخرى .

وبسرعة وجدتنى أعمل فى الصحافة . وكان عملى الأساسى هو إعادة كتابة الموضوعات الصحفية التى سننشرها مثل التحقيقات الصحفية أو حتى الأخبار . وكنت بعد أن أجلس ساعات إلى مكتبى فى الجريدة التى أعمل بها، وأنا أعيد كتابة العشرات من الموضوعات، أشعر أن طاقتى الإبداعية قد تسربت إلى هذه الإعدادات وذابت فيها وانسربت كل الأفكار التى كانت تشغلنى إليها، وهكذا تنفلت منى كل مشروعات الإبداع الأدبية التى كنت أفكر فيها وأعدها للكتابة .

هناك آلية ما فى المجتمع المصرى لا أعرف ما إذا كانت مستمرة أم لا، وهى التى يتم بها انتخاب الكتاب والفنانين الجدد وضمهم إلى حركات الإبداع فى المجتمع . فأذكر مثلا أننى عندما ظهرت فى جريدة الكتلة بسبب صديق لى كان سكرتيرا لتحرير الجريدة، وجدت مجموعة من الكتاب أكبر منى سنا فى الغالب . وجدت يوسف السباعى وزكريا الحجاوى ومحمد على ماهر ويوسف الحطاب وآخرين . وبسرعة أصبحنا أصدقاء . كنت أكتب القصة القصيرة إلى جانب مقالات فى الأدب . كنت مغرما بالأدب الروسى وبـ "أنطون تشيكوف" بصفة خاصة . ولعلى كتبت سلسلة مقالات عن هـؤلاء الكتاب الروس، وكان المجتمع المصرى منذ بدايات القرن مهتما بالأدب الروسى . ولعل اهتمام الأدباء المصريين، بل والعرب عموما بالأدب الروسى قد زاد إبان الحرب العالمية الثانية . ربما كان الكاتب اللبنانى "ميخائيل نعيمة" هو الذى أثار انتباه القراء العرب لهذا الأدب، إذ أنه تعلم فى روسيا وعرض كثيرا للأدب الروسى .

وعندما بدأت القراءة كانت هناك ترجمات لبعض قصص وروايات هذا الأدب، وكان بالنسبة لى شيئا ممتعا، وكان "تشيكوف" هو الكاتب الذى أحببته أكثر من غيره . وعندما التقيت بأصدقائى من الأدباء فى مثل سنى، كان كل منهم قد اكتشف الأدب الروسى وفتن أيضا بكتابات "تشيكوف" . طبعا هناك أسباب كثيرة لهذا الافتتان . ربما لأن المجتمع الروسى أثناء هذه الإبداعات الكبرى كان أقرب إلى أن يكون مجتمعا زراعيا، ويخطو ببطء نحو المجتمع الصناعى، وهذه كانت حالة المجتمع المصرى تقريبا .

وكان المصريون قد خاضوا عدة تجارب ثورية منذ عرابى فى أواخر القرن التاسع عشر، وكان المجتمع الروسى قد دخل فى تجارب مماثلة . وكان المصريون فى القرن التاسع عشر قد

حاربوا إلى جانب الأتراك ضد الروس فى عدد من الحروب، وبالتالى كانت روسيا حاضرة فى أذهان المصريين الذين لعبوا دورا فى السياسة العالمية فى القرن التاسع عشر، أيام محمد على وبعده . وكانت الثورة الاشتراكية قد هزت العالم كله ثم نبهت المصريين، ربما أكثر من غيرهم من المجتمعات العربية الأخرى، إلى إمكانية تغيير النظام عن طريق الثورة الشعبية . وكان المصريون أيضا يعرفون، منى الثورة الشعبية من أيام ثورة سنة ١٩١٩.

وبالفعل قامت حركة شيوعية مصرية فى وقت مبكر جدا، فى أوائل عشرينيات القرن العشرين . وعندما أجهضت هذه الحركة، قامت حركة جديدة أثناء الحرب العالمية الثانية كانت أكثر اتساعا وشمولا، وهى التى عاصرتها فى أواخر الأربعينيات .

كان الاهتمام بالتجربة الروسية من شأنه أن يؤدى بنا إلى دراسة الأدب الروسى، خاصة ما قبل الثورة . بل أن الأمر تجاوز الأدب إلى الموسيقى .

وكان جيلى قد تعرف أيضا على الموسيقى الروسية وكنا قد بدأنا نقتنى السيمفونيات الروسية لنسمع "تشايكوفسكى" و"كورساكوف" ثم "رحمانينوف" و"خاتشادوريان" وغيرهم . وأحب المصريون سيمفونية "شهر زاد" لـ "كورساكوف" التى كان المخرج الإذاعى محمد محمود شعبان قد اختار بعض مقاطعها كمقدمة لمسلسل عن ألف ليلة وليلة، الذى كان يخرجه للإذاعة.

هكذا كان اهتمامنا بالثقافة الروسية وخاصة أدب ما قبل الثورة وكأننا كنا نريد أن نعرف الممهدات التى مهدت للثورة فى هذه الثقافة . وكان العالم كله فى الواقع مهتما بأحوال هذا المجتمع الذى ظهرت فيه أول ثورة اشتراكية . كنا نقرأ هذا فى الأدب الإنجليزى بصفة خاصة . وكان أغلب الكتاب الإنجليز معجبين، أو قل حتى مفتونين بالأدب الروسى وخاصة فى الرواية والقصة القصيرة . وأظن أن غالبية الروائيين المصريين قد خرجوا من عباءة الرواية الروسية وإن كانت اهتمامات نجيب محفوظ تنتمى إلى "توماس مان" الألمانى و"دوس باسوس" الأمريكى و"تشارلز ديكنز" الإنجليزى حسب ما ورد فى الكثير من تصريحاته .

اهتمت إذًا بالأدب الروسى ورحت أكتب عنه فى أولى مقالاتى بجريدة الكتلة، وهى الجريدة التى أصدرها مكرم عبيد سكرتير عام حزب الوفد، الذى انشق عليه وبدأ فى مهاجمته . على أن انضمامى لهذه الجريدة لم يكن له علاقة بالسياسة من أى جانب، إنما جاء بمحض الصدفة بسبب وجود صديق لى كان يعمل فى الجريدة . حقا كنت محبا للوفد، ولكننى كنت اشتراكيا ماركسيا فى ذلك الوقت، وبالتالى لم تكن لدى مشكلة فى الموقف السياسى بالنسبة للأحزاب المصرية المتصارعة .

وفى جريدة الكتلة نشأت صداقة بينى وبين الكتاب الذين يعملون بها وخاصة زكريا الحجاوى ومحمد على ماهر ويوسف الحطاب . وهؤلاء أخذونى إلى المقهى التى يلتقون فيها وهى مقهى عبد الله بالجيزة، والتى كانت ملتقى للكثير من الأدباء وأساتذة الجامعة . وفيها تعرفت على من كانوا نجوما فى الحركة الأدبية المصرية بل والعربية أيضا . إذ كان الكثير من الأدباء العرب يلتقون فى هذا المقهى مع زملائهم . وكانت جامعة القاهرة تضم العديد من طلبة الجامعة العرب ومن كل أنحاء العالم العربى تقريبا . فهناك تعرفت أيضا على سامى الدروبى السورى، والذى صار سفيرا لسوريا فى مصر ثم وزيرا، وهو الذى ترجم كل أعمال

"دستوفيسكي" إلى اللغة العربية ترجمة محترمة إلى اليوم . التقيت بمحمد مندور ولويس عوض ومحمد كامل حسين وعلى أدهم وأنور المعداوى ومحمود حسن إسماعيل وكثيرين غيرهم . وهكذا وجدت نفسى داخل هذا المجتمع النخبوى الرائع قبل أن انضم أيضا إلى ندوة نجيب محفوظ فى كازينو بديعة بميدان الأوبرا بالقاهرة .

هكذا ينجذب الكاتب الجدد إلى هذه التجمعات فيسمع الواحد منهم ويتكلم ويختبر وجوده فى الواقع، فإما أن يستمر، وإما أن ينصرف وهذا يحدث بطريقتين: الأولى من ردود الفعل التى يلقاها من الحاضرين، والثانية: من جانبه هو حين يدرك أنه ليس متوافقا مع الجو العام . ولكن غالبا ما يكون الكاتب الجديد قد عرف هؤلاء الأساتذة من خلال ما ينشر لهم فى هذه الصحيفة أو تلك وليس من مجرد تقديمه لهم من جانب واحد من أعضاء هذه الجلسة الحرة . وكان هذا حالى تقريبا .

وعندما أتذكر هذه الجلسات أعرف كيف استفدت منها ثقافيا إلى أقصى حد. كنت أستمع إلى المناقشات سواء حول السياسة أو الأدب أو الفلسفة أو التاريخ . وكانت هناك مباراة بينهم - هؤلاء الكبار - حول ما ينشر فى العالم من كتب وحول الأفكار الجديدة التى يتردد صداها فى العالم . وكان من الطبيعى أن ينقسموا ما بين اليمين والوسط واليسار، بين الفكر الليبرالى والفكر الاشتراكى والراديكالى بشكل عام . وكان من الضرورى على الوافد الجديد أن يقرأ هذه الكتب ويتابع تلك الأفكار، وإلا أصبح عبئا على الجلسة . بالطبع لم تكن القراءة سهلة دائما وكثيرا ما كانت تختلط الأمور على القارئ فى سنه المبكرة فتمر أشياء عليه دون أن يفهمها بشكل جيد، فكانت المناقشات توسع هذا الفهم وتصحح الكثير من أخطاء القراءة . ولعلى عرفت منذ وقت مبكر أن القراءة ليست عملية سلبية بل هى نوع من التعامل مع النص المقروء يرقى، أحيانا إلى مرتبة الخلق، وأن القراءة الجيدة تحتاج إلى خبرة عميقة ومواهب عديدة أيضا .

وبالفعل يحدث ما يشبه الانتخاب الطبيعى إذ سريعا ما يأخذ الوافد الجديد مكانه الصحيح أو الأقرب إلى الصحة فى هذا المنتدى الحر والمفتوح وعن طريق هذا الانتخاب يجد المساعدة فى الانتشار فى مجالات النشر المختلفة . وكنت أتحرك مثل كثيرين من أمثالى فى أكثر من مجال ثقافى مثل مجلة القصة، التى كان يرأس تحريرها الشاعر إبراهيم ناجى، أو مجلة الفصول التى كان يرأس تحريرها محمد زكى عبد القادر أو جريدة الكتلة أو المصرى، التى كتبت فى ملحقها الأدبى عمودا يوميا تحت عنوان "قصة فى خمس دقائق"، كنت أختارها من مجموعات القصص القصيرة التى كنت أجدها فى مجموعات "البيليكان" الإنجليزية والتى كانت تباع على رصيف حديقة الأزبكية بنصف قرش مصرى . ثم فى جلسة نجيب محفوظ وزملائه إلى جانب مقهى عبد الله بالطبع التى كانت تتميز بأنها يومية . وأيضا فى المحاضرات العامة . وفى أحد الأيام قابلنى صديقى يوسف الحطاب، الذى كان سيلقى محاضرة فى الجامعة الأمريكية، وكان قد عين منذ قليل مخرجا فى الإذاعة المصرية بعد أن تخرج فى معهد الفنون المسرحية، وأثناء حديثنا معا اقترح علىّ أن أكتب التمثيلية الإذاعية . وهو الذى فتح أمامى الطريق بما قدمه لى من نماذج للكتابة إلى للراديو وبما أعارنى من كتب فى هذا الموضوع .

بعد قليل وقعت فى غرام التمثيلية الإذاعية وكنت قد بدأت أتفهم إمكانيات هذا الشكل الفنى وتأثيره الجماهيرى وإيقاعاته الصوتية البالغة الأهمية وقدرة الحوار وحده على أن يرسم الشخصية ويحدد ملامحها وكل طبائعها وتأثيرها وتأثرها فى مسار التمثيلية . وكان فى هذا من التحدى للكاتب ما يجعله ينكب على العمل لإيجاد الحلول لكل مشكلات الإبداع فى هذا المجال . وفى نفس الوقت بدأت أعيش فى بيئة جديدة كانت فى رأيى بالغة الجمال . إذ رحت أتعامل مع المشتغلين بالفن الإذاعى من المذيعين والمذيعات إلى المخرجين والى الممثلين والممثلات . وفى هذا الوقت كانت الإذاعة هى المنبر الأكثر تعاملا مع الفنانين أكثر من المسرح والسينما .

وكما كان يحدث فى الأدب، كان يحدث أيضا فى الفن التمثيلى . دائما يظهر وجه جديد ويدور فى تلك العملية التى تحدث دون قصد والتى أسميها الانتخاب الطبيعى . كنت فى العشرينيات من عمرى حين رحت أعد بعض مسرحيات "تشيكوف" للإذاعة . وقدمت مسرحية "بستان الكرز" وأذكر أن دور البطلة الصغيرة فى المسرحية، وكانت شخصية رائعة لا أذكر اسمها الآن، رشحت له فتاة جديدة كانت خريجة قسم المسرح فى معهد الفنون المسرحية وقامت به ببراعة ملفتة للنظر، وكان اسمها كريمة مختار . ربما كانت فى العشرين من عمرها أو أكثر قليلا، وكانت بحق رائعة الجمال . كانت خجولة جداً، لكن عندما تقف أمام الميكرفون، تتدفق بقوة دون أن يرمش لها جفن . والحق أننى تعرفت على الكثير من الممثلات والممثلين، وكان من أجمل أيام حياتى، أن احضر البروفات والتسجيل وأراقب هذه المواهب المصرية وهى تتكون وتتضج وتتفوق، وتنعقد بينى وبينها صداقات وطيدة .

بالفعل كانت مصر تتحرك نحو مشروع نهضوى واضح، يدركه كل العاملين فى المجال الثقافى، وخاصة مجالات الإبداع الفنية . وكانت هذه الشرائح من المجتمع المصرى تمتلك منظومة أخلاقية عصرية، ربما أهم ما فيها هو التسامح واتساع الأفق، وكانت فى الواقع تشكل طلائع لهذا المجتمع وتخوض تجارب ربما لم يمر بها الجيل أو الأجيال السابقة . وربما بسبب التفاؤل الذى كنا نعيشه بالنسبة لمستقبل مجتمعنا، كان الإقبال على الحياة بالغ القوة، نفعل ذلك بشهوة المعرفة وشهوة السعى إلى الجديد وإصلاح الأحوال وشهوة الحب بطبيعة الحال .

وربما كانت الصدفة وحدها التى جعلتنى أكثر اطلاعا على التراث العربى والإسلامى أكثر من زملائى . إذ وجدت أمامى مكتبة جيدة فى هذا المجال لدى جدى لأمى، فى الوقت الذى لم أكن أجد شيئاً أعمله، فانكببت على قراءتها . وقد بدأت هذه القراءة وأنا فى الثانية عشرة من عمرى تقريبا ولست اذكر ما الذى جعلنى اقترب من كتب مثل "تهافت الفلاسفة" و"تهافت التهافت" ولعل ذلك كان على الأرجح بسبب انتهائى من الكتب السهلة مثل الأغانى والعقد الفريد والشعر والشعراء وغيرها فلم يعد أمامى إلا أن أجرب هذه الكتب . لم يكن الأمر سهلا بطبيعة الحال، إذ كنت أقرأ الصفحة فلا أكاد أفهم منها شيئا . فاتخذت قرارا بينى وبين نفسى ألا أقلب الصفحة إلا إذا استوعبتها أو على الأقل نسبة معقولة منها . وظل هذا حالى إلى أن انتظمت فى درس العصر بالجامع القريب من بيتنا، والذى تحدثت عنه قبل ذلك . على أنى أعجب الآن كيف اقتنعت بابن رشد على حساب الغزالى فى هذه السن المبكرة وكيف فهمت أعماله . على أنى أذكر أن قراءتى لابن رشد ظلت متصلة وكان أحد أبطالى التاريخيين فى المجال الفكرى . وفى فترة الحماس الإذاعى اقترحت أن أكتب سير المفكرين الإسلاميين ابتداءً من ابن سينا والفارابى والكندى إلى ابن رشد .

ولعلى كتبت أول تمثيلية سهرة طويلة وكانت عن ابن سينا وكانت فى ساعتين، ثم كتبت عن بطلى الفلسفى ابن رشد، وكانت حياته مليئة بالمتاعب بسبب آرائه مما أدى إلى صدور قرار سلطانى بإحراق كتبه فى الميادين . ويبدو أن غالبية الكتاب لديهم حس ما باحتمال الاستشهاد، إذ يخوضون فى مجالات تمس سلطات السلاطين فى كل العصور .

وكنت بالحدس أو باللاوعى الكامن فى قلب كل كاتب، حتى لو كان مجرد مشروع، أشعر أنه بحكم عمله يقترب من قدس الأقداس، الذى يتربع فيه السلاطين، وأنه يتعرض للخطر، ولذلك كانت تعترينى رعدة بسبب الإشفاق على هذا البطل التاريخى العظيم .

ولست أذكر ما إذا كنت قد وجدت فى المصادر الكثيرة التى رجعت إليها فى ذلك الوقت عن حياة ابن رشد، ما يؤكد واقعة تحكى أنه أثناء هذه الأزمة، وكان يصلى الجمعة فى المسجد الجامع، وعند خروجه أحاطت به مجموعة من الرعاع، راحوا يرجمونه بالحجارة حتى شجوا رأسه وانفجرت منه الدماء . ونقله أصحابه إلى بيته وهو فى حالة ذهول من هذا النكران الذى يلقاه من شعبه، بعد أن عاش عمره كله من أجل تنويره ومساعدته على الترقى علما وعملا . وهل كان هذا بإيعاز من السلطان، أم بإيعاز من خصومه من وعاظ السلاطين، الذين كانوا قد وشوا به وأوقعوا بينه وبين السلطان . أم كان ذلك بسبب سخط العامة، الذين أخذوا الزعم الشائع بأنه يهرطق ضد الدين على أنه حقيقة، دون أن يبذلوا أى جهد للتأكد من صحته . هل وجدت هذه القصة فى المراجع أم أننى اخترعتها لأغراض فنية ؟ فى الواقع لا أتذكر وإن كنت أرجح أن لها أصلا فى الواقع التاريخى .

كنت أكتب التمثيلية فى غرفة الطعام فى بيتنا قبل أن أتزوج . وكان من عادتى أن أكتب ليلا بعد أن ينام الجميع وأن أفتح الراديو على موسيقى غربية هادئة وأندمج فى الكتابة، ولعلى اندمجت تماما . ومن الحب الذى كنت أكنه لابن رشد وحالة التركيز التى كنت عليها رحت أكتب . كنت قد جعلت ابن رشد، عندما عاد إلى بيته وبدأت زوجته تعالج الجرح، جعلته يبوح بمشاعره الكامنة بعد هذا الحادث، وبعد وقت ارتفعت حرارته بسبب الجرح، ثم راح يهذى فى مونولوج طويل يتضمن فى الواقع جوهر معاناته فى قلب النظام الاجتماعى الذى كان يعايشه . ويبدو أننى لم أبرأ تماما من الشطحات الروحية، حتى بعد أن استقر فكرى على العقلانية والمنهج العلمى كأساس للمعرفة . لم أبرأ صغيرا ولا كبيرا . إذ فجأة وجدت يدى تكتب وحدها هذا المونولوج المتفجر بالعاطفة تحت تأثير الحمى . ونظرت إلى يدى وهى تكتب وحدها، إذ لم يكن عقلى هو الذى يملى . حتى إذا تأكدت من ذلك تملكنى الرعب، فألقيت بالقلم وجريت إلى الفراش لأنام إلى جوار أخى الذى يصغرنى . ولعلى بقيت يقظا فترة ما وأنا مندهش مما حصل إلى أن جاءنى النوم .

فى الصباح كان تفسيرى لما حدث هو أننى كنت مستغرقا فى التركيز، إلى جانب الجهد الذى بذلته فى الكتابة قبل ذلك، فهيئ لى أن يدى تكتب وحدها، أو أن الذى كان يملى علىّ هو ابن رشد نفسه، أو قل روح ابن رشد . على أننى لم أروِ هذه القصة لأحد . وعندما بدأنا تنفيذ التمثيلية، وأظنها كانت للبرنامج الثانى، وكان يخرجها صديقى فؤاد كامل، الذى كان دارسا للفلسفة ومتابعا لها بعد تخرجه فى الجامعة، وكان قد اختار الممثل عبد الرحيم الزرقانى ليلعب دور ابن رشد .

كنا نقرأ نسخ التمثيلية أولا لنصحح الأخطاء المطبعية . وقد مر الزرقانى على هذا الجزء من التمثيلية الذى يهذى فيه ابن رشد بسبب الحمى مرورا عابرا، حتى إذا جئنا لبروفة التمثيل بدأ يتعثر عندما وصلنا لهذا الجزء، ثم ينخرط فى البكاء حتى نضطر لإيقاف البروفة حتى يسيطر على نفسه.

ولم يكن حجز الاستديو فى الإذاعة سهلا، إذ يكون عادة ضمن طابور طويل من الحجوزات ،وفى تمثيليات السهرة الطويلة كان الحجز يمتد إلى عدة ساعات، وهو أمر يحتاج إلى تدبير مع المسئولين عن الهندسة الإذاعية . وفى ذلك اليوم حاولنا عدة مرات أن نسجل هذا المشهد، فعجز الزرقانى عن ذلك حتى انقضى الوقت ولم تسجل التمثيلية مما اضطر المخرج إلى حجز وقت آخر فى يوم مختلف . لا أذكر ما إذا كان هذا قد تكرر ثانية ولكننى أذكر أن الزرقانى فى إحدى محاولات التسجيل قام وقال أنه جاهز للتسجيل وبالفعل أدى هذا المونولوج على أحسن ما يكون .

لم أقل شيئا بالطبع فسوف يكون هذا مدعاة للسخرية فضلا عن أننى نفسى لم أكن مصدقاً لما حدث وأرجعته للهلوسات بسبب التعب أو الاندماج الشديد التركيز .

حين أستعيد هذه الفترة فى ذهنى، أدرك أننى كنت أتابع حركة بالغة الأهمية اتجه إليها الفكر العربى وبخاصة فى مصر . إذ كانت الفكرتان الأساسيتان اللتان تقودان المجتمع المصرى هما الأصولية و العلمانية . الأولى بمعناها الدينى والثقافى التقليدى، وكانت قد ترسخت منذ الحكم العثمانى الذى برر تواجده فى المناطق التى احتلها بأنه من أجل التوسع الإسلامى ضد الهجمات المسيحية منذ الهجمات الصليبية .

والحق أن الصـراع على الجانبين كان يبرر نفسه أمام جماهيره على أنه دفاع عن الدين . وكانت المعارك قد بدأت فى الأندلس واستطاعت القوات الإسبانية المسيحية أن تتمحك بالدين وأن تنجح فى دحر النظام الإسلامى الذى حكم إسبانيا لأكثر من سبعة قرون وكانت قد أنهكته الانقسامات والصراعات الداخلية. وحين سقطت غرناطة، آخر معقل إسلامى فى إسبانيا، كان الأتراك المسلمون ينتشرون فى أوروبا ويستولون على القسطنطينية وأجزاء كثيرة من القارة الأوروبية . وهكذا ركزت هذه المجتمعات، سواء فى أوروبا المسيحية أو المناطق الإسلامية تحت الحكم العثمانى على الدين .

وكانت الكنيسة المسيحية تحكم العالم الغربى أو جزءا كبيرا منه باسم الدين، وباعتبار الكنيسة هى الراعى المفوض من السماء لرعاية المسيحيين وإرشادهم . وهكذا على الجانب الآخر كانت الدولة العثمانية تروج أنها دولة الإسلام، وأنها المدافع عن المسلمين فى مواجهة التحديات الأوروبية المسيحية . مثل هذا الوضع جعل الفكر الغالب يتجه إلى الأصول الدينية ويعمل على تثبيت الأفكار التى تستطيع أن تعبئ الجمهور من أجل القتال والتى تضفى على سلطة الحكم شيئا من القدسية الواجبة الطاعة باعتبارها مسئولة عن رسالة سماوية عليا .

لكن العالم كان يتغير بسبب الاكتشافات العلمية وظهور طبقات جديدة صاحبة مصلحة فى الإفلات من هيمنة رجال الدين والساسة الذين يبررون وجودهم بأنهم المطبقون للتعاليم الدينية . وفيما يبدو كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت فى التدهور على الرغم من قيام العثمانيين بمواجهة الحضارة المسيحية الأوروبية الجديدة والانتصار عليها فى الكثير من الجولات .

ولذلك بدأت الثورات الفكرية والسياسية ضد الفكر الدينى المسيحى وحراسه من رجال الكنيسة المتحكمين فى الأمور السياسية والاجتماعية وقامت حركة التنوير التى بدأها الفيلسوف الألمانى الشجاع "كانت" ودخلت المنطقة الأوروبية فى عصر جديد .

كانت هناك أفكار شبيهة فى العالم الإسلامى، ولكن بسبب اهتزاز بنيان هذه الحضارة منذ سقوط غرناطة، واختلاف الوضع، تأخرت الثورات الفكرية والسياسية فى هذا العالم . ذلك أن قبضة رجل الدين كانت قد وهنت تماما فى نظم الحكم فى العالم الإسلامى لحساب رجل الحرب والسياسة . ومنذ معاوية أمسكت يد السياسى والمقاتل بالسلطة وأصبح رجل الدين تابعا يصدر الفتاوى اللازمة لاستقرار الحكم لصاحب الولاية وقليلا ما كان يظهر رجل دين أو مفكر يعلن معارضته لاتجاه السلطة سواء فى مجال توسيع الحريات الإنسانية أو تضييقها . ويبدو أن أيا من السياسى أو رجل الدين كان لا يستطيع أن ينفذ أغراضه ما لم تكن هناك قوة اجتماعية تسانده وتستفيد من توجهاته . وكانت طبقة جديدة قد راحت تنتشر داخل المجتمعات الأوروبية، هى الطبقة الوسطى التى كانت تريد أن تخرج من ضائقة الفكر الدينى المتاقلم مع الإقطاع، لتتفتح على مستقبل العالم الرأسمالى السريع الحركة والمتفجر بالطاقات . هكذا يظهر من قلب رجال الدين من يدعو إلى تحرير الإنسان من التعاليم الفوقية والوصاية العقلية وهو ما بدأ فى فعله مفكر مثل كانت فى المجتمعات الأوروبية المسيحية .

أما بالنسبة للعالم الإسلامى، وربما بسبب اتجاه المؤشر نحو التدهور سواء من الناحية الاقتصادية أو الفكرية، فلم تتوافر القوى الاجتماعية الجديدة التى تستنهض فى الواقع أفكار المفكرين أو تتيح بظهورها فرص التأمل والتفكير لديهم. ولعله لذلك تأخرت حركة التنوير فى المجتمعات الإسلامية إلى أن تدهورت أحوال الدولة العثمانية القائدة وبدأ الفكر الإسلامى يبحث فى أسباب التدهور فى عالمهم والتقدم فى العالم الغربى .

وقد دارت المعركة بالفعل فى العالم الإسلامى حول الحرية والشرعية وتجسدت فى معارك الدساتير، إذ اصبح الدستور هو الوثيقة التى تبنتها القوى الاجتماعية الجديدة وكانت هى الأخرى من أبناء الطبقة الوسطى الجديدة وجنح الناس عامة إلى الحرية .

وهكذا بدأت الاتجاهات العلمانية تظهر ولكن بصورة أخف كثيرا مما ظهرت عليه فى أوروبا التى خاضت معارك دموية من أجل التحرر من هيمنة رجال الدين. ذلك أن المجتمعات الإسلامية والتى كان لها السبق فى الحقيقة على المجتمعات الأخرى، خاصة المجتمعات الغربية، كانت قد تقدمت فى العلم والتكنولوجيا بالنسبة للعصور الوسطى، وصادفت مشاكل فى المعالجات القانونية أو المعرفية الأخرى، فنشأت مشكلة فقهية، أو قل فلسفية، حول مدى حرية المجتمع فى ابتكار قوانين وأحكام ليست لها مرجعية فى النصوص الدينية ولا فى الفقه المتداول .

هذا النوع من الابتكار يحتاج إلى ثقة فى النفس أو قل فى العقل الإنسانى باعتباره أساساً للمعرفة . وهو أمر يقتضى احترام الإنسان وقدراته وحقه فى النظر الحر إلى الظواهر وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان المجتمع قويا متفتح الشهية إلى التقدم والتوسع محبا للحياة ومتفائلا بها وراغبا فى تحسينها والنهل من خبراتها . وكان هذا ظاهرا فى عصر ابن رشد حيث أعطى للعقل قيمة كبرى.

وقد انشغل المجتمع الإسلامى بقضية المعرفة فى وقت مبكر لهذه الأسباب إذ كان من الضرورى أن تظهر مرجعية العقل لوضع حلول جديدة لمشاكل قانونية أو عقائدية . وازداد عدد التوفيقيين فى التاريخ الفكرى الإسلامى لهذا السبب، وبرز ابن رشد فى هذا المجال، وقضى وقتا غير قصير فى إبداع نظريته فى التأويل، لتتيح الحرية أمام مرجعية العقل الإنسانى فى فهم النص الدينى وتأويله، بل وفى النظر إلى المظاهر الكونية وتفسيرها . ويبدو أنه عندما يفقد المجتمع الإنسانى ثقته فى نفسه بسبب تدهور أحواله تضيق مرجعية العقل وينكمش المجتمع على نفسه بل ويحتقر قدراته وفى مقدمتها العقل ويتحصن فى النصوص الدينية المتوارثة باعتبارها فوق الإنسان وقدراته المتواضعة . وقد حدث هذا للمجتمعات الإسلامية منذ بداية التدهور .

ولكن المجتمعات لا تستسلم عادة للتدهور وتبدأ بذور المقاومة تنتعش ويتحرك مفكروها وقواها الاجتماعية الأكثر صحة لتقاوم التدهور . وهو ما حدث فى المجتمعات الإسلامية، وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط . وقامت حركة محمد على فى مصر، التى كانت فى الواقع محاولة لوراثة الخلافة العثمانية المريضة، أو المنهارة . وبالتالى نشأ فكر جديد يعلى مرة أخرى مرجعية العقل . وكان من السهل على محمد على أن يعزل التعليم الدينى فى مواقعه الأساسية فى الجامعة الأزهرية وأن ينشئ نظاما جديدا من المدرسة الابتدائية إلى المدارس العليا، وأن تزدهر العقلية التجريبية والعلمية بشكل عام فى مجال الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وغيرها من ابتكارات العقل ومرجعيته .

وظهرت بالفعل طلائع جديدة من مفكرين جدد سبقهم رفاعة رافع الطهطاوى، الذى كان معلما فى الحقيقة، ورائدا كبيرا من رواد التعليم، وتبعه على مبارك . واستمر المسار حتى ظهرت كتائب من مفكرين تنبهوا لقيمة المرجعية العقلية، كان فى مقدمتهم شيخ كفيف هو حسين المرصفى . ولكنه أنجب العديد من المفكرين والفنانين والشعراء الجدد مثل محمود سامى البارودى، ومفكرى الثورة العرابية، وفى مقدمتهم جميعا الشيخ محمد عبده، الذى كان بحق خليفة ابن رشد فى العصر الحديث . ثم جاءت طلائع جديدة فى مقدمتها سعد زغلول وقاسم أمين ثم لطفى السيد وهيكل والعقاد وطه حسين وسلامه موسى وأضرابهم .

❖ ❖ ❖

٢٩

قوة الرأى العام

عندما بدأ جيلى فى محاولة فهم زمنه، كانت فكرة إعادة النظر فى التراث قد قطعت شوطا بعيدا . إذ كان من المستحيل أن يحدث أى تجديد فى الفكر دون نقد التراث ومراجعته وتصحيحه، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بإعلاء مرجعية العقل . وهكذا، كان جهاد محمد عبده وحوارييه هو نقد التراث . وليست مصادفة بطبيعة الحال أن يكون الإنتاج الغالب لهذه الكتيبة من المفكرين هو إعادة النظر فى التراث من كل نواحيه .

وهكذا اصطبغت كتابات الشيخ الإمام نفسه، ثم محمد حسين هيكل والعقاد وطه حسين وأحمد أمين وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق وكل جيلهم تقريبا بالاهتمام بالتراث، سواء من حيث التاريخ أو الفقه أو الفلسفة أو حتى الأدب والفن .

هل لهذا السبب فكرت بأن أهتم فى الدراما الإذاعية التى كنت أكتبها برواد الفكر الإسلامى ؟ وهل كان اهتمامى من باب النقد والمراجعة والتصحيح ؟ أظن ذلك .

كانت كتابتى عن "أبى ذر" هى نقد للفكر الشائع والمعتبر فكرا إسلاميا، والذى كان يعتبر الاشتراكية كفرا صراحاً . وكذلك الحال عندما كتبت عن الإمام أبى حنيفة الذى التزم موقفا سياسيا ضد الخليفة العباسى المنصور، الذى أراد أن يستخدمه فى تبرير تصفيته الدموية لخصومه عن طريق فتاوى كاذبة أو مصطنعة فلما رفض جلده وسجنه وقيل فى رواية من الروايات أنه قتله بالسم فى سجنه وكان الفقيه قد جاوز السبعين من عمره .

على أننى كنت أشعر أن معالجة الأساتذة الكبار للتراث الإسلامى كانت إلى حد كبير، فى إطار عمل التوفيقيين . ولعلى حلمت بتجاوز هذا الحد إلى النظر لوقائع هذا التراث من الناحية الموضوعية المجردة وبعيدا عن أى تأويلات دينية، أن انظر إلى تلك الوقائع نظرة اجتماعية، من حيث موقعها فى التاريخ وأسبابها الفكرية والاجتماعية، بصرف النظر عن طابعها أو خلفياتها الدينية، وهذا ما حاولته فى كتاب "اليمين واليسار فى الإسلام" . وعندما أنظر حولى، أجد أن غالبية الجيل الذى أنتمى إليه كانت تحمل مشعلا من مشاعل التنوير فى هذا الإطار الذى يثق فى مرجعية العقل البشرى ويحتكم إليه فى كل أمور الدنيا، بل والظواهر الكونية .

وعلى الرغم من كل الملابسات التى صاحبت قيام ثورة ٢٣ يوليو، إلا أنها كانت فعلا اجتماعيا جريئا . ربما كانت بشكل ما ثورة مضادة على حد وصف العقاد لى، أو ثورة استباقية

على حد التعبيرات الشائعة هذه الأيام لتجنب ثورة شعبية كانت غالبا فى اتجاه نوع من الاشتراكية الديمقراطية، وربما ساعد الأمريكيون فى تثبيتها . ولكن الثقافة التى كانت سائدة هى ثقافة عقلانية مؤمنة بقدرة مصر على تغيير واقعها إلى مصير أكثر عدالة ورقيا، وكانت حداثية بكل معنى الكلمة، إذ كان مرجعها الأساسى هو العقل قبل النصوص، وحرية التفكير قبل الوصايا الفكرية . وأعتقد أن هذه الثقافة ظلت تلاحق فكر قادة الثورة وبصفة خاصة جمال عبد الناصر إلى أن أوشكت أن تسيطر على تفكيره، وأن تكون فى يده أداة مصر لتصحيح أوضاع حياتها . فى هذا المناخ الإيجابى، يشعر الناس بأنهم قادرون على التغيير والتفكير والإبداع، وهى الصفة التى لا يمكن أن تتحقق إلا فى مجتمع صاعد واثق فى نفسه . وهى كما سبق أن قلت هى التى تنبه الناس إلى الثقة فى أنفسهم وقدرتهم على شق مجاهل الحياة الفكرية والاجتماعية دون خوف أو الخضوع لوصايا مفروضة . وبصرف النظر عن المراحل السابقة والتى اختنقت فيها الحريات اختناقا شديدا بدأنا نشعر بشىء من الحرية ابتداء من سنة ١٩٦٤ بعدها .

وأذكر أننى شعرت مرة وأنا أقود سيارتى عائدا إلى بيتى، وكنا بعد منتصف الليل بعد اجتماع من الاجتماعات، أننى كنت أنظر إلى كل معلم أمر به، حتى أسفلت الشوارع على أنه ملك لى وللشعب الذى أنتمى إليه .

حقا لم تكن الأمور تسير بلا معوقات، خاصة فى مجال الحريات، إذ كانت الميديا كلها تحت سيطرة الدولة، الصحف والمجلات والتليفزيون والإذاعة والمسرح والسينما ولكننا كنا نبذل جهدنا فى اتجاه التنوير والتحديث بل كنا نقوم بالنقد أيضا حتى فيما يمس قدس الأقداس وهو مركز السلطة نفسه . فعند معالجتى لموضوع الإمام أبى حنيفة، أو قل كان اختيارى لقصة حياة هذا الإمام العظيم، لأنها كانت تدور حول تأييد أبى حنيفة للثورة العباسية إبان قيامها، لكنه عدل عن ذلك عندما راحت تنقض على السلالة العلوية التى كانت الثورة تقوم فى الواقع باسمها . وعندما لاحظ أن الثورة تنحرف عن تصحيح الأوضاع وتنفرد بالسلطة، وتتعامل بقسوة مع المنتقدين لها، بدأ يصدر فتواه بجواز الخروج عليها أو الثورة ضدها .

ولعلى كنت أريد أن أقول أن على الثورة المصرية أن تصحح مسارها وتكف عن اعتقال المنتقدين لها وأن توسع فى حريات الناس وأرزاقهم . كتبت هذه التمثيلية بنفس المنطق الذى كان وراء تمثيلية ابن رشد، ولكن بفارق أكثر من خمسة عشر عاما بين كتابة التمثيلية الأولى وكتابة التمثيلية الثانية . فى ذلك الوقت كانت الإذاعة المصرية تريد أن تدخل مسابقة دولية تختار فيها لجنة المسابقة أحسن تمثيلية تدعو إلى السلام . وأظن أن منظمة من منظمات الأمم المتحدة هى التى دعت إلى هذه المسابقة. فى ذلك الوقت – على ما أذكر – كان محمد محمود شعبان، مدير البرنامج العام والمخرج الإذاعى الشهير، يفكر فى أن تدخل الإذاعة المصرية هذه المسابقة، وكان من حسن ظنه أن دعانى وطرح علىّ الفكرة لأكتب هذه التمثيلية . ولما كنت بالفعل قد أنهيت كتابة تمثيلية أبى حنيفة وكنت أرى فيها صلة ما بين السلام والحكومات الصالحة وأن عظماء الرجال هم الذين يقاتلون حتى الموت من أجل سلام الناس وحرياتهم . فقد أعطيته مسودة التمثيلية، ووعدنى بأنه سيقرأها، على أن نلتقى فى اليوم التالى .

وعندما ذهبت إليه فى اليوم التالى رحب بى ترحيبا حماسيا وطلب لى فنجانا من القهوة وأعرب عن إعجابه الشديد بالتمثيلية، ولكنه لن يخرجها ولن يتقدم بها إلى المسابقة لأنها من الممكن أن تفسر على أنها نقد للثورة المصرية واتجاهاتها مما قد لا تقبله السلطة ويؤدى إلى مواجهات هو فى غنى عنها .

خرجت من مكتبه سعيدا على الرغم من اعتذاره عن إخراجها، ولعلى قابلت على الباب المذيعة الشهيرة آمال فهمى وكانت صديقة عزيزة، إذ قالت لى فى دهشة : هل طلب لك فنجانا من القهوة ؟! لابد أنه كان يشعر نحوك بتقدير زائد . ويبدو أن مثل هذا الطلب كان عزيزا على الأستاذ وعلامة على انفلات عواطفه نحو الشخص الذى يطلب له القهوة . لم يكن الرجل صديقا لى، مثل أحمد سعيد مثلا، ولكنه كان رجلا مثقفا . وكان إذاعيا ممتازاً، واشتهر ببرنامج ناجح جدا للأطفال فضلا عن إنجازاته الأخرى . ولكنه فى النهاية كان موظفا، وكان يعرف أنه يعمل لحساب سلطة معينة لها رؤاها السياسية الخاصة . على أننى أعطيت التمثيلية لصوت العرب، وبالفعل شرعنا فى إخراجها وأذيعت لمرة أو اثنتين ثم جاء الأمر بوقف إذاعتها .

لم تكن الأمور سهلة إذاً . وكنا نتأرجح بين الفرح والتفاؤل، وبين الاكتئاب والحزن . ولكن الأمور كانت تتحسن بشكل عام . وكان فكر الحداثة الذى ظل يقاوم ويلاحق القيادة ويتابعها قد بدأ يجد استجابة ما . ومع ذلك وحين وقعت الهزيمة المخزية فى حرب سنة ١٩٦٧ هزت كيان الشعب المصرى كله وبدأت ثقة الناس فى نفسها تهتز، وبالتالى بدأت الانتكاسة، بل وبدأ نوع من احتقار النفس لعله ظهر فى خلع العذار، كما يقول العرب، فيسقط الناس فى الانحلال، وكأنهم يذلون أنفسهم ويعاقبونها وانتشرت الكثير من الموبقات، فظهرت الأغانى المخنثة واختفى الحياء تقريبا وانتشرت المخدرات . وبفقدان الثقة فى النفس يأتى فقدان الثقة فى العقل وفى السلوك الإنسانى بعامة، وفى الإنسان ذاته وقدراته على الحكم . وبدأ المجتمع المصرى ينجر خطوة فخطوة إلى عالم الخرافة والأفكار غير العقلانية ثم الغرق فى الدروشة الدينية .

كان واضحا لنا، أعنى الجيل الذى أنتمى إليه، أن النظام السياسى هو المسئول عن هذه الهزيمة . وقد تحدثت من قبل عن انقسام النظام بين عبد الناصر وقائد جيشه المشير عبد الحكيم عامر وما أدى إليه من اضطراب فى النظام كله . وبالنسبة لى كان الفكر السلطوى هو المسئول عن كل ذلك . وكنا نعرف، على الرغم من أن الثقافة السائدة كانت أقرب أن تكون إلى الفكر الحداثى بمعناه العقلانى واستقلاله عن أى مرجعيات أخرى، إلا أن النظام لم يتقدم خطوة واحدة نحو التحديث . وخاصة فى المجال الديمقراطى . وبالفعل كتب الكتّاب حول ضرورة التحديث وتغيير النظام، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

ولأمر ما كانت غالبية الشعب تميل إلى أن تولى عبد الناصر لتنظيم الجيش سوف يصحح الخطأ، بينما كان الكثير من المثقفين يطالبون بإصلاح النظام سياسيا أولا .

والواقع أن الخوف من السلطة كان قد أوهن عزائم الناس ولم يختلف فى ذلك حال الجنود وضباطهم وكان الجيش محل مراقبة أمنية مبالغ فيها . وكثيرا ما كان الضباط يحكون لذويهم عن أنباء الاعتقالات بسبب اتهام بمحاولة انقلاب، ولكن الحقيقة قد تكون مجرد دردشة نقدية

للنظام أو لما يدور فى الجيش . وقد استمعت أنا نفسى طوال ليلة كاملة فى أحد المستشفيات إلى قصة طبيب شاب - آنذاك - وهو الآن أحد أساتذة أمراض القلب الكبار، وهى قصة اعتقال شقيقه وتعذيبه . وأظن أن والده كان من لواءات الجيش . ذلك أن هذا الضابط الشاب اتهم ومجموعة أخرى من حوالى ثلاثين ضابطا من الضباط الصغار، بتدبير مؤامرة للانقلاب على السلطة . قال لى الطبيب أن شقيقه أثناء اعتقاله أو حبسه كان يقيد من يديه ورجليه من خلاف بحيث يتكور على نفسه فلا يملك أن يتحرك يمينا أو يسارا . وكانوا يجيعونه ثم يلقون أمامه بقطعة من الخبز فيحاول أن يلتقطها بفمه فينقلب على نفسه أكثر من مرة . وكانت ليلة كئيبة لا يكاد الإنسان يصدق أن هذا من الممكن أن يحدث لأى إنسان .

وقد تحدثت من قبل عن صديقى لطفى واكد الذى كان رئيسا لمجلس إدارة جريدة الشعب، وهو الذى استقبلنى استقبالا حارا عندما انضممت إلى هذه الجريدة . وكان رجلا محبا للثقافة . وكان خاله المفكر أحمد لطفى السيد، الذى لعب دورا كبيرا فى تاريخ مصر الحديث الثقافى والسياسى . وكان من الضباط الأحرار وأظنه من أوائل الذين اشتغلوا فى مكتب جمال عبد الناصر . وكان من المكانة فى تنظيم الضباط الأحرار بحيث تناقش فى موضوع تنصيب لطفى السيد رئيسا للجمهورية فى بداية الثورة . وكان نموذجا جيدا لأبناء الطبقة الوسطى العليا فى مصر إذ كان لأسرته شىء من الملكية الزراعية المتوسطة، ولكن اهتماماته السياسية كانت الاهتمامات الشائعة فى الشرائح المختلفة لهذه الطبقة. ولم يكن ضد الفكر الاشتراكى فهو فى النهاية أصبح نائب رئيس حزب التجمع "الاشتراكى" الذى أسسه صديقه الحميم خالد محيى الدين . فقد ألقى القبض عليه بتهمة كتابة منشورات وتوزيعها ضد سلطة عبد الناصر .

ولا أظن أننى ناقشته فى تفاصيل هذه الواقعة أو لعلى نسيت هذه التفاصيل، فالذى أريد أن أرويه هنا شىء آخر . إذ عندما أفرج عنه بعد أن قضى فى السجن حوالى سنتين من حكم بالسجن لمدة خمسة عشر عاما قررت بالطبع أن أزوره فى بيته لأهنئه وأريه أننى لم أجد فيما اتهم به شيئا يشينه وأن مودتى له كاملة .

عندما فتح لنا الباب وقف محملقا فينا ثم تعانقنا . وجلسنا فترة ما وانصرفنا على أن ينضم إلينا فى مجلة الكاتب وبالفعل بدأ يقضى أغلب وقته معنا فى مقر المجلة إذ لم يكن له أى عمل حينذاك . وذات يوم حكى لى أنه استغرب كثيرا عندما فتح باب شقته ورآنا، إذ كان جميع معارفه ينصرفون عنه إذا تصادف وقابلهم وأن أحد أقاربه رآه وهو يسير فى أحد الشوارع فانتقل إلى الرصيف المقابل حتى يتجنب الحديث إليه . وهكذا زرع الخوف فى قلوب الناس حتى امتنعت المروءة، ومن المؤكد أن هذه المشاعر الخائفة انتشرت فى صفوف جميع الناس بمن فى ذلك الجنود والضباط وهو ما يفسر الأداء السيئ فى تلك الحروب .

كان صديقى «يوسف إدريس» يقول: أنه حدث إخصاء للشعب المصرى وهو يقصد أن الرجولة قد استؤصلت من نفوسنا، وكنت حين استمعت إليه وهو يستخرج هذه العبارة من أعماق صدره أصدقه وأنا أنظر حولى كما لو كنت أعيد فحص وجوهنا . ولعلى اكتشفت أهمية السلطة فى تكوين سلوكيات الناس الذين تحكمهم .

وفى المجتمعات الديكتاتورية وخاصة فى الأزمنة الحديثة، حيث تهيمن هذه الأنظمة على كل منتجات تكنولوجيا نقل المعلومات والأفكار وبسرعة خارقة، ووفقا للقوانين الفيزيائية، فإن

الانهيار أو السقوط يحدث بسرعة فائقة قياسا على البناء والتركيب . وبالفعل كنا نشعر بوهن الجسم المصرى وهنا شديدا .

وغالبا لا يشعر الحاكم المستبد أنه يهدم شعبه ويضعفه، من أجل الحفاظ على سلطته . وعندما تصطدم الدولة مع عدو خارجى يجد أن شعبه لم يعد قادرا على المواجهة . وفى هذه الظروف يرتع الفساد فى مثل هذه المجتمعات، فحينما تنعدم النخوة ويحل الخوف وما ينتجه من آثار على السلوك الإنسانى، ينفرط عقد المنظومة الأخلاقية ويصبح سقوط الناس فى الرذائل عملية بالغة السهولة .

والغريب أن الرغبة فى الاحتفاظ بالسلطة بشكل مطلق لدى بعض الزعماء لا يفسرها هؤلاء الحكام لأنفسهم بأنها عبادة للسلطة بل على أنها ضرورة لتحقيق مشروع قومى ويبدو أنه من الصعب على الإنسان أن يؤول تصرفاته تأويلا موضوعيا وهكذا يفسر معارضته على أنها مؤامرة ضد المشروع وليست ضده شخصيا وكثيرا ما يظن الطغاة أن الوطن تجسد فيهم وأن أى رفض أو نقد لأشخاصهم هو رفض أو انتقاص للوطن، وهكذا دواليك حتى يهلك المجتمع تماما بسبب هذا الخلط فى التفكير بين السلطة والوطن .

وقضايا النهضة متعلقة بأشياء كثيرة ويبدو من الضرورى أن تلتف حول مشروع النهضة قوى اجتماعية كثيرة وإن تعددت اتجاهاتها وأن تتحرك بدوافع ذاتية واضحة لنفسها حتى بصرف النظر عن طبيعة الحكم، ولقد تحققت النهضات الكبرى فى التاريخ ونشأت الإمبراطوريات من توافر هذه المصالح مع قيادة تتحرك عن وعى استجابة لها وبالاشتراك مع ممثليها، أما فى الزمن الحديث فأصبح من الضرورى أن يتشكل المشروع القومى من جماع التوجهات لغالبية شرائح المجتمع ووفق آليات تجعل المشاركة الاجتماعية صادرة عن إرادة حرة تعمل هى ذاتها من أجل هذا المشروع .

حقا أن ثورة ٢٣ يوليو كانت تتطور من موقف سياسى وفكرى إلى موقف آخر فى اتجاه مشروع يقوم على العدل والحرية . ولكن عملية الكبح كانت تدفعها أمراض التعلق بالسلطة، أكثر من تعلقها بالمشروع القومى فى الكثير من الأحيان . على أنه ورغم كل ما يمكن أن يوجه إليها من انتقادات، كانت القيادة الممثلة أكثر من جمال عبد الناصر تعدل من نفسها ومن أفكارها وتحاول أن تؤقلم نفسها مع مقتضيات المشروع والجموع العاملة من أجله .

وحينما أسترجع هذه الفترة أرى أن فكرة اتساع المشاركة الديمقراطية كانت تكسب إلى جانبها الكثير من القوى الاجتماعية بما فى ذلك قيادة عبد الناصر نفسها . والحق أن موضوع الديمقراطية كان مطروحا بقوة وكان تأجيله يستند إلى مبررات كانت تبدو منطقية فى ذلك الوقت إذ كنا . كما سبق أن قلت فى موضع آخر . نتحدث عن الديمقراطية الاجتماعية كمقدمة للديمقراطية السياسية، بمعنى أن تحرير الناخب المصرى من العوز والحاجة هو مقدمة صحيحة لاختيارات سياسية صحيحة، وهكذا كان الإصلاح الاجتماعى مبررا لتأجيل الإصلاح السياسى، وهى الحجة التى ما زالت قائمة فى المجتمع المصرى الآن، والتى تزعم أن الإصلاح الاقتصادى ينبغى أن يكون له السبق على الإصلاح السياسى . على أنه فى الفترة التى كنت أتحدث عنها وهى التى سبقت حرب سنة ١٩٦٧مباشرة، كانت تعطى الأمل بأن السعى إلى ديمقراطية سياسية لم يكن بعيد الاحتمال، على الرغم من التأثيرات الضارة التى أحدثتها نظرية ديكتاتورية "البروليتاريا" الماركسية، التى كانت بشكل ما، مبررا فكريا لقبول ديكتاتورية جمال عبد الناصر من جانب قطاعات كبيرة من اليسار المصرى .

لم تكن فكرة الديمقراطية مرفوضة من النظام، ومازلت أعتقد أنه كان من الممكن مع مرور الوقت والأخذ بفكرة التحديث وأن تتحقق فكرة الديمقراطية . وكان آخر تقنين لفكرة الاتحاد الاشتراكى أنه اتحاد بين قوى اجتماعية كل منها له توجهاته الاجتماعية، ولكنه يدخل فى اتحاد مع القوى الاجتماعية الأخرى من أجل المشروع القومى الذى كان يستشعره الناس حتى دون نصوص مدونة، بمعنى أنه سعى إلى الاستقلال السياسى، وإلى عدالة توزيع الملكية، وإلى ثورة تنموية تقوم على المبتكرات العلمية والتكنولوجيا الحديثة، والمشاركة السياسية فى كل القرارات المتعلقة بتنفيذ المشروع .

أما القضية الفلسطينية والإشكالية التى نشأت بسبب قيام الدولة الإسرائيلية على أسس غير قانونية وغير شرعية فكان قد توافر اقتناع - إلى حد كبير - بأن قيام دولة ديمقراطية على الأرض الفلسطينية تحتوى اليهود والعرب وتقوم فيها المواطنة على أسس وطنية، وليس على أسس دينية، هو الحل الصحيح لهذه الإشكالية، وهو الحل الذى فطن إليه المفكر الفلسطينى الأمريكى إدوارد سعيد، والذى بشر به فى كتاباته باللغة الإنجليزية، ولاقى ترحيبا من كثيرين فى العالم كله .

كنا قريبين إذًا من التخلص من كل أخطاء الماضى . وكان الرأى العام المثقف فى مصر قد أدرك قوة تأثيره على السلطة القائمة، وأنه أوشك أن يوجهها إلى الإصلاح السياسى الناجع . وعلى الرغم من كل ما كان يوجه إلى التجربة الناصرية من نقد، إلا أن أحدا لم يكن يشكك فى وطنية اتجاهات هذه السلطة ولا نقائها من الفساد، إلا فى القليل النادر هنا أو هناك . ولاستقلال هذه القيادة عن المؤثرات السياسية الخارجية، كان تطويعها إلى الإصلاح وما فيه من تنازلات ممكنا .

هل هذا كان إدراك القوى الإمبريالية والصهيونية فى ذلك الوقت ؟

وهل كانت حرب سنة ١٩٦٧ لإجهاض هذه النقلة قبل حدوثها ؟

المنطق يقول بذلك، خاصة والفرصة كانت سانحة بسبب الصراعات القائمة بين مؤسسة الرئاسة ومؤسسة الجيش، وكان الكثير من كوادر هذه الثورة قد حققوا امتيازات عديدة سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية . وكانت التحولات التى تحقق المشروع الحداثى والقومى، من الممكن أن تضر بهذه المصالح التى نشأت على مدار عقدين تقريبا، خاصة بعد قطيعة طويلة الأمد بين سلطة هذه الثورة وغالبية الكوادر المثقفة التى أنجبتها مصر طوال أكثر من مائة وخمسين عاما، وبصفة خاصة، الكوادر الجديدة التى كانت تؤمن بالعدل الاجتماعى وإعادة توزيع الثورة والتنمية الاجتماعية والسياسية، أى قوى اليسار الجديدة والقوى الليبرالية الحداثية .

وعندما تنبه عبد الناصر إلى أهمية هذه التحولات بالنسبة للمجتمع المصرى وأن يقترب من جماهيرها ومثقفيها كان الوقت قد تأخر إلى حد ما وجاءت حرب ١٩٦٧ لتوقف هذا المشروع . وعندما وقعت الهزيمة كانت هناك قوى اجتماعية عديدة - حتى من بين كوادر ثورة يوليو - تخشى هذه التحولات وترفضها وتعمل على وأدها إلى جانب القوى القديمة المعادية كقوى الإقطاع السابق والقوى القديمة الأخرى التى كانت تفسر الدين على أنه معاد للعدالة الاجتماعية وللتغيرات الديمقراطية والتى اصطدمت اصطداما عنيفا مع عبد الناصر وعوملت أيضا بقسوة بالغة وكأنها خارجة عن تكوينات الشعب المصرى الاجتماعية والثقافية .

٣٠

فى عالم السينما

كنت ككاتب أظن أن مجال عملى هو الأدب، أعيش هذا الجو العاصف الذى تتأرجح فيه الأحوال، ويدور فيه صراع مكتوم بين قوى اجتماعية كثيرة فى عالم دولى منقسم يتآمر بعضه على البعض الآخر، وتتحزب فيه القوى الداخلية لهذا القطب الدولى أو ذاك، كنت أكتب متأثرا بكل ذلك . وكان الأدب المنتج فى هذه الفترة، يعكس هذا القلق المتناحر والمتأرجح بين التقدم والتأخر . وكان نجيب محفوظ، مثل غيره من الكتاب، يعالج هذه الموضوعات ويعكسها فى رواياته . وكنت قد استغرقت فى الكتابة للإذاعة، إلى جانب كتاباتى فى النقد الأدبى أو معالجة المشاكل الثقافية والفكرية وإلقاء المحاضرات فى معهد الفنون المسرحية، وعندما عرض علىّ أن أكتب للسينما، ولست أذكر كيف تم ذلك هل بترشيح من نجيب محفوظ أو بمبادرة من أحد المخرجين وأظنه حسام الدين مصطفى، اخترت رواية "السمان والخريف" التى كانت فى الواقع تحاول أن تستكشف مسار الثورة الجديدة وتلمح فى النهاية إلى التوجه إلى اليسار .

كانت خطتى أن أكتب للمسرح ولكن السينما جاءتنى بمكافأة مالية أكبر كثيرا من المكافأة التى كانت تمنح لكتاب المسرح، وكنت قد اكتشفت أن الدراما - أقصد فن الدراما - هو العنصر المشترك فى كل هذه الأشكال التى تعاملت معها كالتمثيلية الإذاعية أو الفيلم السينمائى أو المسرحية . وهكذا كتبت فيلم "السمان والخريف" وأنا أظن أننى أريد أن أقدم سينما جديدة متجنبا الكثير من التهاويل أو الإثارات التى كانت غالبية الأفلام تعتمد عليها . وسواء كان حسام الدين مصطفى هو الذى لجأ إلىّ، أو كنت أنا الذى اخترته، فإننى فى الحقيقة كنت أمام أحد أمرين : إما أن أعمل مع صديقى توفيق صالح، أو أختار مخرجا آخر . ولكننى كنت أعرف أن هناك جنوحا من المخرجين السينمائيين فى مصر إلى أن ينفردوا بكل القرارات النهائية بالنسبة للأفلام التى يخرجونها . وكنت أعتقد أن مؤلف الفيلم، خصوصا فى ظروف الثقافة السينمائية السائدة، والتى لم أكن أعتقد أنها تسير فى الطريق الصحيح، ينبغى أن يكون مشاركا على الأقل فى كل هذه القرارات . فالذى ينفّذ فى النهاية هو عمله، والسيناريو هو العمل الجوهرى، أو المحورى، وهو الخطة المرسومة للمخرج . كنت منحازا بالطبع إلى أن يكون للمؤلف دور أساسى خاصة فى ظروف الإنتاج السينمائى المصرى

حينذاك. ربما كان هذا هو السبب فى خلافى مع صديقى توفيق صالح . أما اختيارى لحسام الدين مصطفى أو اختياره لى فأذكر أننى كنت أعرف أنه أقرب إلى فهم جمهور السينما منى . كان فى السينما المصرية شىء من "الشعبوية" إن صحت التسمية، قد لا أكون مؤمنا بها أو محبا لها أنا القادم إلى هذا الفن من الأدب وعراقته، التى ترجع إلى تقاليد راسخة ودراسات عديدة قد يحتاج فيها جمهور الإنتاج الأدبى الجيد إلى خبرات وممارسات متعلقة بدرجة من التعليم والممارسة أكثر كثيرا من جمهور السينما . ولعلى قلت لنفسى أن فنانا مثل حسام الدين مصطفى يستطيع أن يقرب عملى السينمائى إلى الجمهور أكثر من غيره . وبالفعل كان عملنا المشترك جيدا وان كان قد استغرق الكثير من الجدل والمناقشات والدخول فى تفاصيل لم يتعود عليها المخرج من قبل . ومن خلال عملى السينمائى أدركت أن السيناريو مهما تكن أهميته لا يشكل أكثر من نسبة ٥٠٪ من قيمة نجاح الفيلم وأن الخمسين بالمائة الباقية يزيدها الإخراج والتمثيل والعناصر الأخرى وفى مقدمتها التصوير بالطبع . ولم يكن فى ظنى أن هناك أى فيلم مصرى يرقى إلى أن يكون مائة بالمائة عملا فنيا جيدا وقد يكون السيناريو الجيد قد منح الفيلم ٥٠٪ من النجاح ولكن العمليات الأخرى وفى مقدمتها الإخراج تهبط بهذه النسبة إلى اقل من ذلك وقد لا تستطيع أن تزيده بأكثر من ١٥٪ وبالتالى يظفر الفيلم بخمسة وستين بالمائة من النجاح لا أكثر ولا أقل . باختصار، عرفت أن كاتب السيناريو محدود فى إطار هذه الخمسين بالمائة مهما فعل . ولقد احتجت إلى وقت طويل لأدرك أن النص المسرحى المكتوب أكثر جوهرية فى المسرح عنه فى السينما ولذلك كان من السهل أن يقرأ الناس المسرحيات فى كتب مطبوعة لكن من الصعب أن يفعلوا ذلك بالنسبة للسيناريو وكذلك الأمر بالنسبة لنص التمثيلية الإذاعية التى كانت الإشارات المختلفة فيها تفسد القراءة وكما قلت كان للأصوات وتآلفها دور كبير يحسب حسابه فى التأليف للإذاعة .

وفى النهاية عرفت أن كاتب السيناريو ليس هو السيد الوحيد فى الفيلم ويميل الكتاب المبدعون إلى أن ينفردوا بعملهم وهذا لا يتحقق الا فى الرواية أو القصة أو القصيدة ولعله لهذا السبب قليلا ما اعتبر السيناريو عملا أدبيا خالصا، وكذلك الأمر - إلى حد ما - بالنسبة للإذاعة . ومع ذلك أحببت الكتابة للسينما بسبب اتساع جمهورها وتجاوزها للكتابة المسرحية لما تسمح به من حرية حركة لانهائية، لا تستطيع أن تفعلها فى المسرح إلا بواسطة الرمز أو الإشارات الخفيفة جدا فى كل ما يتصل بالحركة فى المكان . وربما كان هذا هو السبب فى أن الكم "الأدبى" فى المسرح أكبر منه فى السينما لأن الحوار المسرحى يقوم بكل هذه الوظائف التى تحققها السينما بشكل مباشر فى كل ما تريد أن تصوره .

عندما تعاملت مع السينمائيين وجدت أنهم يهتمون بتكنولوجيات عديدة كأدوات الإضاءة والتصوير وبناء الكادرات وهو شىء أقرب إلى الحرفة منه إلى الفن أحيانا . وأذكر أن الذى صور فيلم "السمان والخريف" كان مصورا من أصل إيطالى يدعى "كليليو"، وعندما كنت أجلس معه فى الاستراحات بعد التصوير أجد أنه أقرب إلى المهنى منه إلى الفنان، وكنت أتحدث معه عن الأدب أو حتى الفنون وبعض الموضوعات الثقافية فأجد أنه لا يكاد يعرف شيئا عنها ويكاد لا يبدى أى اهتمام بما نسميه ثقافة أو فكر، ولكنه كان مصورا جيدا من حيث الحرفة . ولعله جاء إلى السينما عن طريق التصوير الفوتوغرافى العادى . ومن الممكن أن نقول نفس الشىء عن الكثيرين ممن كانوا يعملون فى صناعة الفيلم . ولعلى قلت لنفسى أن هذا هو السبب فى

"سوقية" بعض الأفلام أو سطحيتها الساذجة . وأظن أنني حين بدأت الكتابة للسينما لم يكن معهد السينما قد افتتح بعد، وكان العاملون فى المجال السينمائى قد تعلموا "صنعتهم" من الممارسة العملية . وفيما عدا بعض المخرجين المثقفين كانت الصناعة السينمائية لا تكترث كثيرا لما نسميه فنا أو ثقافة . ولكننى مع مرور الوقت كنت أجد الفنان الكامن فى هؤلاء الحرفيين يظهر فجأة أو على الأقل يحاول أن يظهر .

كنت بالطبع أعرف الممثلين والممثلات لأنى كنت أعمل معهم فى الإذاعة كما سبق أن قلت . على أن السينما كان لها نوع من الانتقاء متعلق بالجاذبية للتصوير وأسلوب الأداء المختلف عن الفنون الدرامية الأخرى .

كان الممثل السينمائى أو الممثلة له اهتمام كبير بصورته فى الدرجة الأولى وربما خطر فى بالى أن فيهم نزعة نرجسية أكثر من الذين يعملون فى الحقول الأخرى والتى كانت تركز على أشياء أخرى كالصوت وجاذبية الظهور الحى وهو غير الصورة التى يظهر بها الإنسان من خلال الكاميرا . وكانوا بالطبع أكثر شهرة من زملائهم الآخرين وأكثر ثروة . وكنت بالنسبة للإذاعة اشترك مع المخرج فى اختيار الممثلين للأدوار المختلفة بل كنت فى الواقع وأنا أكتب التمثيلية أضع فى اعتبارى من الممثلين أو الممثلات من الذى سيلعب هذا الدور أو ذاك . وكنت أخاف دائما من المبالغة لأنها مفسدة لما نسميه الإيهام بالصدق . وكان الصوت هو الذى يوجهك إلى الاختيار . ولذلك عندما كنت أتخيل الممثل الذى يكون مناسبا للدور الذى أكتبه أراعى فى كتابة الحوار درجة حرارة أو حدة الكلمات التى يتفوه بها الممثل . فمثلا كان حمدى غيث جهير الصوت فإذا أعطيته دورا فيه حدة وانفعال، ربما قادك إلى المبالغة دون أن يقصد بسبب طبيعته الجهيرة، وكان علىّ أن أكتب حوارا يصبح طبيعيا عندما ينطقه مع حساب طبيعته هذه . وعلى العكس من ذلك كان نبيل الألفى قليل الانفعال منخفض الصوت، وكان علىّ أن أتخير الكلمات التى ترفع شيئا ما من انفعاله .

فى السينما يختلف الوضع، إذ على الممثل أن يظهر بكامل هيأته أمام كاميرا بالغة الحساسية، وأظن أننى قضيت وقتا غير قصير أفكر فيما تفعله السينما بالنسبة لتجلى الشخصية التى يرسمها كاتب السيناريو ويتصورها المخرج . فكاميرا السينما فاضحة وفى اللقطات المقربة تشى ملامح الممثل بكل ما يريد أن يبديه من انفعال وبهذا يستطيع المشاهد أن يتأمل الوجه الإنسانى تحت مجهر مكبر، وتزداد خبرته بالناس وبالحياة . وربما كان هذا من أهم إنجازات السينما فى عالم الدراما .

وعلى الرغم من النرجسية الغالبة على فنانى السينما، إلا أننى استمتعت بصداقات جميلة . وأذكر الفنانة نادية لطفى التى قامت بالدور الرئيسى فى فيلم "السمان والخريف" أمام محمود مرسى، الذى كان صديقا قديما من أيام الإذاعة . كانت أكثر من جميلة، لأن حبها للثقافة واهتمامها الجدى بالقراءة حوّلها إلى ما يمكن أن يسمى بالجمال الذكى، وهو فيما أظن أجمل أنواع الجمال . وقد أدت دورها فى السمان والخريف بواقعية رائعة . وكنت قد أصبحت ضيفا شبه دائم عليها فى شاليه كانت تملكه فى الهرم يضم نخبة متنوعة من نجوم المجتمع المصرى فى الكثير من المجالات، من رجال الأعمال إلى السياسيين والأدباء والفنانين .

عرفت من خلال هذه اللقاءات الجميلة والمفيدة جدا لأى كاتب أو فنان، أن "الصالون" الذى عرفه المجتمع المصرى من أيام نازى فاضل فى أواخر القرن التاسع عشر، والكاتبة مى فى

عشرينيات القرن العشرين، مازال يلعب دوره إلى أيامنا . إذ تلتقى هذه النخب فى جلسات جميلة بالفعل فيها شىء من التدريب على التسامح فى العلاقات والأفكار وتقبل كل أنواع الاختلافات . وفيها أيضا تتحقق الكثير من الاتفاقات سواء المالية أو الفنية أو حتى السياسية وكان هذا معروفا فى القديم ويقال أن صالون المطربة الشهيرة منيرة المهدية كان ينعقد فيه أحيانا مجلس الوزراء لأن أحد رؤساء الوزراء كان صديقا لها . ولكن وظيفة هذه الصالونات كانت تداول الأفكار، وبالتالى توالد الخطط التنفيذية، لأن غالبية رواد هذه الصالونات لهم دور فى الكثير من المواقع التنفيذية . وفى صالون نادية لطفى وجدت شيئا من هذا . ولعلى وجدت رجالا ونساء برجماتيين بمعنى الكلمة ودون أن يكونوا قد فكروا فى البرجماتية كمذهب فلسفى . كانوا بشكل ما يعرفون أن هدفهم الأساسى هو السعادة وكانوا يعرفون أيضا ربما بشكل غير واع أن عمر الإنسان قصير جدا وكانت هذه المعرفة تضفى على شغفهم بالحياة مسحة من الحزن حتى وهم فى قمة الاستمتاع وكان أغلبهم قد درب - من كثرة الممارسة - على حق الآخرين فى الاستمتاع وأن تبادل المنافع هو فضيلتهم الأساسية . وكان تنقل العلاقات بين الرجال والنساء بعيداً عن التوترات العنيفة فعند الحد الذى تبرد فيه العاطفة يتم الانتقال بشكل هادئ بعيد عن هوس الحب العنيف . ويبدو أن هذه العلاقات كانت تتحرك فى إطار الاستلطاف وربما كانوا يتجنبون الوقوع فى الحب العاصف لما يحدثه من توترات . ولست أذكر فى الجلسات التى حضرتها أن رأيت احتدادا فى النقاش أو تعصبا لرأى . وكانت نادية لطفى سيدة مضيافة بالغة الرقة تحسن التعامل مع ضيوفها الذين كانوا يقدرونها حق قدرها . وأعتقد أننى استفدت كثيرا معرفيا من هذه الجلسات . وجاء علىّ وقت اعتقدت فيه أن سياسة مصر تدار فى مثل هذه الصالونات، بما فى ذلك سياستها العربية أو الخارجية أيضا . وكانت هذه السيدة الجميلة المحبة للثقافة قد اكتسبت خبرات عديدة رغم صغر سنها فى ذلك الوقت، لعل أبرزها رغبتها الصادقة فى عون أصدقائها مهما تكن الظروف .

أذكر أن الرئيس السادات غضب من رسالة وجهها إليه المثقفون وعلى رأسهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ بأن عليه - مادامت الحرب لتحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلى غير متاحة بعد - أن يقوم بالإصلاحات السياسية والاقتصادية على الفور . وقرأ السادات هذه الرسالة على أنها تتهمه بالفشل فى التحضير للحرب وبرغبته فى الاستمرار فى الحكم بالطريق غير الديمقراطى، فأمر بوقف الجميع عن العمل وحرمانهم جميعا من العمل فى أى مجال من المجالات الإعلامية والثقافية . وكان من بين هؤلاء الكتاب صديقى يوسف إدريس، إذ منع هو الآخر من العمل فى أى من هذه المجالات . كنت فى الخارج حين صدر هذا القرار، وبالتالى لم أوقع على هذا الخطاب الذى وقع عليه أكثر من مائة كاتب .

اشتكى لى يوسف إدريس من تراكم ديونه، وأن كل الأبواب مغلقة أمامه، ولعلى رحت أبحث عن طريقة لإخراجه من هذا المأزق وفكرت فى نادية لطفى وقلت أنها تستطيع أن تختار قصة من قصصه لعمل فيلم من أفلامها، وأنها تستطيع أن تعطيه ثمن القصة مقدما، وأن الأفلام عادة ما تأخذ وقتا طويلا لكى يتم إنجازها، بل إنها أكثر من ذلك تستطيع أن تنتظر حتى ينتهى هذا الحظر، الذى توقعت ألا يزيد عن ستة شهور . وبالفعل خاطبتها فى ذلك فرحبت على الفور وبحماس زائد، على أى حال، قلت لها أن تبدى حماسها للقصة وللمشروع السينمائى وكأنها لا تعرف شيئا عن قرار الإيقاف . بالطبع سألتها أولا عما إذا كان لديها مال كاف

فأجابت بالإيجاب . ولكى لا يشعر يوسف بأن هذه الرغبة ناتجة عن مجرد مساعدته فى أزمته المالية الحالية، جعلت محاسبها يحرر له عقدا وأخذته وذهبت إلى شقته . ولكنها طلبتنى مرة أخرى فى التليفون وقالت لى أنها لم تجد أحدا فى الشقة فماذا تفعل فقلت لها أن تضع العقد ومظروف المال تحت عقب الباب لأنى أعرف أن يوسف وزوجته سوف يعودان بعد قليل وبالفعل تركت العقد والمبلغ تحت عقب الباب . وعندما وجد يوسف العقد والمظروف أخذه الفرح بالطبع ولكنه لم يتصور أن العملية كلها كانت من أجل مساعدته دون أن يكون لدى نادية لطفى - فى ذلك الوقت - أية نية فى إنتاج أى فيلم . ولعله ناقشنى فى التليفون حول الأجر، إذ تركت له مبلغ ألفين من الجنيهات، وكان هذا مبلغا كبيرا يعطى لكبار الكتاب فقط . ولم أحك هذه القصة ليوسف إدريس على الإطلاق وكذلك فعلت نادية لطفى إلى أن توفاه الله . على أنها أخرجت هذا الفيلم بعد ذلك ونجح جماهيريا مثل سائر أفلامها .

عندما أسترجع فى ذهنى حالة البنت المصرية من جيلى أجد أنه كانت هناك حركة طويلة من التحديث إذ كان تحرير المرأة قد صار قضية اجتماعية مصرية أساسية فى هذه الحركة . ولم يكن كتاب قاسم أمين "تحرير المرأة" بداية لهذا التحرير بل ربما تعبيرا عنها فى بدايات القرن العشرين . وقد سار النساء فى مظاهرات ثورة سنة ١٩١٩ وعرف المجتمع المصرى مدارس تعليم الفتيات منذ هذا الوقت المبكر . نعم كانت بنات الطبقة الوسطى يتعلمن فى بيوتهن، ولكن فتح المدارس بالنسبة لهن كان انطلاقة كبيرة ولم تلبث الجامعة الجديدة أن فتحت أبوابها لهن . وعندما أصبحنا فى سن الجامعة كانت زميلتنا فى الجامعة إنسانا جديدا يشعر بعلو شأنه وبحريته الجديدة شعورا قويا . وبصرف النظر عن التأثيرات الجانبية التى قد تكون ضارة، كانت الفتاة فى اعتقادى متنبهة أكثر من الصبى أو الشاب لكل ما يدور حولها، ربما بسبب ما أشعلته فيها حريتها الجديدة من انتباه واهتمام . وكنت كثيرا ما أظن أن الفتاة أكثر نضجا من زميلها الشاب فى مثل سنها وبصفة خاصة فيما يتعلق بالحب ومضاعفاته . ولعله لهذا السبب أيضا كانت أكثر واقعية وإحساسا بالمسئولية فضلا عما تمنحه الطبيعة الأنثوية من فضائل العطاء لدرجة التضحية أحيانا .

كان جيل الفتيات، المقابل لجيلنا نحن الشبان، يشكل آخر قفزة فى تطور حياة المرأة المصرية . ربما كان الجيل الثالث أو الرابع منذ بداية حركات تحرير المرأة . وكانت نادية لطفى من إنجاز هذه الحركة العظيمة . وكانت إلى جانب كل هذه الفضائل تمتاز بالجرأة وشجاعة الاقتحام ربما بسبب جمالها المستفز وما يثيره حولها من زوابع . وكانت بالطبع مثل سائر جيلها من فتيات الطبقة الوسطى المصرية مهتمة جدا بما يدور فى الحقل السياسى فى بلادها وكانت تعتبر أن عملها كممثلة له دور أساسى فى تحقيق المشروع القومى . ومع أن هذا الجيل من الفتيات كان طموحا جدا وكان يشعر بتكافئه مع الشبان الرجال من قرنائهن بل ربما بتفوقهن وبالتالى كن يسعين لتحقيق المراكز الاجتماعية المتقدمة فى النشاط الاجتماعى العام سواء فى الوظائف أو غيرها من المواقع المهمة فى المجتمع إلا أنهن فى نفس الوقت كانت تغلبهن عاطفة الأمومة عندما يحببن شابا من جيلهن يتوسمن فيه شيئا من النجابة ويتحولن بالفعل إلى القوة الأساسية فى حياة هذا الرجل، القوة التى تسنده وتساعده بل قل أحيانا التى تصوب أخطاءه بما فى ذلك فطنة الوقوف عند الحد الذى تتوقف عنده كرامة الرجل الذى اخترنه . والحق أننى - على المستوى الشخصى - كنت محظوظا إذ عشت أغلب حياتى فى

وسط هذا الجو الرائع من الجمال والطموح والإيثار العظيم وكثيرا ما كانت زوجتى التى تجسدت فيها كل هذه الخصال تذهلنى بسبب مؤهلاتها الخطيرة فى الفهم والرعاية والإيثار .

والحق أن حياتى وجيلى رجالا ونساء كانت رائعة ومليئة بالطموح والأمل على الرغم من كل الملابسات التى صادفناها والتى أزعم أن تحدياتها أكبر من كل التحديات التى مر بها تاريخ بلادنا منذ القدم .

كانت لى أخوات بنات أربع إلى جانب أخوة أربعة من الذكور ولكن الحضور الأنثوى كان كبيرا ورائعا فى بيتنا من آلام المتعلمة المحبة للقراءة والمهتمة بالأدب إلى الأخوات اللائى كن ينظرن إلى أنا أخوهن الأكبر بشىء من المعزة والحنان والإكبار بما يمنح الثقة للإنسان ويدفعه دفعا إلى النجاح . ولذلك عندما تزوجت كنت أرغب فى أن تكون لى ابنة، وأذكر أننى كنت أجلس فى البرنامج الثانى بالإذاعة وكانت مذيعات هذا البرنامج من أعظم وأجمل ثمرات هذا الجيل من النساء وكانت زوجتى حاملا للمرة الثالثة وكنا نأمل ونتوقع أن المولود سيكون بنتا ولعل زميلاتى بالإذاعة سألننى عن رغبتى بالنسبة للمولود الجديد فقلت لهن أتمنى البنت بالطبع خصوصا وأن طفلى السابقين كانا من الذكور . على أننى عقبت قائلا : سأكون خائفا عليها أن يجرحها شخص من الأراذل الذين نلتقى بهم فى الحياة كل يوم . أتصور حينئذ أى سأقتله .

وأظن أن التى ردت علىّ كانت السيدة سميرة الكيلانى المذيعة الشهيرة : هون عليك أن البنت تستطيع أن تهدم كيان أى إنسان يجرحها دون أن تحتاج لحمايتك.

لم تخطر على بالى هذه الفكرة من قبل وهأنذا أرى المرأة المصرية الجديدة فى زماننا هذا ولعلى رحت أنظر إلى ذلك الوجه الجميل المملوء بالثقة والعزم والفطنة الرائعة وأتخيل بسرعة ما الذى ستكون عليه ابنتى، أو ما أرجوه لها . على أننى لم أرزق ببنت على الإطلاق .

❖ ❖ ❖

لست متأكدا أننى أحببت الكتابة للسينما على الرغم من اهتمامى بهذا المجال الإبداعى الرائع، على أننى كتبت أيضا سيناريو رواية "الشحات" لنجيب محفوظ ثم القصة القصيرة "قاع المدينة" ليوسف إدريس . وكنت على الأغلب سأستمر فى الكتابة، إذ رحت أكتب سيناريو عن "تغريبة بنى هلال" وكان اهتمامى بالأدب الشعبى قد جعلنى أعالج من قبل سيرة "عنترة بن شداد" وطلب منى بالفعل أن أكتب القصة السينمائية لفيلم جديد عن عنترة بن شداد وبالفعل كتبت هذه القصة بعنوان"ثأر ابن عنترة" وشرع بالفعل فى إنتاجها وكان السبب فى الاهتمام بإخراج فيلم جديد عن عنترة هو عرض من جانب منتج مغربى كان يملك إسطبلاً هائلاً للخيول، وأراد أن يستخدم هذه الخيول فى عمل سينمائى، وعرض على المخرجين المصريين مشاركته . وكنت أعرف أن الكاتب حين يكتب موضوعا فى أى مجال من مجالات الإبداع سواء كان فى شكل قصة أو رواية، يصعب عليه هو نفسه أن يكتبه مرة ثانية ولو فى مجال آخر كالسينما أو الإذاعة أو المسرح، ولذلك طلبت من المنتج أن يبحث عن كاتب سيناريو آخر وبالفعل بدأ كاتب جديد يكتب السيناريو . طبعت القصة فى كتاب ظهر من دار روز اليوسف ولكن الفيلم تعثر فى الظهور لأسباب لا أتذكرها .

٣١

السينما المصرية .. هل تتجرأ ؟

أظن أنى كنت أكتب للسينما فى الفترة التى أممت الدولة فيها استديوهات السينما وأصبحت من ضمن القطاع العام الذى شمل الغالبية العظمى من وسائل الإنتاج . ولكنى كتبت فيلم "قاع المدينة" لشركة سينمائية قطاع خاص اشتركت فى تكوينها بالمشورة ذلك أنه كان لنا صديق يعمل فى تجارة الأخشاب . كان يستورد الخشب من أماكن توافره المختلفة فى جميع أنحاء العالم ولعله كان واحدا من أربعة ممن يحتكرون استيراد الخشب وتوزيعه على المنتجين المختلفين ولكن عندما أممت الدولة التجارة الخارجية بنسبة مائة فى المائة على ما أذكر لم يجد ما يعمله . كنا فى الصيف وكنا فى شاطئ المعمورة والرجل مستلقيا على كنبة فى شرفة الشاليه الذى كنا فيه، وكان مكتئبا يبحث عن طريقه ليزاول نشاطا جديدا وكان قد استطاع أن يكون شيئا من رأس مال . عندئذ التفت إليه وقلت له : لماذا لا تنشئ شركة للإنتاج السينمائى؟

لم تستغرق كلماتى إلا بضع ثوان ثم إذا به يقوم من ضجعته ويجلس أمامى متسائلا : وكيف ذلك ؟

شرحت فكرتى وكان معنا صديقى المخرج حسام الدين مصطفى وبسرعة مثيرة للدهشة وافق على الفكرة وراح يناقش التفاصيل . وبالفعل نشأت هذه الشركة وتكونت منه برأس المال ومن حسام الدين مصطفى بالإشراف على العمل الفنى وربما بشىء من رأس المال أيضا وفى هذه الجلسة تقرر أن ننتج فيلما سينمائيا عن قصة طويلة ليوسف إدريس هى "قاع المدينة" بناء على اقتراح منى .

لعلى رحت أفكر فى عقلية صديقى محمود هيمن تاجر الأخشاب السابق . حقا كان صديقا لنا وكان يستمع لمناقشاتنا الخاصة بالفن والأدب والسياسية ويشارك بالرأى بين وقت وآخر ولكن موهبته الحقيقية كانت فى استثمار المال . لم أعرف أن لعبة الاستثمار تنطوى على متعة خاصة مثلها مثل سائر الأنشطة ولا تختلف حتى عن متعة إنجاز عمل أدبى أو فنى . إذ كانت سعادته الأساسية أو قل الكبرى هى أن يربح المال بناء على تخطيط وتفكير . قال لى ذلك ردا على سؤال منى . ولعلى رحت أنظر إلى وجهه وهو يتألق بالفهم والنشاط العقلى وهو يشرح لى تلك الهواية الغريبة وهى استثمار المال عن طريق تدويره فى أنشطة مختلفة . لم يكن الرجل محتاجا للعمل أصلا من أجل عائداته كان لديه ثروة مناسبة وكان يمتلك عدة عمارات

فى مدينته الرائعة الإسكندرية وكانت عائداته من كل ذلك أكثر من كافية ليعيش عيشة الأثرياء. وقد شغلنى التفكير فى النوازع التى وراء الإنسان أن يعمل وان ينتج . وكان تحقيق الربح من عملية استثمار تختار بدقة وتنفذ على الفور ودون تردد ثم نجاح المشروع يحقق متعة خاصة بصرف النظر عن القيمة الذاتية للمال إذ كانت دليلا على المهارة والنجابة والتميز وهو ما يحقق سعادة الإنسان ورضاه عن نفسه بطبيعة الحال . وكان محمود هيمن - مثل أى صاحب مشروع فى مجالات نشاطات الإنسان الإبداعية - يملك موهبة الاستثمار وعقلية المغامر أيضا .

كانت طبيعتى الفضولية تتبعنى وأنا أعايش صديقى هيمن، ولعلى ظننت فى الكثير من الأحيان أن متعة حياته الأساسية هى كسب المال، وربما كانت هذه المتعة تتفوق عنده على كل المتع الأخرى بما فى ذلك متعة الحب . إذ كان قد اتخذ خطأ لم يحد عنه على الإطلاق وهو عدم الاقتراب الجنسى من أى امرأة فى مجال عمله السينمائى . ومع أن السينما كانت بحكم ظروف عملها تنتقى - ربما قبل المعايير الفنية - الجمال، وكثيراً ما حاولت ممثلات جميلات الاقتراب منه، من هذه الزاوية، ولكنه كان يتهرب . ربما كان هذا وفاءً لزوجته التى أنجبت له الذكور والإناث، وربما لإدراكه أن العمل يفسد إذا تدخلت فيه العواطف الشخصية وخاصة الحب والعلاقات النسائية، وكان حبه للعمل كمصدر للكسب أكبر من أية عاطفة أو شهوة أخرى.

ولم يكن له اهتمام سياسى، ولكنه كان يكره بالغريزة احتكار الدولة للعملية الإنتاجية والتجارية ويرى فيه عدواناً على حريات الناس وحقوقهم . وكان الإنتاج السينمائى ثغرة فى الهيكل التنظيمى الذى كاد أن يهيمن على كل شىء . كان إنشاء شركة للإنتاج السينمائى ممكناً على الرغم من سيطرة الدولة على قطاع السينما وفى مقدمة ذلك جميعاً امتلاك الاستوديوهات . ولذلك فرح هيمن بهذه الفرصة فرحاً عظيماً . وبالفعل - ولدهشتى - أستأجر شقة كبيرة فى وسط البلد وأثثها بالأثاث الفاخر وأعدها كمكاتب لشركة سينمائية، وعين لها الموظفين، وانفرد هو بغرفة مكتب فاخرة، وكذلك انفرد شريكه حسام الدين مصطفى بحجرة مماثلة . على أنى وأنا أزور الشقة بعد تمامها، لاحظت اختلاف النظرة بين هيمن وحسام الدين . كان هيمن يريد من مكتبه أن يكون مؤثراً على زواره، يشعرهم بالثراء والقدرة على صرف المال وإنتاج الأفلام . ولست أدرى كيف اختار تصميم غرفة مكتبه، ولكنه كان مكتباً لمدير وكان هو كمدير لا يتعامل مع هذه الغرفة المصممة جيداً إلا باعتبارها أداة عمل ولا علاقة لها بالإحساس بالأهمية الشخصية . فهو ليس شغوفاً بها خارج حدود وظيفتها، وبدا أنها لم تقصد لذاتها بل لوظيفتها، وأن الوظيفة لو تحققت أفضل فى صورة أخرى لقبلها على الفور .

وعلى العكس من ذلك كان اهتمام حسام الدين مصطفى بغرفته، وعندما جلس أمامى لأول مرة إلى مكتبه كان يدور بكرسيه الدائرى باستمتاع وهو يراقب كل قطعة أثاث فيه، مستشعراً بالسلطة الجديدة التى تتجلى مظاهرها فى هذه الغرفة .

وعلى الرغم من عادية وبساطة هذه الواقعة، إلا أننى بدأت أميز بين السلطة كمتعة إنسانية وبين المال كمتعة أيضاً . حقاً وقفت كثيراً فى مطلع الشباب عندما قرأت معادلة "برتراند راسل" : المال = سلطة، والسلطة = مال . ولعلى منذ هذه القراءة وأنا مولع بمراقبة تأثير السلطة والمال على الناس . وربما لاحظت مع مرور الوقت، أن السلطة تطلب أحياناً

لذاتها، وهو الأمر الذى لا يتناقض مع كونها مسيطرة على المال . وقد يسيطر حاكم ديكتاتورى على كل مقدرات الثروة فى بلاده، ولكنه مع ذلك لا يستهدف المال، وربما لا يستعمله فى حياته الشخصية إنما يتحكم فيه، وفى توزيعاته وفى إخضاع الناس أو إغوائهم به . وكذلك صاحب المال الذى لا تهمه السلطة التى يهيئها المال بقدر ما يهمه المال فى حد ذاته كقيمة ودليل على المهارة والذكاء حتى دون أن يُستعمل فى تحسين ظروف الحياة، إذ كان هيمن فى حقيقة الأمر لا يحفل بحيـاة أغنى من حياة الناس من الطبقـة الوسطى المصرية . وكانت حياة هيمن المعيشية ليست أفضل من حياتنا نحن الذين لا نملك ما يملكه من مال . بل أحيانا كنت أظن أن حياتنا أكثر رفاهية من حياته هو وأسرته .

كان إنشاء الشركة مجالاً مفتوحاً أمامى لعمل سينما جيدة ـ حسب اعتقادى ـ ولكن الشركة من وجهة نظر هيمن، كانت من أجل تدوير المال واستثماره . حقاً لم يعترض على فكرة من الأفكار التى طرحتها، لكنه – فيما يبدو ـ صرف النظر عن الأخذ بآرائى وتنفيذها . فقد أمضيت وقتاً طويلاً قبل أن أسلمه سيناريو "قاع المدينة" وفى الفترة بين إنهاء هذا السيناريو وتكوين الشركة أنتج فيلماً كوميدياً بعنوان "شنبو فى المصيدة" قام ببطولته فؤاد المهندس ونجح الفيلم نجاحاً رائعاً من حيث عائداته المالية . وما كان لى أن أعترض وأنا لم أنجز سيناريو الفيلم الذى وعدت بكتابته .

ربما كنت أحلم بأن أجمِّع حول هذه الشركة كتاب السيناريو الجيدين بل واستقطاب آخرين من الأدباء اللامعين، وكذلك بالنسبة للمخرجين والعاملين فى مجال هذه الصناعة الجميلة، لكنى فيما يبدو لم أكن محبأ جداً ومتحمساً بالقدر الكافى لأنفذ مثل هذه الأحلام . وكان محمود هيمن يفكر بطريقة أخرى، ولعله كان يقول بينه وبين نفسه دعنا نمشى وراء هؤلاء الكتاب حتى نرى النتيجة . ولكنه فى نفس الوقت راح يرتب أموره حسب غاياته هو من إنشاء هذه الشركة، وهو استثمار المال وتنميته .

لم يمر وقت طويل حتى عرف هيمن أسرار العملية الإنتاجية فى مجال السينما . كان الفيلم، حتى قبل أن يكون السيناريو تحت يد المنتج، يتم الاتفاق عليه مع الموزعين . وكانوا فيما أذكر حوالى ١٤ موزعاً فى أنحاء العالم العربى، وكانوا يشترون نسخ الأفلام حسب أسماء الممثلين بصرف النظر عن موضوع الفيلم . وكانت الأسعار متفقاً عليها سلفاً، فللفيلم (أبيض وأسود) سعر يتأرجح قليلاً إلى أعلى أو إلى أدنى حسب شهرة الممثلين المقترحين، وكان للفيلم الملون سعره أيضاً، وكذلك الأمر بالنسبة للأفلام الغنائية والاستعراضية . ومن حصيلة بيع الأفلام لهؤلاء الموزعين تقدر الميزانية التى ستنفق عليه . فإذا كانت الحصيلة ثلاثين ألف جنيه، فإن الميزانية لا ينبغى ألا تزيد عن ذلك، إذ غالباً ما يترك العائد من توزيع الفيلم فى مصر كربح صاف يناله فى الغالب المنتج الذى هو محمود هيمن .

بعد أن يُوقع المنتج على عقود التوزيع يقدم هيمن رأس المال حيث يتفق مع المخرج ومع الممثلين وسائر العاملين فى الفيلم، ومع منتج منفذ . وكثيراً ما يصبح هذا المال بمثابة سلفة لمنفذى الفيلم يلزمون بردها على أنه كان يضمن عقوده شرطاً هو تحصيل أثمان نسخ الفيلم أولاً .

وكان يقبض هو عائدات الفيلم فى مصر، بعد أن يسدد كل الأجور والنفقات التى صرفت على إنتاج الفيلم . وبحسبة بسيطة تبين أن الفيلم لن يخسر مطلقاً، لأن ميزانيته ينبغى ألا تزيد على حصيلة بيعه للموزعين الخارجيين .

وفى النهاية تحول هيمن إلى بنك يقدم سلفة للعاملين فى الأفلام ويحصل عليها بعد دورة الفيلم . وهكذا ترك السينمائيين يحلمون كما يشاءون بالنجاح الشعبى والفنى وبالحديث عن الفن ومصطلحاته الملغزة .

والحق أن هيمن لم يعترض على مشروع من المشاريع التى يمكن أن يقترحها عليه شخص مثلى . فهو فى جميع الأحوال يحسب حساباته بشكل حاسم من خلال تعامله المسبق مع الموزعين الخارجيين ويمكنه التحايل هنا وهناك لتحقيق مطلب من مطالب الموزعين . وكان - فيما أظن - معجباً بالأحاديث التى تدور على ألسنتنا حول السينما كفن، وكان يستمع إلى مناقشاتنا وكأنه يصغى إلى حديث من عالم آخر بعيد عن الواقع الذى يتعامل معه . وأذكر أنه لم يشارك فى هذه الأحاديث على الإطلاق، وإن كان أحياناً يعبر عن إعجابه بفيلم من الأفلام، إذ يبدو فى هذه اللحظة كمتفرج محايد من الجمهور العادى وليس الرجل الذى يقف وراء الفيلم وإنتاجه .

وقد احتككت - بشكل ما - مع بعض المنتجين المصريين، فرأيت أنهم فى النهاية يصلون إلى نفس النظام الذى توصل إليه محمود هيمن . وربما كانوا من العاملين فى المجال الفنى لصناعة السينما، ولست أدرى هل اهتمامهم بالسينما جعلهم أكثر حرفية من هيمن، أم أنهم فى النهاية يصبحون جميعاً محايدين من حيث الطموح الفنى ومخاطره .

فى ذلك الوقت كان الجانب الأكبر من الإنتاج السينمائى تقوم به شركات القطاع العام، وهى الشركات التى أممتها حكومة الثورة ووضعت على رأسها بعض كبار المثقفين . وفى هذه الشركات كان الهدف مختلفاً، إذ كان الهدف الجوهرى هو إنتاج أفلام بالمعنى الفنى ولم يكن التركيز الأساسى على الربح أو الخسارة . وربما أستطيع القول باسترجاع النظر إلى تلك الفترة، أن قفزة ما حدثت فى هذا الفن، وأنه عندما ترك الأمر بعد ذلك للنشاط الخاص أصاب السينما المصرية شىء من الركود، على الرغم من التوسع فى الكوادر العاملة فى هذا المجال بعد إنشاء المعاهد الفنية ودراسة السينما على أسس أكاديمية، وبعد انتشار الثقافة وظهور مناخ جديد قد يكون أوسع كثيراً من جماعات الحرفيين السابقين .

على أننى لم أندهش عندما أعلن الرئيس السادات سياسة الانفتاح الاقتصادى، ورأيت محمود هيمن يُهرع إلى تجارة الخشب من جديد وتخلى بشكل كامل عن شركته السينمائية .

وبالفعل وبعد عام أو أقل دعانى هيمن لزيارة مخزنه أو قل مصنعه لقطع الأخشاب وتنويعها وتوزيعها على صغار التجار . مشينا حول المخزن بالسيارة . كان بناية ضخمة ذات أفنية واسعة مسوّرة بالأسوار المبنية، وشاهدت الماكينات العملاقة التى تقطع الأخشاب وتصنفها، ودخلنا المكاتب الأنيقة التى تدير العمل . وكان هيمن فى أحسن حالاته النفسية .

وفى إحدى جلساتنا قبل أن أسافر إلى العراق، سألته عن حجم رأسماله فى ذلك الوقت فأجاب باسماً : حوالى سبعين مليون جنيه .

كان يعلم أننى أنظر إلى المال كما ينظر هو إلى الفن . ولعله أعقب ذلك بضحكة صاخبة ربما بسبب هذه المفارقة التى من المحتمل جداً أنها خطرت على ذهنه .

مرت سنوات بعد ذلك لأفاجأ بأن هذا المصنع المخزن البالغ الاتساع قد احترق عن آخره، وأن هيمن كان قد أمن عليه بحوالى أربعين مليون جنيه، وأنه عندما طالب شركات التأمين

بالمبلغ ثار جدل حول أن الحريق كان متعمداً بغرض الحصول على التأمين، وأن أحوال المصنع كانت قد تدهورت وسقط هيمن فى الديون ولجأ إلى هذه الحيلة . لولا أننى أعرف هيمن لظننت أن عمله فى السينما قد أدى به إلى هذه الحيلة السينمائية بافتعال حرق المصنع . ولكننى أستبعد هذا، وإن كنت لا أعرف التفاصيل. على أن هيمن، الإنسان البسيط المتواضع، خاف أن يعتقل أو يقدم للمحاكمة فأخذ زوجته وذهب إلى الولايات المتحدة . وما زال يعيش هناك إلى اليوم فى انتظار تسوية هذه القضية .

لم تنته رحلتى مع السينما إلا عندما سافرت إلى العراق، ولكن ظل عندى ذلك الاهتمام الذى يجعلنى أتابع أخبار السينما المصرية ويخيل إلى أن أزمتها متعلقة بظروف عديدة، خاصة فى التحول الذى طرأ على الثقافة ونقلها من العقلانية إلى الخرافة، والدروشة الدينية . ويبدو أن اختراع السينما نفسه شىء عصرى - على الرغم من مرور أكثر من مائة عام على ظهور هذا الاختراع - فهو مرتبط بذلك الروح المبدع الذى راح يبتكر الكثير من الاختراعات بدءاً من السينما إلى الإذاعة ثم التليفزيون ثم الكمبيوتر . وهذا الروح يؤكد ويدعم الفضول الإنسانى نحو عالم أفضل ويزيد من احتمالات التحسن فى حياة الناس فى المستقبل . وهو مضاد لروح الانسحاب عن العالم التى تشجعها وتؤكدها الانتكاسات الفكرية والسياسية وتجعلها تتطلع إلى العالم الآخر وتتعلق بكل ما يساعد كسب هذا العالم من نصوص مدعاة متخلفة وقائمة على كراهية الحياة الدنيا والازدراء بها .

بالطبع تصبح السينما عملاً شيطانياً منفراً بالنسبة لهذا النوع من الثقافة .

هل من الممكن أن يكون هذا أحد أسباب انصراف الناس عن السينما ؟ أعتقد ذلك، فثقافة الانسحاب سائدة إلى حـد كبير فى كل أسواق العالم العربى وليس السوق المصرى وحده .

على أنه فى مثل هذه الثقافة تكاد تنعدم الموضوعات المناسبة للسينما، وبالتالى ينشأ نوع من الفصام بين الجمهور وفن السينما .

بالطبع، إن المؤثر الأساسى الآخر هو التليفزيون واحتشاده الفائق بالمسلسلات التى تدور حول هذه الثقافة . وبالفعل من يتابع التليفزيون المصرى يجد أن الصبغة السائدة أبعد ما تكون عما يمكن أن نسميه بثقافة الحداثة وإغراقه فى الدروشة الدينية تجاوباً وتماشياً مع الميول العامة . حقاً، لقد ساهمت وسائل الإعلام (الميديا) إلى حد كبير فى سيادة مثل هذه الثقافة . لأن الذى حدث فى مصر هو انقلاب ثقافى شامل، لعب فيه التليفزيون ووسائل الإعلام دوراً كبيراً منذ وفاة جمال عبد الناصر .

ولكن السياسة العالمية كان لها تأثيرها ربما الذى فاق سائر عناصر التأثير، فعملية الاستلاب والتهميش التى مارستها الولايات المتحدة باعتبارها القطب العالمى الأوحد الذى يتحكم فى السياسة العالمية ويسعى بإلحاح لتوسيع قدراته فى هذا المجال وانحيازها المطلق لإسرائيل يصيب الجماهير العربية وربما مثقفيهم أيضاً بالاغتراب والإحساس بالإزاحة عن أمور العالم، والتى كان يغلب عليها إلى حد ما الطابع الحداثى الذى راح يضعف هو الآخر بسبب ظروف أخرى عديدة .

إن رد الفعل الطبيعى على التهميش والاغتراب هو اللجوء إلى المبالغة فى التدين، بل قل إلى الاستخفاف بالحياة الدنيا والرغبة فى الحياة الأخرى والسعى إليها . أليست هذه هى نقطة البدء فى الأعمال الانتحارية التى يلجأ إليها الشباب لأغراض سياسية ؟

فى مثل هذه الحالة الثقافية يضعف الميل الدرامى لدى الناس، فالدراما تقوم على الصراع بين طبائع واتجاهات فكرية وأفعال يقوم بها المتصارعون، وهى فى الأساس اختيار تجسيدى للخير والشر فى حياة الإنسان . وفى مثل هذه الثقافة تنعدم الأسئلة وتصبح الطاعة للوصايا والنصوص، وبصفة خاصة فقه عصور التدهور الممتلئ هو الآخر بالشعور المرضى بالاستلاب والاغتراب والتهميش .

ما الذى يمكن أن يفعله فن السينما فى هذا العالم ؟

هل يستطيع المسرح وهو بمثابة الأب للعالم الدرامى أن يفعل شيئاً . إن المسرح فى فرعيه : الكوميديا والتراجيديا أو قل حتى الدراما الجادة هو بلورة ومناقشة للأفكار والأفعال التى تدور فى أذهان الجمهور . هو كشف نقدى مكثف لأحوال الشخصيات الأساسية فى المجتمع عن طريق الكوميديا، وهو اندماج والتحام مع الأشخاص والأزمات التى يتحرك بها الأبطال فى الدراما الجادة .

هل يحتاج الناس فى مثل هذه الثقافة السائدة إلى هذه الأعمال ؟

حقاً قد يكون هذا الاتجاه ظاهراً فى المجتمع المصرى وأثر على الإنتاج السينمائى والعمل المسرحى، لكنه بالنسبة للسينما حتى على المستوى العالمى، لم تكد السينما تصبح فناً يبلور التجارب الإنسانية الحياتية، إذ أغرت تقنيات السينما الجديدة باللجوء إلى الخوارق وخوض العوالم المجهولة، أو قل ما وراء ما نسميه بالواقع . أنظر إلى أكثر الأفلام نجاحاً مثل فيلم "الحديقة الجوراسية" عن تخليق الديناصور من جين كان محفوظاً فى حفرية من الحفريات وما ترتب على ذلك من أحداث مثيرة .

لقد استخدم المخرج هنا تقنيات جديدة كانت مستحيلة أو صعبة قبل اكتشاف الكومبيوتر وتطويره وتطويعه لخدمة الحيل السينمائية . وانظر إلى سلسلة أفلام ماتريكس العجيبة . هكذا خرجت السينما العالمية من مأزق الحيرة الذى يعيشه أغلب الناس، فقد بهتت كل الأفكار القديمة ولم يعد لدى الجمهور رغبة فى رؤية أفلام تعالج ما يمكن أن نسميه بواقع حياة الناس . ولست أدرى هل قفزات التقنية السينمائية هى التى أغرت بعمل تلك الأفلام "الماوراء الواقع"، أو هو اختلال هذا الواقع ومفاهيمه ؟ بالنسبة لنا فى مصر على سبيل المثال لم نمتلك تلك التقنية حتى نهرب إليها .

ومع ذلك أعتقد أن السينما المصرية تستطيع أن تنجح مرة أخرى لو أمسكت بالتراث العربى والإسلامى فحصاً ونقداً وتجسيداً . لقد فعل "ميل جيبسون" شيئاً من هذا عندما أنتج فيلمه المثير للجدل عن آلام المسيح . لقد جسد فكرة دينية حول الوحشية التى ينطوى عليها الإنسان حين يمتلكه التعصب، وتحركه المصالح الدنيوية بكل جلافتها .

لكن هل تجرؤ السينما المصرية أن تعيد النظر فى هذا التراث ؟ أن تكشف عن طبيعة النقلات الفكرية والسياسية التى مرَّ بها هذا التاريخ الذى لم يجسر أحد على أن يقترب منه . لقد شاهدت فيلم "المصير" ليوسف شاهين عن ابن رشد، وبصرف النظر عن سطحية التناول و الفهم لكنه كان خطوة ولو قصيرة نحو معالجة التراث وأظن أنه نجح جماهيرياً . ومن قبل فعل ذلك مع فيلم صلاح الدين . ولكن الذى يحتاجه الفن هو النظرة النقدية إلى التراث وليس التمجيد والنبرة الخطابية .

◆ ◆ ◆

٣٢

الوطنية .. والقومية .. والحضارة

موت السينما فى مصر وموت المسرح ليس نهائياً، إنه مثل موت أشياء كثيرة ناتج عن التحول الخارق الذى حدث للثقافة فى مصر .

هل كنت أفكر فى هذا عندما توقفت عن متابعة عملى بالسينما منذ ١٩٧٥ فى ذلك الصيف الحار الذى هبطت فيه مطار بغداد حيث قابلتنى لفحة شديدة الحرارة جعلتنى أظن أن حريقاً يشتعل فى المطار ؟

كنا فى أواخر شهر أغسطس وهو أشد شهور السنة حرارة فى صيف العراق . عرفت بعد ذلك المثل الشعبى العراقى الذى يقول : شهر آب الذى يسيّح المسمار فى الباب . وكانوا على حق بغير شك .

لم تكن تلك أول مرة أزور فيها العراق، وكنت أثناء زياراتى السابقة قد توطدت علاقتى بالكثيرين من المثقفين العراقيين . وحتى ونحن فى مصر تكونت لنا صداقات جميلة مع عدد من الطلبة والنشطاء العراقيين الذين قدموا لمصر للدراسة فى الجامعة أو بسبب الظروف السياسية .

ولأنى كنت قادماً إلى العراق عن طريق أكاديمية الفنون التابعة لجامعة بغداد، وليس عن طريق أية جهة حكومية أو حزبية فكان على أن أدبر إقامة سريعة ريثما أتمكن من تدبير سكن لى ولأسرتى .

لست أذكر ما حدث بالضبط، على أنى قبلت دعوة صديقى الدكتور صلاح خالص وزوجته الدكتورة سعاد فى بيتهم بإحدى ضواح بغداد الجميلة .

كان صلاح خالص قد أنهى دراسته العليا فى الاتحاد السوفييتى وحصل على الدكتوراه فى إحدى الجامعات هناك، وأظن أنه التقى بزوجته فى موسكو . وكانت فتاة مصرية نشطة تحضر للدكتوراه هى الأخرى، وكان قد سبق لها الزواج من أكاديمى عراقى آخر وأنجبت منه بالفعل، ولكن لسبب ما فشل هذا الزواج وسرعان ما ربط الحب بين قلبى الشابين؛ العراقى صلاح خالص والمصرية سعاد .

كان النشاط اليسارى العراقى شبيها به فى مصر إلا أن العراقيين فيما يبدو كانوا أسرع إلى الذهاب للاتحاد السوفييتى بغرض الدراسة من المصريين وغيرهم من العرب الآخرين إذ

لاحظت أن عدداً كبيراً من الأكاديميين المثقفين العراقيين قد أنهى دراسته فى الجامعات السوفيتية .

كان صلاح خالص أستاذاً للأدب العربى وكان بيته عبارة عن مكتبة كبرى وجدت فيها أهم المراجع التراثية، وكان علمه بالتراث غزيراً وكانت رؤيته الثقافية هى نفس الرؤية التى تكونت عندى فقد مر بنفس الظروف الثقافية .

عرف التراث العربى والإسلامى معرفة جيدة وكذلك عرف الفكر الماركسى وتفريعاته المختلفة، وعندما عاد إلى بغداد عين أستاذاً فى الجامعة هو وشريكة حياته، وكان كلاهما يجيدان اللغة الروسية إلى جانب اللغة الإنجليزية . وكان صلاح خالص قد أصدر مجلة شهرية ثقافية اكتسبت سمعة جيدة .

قضيت فى هذا البيت شهراً كاملاً، تخلصت فيه من كل قلق الغربة، إذ اكتشفت أننى فى الواقع لم أكد أنتقل من بلد هو القاهرة التى ولدت فيها وعشت ما يقرب من خمسين سنة لم أغادرها إلا لفترات قليلة فى زيارات عابرة كانت أكثرها طولاً السنة التى قضيتها فى مدينة لندن، إلى بلد آخر هو بغداد الذى هبطت فيه كما لو كنت قد أسقطت فى موقع آخر فى مدينتى القاهرة .

كان صلاح خالص إنساناً ممتازاً وأشعرتنى زوجته سعاد أننى فى زيارة لبيت إحدى شقيقاتى . وبسرعة تآلفت مع أبنائهما، ودارت بيننا نفس الأحاديث التى كانت تدور فى بيوت الأصدقاء فى مصر .

كان هناك حذر من اتجاهات سلطة البعث، على أن الفكر البعثى خاصة فى صفوف المثقفين العراقيين قد انجذب - إلى حد ما - للفكر الاشتراكى . وكان الكثيرون من قيادات الحزب الذين عرفتهم يحكون لى أن تأثرهم بمجلة "الكاتب" كان كبيراً أثناء اعتقالهم . حقاً كان هناك قلق بعثى تجاه الفكر الاشتراكى الماركسى قد يصل أحياناً إلى نوع من النفور الخفى بسبب اتكاء الفكرة البعثية على النزعة القومية التى كانت معادية فى التجربة الأوروبية للفكرة الاشتراكية لدرجة الخصومة الكاملة ومن النزعة القومية نشأت كل التيارات اليمينية حتى الفاشية والنازية التى كانت النفثة الانفعالية المغالية للفكرة القومية .

وكانت الدعوة السياسية إلى القومية مباحة من سلطات الحكم فى البلاد العربية إذ كانت الفكرة الاشتراكية القادمة من الماركسية مرعبة ومكروهة من هذه السلطات، وكان الشباب العرب الذين بدءوا يتطلعون إلى حياتهم والنظم التى تحكمهم يتحركون فى الواقع من النزعة الوطنية التى تربوا عليها بسبب واقع الاحتلال الأجنبى، وكانت الفكرة القومية ليست إلا توسيعاً للفكرة الوطنية . ولهذا لم تعترض مؤسسات القمع فى النظم العربية على مثل هذه الأفكار . فى المقابل كانت الفكرة الإسلامية، التى هى أوسع من الفكرة القومية، ولها جذور عميقة فى الثقافة السائدة وفى الحوادث التى سيطرت على العالم العربى طوال المائتى سنة الماضية، تحظى أيضاً بالقبول من السلطات، ولذلك لم تعترض عليها هذه السلطات سواء كانت سلطة الاحتلال أو السلطة المحلية . كان من المستحيل أن تتحدث عن الفكرة الاشتراكية وما تثيره من قضايا مثل معالجة موضوع الملكية الخاصة، دعك من التفلسف الذى كان يتناول المعتقدات الدينية .

كان للنزعة القومية العربية دوافعها أيضاً من القديم . إذ كانت نوعاً من استيعاب الاختلافات الدينية، وربما لهذا السبب بدأ مفكروها الأوائل من العناصر المسيحية الذين كانت نسبتهم أعلى فى بعض البلاد العربية منها فى بلاد أخرى . فالشام مثلاً كانت نسبة المسيحيين فيها إلى المسلمين أكثر منها فى مصر أو المغرب . على أن بلداً كمصر كان قد حل هذه المشكلة تقريباً بسبب نمو النزعة الوطنية التى اتسعت على المستوى الشعبى فى ثورة سنة ١٩١٩ المصرية، والتى ربطت بين المسيحيين والمسلمين برباط الوطنية القوى، وإن لم يخل الأمر من اضطراب هنا أو هناك . وكانت النزعة العلمانية التى سادت المجتمع المصرى منذ فترة طويلة بسبب مشروع محمد على الذى لم يؤسس على الفكرة الإسلامية، على الرغم من أنه كان محاولة لوراثة دولة الخلافة العثمانية .

وهناك قول منسوب لإبراهيم باشا بن محمد على أنه لن يتوقف فى غزواته إلا عندما تنتهى آخر بلدة تتكلم اللغة العربية .

ليس من المستبعد أن تلك الفترة فى بداية القرن التاسع عشر والتى شهدت نمو الاتجاهات القومية فى أوروبا ثم اتساعها فى خمسينيات القرن العشرين كانت كامنة فى رجال مجتمع الخلافة التركى، إذ عانت تركيا من حروب مستعمراتها المسيحية وكان التفكير فى دولة علمانية بدلاً من دولة الخلافة فيه نوع من الحل، ولكن كان ذلك سابقاً لأوانه كثيراً، ومن المحتمل أن فكرة القومية خالجت، على الأقل، إبراهيم باشا . على أن تعامل محمد على فى سياسته لم يوظف فيه الرابطة الدينية وكان الكثير من مستشاريه بل وبعض وزرائه من مسيحيى دولة الخلافة، فضلاً عن النزعة العلمانية لدى الـ "سان سيمونيين" الفرنسيين الذين تعاون معهم كثيراً فى بناء دولته، وكان هؤلاء يريدون إزاحة الإكليروس الدينى ليحلوا محله إكليروساً آخر يشكلونه من رجال العلم الدنيوى، كانوا يريدون استبدال العلم بالدين .

بالطبع لم تختف فكرة الرابطة الإسلامية فى البلاد العربية وخاصة بالنسبة لمصر، بل لعل المصريين كانوا الأكثر تأثراً وحزناً عندما أعلن مصطفى كمال أتاتورك إنهاء الخلافة وتأسيس المواطنة فى تركيا على القومية، فمهما يكن الأمر كان بمصر الموقع الأكثر شهرة للدراسة الإسلامية وهو الجامع الأزهر، وعلى الرغم من أن مكان شيخ الإسلام كان فى تركيا، إلا أن شيوخ الأزهر كانوا محط هوى المسلمين فى كل البقاع الإسلامية بما فى ذلك تركيا ذاتها .

ولكن محمد على وضع الدين جانباً وترك تدبير أمر الأزهر ودوره لصديقه الشيخ حسن العطار الذى عينه شيخاً للأزهر والذى كان من أهم الدعاة لحكم محمد على وكان رجلاً مستنيراً هيَّجت عقله الحملة الفرنسية على مصر واقتحم مؤسساتها وتعرف إلى أشخاصها، وكان له اهتمام بعلوم دنيوية خالصة كالفيزياء والكيمياء وله فيها كتابات . على أن تلميذه الأزهرى والذى أرسل إلى فرنسا فى صحبة بعثة علمية، رفاعة رافع الطهطاوى هو الذى لعب دوراً رئيسياً فى بناء التعليم الدنيوى غير الدينى الذى بدأ بالمدرسة الابتدائية ثم المدرسة الثانوية أو التجهيزية ثم المدرسة العليا . والغريب أننا لو راجعنا هذه الفترة لم نجد معارضة لثورة محمد على التعليمية، إذ رحب المجتمع بهذه المدارس الجديدة وكانت مرتبطة فى أذهانهم بالتحديث والإصلاح ولم تعتبر خروجاً على الدين، ولا أظن أنه مرَّت على فى قراءاتى فى هذه الفترة ثورة أو اعتراض واضح على السياسة التعليمية الجديدة حتى من جانب الأزهر . حقاً كان الفلاحون يتهربون ويخفون أولادهم عندما كانت سلطة الدولة تجمع الأولاد لتدخلهم فى

المدارس ولم يحدث هذا إلا فى بعض عناصر الجيل الأول، وهى حادثة عرفناها من على مبارك الذى يحكى أنه اختطف اختطافاً لينضم إلى المدارس الجديدة . وكان هذا الخوف لسوء الظن يتعلق هذا الخطف بالتجنيد والحروب، فيما عدا ذلك سارت الحركة التعليمية الدنيوية دون اعتراض حقيقى من القوى الاجتماعية فى مصر . وأظن أن الدستور المصرى الذى وضع بعد ثورة (١٩١٩ دستور ١٩٢٣) لم ينص فيه على أن للدولة ديناً رسمياً ولم يأت هذا النص إلا فى أول دستور وضع بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وما بعدها .

لهذا لم تكن الدعوة للقومية العربية ضرورة اجتماعية، وكانت بالنسبة لثورة يوليو أحد أبعاد التحرك المصرى الذى حدد له جمال عبد الناصر فى كتاب فلسفة الثورة المنسوب إليه ثلاثة أبعاد : البعد الوطنى والبعد العربى والبعد الإسلامى، ولعل الفكرة القومية التى كان كتاب ومثقفون مسيحيون عرب قد بدءوا ينشرونها صادفت قبولاً لدى الاتجاهات الحداثية فى مصر، ولعلها أيضاً خففت من الإحساس بالوحدة والعزلة التى شعر بها المصريون بعد إعلان إلغاء الخلافة الإسلامية فى تركيا بعد انقلاب كمال أتاتورك وانخلاعها من العالم الإسلامى . فالجيل الذى أنتمى إليه كان يشعر بانتمائه العربى، ويبدو أنه - حتى على المستوى الشعبى - كان الأتراك أنفسهم يسمون العالم المتكلم باللغة العربية فى منطقة الشرق الأوسط بالعرب ويسمون أفراده بأولاد العرب، وكان اختلاط الإسلام بالعروبة واضحاً جداً فى مشاعرنا الدينية .

نعم إن المصريين لم يتكلموا العربية إلا منذ حوالى خمسة أو ستة قرون - على عكس ما هو شائع - إذ كانت العربية هى اللغة الرسمية، لغة الحكومة ولغة التعليم الدينى، ولكن جهات كثيرة فى الريف المصرى كانت تنطق لهجات من اللغة القبطية، على أنه ابتداء من القرن الخامس عشر استطاعت اللغة العربية أن تسود اللسان المصرى فى كل بقاعه تقريباً، وما بقى من اللغة القبطية كان قليلاً جداً ولا تكاد تسمعه إلا فى صلوات بعض الكنائس . ولقد حضرت وأنا فى حوالى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرى صلاة فى الكنيسة القديمة التى فى حينا مع صديقى القبطى ووقفت مندهشاً وأنا أسمع تلك التراتيل العجيبة التى لم أفهم منها شيئاً وإن حاول صديقى والذى كان فى مثل سنى أن يترجم لى المعانى .

وللغة تأثير كبير على مشاعر الإنسان وإحساسه بالانتماء ولذلك شعرت بالغربة التى توشك أن تكون خوفاً وأنا أتطلع إلى الجموع المستغرقة فى الصلاة وإلى المباخر النحاسية الصفراء البالغة الفخامة ولباس قسس الكنيسة الأسود والعمامة السوداء ذات الأطراف اللامعة السواد .

لكن بالنسبة لشخص مثلى نقلته الفكرة الاشتراكية الماركسية إلى العالمية كانت القومية العربية خطوة فى طريق هذه العالمية وليست الخطوة النهائية وبالتالى لم تكن شيئاً مرفوضاً، لكنها لم تكن فكرة استراتيجية أو فلسفية، وكانت الثقافة الماركسية نفسها تفسر النزعة القومية على أنها تعبير فكرى عن توسيع السوق الذى كان مقسماً ومغلقاً حسب العهد الإقطاعى والذى كانت تعترضه عند كل حدود الرسوم الجمركية وغيرها من أنواع الضرائب فضلاً عن المشاكل القانونية الأخرى . ولكن فى عمليات المواجهة، وبخاصة الناشئة عن فرض الدولة الإسرائيلية على سكان المنطقة اكتسبت النزعة القومية قوة عاطفية وأوشكت المشاعر القومية أن توحد عواطف الأقطار العربية المختلفة . ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية كانت

القاهرة قد صارت ملتقى للكثير من العرب الذين أتوا إليها لأغراض شتى منها الدراسة فى جامعاتها أو مدارسها.

ولذلك، وابتداءً من خمسينيات القرن العشرين بدأت فكرة القومية العربية تجد طريقها إلى قلوب المصريين، ولكن عند . وفاة عبد الناصر كان على أنور السادات أن يحارب التيار الناصرى والذى صار يسارياً إ ى حد كبير بإثارة النزعة الوطنية المصرية أو قل القطرية كما يحب القوميون أن يصفوا خص مهم، ثم بإثارة الحس الدينى الإسلامى بصفة خاصة وتحويله إلى خط سياسى أيضا .

إلى أى مدى نجحت خطة السادات فى هذا الاتجاه ؟ لا أكاد أقطع برأى إذ كان لدى المصريين إحساس قوى لدرجة التعصب بمصريتهم، ربما بسبب التاريخ الفرعونى المجيد . ومع ذلك ففى الكثير من الأقطار العربية الأخرى تواريخ ذات أمجاد عظمى مثل العراق الذى يتسابق دارسو الحضارات فى إثبات أى حضارة هى الأقدم : العراقية أم المصرية، وأيهما اكتشفت الكتابة والقانون وغير ذلك من عناصر الحضارة . ومنذ متى نشأت النزعة الشوفينية المصرية، هل من بداية الإحساس بالانفصال عن السلطة العثمانية فى حكم محمد على الذى كان يضمر الميل إلى الاستقلال بل إلى وراثة الدولة العثمانية ذاتها .

هل كان للحروب والتحديات التى واجه بها محمد على الدولة التركية والهزائم التى ألحقها بالدولة العثمانية، وهو الأمر الذى لم يحدث فى أية ولاية تركية أخرى ؟ وهل للكلمات العاطفية التى رددها المصريون حتى فى العهود المملوكية مصر المحروسة، ومصر أم الدنيا ؟ أم شعار مصر للمصريين كان المحرك الأول للشعور بالوطنية المصرية المغالية، أم بعد الاكتشافات الأثرية الخطيرة فى الربع الأول من القرن العشرين وبخاصة مقبرة توت عنخ آمون البالغة الثراء وانشغال العالم الخارجى بها إلى حد الانبهار ؟

ومع ذلك عند نشأتنا كانت مصر بلداً مستعمراً نرى جنود الاستعمار يسيرون فى شوارعنا فى أرديتهم العسكرية ونقرأ فى الصحف أن السفير البريطانى يدعى المندوب السامى، وعندما نمرّ بمعسكراتهم نراهم يحملقون فينا باسترابة، وعندما نتظاهر ضدهم تخرج مصفحاتهم ويطلقون علينا الرصاص .

لماذا إذاً هذا الفخر المغالى فيه بمصر والذى يصل إلى درجة العنصرية ؟

وحتى عندما أتأمل نفسى أجد أن كلمة مصر تحدث فى نفسى هزات عاطفية قوية، وعلى الرغم من الظروف الصعبة التى مررت بها فإننى كنت فخوراً بانتسابى الوطنى المصرى، هل هو نوع من التحدى على الوضع المزرى الذى عاشه المصريون بعد الاحتلال البريطانى . مهما يكن الأمر فقد كان لدى المصريين مشروع قومى عظيم، وكانت حركة التجارة قد انتعشت مرة أخرى قبل الحملة الفرنسية . وكان الكثير من صفات مصر التى بهرت ابن خلدون عندما زارها أول مرة مازالت قائمة . والذى انكسر أمام الفرنسيين كان النظام المملوكى، وليس التجار والفلاحين و"العلماء" وجاء عصر محمد على ليمضى بمشروعه إلى أبعاده المختلفة . وعلى الرغم من تقديره السيئ للقوى الكامنة فى المصريين، إلا أنه استطاع بهم مع القيادات التركية والشركسية أو غيرها من الآسيويين أو الأوروبيين أن يقلق القوى الكبرى العالمية عسكرياً . وحتى بعد فشل الثورة العرابية، وكانت هزيمة حقيقية للمصريين، لأن الذى حارب هنا هم المصريون : وربما كان الانقسام الذى وقع فى صفوف المصريين وحلفائهم الأتراك وخيانة

الخديوى توفيق، ثم التخلى الكامل عن مصر من جانب الحكومة التركية التى أصدرت إعلاناً يفيد مروق قائد الثورة أحمد عرابى، هو الذى أثر أكثر من العناصر الأخرى على الكفاءة القتالية المصرية .

لقد أثرت الهزيمة العرابية على المصريين ولكن مشروعهم النهضوى لم يمت، وقد قضى الشيخ محمد عبده وهو واحد من أهم مفكرى الثورة العرابية كل سنى عمره الباقية وهى حوالى ثلاث وعشرين سنة ومند وقوع الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ وهو ينسج مشروعه الثقافى . لقد أدرك أن مصر فى حاجة إلى ثورة فكرية حتى تستطيع أن تنهض بمشروعها الحداثى وأن تنتقل إلى العصر الحديث. حقاً كان عليه أن يفعل ذلك بموافقة المندوب السامى البريطانى "اللورد كرومر"، وأن يستفيد من كل التناقضات ليعمم مشروعه الثقافى، ولعله كان أبرز مفكر مصرى وعربى فى زمانه حيث قام بحركة تنوير كبرى فهو الذى نقل الشريعة من سجن النصوص إلى حرية العقل وشرعيته، وعلى الرغم من أنه لم يتجاوز حدود حركة التوفيقيين فى التاريخ الإسلامى إلا أنه جاوز أكثرهم تقدماً نحو ما يمكن أن نسميه بالعقلانية.

ومن عباءة الشيخ الإمام ـ كما جرت التسمية على ألسنة تلاميذه -خرجت الطلائع الجديدة التى سارت بالمشروع التنويرى إلى غايته وواجهت القوى المحافظة، التى تريد فرض الوصاية على التفكير المصرى والعربى، بالاحتماء بالنص المقدس . وقد نزل تلاميذ الشيخ إلى الساحة بأعداد هائلة من العقول الكبيرة من أحمد لطفى السيد إلى محمد حسين هيكل والعقاد وأحمد أمين وطه حسين وغيرهم، وقد لاحظت من قراءة "عميد الأدب العربى" أنه كان يعتقد أنه يتجاوز الشيخ كثيراً، وربما كان هذا صحيحاً إلى حد ما، خاصة فى مجمل رؤيته للتاريخ والثقافة الإسلامية .

وعندما بدأنا نفكر فى حياتنا ونراجع تاريخنا كانت "العقلانية" سائدة إلى حد كبير، وربما كان سلامة موسى الذى وفد على الثقافة السائدة من خارج التراث الإسلامى إلى حد ما، أحد رواد عصر الاستنارة الذى نبه الأجيال الجديدة إلى حركة التنوير الأوروبية ودق مسماراً جديداً فى نعش الثقافة المحافظة التى كانت قد ضعفت إلى حد كبير حينما بدأنا التعلم والتفكير .

وعلى الرغم من الانتكاسات التى مر بها المجتمع المصرى، إلا أن مصر كانت فى الواقع من أهم قلاع المقاومة ضد الهجمة التى بلغت ذروتها فى التوسع الاستعمارى الذى طال المنطقة العربية كلها . وحينما فشلت مصر عسكرياً ظلت تقاوم فكرياً وجعلت أهدافها هى الثورة الفكرية والنضوج الثقافى .

وهكذا ظلت مصر فى طليعة العالم "الإسلامى الذى يقاوم الغزو الاستعمارى وثقافته التبريرية بالفكر الحيوى الجديد . ولعلها لهذا السبب صارت كعبة البلاد العربية بل والإسلامية يقصدونها من أجل ثقافتها الأصولية والتنويرية على حد سواء .

هل لهذه الأسباب كان المصريون يشعرون بشىء من التميز على أقرانهم فى العالمين العربى والإسلامى ؟

قبل أن أسافر إلى العراق سألت صديقى محمود الشنيطى الذى قضى عدة سنوات يدرس فى المدارس العراقية عن أحوال العراق فقال بشىء من التركيز : نحن نسبقهم بمائة سنة .

وبصرف النظر عما فى هذه الإجابة من تعميم خطر، إلا أن القادم من القاهرة فى ذلكالوقت إلى بغداد، كان يجد أن المدينة الأخيرة كان ينقصها الكثير من البنية التحتية، وكما قلت سابقاً أننى استأجرت من وزارة الإعلام العراقية البيت الذى كان يملكه أحد وزراء الصحة السابقين فى قلب بغداد، وكا ، يقع بالقرب من نهر دجلة، ولم يكن فيه صرف صحى، وكان على كل عدة أشهر أن أستجلب ، يارة لنقل الفضلات، وهو أمر لم أعرفه طول حياتى فى مدينة القاهرة. طبعاً كان عدد الد كان العراقيين بالنسبة للتعداد السكانى فى مصر لا يصل إلى النصف، وقل ذلك بالنسب لأشياء كثيرة . كان فى القاهرة مسرح فخم للأوبرا بنى فى ستينيات القرن التاسع عشر، وكان فى بغداد عدد قليل من المسارح البدائية، وقل نفس الشىء عن الصحف وانتشارها، وكذلك الأمر بالنسبة لما يمكن أن يسمى بالمدارس العليا، التى عرفتها مصر منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر، بينما كانت أهم المدارس ترجع إلى الحوزات الشيعية أو بعض المساجد السنية .

كانت القاهرة قد استحدثت بالفعل منذ بدايات القرن التاسع عشر، دعك من العمارة المملوكية الباذخة والتى كان المهندس حسن فتحى يفتح عقولنا على جمالها .

كانت أسرة محمد على الحاكمة ذات نزعة تحديثية بغير شك، وكان لها هوس بالفخامة فى العمارة وهندسة المدن، وكان فى القاهرة والإسكندرية قصور تطاول قصور أمراء الإقطاع الأوروبيين وقلاعهم . وأذكر أننى عندما سافرت لأول مرة إلى أوروبا وزرت المدن الإيطالية العريقة وكذلك فى إنجلترا وفرنسا لم أنبهر . كنت أمشى فى شوارع روما وكأنى أمشى فى القاهرة، وكذلك الأمر فى لندن وباريس، وربما أصابتنى الدهشة لأننى فى الواقع لم أكن أتوقع أن أبناء القاهرة الحديثة يعيشون فعلاً فى الزمن الحديث، ولم يكن هذا مقصوراً على العمارة والمدن، بل على الثقافة أيضاً، ولعلى أدركت فى ذلك الوقت أن هناك ثقافة سائدة فى العالم تخطت الحدود الجغرافية والثقافية هى ما يمكن أن يسمى بالثقافة العالمية والتى تأتى من الغرب وتتفاعل مع الثقافات المحلية، ولعلى انشغلت بالتفكير فى الظاهرة التى لاحظتها عبر هذه الأسفار، إذ كنت أكثر قرباً فى التفاهم مع إيطالى أو فرنسى أو إنجليزى من المتعلمين من القطاعات الأمية من أبناء جلدتى فى مصر . ولعلى أدركت أن فى العالم كله شريحة واسعة متعددة القوميات يتكون سلوكها الاجتماعى والثقافى من الحصيلة الثقافية والمعلوماتية المتاحة فى جميع أنحاء العالم، ولعلى حلمت - أثناء اندساسى فى مظاهرة المليون متظاهر فى حديقة "الهايد بارك" الإنجليزية ضد الخطر النووى - أننى أنتمى إلى هؤلاء الناس الذين يفكرون جميعا فى مستقبل الجنس البشرى كله وفى كوكب الأرض، وكانوا بالفعل من أكثر من بلد ومن أكثر من قومية، ولعلى من باب الحماسة أو المبالغة أودعت ثقتى فى هذه الجماهير المثقفة فى أنها هى التى ستغير العالم، حتى مصر التى كانت فى الثمانينيات من القرن العشرين قد أنهكتها الحروب مع الدولة الإسرائيلية واستنفدت طاقتها الحيوية فى الثورة أو الانقلاب الذى وقع ضد النظام الملكى . كنت أشعر أن مصر مرهقة وأن محاذير الأمن التى تقوم بها السلطة قد عطلت تنفسها، وأن الانحيازات الدولية وفساد الثقافة فى الأوساط السياسية فى الدول الكبرى . كل ذلك جعلنى أعتقد أن إصلاح الأوضاع فى مصر إن لم يكن ممكناً من الداخل فإن القوى الشعبية الجديدة التى تنتظم من كل شعوب العالم هى التى ستلعب الدور الأساسى فى الإصلاح .

على أن قوة الإحساس بتقدم مصر الحضارى فى الشرق الأوسط كله، كان يشاغلنى وأنا أناقش صديقى صلاح خالص وزوجته سعاد فى حديقة بيتهما الجميلة فى ضواحى بغداد .

كانت مصر فى ذلك الوقت (سنة ١٩٧٥) ترسل بعثاتها من المعلمين والأساتذة الجامعيين والعمال المدربين إلى كل أنحاء العالم العربى، فضلاً عن العراق الذى كان يتوسع فى استجلاب الأساتذة المصريين . ومع ذلك كان الأساتذة العراقيون على مستوى جيد، وربما كان العراق من أكثر البلاد العربية تقدماً من حيث الكفاءة العلمية والطاقة الثقافية .

كان صلاح خالص قادماً إلى عالم الفكر والثقافة من أرضية ماركسية، ولست أذكر هل كان عضواً فى الحزب الشيوعى العراقى، الذى كان - تقريباً - أقوى الأحزاب الشيوعية العربية، أم أنه لم ينخرط فى هذا الحزب مثلما يفعل بعض المثقفين العرب، الذين ليست لهم ميول للعمل السياسى . ولكن الانقلاب القومى على عبد الكريم قاسم، الذى كان ذا نزعة يسارية، ذلك الانقلاب الذى أيده جمال عبد الناصر، لم يلبث أن تبعه الانقلاب البعثى فى سنة ١٩٧٢ والذى جاء إلى الحكم برجل الجيش أحمد حسن البكر ونائبه البعثى صدام حسين .

❖ ❖ ❖

٣٣

فى قلب الصراع السنى الشيعى

والواقع أننى عشت فترة التوترات العراقية فى أواخر خمسينيات القرن العشرين وأنا اعمل فى جريدة "الجمهورية" القاهرية وأتابع أخبار الثورة العراقية ضد الملكية، وما حدث فيها من أحداث هائلة ومخيفة، مثل عملية السحل التى كنا نستغربها فى مصر . وكانت هناك مؤشرات على توجهات يسارية ولكنى فوجئت بأن السلطة المصرية كانت ضد العناصر التى بادرت بالثورة ،وبسرعة ظهر أن هناك تيارين، أحدهما قومى ذو نزعة يمينية بطبيعة الحال، والآخر: يسارى كان ضابطه الكبير، هو عبد الكريم قاسم . ولاحظت أن السلطة المصرية كانت تؤيد التيار القومى ضد التيار الاشتراكى . وقد قامت بالفعل صراعات دامية بين التيارين إلى أن تمكن عبد الكريم قاسم من الانفراد بالسلطة . وفى ذلك الوقت أحسست بالضغوط الهائلة التى تمارس على النشاط السياسى فى المنطقة وكان الخطر الذى تلعب ضده كل السلطات المحلية هو الخطر الشيوعى ولست استبعد أن هذا كان من ورائه ضغوط دولية كانت متحمسة جدا للإسهام بكل شىء لوقف عمليات التحول التى يمكن أن تطرأ على منطقة الشرق الأوسط وكان موقف مصر واضحا تماما ضد الجنوح إلى اليسار فى العراق وعندما نجح عبد الكريم قاسم فى الاستيلاء على السلطة تكتلت ضده كل القوى الداخلية والخارجية بعنف لم يعبأ حتى بالدماء التى أريقت فى هذا الصراع . كانت المرحلة تمر بعمليات الاستقطاب التى كانت تقوم بها القوتان الكبريان : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، أو قل الكتلتان الغربية والشرقية . وكانت مصر إلى جانب القوى المعادية للتحولات التى يسميها أصحابها بالاشتراكية ويسميها أعداؤها بالشيوعية .

كنت قلقا بطبيعة الحال وأنا أشهد هذه المواقف المعادية للثورة ولكنى لم أكن أعتبر أن الثورة المصرية ذات اتجاه يسارى . والواقع أن ثقافة الضباط الأحرار كانت ضد الفكر الاشتراكى، إلا فى العدد القليل النادر من المشاركين فيها مثل خالد محيى الدين ويوسف صديق وكلاهما قد استبعد من مجلس قيادة الثورة فى وقت مبكر . وكانت كلمة الشيوعية قد اكتسبت ظلالا عديدة مثل النزوع إلى الكفر والإلحاد، ومثل الفوضى والعنف والتآمر بحيث تثير القشعريرة لدى سماعها .

وكان الملك فاروق ينتفض حين سماعها وكذلك كبار السياسيين وفى تصريحات حديثة جدا

للسادات نقلت إلى القراء بعد موته أن أخشى ما كان يخشاه السادات هم الشيوعيون والناصريون . ولكنى أذكر أننى عندما ذهبت إليه وهو رئيس مجلس الشعب فى فيلته بشارع الهرم وكانت ملكا للأميرة فوزية، شقيقة الملك فاروق، لكتابة مسلسل إذاعى عن ثورة ٢٣ يوليو، وبعد حديث سريع حول الإعداد لهذا المسلسل، أنه قال لى ضاحكا : أنت أحمر يا وله .

فهل كان ينظر إلى اليسار المصرى هذه النظرة المتسامحة ؟ إذ ظللت طوال فترة وجوده فى الحياة السياسية لم أتعرض لأذى شخصى منه . وكانت علاقته وثيقة بمساعده الأول محمد عبد السلام الزيات، والذى كان يعتبره يساريا، وكان هو أول رئيس جمهورية يعين وزيران يحسبان على اليسار الشيوعى المصرى هما إسماعيل صبرى عبد الله وفؤاد مرسى . وهو أول من عقد معاهدة مع الاتحاد السوفييتى متجاوزا حتى علاقات جمال عبد الناصر بالدولة الاشتراكية الكبرى فى ذلك الوقت . وربما كان انقلابه على الزيات بعد ذلك وطرد القوات السوفيتية من مصر علامة على كراهيته الكامنة لهذه الاتجاهات وإن كنت أشك فى ذلك . ولعله كان سياسيا براجماتيا إلى أقصى حد، أكثر منه سياسياً إيديولوجياً فى هذا الجانب أو ذاك .

كان تداخل الأفكار والمواقف محيراً إذاً لشخص مثلى، يتابع الأحداث العربية المختلفة . وراقبت علاقة مصر بالثورة العراقية بشىء من الاستغراب . وإن كنت قد عرفت بعد استقرارى فى العراق من بعض كبار السياسيين العراقيين التقدميين أن الثورة العراقية لم تقم إلا بعد اتصالات بجمال عبد الناصر ويبدو أنه كانت لدى القائد المصرى تصورات أخرى عن العلاقات بين الثورات العربية ومصر . وكان لعبد الناصر شعبية عربية كبرى، ولذلك كان أى تغيير فى المنطقة يسعى إلى الحصول على موافقته ورضاه . وربما استخدمته بعض القوى العربية المتصارعة لصد تحول اشتراكى أو قل حتى شيوعى، حينما كانت هذه الكلمة سيئة السمعة تستخدم لتنفير الناس وعزل الحركة السياسية التى يرفضونها . ولذلك ما زلت أظن أن مبادرة حزب البعث السورى للاتحاد مع مصر أثناء بروز قائد الجيش السورى عفيف البزرى والذى كان يصنف على أنه شيوعى كانت من أجل إجهاض توجهات هذا القائد بالنسبة لسورية وإنقاذ الوضع من اتجاه راديكالى مغال قد يصل إلى الشيوعية . لذلك لم تكن لدى أى أوهام بالنسبة للموقف المصرى من ثورة عبد الكريم قاسم وبالفعل أمكن القيام بانقلاب عسكرى على هذه الثورة وقتل قادتها وعلى رأسهم عبد الكريم قاسم نفسه الذى حاول حزب البعث العراقى اغتياله قبل ذلك بواسطة عدة أشخاص كان على رأسهم صدام حسين الذى هرب بعد فشل العملية إلى سوريا ثم إلى مصر .

عالم متشابك معقد يصعب فرزه. على أن الضابط العراقى الذى قام بالانقلاب ضد عبد الكريم قاسم كان عبد السلام عارف الذى كان من الواضح أن وراءه قائد الثورة المصرية جمال عبد الناصر . على أن الأمور لم تستقر على هذا الوضع إلا قليلا . إذ قتل عبد السلام عارف فى حادث سقوط طائرة، وتم التخلص من شقيقه الذى تولى السلطة بعده بانقلاب قام به حزب البعث حيث تولى السلطة قائد عراقى آخر هو أحمد حسن البكر بالاستعانة بمنظم مدنى له باع طويل فى كل العمل السرى هو صدام حسين، الذى صار نائبا للرئيس .

هكذا كان حزب البعث العربى الاشتراكى يقدم نفسه منافسا وبديلا لحكم عبد الناصر، الذى لم يؤسس نفسه على فكر إيديولوجى . أو هكذا كان يظن البعثيون، أن الثورة المصرية ليس وراءها "منهج" فكرى، وأن البعث هو الذى يقدم هذا المنهج . وربما كان طموح الحزب هو

أن يحتوى عبد الناصر بشعبيته، وأن ينشئ الوحدة العربية المنشودة ولكن عبد الناصر لم يكن يريد أن يحتويه أحد، أو حتى تحتويه نظرية أيا كانت هذه النظرية . ولهذا السبب ظلت علاقة عبد الناصر بحزب البعث علاقة مضطربة وقلقة وقائمة على الشد والجذب، وربما كان هو الذى شجع تيارات قومية أخرى قامت هنا أو هناك فى العالم العربى . ولكن عندما توفى عبد الناصر، انفرد حزب البعث بالساحة العربية باعتباره التنظيم القوى الذى يمتلك نظرية وتنظيما سياسيا لتنفيذ الثورة الكبرى التى تؤدى إلى الوحدة العربية .

ولكن السادات كانت له مشروعات أخرى تماما . كان السادات يريد أولا استرداد الأرض التى استولت عليها إسرائيل فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧، ولو بالارتماء فى أحضان الولايات المتحدة وربط مصر بالسوق الاقتصادى الحر . وربما كان التفكير فى هذا المشروع بعيدا تماما عن أى تفكير إيديولوجى، إذ كان السادات يحسبها على أساس إمكانات الواقع . وكان قد رأى أن الولايات المتحدة هى التى تمتلك ٩٩٪ من أوراق اللعب . فما الجدوى من التفكير فى أى كلام نظرى آخر ؟ ولكن كان عليه أن يستنهض قوى إيديولوجية أخرى لمقاومة المشروع الناصرى والفكر البعثى والتيارات الاشتراكية الأخرى . وهكذا نشط الاتجاه الإسلامى السياسى وأفرج عن المعتقلين المصريين من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين .

وجرى التوسع فى نشر ثقافة هذا الاتجاه، ولكنه فى نفس الوقت كان يعد نوعا من الديمقراطية الحزبية . حقا بدأت كما لو كانت ديكورا لشكل ديمقراطى يريد أن يظهر به أمام العالم لكنه - فيما يبدو - كان يعتقد أنه يفتح الطريق لديمقراطية فى المستقبل، إذ كان مثل كثيرين من الديكتاتوريين يعتقد أن له رؤية صحيحة، وأنه يريد أن ينفذها دون أن يعترضها أحد من هؤلاء الذين لا يمتلكون أى رؤية أو يقعون فى أوهام نظرية لا تصمد للواقع، الذى يظن أنه يعرفه جيدا . ومثل هذه الأفكار كان من الطبيعى أن يكون حزب البعث ضدها بشكل كامل. وكان يرى أن مصر جنحت فى عهد السادات إلى "القطرية"، وانسلخت عن المشروع القومى، ومع أن البعثيين كانوا ينظرون إلى هذا الانسلاخ بشىء غير قليل من القلق، إلا أن اختفاء الزعامة الكاريزمية لعبد الناصر، خايل القادة البعثيين وبصفة خاصة صدام حسين، وجعلهم يظنون أن هذه فرصة للعراق لكى يقود هو المشروع العربى القومى، ويقود الجماهير العربية وراءه .

فى تلك الظروف السياسية والفكرية وصلت إلى العراق لإقامة قد تطول . وأذكر عندما كنت أجلس إلى المرحوم عبد المنعم الصاوى، الذى كان فى ذلك الوقت رئيس مجلس الإدارة لجريدة الجمهورية أثناء إعداد قرارات منحى إجازة الإعارة إلى العراق، أذكر أنه سألنى : هل أنت واثق من ذلك ؟ هل ستغير عملك من صحفى إلى التدريس الجامعى ؟ هل حسبت كل شىء بشكل جيد ؟

لم أحسب أى شىء بشكل جيد . كانت الأمور مضطربة أمامى تماما، وكنت مجهدا بسبب صدامنا الأول مع وزير الثقافة فى ذلك الوقت يوسف السباعى، ثم استقالتنا الجماعية من مجلة "الكاتب"، ثم معاكستى فى نشر مقالاتى فى جريدة الجمهورية، وأخيراً شعورى بعدم الجدوى . فهاهى ذى حرب سنة ١٩٧٣ التى بدأت رائعة تنتهى بنصف هزيمة ونصف انتصار . وعلى الرغم من وجودنا فى قلب الأخبار، إلا أن الأخبار الحقيقية كانت تختفى وراء ستار . نعلمها بالاستنتاج أو بالنقل الشفاهى الذى يتحوطه الشك بطبيعة الحال .

كنت أجلس فى حديقة بيت صديقى الدكتور صلاح خالص، وأنا أنظر إلى الرجل الذى لم ينكسر تماما ولم يفقد الثقة بعد فى المستقبل . وكنت قد عرفت أن له علاقة طيبة بنائب الرئيس صدام حسين، ربما من موقعه كأستاذ وموقع صدام كطالب فى زمن سابق. هناك شىء من هذا النوع وراء هذه العلاقة، على ما أذكر . وكانوا قد سمحوا له بإصدار مجلته، ولعله كان يحصل على شىء من الدعم فى شكل اشتراكات حكومية فى المجلة .

كانت منطلقات الرجل يسارية، وكانت علاقته بصدام حسين تمنحه شيئا من الاطمئنان . ولكنه فى الواقع كان يصادف تلك المشكلة التى يقع فيها الكاتب أو المفكر الملتزم : أين هذا الوضع الذى يراه فى المجتمع من تلك الصور المثالية فى ذهن الرجل المصلح وكيف أن على الإنسان أن يميز بين ما هو مثالى وما هو واقعى دون أن يتورط فى التناقض أو التنازل عن مبادئه . وفى الانتقال من عالم النظريات إلى عالم الواقع تتداخل الأمور بشكل مخيف حتى يكاد يشعر المرء بأنه يفقد البوصلة ويتوه فى متاهات لا يكاد يستطيع الإمساك بخيوطها . وفى قلب هذه العواصف عادة ما يختار المثقف تفسيرا فكريا لما يدور يعطيه شيئا من راحة البال . ولكن هذا عادة ما يكون صعبا وملفقا ومشكوكا فيه من جانب صاحبه نفسه وبالتالى يظل يراجعه ليل نهار ويكاد الأمان الشخصى وحده يكون وراء هذا التفسير، ولذلك يعيش المثقف فى قلق وتوتر بالغين ومن السهل أن يسقط فى عملية اكتئاب طويلة الأمد قد تنتقل إلى الاكتئاب المرضى وما يترب عليه من أضرار نفسية وبدنية . لعلى هكذا فهمت صلاح خالص . وأذكر أنه عندما انقض صدام حسين على زملائه وأعدمهم جلست إلى صديقى دون أن افتح الموضوع بشكل صريح، ذلك أن فتح مثل هذا الموضوع فيه الكثير من الخطورة وكان الناس يعتقدون أنهم مراقبون فى كل لحظة، وأن التسجيلات والجواسيس يحيطون بهم فى كل مكان . ومع ذلك ينفلت اللسان ويطرح التساؤل . وهكذا سألته عن رأيه فيما حدث فقال لى : لابد أنهم كانوا متآمرين، وإلا فلماذا يقتلهم !؟

من ناحية المنطق قد يكون هذا صحيحا، ولكن من ناحية الواقع قد يكون الأمر مختلفا تماما . على أن هذا حدث بعد وقت طويل من إقامتى فى العراق وبعد تلك الجلسات التى كنت أجلسها يوميا فى حديقة بيت صديقى كل ليلة تقريبا نتجاذب فيها أطراف الحديث .

فعلى الرغم من سكينته الظاهرة كان ينقل إلىّ قلقا وريبة فى كل العملية التى قمت بها عندما غادرت القاهرة وأتيت إلى العراق . ولكن كان علىّ أن استمسك بالأمل وأن أرى أن العراق من الممكن أن يستكمل مسيرة المشروع القومى الكبير الذى كنا نحلم به فى مصر قبل "انقلاب السادات" . وأنه لا فرق بين بلد عربى وآخر . وأنه فى النهاية، سوف يتحقق المشروع فى كل أنحاء العالم العربى .

على أننى بسبب الإرهاق - غالبا - فكرت فى ألا أشترك فى أى عمل سياسى خارج مصر وأن أتفرغ تماما لعملى الأكاديمى، وبالفعل وجدت فى أكاديمية الفنون الجميلة مجموعة من الأساتذة والطلبة الممتازين . وكان قسم المسرح الذى انضممت إليه يضم مجموعة من الأساتذة من محبى الفن الذين درسوا دراسات أكاديمية فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية . وكان فى العراق حركة مسرحية قديمة لم تتأخر عن مثيلتها فى مصر كثيرا، ولكنها كانت أصغر حجما بطبيعة الحال . وفى قسم المسرح هذا قضيت وقتا طيبا على الرغم من أننى تبينت كيف يفسد النظام السياسى الأحادى غالبية الناس . فهم خائنون أو منافقون، منحازون إلى حد

الإضرار بالغير . وكيف يجعل الأفراد يبحثون دائما عن سند لهم له ارتباط ما بهذه السلطة، من أجل حمايتهم . على أني - باعتباري ضيفا على أية حال - لم أكن ضمن هذه الحالة . وكان احترازي بسيطا جداً . إذ كانت علاقتي قوية بالكثير من الشخصيات التي تعتبر قيادية وكان في هذا حماية قوية لظهري كما يقولون .

كانت السياسة غالبة على كل شيء وكانت الأكاديمية منظمة تنظيما سياسيا المقصود منه في الحقيقة أن يكون كل ما يدور في هذه المباني معروفا للسلطات الأمنية أولا بأول . وكنت التقي في مكتب عميد الأكاديمية أسعد عبد الرزاق الذي كان ممثلا موهوبا ودرس هذا الفن أكاديميا في إيطاليا، بالكثير من أساتذة الجامعة المتخصصين في الدراسات الأدبية أو الفلسفية أو التاريخية . وكان الذين التقيت بهم على مستوى جيد . بل كان فيهم من يعتبر متميزا، إذا قورن بأي مستوى أكاديمي في العالم العربي أو خارجه . وقد لاحظت أن الجامعة العراقية وتوابعها تضم عددا كبيرا من الأساتذة المصريين . وقليلا ما كنت أجد أستاذا عربيا غير عراقي من غير المصريين . وهكذا ضمت أكاديمية الفنون عدداً كبيراً من الأساتذة المصريين، سواء في الفنون التشكيلية أو الفنون الدرامية . وكان في العراق أيضا حركة فن تشكيلي بالغة التقدم، ورسامون ومعماريون على أعلى مستوى .

من الناحية الأخرى، كان صديقي محمد أنيس قد انضم إلينا وعمل أستاذاً للتاريخ الحديث وفي قسم التاريخ بجامعة بغداد أثناء زيارتي لأنيس التقيت بأستاذ تاريخ عراقي واسع الشهرة هو على صالح العلي كان من ألمع تلامذة المستشرق "هاملتون جب" في جامعة "هارفارد" الأمريكية وكان زميلا لصديقي محمد عبد الحي شعبان، الذي درس على "جب" أيضا . وهو الذي قال لي أن صالح العلي كان من ألمع الدارسين في جامعة "هارفارد"، وأن مشروعه لدراسة الماجستير قبلته الجامعة على أنه أطروحة للدكتوراه، ومنحته هذه الدرجة عليه بالفعل . وكان هذا الرجل رئيسا لقسم التاريخ في جامعة بغداد، التي انضم إليها محمد أنيس . وما إن عرفني به أنيس حتى صاح في غاضبا ومهاجما كتابي عن "اليمين واليسار في الإسلام"، وبصفة خاصة تصنيفي لعلي بن أبي طالب على أنه كان مهتما بالعدل الاجتماعي، وزعم أنه كان ثريا ثراءً فاحشاً، وأنني لم أدرس وضعه الاجتماعي دراسة جيدة . بعد هذه المقابلة العاصفة هدأ الرجل ثم بدأ يروي لي عن أعماله ودراساته في التاريخ الإسلامي . وكان موسوعيّ المعرفة بغير شك، ولكنه كان يناقش قضايا التاريخ كما لو كانت أحداثا تجري اليوم، وأنه أحد أفراد المعسكر الأموي الذي يقاتل معسكر الطالبيين ويستعمل كل الحجج الممكنة لدحض زعمهم بأحقيتهم في خلافة الرسول .

كان الرجل سنيا ولكنني كمصري لم أكن أعرف أن السنة والشيعة من الممكن ان يكونوا مختلفين حتى الخصومة في أواخر القرن العشرين، وكنا في مصر نتحدث عن المذاهب كما لو كانت شيئا هامشيا . وأذكر أنني في طفولتي عندما بدأت الصلاة قيل لي أن مذهبنا هو الحنفي وأن معنى ذلك أن تشبك كفيك عند وسط بطنك وكان جدي لأمي شافعيا فقيل لي أن الإنسان يصلي عندئذ بوضع الكفين على الجانب الأيسر أو شيئا من هذا القبيل . وهذا هو كل ما علمته عن المذاهب في سن الطفولة . ولكن السني والشيعي في العراق، أمر مختلف . ويكاد الخلاف بين المذهبين أن يشبه الخلاف بين الكاثوليكي والبروتستانتي في الديانة المسيحية، إذ يعتبر كل منهما ديانة مستقلة . وما زالت أشباح الخصومة السياسية القديمة بين السنة

والشيعة قائمة إلى اليوم . على أنى عرفت سر العاصفة التى قابلنى بها صالح العلى بعد ذلك وبعد أن تحسنت علاقتى به . إذ كان تأثير كتابى على شيعة العراق قويا، وجاء كما لو كان حجة جديدة للشيعة على الأمويين وأنصارهم، مما أثار غضب المؤرخ العراقى السنى . أعطانى صالح العلى بعض كتبه ودراساته فى التاريخ الإسلامى وكانت أبحاثا جيدة بغير شك ولكنه كان دائما سنيا يكاد يعيش فى عصر معاوية بن أبى سفيان .

والواقع أننى استقبلت من شيعة العراق بصفة خاصة بترحاب أذهلنى . وقد جاءنى ذات يوم مدرس تاريخ بالجامعة ومعه زوجته الصيدلانية ليدعوانى أنا وزوجتى إلى العشاء فى بيتهما . تسمرت عيناى على وجه الزوجة وكدت أفقد للحظة احتشامى وأنا أنظر إلى هذا الوجه البالغ الجمال . وعندما أتذكر هذه الصورة الفاتنة، يخيل لى أنى لم أر طوال حياتى جمالا بهذا الشكل . لم يكن جمال وجه فحسب بل جمال بدن خرط خرطا رائعا وكأنه قطعة فنية نحتت بإتقان بالغ وبرهافة حس لا يمتلكها إلا فنان معجز . وكانت السيدة تبدو كما لو كانت لا تعرف أنها جميلة . وفى بيت هذا الرجل وجدت عددا من المثقفين الشيعة فى الغالب وعلمت منه أنه تأخر فى دراسة الدكتوراه بسبب رفض الأستاذ المشرف على رسالته - وكان سنيا - استناده إلى كتابى اليمين واليسار فى الإسلام . على أنه بعد العشاء فوجئت به يتربع على مقعد ثم يقرأ فصلا كاملا من كتابى هذا عن ظهر قلب .

خجلت خجلا شديدا، بل كان هناك شيء فى داخلى يرفض هذا، فهذا الانحياز الأعمى، كان ضد طبيعتى الشكاكة . وذكرتنى تلك الحماسة غير الحصيفة بحماسة الدكتور على صالح العلى غير الحصيفة هى الأخرى .

ودعيت ذات مرة لإلقاء محاضرة عن كتابى هذا فى مدينة النجف، الموقع الشيعى العلمى البالغ الأهمية، ودخلت قاعة هائلة تتسع لأكثر من ألف مقعد، ووجدتها مشغولة عن آخرها، فضلا عن الواقفين . وعندما جلست إلى جانب أحد الأساتذة الكبار، الذى كان عليه أن يقدمنى، وجدت فى الصفوف الأمامية الأساتذة علماء الحوزة الشيعية فى ثيابهم السوداء وعماماتهم المزاحة غالبا إلى الوراء لتكشف عن خصلات الشعر وهم ينظرون إلى فى ترقب .

كنت فى الحقيقة باحثا مصريا من بلد نسى الخلافات المذهبية الدينية منذ أكثر من تسعة قرون . كنت فضوليا أريد أن أعرف كيف كانت مسيرة هذا العالم الإسلامى الذى انحدرنا منه، وكنت أريد أن أمسك بالخيوط التى انسل منها نسيجنا المعاصر حتى أعرف أين الخلل الذى أدى إلى انتكاساتنا المعاصرة . لم يكن لدى أى تصورات دينية أو مذهبية وأنا أفتش فى الكتب التى أترصدها . ولذلك لم يخطر على بالى، وأنا جالس إلى هذه المنصة، أن هؤلاء القوم يتطلعون إلىّ بصورة أخرى كما لو كنت مختارا من قوى عليا لقول الحق وما يترتب على ذلك من توقير وتسليم مطلق . تحدثت إليهم من عقل هذا الباحث القلق الذى يعمل عقله ويتحرى الحقائق بقدر اجتهاده ولم يكن يهمنى أن هذا التفسير لهذه الواقعة التاريخية أو تلك له صلة بعقيدة دينية معينة . لم أتكلم من واقع اليقين، بل من واقع القلق والحيرة والرغبة فى معرفة الحقيقة الملتبسة والتأكد من سلامتها . ولم يكن هذا هو الذى يتوقعونه . لكن هل أثرت فضولهم وحركتهم من يقينهم الثابت الذى لا يتزعزع ؟ لا أظن ذلك . وربما شعرت بأننى خيبت آمالهم من هذه الناحية، ولعل قادتهم هم الذين تذكروا أننى مجرد باحث ولست إماماً أو مجتهداً شيعيا . على أنه بعد المحاضرة دعيت إلى بيت العلامة الذى قدمنا للحضور وقضيت

ليلة رائعة فى الأحاديث الثقافية وإلقاء الشعر الجميل . ولعلى عرفت فى تلك الجلسة لماذا كان العراق دائما ازخر البلدان العربية بالشعر الرائع والشعراء المبدعين .

فى السيارة، وأنا عائد إلى منزلى فى بغداد، سرحت فى كل ما حدث تلك الليلة، وكيف أن الناس فى بلادنا يسيطر عليهم الماضى هذه السيطرة وأنهم يعيشون فيه كما لو أنه لم ينقض ولم يكد يتحرك خطوة إلى الأمام .

عندما بدأت الكتابة فى كتاب «اليمين واليسار فى الإسلام» كنت أظن أن للتاريخ الإسلامى مسيرة مستقيمة إلى الأمام تتعرج هنا أو هناك وأن على أن اكتشف هذه المسيرة واستخلص منها الصواب فى الاتجاه، ولكنى وجدت بعد ذلك أن تواريخ المجتمعات البشرية ليس من الضرورى أن يكون فيها استقامة إلى الأمام، فهناك وقفات وانقطاعات تكاد تكون شاملة أحياناً، وأن تاريخ المنطقة ملىء بالوقفات والانقطاعات والتأثيرات الوافدة ذات الأثر الكبير فى المجتمع وأفكاره، وأن الكثير مما نعتقد أنه من المقدسات لم يكن مقدسا فى وقت سابق، وأن الكثير من التراكمات ينبغى إعادة فحصها وردها إلى أسبابها . ولعلى لهذا السبب فكرت فى استكمال البحث ومعالجة هذا التراث ثقيل الوطء ونقده وغربلته .

❖ ❖ ❖

٣٤

اللقاء مع ميشيل عفلق

فى الفترة التى قضيتها فى بيت صلاح خالص، تعرفت على الدكتور فيصل السامر، الذى كان أستاذا للتاريخ الإسلامى، والذى كتب أطروحة للماجستير لجامعة القاهرة تحت إشراف الدكتور طه حسين على ما أذكر، فأحدثت ضجة كبرى، إذ إنها نظرت إلى ثورة القرامطة على أنها ثورة مضطهدين ضد مضطهديهم، وليست مجرد انحراف دينى كما جرت كتب التاريخ القديمة، التى كتبها وعاظ السلاطين على وصفها . وكنا مشغوفين بهذه الأطروحة فى مجلة الكاتب، وأظن أنه كانت هناك علاقة نشر بفيصل السامر ومجلة الكاتب .

كان مثقفا من طراز نادر وأظنه استكمل دراسته العليا فى إحدى الجامعات الإنجليزية وتولى وزارة التعليم فى إحدى الحكومات العراقية، ولست أذكر ما إذا كانت قبل ثورة عبد الكريم قاسم أو بعدها . كان بيته عبارة عن مكتبة زاخرة بأهم المراجع فى تخصصه وفى غير تخصصه، وكان قارئا عظيما وكائنا إنسانيا يجذب القلوب إليه . كان رجلا هادئا ليس لجوجا فى النقاش . وكان يتمتع بهذه الرؤية العالمية التى ينطلق منها كل المثقفين فى جميع أنحاء العالم، مهما اختلفت أصولهم والثقافة التى تربوا عليها . ووجدتنى بعد قليل أمشى وراءه وهو يصحبنى لشراء أثاث البيت، الذى اخترناه من البيوت القديمة التى اشترتها وزارة الإعلام – وكانت ستبنى مكانها مركزا إعلاميا ضخما – وفى حدود المبالغ القليلة التى كنت أملكها، والتى أقرضنى جزءا منها صديقى صلاح خالص . وكان السامرائى يعلم كل خفايا الأماكن فى مدينته العريقة بغداد، ومنه عرفت أن صناعة الأثاث متخلفة جدا فى العراق . ولم يتركنى يوما واحدا إلا بعد أن اشتريت أغلب الأشياء الضرورية لهذا المسكن قبل أن تأتى أسرتى .

كان فيصل السامر يسارى التفكير والثقافة بالطبع، ولكنه مقطوع الصلة بالسلطة القائمة، وأغلب الظن أنهم كانوا يعتبرونه معاديا لهم . وكانت له صلة ببعض كبار الساسة القدامى الليبراليين وبعض وزراء العهود السابقة وقد حضرت فى بيته جلسات ضمت بعض المثقفين العراقيين من ساسة ووزراء العهود السابقة الذين لم تتعرض لهم الثورة البعثية الحالية .

عندما نذهب إلى محلات بيع الأثاث كان الرجل يتصرف بشكل طبيعى . لم يكن يشعر مثل وزراء كثيرين فى مصر، أنه رجل مهم ولم يتصرف مع أى بائع على أنه شخص مهم يكاد يقول بحركاته وكلماته للشخص البسيط الذى يتعامل معه : ألا تعرفنى ؟ إننى وزير سابق .

وكان أيضا صديقا عزيزا لصديقى وزميلى محمد أنيس . وكان أيضا صاحب الفضل فى تنبيهى إلى أشياء كثيرة ما كنت لألحظها لولا إشارته البسيطة الملهمة. على أنه كان عاكفا على نفسه منزويا بعيدا عن الأضواء عارفا تماما أنه لا قبل له بالتعامل مع النظام الجديد فهو لا يريدهم وهم لا يريدونه .

على أنه كان لى صديق عراقى تعرفت عليه ونحن فى أول الشباب فى القاهرة. ربما فى أواخر الأربعينيات هو الدكتور شاكر خصباك الذى تعرفت به فى ندوة نجيب محفوظ فى كازينو بديعة. إذ كانت لجنة النشر للجامعيين التى اشترك فى تأسيسها نجيب محفوظ مع عبد الحميد جودة السحار وعادل كامل وعلى أحمد باكثير وآخرون، قد نشرت له مجموعة من القصص القصيرة، وكانت مبشرة بمستقبل جيد للكاتب الذى كان فى هذا الوقت طالبا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة قسم الجغرافيا.

كنا قد قضينا وقتا معا نتناقش فى الكثير من القضايا الأدبية، وعندما أنهى دراسته فى القاهرة أوفدته جامعته فى بغداد إلى إنجلترا، ليكتب رسالة دكتوراه شهيرة عن جغرافية الأراضى التى يعيش فيها الأكراد وكانت رسالة جريئة فى إنصافها وفى حيادها العلمى.

عندما وصلت إلى بغداد، كان شاكر خصباك أستاذا للجغرافيا فى كلية الآداب بجامعة بغداد، وكان الرجل بعيدا تماما عن الاتجاهات السياسية فى بلده فى ذلك الوقت ولعله اختار ابتعاده هذا عن عمد حتى يتجنب أية مشاكل، على أننى فى إحدى جلساتى الخاصة مع صديقى غانم عبد الجليل، الذى كان وزيرا للتعليم العالى فى ذلك الوقت، وكان يحدثنى عن قلة الكوادر العراقية التى يحتاجها لتسيير الوزارة، اقترحت عليه اسم شاكر خصباك ليكون وكيلا للوزارة باعتباره كفاءة على مستوى عال، ورحب غانم بالترشيح وأظن أنه قام بمحاولة لضمه ولكن أجهزة الأمن التابعة للحزب اعترضت عليه.

ومع كل ذلك كنت. بينى وبين نفسى. متفائلا بالثورة العراقية، وأنها قد تستطيع أن تسير بالمشروع القومى الذى كنا نحلم به، وأنها ستوصلنا إلى أهدافنا. وربما كان ذلك لعلاقتى ببعض كوادر الحزب، التى تسلمت بعض المواقع المهمة فى السلطة. كان غانم عبد الجليل شابا بسيطا ينحدر من الطبقة الوسطى الصغرى، مثله مثل كثيرين من كوادر الحزب، بمن فيهم صدام حسين نفسه. كان شابا ممتلئا بالحماسة ومجتهدا فى قراءاته، وإلى جانب ذلك كان له مزاج فنى، فكان محبا للموسيقى متذوقا لها، قارئا للشعر مالكا القدرة على التمييز بين جيده ورديئه. وأكاد أكرر هذه الشهادة فى أكثر من شخصية بعثية أخرى، كانوا كمجموعة من الشباب السياسى نماذج ممتازة فى رأيى وقادرة بالفعل على أن تقود سفينة العراق قيادة صحيحة. وأذكر أننى عندما وصلت إلى العراق، كان غانم عبد الجليل قد عين رئيسا لمجلس إدارة شركة النفط بعد تأميمها، وهو الذى جاءنى ليهمس: اطمئن إننا نملك أكبر احتياطى نفطى فى المنطقة بعد السعودية، وقد نكون أكثر.

كان قد تسلم كل الملفات وظل يراجعها مع موظفيه حتى تأكد من ضخامة الثروة التى يمتلكها العراق. والآن كان أمامنا بلد غنى بعدد سكان قليل وسلطة جديدة مكونة من مثقفى الطبقة الوسطى بشرائحها المختلفة، ولدينا التجربة المصرية من حيث الإصلاح الزراعى وبناء السد العالى وتجميع رأس المال بحيث يمكن التحرك بحرية فى عملية التنمية، ولدينا أيضا خبرتنا السلبية سواء فى تنازع السلطة أو هيمنة الوازع الأمنى على كل النشاط الفكرى والسياسى وتحول الدولة إلى حكم بوليسى.

ولم تكن الثروة النفطية العراقية هى كل ما هناك. فالمعروف تاريخيا أن العراق يمتلك ما يقرب من ثلاثين مليون فدان قابلة للزراعة، حقا ملّحها الإهمال وأوشك أن يحولها إلى أرض جافة لا خير فيها، ولكن تكنولوجيا إصلاح الأراضى كانت تعرف شيئا من نظم الغسيل بالماء، التى يمكن أن تعيد هذه الأرض إلى خصوبتها القديمة. وكانت هناك ثروات معدنية أخرى،

فضلا عن أن العراق يملك من الكوادر المثقفة ما يجعله فى مقدمة البلاد العربية، فيما عدا مصر بالطبع من حيث الثروة البشرية .

كان حلما رائعا، ولكن ما وراء الظاهر كان مخيفا، إذ رحنا نسمع بين يوم وآخر أن أحد هذه الكوادر المتقدمة دبر محاولة انقلاب فألقى القبض عليه ثم أعدم هو وزملاؤه . وكنا نجد أن هذه القيادات تختفى واحدا وراء الآخر، حتى تملكتنا الدهشة واستولى علينا اليأس . على أننا حتى لا نفسد الحلم على أنفسنا كنا نقتنع بالمبررات التى تقدم لنا بالنسبة لهذه الحوادث ولكنها كانت تترك رواسب من الشك تقلق حياتنا وتذهب بأحلامنا . وما نكاد نسقط فى هوة اليأس حتى يفتح أمامنا باب جديد من الأمل . وكان يبدو أن الإدارة البعثية ترحب بالمصريين وأن النائب صدام حسين سيفتح الباب أمام ثلاثة ملايين من الفلاحين المصريين ليزرعوا الأرض ويستوطنوا العراق .

ولكن بعض الحوادث ذات الدلالة الإيجابية كانت تجعلنى أميل إلى التفاؤل بمستقبل الثورة العراقية . وكان فى العراق بالصدفة سفيراً لمصر هو عبد المنعم النجار الذى كان ضابطاً من ضباط الثورة المصرية وقيل أنه هو الذى كان يدس منشورات الضباط الأحرار فى قصر الملك لصلة قربى له بأحد العاملين فى القصر . وأن عبد الناصر بعثه إلى فرنسا ملحقاً عسكرياً أو شيئاً من هذا القبيل فأقام علاقة جيدة بالرئيس "ديجول" حتى أصبح مقرباً إليه، وأن عبد الناصر اختاره سفيراً لمصر فى العراق لكفاءته الخاصة .

بعد أن استقر بى المقام فى بغداد فوجئت بالسفير المصرى يزورنى فى البيت ووجدته رجلاً لطيفاً دمث الخلق ذا عقلية عملية جداً وعرفت أنه ينحدر من أسرة تجارية عريقة فى الإسكندرية، وأن عقليته العملية هذه قد تكون شيئاً موروثاً من هذه الأسرة . على أنه فيما يبدو كان محباً للفن إذ دعانى مرة لأتناول العشاء مع المخرج السينمائى يوسف شاهين الذى يبدو أن علاقة صداقة كانت تربط بينهما من قبل . وقد قضينا ليلة طويلة نتجادل فى أشياء كثيرة منها الفن السينمائى ونظريات الالتزام فى الفن وقد شاركتنا إحدى بنات السفير التى كانت فتاة مثقفة وكانت على اطلاع جيد بالأنشطة الثقافية فى العالم الأوروبى . ولعلنا بعد ذلك كنا نتحدث أنا والسفير فى مستقبل العلاقات المصرية العراقية أثناء لقاءاتنا المتفرقة، ففى أحد الأيام قال لى : لماذا لا نعمل على ربط مصر والعراق بعرىً اقتصادية قوية تقوى الصداقة بينهما، فأنت تعلم أن الاقتصاد هو أساس كل شىء . ثم صارحنى بفكرة كانت تراوده وهى حث العراقيين على أن يشتروا من مصر سيارات الركوب، وكانت مصر قد قطعت شوطاً فى إنتاج السيارة "نصر" وهى سيارة صغيرة مأخوذة عن أحد نماذج سيارات "فيات" الإيطالية . وكذلك بعض الجرارات الزراعية التى كانت مصر قد بدأت تنتجها . وأعجبتنى الفكرة بالطبع فقلت له : ماذا تريد منى أن أفعل ؟ فقال : عليك أن تقنع اثنين من أصدقائك العراقيين لحضور عشاء فى السفارة وسوف أفتح الموضوع وما عليك إلا مساندتى فى عملية الإقناع .

بعد أن تأملت الفكرة قليلاً وجدت أنها معقولة وأنها بالفعل سوف تساهم فى تقوية الروابط بين البلدين وأنها تتفق مع الرغبة العراقية الظاهرة فى التعاون مع المصريين حكومة وشعباً . وبالفعل فاتحت صديقى غانم عبد الجليل (وزير التعليم العالى) وطارق عزيز (وزير الإعلام) وكانا من كبار الكوادر الحزبية فى العراق . وبعد أن فاتحتهم فى دعوة السفير المصرى لهم على العشاء، سردت عليهما ما دار بينى وبينه وأننى شخصياً رحبت بالفكرة

ووجدتها شيئاً مفيداً على المستوى السياسى . وكثيراً ما كنت أتحدث معهما وآخرين من زملائهما على أنه طوال التاريخ القديم كان العالم العربى يتقدم بأشواط بعيدة عندما يكون العراق وسوريا ومصر متآزة . ولعلنا قضينا الليلة فى حوار حول الأساليب التنفيذية التى تنشئ وتقوى هذا الترابط الذى من الممكن أن يسير إلى وحدة فيما بعد ذلك . والحق أنهما كانا قوميين عرباً بشكل واضح وعن اعتقاد راسخ . وبالفعل وافقا على الفكرة وذهبنا جميعاً إلى عشاء السفير وعلى المائدة تم الاتفاق على الخطوات التنفيذية للمشروع .

لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك، إلا أننى علمت من السفير المصرى أن التعاقد قد تم وأن المصانع المصرية وُجِّهت لإنتاج الصفقة الكبرى، وأظن أنها كانت حوالى ألف سيارة ركوب ولا أتذكر شيئاً من تفاصيل صفقة الجرارات الزراعية .

هكذا كانت الحياة تمضى بنا وكنت بالنسبة لقسم المسرح بأكاديمية الفنون أشارك فى الاجتماعات وأقترح الاقتراحات وكأننى أعمل فى بلدى مصر تماماً .

على أننى فوجئت بعد فترة من الزمن بغانم عبد الجليل وطارق عزيز يحدثاننى عن صفقة السيارات بأنها كانت صفقة فاشلة تماماً . واصطحبانى إلى ساحة كبيرة وجدتها ممتلئة بسيارات نصر . وعندما اقتربنا من أول الصفوف راح أحدهما أو كلاهما يفتحان أبواب السيارة فإذا بها تتخلع فى أيديهما . وهكذا أوضحا لى أن الصفقة خاسرة وأن السلعة فاسدة تماماً . وأظن أن هذه كانت بداية النهاية لهذه المحاولة من جانب السفير المصرى النشيط الذى لم يستمر بعد ذلك طويلاً فى منصبه .

وتذكرت أننى قبل ذلك احتجت لنوع من البطاريات يركب فى جهاز طبى لأحد أبنائى وكنت أستورده كل شهر من إنجلترا، وكان سفيرنا هناك فى ذلك الوقت كمال رفعت يشترى لى هذه البطارية ويرسلها لى كل شهر وفى إحدى زياراتى لمدينة لندن فكرت فى أن أذهب إلى الشركة المنتجة لذلك النوع من البطاريات وأرتب معها أن ترسلها بشكل منتظم، فلم أكن أعرف ماذا كنت فاعلاً فيما لو ترك كمال رفعت عمله سفيراً لمصر فى إنجلترا .

وبالفعل ذهبت إلى الشركة وقابلت مديرها الذى قال لى مستغرباً : لماذا لا تشتريها من مصر ؟ لقد أنشأنا مصنعاً لنا هناك . عجبت لهذا الخبر السار . وأعطانى عنوان الشركة فى القاهرة وكانت فى منطقة الهرم وعلى الفور ذهبت إلى هناك فوجدت مبنىً قديماً متآكلاً حيث قابلت مسئولاً بالغ الاكتئاب وأخذنى إلى مخزن فوجدت عدداً كبيراً من البطاريات ولكنها كانت جميعاً وبلا استثناء ودون أية مبالغة معوجَّة من هذا الطرف أو ذاك وكانت بالطبع غير قابلة لأن تركب فى المكان المخصص لها فى الجهاز الطبى وكان المفترض أن هذا المكان مصمم بدقة لتسقط فيه البطارية وتظل متماسكة إلى أن تنتهى . استغربت تماماً . فما هى الصعوبة فى أن تكون البطارية سليمة تماماً مثل أختها فى المصنع البريطانى ؟ ! فمن المفترض أن هناك قالباً توضع فيه مواد البطارية فتخرج متماسكة ومتماثلة ومن الضرورى أن الشركة البريطانية قد زودت الشركة المصرية بهذه الماكينات وهذه القوالب . فكيف يحدث ذلك ؟ ولماذا ؟

ومن الأشياء التى مازلت استغرب لها هو أننا فى مصر إلى هذه اللحظة لا نصنع محركاً (موتور)، مع أن لدينا كليات لدراسة الهندسة بكل أنواعها من أيام محمد على أى منذ مائتى سنة . ما المشكلة ؟! كانت تأتينا ومازالت ردود عجيبة، بعضها متعلق بفلسفة اقتصادية غير مقنعة أشبه بتلك الفلسفة التى تجعلنا نزرع البرسيم بدلاً من القمح وأن علينا أن نستورد

القمح لأسباب يقال أنها اقتصادية . وكنت أتعلم صغيراً أن مصر كانت مزرعة القمح للعالم، وأن القمح المصرى كان يطعم جيوش الإمبراطورية الرومانية فى الماضى البعيد . وهاهو ذا فكر آخر يزعم أن استيراد المحرك أقل كلفة من إنتاجه !

كان فشل صفقة سيارات نصر مدعاة لخجلى ولكنه كان فى نفس الوقت سبباً لاضطرابى الفكرى . إذ كان من الصعب أن أتفهم الأسباب التى تؤدى إلى الفشل فى الصناعة الحديثة والتعامل مع منجزات التكنولوجيا المعقدة التى تتعامل معها أمم كنا نسبقها فى العلم والتكنولوجيا بمسافات طويلة .

على أن وجودى فى العراق ظل مثمراً بالنسبة لى . فقد انتدبت أيضاً للتدريس فى قسم الدراسات الاشتراكية فى الجامعة "المستنصرية" وهى الجامعة الثانية التى أنشئت أيضاً فى مدينة بغداد مثل جامعة عين شمس كما وقع الاختيار على عضواً فى اللجنة العليا المشرفة على المسرح والسينما مع زميلى توفيق صالح المخرج السينمائى الذى أصبح مسئولاً فى اللجنة عن السينما . وكانت الحكومة البعثية نشيطة فى عقد المؤتمرات الثقافية، وكنت أشترك فى تلك المؤتمرات بصفة دائمة حيث ألتقى بالكثيرين من مثقفى العالم العربى . وأصبحت حياتى ثرية فى هذا المجتمع الجديد . وكثيراً ما كنت أشعر بأننى لم أكد أبرح مكانى فى القاهرة . ولكن مع مرور الوقت اكتشفت نزوع صدام حسين بصفة خاصة إلى الانفراد بالسلطة وبأساليب بالغة القسوة وأن الحزب يكاد لا يعمل بل تحول إلى جهاز إضافى للأمن باسم الحفاظ على أمن الثورة والحزب .

وإلى ذلك الوقت لم أكن قد التقيت بـ «ميشيل عفلق» مؤسس الحزب وزعيمه إلا لقاءات عابرة حتى جاءنى غانم عبد الجليل ذات يوم، ودعانى أن نذهب معاً لقضاء بعض الوقت مع "ميشيل عفلق"، وبالفعل ذهبت فى أول زيارة فوجدت رجلاً رقيقاً يفكر كثيراً قبل أن يتكلم وقد رحب بى ترحيباً طيباً وكان كل منا يعلم مكانه ولذلك لم نخض فى قضايا قد تكون خلافية وكان القدر الذى يقوم عليه فكر البعث بالنسبة للوحدة العربية كافياً لنلتقى حوله .

كانت الحكومة العراقية قد أعطته بيتاً كبيراً مزوداً بالخدم والحرس . ولكنه كان رجلاً بسيطاً ومتواضعاً ومازالت عاداته الدمشقية مسيطرة عليه فقدم لنا من الحلوى الشامية القادمة بالفعل من دمشق ما جعلنى أتخيل أننى أجلس إليه فى مدينته التاريخية وليس فى مدينة بغداد . ولعلى اندهشت بعد ساعة من الحديث الهين اللين، إذ تبينت أننى قد غمطت هذا الرجل حقه . فهو ليس يمينياً بالمعنى الذى كنت أظنه، ولكن نزعته القومية هى التى جعلته ينظر إلى التاريخ العربى تلك النظرة العاطفية المبالغة والتى يمكن أن تؤدى إلى شىء من التعصب العنصرى بل وإلى تفسير التاريخ تفسيرات تبريرية بعيدة عن المنظار النقدى الذى ينبغى النظر به إلى أى تاريخ . ولكنه فيما عدا ذلك كان حالماً بالوحدة العربية وبدولة اتحادية كبرى تضع العرب المعاصرين فى مصاف الدول الكبرى الحديثة .

❖ ❖ ❖

القسم الثالث

سنوات في بريطانيا

٣٥

الحياة فى لندن

عندما عدنا من زيارة ميشيل عفلق، راحت صور اللقاء تتتابع على ذهنى، وكنت قد لاحظت أن غانم عبد الجليل يعامله كزعيم باحترام زائد يصل إلى حد التقديس . ولعلى فكرت أن للعرب تقاليد مازالت سارية إلى اليوم فى معاملة الرؤساء، فالرئيس هو صاحب السلطة السياسية والتنفيذية وعلى التابع أن يبدى له الطاعة والخضوع والاستعداد لتنفيذ الأوامر التى يتلقاها منه بالكامل . وهذا يقتضى نوعا من الوقوف وطريقة فى الإصغاء وأسلوبا فى الكلام، بينما طاعة الرئيس الدينى أو الثقافى تكون بالإجلال والتقديس، وأن أحد أسباب هذا التقديس يرجع إلى اعتقاد خفى بأن للرئيس كرامات معينة، لصلته المباشرة بالله، والتى تعطيه قوة سحرية ما . وربما كان هذا موروثا من التنظيمات الصوفية التى كانت فى الواقع نوعا من مؤسسات المجتمع المدنى التلقائية التى يحتمى بها الناس من بطش السلطات أو ظروف الحياة القاسية .

كان غانم عبد الجليل يجلس أمام ميشيل عفلق بطريقة تبين إجلاله وتقديسه للزعيم الحزبى وفيلسوفه . ولعله لم يتكلم فى هذه الزيارة إلا مؤيدا لفكرة يقولها الزعيم، على أننى لاحظت مسحة الحزن التى كانت تغطى وجه ميشيل عفلق وتظهر فى نبرات صوته . ربما ذكرت نفسى بأن الرجل قد غادر سوريا مغاضبا وهاربا من أحكام الإعدام من منشقين عليه من قلب الحزب الذى فكر فيه وأنشأه، ومن الطبيعى أن يلازمه شىء من الإحباط والحزن . على أننى بعد أن تعددت الزيارات بدأت ألاحظ أن هذا الحزن تعبير عن إدراك المفكر والمنظر أن السياسى المنفذ الممتلك للقوة المادية، هو الذى يقرر مصير الأحداث والأفكار، وليس المفكر.

وكما أبعده المنفذ المالك للقوة العسكرية من سوريا، فإن المنفذ وممتلك القوة فى العراق هو الذى يحدد مصيره . وأنه على الرغم من كل الهالات المحيطة به، لا يملك من أمر نفسه شيئا،

وأن السلطة الفعلية تستعمله كرمز أو مبرر لفعل سياسى معين، وأن عليه أن يتقبل هذه الوظيفة ويرضخ لها . وإلى جانب كل هذه الظروف، كان الرجل مطاردا من المنشقين عليه فى سوريا، وبالتالى مطارداً من هذه القوة ومعرضاً للاغتيال . وكان عليه أيضا أن يتقبل محبسه هذا فى بغداد . إلا أنه كان ينطلق خارجا بين وقت وآخر حتى يكسر الجمود المحيط به فى بغداد وغالبا ما كان يذهب إلى فرنسا ولكن فى سرية تامة وفى توتر وقلق بالغين .

راحت الأمور تسوء فى العراق يوما وراء يوم حتى انتهز صدام حسين الفرصة وانتهى من أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية، وتولى هو الرئاسة ثم قام بتصفية كل العناصر التى كانت تؤازر مشروع الوحدة مع سوريا ولا تريد تصفية البكر، فقام بإعدامهم جميعا . وقيل إنه كان يقوم بنفسه بتعذيب هؤلاء الخصوم وقتلهم بيده .

كانت هذه الأحداث الكابوسية قد أنهت كل الآمال لدينا وأذكر أننى كنت أجلس مع صديقى محمد أنيس نستعرض أحوالنا بحزن وانكسار، وإذا به يقول لى واقفا وكأنه يريد أن ينصرف : كيف قضى علينا أن نعيش تجربتين فاشلتين ؟

كان يقصد التجربة المصرية والتجربة العراقية بطبيعة الحال . وكان هذا شيئا ثقيلا بالفعل ومثقلا للظهر إلى حد السقوط وعدم القدرة على الوقوف . فهل هى الثقافة الموروثة التى سيطرت على سلوكنا الاجتماعى والسياسى ؟ هذا النزوع إلى التفرد والسلطة المطلقة، هل هى اعتياد مثل هذه الأوضاع على مدار القرون الماضية ؟ هل هى فكرة الطاعة التى أصبحت جزءا من العقيدة ؟ وهل هى الاعتقاد بعجز الكائن البشرى وحاجته دائما إلى الإرشاد الإلهى الذى يأتيه من خلال النصوص والوصايا ؟ وهل حقا هو مجتمع يخشى الإبداع فى مجالات الحياة المختلفة وفى الفكر بصفة خاصة، لأن أى تفكير جديد قد يكون من نفثات الشيطان الغرض منه التضليل وإيقاعنا فى الخطيئة ؟

كانت الطرق قد أصبحت مسدودة بالنسبة لنا . وكنت بعد إعدام أصدقائى الذين اصطفيتهم فى المجتمع العراقى غير قادر على البقاء . وكنت فى نفس الوقت غير مستعد للعودة إلى مصر، بسبب بعض التعقيدات التى نشأت عن موقعى كمعارض للسياسات القائمة . ولعلى لهذا السبب فكرت فى أن أنتقل إلى مدينة لندن لأنضم إلى مركز الدراسات العربية، الذى كنت فى الواقع المفكر فيه والواضع لخطط عمله مع زميلى أمين عز الدين، وكنت بالفعل مازلت عضوا فى مجلس إدارته . وقررت أن أفاتح طارق عزيز، الذى كان وزيرا للخارجية فيما أظن، وكان هو بشكل خاص وراء إنشاء هذا المركز . وبالفعل حاولت الاتصال به ولكنه راح يتهرب ولا يجيب على تليفوناتى . وأدركت أن هناك موقفا عراقيا جديدا تجاهى، وكان على أن أغادر العراق بأى شكل من الأشكال، ولم أجد أمامى إلا أن أذهب إلى ميشيل عفلق أشرح له الموقف وأطلب مساعدته .

دعانى ميشيل عفلق على الفور لزيارته، وبالفعل ذهبت إليه . كان الرجل قد ثقلت عليه علامات الحزن بل واقترب من الاكتئاب، استمع إلى حديثى باهتمام خاصة عندما قلت إننى لابد أن أخرج من هـذا البـلد . وقال لى وهو يطرق بناظريه إلى الأرض : وأنا أيضا كلنا نريد الخروج .

بالطبع حدثته عن تهرب طارق عزيز فلم يستغرب . وعاهدنى بشكل قاطع أنه سيذهب إلى الرئيس صدام حسين شخصيا . ولعلنا جلسنا نتحدث بعد ذلك فى موضوعات شتى عن هذا

العالم العجيب الذى تعوقه أشياء كثيرة، لعل فى مقدمتها الثقافة الموروثة التى لم تراجع على الإطلاق .

فى اليوم التالى تلقيت مكالمة من طارق عزيز، الذى زعم أنه كان يبحث عنى طول الوقت خلال الأسبوع الماضى !! ودعانى لزيارته فى المكتب، وعندما قابلته اقترح على أننى سأعين ملحقا صحفيا فى سفارة العراق فى لندن، وأن هذا أفضل كثيرا من أن أعين فى مركز الدراسات، لأننى سأكون دبلوماسيا وسيسهل ذلك على الإقامة أنا وأسرتى فى لندن . وعندما جادلته فى ذلك لرغبتى فى أن أعمل فى المركز بعيدا عن الوظائف الحكومية، تهرّب بإجابات ملتوية . على أننى وافقت أخيرا وذهبت إلى ميشيل عفلق لأشكره ولأعلمه بما حدث، ففرح بذلك وحثنى على القبول، وعندما صافحته منصرفا قرأت فى عينيه كما لو كان هو الآخر يفكر فى الرحيل، وبالفعل لم يمض إلا قليل من الوقت حتى توفاه الله فى العراق، واحتفل بهذه الوفاة احتفال كبير من باب الدعاية السياسية، وكأن كل ما حدث بالعراق كان بموافقته .

أرسلت أوراقى إلى الحكومة البريطانية للموافقة على تعيينى ملحقا صحفيا بالسفارة العراقية بلندن، وفى انتظار هذه الموافقة كانت أسرتى قد سافرت إلى القاهرة والتحق أبنائى بالجامعة المصرية والمدارس حسب أعمارهم، وكان علىّ أن أعد لإقامتهم فى مدينة لندن، وأن أرتب أمورا كثيرة قبل أن يلحقوا بى . كانت حياة شاقة بغير شك مليئة بالخوف والقلق وقد أدركت أن النفى الاختيارى للمشتغل بالقضايا العامة عملية خاطئة أو بالغة الصعوبة . ولعلى راجعت فى هذه الفترة مذكرات الزعيم المصرى محمد فريد، زعيم الحزب الوطنى المصرى فى بداية القرن العشرين، والمعاناة التى عاناها . إذ كانت السلطات السياسية العاملة فى مجال الشرق الأوسط تريد أن تستخدمه لمصالحها، وليس لمصالح مبادئه وأهدافه، التى جعلته يترك بلاده هربا من عسفها وتعنتها فى رفض أفكاره . حاول الأتراك اصطناعه فلما أبى عليهم حاولوا قتله، وعاش فى أوروبا حياة ضنك، حتى أنفق كل ما كان له من ثروة وهده المرض ونسيه المصريون داخل مصر . وعندما قامت ثورة سنة ١٩١٩ كان بعيدا عنها تماما ومات منهكا من المرض واليأس وكان من خيرة رجال مصر فى كل تاريخها الوطنى .

جاءت موافقة الحكومة البريطانية وكنت جاهزا للسفر . وصلت إلى مدينة لندن فى الخامس من شهر ديسمبر سنة ١٩٨١ واستقبلنى زملائى العاملون فى السفارة العراقية، وأنزلت فى شقة مفروشة . وذهبت إلى مقر عملى فوجدت أنه ليس بعمل حقيقى . إذ كان عمل الملحق الثقافى الحقيقى له صلة مباشرة بالجهات العليا فى الحكومة العراقية، وكان الملحق العراقى شابا صحفيا سابقا كنت أعرفه هو نزار الحديثى، الذى صار بعد ذلك بسنوات وزيرا للخارجية العراقية، قبل سقوط العراق بقليل أمام الغزو الأمريكى، فاخترت أن أكتب دراسات عن الأحزاب السياسية البريطانية وموقفها من قضايا الشرق الأوسط، وبصفة خاصة الصراع العربى الإسرائيلى، وأن أدرس أيضا الاتجاهات السياسية فى بعض البلاد العربية ومنها مصر، حتى لا أشعر بأنى أتقاضى مرتبى دون مقابل، وكان مرتبا ضئيلا على أية حال، حتى أننى عندما كنت أجلس إلى طارق عزيز فى مكتبه وهو يرينى قرارات تعيينى والإجراءات المتخذة لذلك سألته عن المرتب فذكره لى فسألته إن كان هذا مرتبا كافيا لإعالة أسرتى فى لندن، فقال واثقا إنه كاف وأن له قريبا يعمل فى بريطانيا يعيش حياة جيدة فى تلك المدينة بمثل هذا المرتب . على أى حال كان من حقى أن تدفع لى السفارة إيجار السكن، وكان هذا شيئا مهما جدا ومريحاً .

ولعلى ارتحت إلى أن المرتب المخصص لى كان أقرب إلى أن يكون قليلا . على أننى فوجئت أننى أبعدت تماما عن مركز الدراسات العربية، الذى كان قد أسند إلى عبد المجيد فريد، وهو ضابط من ضباط الجيش المصرى السابقين، اشتغل فى سكرتارية جمال عبد الناصر فترة من الزمن. وكان قد جاءنا إلى العراق من الجزائر التى كان قد سافر إليها بعد تولى السادات للسلطة، وأسندت إليه هناك وظيفة مجاملة أيام الرئيس بومدين . وكانت ورقتى التى قدمتها للمؤتمر العربى الذى عقد فى طرابلس تشتمل على إنشاء مركز للدراسات العربية، من شأنه أن يبحث كل القضايا التى تهم العالم العربى، وعرضها فى شكل أبحاث منشورة حتى يعرف الرأى العام العربى الحقيقة الموضوعية لمشاكله .

كان عبد المجيد فريد إداريا جيدا، وكان مسئولا أيام عبد الناصر عن تنظيم المؤتمرات . وكانت لديه فطرة محايدة بالطبيعة، فكان قادرا على أن ينقل الأشياء بشكل محايد . وكنا قد اخترناه خاصة أنا وأمين عز الدين بالاتفاق مع طارق عزيز رئيسا إداريا للمركز . وكنا أيضا قد اقترحنا إنشاء المركز فى مدينة لندن باعتبارها مركزا كبيرا للمعلومات وبعيدة عن أى تأثيرات محلية .

على أن طارق عزيز، وربما السلطة العراقية بأنظمتها الداخلية كانت تريد أن يتحول المركز إلى شىء تابع لها تماما، دون تدخل من المثقفين العرب، سواء كانوا مصريين أو غير مصريين . وبالفعل انتهى تماما مجلس الإدارة الفنى وأصبح المركز يتلقى تعليماته من المسئولين العراقيين فى بغداد تحت توجيهات طارق عزيز فى الغالب، وبالتالى لم يكن مطلوبا أن يكون لى أو لأى عضو آخر دخل بشئون المركز .

والواقع أن الحكومات العربية كانت تحرص على أن تدير مثل هذه المراكز بنفسها . وكانت قد اكتشفت أن أهم خاصية لمثل هذه المراكز خاصة الموجودة بالخارج هى جس نبض الاتجاهات الحكومية فى العالم الخارجى، وبصفة خاصة فى بلد مثل بريطانيا . وكان على المركز أن يعقد الندوات ويدعو المسئولين أو المفكرين المعبرين عن اتجاه السلطات فى هذا البلد أو ذاك حتى يتداولوا فى الموضوع المطروح، وبذلك تعرف السلطة العراقية الاتجاهات المختلفة لسياسة هذه السلطة الأوروبية والأمريكية أو العربية فى الموضوع المطروح وكانت الدول الأوروبية وفى مقدمتها بريطانيا بالطبع ترحب بمثل هذه المؤتمرات إذ أنها تلم هى الأخرى بما يدور من أفكار فى بلاد الشرق الأوسط والبلاد الأخرى حول موضوع البحث . وعندما تدهورت أمور العراق اشتغل المركز بالتعاون مع دول عربية أخرى .

انقطعت علاقتى بالمركز بالطبع وإن كنت قد ظللت أتلقى دعوات حضور المؤتمرات التى يعقدها وغالبا لم أكن أحضرها أو أشارك فيها .

اقتضى الأمر أن أفترق عن أسرتى لمدة عام تقريبا قبل أن أنظم انتسابهم إلى المدارس فى لندن . وكان أولادى الكبار قد التحقوا بكلية الطب فى القاهرة لاستكمال دراستهم الطبية وبالفعل وصلت الأسرة وبدأت أعيش بكل جوارحى فى هذا المجتمع الجديد . حقا كنت قد قضيت عاما تقريبا فى مدينة لندن قبل ذلك فى سنة ١٩٦٨ وأصبحت لى خبرة ما به ولكن الإقامة الدائمة ولفترة طويلة نسبيا تغير النظر إلى الأشياء . كنت أتابع الصحف والكتب ومحطات البث التليفزيونى وأطل لأول مرة على العالم من نافذة أوسع كثيرا مما كنت أطل منها فى مصر أو فى العراق ذلك أن اهتمام المجتمع البريطانى بالعالم كان أوسع كثيرا من اهتمامات بلادنا .

كان المجتمع البريطانى قد قطع على الأقل القرن التاسع عشر والعشرين فى تشابك عنيف ودموى فى أحيان كثيرة مع الكثير من بلدان العالم . وكان قد مر بتجارب عديدة، منها الصراع الطبقى العنيف فى الداخل بما فى ذلك أشكال التمييز المختلفة، ولكنه كان فى نفس الوقت متفتح الشهية للتطور والتقدم . وكان من أكثر البلاد الأوروبية إنجازا فى مجالات العلم والتكنولوجيا والدراسات الاجتماعية والإبداعات الفنية .

وكان من السهل متابعة تطور هذا المجتمع فى الدراسات العديدة المتوافرة، ولكن الذى يدركه المراقب لآليات التطور، يجد أن المجتمع البريطانى كان قادرا على إنجاب شخصيات ممتلئة بالجرأة والرغبة فى التجريب والعزم على التجديد . ومن يراقب تطور اكتشاف السيارة واستخدام الموتور وطاقة المحركات المختلفة بدءا من الفحم إلى البترول بعد ذلك، يجد أنها حالة اجتماعية تلبس الناس وتمدهم بطاقة هائلة من التفاؤل والأمل وشجاعة الاقتحام أكثر من أى شيء آخر، وأنها حالة من حالات النفس البشرية أكثر من مجرد تطور علمى أو تكنولوجى أو عسكرى نتيجة التدرج البحثى أو العلمى . فى القرن التاسع عشر، كان العالم مفتوحا أمامهم، وكانوا بهذا الروح الجديد يغيرون من شكل الحياة تماما . اكتشفوا البخار فى تحريك العدد والآلات، وتوسعوا فى بناء السفن سريعة الحركة المزودة بطاقة تدميرية، وتمكنوا تطوير السلع والصناعات التى يرسلونها إلى كل مكان . وفى هذه الحركة الدائبة والبالغة الطموح، كان المجتمع يعالج نفسه بالقوة أو بالاقتناع عن طريق ظاهرة النقد الخطيرة، التى بدونها لا يمكن أن يحدث أى تقدم فى أى مجال . وهكذا جاء التحول الصناعى أو الثورة الصناعية ثم التوسع فى الظاهرة الاستعمارية .

لم تكن هذه القفزة سهلة كان عليها أن تتحقق من خلال مصادمات عنيفة واقتحامات متعددة، ليس فقط على المستوى العسكرى أو صراع الطبقات، لكن على المستوى الفكرى والعلمى، الذى كانت غريزة الاقتحام والتحدى فيه ليست أقل منها فى المجالات الأخرى، بما فيها المجال العسكرى . وكم خسر المجتمع البريطانى من أرواح، وكم أراق من دماء بنيه . وفى القرن العشرين وحده شهد المجتمع البريطانى أكبر حربين فى تاريخ العالم وعانى فيهما ما عانى من ويلات.

كنت قد جئت إلى بريطانيا بعد عصر الانكسار، حيث انكمشت المملكة المتحدة إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة، بالقياس إلى القوتين الكبريين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى . وكان العلم والتكنولوجيا فى الدولتين العظميين قد سبقا مثيلاهما فى بريطانيا . وكان سباق الصواريخ وغزو الفضاء قد تخطى القدرات العلمية والتكنولوجية لدرجة أن الدفاع النووى، الذى أقيمت قاعدة له فى بريطانيا، كان أمريكيا خالصا وكان أشبه بالأسرار الحربية التى ينبغى ألا يعرفها أحد، حتى الدولة الحليفة ذاتها، التى أنشئت على أرضها هذه القاعدة .

وكان من الطبيعى أن ينعكس هذا التقدم على إنتاج الكثير من السلع وبصفة خاصة فى المجال الإليكترونى . وهكذا كانت بريطانيا متأخرة خطوة عن أحدث المكتشفات العلمية والتكنولوجية، وانعكس ذلك بشكل ما على صناعات معينة منها صناعة السيارات . وصارت الطرق البريطانية تعرف السيارات الألمانية واليابانية وفقدت الكثير من الماركات الإنجليزية التى كانت شهيرة سمعتها .

وفى ذلك الوقت ظهرت السيدة تاتشر «المرأة الحديدية» فى المجال السياسى بدفقة قوية من العاطفة والانفعال الوطنى والتحدى والاعتزاز بالطبع، وكان الشعب البريطانى فى حاجة

إلى هذه الشدة العاطفية لاسترداد ثقته فى نفسه . وأظن أن هذا كان هو السبب وراء إعادة انتخاب السيدة تاتشر أكثر من مرة . وكان لى صديق إنجليزى تعرفت به فى القاهرة أثناء دراسته للدكتوراه فى المسرح المصرى، وكان يساريا، وإذا بى أجده فى لندن متحمسا للسيدة تاتشر وسياستها . وعندما جادلته وجدت أن الذى شده إليها هو ذلك الإحياء للروح الوطنية البريطانية وللأمجاد الذاهبة، ومحاولة إحيائها . وبالفعل سارت السيدة تاتشر إلى آخر المدى فى نزعة القوة فى ضرب الحركات العمالية بقوة لم تعهدها السياسة البريطانية من قبل .

ثم فى حرب «الفوكلاند» التى تحركت فيها الأساطيل البريطانية إلى مسافة تزيد على ثمانية آلاف من الأميال لتقاتل من أجل تلك الجزيرة الصغيرة التى قيل حينذاك إنها تعوم على بحر من البترول. لكن كانت حركة الأساطيل أمام البريطانيين على شاشات التليفزيون، ذات تأثير خطير على الشعب البريطانى أعادته إلى أحلام الإمبراطورية القديمة . وأذكر أننى كنت أركب أحد تاكسيات لندن فى تلك الفترة وإذا بالسائق يتجاذب معى أطراف الحديث ويشير مفتخرا إلى هذا الغزو باعتباره عادلا وضروريا لإثبات القوة البريطانية . وكنت أصعد فى مصعد إحدى العمارات ومعى عامل المصعد الإنجليزى، وربما جرنا حديث إلى السيارات فقال الفتى بفخر وهو يتحدث عن ماركة إحدى السيارات : «إنها صناعة بريطانية».

بدأ الإنجليز يتخطون مأزق التأخر إلى ما وراء الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وألمانيا واليابان .

والغريب أن سياسة القوة جاءت من امرأة وكانت بالفعل من القوة والشراسة أحيانا بحيث استحقت بالفعل لقب «المرأة الحديدية» وكذلك كان تغييرها للسياسات بحيث اقتربت من أن تقدم أيديولوجية جديدة كانت تسميها بالرأسمالية الشعبية عن طريق فتح الطريق أمام الناس للمساهمة فى أسهم الشركات الصناعية المختلفة، وكانت ضد كل الخدمات الاجتماعية التى اشتهرت بها بريطانيا، وفى مقدمتها التأمين الصحى . وكانت مؤمنة إلى درجة التحمس باقتصاد السوق، والتصقت بقوة بالتيار اليمينى الأمريكى الذى كان قد وصل إلى الحكم فى أمريكا بانتخاب الرئيس ريجان .

وبالفعل راحت بريطانيا تشارك بشكل أو بآخر فى مجريات السياسة العالمية وإلى اليوم مازال يشار إلى سياسة تاتشر بالتاتشرية كما لو كانت قد أصبحت مذهبا سياسيا، على أن هذا الطريق اليمينى المتطرف كان من الطبيعى أن ينعكس على قيادة السيدة تاتشر نفسها، إذ تحولت إلى أن تميز نفسها حتى عن زملائها فى حزب المحافظين وفى مجلس الوزراء، وصارت تعامل الوزراء كما لو كانوا تلاميذ أو أتباعا، ومارست نوعا من الديكتاتورية فى إدارة الدولة والحزب، فانقلب عليها وزراؤها والقيادات المشهورة فى الحزب العتيق، وبالفعل تم إسقاطها وإبعادها عن السلطة بعد مدة من الحكم استطالت حتى تجاوزت الأحد عشر عاما .

كانت هذه هى بريطانيا التى وصلت إليها فى نهاية عام ١٩٨١، لكن على الجانب الآخر كان حزب العمال البريطانى يقاتل بشدة ضد هذه التيارات اليمينية، وكان عليه أن يبتكر سياسة جديدة غير سياساته التقليدية، ولذلك انتخبوا مثقفا شهيرا من قيادات الحزب ومن حرسه القديم، هو مايكل فوت، الذى جاء من قلب اليسار العمالى، فراح يعدل من نظم الانتخاب الداخلى فى الحزب ليتخلص من سيطرة النقابات العمالية الانتخابية . ولكنه لم يستطع أن

يهزم حزب المحافظين وزعيمته المرأة الحديدية، وكانت السيدة تسخر منه وتسميه بالصحفى كناية عن انتمائه للأفكار النظرية وبعده عن الواقع وعدم خبرته به .

وكانت مراقبتى للأحداث الداخلية فى بريطانيا شيئًا ممتعا ومفيدا جدا لى، إذ راح حزب العمال ينتخب رئيسا وراء رئيس، ويزداد الجدل النظرى الرائع، ويلمع المثقفون فى الساحة السياسية من الكتاب والصحفيين والممثلين والممثلات والفنانين . كان مجتمعا مليئا بالكوادر الرائعة وبتاريخ من الخبرة الثقافية والجدل الفكرى البالغ العمق . ثم ظهر اتجاه داخل حزب العمال ينادى بالطريق الثالث، وهو نوع من التعديل الأساسى فى الثقافة الماركسية التى كانت أساس الخلفية الفكرية للحزب . ولعل أهم ما فى هذا التيار كان هو إتاحة الفرصة للنشاط الحر على أن يتحول دور الحكومة إلى المنظم لحركة هذا النشاط، حتى لا يطغى نشاط فئة أو طبقة على أخرى . وربما تركز هذا الدور فيما يسمى بتكافؤ الفرص أمام كل المواطنين بمعنى أن على الدولة أن تتيح فرص التعليم والرعاية الصحية للجميع بحيث يكونون قادرين على بدء نشاطهم الاجتماعى الحر، وهم مؤهلون ومزودون بكل ما يحتاجه الإنسان من تعليم وخبرة، ليجد له مكانا يناسبه فى المجتمع .

حقا أن النخب الاجتماعية هى التى تقوم بكل المبادرات فى المجتمعات الديمقراطية وهى التى تعكس أفكارها على الشعب وهى أيضًا فى نفس الوقت إفراز للنشاط الاجتماعى العام، الذى تفرزه الشرائح المختلفة بما فى ذلك أكثرها فقرا، وتظهر الأفكار وتختفى حسب هذا التفاعل بين النخب وبين الطبقات المختلفة داخل المجتمع، وهى حركة دائبة وتغييرات مستمرة للتوصل إلى نقطة توازن معينة هى نفسها ليست ثابتة بشكل دائم . على أنه من الناحية الأخرى ينشأ ما يسمى عادة «بالمؤسسة» وهى القوى الاجتماعية التى تمتلك أكثر الوسائل قدرة على تسيير المجتمع وفقا لمصلحتها، وهى بحكم خبرتها مدركة لضرورة الوصول إلى نقطة التوازن التى تمنع التصادم .

وهذه المؤسسة تتشكل من كل القوى الفاعلة ومن بينها سلطة القصر الملكى وقادة البنوك والشركات ورجال الإعلام والثقافة وقادة الأحزاب السياسية بالطبع ليس سهلا معرفة الآلية التى تعمل بها هذه المؤسسة ولكنها شبكة من القوة الاقتصادية والسياسية لها تأثير كبير بغير شك، على مجريات الأمور فى المجتمع البريطانى .

ولكن الذى أثار انتباهى أكثر من أى شىء آخر، هى سلطة الصحافة، بل قل شراستها، فقد شهدت حملات بالغة القسوة على سياسيين وزراء وغير وزراء أدت إلى القضاء عليهم سياسيا واجتماعيا وبغير رحمة تقريبا . فالصحافة كسلطة وصلت إلى درجة عالية جدًا فى المجتمع البريطانى، ولذلك نشطت القوى الأكثر فاعلية فى المجتمع فى محاولة لاحتوائها . ولذلك نجد أن قانون منع الاحتكار الذى يطبق فى مجالات كثيرة فى المجتمع البريطانى يتم تجاهله بالنسبة للصحافة لصالح القوى الاقتصادية الكبرى، بحيث يسمح للحيتان الاقتصاديين الكبار أن يمتلكوا أكثر من منبر صحفى، وقد حضرت المعارك التى نشبت بين الملياردير "روبرت ميردوخ" والصحفيين وعمال الطباعة فى جريدة «التايمز» اليومية والأسبوعية، فضلا عن الجرائد الأخرى مثل جريدة «الصن» الشعبية . ونجح ميردوخ بالفعل فى أن يطيح برئيس التحرير والمؤيدين له وفرض إرادته على العاملين فى الصحف التى يمتلكها، وقد توسع "ميردوخ" إلى ما هو أبعد من امتلاك الصحف الرئيسية والأكثر شعبية فى بريطانيا، فامتلك

قنوات للبث التليفزيونى . وهو يفعل ذلك أيضا فى الولايات المتحدة ويحاول أن يفعل ذلك فى الاتحاد الأوروبى بل وفى الصين . وكانت صحيفة «الديلى تلجراف» أكثر الجرائد القومية توزيعا، إذ يتجاوز توزيعها اليومى المليون نسخة قياسا إلى عدة مئات من الألوف فى الصحف القومية الأخرى مثل «التايمز» و«الجارديان» و«الإندبندنت» وكانت ملكا لملياردير كندى يدعى بلاك، وكان رجلا شرسا مؤيدا لحد الهوس لإسرائيل، وله زوجة يهودية بالغة التعصب هى الأخرى وعلى صفحات هذه الجريدة وُصف العرب بأحط الصفات وسُبوا بأشنع السباب .

بالطبع كان لمالك الصحيفة تأثير على سياسة الجريدة التى يملكها، ولكن ذلك لم يكن سهلا دائما . فالصحف لابد أن تمتلك المصداقية من جانب قرائها وينعكس هذا فى مدى الإقبال عليها من القراء، ولذلك يبقى الهدف الأساسى لأية صحيفة أن تكتسب ثقة القراء وأن تجتذب آخرين إليها، وإلا انتهت إلى الإفلاس، مهما كان الدعم الذى يقدم لها . فالإعلان يوضع فى الصحيفة لأسباب عديدة من بينها عدد قرائها وأحيانا نوع هؤلاء القراء .

وقد تحولت الصحافة فى العقود الأخيرة إلى مشروع اقتصادى، وصارت الصحافة صناعة لها حرفيتها والمتخصصون فى إصدارها، وبالتالى يصبح على أى مالك للصحيفة أن يراعى كل ذلك حين يريد أن يفرض سياسة ما لجريدته . وكصناعة تبيع للناس السلع المعلوماتية، لابد أن تكون هذه المعلومات صحيحة، وتم التحرى عنها بحرفية عالية لتصل إلى الحقيقة كما ينبغى أن يكون تحليل هذه المعلومات من جانب صحفيين أو مفكرين على مستوى عال من القدرة والتخصص، وبالتالى يمتلكون قدرا كبيرا من المصداقية من جانب القراء . ولهذا صار الصحفيون يجاهدون من أجل اكتساب السمعة الحسنة لدى جمهورهم، ومن أجل أن يكون فى مقدورهم الحفاظ على استقلالهم بحيث لا يستطيع مالك الصحيفة أو الذين يديرونها أن يفرضوا رأيا على الصحفى .

ولهذا راحت هذه الاستقلالية تظهر بشكل لافت للنظر بصرف النظر عن الاتجاه السياسى العام للجريدة . حقا إنك مازلت تستطيع التمييز بين صحيفة وأخرى من الصحف البريطانية وأن تصنفها إلى اليمين أو إلى اليسار أو إلى الوسط، ولكنك لا تستطيع أن تنسبها إلى حزب من الأحزاب . إنك تستطيع أن تقول إن صحيفة «التايمز» ذات اتجاه يمينى و«الجارديان» و«الابزيرفر» ذواتا اتجاه يسارى، كما أن «الإندبندنت» بالفعل فى وسط اليسار . ولكنك لا تستطيع أن تقول إن «التايمز» تعبر عن حزب المحافظين أو أن «الجارديان» تعبر عن حزب العمال . انتهى هذا العهد منذ أصبحت الصحافة صناعة تنطبق على سلعتها المعلوماتية كل الشروط التى تنطبق على أية سلعة أخرى . ونتيجة لصراعات عديدة شهدها المجتمع البريطانى من أجل حرية الصحافة تولدت بعض المبادئ والقيم الاجتماعية القانونية لدى الشعب القارئ، وهى أن الصحافة عملية اجتماعية، وتؤدى خدمة اجتماعية، ولذلك ينبغى أن تعمل من أجل تحقيق هذه الخدمة وليس لأية مصلحة أخرى حتى لو كانت مصلحة مالك الصحيفة .

وقد حكمت المحاكم البريطانية بأحكام صارت مبادئ قانونية بأن مهمة الصحيفة اجتماعية لا علاقة لها بمصالح مالك رأسمالها أو مديرها، وكانت هذه قفزة كبيرة للصحافة أظنها لم تتحقق بعد فى المجتمع الأمريكى .

وعلى الرغم من كل ذلك فإن موضوع تطبيق قانون عدم الاحتكار على ملكية الصحف مازال يتم تجاهله . وهو عيب أساسى فى التطور الديمقراطى، مثله مثل تمويل العملية

الانتخابية . على أن الكثير من الصحف نشأ على أساس ملكية مشتركة على نظام شركات المساهمة، وهو ما ساعد على إعطاء الصحيفة مزيدا من الاستقلال، مثل جريدة «الإندبندنت» التى نشأت بمساهمات مالية من مجموعة من الصحفيين، ثم من بيع أسهمها فى البورصة .

وما ينطبق على الصحف ينطبق على المنابر الأخرى مثل التليفزيون ومحطات بثه . فمازالت محطات الـ «بى. بى. سى» ملكية عامة تعيش على حصيلة الضريبة التى يدفعها جمهور التليفزيون . ولذلك تحررت حتى من تأثير الإعلانات، وبالتالى أصحاب الشركات الكبرى، وهى لذلك تتمتع بمصداقية كبرى، فعلى الرغم من أن مجلس إدارتها يعين من قبل سلطات حكومية أو برلمانية، إلا أن لها استقلالها . وقد اشتبكت الـ «بى.بى.سى» بالفعل مع حكومة تونى بلير عندما كشفت موضوع تلفيق امتلاك العراق لأسلحة نووية فى تقرير منسوب إلى المخابرات البريطانية . وقامت الحكومة بعدة إجراءات بالغة التعقيد انتهت باستقالة مدير المحطة ومقتل أحد العلماء الإنجليز الكبار بعد تقرير قضائى وضعه أحد القضاة المرموقين . حقا كان الحكم ممالئا للحكومة لكن القضية برمتها كشفت عن عجز الحكومة عن أن تأمر بفصل مسئول صحفى فى التليفزيون المنسوب إلى الحكومة . والخاسر فى هذه المعركة على أى حال هو الحكومة، إذ مست هذه القصة مصداقيتها، وكذلك القاضى الذى أصدر هذا القرار أو الحكم .

ونستطيع فى النهاية أن نقول أن الحرب من أجل حرية الصحافة مازالت جارية تكسب معركة وتخسر أخرى، ولكنها تمضى . فيما أعتقد . إلى الأمام .

وبالنسبة لمحطات البث التليفزيونية الخاصة، أى التى تملكها الشركات ويتم تمويلها عن طريق الإعلانات، فهى ملزمة أن تحقق أكبر قدر من المصداقية هى الأخرى حتى تستطيع منافسة الـ »بى.بى.سى «والمحطات الأخرى . ولذلك من الممكن القول أن الصحافة أو "الميديا" البريطانية فيها الكثير من النزاهة والموضوعية، على الرغم من العوائق التى تعترضها هنا أو هناك .

أظن أننى عندما وصلت إلى بريطانيا كنت مرهقا ومضطربا بسبب تلك الظروف المعقدة، والتى وضعتنى تحت رحمة النظام العراقى، الذى بدأت أفقد الثقة فيه، وأرى أنه فى طريقه إلى السقوط، ولكننى فى الوقت نفسه لم أكن أدرى ماذا أفعل . ويبدو أننى كنت على وشك أن أتعرض لأزمة عصبية، فقررت بينى وبين نفسى أن داخلى هذا الذى يغلى، ليس علىّ إلا أن أترك له العنان حتى يتبخر دون أن يؤذينى . بمعنى ألا أفكر فى أى شىء لا الحاضر ولا المستقبل، وليحدث ما يحدث . وبالفعل استرخيت من حيث التفكير، وكنت أعلم أن الأمر يحتاج إلى وقت حتى أعود إلى توازنى العقلى والنفسى .

❖ ❖ ❖

٣٦

مدينة لها جاذبية خاصة

كنت قد تعودت منذ الصغر على أن أقابل الأحداث السيئة التى تحدث لى على أنها تجارب وتدريب أتعلم منها تأثيرها على الناس حتى إذا كتبت عن أشباهها تكون لى معرفة جيدة بها وبتأثيراتها، ويبدو أن الإنسان يستطيع - حتى فى المحن - أن يتجرد وينفصل عن ذاته وينظر إليها نظرة المراقب الخارجى . وكان هذا أمراً غريباً، إذ كانت المحنة تتحول إلى تجربة تخضع للمراقبة وبالتالى كان يقل تأثيرها النفسى والانفعالى وينجو الإنسان من آثارها الضارة على النفس والبدن . ولكن هذه الخبرة لا تنجح دائماً فى الوقاية من أضرار المحن التى يتعرض لها الإنسان . إذ بدأت أشعر بوهن جسمى وبعجزى عن الانسلاخ الكلى عن نفسى ومراقبتها خاصة بعد التحولات الانقلابية التى قام بها السادات ورجاله وانتهاؤها إلى الاستقالة الجماعية من مجلة الكاتب وتعطيل نشر مقالاتى فى جريدة الجمهورية، ثم التحولات الانقلابية المثيرة للدهشة للكثيرين من العاملين فى الحقل الإعلامى، الذين انقلبوا تماما وبزاوية ١٨٠درجة مع السياسة الجديدة بل وأصبحوا أدوات باطشة ضد زملائهم السابقين .

نعم إن السلطة الديكتاتورية مفسدة للأخلاق العامة أيةً مفسدة . وكنا بالفعل قد فقدنا الكثير من براءتنا واستقامتنا الفكرية والخلقية بسبب الضغوط المسلطة علينا، لكن الانقلاب الكامل الذى حدث فى السياسة الجديدة كان شيئاً آخر، وكان اللحاق به يتطلب قدرات خاصة على التقلب والمجاراة والخنوع .

وعندما سافرت إلى العراق رفضا للاتجاهات الجديدة كنت فى الواقع قد حملت معى كما هائلا من التوترات التى أرهقت بدنى إرهاقاً شديداً، وكانت السبب فى أول أزمة قلبية لى . وكان لم يمض على وصولى إلى بغداد إلا سنة واحدة أو أقل قليلا . وبعد أن قضيت فى المستشفى أسبوعين أو ثلاثة، تقرر أن أذهب إلى إنجلترا للعرض على الأطباء، وهناك - كما سبق القول - تبينت أن الجلطة التى حدثت لى وسدت الشريان الرئيسى قد أعطبت حوالى ٢٥٪ من عضلة القلب . على أن الأمر لم يحتج إلى جراحة . وقضيت سنتين أخريين قبل أن تحدث لى الجلطة الثانية، والتى سدت الشريان كله .

جربت أيضاً مشاعر الإنسان الذى يصاب بالأزمة القلبية، والتى تنقله عادة إلى التفكير فى الموت واقترابه جدا منه . وفى هذه التجربة لا ينفع الانسلاخ عن النفس الذى كنت أجربه فى السابق باعتباره يؤدى إلى الاستفادة من المحنة بفهمها واستغلالها فى العمل الأدبى، إذ كانت هذه المحن رغم عنفها وأضرارها الخطيرة ليست مميتة بدنيا، أما حين تصبح المحنة متصلة

بالموت بشكل مباشر، فإن الانسلاخ يصبح غير مجد لأن ادخار التجارب للاستفادة منها فى عمل قادم يصبح غير وارد مع الموت، الذى ينعدم فيه أى ادخار للمستقبل .

أصبحت حذرا جدا وأفكر فى مستقبل أولادى لو مت، ولعل حجم الحياة الدنيا قد تضاءل جدا بالنسبة لى . وصرت أعجب من فراغ الحياة من أى معنى ثابت أو مطلق . وربما بدأت أفكر فى أن القيمة الوحيدة للحياة هى ذاتيتها، هى دفقتها الغريبة التى تملؤنا بالرغبة فيها وأنها من القوة بحيث لا تحتاج إلى أى تفكير آخر فيما وراءها . ولعلى منذ الإصابة القلبية الأولى تحولت إلى مراقب أكثر منى فاعلا . وهو موقف غريب عرفته من اشتغالى بدراسة نظرية المسرح أو الدراما . فالمأساة أو التراجيديا هى اندماج كلى فى الحدث، وعلى كاتبها أن يندمج تماما مع أبطاله، وبخاصة بطله التراجيدى، وجهاده من أجل امتلاك مصيره . أما الكوميديا فهى الانسلاخ عن الأفعال والأشخاص والمراقبة الخارجية، وهو ما يؤدى إلى اكتشاف المفارقات المضحكة والمثيرة للسخرية فى حياة الكائن البشرى . وهأنذا انتقل من الموقف التراجيدى إلى الموقف الكوميدى فى حياتى . وهكذا ينبغى أن يظهر من الحياة صورتها المضحكة والمثيرة للسخرية .

أوصلتنى هذه الحالة إلى شىء من السكينة النفسية . ولكننى لست متأكدا أننى نجحت فى هذا الانسلاخ الكوميدى، فقد جاءتنى الأزمة الثانية بعد سنتين اثنتين لا أكثر . وهكذا نقلت مرة ثانية إلى مدينة لندن لأجرى جراحة فى القلب هذه المرة .

عندما جاءتنى الأزمة الثانية كنت فى ليبيا، وقد أرسلتنى الحكومة الليبية على حسابها للعلاج فى بريطانيا . وأظن أن صديقى غانم عبد الجليل كان قد أصبح رئيسا لمكتب صدام حسين، أو شيئا من هذا القبيل . إذ أنه بادر بأن أرسل لى زوجتى وولدى الصغيرين إلى طرابلس وتابعنى بالتليفون إلى أن ذهبت إلى لندن . وهناك صمم على أن تكون مصاريف علاجى على نفقة العراق باعتبارى أعمل هناك، ومن حقى أن تتعهدنى الدولة بالعلاج .

قابلنى الطبيب مجدى يعقوب، الذى كان الأوسع شهرة بين جراحى القلب فى بريطانيا، وقد اضطررنا أن ننتظره حتى يعود من مؤتمر طبى فى الولايات المتحدة . وأذكر أننى أعطيت موعدا فى الثامنة مساء ولكننى ظللت جالسا فى قاعة الانتظار حوالى خمس ساعات، إلى أن جاء الطبيب وأدخلت عليه . كان مصريا ظريفا وفيه شىء من المبالغة فى الثقة بالنفس، تأتيه من نجاحه غير المسبوق كجراح عالمى، وكان قليل الكلام، وهو نفسه يحكى أنه ظل فى طفولته لا يتكلم حتى بلغ الثالثة أو الرابعة من عمره . كشف علىّ بالسماعة فيما لا يزيد عن نصف دقيقة ثم راح يملى تقريرا سريعا لسكرتيرته الإنجليزية بتحويلى إلى القسطرة وبعض الفحوص الأخرى . وربما تحدث إلىّ ببعض جمل قصيرة .

كانت قاعة الانتظار مليئة بالمرضى المنتظرين، وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، عندما غادرت مقر عيادته فى شارع مواز لـ "هارلى ستريت"، شارع الأطباء فى لندن . وكانت هذه المواعيد "المضروبة" موضوع تندر من الأطباء الإنجليز الذين كانوا يحسدونه بغير شك بسبب تفوقه غير المنكور، والذى انتهى بأن عين بعد ذلك رئيسا لمنظمة أو جمعية رسمية لأطباء القلب فى كل بريطانيا، ومنح لقب "سير" الفخيم فى هذه البلاد .

فى الزيارة الثانية، وكنت قد أجريت الفحوص المطلوبة، قال لى فى اقتضاب أن الشريان الرئيسى مسدود بنسبة ٨٠٪ وأنه سيغيره بشريان يقتطع من شريان ساقى وأنه يبشرنى بخبر

مفرح وهو أنه سيجرى لى العملية وأظن أنه قال بابتسامة شحيحة : مبروك . سأجرى لك العملية .

ولعلى لم أفهم حينذاك أنه يقصد تبشيرى بأن حالتى تسمح بإجراء الجراحة لأن ذلك يتعلق بحالة عضلة القلب . وقد أخذت له بعد ذلك بعدة سنوات صديقا لى عانى من أزمة قلبية فلما كشف عليه قال أن عضلة القلب ضعيفة والجراحة قد لا تفيده كثيرا وامتنع عن إجراء العملية .

كان هناك طبيب مصرى آخر هو الدكتور «فايز بطرس» مهمته متابعة المرضى بعد إجراء العملية طوال فترة النقاهة . وكان رجلا بالغ التهذيب ومصرياً حتى النخاع على الرغم من أنه يعيش حياته كلها ومنذ وقت طويل فى بريطانيا وقد تزوج من امرأة إنجليزية . وكان مثل صديقه مجدى يعقوب رجلاً "هليهليا" لا تشكل المواعيد عنده مشكلة كبرى وعندما أرسلت له صديقا لى مصريا كان يعمل فى الإذاعة البريطانية ليعالجه من مرض ألمّ به، تأخر عليه لأكثر من ساعة، مما اغضب صديقى وعاتبه عتابا شديدا وخرج ولم يقبل أن يعالج عنده . كان صديقى هذا يحسب على الأدب، إذ كان قد درس فى كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة الإنجليزية ثم جاء إلى إنجلترا ليحصل على الدكتوراه فى المسرح الإنجليزى فى فترة من فترات تاريخه الطويل . كان بالطبع معجبا جدا بالحياة الإنجليزية وعاش حياته فى إنجلترا دون أن يرجع إلى مصر قابلا أن يعمل بالترجمة فى الإذاعة دون أن يفكر فى أن يكون أستاذا للأدب الإنجليزى فى إحدى الجامعات المصرية، وهو شىء كان شبه مضمون بسبب دراساته المتخصصة؟

ولعلى قد اكتشفت فى هذه اللحظة وبسبب احتكاكى بالكثير من المصريين والعرب المقيمين أن للحياة فى بريطانيا وفى مدينة مثل لندن جاذبية خاصة . كان لمن يعمل فى الإذاعة على سبيل المثال مرتب مضمون ليس بالكثير وليس بالقليل . وكان يستطيع أن يمتلك بيتا صغيرا يدفع له أقساطاً قليلة . وكان ينعم بالعلاج المجانى فى نظام طبى متقدم يأتيه الناس للعلاج من كل فجاج الأرض . فضلا عن تعليم حكومى بالمجان حتى انتهاء المرحلة الثانوية إلى جانب إعانة للبطالة لو حدث أن تعطل عن العمل، كما كان التعيين فى الوظائف لا يحتاج إلى أية واسطة وكانت بريطانيا والعاصمة لندن بصفة خاصة مكانا عريقا فى التعامل مع كل الجنسيات دون حرج كبير . كانت الإمبراطورية التى لم تغب عنها الشمس تعرف كل أجناس الأرض وتعرف كيف تتعامل معهم وتتقبلهم وطوال الثلاثمائة سنة أو المائتى سنة الماضية تولدت ثقافة خاصة لدى الإنجليز بأنهم المركز الأبوى للدول التابعة وكان هذا يتجلى فى فكرة الكومونولث البريطانى الذى صار يضم كل الدول التى كانت مرتبطة بإنجلترا منذ بزوغ الحركة الاستعمارية.

كان هناك نوع من الشعور الأبوى أو العائلى يجعل هناك شيئاً من الشعور بالمسئولية عن هؤلاء الناس الذين كانوا يتبعونها . وقد لاحظت هذا أثناء الاحتفالات بمناسبات هذا التجمع الدولى الخاص فقد كانوا يطلقون على هذا التجمع كلمة "العائلة" . طبعا كان الإنجليز يشعرون بالتفوق على أتباعهم وأنهم فى موقع رب العائلة وهو تعبير قيل على الرغم من سوء سمعته إذ كانت عصابات المافيا تطلق اسم العائلة على تنظيماتها، وأن مسئوليتهم عنهم ليست إلا مسئولية القوى عن تابعه الضعيف أو قل خادمه أيضا . ولعله لهذا لم يكن الغريب يشعر بغربته

فى إنجلترا . وكان من السهل أن يجد المصرى أو الهندى من أبناء الشعب البريطانى الذين يتعامل معهم بشكل يومى معرفة ما ببلاده من خلال حركة التجنيد الكبرى التى شملت هذه البلاد وأفرادها العاديين طوال القرنين الماضيين على الأقل . وكنا يوما أنا وزوجتى نصعد فى مصعد العمارة التى نسكنها، وكان أحد بوابى العمارة يصعد معنا لمساعدتنا فى حمل شىء من مشتريات ثقيلة جئنا بها من الخارج، وكان الوقت صيفا فقالت امرأتى : هذا الحر أصعب من الحر فى مصر . إنه ملىء بالرطوبة .

ولكن الرجل ابتسم وقال : لا تقولى هذا يا سيدتى فقد قضيت فى مصر سنتين أثناء الحرب وكان الحر فى العلمين وحتى فى الإسكندرية شيئا لا يطاق . وكانت الحرارة تزيد أحيانا على ٤٠ درجة مئوية .

ضحكنا بالطبع، ولكننا اكتشفنا أننا نعيش بين ناس يعرفون بلادنا جيدا وربما يعرفوننا أيضًا .

والواقع أن كونك غير إنجليزى لا يستتبع بالضرورة معاملتك على أنك شخص من الدرجة الثانية. فالمجتمع الإنجليزى مازالت تحكمه ثقافة طبقية أثارت دهشتى . وأذكر أننى كنت أتحدث مع ممرضة فى إحدى المستشفيات عن طموحاتها فتحدثت عن كل شىء إلا أن تخرج من طبقتها، وكانت تنظر إلى وضعها بارتياح، حتى وهى توقر الطبقات العليا دون أن تفكر فى أن تسمى ولو فى الخيال إلى الارتقاء إلى الطبقة الأعلى . ربما كان قد رسخ فى الثقافة الشعبية السائدة أن الطبقات الأرستقراطية لها ميزات خاصة تنتقل بالوراثة وبالتثقيف الخاص الذى يحتاج إلى عدة أجيال حتى يتكون "الجنتلمان" الإنجليزى الأرستقراطى .

نعم قد لا يكون هذا سائدا فى الشرائح المثقفة من مختلف الطبقات، ولكنه على المستوى الشعبى ما زال راسخا ومفهوما . ولذلك فإن الناس يعاملونك فى إنجلترا حسب وضعك الاجتماعى حتى لو كنت غير إنجليزى . ويبدو أن هذه خبرات اكتسبت على مدار السنين، اكتسبها عامة الشعب من جولاتهم فى بلاد العالم بسبب الحرب أو معاشرتهم للأجانب، خاصة فى عاصمتهم لندن، التى كانت ومازالت من أكبر مدن العالم "الكوزموبوليتان" وأقدمها جميعا .

من ناحيتنا كمصريين كنا نشعر بأن هناك علاقة ما بيننا وبين هذه الدولة . إنها مختلفة عن فرنسا أو ألمانيا أو أية دولة أوروبية أخرى . فعندما وعيت كان الجنود الإنجليز يملئون شوارعنا وكنا نراهم فى معسكراتهم فى القاهرة وأثناء الحرب العالمية الثانية كنا نراهم فى الشوارع وفى البارات والمطاعم وكأنهم شركاء لنا وكنا نجرب معهم لغتنا الإنجليزية، وكانت هذه اللغة مقررة على تلاميذ المرحلة الابتدائية منذ الفصل الأول بينما كانت اللغة الأجنبية الثانية هى الفرنسية ولكننا لا ندرسها إلا فى المرحلة الثانوية . وقد اكتشفت ذات يوم أن توفيق الحكيم الذى كان يجيد الفرنسية ويكتب بها أحيانا يفضل أن يقرأ أو يتحدث بالإنجليزية . وكان هناك جدل طويل فى المجتمع الثقافى المصرى بين أبناء الثقافة الإنجليزية والثقافة الفرنسية . ومع ذلك فقد لاحظت منذ طفولتى أن الطبقات العليا المصرية والكثير من أبناء الطبقة المتوسطة العليا بصفة خاصة اتجهوا إلى التعليم الفرنسى والثقافة الفرنسية . على أن اللغة الإنجليزية مع ذلك ظلت فترة غير قصيرة لغة التعليم فى المدارس وكان التلاميذ المصريون يتعلمون الفيزياء والكيمياء والتاريخ والجغرافيا باللغة الإنجليزية إلى أن تصدى الزعيم سعد زغلول الذى كان وزيرا للمعارف أيام "اللورد كرومر" المندوب السامى البريطانى،

الذى كان يحكم مصر فى الواقع، معارضا نظام التعليم العام باللغة الإنجليزية ومطالبا بأن يتحول التعليم إلى اللغة العربية، وقد نجح فى ذلك، لكن ظل للغة الإنجليزية وجود بارز فى السياسة التعليمية . وربما كانت إجادة جيل توفيق الحكيم للغة الإنجليزية مصدرها هذه السياسة التعليمية التى طبقت على التلاميذ أيامه .

والواقع أننى تعرضت لإغراءات مثيرة للسفر والحياة فى أوروبا . وأذكر أننى فى زيارة إلى فرنسا وبعد جولة فى متحف "اللوفر" الفرنسى الشهير، فكرت أن أعيش فى فرنسا واستكمل ثقافتى فيها، وقد رويت سابقا هذه الواقعة، وكان فى ذهنى تراث عريق للثقافة الفرنسية فى مصر بدءا من رفاعة الطهطاوى، إلى جيل طه حسين وتلاميذه . وكانت الحركة الشيوعية المصرية تتكون من مثقفين متمصرين كانت لغتهم الأصلية هى الفرنسية، وقد ظلت الثقافة الفرنسية غالبة على الوسط الثقافى المصرى، حتى أننى كنت عندما أزور طه حسين فى بيته، أسمع اللغة الفرنسية هى التى تتردد بينه وبين تلاميذه وزواره . وكان فى قلب القاهرة مكتبات تبيع الكتب الأوروبية وكانت كلها فرنسية تقريبا . وأذكر أن حديثا جرى بينى وبين زوجتى - وكان من باب الأمنيات - حول أى بلد أجنبى نعيش فيه، لو قيض لنا أن نختار، كانت فرنسا وإنجلترا بالطبع هما البلدان اللذان وقفنا نختار بينهما ولكننا اخترنا فى النهاية إنجلترا . هل كان ذلك بسبب العلاقة الغريبة بين مصر وبريطانيا أثناء الاحتلال ؟ أيا كان الأمر، فقد كان المصريون ينظرون إلى دولة الاحتلال على أنها الأقوى والأكثر تقدما، ولكنها أيضاً العدو، وللمصريين ثارات كثيرة ضدها منذ المظاهرات وشهدائها ومذبحة "دنشواى" ثم ما شاهده جيلى من إطلاق الرصاص على المظاهرات بعيد الحرب العالمية الثانية . ثم معرفتنا بالطبيعة الاستغلالية للظاهرة الاستعمارية ولنهب ثرواتنا وللتضييق على الحريات ولآثام كثيرة ضد شعبنا طوال أكثر من سبعين عاما . وأيا كان الأمر، فهذه الصلة لها جوانبها العاطفية أو قل الانفعالية، إذ كان هناك إلى جانب الخصومة والعداء شىء من الإعجاب المكتوم أو المسكوت عنه . ثم إن غالبية أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة الذين تعلموا فى المدارس الحكومية، كانت خبرتهم باللغة الإنجليزية أكبر بسبب نظام التعليم نفسه، كما أن علوما كثيرة كانت تدرس فى الجامعة المصرية باللغة الإنجليزية مثل كلية الطب وكلية الهندسة وكلية العلوم وغيرها . وكان المثقفون باللغة الإنجليزية فى مصر قد صاروا أكثر كثيرا من المثقفين باللغة الفرنسية فى الفترة التى نضجنا فيها بعد الحرب العالمية الثانية .

ولكن السبب الأقوى هو أن علاج ابننا من العيوب الخلقية فى القلب كان فى إنجلترا، وكان يحتاج بالطبع إلى متابعة مستمرة، حتى بعد تصحيح هذه العيوب . وبالنسبة لى أنا الذى ولدت وعشت فى مدينة القاهرة المشمسة والكثيرة الضوء والمنفتحة إلى الخارج، إذ كان جيلى يعتبر البيت مكانا للنوم والقراءة ووسط حشد من الأشقاء والشقيقات . وكان المصريون يعيشون خارج بيوتهم وينتشرون فى المقاهى أو الأندية أو المطاعم . وكانت الحياة الباريسية مماثلة للحياة فى مدينة القاهرة، التى لم تكن تنام طوال الليل والنهار . وعندما كنت أسير فى شوارع باريس كنت أدرك أننى أنطلق فى الفضاء الواسع مثل القاهرة تماما . فهاهى ذى المقاهى والشوارع العامرة والمطاعم والأسواق والفرنسيون يعيشون خارج بيوتهم أكثر من عيشتهم داخلها . هل كنت أريد شيئا من الظل والعكوف إلى الداخل ؟ شيئا من الانطواء على الذات يتيح شيئا من التأمل الداخلى والخصوصية ؟

كان للبيت معنى خاصاً فى إنجلترا . وكنت أشاهد البيوت الإنجليزية بمعمارها غير الجذاب والذى يغلب عليه الروتين والتكرار فإذا دخلت البيت رأيت مكانا معدا للراحة والاعتكاف والخصوصية . هل كنت أريد ذلك بسبب انطلاق حياتى منذ ولدت إلى خارج المنزل وتحت شمس شديدة السطوع ؟ هل كنت قد تشبعت بكل ذلك حتى الرغبة فى الخروج منه إلى نقيضه ؟

وعندما أنظر إلى الناحية الثقافية، أذكر أن حركة الترجمة العربية كانت تشتمل على الأدب الفرنسى بشكل واسع . ولكن منذ الحرب العالمية الثانية كانت الترجمة من الإنجليزية إلى العربية تزداد، على الرغم من الحركة النشيطة والواسعة التى بدأها طه حسين بإصداره مجلة "الكاتب المصرى" فى أربعينيات القرن العشرين والترجمات الفرنسية الجيدة التى راحت تتتابع وفق اختيار بالغ الوعى والانتباه .

حقا كانت مصر غنية بالترجمة من أكثر من لغة . كانت لدينا ترجمات كثيرة عن الأدب الروسى وعن الأدب الألمانى والأسبانى والإيطالى أيضا . وأذكر أننا عندما شكلنا لجنة المسرح العالمى فى الستينات والسبعينات من القرن الماضى كان لدينا مترجمون متخصصون فى غالبية اللغات . وكانت الترجمة تتم مباشرة عن اللغة الأصلية للكتاب المترجم. ولكن اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزى كانا يزدادان انتشارا يوما وراء يوم .

هل هى مسألة لغة ؟ ربما كانت كذلك أيضا، إذ كانت معرفتنا باللغة الفرنسية أقل كثيرا من معرفتنا باللغة الإنجليزية، وأذكر عندما زرنا فرنسا لأول مرة أنا ونعمان عاشور ولطفى الخولى، أننى ونعمان عاشور، وكنا قد نزلنا معا فندقا فى باريس، حاولنا أن نركب جملة صحيحة لنطلب طعام الإفطار من غرفة الخدمة واستغرقنا وقتا غير قصير حتى اطمأننا إلى الجملة التى ركبناها، وبالفعل طلبنا الطعام وفوجئنا أن الخادم الذى جاء بالطلبات جلب لنا معه جريدة "لوموند" الفرنسية الشهيرة فرحنا نضحك لأن محاولتنا نجحت وجعلت خادم الفندق يعتقد أننا نحسن القراءة باللغة الفرنسية .

٣٧

إعدام صديق

أسباب كثيرة بغير شك جعلتنا نحلم بأن نعيش فى إنجلترا أنا وزوجتى . وهاهى ذى الفرصة قد سنحت ولكن فى ظروف بالغة الصعوبة . كنت قد تعرضت لأزمتين قلبيتين، ثم قمت بإجراء جراحة فى القلب لتغيير الشريان المعطوب، وكنت أعانى من الإحباط وعلى وشك أن أدخل دائرة الاكتئاب، فقد أسفرت التجربة العراقية عن فشل ذريع، وهاهم الأصدقاء الذين اصطفيتهم قد أعدموا جميعا أو أغلبهم هأنذا أصبحت موضع ارتياب من السلطة العراقية بسبب هذه الصداقة، وكنت على أعتاب أن يصيبنى الضرر أنا الآخر، إذ أن هذه السلطات نفسها قد أعدمت مع من أعدمت من العراقيين مفكرًا وزعيما أردنيا هو الدكتور "منيف الرزاز"، الذى كان سكرتيرًا عاما للجنة الحزب القومية دون أن تعبأ برد الفعل الأردنى الرسمى أو الشعبى. وعندما عادت زوجتى إلى مصر فوجئت بالخادمة المصرية التى كانت تعمل فى بيت صديقى غانم عبد الجليل، الذى أعدم فى هذه القضية، تستأذن فى زيارتها، وعندما حضرت أخبرتها بأنهم ساقوها فى المخابرات العراقية وراحوا يسألونها عما كان يدور بينى وبين غانم وبعض رفاقه .

وكما روت لى زوجتى كانت البنت مضطربة غاية الاضطراب وهم يستجوبونها عن كل من كان يحضر إلى بيت غانم عبد الجليل من رفاقه فى الحزب أو أصدقائه إلى أن جاءوا لاسمى فتوقفوا عنده ليطول الاستجواب .

والواقع أن زيارتى لغانم كانت دائما عائلية بمعنى أننا كنا نقضى إجازة آخر الأسبوع عائليا معه . وكانت له زوجة رقيقة تصغر زوجتى بسنوات عديدة، إذ كان غانم أيضا يصغرنى بأكثر من عشر سنوات، وكنا أنا وزوجتى نشعر بأنهما أخ وأخت صغيران لنا . كان غانم عبد الجليل قد انحدر من أسرة فى قاع الطبقة الوسطى الصغيرة ولكنه نجح فى أن يجتاز كل السدود وأن يصل إلى التعليم الجامعى وكانت مبادئ حزب البعث العربى الاشتراكى قد شدته فانضم إليه فى بواكير شبابه، وكان الحزب يصور فى تثقيفه لاتباعه بأن الوحدة العربية هى مفتاح كل المشاكل وأنها هى التى ستؤدى إلى العدالة الاجتماعية وإلى الرفاهية الاجتماعية والحرية بأبعادها المختلفة . وكان البعث قد نشأ فى مواجهة حركات شيوعية قوية نشطت فى المجتمعات العربية وكان العراق واحدا من البلدان العربية التى كانت الحركة الشيوعية فيها

قوية جدا . ولهذا كان التثقيف البعثي يعني كثيرا بتدريب أعضائه على كراهية الفكر الشيوعي وكان يفعل ذلك بأساليب عديدة منها الدين باعتباره ركنا أساسيا من الهوية العربية وهو أمر يدعو للدهشة عندما يتأمله إذ كانت الاتجاهات البعثية علمانية وكانت القومية العربية في الواقع بديلا عن الانتماء الديني . ولذلك ارتبكت الكتابات البعثية كثيرا في هذا المجال وكان من الضروري أن تلجأ إلى شيء من الأساليب الإنشائية البليغة لاستمالة العواطف . ولعله لهذه الأسباب كان الهجوم البعثي على الشيوعية والماركسية بشكل عام عنيفا . نعم استعملت الكتابات البعثية حجج ومقولات النقد الغربي، الذي وجه إلى الشيوعية بدءا من نقد الاشتراكيات القومية، كما ورد في الكتابات النازية، أو النقد الليبرالي في المجتمعات الغربية، الذي دار حول فكرة الحرية باعتبارها محور كل شيء، أو حتى نقد الجماعات الماركسية التي اقتنعت بما أسمته الاشتراكية الديمقراطية، وبصفة خاصة في بريطانيا . على أن الذي ركزت عليه الكتابات البعثية أكثر من غيره هو القومية العربية والامتلاء بالشعور بها باعتبارها مركز الهوية في العالم العربي . وكثيراً ما كنت أتناقش مع غانم عبد الجليل وزملائه حول مشكلة القوميات المتعددة في العراق بصفة خاصة . كان هناك الأكراد والتركمان والآشوريون والإيرانيون ولكن كان على هؤلاء أن يؤمنوا بالقومية العربية . وكم كنت اندهش عندما أتحدث إلى كردي بعثي عن إيمانه بالقومية العربية فأجده متمسكا بها . ولكن كان هذا من طرف اللسان . ففي إحدى زياراتي للعراق وقبل أن أقيم به كان طارق عزيز قد طلب من مدير مكتبه في جريدة الثورة أن يصحبني في جولة بالسيارة إلى كل أنحاء العراق . كان شابا كرديا ظريفا بحق وفيه طيبة الأكراد وشهامتهم وعندما وصلنا إلى المناطق الكردية دهوك أو كركوك، لا أذكر بالضبط، راح يشير لي إلى الأراضي والتلال المحيطة بنا على أنها أرض كردية أرض الأجداد والأسلاف المسلوبة . وتحت أحد التلال وقفنا وهو يشرح لي تضاريس المنطقة وتاريخها وإذا بصوته يتغير ثم يقفز كالغزال المدرب صاعدا التل وهابط أمنه في حركة عصبية عنيفة مرددا هذه أرضنا . وأخيرا وقف إلى جانبي يلهث محمر الوجنتين مشتعل العينين بالغ الانفعال .

وكان هذا كافيا بالنسبة لي لأعرف ما الذي يحدثه اعتقاد لدى الجنس البشري، بأن هذه الأرض أو تلك ملك له ولآبائه وأجداده، وأن فكرة الوطنية وارتباطها بالعرق مسألة قديمة جدا في التاريخ البشري، حتى توشك أن تكون أشبه بالغريزة ولها ظلالها الغريبة، التي تستعصى على التفكير العقلاني . وبعد أن ركبنا السيارة ، وكان هو الذي يقودها ، صار حديثنا أكثر عفوية وصدقا ودون الكثير من الزواق والمجاملات . ولكن الغريب، أن هذا الشاب الكردي المتحمس لكرديته تعرض لحادث اغتيال من جانب المعارضة الكردية، باعتباره خائنا لكرديته بالتعامل مع حزب البعث القومي العربي . ولكنه نجا من الاغتيال، ولم يصب في المحاولة إلا سائقه وحارسه . وأظنه كان وقتئذ محافظا للسليمانية وقد علمت بعد مغادرتي للعراق أنه صار وزيرا في المناطق الكردية بعد الاتفاقات البعثية الكردية في شأن الحكم الذاتي . كانت هناك مشاكل عديدة في الفكر البعثي في العراق وكانت نقاشاتي مع غانم في هذه الزيارات العائلية حول هذه المشاكل ذات البعد الثقافي في الغالب .

وأظن أنه بعد الجدل الكثير الذي دار بيني وبينه في الفكر السياسي بشكل عام صار أكثر تفهما للكثير من القضايا ذات البعد الإنساني والأميَل إلى الفكر العقلاني أكثر منها إلى الغرائز أو الانفعالات .

فيما عدا ذلك - كما قلت من قبل، كان محبا للشعر وللموسيقى . وكان هو من جيل عربى فى كل أنحاء العالم العربى قد تربى على الكثير من الفكر العربى، الذى من الممكن أن نسميه فكر النهضة العربية الحديثة، الذى كان يتطلع إلى التحديث والحريات السياسية والفكرية والعدالة الاجتماعية والاعتزاز القومى والحضارى . كان سعيدا بالتجديدات فى الموسيقى والغناء العربيين . كان محبا لسيد درويش المصرى . وكان يعرف المقامات العراقية، ولعله علمنى كيف أتفهم هذه المقامات إلى حد ما . وأحب غناء المغنى العراقى القديم، والذى كان الأكثر شهرة وقتئذ، محمد القبنجى . وكان يصطحبنى أيضا إلى أماكن الغناء العراقى الكلاسيكى، التى يغنى فيها ورثة القبنجى وتلاميذه . ولعله هو الذى حكى لى أن القبنجى عندما ذهب إلى القاهرة فى ثلاثينيات القرن العشرين ليغنى فى مؤتمر للغناء العربى، جاء إلى الحفل أغلب المشتغلين بالموسيقى والغناء العربيين من المصريين وغيرهم . ويبدو أن المصريين كان لهم باع طويل فى التجديد الموسيقى فى ذلك الوقت . وكان فى مقدمة الحاضرين فى الحفل الشاعر المصرى أحمد رامى الذى كان من ركائز حركة التجديد فى الغناء . ولم يكن رامى شاعرا غنائيا بالغ الشهرة فى العالم العربى فقط، بل خبيرًا بفنون الموسيقى والغناء . وعندما استغرق القبنجى فى الغناء وبلغ درجة "السلطنة" لم يتمالك رامى نفسه، بفعل قوة الانتشاء والطرب، فقام من مقعـده وألقى بطربوشه فى الفضاء وهو يصيح انتشاءً وإعجابا .

كانت هذه عينات من حديثنا فى بيت غانم عبد الجليل أو فى بيتى عندما يزورنا هو أسرته مع آخرين من الأصدقاء المشتركين . وكان دائما ما يجلب شريطا غنائيا أو موسيقيا لنستمع إليه معا وأحيانا كان يدعو أحد العازفين الصاعدين وبصفة خاصة على آلة العود التى كان للعراقيين علاقة تاريخية ممتازة بها . وكان غانم أيضا وإلى جانب ذلك محبا لمصر بشكل طبيعى إذ كان يقضى الصيف معنا فى المعمورة بالإسكندرية قبل أن أسافر أنا وأسرتى إلى العراق وقد عرفته إلى أكثر من صديق مصرى فأحبوه .

عندما أتذكر هذه الجلسات، وعلى الرغم من كل الظروف الأخرى المحيطة والتى كانت أقرب إلى أن تكون سلبية، كنت أعجب أن الثقافة العربية الحديثة، أعنى ثقافة النهضة العربية الحديثة كانت منتشرة بشكل كاسح فى كل ركن بالبلاد العربية وكانت مصر تؤثر فى هذا العالم وتتأثر به أكثر مما كان يظن أكثر القوميين العرب تفاؤلاً .

حكت الخادمة المصرية التى كانت تعمل فى بيت غانم عبد الجليل كل هذه القصص للمخابرات العراقية فى استجوابها بشأن علاقتى بغانم عبد الجليل .

وربما كانت هذه الشهادة الدامغة من شخص يستبعد تماما أن يكون منحازًا أو حتى فاهمًا للمقصود من هذا الاستجواب هى السبب فى استبعادى من أى تواطؤ مع الذين أعدمهم صدام حسين . وربما كان من الصعب عليه أن يقوم بمثل هذه العملية المستفزة بالنسبة لصحفى مصرى ليس معروفا عنه أى تواطؤ أو حتى انتماء بعثى كما كان الرأى العام المصرى، على الرغم من كل شىء قوة تحسب حسابها أى قوى سياسية فى المنطقة . فالواقع أن الذين أعدمهم هذا الحكم كانوا بعيدين كثيرا عن أى اتهام حقيقى . فأذكر عندما عدت من إجازتى الصيفية التى كنت أقضيها خارج العراق، وكانت حادثة الاعتقال والإعدام قد عرفت وأنا فى الخارج، وجدت دعوة من وزارة الإعلام العراقية لأشهد المحاكمة التى أجراها صدام حسين، حتى أصدق أن أصدقائى هؤلاء كانوا يستحقون الإعدام بالفعل، بسبب خيانتهم الظاهرة .

وبالفعل ذهبت إلى مقر اتحاد الصحفيين، أو مكان آخر تابع لوزارة الإعلام . أداروا لى شريط المحاكمة أمام التليفزيون . فإذا بى أجد اجتماعا كبيرا لحزب البعث فى إحدى القاعات الكبرى امتلأت مقاعدها بأعضاء الحزب، بينما جلس صدام حسين وراء منصة، وإلى جانبه رجل راح يروى واقفا كيف وقعت الخيانة، وأنها كانت بتدبير من سوريا . كان هذا الرجل رئيس ديوان صدام حسين . وكان قد اعتقل بتهمة الاشتراك فى الانقلاب ضد صدام . وشرح كيف اشترت سوريا ببضعة دولارات ولاء هؤلاء السياسيين العراقيين . وكان مما ذكره الرجل أن سوريا رشت غانم عبد الجليل بمبلغ خمسين ألف دولار، وكان هذا مبلغا تافها، لا يعقل أن غانم عبد الجليل يكون قد قبله كرشوة للانقلاب ضد صديقه صدام حسين . والواقع أن الذى ضم الرجل إلى حزب البعث، كان هو غانم عبد الجليل نفسه . وكان صدام يغدق على معاونيه مبالغ مثيرة للدهشة وكثيرا ما كان يحدثنى غانم عن هذه المنح فى الأحاديث العابرة كدليل على رعاية الدولة لكبار مسئوليها ربما لإبعادهم عن أى إغراء . أستطيع القول، بسبب معرفتى الجيدة - فيما أعتقد - بغانم عبد الجليل، أن هذا اتهام مضحك ومثير للسخرية لرجل بلغ أعلى المناصب فى الدولة .

وكان ذلك الشاهد الذى يتلو شهادته أمام جمهور الحزب، بجانب صدام حسين الجالس، عندما يذكر اسما من الأسماء، ويبدأ الشهادة ضده، يشير صدام حسين إلى أشخاص يحيطون بالجالسين أن يقبضوا عليه، فينقض هؤلاء "الزبانية" عليه ويسحبونه سحبا أمام زملائه، وهو يعلم أنه مُنقاد إلى الموت . بالفعل عرفت معنى كلمة الزبانية من هذا المنظر البشع لقوم لا ملمح لأية شفقة أو إنسانية فى عيونهم أو أجسامهم أو حركاتهم المليئة بالوحشية . وقد اختير هؤلاء بعناية فهم قوم غلاظ الأجسام والملامح يمثلون بمجرد شكلهم أسوأ ما فى الإنسان من غرائز وانحطاط .

رأيتهم يسحبون الضحية سحبا كالخراف المساقة إلى الذبح ورأيت كيف يكون حال الرجل وهو يساق بهذه الطريقة إلى ذلك المصير الرهيب .

تضطرب القاعة لحظة ثم يتابع الشاهد شهادته الغريبة ليأتى اسم آخر . ولك أن تتصور حال الجالسين فى القاعة وكل واحد منهم ينتظر أن يسمع اسمه ليساق إلى هذه المذبحة . والغريب أن صدام حسين كان يصغى للشهادة وعندما يبدأ الشاهد الحديث عن اسم المتهم تتسع عينا صدام حسين ثم إذا بهما تغرورقان بالدموع . فيخرج منديلا من جيبه فيجفف دموعه أمام أنصاره الذين لابد أن دموعهم قد جرت هى الأخرى تعبيرا عن هذا الإحساس الأليم بخيانة الأصدقاء وأقرب المقربين .

هذا المشهد الغريب، رجل واحد يتحدث عن آخرين بأنهم تواطئوا مع النظام السورى من أجل الانقلاب على النظام العراقى وخانوا الأمانة وتكفى هذه الشهادة ودون أية مناقشة و دفاع يساق المتهم إلى الإعدام فورا .

كنت أتأمل ذلك الشاهد الغريب الذى كان فى شهادته اعتراف بالمؤامرة . كيف أقنعوه بأن يقف هذه الوقفة ويلقى بهذه الاعترافات المختلقة فى اعتقادى وهو يعلم بأن الموت يتربص بهم جميعا . كيف كان حجم العذاب الذى تعرض له ؟ وكيف أصبح فريسة هينة فى أيدى الخوف والرعب ؟ حتى أنه لم يعد يدرى أنه هو نفسه سوف يعدم . انتظرت أن يحدث جدل أو استجواب أو شهادة أخرى أو دفاع أو أى شكل من أشكال المحاكمة فلم أجد وانتهت هذه الشهادة التى استغرقت أكثر من ساعة . وكان هذا هو كل شىء وتلك كانت إجراءات المحاكمة

التى أعدم فيها أكثر من ٣٠ شخصًا من أحسن كوادر حزب البعث العراقى ومن أحسن الشباب العرب الذين صادفتهم فى مختلف البلاد العربية .

وبالطبع، أُعدم هذا الشاهد فيمن أعدموا .

كانت فكرة الوحدة مع سوريا وانضمام الحزبين البعثيين معا، حدثا مفرحا للغالبية العظمى من سكان البلدين . وربما كانت أيضا أملا للعرب أجمعين، على الرغم من كل الظروف المحيطة . والانقلاب السورى على زعماء الحزب ومنشئيه، مثل ميشيل عفلق وصلاح البيطار وغيرهما، الذى لم يلبث أن كشف عن اعتماده الكلى على الطائفة الدينية، فقد تحول الجيش بصفة خاصة إلى مركز تجمع لأبناء الطائفة العلوية . وهو مذهب طائفى أو دينى من المذاهب الكثيرة التى نشأت خلال تحولات التاريخ العربى والإسلامى . إذ كانت الأحزاب السياسية المتصارعة فى هذا التاريخ العجيب تصطنع لها مذهبا أو فكرة تستند إلى أسس دينية أو زعامة دينية وتمضى بها لاجتذاب الأنصار أو تبرير طموحاتها السياسية . ومن الصراع الأساسى بين العلويين . أى أنصار على بن أبى طالب . وخصومهم الأمويين وورثتهم انبثقت العديد من المذاهب أو الطوائف الدينية . والمذهب العلوى واحد من هذه المذاهب . وكثيرا ما كانت تلك المذاهب سرية إذ تصبح نصوصها وعقيدتها الأساسية وقفا على الأنصار والمؤمنين بها وغالبا ما كانت الأسرار العليا وقفا على كبار «الكهنة» لا يعرفها أحد خارج هذا التنظيم السرى المحكم . والواقع أن التاريخ الإسلامى ملىء بالملل والنحل التى تستعصى على الحصر . فالإسلام اخترق كل الحضارات المعروفة قديما وقد توغل فى كل القارات تقريبا واصطبغ بالكثير من المعتقدات التى وجدها فى تلك المواقع المتباينة تباينا شبه مطلق أحيانا وهناك كتاب مشهور عنوانه «الملل والنحل» صنفه كاتب إسلامى قديم يدعى »الشهرستانى «سوف يعجب من يقرؤه من كثرة تلك النحل التى مرت بالتاريخ الإسلامى إلى زمان هذا المؤلف القديم .

وقد حاولت أثناء إقامتى فى العراق الإلمام بهذه المذاهب أو المعتقدات ومحاولة فهمها ولكننى وجدت صعوبة مطلقة فى التعرف العلمى الموضوعى على أسسها وأسبابها التاريخية بسبب السرية التى يحيط بها أتباعها كل ما يتعلق بها وكانت المراجع قليلة جدا . وكنت ازداد عجبا عندما أرى رجلا مثقفا قد يكون أحيانا أستاذا فى الجامعة ينتمى إلى مذهب من هذه المذاهب فلا يشبع فضولى أو يزودنى بمرجع مفيد، بل الأغرب من ذلك أن ينتمى إلى هذا المذهب أو ذاك على ما فى ظاهره من غرابة .

وكان هناك أحد المذاهب المثيرة للدهشة يدعى أتباعه باليزيديين يعبدون الشيطان ولا يستعملون حرف الشين فى كلامهم لأن مجرد ذكر هذا الحرف من الممكن أن يثير الشيطان الذى يبدأ اسمه بهذا الحرف الخطير . هل كانت هذه العبادة لتجنب شر الشيطان واسترضائه ؟ وباعتبار أن الله خير فإن الأذى لا يأتى منه . وهل كلمة اليزيدية مشتقة من يزيد بن معاوية قاتل الحسين . وبالتالى فإن الانتساب إليه والإيمان بسلطته يكفيهم الشر الكامن فيه . لكن كيف يعيش رجل مثقف تعلم تعليما جيدا مؤمنا بمثل هذه المعتقدات ؟ يبدو أن الإيمان أيا كان نوعه أحد الوسائل التى تربط الجماعة البشرية وتجذب بها أفرادها إليها وليس من الضرورى أن تتفق هذه المعتقدات مع نظم المعرفة الحديثة .

هكذا سيطر العلويون السوريون على الجيش وعلى السلطة كما يقول خصومهم . ولعلنا نتساءل ما هى الإيديولوجية التى كانت تحكم الأوضاع فى سوريا . هل كانت هى الفكر البعثى

أم العقيدة العلوية ؟ على أن الأمور الدينية أصبحت شيئًا بالغ الحساسية وله خصوصيته ومن آداب السلوك الجيد أن يحترمها الإنسان ويتركها لأصحابها . على أن هذه النظم السرية ليست وقفا على العالم الإسلامى فالتاريخ الإنسانى ملىء بمثل هذه التنظيمات ولعل من أشهرها فى عصرنا هذا الماسونية .

ومهما يكن من أمر، فأثناء الفرح بفكرة الاتحاد بين سوريا والعراق، وتوحيد حزب البعث فى سوريا وفى العراق، تقرر عقد اتحاد الأدباء العرب فى سوريا، ودعيت فيمن دعوا إلى هذا المؤتمر . وكنت بالطبع مع الوفد العراقى، الذى عومل معاملة طيبة فى دمشق . وقد استمتعت بهذه الزيارة فللمصريين صلة تاريخية وعاطفية بسوريا والشام بشكل عام . وبالفعل يشعر المصرى حتى ولو كانت زيارته لسوريا لأول مرة أن له صلة ما بهذا المكان وهو يسير فى شوارع مدينة دمشق أو وهو يزور المساجد أو الأماكن الأثرية. ولكننى كنت قد زرت سوريا أكثر من مرة وكان لى فيها أصدقاء أعزاء .

عدت إلى حجرتى فى الفندق فى دمشق متأخرا . كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل عندما استلقيت فى الفراش . أطفأت الأنوار محاولا أن استجلب النوم إلى عينى . وأنا بين النوم واليقظة، سمعت شيئا عند باب الحجرة فوجهت عينى فى اتجاه الباب وأنا أصغى بانتباه، وإذا بى أرى الباب يفتح ويتسلل منه شخص . أضأت النور فجأة ونهضت واقفا وأنا أصرخ فى هذا الشخص : ماذا ترى ؟ ارتبك الرجل وكان شابا فى العشرينيات فى الثياب الرسمية لعمال الفندق وأجابنى باضطراب أنه جاء ليأخذ الصينية الفارغة . ولعلى سألته مستنكرا ألم يجد إلا ذلك الوقت لكى يأخذ هذه الصينية .

كان من الواضح أن الرجل جاء ليأخذ شيئا آخر . وقد كان الباب مغلقا من الداخل، ولكنه فتحه بطريقة ما . قضيت الليلة قلقا إلى أن جاءنى النوم .

كانت الحياة بالفعل فى المجتمعات العربية شاقة على أى مشتغل بالحياة العامة . فأينما نذهب نجد التجسس والتلصص والاسترابة . وكانت الأنظمة العربية بلا استثناء تقريبا بوليسية، ذلك أن أى نظام من هذه الأنظمة لم يأت باختيار الناس . وكانت الحكومات القائمة أغلبها عبارة عن انقلابات عسكرية . وبالتالى لم يكن لها ثقة فى القوى الأخرى، وتتوقع أن تنقلب عليها هذه القوة الاجتماعية أو تلك . وكانت هذه الأنظمة تعيش قلقة، ليس بسبب الظروف الداخلية وحدها، بل بسبب التدخل الدولى أثناء عمليات الاستقطاب الكبرى التى تقوم بها الدولتان الكبريان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وكان تدخلهما يحدث بكل الوسائل الممكنة . وبالفعل كنت أشعر بانكتام النفس وبأننى اختنق أحيانا . وعلى الرغم من كل ذلك كانت فكرة الوحدة بين سوريا والعراق شيئا مفرحا ويكاد يزيل من النفس كل توتر بسبب تلك الملاحقات الغريبة .

ولكن ذلك كان وهما، إذ كان النظام السورى يتربص بالنظام العراقى أو هكذا ظنت القيادة العراقية، وكان موضوع سلطة الحكم مطروحا، من سيكون الرئيس ؟ حافظ الأسد السورى أم صدام حسين العراقى ؟ وكانت هذه هى المعضلة الكبرى . ولقد حسب صدام حسين حساباته على أنه لن يكون الرابح فى هذه العملية الاندماجية ولذلك قرر الخروج منها فى وقت مبكر وقبل أن تتفاقم وتعبئ الناس عاطفيا فى اتجاهها .

هل حدث جدل بين أعضاء اللجنة القومية أو القطرية لحزب البعث العراقى ؟ وهل أبدى بعض الأعضاء رأيا يقول بالانضمام إلى الوحدة أيا كان الثمن بما فى ذلك موضوع الرئاسة ؟ من المؤكد ان شيئا من ذلك قد حدث .

فى الظروف العادية، وحيث يكون الناس فى قمة التراكيب الحزبية متساوين، وحيث تكون القرارات جماعية بمعنى أنها تتم بعد جدل ثم بناء على تصويت ديمقراطى حر، تنتهى الأزمة باتفاق على قرار ما . ولكن فى هذه التنظيمات وغالبا ما تكون قائمة على أسس عسكرية يتصدر القائمة رجل واحد هو الذى يملك كل القوى الضاربة . وهذا الرجل يطلب من الجميع الطاعة والولاء وقد قضى صدام حسين كل وقته من أجل السيطرة على الجيش والبوليس والأجهزة الأمنية على اختلاف أنواعها وأصبح هو القوة الأولى الضاربة فى الحزب وبالتالى يطلب الطاعة والولاء من الجميع .

ولأننى كنت أعرف هؤلاء الرجال الذين أبدوا الرغبة فى تحقيق الوحدة فأعتقد أنهم جادلوا بشىء بالغ من الاحترام والولاء لصدام حسين فى شأن ضرورة التغلب على المشاكل التنظيمية الناتجة عن هذه الوحدة بما فى ذلك مركز صدام حسين فيها . كانوا متحمسين بغير شك للوحدة الأولى فى أواخر الخمسينيات . كانوا عاطفيين أكثر من صدام حسين الذى كان واقعيا إلى حد الابتذال ولعلهم لم يفهموا حافظ الأسد الرئيس السورى الذى لم يكن يختلف كثيرا عن صدام حسين من حيث واقعيته وبراجماتيه المطلقة . واهتمامه الخاص بوضعه وسلطاته وهو الأمر الذى كان يفهمه صدام حسين جيدا . على أن الأسلوب الوحيد المفهوم فى هذه الأنظمة هو التصفية الجسدية فهى نظم تتطلب الولاء الكامل والطاعة المطلقة دون مناقشة .

لعلى رحت أتأمل هذه الثقافة الأبوية وكيف سيطرت على العقلية العربية فى السنوات الأخيرة أنها لم تبدأ من سوريا أو العراق أو غيرهما من البلاد العربية فقد وجدتها أيضا فى مصر . هل هى ضاربة الجذور إلى أعمق مما كنت أظن ؟ هل مازالت هى المسيطرة خاصة فى الثقافة الدينية السياسية ؟ إذ كنت أجد فى قراءاتى لأفكار الزعيم الإخوانى الأكبر حسن البنا مبدأ الطاعة باعتباره مبدأ تنظيميا مقدسا . وفكرة الإمامة ذاتها، فالإمام نوع من الاختيارات الإلهية .

فمن الأفكار الشائعة أن الله يبعث للأمة الإسلامية كل مائة عام إماما مصلحا، يصلح ما أعوج من أمر هذه الأمة . وبالتالى فإن ظهور هذا الإمام من آيات اللطف الإلهى الذى ينبغى أن يتقبله الناس بالشكر والطاعة والارتياح . وأعتقد أن التنظيمات الصوفية فى العالم العربى الإسلامى لها تأثير خطير من الناحية الثقافية فهى تنظيم تراتبى يجلس على قمته الإمام الولى شيخ الطريقة الذى يقود أتباعه إلى الطريق الصحيح نحو الله ونحو الخلاص . وثقافة الطرق الصوفية أبعد ما تكون عن العقلانية وتقوم أساسا على الإيمان بالغيبيات وكل ما وراء الطبيعة .

حقا نشأت حركة التصوف كنوع من رد الفعل على مظالم السلطات فى هذه المجتمعات القديمة، التى كان الناس مهمشين فيها إلى الدرجة القصوى . إلا أنها ارتكزت أساسا على الازدراء للحياة الدنيا من أجل الحياة الآخرة . ومفتاحها الأساسى هو الزهد والابتعاد عن كل مغريات الحياة . ولأن الحركات الصوفية كانت تنقذ أتباعها من الاغتراب والاستلاب

والتهميش، فقد انتشرت انتشارا كبيرا في العالم الإسلامي . وتركت اثارها الثقافية الضارة على الثقافة السائدة الآن في العالم العربي، حيث قامت الأنظمة الاستبدادية الجديدة بما كانت تقوم به الأنظمة القديمة في أزمة التأخر السابقة، مما أدى إلى تنشيط التفكير الصوفي وانتشاره من جديد .

ويظهر الولي الصوفي بشكل مفاجئ بسبب كرامات تظهر فجأة فيطير صيته في القرى فإما تجتذبه طريقة صوفية من الطرق المشهورة وإما ينشئ هو فرعا من الفروع ولكن عادة ما ينضم إلى فرقة مشهورة . وكان أخو زوجتي شابا متدينا أتم تعليمه في الجامعة الأزهرية حتى شهادة العالمية . وكان هو حتى من لحظة الميلاد محل دهشة الجميع . إذ يقال أن أمه حملت به ووضعته بعد أن تجاوزت سن الطمث وكانت قد جاوزت الخمسين من عمرها . ولكن أمارات الولاية راحت تظهر عليه بعد أن أنهى خدمته في الجيش . وكان الشيخ محمد قد ولد في إحدى قرى الصعيد وتلقى تعليمه هناك وواصل بعد ذلك في إحدى كليات الجامعة الأزهرية . كان شابا وسيما هادئا بالغ الرقة زاهدا في كل شيء معتدا بحق وبشيء من سليقة . عهدته لم يكذب أبدا . وعندما بدأت عليه الولاية، أتى بشيء من الكرامات اشتهرت في المديرية أو المحافظة . وجاءنا ذات يوم لزيارتنا في القاهرة، واستأذنني في أن يصحب معه بعض رفاقه فأذنت له . وعندما دخل البيت تبعه أكثر من خمسة أو ستة أشخاص قدمهم لي، فإذا بي أسمع أن هذا طبيب وذاك مهندس وهذا خبير في شأن من الشئون . رحت أرقب هؤلاء الناس في دهشة وهم يمشون وراءه في احترام يبلغ حد التقديس . ولعلهم بعد قليل جلسوا يؤدون طقسا من الطقوس وراء الشيخ محمد، وكان نوعا من الأدعية أو الأوردة . وعرفت فيما بعد أنه أراد بهذه الجلسة أن يبارك بيت أخته وأولادها .

كانت هذه الظاهرة تتسع وتضم إليها أناسا كثيرين ومن كل الطبقات، وأظنها مازالت مستمرة . وهي على أي حال، نوع من الترابط الاجتماعي لغياب التمثيل الحزبي الحقيقي، أو مشكلات الاستلاب والتهميش محليا أو دوليا، ولمقاومة حالات الإحباط السائدة التي من الممكن أن تشخص على أنها ظاهرة مرضية بكل معنى الكلمة .

ولكن الأعجب من ذلك، أنني وجدت بعض التجمعات الدينية تضم عددا من المسئولين في هذا الموقع أو ذاك من مواقع الدولة، يتفقون على الالتقاء اليومي أو الأسبوعي لأداء بعض الطقوس الدينية بشكل جماعي . وهو نوع من التجمعات العنقودية التي تترابط على أساس الدين والتقوى، وتتعلق بفرع من فروع شجرة السلطة . ويلعب الترابط الديني دور الوثاق الذي يربط بينهم وتتكفل الكثير من المفاهيم الدينية بتكوين الولاء المشترك باعتباره خصلة طيبة يدعو إليها الدين الصحيح . وبهذا تواجه هذه الشلة القلاقل التي تعترض أفرادها بشكل جماعي ويساعد كل فرد منها سائر الأفراد في المصالح المختلفة، ويعمل الجميع على توسيع نفوذ الجماعة وكثيرا ما تصبح مركزا من مراكز القوة في المجتمع .

٣٨

الإسلاميون فى بريطانيا

كانت المفاجأة الأكبر، عندما استقر بى المقام فى مدينة لندن البريطانية . إذ كنت حريصا على أن يتعلم أولادى الصغار بصفة خاصة باللغة العربية، حتى لا يفقدوا لغتهم الأم . فقد أخذتهم إلى مدرسة عربية تتبع السفارة المصرية، تعلم أولاد المصريين والعرب حسب المناهج المصرية الرسمية فى مصر . وكانت هذه الدروس تعقد فى يوم السبت وهو يوم إجازة مع يوم الأحد بالنسبة للمدارس الإنجليزية . كان أولادى يذهبون طوال الأسبوع إلى المدرسة الإنجليزية، ثم يذهبون فى يوم السبت إلى هذه المدرسة المصرية . ومع شىء من المساعدة من جانب الأم فى الأساس، كان الأولاد يتقدمون أيضا فى الدراسة باللغة العربية . وبالفعل حصلوا على الشهادة الابتدائية والإعدادية، وواحد منهم وصل إلى مرحلة الثانوية العامة، لكن دون أن يجتاز امتحانها، لأنه كان بالفعل يخوض الامتحان المقابل لهذه الشهادة باللغة الإنجليزية . وكانت تسمح للحاصل عليها بدخول الجامعات المصرية فيما لو احتاج الأمر إلى شىء من هذا .

كان على أن أصحب ولدى هذين إلى المدرسة المصرية فى الصباح بالسيارة ثم أعود لآخذهم بعد انتهاء اليوم الدراسى . كنت أحرص على أن أحضر قبل الموعد حتى أتجنب الازدحام والتأخير، وكان علىَّ أن انتظر قليلا أمام باب المدرسة . ولشدة دهشتى وجدت أن غالبية الأمهات محجبات، وأن الآباء لهم صلة ما بمظاهر التدين والمبالغة فيه، مثل علامة الصلاة فى جبهاتهم، ومثل السبحة فى اليد . ولعلى سرحت وأنا انظر إلى هؤلاء المصريين، وبصرف النظر عن أى معنى، فهم أقرب إلى أن يكونوا محافظين ومتشددين . ولعلى تساءلت بينى وبين نفسى، لماذا جاء هؤلاء بالذات إلى إنجلترا وهى بلد أوروبى مسيحى أو قل أنه بلد حداثى حتى النخاع . فتذكر الإحصاءات أن الذين يذهبون إلى الكنائس لا يزيدون على عشرين بالمائة من عدد السكان، وأنه بلد علمانى بكل معنى الكلمة . وأن الثقافة المتداولة فى الصحف والمجلات والكتب والسينما والمسرح والتليفزيون، كل شىء تقريبا يكاد يعزف معزوفة أساسية هى العلم والتكنولوجيا، والإيمان المطلق بالعقل والفعل الإنسانى، وقدرته على حل مشاكل الحياة وفهم الوجود إلى حد ما . مجتمع يصدر الكتب الصريحة التى تتحدث عن كيف بدأت الحياة على الأرض باعتبارها نوعا من التفاعل الكيماوى انطلق فى سلسلة طويلة من التطور

إلى أن وصلت الحياة إلى التكوينات المتقدمة فى الكائن الإنسانى . يكتب هؤلاء العلماء كتبهم ويتجادلون أمام شاشات التليفزيون ويسمون أنفسهم بـ "الداروينين الجدد" . دعك من العلماء الفيزيائيين ونظريات بداية الكون ومفهوم الزمن وكل تلك الدراسات التى تتوصل إلى مفاهيمها عبر الإنجازات العلمية وليس مجرد التفكير التأملى .

عالم ملىء بالفضول يبحث كل يوم فى كل شىء ويحقق الإنجازات فى هذا المجال العلمى أو ذاك . يبحث فى الجينات ويشارك فى اكتشاف الـ "دى إن إيه"، ثم يقوم بعملية تخليق كائن حى من مجرد جين من الجينات . عالم جرىء صادم للتفكير المعتاد ومربك للمفاهيم المستقرة، متعدد الاتجاهات تتعرض الصحافة فيه لأى شخص بمن فى ذلك الملكة والأسرة المالكة بشكل عام .

لماذا إذن يأتى هؤلاء المحافظون المصريون ؟ ولماذا يستمرئون الحياة فى هذه المدينة الصاخبة الغارقة فى العلمانية ؟ ألم تحدث كل هذه الأشياء هزة فى نفوسهم ؟ ألم تقلقهم ؟ هل هم مهاجرون مغاضبون للسلطات فى مصر ؟ هل جاءوا للدراسة، أم جاءوا للعمل ؟ كل هذه أسئلة كانت تستعصى على الإجابة .

كنت قد عشت فى أواخر الستينيات حوالى عام فى لندن فلم أجد هذه الظاهرة . فهل هذا شىء طيب ؟ كانت بريطانيا وأوروبا بشكل عام وقفا على أبناء الأغنياء أو المبعوثين للدراسة المختارين لتفوقهم إلى جانب العاملين بالسلك الدبلوماسى، وكان فى هؤلاء شىء من التفرنج والرغبة فى التقليد . كانوا نوعا من الأرستقراطية الطبقية والفكرية وكانوا أيضا جزءا من السلطة فى الأنظمة القديمة فهل هؤلاء الجدد هم ممثلو السلطة الجديدة ؟

كنا فى عام ١٩٨٢، أى بعد وفاة الرئيس السادات، وربما كان قد جاء إلى لندن عدد كبير منهم فى عهد السادات . فكيف جاءوا وعلى أى أساس تم اختيارهم ؟ كل هذه كانت ألغازا بالنسبة لى . كانت المشكلة بالنسبة لى ثقافية فأنا القادم إلى الحياة السياسية والاجتماعية من الطبقة المتوسطة الصغيرة لا يمكن أن تكون نظرتى إلى هؤلاء البسطاء الذين ينتمى أغلبهم إلى نفس المستوى الاجتماعى الذى أتيت منه، اجتماعية أو طبقية . الذى كان يشغلنى هو المستوى الثقافى والموقف الفكرى .

كان المركز الثقافى المصرى يقع فى حى "الماى فير" فى لندن وهو حى راق أرستقراطى شهير . وكان مقر المركز قصرا كان مخصصا للملك فاروق أثناء وجوده فى بريطانيا للدراسة . وفى هذه الفترة تحولت إحدى قاعات القصر الكبيرة إلى مسجد للصلاة . ولعلى حضرت مرة إحدى هذه الصلوات فوجدت كبار أعضاء السفارة يشاركون فى الصلاة حتى من أعرف عنهم عدم تدينهم . بل ووجدت أحد المسئولين يعتلى مقعدا باعتباره شيئا من منبر فيؤذن للصلاة، وأنا أعرف عنه ولعه بالحياة بما فى ذلك معاقرة الخمر كما يقولون . بل علمت أن هذا اللقاء حول الطقوس الدينية يسير على نفس القواعد التى راحت تظهر فى مصر وهى الرابطة التى تكون مركزا من مراكز القوة لحماية المصالح وتوسيعها .

وكان المصلون يتركون أحذيتهم عند الباب الخارجى للقصر فتكون الأحذية مساحة هائلة من عتبات القصر تصطف فيها الأحذية المتربة فى منظر شديد الغرابة يستعرضه الرائحون والغادون فى ذهول . واستمر هذا الوضع مدة طويلة على الرغم من أن بعض الصحف البريطانية على ما أذكر قد نشرت صورة لهذا المشهد الغريب والذى يتنافى مع النظافة والذوق

. وربما وجد حل لهذه المشكلة بشراء بعض الدواليب لتوضع فيها الأحذية داخل المبنى كما يحدث فى أى مسجد نظيف فى القاهرة . ومن المحتمل أن المصلين، خاصة خارج الوطن وفى مجتمع مغاير،كانوا يعتقدون أن التمسك بالعادات المتعلقة بأداء الفروض ينبغى الجهر به وعدم الخزى منه .

ولم تكن لى أية مشكلة مع التدين المعتدل أو حتى المبالغ فيه . كنت أعرف أن الحياة بالغة الصعوبة، وأن الإنسان بغير الدين قد يضيع تماما، وأن الناس فى حاجة إلى الدين حتى يعطوا للحياة معنى لكى يستمروا فى احتمالها وأن يتطلعوا إلى حياة أخرى . لكن الذى كنت أراه كان شيئا مغايرا، أشبه بالحركة السياسية أو الثقافية . وكانت لى بالطبع علاقات جيدة ببعض هؤلاء الأساتذة وكان منهم رجل طيب وجدته ينظم جماعة من هؤلاء الرجال ومنهم مسئولون فى السفارة أو المواقع الرسمية الأخرى فيقيمون الأذكار ويؤدون طقوسا معينة يعتقدون أنها تساعدهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . وكان يؤذن أحيانا للصلاة يوم الجمعة . وكان يزورنى فى بيتى ذات يوم فسألته كيف جاء إلى لندن ولماذا . فروى لى أنه كان طالبا فى كلية الاقتصاد بجامعة الإسكندرية عندما جنده تنظيم الإخوان المسلمين وكان المسئول عنه أحد الأساتذة فى الجامعة . وكان ذلك فى فترة حكم الرئيس السادات وكان طالبا مجدا على أية حال . وكان الإخوان المسلمون قد تبينوا أن تغيير الأوضاع فى مصر يتم عن طريق التعليم . وأن وصول أعضاء الجماعة إلى مراكز التعليم هو الهدف الأساسى، وبصفة خاصة التعليم العالى بعد الجامعة، والذى عادة ما يتم عن طريق البعثات العلمية إلى الخارج .

وقد استطاعوا – أثناء حكم السادات – أن يكون لهم وجود بارز فى الأجهزة التعليمية التى تشرف على البعثات العلمية . وبالفعل عندما تخرج جاءه الأستاذ المسئول عنه فى تنظيم الإخوان وقال له أنه رشحه لبعثة إلى إنجلترا، ولكن من كلية أخرى، إذ أن هذه المنحة لم تكن للكلية التى تخرج فيها . وبالفعل سافر إلى إنجلترا وبدأ الدراسة، وأظنه حصل على الماجستير، ولعله أيضا حصل على الدكتوراه. ولكنه لم يغادر لندن . إذ كان له بنتان كبرتا وتعلمتا فى إنجلترا، وأصبح من الصعب إقناعهما بمغادرة هذه المدينة . كما لم تكن الأمور سهلة فى مصر بالنسبة لأعضاء هذه الجماعة بعد اغتيال السادات .

وفيما عدا ذلك لم يكن الرجل متآمرا أو حتى مهتما بالسياسة ولم يكن له طموح اجتماعى يدفعه إلى العودة إلى مصر . ولست أذكر بالضبط ماذا كان يعمل فى لندن ولكنى زرته فى بيته وكان يعيش حياة متوسطة لا بأس بها وكان مستغرقا بحق فى منحاه التصوفى . وعلى الرغم من أنه كان قد أتقن اللغة الإنجليزية بطبيعة الحال إلا أن قراءاته كانت فى كتب التصوف الإسلامى، وقلما وجدته ملتفتا إلى أية ثقافة أخرى . كان بالطبع ناقدا للحياة والنظام السياسى فى مصر .

بالطبع لم يكن صعبا علىّ أن أفهم أن المغترب غالبا ما يشعر بحاجته إلى نوع من الانتماء القبلى أو الطائفى يغطى به حالة اغترابه . وكان هذا وحده سببا معقولا أن يتقارب هؤلاء الناس على أساس التدين . إذ كانت هناك عندما وصلت إلى لندن فى بدايات الثمانينيات من القرن الماضى، محاولات لتشكيل جمعية للمصريين فى بريطانيا، وبالفعل شاهدت تكونها . وكان الكثير من الناشطين فيها من هؤلاء الرجال القادمين من الفكرة الدينية . لكنها مثل أية مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدنى فى مصر أخذت تتحول إلى شىء رسمى قريب الصلة

بشكل ما إلى الدولة فى مصر . وكان هذا يحدث بتفاهم ما بين الممثلين الرسميين فى السفارة أو مكاتبها وبين الأشخاص الذين سيرشحون أنفسهم لرئاسة الجمعية ولعضوية مجلس الجمعية . ولعله لهذا السبب اهتم هؤلاء "الإسلاميون" بلقاءات تخصهم بعيدا عن جمعية المصريين وإن لم يمنع هذا أن يكون لهم فى عضوية المجلس واحد أو أكثر .

ومن الممكن بالطبع أن يكون التدين المتحمس نوعا من التماسك النفسى ضد ثقافة المجتمع الجديد، الذى انتقل إليه المهاجر، خاصة فى مجتمع بالغ الجرأة بالنسبة للمجتمع القادم منه هذا المهاجر . إذ كان كل شىء تقريبا صادما ومقلقا ويدعو إلى الكثير من التفكير والمراجعة وهى أمور صعبة لا يحتملها إنسان تعود على استقرار نفسى وعقلى بالنسبة لمكوناته الاعتقادية . ولكنى مع ذلك لاحظت أن التيارات الدينية التى رأيتها فى إنجلترا لم تكن بريئة تماما من السياسة . وأنه منذ الفترة الناصرية، والتى اقتحمت بقوة تبشيرية بالغة التأثير عالم الثقافة فى المجتمعات العربية، وهيجت مشاعر الطبقات المطحونة فيها، بما فى ذلك الطبقات الوسطى، ثم نجاحها فى هز هذه المجتمعات، وقيام الثورات أو الانقلابات المتجاوبة مع تلك الثقافة الجديدة، التى تدعو إلى الوحدة العربية والاشتراكية، وما يصحب ذلك من وعود بالحريات والديمقراطية، ويهدد فى نفس الوقت المجتمعات العربية البترولية، التى تحصل على عائدات بالغة الضخامة تتركز أغلبها فى أيدى سلطات مستقرة على أسس قبلية ودينية فى الأساس .

وكانت هذه المجتمعات قد نجحت فى أن تفسر هذه الأوضاع على أنها تعبير عن الفكر الإسلامى الصحيح . وكان لهذه المجتمعات رجال فتاواها الدينيون الذين يفتون فى هذا الاتجاه . وكان الصراع على أشده من الناحية الثقافية بين الفكر "الاشتراكى" الذى جاءت به الثورة المصرية، خاصة فى العهد الأخير من حكم عبد الناصر، الذى كان قد وجد فى التأميمات الاشتراكية قوة مساندة لسلطاته، وطريقا أيضا إلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وكان قد أصبح حليفا قويا للاتحاد السوفييتى .

وكان من الواضح أنه فى حرب الاستقطاب القائمة بين القطبين الكبيرين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى راح الخيط يفلت من يد الثقافة الليبرالية التى تمثلها الولايات المتحدة . وكانت قوة تأثير الثقافة "الاشتراكية" الجديدة حاسمة . وكانت الفكرة الليبرالية باعتبارها محور الفكر الرأسمالى قد بلغت الذروة فى سوء السمعة فى المجتمعات العربية ومجتمعات العالم الثالث بصفة عامة . وكان من الممكن القول أن الاستقطاب الثقافى الذى يقوده المعسكر الاشتراكى اكتسح هذه المناطق . ومن المؤكد أن رعب الدول البترولية العربية من هذا الفكر وتحولاته كان أكبر من رعب الولايات المتحدة نفسه . وكان من الطبيعى أن يتحالف الفريقان تحالفا قويا بقدر قوة التهديد الذى تتعرض له هذه الثروات.

كانت الفترة الناصرية قد دفعت الكثير من القيادات الإخوانية إلى السفر إلى الخارج وكانت الدول البترولية الأكثر ترحيبا بهم . وكان التيار الإسلامى السياسى قد ظهر فى أكثر من بلد عربى ومن هاجر من أعضائه وجد ترحيبا فى الدول العربية الغنية أعطى الفرصة لتوسيع نشاطه على مستوى العالم الإسلامى . وكان الفكر السياسى الدينى المعاصر منذ نشأته لا يعارض الملكية الخاصة، بل يعتبرها حقا من الحقوق . كما كانت له مفاهيم غير مقلقة حتى بالنسبة للديمقراطية، التى كانت وما زالت تعتبر خطرا على السلطة الأبوية، التى تتمتع بها

هذه النظم الديكتاتورية . وكان الفكر الدينى الذى يتحرك فى إطاره دعاته هو الفكر الموروث من عهود التدهور التى استمرت طوال قرون الضعف الأخيرة وكان هذا يتفق مع تلك المصالح المهددة . وهكذا قامت الأنظمة العربية الخليجية بصفة خاصة بمد هذه الحركة بكل ما تحتاجه من دعم . ثم بدأ الإسلام يظهر بالتدريج كإيديولوجية بديلة فى مواجهة الإيديولوجية الاشتراكية التى صارت إيديولوجية الإلحاد كما صارت الدول الاشتراكية دولاً ملحدة ينبغى القتال لإسقاطها .

وكانت للحرب الثقافية بين الإيديولوجية الرأسمالية والاشتراكية مواقع قتالية متصلة سخرت فيها الدول الرأسمالية كل قواها وتأثيراتها المختلفة لاجتذاب المثقفين إلى جانبها مستخدمة وسائل عديدة فى الضغط على الكتاب والمفكرين والفنانين، وفى هذه الحرب سقط نجوم من الكتاب الكبار فى فخ الدعاية والاستخدام على الجانبين وخاصة هؤلاء الذين كانوا يحسبون على اليسار فى المجتمعات الغربية . وكذلك الأمر إلى حد ما على الجانب الاشتراكى . ولقد أنفقت الولايات المتحدة أموالاً كثيرة حتى تنتصر فى هذه الحرب على الثقافة الاشتراكية خاصة فى الشرق الأوسط . ومولت إصدار مجلات ثقافية، بل ورصدت جوائز أدبية، فضلا عن دور النشر وترجمت أهم ما فى ترسانة هذه الحرب من كتب مهاجمة للفكر الاشتراكى .

وفى هذه الفترة أنشئت إذاعة أمريكية موجهة للعرب فضلا عن الإذاعات التقليدية القديمة التى كان لها تأثير قوى فى عالم الشرق الأوسط مثل إذاعة الـ "بى بى سى" فى إنجلترا و"مونت كارلو" فى فرنسا . ولكن كل هذه الأسلحة لم تنجح فى اجتذاب الجماهير العربية إلى الثقافة الليبرالية الغربية . ولعلها كانت كذلك فى سائر أنحاء العالم الثالث . وصار من الواضح أن التدخل العسكرى أصبح واردا أيضا .

وكانت حرب سنة ١٩٦٧ التى هاجمت فيها إسرائيل مصر وسوريا والأردن ونجحت فى إلحاق الهزيمة بالدول الثلاث الأسلوب الأخير الحاسم فى معركة الاستقطاب الثقافى والسياسى بطبيعة الحال . ولكن اكتشاف الاتجاهات الإسلامية السياسية التى كانت مطاردة خارج هذه الأنظمة العربية والتى راحت تهاجم التحولات فى هذه المجتمعات الثورية العربية وتدخل المعركة الثقافية من الأرضية الدينية كانت الاكتشاف الأكثر أهمية . وبالفعل لم تفتح الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة أبوابها لرجال الأصولية الإسلامية فقط بل رحبت بهم ترحيبا حماسيا .

هل هذا يفسر الوجود الكثيف للإسلاميين الذين وجدتهم فى إنجلترا ؟ ولكن الحركة الأصولية الإسلامية - حسب التسمية السائدة - كانت قد أصبحت دولية وكان تمويلها هائلا خاصة من جانب دول الخليج البترولية وبدأت هذه القيادات تكون نوعا من التنظيم الدولى . ولعلها استفادت من فكرة المنظمات الدولية الأخرى مثل "الكومينفورم" و"الكوميكون" فى العالم الاشتراكى، وجعلت لها تنظيما دوليا امتد إلى الدول الإسلامية الكبرى فى كل آسيا فضلا عن العالم العربى المستهدف أساسا . ولكن الفرصة الكبرى جاءت فى أفغانستان إذ كان الاتحاد السوفيتى قد نجح فى استقطاب الحكومات الأفغانية ولكن الجانب الآخر كان يحرض القوى المعارضة ضد النظام الأفغانى الذى كان يحتمى أيضا بالقوات الروسية .

فى ذلك الوقت تبينت الولايات المتحدة بصفة خاصة أهمية الإيديولوجية الإسلامية الدينية ضد الاتحاد السوفيتى والثقافة الاشتراكية بشكل عام . ومن المؤكد أن علاقة تنظيمية كانت

قائمة بين الإدارات المختلفة فى الولايات المتحدة وهـذه التنظيمات الدينية . وبالفعل عندما دعا الداعون الإسلاميون إلى إنقاذ أفغانستان من الحكم الشيوعى الملحد وجدوا استجابة واسعة النطاق . وفى نفس الوقت كان هناك ترحيب بالاتجاهات الإسلامية فى باكستان الجارة الكبرى لأفغانستان وهناك سمح بإنشاء تنظيم سياسى دينى نشأ فى المدارس الدينية فى باكستان واشتهر باسم "طالبان" راح يجتذب المتحمسين الإسلاميين من كل بقاع الأرض وكان منهم تنظيم القاعدة، الذى كان يلقى تأييدا أمريكيا لدرجة تسليح أعضائه وتدريبهم على الحرب الشعبية بالاتفاق مع الدول الخليجية التى كانت تتولى تمويل هذه العمليات والإنفاق على دعاتها .

وبالفعل نجح الإسلاميون سواء من تنظيم طالبان أو تنظيم القاعدة فى جعل الوجود السوفييتى فى أفغانستان مستحيلا . وفى الاستقطاب الثقافى والسياسى بين الدولتين الكبريين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كان السوفييت قد نجحوا فى أن يتحالفوا مع الهند بينما احتضنت الولايات المتحدة باكستان . وهكذا نجح الأمريكان فى استخلاص أفغانستان من السيطرة الروسية وكان عليهم أن ينتظروا حتى تعيد الثقافة الأصولية الإسلامية حالة الاستقرار الثقافى أو الإيديولوجى إلى المجتمع الأفغانى الذى عاش طويلا فى ظل ثقافة ذات طابع اشتراكى .

وكان السادات الذى رأى أن الولايات المتحدة تملك كل أوراق اللعب فى الشرق الأوسط قد اكتشف أيضا أن تقوية التيار الإسلامى السياسى داخل مصر هو الأسلوب الأنجح فى التخلص من الثقافة الاشتراكية التى انتشرت إلى حد ما فى أواخر العهد الناصرى والتى تلقفها خلفاء عبد الناصر ليبنوا عليها ثقافة حزبهم الناصرى حتى وهو لم يزل فى ضمير الغيب . افرج السادات عن المعتقلين من الإخوان المسلمين وقياداتهم وقربهم إليه وراح يشجع الاتجاهات الدينية ويضع هو نفسه علامة الصلاة فى وسط جبهته كعلامة على تدينه . وكان هذا كله متفقا مع الاستراتيجية الأمريكية فى حربها الثقافية والسياسية ضد المعسكر الاشتراكى والثقافة الاشتراكية بوجه عام .

وكانت الولايات المتحدة سعيدة جدا بهذا الاكتشاف الخطير، فها هى ذى ثقافة دينية كاملة لها قوة السحر فى التأثير على أتباعها تقاتل ثقافة الاشتراكيين وترى فيها العدو الأول، وتعمل على إسقاطها حتى بواسطة القتال العسكرى و الشهادة .

فى الغالب لم يدرك الأمريكيون إمكانيات تحول الأصولية الإسلامية . كان الهدف السريع وهو إخماد الاتجاهات الاشتراكية فى الشرق الأوسط والعالم الثالث الإسلامى بشكل عام قد أعماهم عن التفكير فى مستقبل هذه الحركة الأصولية . ربما كانوا سعداء بأن هذه الحركة طرحت نفسها وهى على اتساق معها فى شأن الملكية الخاصة ومضاعفاتها المختلفة للوصول إلى نظام رأسمالى شامل قد لا يكون ليبراليا ولكنه على أية حال لا يختلف فى القاعدة الرأسمالية الأساسية فى الاستثمار. وفى نفس الوقت كان اليمين الأمريكى قد وصل إلى السلطة بواسطة انتخاب الرئيس الأسبق ريجان الذى اهتم أيضا بالمنحى الدينى فى المجتمع الأمريكى، وكان من الطبيعى أن ترى الأجهزة الأمريكية التى تتعامل مع الظاهرة الأصولية الإسلامية أنه لا يوجد أى خطر أو فصام بين نظام الولايات المتحدة وهذه الحركة الأصولية، بل كانت الأصولية الأمريكية تنشط هى الأخرى وأظن أن إسرائيل نفسها كان يهمها أن القوى

السياسية – خاصة فى الشرق الأوسط – والتى تدخل الحلبة السياسية تنطلق أيضا على أسس دينية فمهما تكن الادعاءات بعلمانية النظام الإسرائيلى إلا أن الدين أكثر جوهرية من أى شىء آخر فى تكوين الدولة الإسرائيلية بل إن المواطنة نفسها أساسها الديانة اليهودية .

وهكذا وجدت الأصولية الاسلامية ترحيبا من التيارات الدينية الأصولية فى المجتمع الأمريكى ثم فى المجتمع الإسرائيلى .

ولكن الأصولية الإسلامية كانت أيضا تعبيرا عن الهوية والخصوصية فى مجتمعات عانت طويلا من الظاهرة الاستعمارية الأوروبية، التى جاءت إليها مميزة بالهوية المسيحية . وكانت هذه المجتمعات وهى تقاوم الاحتلال العسكرى الأجنبى تستدعى روحها الإسلامية وتتقوى بها وتتكئ على حضارة قوية استمرت تقود العالم لعدة قرون . ولذلك كثرت الدراسات الإسلامية فى التاريخ القديم .

وكانت الظروف السياسية والثقافية تساعد على نشوء ونمو الحركات الأصولية وأن تتزود بترسانة من الكتابات المعاصرة التى تبين لمتابعيها أن الإسلام كان ظهيرا لواحدة من كبريات الإمبراطوريات فى التاريخ البشرى فكيف لا يكون ظهيرا لدولة عظمى جديدة ؟

أعتقد أن الإدارات السرية الأمريكية التى كانت تتعامل مع حركة الأصولية الإسلامية فوجئت بالانتشار السريع لهذه الحركة . فقد سقط النظام الإيرانى فى أيدى أصولية إسلامية ثم انفجرت الحرب الدينية فى الاتحاد اليوغوسلافى السابق ثم نجح الإسلاميون فى إسقاط الحكم فى السودان والسيطرة عليه كما كانت النظم الخليجية تتذرع بالإسلام لتبرر سيطرتها واستحواذها على العائدات البترولية، وبالتالى تدعى أنها تطبق نظاما إسلاميا . وفى نفس الوقت اقتحم تنظيم طالبان الإسلامى أفغانستان حتى سيطر على الدولة ثم بدأ يستخرج فكرا متطرفا من خلال نصوص أو تفسيرات دينية وضعت فى عصور سابقة كانت فى الأغلب نتاج عصور تدهور المجتمعات الإسلامية .

لم يحسب الأمريكان التعارض الذى يمكن أن ينشأ بين الدولة الإسرائيلية وهؤلاء الإسلاميين . نعم إنك قد تجد فى الحركة الإسلامية المصرية التى تحاول دخول الساحة السياسية صمتا شبه كامل عن موضوع الصراع العربى الإسرائيلى وكأنه موضوع مؤجل، إلا أن التيارات الجديدة فى العالم الإسلامى التى غيرت الحركة الأصولية الإسلامية الكثير من نظمه السياسية، راحت تكسب الكثير من المواقع على مستوى الشارع حتى فى مصر . ذلك لأن هذه الحركات الأصولية وجدت نفسها منفردة بالساحة الثقافية فى العالم الإسلامى وبصفة خاصة فى الشرق الأوسط، بؤرة الصراع الذى لم يصبح صراعا عربيا إسرائيليا كما يقال، بل صراعا أمريكيا إسرائيليا ذا بعد دولى أيضا ضد الفلسطينيين والعرب .

وقد تطورت الأمور بحيث لم يعد فى الإمكان إخفاء الانحياز التام للدولة الإسرائيلية مما أدى إلى تهميش المجتمعات العربية بل واستلابها على المستوى الدولى، وهكذا ظهر التمرد العربى والإسلامى ضد هذه السلطات . وساعدت الثقافة الأصولية الإسلامية على إبراء الشارع العربى من الاغتراب وحصنته بتاريخ طويل من الإيجابيات، وبالفعل أصبح للمسلمين عالمهم الخاص وتاريخهم الخاص بعيدا عن العالم المعاصر الذى همشهم وأبعدهم ولم يقم لهم أى اعتبار . ونتيجة تفاعل الأصولية الإسلامية مع الظروف السياسية الحالية اكتسبت الحركة الكثير من الفاعليات التى كانت مقصورة فى الزمن السابق على الحركات الوطنية أو حركات

الإصلاح السياسى والاقتصادى ذات البعد الليبرالى أو الاشتراكى . وهكذا أصبحت الأصولية الإسلامية هى التى تتصدى لكل مظاهر الإجحاف التى تصيب العالم الإسلامى سواء فى أفغانستان أو العراق أو فلسطين . وهكذا أصبحت الرابطة الإسلامية هى أقوى الروابط متجاوزة الروابط الأخرى كالوطنية أو القومية ولم تتجمد هذه الأصولية عند فكر طالبان الذى كان غارقا فى التخلف بل اجتذبت كتابا ومفكرين محدثين راحوا يثرون فكر الحركات الأصولية ويطورونها، ولكنه فى جميع الأحوال صار فكرا جهاديا ضد الهجمات والمطامع الأجنبية التى اختلت فى أيديها معايير العدل والموضوعية وبصفة خاصة فيما يسمى بالصراع العربى الإسرائيلى .

وعلى الرغم من بشاعة سلوك بعض الحركات الأصولية المقاتلة فى العراق مثل ذبح المدنيين المختطفين إلا أن الإسلام أصبح موضوعا بارزا على مستوى العالم . وأصبح قوة جذب للكثيرين فى جميع أنحاء العالم . فالحق أن النظم الاجتماعية حتى فيما يمكن أن نسميه بأرقى الدول ما زالت متخلفة ومازالت التطبيقات الديمقراطية يتم التلاعب فيها بالفكرة الديمقراطية ذاتها، ومازالت غالبية الشعوب التى تعيش فى هذه الدول تنتقد الأوضاع وتحلم بعالم أفضل . وربما كان الإسلام يظهر الآن أمام الكثير من شباب العالم حتى فى الولايات المتحدة وأوروبا على أنه الدين المقاتل ودين المستضعفين والمظلومين . ولقد تولتنى حالة من الانتشاء الصوفى وأنا أتجول فى "ريجنت بارك" وهى حديقة من أكبر وأجمل حدائق مدينة لندن، وكان قد أقيم فيها مهرجان دولى إسلامى جاءت فرقه من جميع أنحاء العالم الإسلامى، وفيه قدمت الشعوب الإسلامية بعض مظاهرها الدينية مثل الرقص والغناء والابتهالات والأدعية والذكر .

كان الجزء الذى تمركزت فيه هذه العروض يقع قريبا من مسجد لندن الإسلامى الأساسى، وكانت المنصات منصوبة هنا وهناك حيث يؤدى عليها الشعراء والخطباء والمنشدون والراقصون والقراء عروضهم التى أذهلتنى فى الواقع . لقد استمعت إلى منشد باكستانى يغنى بصوت مذهل وكأنه قادم مباشرة من السماوات العليا . وطوفت بالكثير من هذه الفرق وأنا أتعرف لأول مرة على تنوعات الرؤية الإسلامية فى شعوب مختلفة الثقافات ويجمعها الإسلام فقط . وكانت أغلب هذه الفرق تنتمى إلى حركات صوفية متفرقة فى كل العالم الإسلامى .

بعد أن تعبت وانتشيت جلست على الحشيش الأخضر أنظر إلى هذه الحشود التى تتحرك حولى . كانوا من جميع أنحاء الأرض لكن كان أغلبهم من أوروبا والولايات المتحدة، شباباً من الجنسين فى الشورتات يطوفون حول الفرق ويستغرقون فى الاستمتاع بكل ما يدور حولهم، وتقرأ فى أعينهم هذه النظرة الغريبة غير الأرضية . النظرة التى تحول الإنسان إلى كائن بالغ الرقة والحساسية لا يمت إلى حياة الناس الخشنة بكل ما فيها من سلبيات، نظرة روحية خالصة .

كان الإسلام قد أصبح قوة جذب هائلة للمتعبين والحيارى والجائعين إلى الإنصاف والنافرين من برودة وفراغ عالم الماديات المتغطرس والمفتقر إلى حد العدم إلى أية قيمة روحية.

ولكن الحركة الأصولية ليست واحدة ولا تكاد تجتمع على مفهوم مشترك أو حتى متقارب ولذلك تظهر تلك الحوادث الهمجية التى نراها بين وقت وآخر وتصيب الإسلام الذى يشكل ملاذا روحيا للكثير من شعوب العالم حتى فى الدول الغربية ذاتها، تصيبه فى مقتل .

على أن كتابات كثيرة راحت تظهر على التوالى من كتاب أمريكيين أو أوروبيين . وفى عدد غير قليل من هذه الكتابات، فهم صادق لجوهر تلك الحركات الأصولية التى انفجرت فى العالم الإسلامى .

هكذا اتسعت الحركات الأصولية الإسلامية لدرجة السيطرة على الأجهزة التى شجعتها فى أول الأمر وأصبحت الولايات المتحدة التى سعت سعيا إلى تشجيع الأصولية الإسلامية وتحويلها إلى حركة سياسية هى العدو الأول لها وهى التى راحت تقود الحرب ضدها باسم الحرب ضد الإرهاب . وكما عميت هذه الأجهزة عن خطورة الاستثارات الدينية عميت الآن عن الحلول الصحيحة وهى رفع الظلم عن العالم الإسلامى .

وخلال السنوات العشر الماضية راحت الأصولية الإسلامية، أو قل المنحى الإسلامى بشكل عام، يجتذب إليه الكثيرين من الأنصار حتى من بين المثقفين . ومن خلال تجربتى فى مدينة لندن لاحظت شيئا يشبه الانتشار الانفجارى للمسلمين، وأصبح مسجد لندن الأساسى بالقرب من حديقة "ريجنت" يقيم عدة صلوات للعيد فى يوم واحد بسبب كثرة المصلين . وكنت أعالج أسنانى عند طبيب مصرى ممتاز له اهتمامات أدبية وثقافية وكانت قد مسته هذه الموجة من التدين التى انتشرت فى المجتمع البريطانى بين المسلمين وكنت قد التقيت به فى أحد الأعياد . كان قادما من صلاة العيد فى المسجد . كان منتشيا وسعيدا وقال لى صادقا وجادا : هل رأيت الملائكة حول المسجد ؟ فلما رآنى لم أجب راح يصف الملائكة الذين شاهدهم وألقى عليهم تحية الإسلام .

بالطبع من الممكن أن يكون لدى إنسان ما استعداد للتدين والإغراق فيه، ولكنى أظن أنه كان لهذه الموجة التى انتشرت أمام عينى فى مدينة لندن تأثير ما . وكنت بين يوم وآخر أسمع أن شخصا لا معا فى مجال ما قد أصابه التحول الدينى ودخل فيما يشبه الدروشة . وقد رأيت طبيبا مصريا من أب مصرى وأم إنجليزية عاش عمره كله تقريبا فى إنجلترا وتلقى تعليمه الطبى فيها وأصبح من أبرع الأطباء ومن العلماء . إذ كانت أبحاثه العلمية منتشرة فى كل مراجع الطب التى تدرس لكل الطلبة فى بريطانيا وفى أنحاء العالم المختلفة، وحكى لى أصدقائى عن تحوله المفاجئ إلى التدين . وقيل لى أن إمام المسجد القريب من حديقة "ريجنت" وكان مصريا أخبره سكرتيره أن هناك رجلا يريد أن يقابله فأمر بإدخاله فوجد أمامه هذا الطبيب الذائع الصيت وكان يريد أن يقرأ فى الدين وأن لديه شعورا قويا بأن ينهى حياته مستغرقا فى الصلاة وأداء الفروض والتعمق فى الدين .

رأيت هذا الرجل الذى كان أقرب إلى أن يكون إنجليزيا حتى فى لون بشرته وكان حديثه باللغة العربية أشبه بالأجنبى نتيجة انصرافه عن الحديث باللهجة المصرية العربية لفترة طويلة ولعله أمضى غالبية عمره لا يكاد يقرأ كتابا باللغة العربية . ورحت أتطلع إليه من طرف خفى كما يقال وهو يتحدث أو يجادل . فوجدت رجلا فيه شىء غير قليل من قلق أو قل من اكتئاب ولكنه كان مع ذلك هادئ الملامح . كان قد أصبح من زوار المسجد الدائمين، وكان حريصا على أداء صلاة الجماعة كل يوم جمعة .

وقد شغلتنى مثل هذه القصص . حقا كنت أعرف ما يمكن أن يحدثه الاضطراب النفسى لسبب من أسباب الحياة فى سلوك الإنسان وما أسهل أن تربك أزمة حياتية أعتى الرجال وأقوى العقول فلا يجد ملاذا إلا فى الدين، نشدانا لسلامة العقل وطلبا للأمان النفسى . فهل

ساقت هذا العالم الطبيب أزمة حياتية إلى الدين ؟ أم أن موجة التدين الكاسحة التى انطلقت بين المسلمين فى بريطانيا قد طالته أو قل حفزته ؟ أم هما السببان معا ؟

ولكن من الواضح أنه كانت هناك حركة وأهداف سياسية تعمل على الاستفادة من هذه الموجة وربما تعمل أيضا على ترويجها وتوسيع الاهتمام بها . وكانت الأجهزة الأمنية البريطانية تعرف بها وتشجعها . ولعل هذه الأجهزة لم تكتشف خطورة هذه الموجة العاتية إلا بعد أن ظهر كتاب سلمان رشدى "الآيات الشيطانية" وهو رواية تروى قصة مثقف هندى مسلم اندمج فى الحياة الأوروبية وتقلب فى ثقافتها محاولا التأقلم معها ولكنه فى النهاية يعجز عن ذلك فيعود إلى بلده الهند . ويروى سلمان رشدى هذه القصة التى لا تكاد تختلف فى مضمونها عن قصة "قنديل أم هاشم" ليحى حقى أو عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم أو «أوديب» لطه حسين وإن كانت مليئة بثرثرات كثيرة نقدا للحياة فى بريطانيا فضلا عن التفتيش فى التراث الإسلامى والعبث المستهتر بتواريخ بعض الشخصيات الإسلامية ذات القداسة . كان سلمان رشدى فى الواقع يفضفض عن نفسه ويطيح يمينا ويسارا ببنيان العقائد والحياة الفكرية التى تتراكم على قلب مغترب شرقى يبحث عن التوازن النفسى والفكرى . لكن هذه الرواية هيجت المسلمين وأصدر الإمام الخمينى الذى كان على رأس السلطة فى إيران بعد الثورة الإسلامية فتوى بقتل الكاتب بسبب كفره العلنى وعبثه فى المقدسات الإسلامية . وبالفعل هاجت الدنيا فى المدن البريطانية التى تضم عددا كبيرا من الجاليات الإسلامية وبدأت إنجلترا تدرك الخطورة فى التدين الثورى الذى بدأ ينتشر فى قلب المجتمع البريطانى . ولم يمض إلا قليل من السنين حتى انفجر المركز التجارى العالمى فى نيويورك وضرب البنتاجون . وبدأ التحول الكبير ضد الأصولية الإسلامية فى جميع أنحاء العالم الغربى وأصبح الحليف القديم خطرا حقيقيا على أمن واستقرار الدول التى احتضنته ونمته وساعدته على أن يلعب دورا سياسيا فى الحرب الباردة وفى الحرب الثقافية بشكل عام .

٣٩

شخصيات فى الغربة

حقا انك لا تستطيع فى بلد مثل بريطانيا أو حتى أمريكا أن توجه الصحافة إلى سياسة معينة ، ولكن العاملين فى الحقل الصحفى سواء فى الصحف أو التليفزيون ولدوا وتربوا وعاشوا فى ظل ثقافة تعلمهم أنهم من صلب ثقافة غربية خالصة جاءتهم من الثقافة اليونانية القديمة التى كانت معجزة ثقافية انبثقت من نفسها ومن غير تأثر بأية ثقافة أخرى خارجة عنها وهى معجزة من معجزات الجنس الأوروبى أو قل الغربى المتميز عن غيره من الأجناس بدليل هذا الانبثاق العبقرى للثقافة اليونانية التى زودت العالم بأعظم فلسفة والكثير من الابتكارات فى الهندسة والرياضات بشكل عام .

لقد انفرد العقل اليونانى دون سائر الأجناس البشرية بهذه العبقرية وهى التى امتدت إلى العالم الأوروبى فاكتسح العالم وتركزت فيه الاكتشافات العلمية والفنية وابتكارات التكنولوجيا، وجاءت انتصاراته الأخيرة وسيطرته على العالم استمرارا للمعجزات القديمة فى كل المجالات بما فيها المجال العسكرى التى انطلقت من حضارتهم الأم وهى الحضارة اليونانية .

هذه الفكرة سيطرت على الفكر الغربى منذ بدايات عصر النهضة ونجاح بعض المراكز الأوروبية من الإفلات من أسر الثقافة العربية المتفوقة حينذاك وبدايات خوض مجالات المعارف والأفكار والانتصارات العسكرية والسيطرة الاقتصادية والسياسية على الكثير من بلدان العالم القديم بما فى ذلك المراكز المتقدمة للحضارة الإسلامية المنحسرة .

هكذا عمد الكتاب والمثقفون الغربيون إلى هذا الفهم بسبب حركات الترسع التى راحت تمتد منذ سقوط غرناطة الأندلسية فى نهاية القرن الخامس عشر . حقا كان العالم الإسلامى يقاوم هزائمه وكان منذ أن دب الضعف فى أوصاله يسلم قياده لعناصر إسلامية شابة وفتية جاءت من أواسط آسيا سرعان ما تبلورت حول ما سيسمى بعد ذلك بالخلافة العثمانية . وفى الوقت الذى كانت الثقافة الإسلامية تتداعى وتضعف حتى فى الدولة الإسلامية الجديدة كانت الثقافة الأوروبية تتوسع فى الكثير من مجالات الحياة . وكان الانتصار الأوروبى فى حاجة إلى تبرير منطقى وجاء هذا التبرير فى شكل الاعتقاد بأن العنصر الأوروبى متميز عن العناصر البشرية الأخرى فى سائر القارات وأنه امتداد طبيعى للمعجزة اليونانية المتفردة والمتميزة منذ القديم عن سائر الثقافات .

فى فترة النهضة الأوروبية وتوسعاتها السياسية والاقتصادية انطلق الأوروبيون إلى كل القارات يدرسونها ويتجسسون على أهلها وقامت حركة كبرى عرفت بالاستشراق . وكان جوهر فكرتهم عن العالم هو أن العنصر الأوروبى متفوق بحكم طبيعته وأن من حقه بالتالى أن يقود العالم وأن يستولى على خيراته . وبمعنى آخر أن سائر البشر هم من درجة أقل ويستجاز بالنسبة لها مالا يستجاز بالنسبة للعالم الأوروبى المتميز و"المتحضر" . وكان الاستشراق هو الوجه الثقافى لحركة التوسع الاستعمارى .

كنا فى عالمنا الإسلامى المعاصر نعرف أن الاستشراق ليس علما موضوعيا بأحوال الشرق وثقافته، حتى مع احتمال وجود رجال موضوعيين من بين المستشرقين الغربيين، وأنه ليس أكثر من محاولة لاكتشاف هذا العالم لفهمه والسيطرة عليه وتبرير هذه السيطرة التى كانت تتم فقط عن طريق الحرب والقوة العسكرية تبريرا أخلاقيا أو قل ثقافيا .

نجحت الدراسات الاستشراقية التى انتشرت منذ القرن الثامن عشر ووصلت إلى قمتها فى القرن التاسع عشر، وكانت تملك من وسائل البحث الحديثة أكثر مما تملكه الأنشطة الثقافية فى العالم الإسلامى حتى أن بعض الدارسين المسلمين راحوا يعتمدون على الكثير من الدراسات الاستشراقية على أنها الأكثر ثقة والأكثر علمية ويستدلون بها ويعتبرونها مراجع علمية لهم . ولكن مفكرين إسلاميين على الناحية الأخرى بدءوا يكتشفون تحيزات هذه الدراسات وقراءاتها الخاطئة للمجتمعات الإسلامية فى حاضرها وماضيها ، فراحوا ينتقدونها منذ رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين الذين ألفوا بعض الكتب باللغة الفرنسية ردا على أغاليط وتحيزات حركة الاستشراق . ولكنها لم تنجح فى زحزحة الاتجاهات المنحازة فى حركات الاستشراق الأوروبية.

عندما انتهت المرحلة الاستعمارية أصبح من الممكن للمثقف الأوروبى أن يتوقف قليلا ويعيد النظر فى الكثير من المسلمات الأوروبية التى كان يعيش عليها . وصار لدى الكثير من الباحثين الغربيين رغبة فى الاستماع إلى الآخر وإعادة النظر فى المسيرة الأوروبية من الناحية الثقافية ولذلك جاء كتاب الفلسطينى الأمريكى إدوارد سعيد "الاستشراق" علامة فارقة بين عصرين أو قل بين مفهومين، إذ كشف عن طبيعة حركة الاستشراق وبين انحيازاتها وجردها من العلمية والموضوعية . كان قوى الحجة ودارسا من طراز رفيع حتى على المستوى الغربى. ثم لم يلبث أن ظهر باحثون غربيون يعيدون النظر فى المرحلة "الكولونيالية" ويكتشفون الكثير من الأغاليط بما فى ذلك تعبير "المعجزة اليونانية" وكيف أنه فهم مغلوط للمسيرة البشرية وظهرت كتب عديدة تبين أن فكرة هذه المعجزة لم تنشأ فى التاريخ البشرى إلا منذ توسع الحركة الاستعمارية وأنها فى الواقع غطاء فكرى ساذج لتبرير الغزوات والاحتلالات العسكرية . وأن "المعجزة" اليونانية لم تكن إلا حركة ثقافية منعكسة عن الثقافة الفرعونية والفينيقية وأن الكثير من المعارف أو الأفكار التى جاء بها فلاسفة وعلماء اليونان هى استمرار للفلسفة والعلوم والآداب التى انطلقت من هاتين الحضارتين القديمتين .

لكن هذه الحركة التصحيحية لم تصبح شعبية بعد بما زال المواطن الغربى سواء كان من سكان الولايات المتحدة أو أوروبا وأيا كان يعيش مازال يغترف من الثقافة القديمة ويرى العالم ويفكر فيه من هذه الزاوية . والكثير من الكتب التى يتعلمها تلاميذ المدارس فى أوروبا وأمريكا مليئة بالأخطاء والنظرات المغلوطة والتى تصل أحيانا إلى حد السذاجة العلمية .

على أن الموجة الجديدة من السيطرة الاستعمارية والتى تتمثل فى هذا الجنون الذى تزاوله إدارة الرئيس "جورج دابليو بوش" فى أفغانستان والعراق وفلسطين، بل وهوس التصورات الإمبراطورية، أطلق العديد من الكتب التى تعيد النغمات والمزاعم القديمة . وانطلق كتاب ودارسون وصحفيون من هذه الثقافة وبسرعة خارقة أصبحت صورة العالم الإسلامى على ما هى عليه الآن من قبح وتخلف . كنا ونحن فى بريطانيا نجد أن المذيع التليفزيونى عندما يريد أن يقدم لجمهوره رجلا يمثل العقلية الإسلامية يختار الوجوه المشوهة والأكثر قبحا والعقلية المتعصبة المنغلقة والكارهة لكل العالم ونادرا ما كان الاختيار يقع على المثقفين المسلمين الكثيرين الذين يعيشون فى بريطانيا ولديهم معرفة موضوعية بجوهر الثقافة الإسلامية .

بالطبع هناك الكثير من العنف والتخريب الذى تقوم به بعض الجماعات التى تنسب نفسها إلى الإسلام ومن الطبيعى جدا أن يقلق أى إنسان على درجة ما من الفهم والثقافة من هذا العنف المخيف . حقا إن ما يحدث فى أفغانستان والعراق وفلسطين لا يقل همجية عن هذا العنف المنسوب إلى الإسلام ولكن ما الذى يمكن أن يحدث فى هذا العالم الذى انطلقت غرائزه الحيوانية بلا أى رقيب من عقل أو ضمير ؟ ما الذى يدفع جندياً أو ضابطاً أمريكياً إلى أن يعذب الأسرى العراقيين ويمتهنهم إلى درجة تكاد تكون غير مفهومة فى سجن أبو غريب غير أنه مغسول المخ بثقافة بالغة الانحطاط حتى لو كانت مبنية على الاعتقاد بالتميز والتفوق ؟ وكيف يسمح قائد عسكرى يمتلك منظومة أخلاقية سليمة أن يغير بالطائرات والصواريخ على المدنيين فيدك بيوتهم دكا ويقتلهم وأطفالهم ونساءهم قتلا عشوائيا غير مبال ؟ وما الفرق بينه وبين ذلك الرجل الملتحى المتعصب الذى يفتى بالقتل العشوائى ؟ بل إنه من الممكن أن يلتمس المراقب الموضوعى بعض العذر لهذا الرجل المنغلق ثقافيا والذى يعتقد على أية حال أنه يدافع عن وطنه المغتصب وعن كرامته المذلة والمهانة ؟

وفى أقل من أربعة أعوام منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ أصبحت صورة الإسلام والمسلمين بالغة السوء . لقد شنت الماكينة الإعلامية الغربية الهائلة الحملة على الإسلام والمسلمين بحيث أصبح الإسلام يعنى الإرهاب . ولقد تعلمت هذه الماكينة الرهيبة أن تصيغ المعلومة فى قالب يتفق مع طبيعة العقل البشرى الذى يتلقى الصياغة ويختزنها دون محاولة لمراجعتها أو تحليلها فى الكثير من الأحيان . هكذا أمكن أن يعتقد المواطن الغربى أن الإسلام يساوى الإرهاب .

فى أوائل الثمانينيات التقيت بالمغنى المشهور "كات ستيفنز" فى مكتبة الشروق التى أنشأها فى لندن الناشر المصرى المرحوم محمد المعلم بمساهمة مالية كبيرة من مليادير سعودى . كان "ستيفنز" قد تحول إلى "يوسف إسلام" بعد دخوله فى الإسلام . وكان قد غير الكثير من صورته التى كانت مألوفة إلى شخص مرسل الذقن يرتدى جلبابا باكستانيا فوق سروال يغطيه الجلباب إلى ما بعد الركبة . وكان هذا هو الرداء المألوف للمسلمين الباكستانيين أو الهنود فى بريطانيا . وبدلا من الخفة الناتجة عن شىء من البهجة بالحياة كان رزينا ووقورا وعلى شىء من الاكتئاب . حتى أننى رحت أتساءل عما يحدثه التدين المتحمس فى الإنسان ؟

هل هذه النظرة الزاهدة والتى يمكن أن يتصورها المراقب على أنها نوع من الاكتئاب ترجع إلى أن الفكرة الجوهرية فى التدين الإسلامى وربما فى كل أشكال التدين الأخرى هى التركيز على الحياة الآخرة باعتبارها الهدف النهائى للكائن الإنسانى، بينما تتحول الحياة الحاضرة

إلى محنة إذ أنها فى الواقع امتحان لهذا الإنسان وأن مباهجها من المحتمل جدا أن تكون أسلوب غواية يستدرج بها إلى ارتكاب الخطايا التى سوف يحاسب عليها يوم القيامة ويساق من أجلها إلى جهنم وبئس القرار . وأن على الإنسان الحصيف أن يتجنب بل ويزدرى هذه المباهج حتى يفلت من الغواية وينجو من العقاب . وعليه بالتالى أن يتذرع بالزهد فى الحياة وأن يدرب نفسه عليه . وكثيرا ما تتحول هذه القضية إلى صراع دائم بين الإنسان المتدين والشيطان وعليه طول يومه أن يكون يقظا وأن يعتزل بقدر ما يستطيع .

أظن أن هذا كان نوعا من الفهم السائد بالنسبة للموقف من الحياة ومن الآخرة . حقا كانت هناك محاولات عديدة تحض على حب الحياة والإقبال عليها مستندة إلى أحاديث وسنة نبوية إلا أنها تبدو فكرة جوهرية فى تصور الإنسان المسلم ولا يقاومها أو يتغلب عليها إلا طبيعة الحياة ذاتها التى تنطلق فى الكيان الإنسانى من مصادر أخرى ليس من بينها العقل أو المنظومات الفكرية والأخلاقية الأخرى .

سألت هذا المغنى المكتئب والرائع لماذا دخل فى الإسلام . أحنى رأسه قليلا إلى الأرض وراح يفكر بعمق ثم قال لى : قبل الإسلام كنت ضائعا تقودنى غرائز الحياة فى كل اتجاه . ولم تكن المسيحية كافية لضبط نزواتى وإنقاذى من التيه الذى كنت أعيش فيه . ولكننى تبينت أن الإسلام يمسكنى منذ أن أصحو إلى أن أنام . فالواجبات التى على المسلم أن يزاولها تبدأ منذ بزوغ الفجر حتى آخر الليل، ولقد وجدت نفسى محاطا من كل جانب بهذه الواجبات والتى كانت تربطنى طول اليوم تقريبا بالله وبالتفكير فيه، وهكذا أنقذت تماما من الضياع .

لست أذكر أننى استمعت إلى مثل هذا الرأى من «كات ستيفنز» أو "يوسف إسلام" فى المناسبات المختلفة التى رأيته فيها على التليفزيون أو مناسبات أخرى لكنه – فى الحق – جعلنى أفكر كثيرا فى هذه الإجابة التى لم تخطر على ذهنى من قبل، إلا أنها تبدو صحيحة وحقيقية جدا، بالنسبة لإنسان يمتلك الكثير من أسباب الدنيا فى العالم الأوروبى الملىء بالحيوية والمعرفة أيضا، والذى يفزعه اتساع الفضاء الحياتى فى مدينة مثل لندن وبلا حدود . وكنت أعرف أن الإنسان الغارق فى الحياة إلى أذنيه تأتيه فترات من التوقف والتأمل والرغبة فى النسك . لقد مررت بمثل هذه التجربة لكننى لم أصل إلى المرحلة التى جعلت "كات ستيفنز" يتحول إلى "يوسف إسلام" الذى وهب حياته للإسلام ورعاية الفضائل التى يحض عليها . لقد أنشأ يوسف إسلام مدارس وملاجئ للأيتـام، وغير ذلك من أبواب الخير بمساعدة أثرياء المسلمين الذين لجأ إليهم .

لست أدرى ولم أحاول معرفة قوة جذب الإسلام الآن لشباب العالم بعد تلك الحوادث العاصفة وتلك الملاحقة الدعائية المهووسة ضد الإسلام والمسلمين . ولكننى لا أستبعد أن تكون قوة الجذب هذه قد ضعفت شيئا ما ولحقت بهذه الواحة الجميلة المزهرة موجات من التصحر والعواصف الرملية التى تحجب بعض مجـالات الرؤية عنها .

❖ ❖ ❖

لم تكن بريطانيا مأوى للكثيرين من المهاجرين المسلمين لأسباب سياسية بالنسبة لسكان الشرق الأوسط فقط بل أيضا للكتاب والصحفيين الذين لم يستطيعوا أن يستوعبوا التغييرات الانقلابية التى قام بها السادات وحكام عرب آخرون فى أكثر من بلد عربى . وكان من الطبيعى أن يفكر هؤلاء الصحفيون فى إنشاء صحف معارضة لأنظمتهم فى بلد حر مثل بريطانيا وكان

من السهل أن يجد هؤلاء المعارضون من يمول مشروعاتهم الصحفية من بين الأنظمة العربية المتعارضة والمتعادية، وبالفعل لم تلبث مدينة لندن أن امتلأت بالصحف العربية ونشأت جريدتان يوميتان ثم صارت ثلاثاً . بالطبع لم يتوقف الأمر على مدينة لندن العاصمة البريطانية بل امتد إلى باريس العاصمة الفرنسية الشهيرة وإلى مدن غربية أخرى خاصة بسبب أن قوانين الدول العربية المحلية كانت تجعل إنشاء جريدة فى الداخل أمرا مستحيلا . وكنت على أى حال تجد لكل دولة عربية تسعى لتوسيع نفوذها جريدة يومية أو مجلة أسبوعية، وهكذا انضمت العراق أيضا ومصر بطبيعة الحال إذ أصدرت مصر طبعة دولية فى لندن من جريدة الأهرام وفى أكثر من عاصمة أوروبية وكذلك فعلت العراق إذ أصدرت طبعة دولية من جريدة الثورة كما مولت إنشاء مجلة أسبوعية وكذلك فعلت السعودية إذ مولت جريدة يومية ثم ظهرت جريدة يومية أخرى . على أنه منذ التسعينيات بدأت هذه الدول المتنافسة تتوسع فتنشئ محطات للبث التلفزيونى أيضا .

ليس من الضرورى أن يكون تمويل هذه الصحف من الحكومات بشكل مباشر إذ قامت بالمهمة شركات إعلامية فى السعودية مثلا التى أنشأت جريدة الشرق الأوسط بواسطة شركة لها نشاط إعلامى فى المملكة السعودية . بالطبع لم تكن هذه الصحف معارضة للأنظمة التى يأتى منها أو من شركاتها الخاصة التمويل، فهى لم تصدر على أية حال من القوى المعارضة وإن كان هذا يحدث بالنسبة لصحف أو مجلات أخرى . وهكذا صارت تصدر عدة صحف يومية عربية فى مدينة لندن ربما أكثر من التى تصدر فى دولة عربية . إذ كانت تصدر جريدتان يوميتان من تمويل وإشراف شركات سعودية وكذلك طبعة عربية من جريدة الثورة العراقية وجريدة ليبية وجريدة فلسطينية وطبعة عربية من جريدة الأهرام . هذا فضلا عن المجلات . ثم ظهرت أكثر من شركة من شركات نشر الكتب باللغة العربية .

ولاشك أن هناك أسبابا كثيرة وراء هذا الانفجار الإعلامى العربى فى الدول الأوروبية وبصفة خاصة فى مدينة لندن . ولكن هذه الصحافة استفادت كثيرا من الناحية المهنية إذ كانت كل صحيفة تضم عددا كبيرا من الصحفيين العرب من أكثر من دولة عربية . فكنت تجد المصرى والسودانى والسعودى والسورى واللبنانى والمغربى ومن كل الدول العربية تقريبا . وكان على الصحيفة أن تستفيد من كل الظروف المتاحة فى تلك المدينة الـ "كوزموبوليتانية" من حيث توافر المصادر المعلوماتية، فضلا عن الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات، كما أن العاصمة البريطانية فى حد ذاتها كانت تعج بالمعلومات من كل مكان .

نعم كانت الصحف البريطانية تسبق الصحف العربية التى تصدر فى لندن بحيث كان الكثير من الأخبار أو المعلومات الصحفية تنقل فى اليوم التالى إلى الجريدة العربية . لكن مع مرور الوقت أصبحت لدى الصحف العربية فرص التسابق من أجل المعلومات الصحفية وكان مندوبوها يحضرون الاجتماعات الصحفية التى تعقد فى المقار الرسمية للحكومة البريطانية فضلاً عن الأنشطة السياسية لمختلف الدول التى تعقد فى بريطانيا . بل واستقطبت بعض الصحف عدداً من الكتاب البريطانيين فراحوا يكتبون لها . هذا التجمع القومى اللاإرادى فى جريدة واحدة أكسب الصحيفة العربية التى تصدر فى لندن طابعا قوميا وكنت تجد فى الصحيفة الواحدة عددا من الكتاب الذين جاءوا من دول عربية متعددة وهى صيغة جديدة إلى حد ما . وإن كانت بعض الصحف المحلية العربية قد بدأت تهتم بالطابع القومى مثل جريدة الأهرام التى تستكتب عددا من الكتاب العرب .

بالطبع إلى جانب ذلك كانت الجريدة اللندنية تتحرك فى مجال من الحرية أوسع، وفى وسط تقاليد صحفية متقدمة استطاعت الصحافة البريطانية فى صراعها الطويل من أجل الاستقلال وحرية التعبير أن تستحوذ عليها . ولعل أهم ما يمكن أن يلاحظه الصحفى العربى الذى جاء ليعمل فى صحيفة عربية تصدر فى لندن هو فكرة حياد الصحيفة واستهدافها للخبر الصحيح بكل الوسائل والتقنيات التى اكتسبتها الصحافة البريطانية ثم فكرة عرض وجهات النظر المختلفة بالنسبة للموضوع الواحد . إلى جانب الكثير من تقنيات الأداء الصحفى فى الصياغة والإخراج . ولكن كل هذه المكتسبات كانت محكومة بظروف الجريدة والدولة الممولة وعلاقة الشركات التى تصدرها بالنظام القائم فى بلادها . وإلى حد ما، كانت الصحيفة العربية التى تصدر فى لندن بتمويل من شركة من الشركات المحلية فى بلادها محكومة بمجموعة من المحاذير أو الحسابات فهى توزع أيضا داخل بلادها وكثيرا ما يكون التوزيع الأكبر للصحيفة داخل البلد الذى تصدر عنه . وفى نفس الوقت كانت مصادر الإعلانات تأتى من نفس النشاط الاقتصادى فى البلد الممول ونادرا ما نجحت شركات الإعلان فى أن تستجلب إعلانا بريطانيا فتوزيع هذه الصحف مازال محدودا جدا إذ إنه مقصور على العرب المقيمين فى هذا البلد المضيف، وهم قلة، إذ إن قراء الجريدة قد لا يزيدون فى أغلب الأحوال عن ألفى شخص . ولكن أغلب هذه الصحف يطبع فى أكثر من بلد أوروبى، وأحيانا فى أمريكا أيضا بحيث من الممكن أن يصل التوزيع فى مختلف بلدان العالم الغربية إلى عدة آلاف . وهو شىء مرض إلى حد ما خصوصا مع موجات الهجرة العربية التى بدأت فى الانتشار منذ خمسينيات وستينيات القرن العشرين .

على أن هذه الصحف اكتشفت أن قراءها فى دول المهجر من أكثر من بلد عربى فراحت تهتم بأخبار البلاد العربية ككل وليس الدولة التى يأتى منها التمويل والتوجيه فأعطاها هذا أيضا مزيدا من الطابع القومى العربى . وبسبب موقع الصدور أصبحت الأخبار ذات الطابع الدولى والمؤثر فى المجتمعات العربية فضلا عن الأحداث الداخلية للدولة المضيفة من الموضوعات الأساسية التى تهتم بها هذه الصحف . ولست متأكدا على أية حال من نجاح هذه الصحف فى البلد الذى يمولها ولكنى علمت من المشرفين على الإدارة والتحرير فى جريدة الشرق الأوسط الصادرة فى لندن والتى عملت فيها فترة طويلة أنها الأكثر توزيعا من جميع الصحف السعودية داخل السعودية ذاتها . وإن كنت فى إحدى زياراتى للسعودية قد لاحظت أنها تهاجم من كثيرين من القراء السعوديين وكانوا يسمونها "خضراء الدمن"، وهو وصف سيئ يدل على الكذب والانحراف الأخلاقى . ذلك أن الجريدة عند صدورها اختارت اللون الأخضر لصفحاتها الخارجية، الأوليتان والأخيرتان . والظاهر أن المجتمع السعودى من الداخل قد صار محافظا إلى الدرجة القصوى وكانت فيه الكثير من المحاذير حتى أن المرأة لم يكن يجوز لها أن تشارك فى الندوات بشكل مباشر . وأذكر أننى عندما حضرت إحدى الندوات فى مدينة الرياض، أنه كانت تأتينى أسئلة من بنوارات غير مرئية كانت تجلس وراءها نساء بعضهن من أساتذة الجامعة أو من الطبيبات أو الأديبات ويرسلن بأسئلتهن إلى المحاضرين . وكذلك كانت النساء، وربما إلى اليوم، ممنوعات من قيادة السيارات . وفى تجوالى فى جدة أو الرياض أو مكة أو المدينة كانت النساء محجبات . بشكل عام كان الإسلام بالمفهوم المحافظ جدا هو الثقافة السائدة فى المجتمع السعودى ولذلك لم يكن غريبا أن تبدو جريدة مثل الشرق الأوسط

كما لو كانت نشرة إباحية متبرجة . وعلى الرغم من ذلك فإنها كانت الأكثر توزيعا كما قيل لى من مصادر النشر ذاتها .

على أننى لم أفكر أن اعمل فى صحيفة من هذه الصحف إذ أننى جئت إلى بريطانيا تحت عنوان "ملحق صحفى" بالسفارة العراقية . فى هذه الفترة عندما لم أجد لى عملا حقيقيا رحت أدرس توجهات الأحزاب السياسية البريطانية بالنسبة لقضايا الشرق الأوسط، وظلت الأمور على هذا الحال إلى أن فوجئت بوقف مرتبى بحجة إدارية لم أفهمها حينذاك .

قبل أن يحدث هذا كنت قد تعرفت بأستاذ مصرى كان يرأس قسم التاريخ الإسلامى فى جامعة "إكستر" هو الدكتور محمد عبد الحى شعبان . كانت مقابلتى له لأول مرة طريفة إلى حد ما، إذ كانت هناك ندوة فكرية عقدها مركز الدراسات العربية الذى كنت عضوًا فى مجلس إدارته . وكانت الندوة فى إحدى قاعات فندق إنجليزى فى العاصمة البريطانية . كنت أجلس فى اللوبى مع بعض الأصدقاء كان منهم سفير بريطانى سابق فى السعودية على ما أذكر، وكانت ابنته الشابة قد انضمت إلينا، وكان معنا الدكتور إبراهيم صقر الذى كان أستاذا فى جامعة القاهرة، وكان قد جاء إلى بريطانيا للمشاركة فى هذا المؤتمر .

فى هذه اللحظة دخل رجل متوسط الطول أقرب إلى القصر، له شعر أشيب طويل ناعم ومسترسل إلى الخلف شيئا ما واتجه مباشرة إلى البار وجلس يخاطب البارمان الذى راح يعد له كوبا مليئا بالثلج من خمر ما . حملق إبراهيم صقر فى الرجل ثم هب واقفا واتجه إلى الرجل صائحا بترحاب : عبد الحى ! فنزل الرجل من مقعده العالى وسرعان ما احتضن أحدهما الآخر ودارت القبلات لهذه المفاجأة الطيبة .

سحبه صقر وجاء به إلينا وقدمه لنا فرحبنا به بالطبع وكان السفير البريطانى السابق يعمل أستاذا بجامعة "إكستر" فى القسم الذى يرأسه عبد الحى شعبان وكانت مفاجأة ظريفة ثانية . عندما جلس الرجل إلى جوارى رحت أسأله عن مجال تخصصه وعن الكتب التى أصدرها . كان الرجل نافرا إلى حد الضجر فقال لى بشىء من الزراية والغضب ما معناه أننى إذا كنت مهتما بالتاريخ الإسلامى فما على إلا أن أذهب إلى المكتبات أفتش فيها وإننى بالتأكيد سوف أجد كتبه . كان ضجرا إلى حد النفور وقد تبينت بعد ذلك أن هذا يحدث كثيرا للمتخصصين الذين يعيشون فى المجتمعات الغربية ويلتقون ببعض أدعياء الثقافة من المصريين أو العرب فيسألونهم أسئلة سخيفة ليس لها إلا مثل هذا الرد النافر . على أننى لم أغضب من هذا الرد الجاف إذ كان فيه شىء من الفكاهة، فها هو ذا رجل نافر ومبتعد إلى حد الغرور ويعتقد أنه فى غنى عن أن يعرف أحد من هؤلاء المصريين الأدعياء فى الغالب شيئا عن نشاطه العلمى . على أننى أردفت قائلا أننى أسأله لأن لى اهتمامات بالتاريخ الإسلامى وأننى قد كتبت بالفعل كتابا فى التاريخ الإسلامى هو "اليمين واليسار فى الإسلام" فإذا به يلتفت إلى صائحا : أنت أحمد عباس صالح ؟ فلما أجبته بالإيجاب قال لى لماذا لم تقل ذلك من قبل .

منذ هذه اللحظة ربطتنا صداقة قوية . فهو أيضا نموذج من نماذج الغضب المهاجر فقد كان سليل رجل دين من علماء الأزهر وكان أبوه ضريرا وقد أدخله الكلية الحربية وفى السنة الثانية قبل التخرج كان قد ضجر تماما من دراسته العسكرية فترك الجيش وراح يشرف على

العمل فى بضعة فدادين كان يملكها أبوه فى قرية فى محافظة البحيرة وأخيرا قرر أن يدخل كلية الآداب وأن يختار دراسة اللغات الشرقية ثم حصل على درجة الليسانس .

كان عبد الحى شعبان طالبا فى الكلية الحربية المصرية من دفعة شمس بدران ومحمد أبو نار . وكان له أقرباء فى الجيش أيضا إذ كان ابن خالته هو الرجل الذى أصبح فيما بعد المشير أبو غزالة وصار وزيرا للدفاع فضلا عن قريب آخر كان من ضباط الصف الثانى للضباط الأحرار . لم يكن شعبان راضيا عن الأوضاع لأسباب كثيرة على أنه بطبيعته كان فاقد الصبر سريع الغضب واستطاع - على أية حال - أن يقنع أحد أقربائه الذى كان الرجل الثانى فى وزارة التربية والتعليم أن يبعث به إلى الولايات المتحدة ملحقا ثقافيا فى السفارة المصرية .

حكى لى كيف ترك مصر وعن حالته النفسية والعاطفية عندما تحركت به السفينة المسافرة إلى نيويورك من ميناء الإسكندرية حتى أنه لم يرق قلبه أو يشعر بأى انفعال وهو يترك الإسكندرية بل لعله كان أقرب إلى الهارب النافر منه إلى الوطنى المغادر لوطنه . ربما كانت صلته الوثيقة بالجيش حيث كان قد رسم حياته على أن يكون ضابطا عسكريا، فضلا عن أقاربه المقربين الذين كانوا ضباطا بالجيش، قد أوقفته على شىء من الأخطاء أو التجاوزات التى لم يحبها فأوصلته إلى هذا الغضب الذى من الممكن أن يختلط بشىء من الكراهية .

لم يكن الرجل يمينيا أو معاكسا لاتجاهات ثورة الضباط الأحرار، فهو ينحدر من نفس الطبقة التى ينحدر منها غالبية الضباط الأحرار الحاكمين، لكن يبدو أنه كانت له ملاحظاته الخاصة على بعض رجالها أو شىء من النقد فى تفاصيل العمل السياسى لضباط الثورة .

كان شعبان قد قضى حوالى عشر سنوات فى الولايات المتحدة ملحقا ثقافيا أولا ثم محاضرا فى جامعة "هارفارد" التى حصل منها على الدكتوراه عن رسالته حول الثورة العباسية تحت إشراف المستشرق الشهير "هاملتون جب" . وفى هذه الفترة التقى بالكثيرين من الطلبة المصريين والعرب وربطته صداقة قوية بالكثيرين منهم ومن الناحية الأكاديمية كان محظوظا بغير شك، إذ درس على هذا الرجل الذى يعتبر من أهم المستشرقين وأكثرهم أمانة علمية واجتهادا فى فهم التاريخ الإسلامى .

وكان - فيما أعتقد - أول من اهتم بفهم مدلولات الألفاظ العربية فى الأزمنة العربية المختلفة، إذ تبين أن اللفظ الواحد قد يتغير معناه من زمن إلى آخر، وكانت اهتماماته اللغوية مفتاحا لتصحيح الكثير من المفاهيم كما كانت اهتماماته بالتفاصيل الحياتية سببا فى وضوح قراءاته لهذا التاريخ، وكان أشبه بأتباع مدرسة الحوليات التى ازدهرت فى النصف الثانى من القرن العشرين على يدى المؤرخ الفرنسى "فيرناند برودل" .

ولذلك جاءت إسهامات شعبان فى كتبه الثلاثة وهى مركزة على تفاصيل الحياة فى العصر الذى يكتب عنه، من حيث أنواع الضرائب والأنشطة الاقتصادية وظروف الحياة بشكل عام، بحيث تنبض الفترة المدروسة بالحياة . وقد قرأت بالفعل كتابه الأول عن "الثورة العباسية"، وقد أزاح من رأسه المقولات الكبرى مثل الحروب والخلافات السياسية ليركز على تفاصيل الحياة اليومية . وهى دراسة صعبة بالطبع لأنها تبحث عن التفاصيل فى كل ما يمكن أن يكون وثيقة أو سندا، ولكنه فى النهاية، وكما قلت له، كان يمسك بالتاريخ من أحشائه ومن الغرائز الدنيا المتعلقة بالحياة كالمأكل والمشرب والعلاقة بالدولة والصراع من أجل الكسب والعمل اليومى .

ولقد اختلفت معه فى تسمية الانقلاب العباسى بأنه ثورة ورحت أتجادل معه فى مفهوم الثورة باعتبارها نقلة نوعية من نظام سياسى إلى نظام آخر كالانتقال من النظام الإقطاعى مثلا إلى النظام الرأسمالى أو من هذا الأخير إلى النظام الاشتراكى وهى رؤية ماركسية خالصة ولست أظن أن هاملتون جب كان مهتما بها وبالتالى تلاميذه، على أننى كنت أعتقد ومازلت أنها رؤية صحيحة أو توصيف صحيح . وبالتالى فإن الانقلاب العباسى الذى نقل السلطة من الأمويين إلى بنى العباس لم يكن ثورة أو تغييرا فى نظام العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الإسلامية .

قد لا يكون شعبان قد تناول الأفكار الرئيسية التى تذرعت بها القوى المتصارعة فى عملها السياسى وفى استجلاب الأنصار لكن اهتمامه بالتفاصيل كان يعطى القارئ فرصة كبيرة لإدراك الأسباب التى أدت إلى هذه الرؤية السياسية أو الدينية أو تلك فى الفترة المدروسة . وكان الكتاب عملا جيدا واقتضى جهدا كبيرا وكانت رؤيته رؤية واقعية صرفاً لا يكاد يجد فيها القارئ أية لمسة عاطفية أو ميولا روحية إن صحت العبارة . وربما كانت هذه هى ميزة الكتاب .

وكان شعبان يعلم أنه يكتب التاريخ الإسلامى بطريقة غير مسبوقة وكان يعتقد أنه ينفرد بهذا النظر "العلمى" بعيدا عن الكتابات السابقة، حتى كتب طه حسين العظيمة عن الفتنة الكبرى، والتى كنت ومازلت أعتبرها من أحسن الاجتهادات التى تناولت هذا الموضوع حتى الآن . وكان شعبان يعتقد أن طه حسين رجل من رجال الأدب أتى إلى التاريخ من باب الهواية وليس من باب الاحتراف العلمى .

كتب شعبان كتبه الثلاثة باللغة الإنجليزية، إذ كان يحاضر فى مادته هذه فى جامعة "هارفارد"، وكان قد التقى فى مكتبة الجامعة بفتاة أسكتلندية فأحبها وتزوجها . وعندما انتهى عقده مع الجامعة تقدم إلى جامعة لندن وقبل للعمل بها، ثم سرعان ما وجد وظيفة أستاذ للتاريخ الإسلامى فى جامعة "إكستر"، تلك المدينة الشهيرة التى تقع فى أخصب منطقة فى الدولة البريطانية (مقاطعة ديفون)، واشترى بيتا هناك . وأقام هو وزوجته وابنه، الذى كان قد التحق بجامعة لندن فى الفترة التى تعرفت فيها على هذه العائلة المثيرة للانتباه .

تبادلنا الزيارات وكان إذا قدم إلى لندن جاء إلى وكنت أصحب بعضا من أسرتى وأذهب إليه فى إكستر فى المناسبات المختلفة . وكان يملك مكتبة رائعة تحتوى على أهم وأحدث المراجع فى تخصصه فضلا عن الشئون الأخرى . وكان مازال رئيسا لقسم الدراسات الشرقية فى هذه الجامعة العتيدة، وكان أستاذ كرسى وهى وظيفة لا تمنح إلا للأساتذة الذى قدموا إضافات إلى المادة التى تخصصوا فيها .

كان قد كف عن الكتابة، وكان قد ظهر له تلميذ من العرب عمل على ترجمة كتبه الثلاثة إلى اللغة العربية، ولكن العالم العربى ظل لا يعرف عنه إلا القليل جدا . إذ كان هو بطبعه نافرا ولا يسعى إلى الإعلان عن نفسه . وقد وجدت أنه بالفعل لا يحب ولا يهتم بأن يوسع دائرة علاقاته الاجتماعية، على الرغم من أنه كان بالفعل مضيافا عندما يحدث ذلك، كما كان حديثه جذابا ولا ينطلق إلا عن معرفة يعتقد أنها صحيحة . ولذلك كان حواره حادا أحيانا، خاصة إذا تناول فكرة، أو معلومة من التى يعتقد أنها صحيحة .

وقد حاولت أن أعرف كيف يكتب، فوجدته يظل يقرأ فى وثائقه ومراجعه حول الموضوع الذى يكتب فيه، حتى إذا استوفى كل ما يبحث عنه وتكونت لديه رؤية يرتاح إليها يجلس إلى

مكتبه ويتدفق فى الكتابة إلى أن ينتهى الكتاب . ولعله يكون قد حدد بنية الكتاب من الفصول ونظام تتابعها ثم ينطلق بعد ذلك .

وكان نظام معيشته يجعله بعيدا عن أن تكون له اتصالات اجتماعية . فهو يبدأ فى تناول عشائه وشرابه من السادسة حتى إذا أتمت الساعة السابعة يكون النوم قد بدأ يداعب عينيه، وفى الثامنة مساء يأوى إلى فراشه، وبالطبع يصحو فى الثالثة أو الرابعة صباحا فيقضى هذا الوقت فى القراءة، إذ لا يكون هناك أية فرصة لعمل أى شىء آخر . حتى إذا كانت الساعة الثامنة صباحا يذهب إلى مكتبه فى الجامعة ويبدأ العمل حتى الخامسة مساء، وهكذا دواليك. لم يكن لديه وقت إذن ليلتقى بأحد، ولذلك عندما كنا نذهب معًا لتلبية دعوة إلى مؤتمر من المؤتمرات كنت أحرص على أن أصحبه معى ملحا عليه فى ذلك عندما يدعونا أحد من المسئولين عن المؤتمر دعوة خاصة . وكنت أجد صعوبة فى إقناعه بالحضور .

وفى أحد تلك الأيام وكنت قد تركته فى غرفته فى الفندق، تذكرت أنه يجلس وحيدا فأسرعت للاتصال به ودعوته للنزول والالتقاء بزملاء المؤتمر فرفض . وعندما ناقشته، وجدته حقا يسعد بالجلوس منفردا إلى نفسه . بالفعل، كان متوحدا إلى أقصى حد، وكانت له عادات لا يحب أن يخالفها مهما تكن الظروف . ولعله لهذا السبب كانت صداقاته المحدودة جدا قوية.

ومن تصرفاته الغريبة أنه أثناء بداية صداقتنا عرف أننى صديق للدكتور شكرى محمد عياد منذ الصبا الباكر، وكان قد تعرف على شكرى أثناء الدراسة فى الولايات المتحدة وتعلق به وأصبح من أصدقائه المقربين، فإذا به يسأله عنى، حتى يطمئن إلى الاستمرار فى علاقته بى . وكان هو الذى قال لى ذلك بعد نمو هذه العلاقة نموا طيبا، وكأنه كان فى حاجة إلى شهادة حسن سير وسلوك من شخص موثوق . وكان - على أى حال - يعرف غالبية المصريين والعرب الذين كانوا يدرسون فى الولايات المتحدة أثناء وجوده هناك وبالتالى كان يعرف الكثيرين ممن أعرفهم، مثل تحسين بشير الذى صار المتحدث الرسمى للرئيس السادات ومثل لويس عوض وآخرين . وكما سألهم عنى سألتهم عنه فكانت إجابتهم إيجابية .

كان نموذجا من الشخصيات الملفتة للنظر، وكان يجنح إلى اليسار إلى حد ما، وكان فى الانتخابات البريطانية ينتخب حزب العمال بشكل دائم، ولكنه حارب أستاذا مصريا كان يريد أن ينضم للعمل بجامعة إكستر حربا شعواء واتهمه بالشيوعية حتى يقنع اللجنة الإنجليزية بأنه خطر على الجامعة، ولكن اللجنة اختارت هذا الشخص وعمل فى القسم على الرغم من معارضته . وكان هو الذى روى لى هذه القصة . وعندما عاتبته وجدت أن الأمر متعلق بنفوره الشخصى من هذا الأستاذ أكثر من معارضته فى اتجاهاته الفكرية . ولعلى أدركت بعد ذلك أنه منذ تكوينه الأول رجل عملى جدا ولا يكاد يقيم للنظر العقلى إلا القليل من الاحترام .

وكان يعتبر أن كل شىء يكمن فى الواقع العملى، وأن كل المفاتيح هناك بما فى ذلك المنظومات الأخلاقية التى كانت منبثقة من هذا الواقع وتتبعه . وقلما صادفت فى حياتى رجلا أبعد ما يكون عن المثالية مثله .

هل هذه البداية هى التى أثرت على منهجه فى كتابة التاريخ أكثر من توجيهات أستاذه «هاملتون جب» أو مدرسة الحوليات الفرنسية الحديثة ؟ لست أدرى . فهو فى الحقيقة كان صديقا وفيا يقف إلى جانب صديقه حتى فيما يمكن أن يكون خطرا على مصالحه الشخصية.

وفى أثناء عمله كأستاذ ورئيس لقسم الدراسات الشرقية، درس على يديه عدد من الطلبة العرب الخليجيين، الذين أشرف على رسائلهم للدكتوراه وكانت علاقتهم به جيدة حتى بعد أن أنهوا الدراسة على يديه، على أنه اكتشف اتجاه الدول العربية إلى إقامة الندوات السياسية في لندن والتى كانت فى الواقع نوعا من الاستخبار عن الاتجاهات الدولية بالنسبة للبلد الذى يقيم هذه الندوات . وقد جعلنى أقنع السفارة العراقية بأن يعقد بعض هذه الندوات والتى كان يقترح موضوعاتها من خلال ما يعتقد أنه موضع اهتمام هذه الدولة . وكان منظم الندوة يحدد ميزانية معينة لتكاليفها ويحصل على هذه المبالغ قبل أن يمضى فى إجراءات عقدها وبالفعل كان يحصل على المبلغ بعد مناقشة مع المسئول العراقى أو الخليجى ويعقد الندوة بالاتفاق مع إدارة الجامعة .

من الناحية الموضوعية لم يكن فى هذا شيء من الضرر أو المخالفة الأخلاقية وإن كان لمنظم الندوة نصيب من المال فى النهاية، وهو - على أى حال - الذى يضع جدول المناقشات ويختار المشاركين من المختصين وهو الذى سيبلور خلاصة ودلائل ما جرى فى الندوة . ومن الناحية السياسية كان المشاركون من الأجانب، وهم فى الغالب من أساتذة الجامعات أو من الباحثين الذين تعتمد عليهم بلادهم فى فهم وتحليل ما يدور فى منطقة الشرق الأوسط . وغالبا ما يكون المشاركون الأجانب سواء من الإنجليز أو غيرهم لهم صلة بمكاتب صناعة القرار فى هذا البلد الغربى أو ذاك، وبهذه الطريقة يتم حوار غير مباشر بين تلك الدولة العربية التى أقامت الندوة وبين الدولة أو الدول الغربية المشاركة .

ومند الثمانينيات وموضوعات الشرق الأوسط تتصدر أغلب الموضوعات التى تجرى وراءها مراكز الأبحاث فى أوروبا والولايات المتحدة . وقد رأيت طوال إقامتى بلندن كيف راحت تتسع دائرة الباحثين الذين يخدمون فى هذا المجال سواء من العرب أو الغربيين، وكثيرا ما كانت الجامعات الغربية تضم أقساما متخصصة أكاديمية فى الدراسات الشرقية وكان من مهامها أن تدرس قضايا الشرق الأوسط على أرض الواقع ومن بين أركان هذا الواقع تلك الندوات التى تجمع المتخصصين فى شئون هذه المنطقة من العرب والغربيين . وعلى الرغم من المصالح التى تكمن وراء هذه الندوات وربما توجه موضوعات الحوار فيها إلا أنها فى النهاية من الممكن أن تعطى لدارس أوراقها ومناقشاتها صورة لما يدور فى رءوس مفكريها وحكامها . وهو نوع من المعلوماتية لا بأس به تعلمته الدول العربية ولست أدرى إلى أى مدى استفادت منه .

وبالنسبة لشخص مثلى، كنت أجد نفسى مشاركا فى مثل هذه الندوات ولو بالاستماع وأتعرف على هذا المجال الواسع الذى يدور فيه جدل حار حول الشرق الأوسط، فأعرف إلى أى مدى أصبح الشرق الأوسط أكثر أهمية مما كان عليه فى أى وقت مضى . هل بسبب البترول ؟ هل بسبب اهتمامات الحركة الصهيونية واستراتيجيتها التوسعية ؟ هل بسبب الضغوط التى تشعر بها الأنظمة العربية والتى تأتيها من القوى الكبرى الخارجية ؟

على أننى التقيت وجها لوجه مع أسماء لامعة كنت أقرأ كتبها وجلست إليهم ولعلى اختبرت من هذه اللقاءات مدى مصداقيتهم أو علمهم بأحوالنا .

ومهما يكن من أمر فإن هذا النشاط الواسع من الجانبين : العرب والغرب، نرى منه أن العرب لم يكونوا مغيبين تماما عما يدور فى رءوس القوى صاحبة المصلحة فى المنطقة . حقا لقد ازدهرت هذه الحركة فى الثمانينيات والتسعينيات ولكنها فيما أظن هبطت بعد ذلك . فهل

ضعفت المقاومة العربية ؟ هل استوعبتهم الاستراتيجيات الغربية والإسرائيلية وبالتالى أصبحت صفحتهم مقروءة بوضوح ؟

كان أيضا مركز الدراسات العربية الذى كنت واحدا من الذين فكروا فى إنشائه فى مدينة لندن يقوم بهذا الدور وكنت فى بعض الأحيان أشارك فى ندواته بالحضور، وكانت لندن بشكل عام قد تحولت إلى موقع أساسى يتم فيه استقراء كل شئون الشرق الأوسط .

وشيئا فشيئا بدأت اكتشف ميول شعبان السياسية ورغبته فى الإسهام فى العمل السياسى فى المنطقة ولكن روحه الأكاديمية كانت تقوده إلى قياسات ليست صحيحة تماما . وربما كان لديه اعتقاد بثبات تكوين الجنس البشرى وأن هناك ثوابت لا يمكن أن يغيرها تطور المجتمعات أو نمو الأفكار واتساع المعلومات، مثل الصراعات على السلطة سواء كان هذا الصراع بين ملوك أو مشايخ أو جمهوريين . ولعله كان يعتقد أن ما فعله "ماكبث" فى مسرحية شكسبير المشهورة من قتل قريبه الملك ما زال قائما إلى اليوم عندما يحتدم صراع من هذا النوع . ولعله كان يرى أن قتل الخصوم فى الصراع على السلطة من الثوابت بالنسبة لسلوك الجنس البشرى حتى مع تغير الظروف التاريخية والثقافية .

والحق أننى أقف مترددا كثيرا أمام أشياء عديدة كان يعتبرها شعبان الواقعى إلى حد مخيف شيئا طبيعيا . وكانت الثروة والسلطة هى الحقائق الثابتة بالنسبة له وهى التى تقود تاريخ الجنس البشرى سواء فى الأزمنة القديمة أو الحديثة أما النزعات الفكرية أو الميول الأخلاقية فهى زخرف خارجى وليست أكثر من قناع تختفى وراءه تلك النزعات الأصيلة نحو السلطة والثروة .

وفى أوائل الثمانينيات وجدتنى ألتقى مرة أخرى بشمس بدران الذى كان وزيرا للدفاع أثناء حرب سنة ١٩٦٧، والذى كنت أعرفه من مصر عن طريق زميله وصديقه محمد أبو نار . كان فى ذلك الوقت أوسع المسئولين نفوذا فى السلطة المصرية إذ كان يحسب تارة على الرئيس جمال عبد الناصر كما كان يحسب أحيانا على عبد الحكيم عامر، فكان يستمد سلطته من الرجلين معا اللذين كانا يملكان كل السلطة تقريبا .

كان الرجل قد حوكم بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وما حدث فيها من انشقاق بين المشير عامر وبين الرئيس جمال عبد الناصر والذى انتهى بانتحار عامر ومحاكمة شمس بدران وبعض أتباع المشير والحكم بسجنه . على أن السادات عندما تسلم السلطة أفرج عنه قبل أن يتم مدة السجن المحكوم عليه بها وتركه يسافر إلى إنجلترا حيث استقر هناك، وعاش حياة شبه سرية بسبب ثارات الإخوان المسلمين ضده إذ كان هو الذى قام بتصفية الإخوان المسلمين، خاصة فى حركة الستينيات، والتى أعدم فى منتصفها سيد قطب المنظر الرئيسى للفكر الإسلامى السياسى المتطرف، والذى انتشر فى الساحات الإسلامية حتى اليوم .

❖ ❖ ❖

٤٠

شمس بدران يتاجر فى الجبنة

لست أذكر بالضبط الطريقة التى التقيت بها شمس بدران فى لندن، ولكن الأغلب أن الذى جمعنا كان عبد الحى شعبان، الذى كان من دفعة بدران فى الكلية الحربية كما سبق القول، وكانا صديقين بطبيعة الحال . وغالبا ما كنا نلتقى عند شعبان فى بيته فى مدينة إكستر البريطانية . وكان بدران قد بدأ عملا فى إنجلترا لعله كان الاتجار فى الأسمدة مع شريك بريطانى أو شيئا من هذا القبيل . وقد لاحظت أنه يعيش حياة أبعد ما تكون عن الثراء، ولعلى فهمت أن بعض أصدقائه المصريين قد زودوه بشىء من رأسمال اشتغل به فى تأسيس مصنع صغير للسماد فى مدينة بريطانية ساحلية، ولكن البلدية الإنجليزية هدمت هذا المصنع لأنه لم يأخذ ترخيصا بالمدخنة التى تبث دخانها فى سماء هذه المدينة، فاضطر إلى أن ينتقل إلى عمل آخر . وكان له شقة متواضعة فى حى "بتنى" الإنجليزى من ضواحى لندن ولكنه كان يعيش على أية حال ويملك سيارة رينو صغيرة سافرت بها معه إلى شعبان فى إكستر أكثر من مرة .

لم يكن الرجل ثريا بأى حال من الأحوال، بل كان أقرب إلى أن يكون مضيقا عليه فى الرزق، ولهذا السبب فاتحنى شعبان بينى وبينه عما إذا كان من الممكن أن أساعده فى أن أجعل العراقيين يدعونه إلى العراق ليطرح عليهم مشروعا من مشاريعه التجارية التى يتعيش منها . وبالفعل فاتحت السفير العراقى أو القائم بأعماله، لا أذكر بالضبط، ووُجِّهت إليه الدعوة وسافر إلى العراق .

ولست أدرى كم من الوقت قضى شمس بدران فى العراق، ولكنه على أى حال لم يزد فيما أذكر عن أسبوعين . كان اسم بدران بالنسبة لهذه القيادة العراقية لامعا، ولعله كان يمثل جانبًا من أسرار القيادة المصرية، التى كانوا يريدون أن يعرفوا تفاصيلها ليستفيدوا منها . وكان صدام حسين فى القاهرة طالبا فى كلية الحقوق المصرية عندما بدأ اسم شمس بدران فى الصعود . ولا أعرف بالضبط ماذا كانوا يتوقعون منه، ولكنهم بشكل ما لم يتربوا فى مجتمع ديمقراطى، إذ حافظ النظام الملكى العراقى قبل الثورة العراقية على المظاهر البراقة واحتجاب الشخصيات الكبرى وراء الحجّاب والألقاب الفاخرة . وربما كان ذلك من التراث التركى، إذ كان العراق إحدى الولايات التركية القريبة لفترة طويلة وكان له ممثلون منتخبون فى مجلس "المبعوثان" التركى . حقا كانت مصر تعانى من هذه الثقافة التى تضفى على الشخصيات

الحاكمة هالات من الاحترام والتبجيل المبالغ فيهما، وتستعمل الألفاظ الدالة على هذه المعانى مما لا يقل عن تلك التى يستعملها العراقيون ولكنى - مع ذلك - أظن أنهم أكثر مبالغة فى إظهار الولاء والخضوع من المصريين . هل لأن الفترة الملكية فى مصر كان فيها شىء من التحدى السياسى من الزعامات الشعبية الأخرى أكثر مما حدث فى العراق ؟ إن مصر على أية حال عرفت شيئا من النظام الديمقراطى، وكان الزعماء الوطنيون قد جاءوا إلى السلطة من قلب الأسر الريفية فى الغالب . المهم أننى أتصور أن القيادة العراقية كانت تنظر إلى شمس بدران على أنه سلطان ذو مهابة خاصة، وأنه على الرغم من تغير مكانته بل ومن حبسه من جانب السلطات نفسها، فإنه سيكون الرجل القوى الشامخ المهيب . ولعلهم توقعوا أيضا أن يكون بالغ الثراء، فعادة ما كان المنصب فى هذه الأزمنة وفى هذه الثقافة يعنى الثراء الفاحش . على أنهم رأوا أمامهم رجلا عاديا جدا جاء يبحث عن "بيزنيس"، ولست أذكر من الذى قال لى أن بدران جاء ليبحث معنا عن مشروع لإنشاء مصنع للجبنة فى لندن، ولعله طه ياسين رمضان . على أن بدران روى لى عن بعض مقابلاته هناك ومنها لقاؤه بصدام حسين الذى عامله بشىء من الفطرسة وقد رد عليه بدران بنفس السلوك .

كانت الزيارة فاشلة تماما . لعلهم توقعوا أن يتحدث إليهم فى الأمور السياسية وأن يعمل معهم بصورة أو بأخرى فى أنشطتهم السياسية التى كانوا يتوسعون فيها فى ذلك الوقت باعتبارهم ورثة جمال عبد الناصر والثورة المصرية وتوجهاتها القومية . وحين وجدوا أنه جاء ليبحث فى موضوع الجبنة أصيبوا بخيبة أمل . ذلك أن سمعة شمس بدران فى تصفيته للإخوان المسلمين والقوى الراديكالية الأخرى كانت تجعلهم يتصورونه فى صورة مغايرة ولعلهم توقعوا أنه جاء ليتعامل معهم سياسيا .

بالطبع كنت قد سمعت عن شمس بدران الشىء الكثير حتى من صديقه الأثير محمد أبو نار ولعل أحد الأسباب التى جعلتنى أقابله هى رغبة كامنة لأن أعرف عن قرب كيف يمكن أن يكون الإنسان قاسيا وعنيفا وما هى الكوامن الداخلية التى يتفجر منها هذا الجحيم البشرى . كنت أتطلع إليه وهو يتحدث سواء معى أو مع الآخرين لعلى اقتنص تلك النظرة الواشية بما ينطوى عليه الإنسان من قسوة وبطش . كل ما وجدته هو لمحة عابرة لا تكاد تتوقف عند المنابع التى أبحث عنها . وكان مقتنعا على أية حال بأنه لم يرتكب شيئا غير عادى وأنه كان فى الواقع يحمى الثورة والنظام .

على أننى من الناحية الأخرى اكتشفت أنه كان صديقا شخصيا للموسيقى والمغنى الشهير محمد عبد الوهاب، وأن الأخير كان يسهر فى بيته وكثيرا ما كان عبد الوهاب يدندن ببعض أغانيه على العود فى هذه السهرات، بينما كان شمس بدران يسجلها . وبالفعل أعطانى تسجيلا أو اثنين يتجلى فيهما صوت عبد الوهاب مع العود فقط وبعيدا عن موسيقى الأوركسترا أو التخت .

وعلى الرغم من أننا تحدثنا كثيرا فى موضوعات متعددة، إلا أننى لم أفتح معه موضوعا من الموضوعات الشائكة . ولعله بدأ يفكر فى الاستفادة منى لكتابة مذكراته وكان هو لم يتكلم بعد عن الفترات الخطيرة التى عاشها فى تاريخ السياسة المصرية . ربما حدثنى عن الفترة التى تحصن فيها المشير عامر فى بيته فى الجيزة وكان هو معه بعد حرب سنة ١٩٦٧ التى هزم فيها الجيش المصرى بقيادة الرجلين، إذ كان المشير عامر هو القائد العام بينما كان بدران

وزيرا للحربية . وفى سيارته ونحن عائدون من زيارة لعبد الحى شعبان حدثنى عن رغبته فى كتابة مذكراته . ولعلى سرحت فيما يمكن أن تنطوى عليه هذه المذكرات من معلومات بالغة الخطورة وما زالت مخفية . وكانت هناك شائعات بأن أنصار المشير عامر قد استطاعوا أن يهربوا وثائق ذات شأن عن تاريخ وتفاصيل الخصام بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، وأن الخلاف كان سياسيا وليس صراعا على السلطة وأن شمس بدران يملك هذا الملف الخطير .

من الناحية الصحفية كان هذا كسبا كبيرا وبالفعل رحت أناقش معه الطرق التى يمكن أن تظهر بها هذه المذكرات . كان هو يريد أن يبيعها أولا لجريدة إنجليزية وتنشر فيها ثم ينشرها بعد ذلك أو فى نفس الوقت فى جريدة عربية . والحق أن هذا كان ممكنا، وخاصة بالنسبة للنشر فى إحدى الصحف اليومية البريطانية، ولكنه كان قد تأخر قليلا . أما بالنسبة للصحف العربية فلم يكن هذا النشر متأخرا بعد . كنت فى ذلك الوقت أكتب فى جريدة الشرق الأوسط السعودية، ووعدته بأننى سأفاتح رئيس التحرير فى ذلك ولكن علينا أن نختار الجريدة الإنجليزية التى نريد أن ننشر فيها المذكرات . وسألته بالمناسبة عن الوثائق التى لديه وكان فى ذهنى بالطبع أسطورة هذا الملف السرى الخطير الذى أمكن تهريبه من مصر . ولكنى فوجئت بأن المعلومات كلها فى رأسه هو وأشار لى بالفعل إلى رأسه . اندهشت بالطبع وخاب أملى إلى حد كبير . وسألته أيضا عما إذا كان قد كتب شيئا فنفى ذلك وربما كان يريد أن يحكى لى ويدعنى أكتب . لم أعد بالطبع أنى سوف أفعل ذلك، لكنه كان يعتمد علىَّ فى الاتصالات مع الصحف العربية لعقد هذه الصفقة . ويبدو أنه كان يتوقع مالاً كثيراً خاصة من الصحيفة الإنجليزية .

الواقع أننى لم أتحمس كثيراً لمثل هذا العمل، إذ كان طابعى الأدبى يغلب علىّ . وظللنا نتحدث عن هذه المذكرات فترة طويلة دون أن نخرج من القول إلى الفعل . وعندما جاء صديقى المؤرخ محمد أنيس إلى لندن حدثته عن هذه المذكرات أو قل هذا المشروع فإذا به يتحمس حماسا زائدا، وينحى على باللوم لتكاسلى عن عمل بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ مصر الحديث، بل ويطلب منى أن يتولى هو صياغة هذه المذكرات . أدركت أيضا أن علاقتى بالتاريخ ثقافية وأننى أحاول أن أفهم ما حدث فقط ولست من هؤلاء الذين يعرفون قيمة التوثيق وفى أدق التفاصيل . وأن المؤرخ الحقيقى هو ذلك الرجل الذى يبحث عن الوثيقة أو الشهادة بهذه اللهفة التى رأيت عليها محمد أنيس . أظن أن الدكتور أنيس كان قد جاء من أجل مراجعة الأطباء وإجراء جراحة فى القلب تلك الجراحة التى انتهت بوفاته فى لندن وكان هذا المشروع قد تأجل حتى يشفى من العملية .

ظل مشروع كتابة مذكرات شمس بدران قائما، ولكننى كنت قد قررت بينى وبين نفسى أنى لن أشترك فى كتابة هذه المذكرات، فهى فى حاجة إلى وقت وتفرغ ولم أكن أملك هذا الفراغ أو هذا الوقت . ولكننى فاتحت رئيس التحرير عثمان العمير الذى احتاج منى إلى شىء من الإقناع قبل أن يوافق، فقد كان مدركا لأهمية هذه المذكرات من الناحية الصحفية، ولكنه لم يكن محبا لشمس بدران وتاريخه المشهور على المستوى الشخصى . على أن غريزته الصحفية غلبته فوافق على نشر المذكرات ولكن فى مقابل عشرة آلاف من الجنيهات الإسترلينية . ولم يكن هذا المبلغ هو ما توقعه شمس بدران، وكنت قد جعلتهما يلتقيان ويخوضان فى التفاصيل . ورفض بدران العرض وتوقف المشروع وأظنه إلى اليوم لم يكتب هذه المذكرات .

لست أذكر لمن قرأت وصفا للبؤس الإنسانى فى أسوأ صوره المتمثل فى الحالة النفسية للحكام والملوك المعزولين . كان الكاتب أو الشاعر الذى قرأت له يصف الملوك والحكام الأسرى أو المعزولين، بين صور أخرى لدمار المدن وسقوط الدول ومرأى الخراب بشكل عام . بالطبع هناك شىء من هذا من الممكن أن يراه الناظر فى شمس بدران لكن يبدو أن هذا الوصف كان ذا طابع إنشائى أكثر من أنه حقيقى ولعله يأتى من التصور أو التخيل وليس من جانب الشخص المعزول نفسه.

كان بدران عاديا جدا ويعيش مثل أى شخص آخر قد لجأ إلى الحياة فى بريطانيا، ربما كان إحساسه بكرامته حادا بسبب ظروفه الجديدة، فيما عدا ذلك لم يكن هناك أكثر من الكآبة الطبيعية التى تصيب الإنسان فى الغربة والإحساس بعدم الانتماء . وكان مهذبا فى التعامل مع الناس وكان قد اعتاد الحياة فى إنجلترا ولعله اختار صديقة إنجليزية بعد طلاقه وعاش حياة عادية .

كيف كان يفكر فى أيامه الخوالى ، وكيف كانت رؤيته للعالم الذى عاش فيه أثناء تمتعه بالسلطة وكيف صارت رؤيته الآن بعد أن فارقها ؟ حاولت أن أفهم هذه التجربة الإنسانية البالغة الأهمية على أنى أدركت أيضا أن ممارسة السلطة كانت مليئة كذلك بالعقبات والمؤامرات والطعن من الخلف ولم تكن كلها هناء . ولعلى تصورت أحيانا أنه كان يتمتع بحياته فى المنفى بعيدا عن توترات السلطة وأظنه كان قد وصل إلى حد معقول من الدخل الشهرى بسبب المساعدات التى أرسلها أصدقاؤه الموسرون والذين كان هو السبب فى تحسن أحوالهم وكان يستثمر هذه المبالغ التى أعتقد أنها ضئيلة بحذر شديد وبعناية فائقة .

❖ ❖ ❖

من ناحيتى لم أكن سعيدا . كان أصدقائى المقربين الذين عاشرتهم فى العراق قد أعدموا جميعا تقريبا، ولم يكن يسندنى فى السلطة التى خلصت تماما لصدام حسين أى شخص، حتى طارق عزيز كانت حساباته حول مستقبله السياسى بعيدة تماما عن أن تسندنى . وكان من الصعب أن أجد لى فى الملحقية الصحفية العراقية بلندن والتى تتصل بأجهزة متعددة فى الدولة أى عمل حقيقى إلا الذى رحت أخترعه بنفسى من تحليل للسياسات الإنجليزية أو غيرها .

كنت طوال إقامتى فى العراق أعمل أستاذا للنقد المسرحى بأكاديمية الفنون التابعة لجامعة بغداد، وكنت أشعر بأننى أستحق المرتب الذى أحصل عليه بعملى . وكنت أشعر أننى أضفت شيئا ما إلى الدراسات المسرحية النظرية فى العراق، وأنى ساعدت فى تخريج دفعات من الطلبة تعلموا تعليما جيدا . وكنت أشارك فى الكثير من اللجان المتصلة بالعمل المسرحى والفنى، ومنذ الوهلة الأولى لم أتقاض أجرا عن هذه اللجان . أما الآن فإننى مضطرب غاية الاضطراب .

كنت أريد أن أعمل فى مركز الدراسات، الذى كنت فى الحقيقة من فكر فيه وكنت أستطيع أن أعمل فيه بجهدى وخبرتى، ولكن هذا لم يكن واردا فى خطط السلطة العراقية بالنسبة لهذا المركز. ولكن هذا القلق لم يطل، إذ فوجئت بأن مرتبى قد أوقف وعندما سألت جاءتنى إجابات غامضة بأننى لم أنقل إلى وزارة الإعلام وأنهم سيصدرون مثل هذا القرار حتى أقبض راتبى من ميزانية هذه الوزارة التى ترسل إلى الملحقية الصحفية بلندن .

مضى شهر وآخر وتتابعت الشهور وأنا أصرف من مدخراتى القليلة حتى إيجار المسكن كان علىّ أن أدفعه وكان مبلغا كبيرا إلى حد ما بالنسبة لى، فغادرت المسكن إلى آخر أقل تكلفة . وكانت أسرتى بالكامل قد وصلت إلى لندن، الصغار يدرسون فى المدارس والكبار يستكملون الدراسة أو التدريب، إذ كانوا من حسن الحظ من الأطباء وكانوا بالفعل يتقاضون شيئا من المال فى فترات التدريب التى تؤهلهم للتخصصات العالية . والغريب أننى رحت أرسل الخطابات إلى طارق عزيز على ما أذكر أقول له إن كانت ظروف العراق المالية بسبب الحرب الإيرانية هى المسئولة عن هذه الارتباكات فإننى أستقيل، ولكن العجيب أن الرسائل كانت تأتى بعكس ذلك واستمر هذا لمدة أكثر من عام . بل إننى ذهبت إلى بغداد بصحبة صديقى عبد الحى شعبان الذى صارت له بهم علاقة ما فلم أخرج بشىء . وعلى الرغم من أن الأمر كان واضحا لى، وأنهم فى الواقع يجدون فى التضييق علىّ فرصة لتطويعى، إلا أننى لم أصدق أن مثل هذا التفكير من الممكن أن يكون حقيقيا .

ولعلى رحت أبحث فى تصرفاتى قبل أن أجىء إلى لندن وبعد أن وصلت إليها فلم أجد شيئا من الممكن أن يؤخذ علىّ . كانوا قد طلبوا منى أن أكتب مقالا بمناسبة عيد ميلاد صدام حسين، الذى صار الاحتفال به عيدا قوميا يصل به إلى حد التأليه، وأمام هذا التوريط الواضح وجدت لى مهربا فى الحديث عن عبقرية الشعب العراقى وتاريخه النضالى، وأن مثل هذه الأرضية الثقافية المجاهدة من شأنها أن تخلق رجالا أشداء باعتبارهم من منتوجات هذا المجتمع . لست أدرى هل أغضب هذا التخريج هذه السلطات العراقية، إذ التمجيد كان مركزا فقط على المعجزة التى أتت بالقائد المعجزة .

وكان وضعى فى مصر مليئا بالمشاكل، وكان أولادى فى منتصف مراحلهم التعليمية، وكان من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن أنتزعهم من دراستهم الإنجليزية وأعود بهم إلى مصر، التى لم يكن لى فيها عمل بعد هذه القطيعة، بسبب التحولات السياسية الجوهرية التى لم أستطع أن أهضمها أو أقبلها . على أننى طلبت من زوجتى فى إحدى الإجازات الصيفية والتى تذهب فيها إلى القاهرة أن تتصل بأحد أصدقائى القريبين من الرئيس أنور السادات فجاءت الإجابة، والحق يقال، مشجعة . ولكن ماذا علىّ أن أفعل بالنسبة لأولادى ومستقبلهم التعليمى . وفى هذا الوقت جاءنى خطاب من إدارة ثقافية تابعة لوزارة الإعلام بأن أسهم بتأليف كتاب عن عبقرية الرئيس صدام كمفكر من خلال كتاباته حول القومية العربية . بالطبع أدركت أن هذا هو الثمن الذى علىّ أن أدفعه . وفى ذلك المناخ الجنونى من القلق كتبت موافقا، وجاءنى خطاب بتحديد مواعيد الانتهاء من تأليف الكتاب . ولكن عندما جلست أخطط لتأليف هذا الكتاب وجدتنى عاجزا تماما عن أن أكتب حرفا واحدا، ولعلى احتقرت نفسى تماما .

٤١

كاتب فى صحيفة "الشرق الأوسط"

كنت أسير وحيدا فى أحد شوارع مدينة لندن، وكنت بين لحظة وأخرى أتطلع إلى هؤلاء السائرين وأسأل نفسى باستنكار كيف استطاع هؤلاء أن يدبروا معيشتهم فى هذه المدينة، وأنا الذى أزعم أننى أملك الكثير من المواهب لا أستطيع أن أفعل ذلك . وأخيرا قررت أن أكتب للإذاعة البريطانية . كنت أعرف الكثيرين من موظفى هذه الإذاعة العرب والمصريين . وبالفعل وجدت تشجيعا جميلا فرحت أشارك فى البرامج الإذاعية الثقافية، ولكن الحصيلة لم تكن كافية حسب نظام الأجور فى الإذاعة، ولعلى بدأت الاستدانة أيضا بعد أن نفدت مدخراتى . ورحت إلى جانب ذلك أكتب لصحيفة من الصحف العربية عمودا يوميا لم يزد أجره عن ألف جنيه إنجليزى وكان هذا مبلغا لا يكفى حتى لإيجار السكن .

وفى جميع الأحوال كان علىّ أن أكتب فى هذا المجال أو ذاك دون أن يبدو هذا لأى أحد بسبب حاجتى إلى المال، ولعلى لذلك لم أطلب من أحد عملا مستديما . وبالنسبة لكتاب صدام حسين حين عجزت عن كتابته جلست إلى زوجتى وصارحتها بالمشكلة فأجابتنى بشىء من الغضب كيف فكرت مجرد تفكير فى أن تكتب مثل هذه الكتب ؟ هذا على الرغم من أنها كانت تعانى معى وربما أكثر منى باعتبارها المسئولة عن كل شىء فى بيتنا . وربما كان من أسعد أوقات حياتى هذه السعادة التى شعرت فيها بأن لى ظهيرا بالغ القوة والشجاعة والقدرة على مواجهة كل المخاطر . وأذكر أنها قالت لى فى هذا الحديث : لماذا لا تعمل فى جريدة الشرق الأوسط ؟ إنهم سوف يرحبون بك .

استبعدت هذا على الفور باعتبارى كاتبا يساريا وعملت أيضا فى ذلك البلد ذى السمعة الراديكالية العنيفة العراق . فى اليوم التالى وربما فى نفس اليوم زارنا صديقى محمود السعدنى فى البيت، وكان يتحدث بالصدفة عن صديقه عثمان العمير رئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط، فقالت له زوجتى لماذا لا يفاتح صديقه هذا فى أن يضمنى للعمل بالجريدة وفوجئت أن السعدنى لم يجد فى ذلك غرابة ووعد بأن يفعل ذلك . وبعد يوم أو اثنين وجدت عثمان العمير يخاطبنى فى التليفون ويدعونى للقائه فى مبنى الجريدة . وبالفعل عندما ذهبت إلى الجريدة كان الاتفاق مع العمير سهلا جدا وبسيطا كل البساطة وعين لى مسئولياتى فى الجريدة وعرضت عليه مقترحاتى . وأذكر أننى سألته أن يشرح سياسة الجريدة حتى أعرف

ما هى الخطوط الحمراء حتى أتجنبها، فقال لى ضاحكا ليس عليك من ذلك شىء عليك أن تكتب ما تشاء ونحن نشطب ما لا نراه مناسبا . لم أكن قادما من صحافة حرة أبدا، وكنت منذ بدأت العمل الصحفى أعرف الرقابة والرقيب . وكانت مصر، ثم العراق، تخشى الكلمات المطبوعة خشية طالما أثارت دهشتى، ولعلها كما قلت سابقا نبهتنى إلى أن الكلمة تمتلك قوة ما ولهذا تخشاها السلطات وتترصد لها . لم يكن تحسسى إذًا من فراغ . على أننى طوال عملى فى الشرق الأوسط لم يعترض عثمان العمير على أية كلمة أو جملة فيما كتبت من موضوعات .

عرفت فيما بعد أن محمود السعدنى وهو فى طريقه إلى زيارة العمير فى بيته التقى بأحمد بهاء الدين، الذى كان ذاهبا أيضا لزيارته وعندما فتح السعدنى الموضوع مع العمير انطلق أحمد بهاء الدين يؤكد بحماسة شديدة أهمية انضمامى إلى الجريدة والفائدة التى ستتحقق من وجودى معهم . وأظن أن الذى حكى لى القصة كان العمير نفسه بعد ذلك .

كنت قد التقيت العمير قبل ذلك مع يوسف إدريس، وكان شابا ذكيا جاء إلى مدينة لندن من السعودية وهو محرر رياضى بإحدى الصحف السعودية، ولكنه كان طموحا وسرعان ما اندمج فى الدراسة مع استمراره بالعمل الصحفى إلى أن جاءته الفرصة وعرض عليه أن يعمل رئيسا لتحرير جريدة الشرق الأوسط . كان وعيه الاجتماعى قد تفتح فى المجتمع الإنجليزى . أدرك أهمية الديمقراطية ليست كعامل استقرار للمجتمعات فقط بل كنظام يعيد بناء الشخصية مرة أخرى، وحين يأتى الغريب أو الأجنبى من مجتمعات غير ديمقراطية وتمسه خيرات الديمقراطية يكتشف أنها مجلية للسعادة أيضا والإحساس بالكرامة . وهو ما استشعره تماما عثمان العمير أثناء إقامته الطويلة فى بريطانيا . على أنه لم يأت إلى بريطانيا لأسباب إيديولوجية بل كمكان للحياة الحرة، وكان بالتالى يدرك أن من أركان الحرية توفر قدر من الملكية الخاصة التى يستند إليها فى حياته . لم تكن لديه مشاكل إيديولوجية تعوقه عن أن يتفهم أهمية المال فى الحماية الاجتماعية، ولذلك لم يضيع وقته وراح يستثمر كل ما يحصل عليه من مال . وفى أحد الأيام وكنا نتجاذب أطراف الحديث قال لى أنا لا يهمنى الآن شىء ولا أية سلطة، لأننى لى شركاتى التى تدر علىّ عائدا كبيرا يكفينى وزيادة . كان عمليا بمعنى الكلمة، ولكننى أظن أنه لم يتوسل إلى هذا المال بوسائل لا أخلاقية . حقا كان قد أقام علاقة صداقة مع ملك المغرب السابق الحسن الثانى، وسخر له صفحات كثيرة فى جريدة الشرق الأوسط تمتدحه، وأظنه نشر نوعا من المذكرات لهذا الملك فى الجريدة ثم أصدرها فى كتاب . من الناحية الصحفية ليس لصحفى محترف أن يقلل من قيمة نشر مذكرات ملك موضع جدل فى المجتمعات العربية وفى المجتمع الدولى أيضا مثل ملك المغرب السابق، وبالنسبة لرجل مثل العمير ليس من الغريب أن يعجب بملك له اهتمام بالثقافة التراثية وله ولع بالفنون والموسيقى ومحب للحياة وله ولع ما بالجمال . ولعل أهم ما لاحظته على العمير هو نظرته التحديثية وفطانته لروعة المنجزات الحديثة فى المدن الأوروبية والاستمتاع بها .

وذهبنا معا مرة إلى الرياض فى مناسبة من المناسبات وأظنها كانت مؤتمر الجنادرية وعند دخولنا إلى الرياض تفحص ضباط الجوازات جوازاتنا بدقة وعومل العمير معاملة عادية جدا بل فيها شىء من التجاهل حتى رحت أتساءل بينى وبين نفسى هل لا يقرأ هؤلاء الضباط الصحف ؟ أم أن وظيفة رئيس تحرير أشهر جريدة فى السعودية لا تهمهم كثيرا أو قليلا ؟ أم

هل هذه ديمقراطية البداوة التى لا تعرف أساليب التفخيم والتهليل التى تفرضها ثقافة المدن العريقة وغير الديمقراطية ؟ على أنى لاحظت بعد ذلك أن التكريم والإجلال يحدث للأمراء فقط . وأظن أننى كنت فى الطائرة المتجهة إلى السعودية فوجدت أن الأمراء الشبان الذين يجلسون إلى جوارى قد فتح لهم الباب الجانبى للطائرة لينزلوا منها إلى سيارات المارسيدس السوداء التى كانت فى انتظارهم بجانب الطائرة دون أن يمروا على ضباط الجوازات . وأظن أننى فاتحته ذات يوم ونحن فى مكتبه فى لندن لماذا لا ينتظرنا أحد من موظفى مكتب الجريدة فى المطار ويسهل خروجنا ؟ فقال لى : لم أفعل ذلك مطلقا لأننى أعرف أن عملى كرئيس تحرير ليس مخلدا فإذا تعودت أن أجد من ينتظرنى فى المطار ويجرى فى ركابى فما الذى سأفعله عندما أترك الوظيفة . إننى أفضل أن أعامل بهذه الطريقة دائما بدلا من أن أتحسر على تلك المعاملة البهرجية المتخلفة فيما بعد .

عندما توثقت علاقتى شيئا ما بالعمير، عرفت أنه قارئ جيد ورأيت مكتبته الخاصة وكانت مليئة بكتب التراث، وكان قد قرأ كتاب «اليمين واليسار فى الإسلام» منذ أول طبعة له، وكان يعرف مجلة «الكاتب» ويتابعها، وكان على علم جيد بالثقافة الأدبية المعاصرة، سواء على مستوى العالم العربى أو الغربى . وكان حداثيا بكل معنى الكلمة، بحيث لا يستشعر محدثه بأنه خارج دائرة اليسار أو ينتمى إلى أى فلسفة أو رؤية يمينية بأى معنى من المعانى .

والحق أننى وأنا أتذكر هذه الفترة، أجد أنها كانت استراحة نفسية لى بالغة الأهمية، فهأنذا أعمل مع صحفيين أكثر تفتحا من الذين كنت أعرفهم فى العراق، وأكثر معرفة من الناحية الثقافية أيضا . وحدث أننى حين بدأت الكتابة فى الشرق الأوسط، أن تهيج أحد الأساتذة المصريين الذين يعملون فى إحدى الجامعات السعودية، فأرسل إلى رئيس التحرير يستنكر أن تنشر لى صحيفة سعودية، وأنا الكاتب اليسارى الذى أفسد الشباب فى مصر بكتاباته فى الصحف ومجلة «الكاتب» . وأظن أن العمير أطلعنى على الخطاب مازحا . وكان هذا الأستاذ قد أرسل أيضا خطابا إلى صفحة بريد القراء يستهجن فيه أن تستكتبنى جريدة سعودية فأطلعنى المحرر عليها واستطلع رأيى فى نشرها فقلت له أنى لا أمانع وسوف أرد عليها . ولكن الرسالة لم تنشر وأظن أن العمير وجد أن الموضوع كله لا يستحق الاهتمام من الناحية الحضارية . ولكن الأستاذ لم يتوقف وكتب مقالا مطولا فى جريدة تصدر فى الهند أو باكستان لا أذكر وهاجمنى فيها هجوما شديدا . ولكن بعد قليل كنت فى زيارة إلى السعودية فى مناسبة من مناسبات مؤتمر الجنادرية وهناك قابلنا هذا الرجل أنا وعثمان العمير فقال لى أن هذا الدكتور هو الذى اعترض على استكتابك فى الشرق الأوسط ولكننى قلت له وأقول له الآن أن الذى أوصى باستكتابك هو الملك فهد نفسه . فتغير لون الرجل ووقف مبهوتا بعض الوقت ثم انصرف . كان العمير يهزل بطبيعة الحال .

على أنه بعد قليل تلقيت دعوة للحج أنا وزوجتى التى كانت بالفعل قد طلبت منى أن تؤدى فريضة الحج، وكنت أدبر بينى وبين نفسى كيف أحقق لها هذه الرغبة حين تلقيت مكالمة تليفونية من مكتب رسمى تابع للسعودية فى لندن يدعونى أنا وزوجتى للحج دون أن أسعى بالفعل لأى محاولة . فرحنا جدا وسافرنا بالفعل وأثناء إقامتى، فوجئت بأن شخصا ما قد جاء إلى الفندق وترك لى ربطة كبيرة وعندما تسلمتها وجدتها ثياب الإحرام ومعها بطاقة تشير إلى مهديها وكان هو نفس الأستاذ فتعجبت لتغير المواقف من النقيض إلى النقيض .

وفى يوم من أيامنا هذه دعانا أحد الأصدقاء إلى بيته على الغداء وكان معه هذا الأستاذ فرحت أتجادل معه فى التفاصيل بالنسبة للسياسة الإصلاحية التى تحتاجها مجتمعاتنا فاضطر فى النهاية أن يسلم بها .

كانت السعودية تشعر بوطأة هذا التيار المتعصب والذى يستخدم الدين لأغراض سياسية فى الواقع وبدأت تقاومه وأظن أنهم أنهوا عقد هذا الأستاذ والكثيرين من زملائه .

كانت إقامتى فى إنجلترا مرتبطة بوظيفتى فى المكتب الصحفى العراقى وكنت ما زلت على القوائم الدبلوماسية للسفارة العراقية . وكان العراق قد أعلن الحرب على الكويت وكنت أرى أن هذه الحرب المقصود بها الهرب من الاستجابة لطلبات الشعب العراقى من أجل الديمقراطية والتى وعدت بها السلطة العراقية بعد انتهاء الحرب مع إيران . ولما كان لدى العراقيين بشكل عام اعتقاد بأن الكويت أرض عراقية انتزعت منهم بمعونة سلطات الاحتلال البريطانية، ولأن الكويت أصبحت دولة بترولية غنية ظن صدام حسين أن الاستيلاء عليها سوف يلهى الشعب عن طلباته بالديمقراطية . وكان يظن أن حربه مع إيران هى حرب لصالح الولايات المتحدة أيضا وكانت بالفعل تساعده وتؤيده بشكل ما فى حربه مع إيران، وكان هو من ناحية أخرى يحمى نظامه من جاذبية التحول السياسى الذى حدث فى إيران بالنسبة للشعب العراقى، والذى كانت غالبيته من الشيعة المشتركين فى المذهب الدينى مع الشعب الإيرانى . وبالطبع لم أكن موافقا على هذه الحيلة الهروبية، وكان علىّ أن أقطع علاقتى الرسمية بالدولة العراقية، وبالفعل ذهبت إلى السفير المصرى فى لندن، وكان الدكتور محمد شاكر، وهو إنسان مثقف وكائن متحضر غير بيروقراطى، وبالفعل اتخذ جميع الإجراءات المطلوبة إلى أن أصبحت إقامتى فى بريطانيا على جوازى المصرى باعتبارى كاتبا صحفيا . وقد أخبرنى صديقى المرحوم لطفى الخولى وكان موجودا بالصدفة فى ذلك الوقت فى لندن، أنه ذهب ليشكر الدكتور شاكر على مساعدته لى فقال له أنه استأذن الدولة المصرية فى ذلك فأذنت له .

الآن ذللت الكثير من العقبات، وأصبحت حياتى فى مدينة لندن مستقرة إلى حد كبير .

لكننى كنت واهما فقد كنت خارجا من مسكنى فى أحد الأيام ذاهبا إلى عملى فى الجريدة فوجدت رجلا عراقيا فى مواجهتى . كان هذا الرجل أحد أبطال المصارعة وقد عينه المكتب الصحفى العراقى كأحد حراس المكتب . كان بالطبع مفتول العضلات متباهيا بجسمه ويمشى بطريقة خاصة تعبر عن هذا الازدهاء بالقوة العضلية . توقف أمامى وقال : ذهبت إلى الدولارات، كم ألفاً تقبض ؟

كنت دائما أقرب إلى الحمق . وحتى فى مواجهة مثل هذه المواجهات غير المتكافئة لا أحتكم إلى العقل بل إلى الحمق فسَبَبْته ونهرته، فقال لى دون أن يتراجع سوف أقتلك سوف أسحقك.

أظن أن جانب العنف فىَّ كان لا يظهر إلا ردا على عدوان وكنت عادة لا أبدأ العدوان على أحد . فسببت الرجل وانتظرت أن يتقدم للاعتداء علىّ فلم يفعل . لعله بصق على الأرض ثم تركنى وانصرف .

كنا فى العاشرة صباحا والشوارع ممتلئة بالمارة، فهل هذا هو السبب الذى جعل الرجل يتحمل الإهانة وينصرف متوعدا ؟ على أننى انصرفت وأنا أفكر فى هذه الحادثة . هل هى عابرة وجاءت بالمصادفة أو أن هذا الرجل انتظرنى ليبلغنى بهذا التهديد ؟ وهل علىّ أن أعتبر

الموضوع منتهيا عند هذا الحد أم أن له ذيولا ؟ وكنت أسمع عن جرائم القتل التى يرتكبها عملاء النظام العراقى . وقد سمعت عن أشخاص كنت أعرفهم دعاهم شخص كان يعمل بالمكتب الإعلامى على الغداء أو العشاء فماتوا مسمّمين . فضلا عن الاغتيالات الأخرى . وأذكر أننى رحت أفتش فى وجه هذا الشاب العراقى عن القاتل المختبئ فى داخله إلى أن وجدته ذات يوم عندما غضب على أحد الموظفين بالمكتب فهب واقفا وهو يتهدده ولعله صفعه على وجهه أمام الجميع . كان هذا الشاب مهذبا فى الظاهر ولكنه فيما يبدو كان مبعوثا من الأجهزة الخاصة إلى لندن لأسباب متعلقة بهذه الاغتيالات . وكانت أهميته فى المكتب واضحة على الرغم من أنه لم يكن يمارس وظيفة معينة ولم تكن له على أية حال صلة بالملحق الصحفى الممارس، وكان هذا الأخير يوقره ويتجنب الحديث إليه . وبالفعل وبعد عدة حوادث غامضة حدثت لعراقيين أمرت الحكومة البريطانية بإبعاده على الرغم من صفته الدبلوماسية .

إذن لم يكن القتل والتصفيات الدموية بعيدة عن هؤلاء الناس . ومن الممكن أن يكون هذا التهديد حقيقيا وليس لمجرد التهويش . خاصة وأننى كتبت فى الشرق الأوسط أفسر غزو الكويت بأنه لإلهاء الشعب العراقى عن مطالبه الديمقراطية وأن صدام حسين اعتقد أن الولايات المتحدة سوف تسكت عن الغزو بسبب تحالفاتها معه فى الحرب على إيران . وكانت هناك القصة المعروفة والتى تروى كيف أن السفيرة الأمريكية فى العراق قالت لصدام حسين عندما فاتحها فى غزو العراق أن الولايات المتحدة لا يعنيها هذا الأمر . ومع أنى كنت أتحدث فقط عن الديمقراطية وكانت بالفعل طلبا ملحا من الشعب العراقى بعد معاناة الحرب مع إيران وبعد التضحيات الكبرى التى تحملها هذا الشعب المعانى إلى حد الإنهاك، إلا أنها كانت عدائية من وجهة نظر السلطة العراقية .

عندما ذهبت إلى الجريدة فى ذلك الصباح رويت ما حدث لرئيس التحرير الذى بادر بالاتصال بالجهات الأمنية البريطانية وبالفعل جاء أحد ضباطها إلى الجريدة واستمع إلى القصة باهتمام كبير وفى النهاية طلب منى أن أذهب إلى قسم البوليس فى المنطقة التى أسكنها أحرر محضرا بما حدث . بالفعل ذهبت وحررت هذا المحضر، وكنت فى الطريق أسأل نفسى ألم يصدقنى الرجل ؟ ولكن اتضح بعد ذلك أن هذه الجهات غالبا ما تتبع أسلوبا قانونيا عندما تريد أن تتخذ إجراء ما . أو هكذا قيل لى . وبالفعل لم أر هذا الرجل الذى هددنى بالقتل مرة أخرى لعدة شهور حدثت فيها أحداث كثيرة إذ هزمت قوات صدام حسين وحدث ما حدث فى تلك الحرب وحررت الكويت وضعف النظام الصدامى ضعفا كبيرا وأغلقت مكاتبه فى بريطانيا . وذات يوم وأنا عائد إلى بيتى وجدت هذا الرجل الذى هددنى أمامى وجها لوجه، نظر إلى باستكانة وأحنى رأسه إلى الأرض وانصرف بعيدا دون أن ينطق بكلمة وعلمت فيما بعد أنه كان يحمل الجنسية البريطانية أيضا .

والواقع أن ابتعادى عن الأنشطة السياسية أثناء وجودى فى العراق وأثناء وجودى فى المكتب الإعلامى فى لندن كان من حسن حظى . لقد اتخذت هذا الموقف ليس من باب الحذر أو حتى الرفض السياسى بل لأنى - كما فهمت نفسى بعد ذلك - لم تكن ميولى سياسية . وكانت السياسة بالنسبة لى حالة ثقافية تستدعى التأمل والدراسة والفهم ليس أكثر . لذلك لم أكن خصما يخشى جانبه من أية جهة من هذه الجهات . كل ما هنالك أن كتاباتى قد تكون غير مقبولة من هذه الجهة أو تلك .

هل هذا شيء جيد ؟ هل هذا شيء ضار ؟ لا أعلم . ولعلى كنت أستعيد أيام نشاطى فى العمل السرى الشيوعى الذى امتد لحوالى أربع سنوات فأرى أننى صرت مدرسا للفكر الماركسى أكثر من أى شيء آخر . وكانت علاقتى بالواقع السياسى نظرية بحتة كنت أحلل الواقعة وأفكر فيها وأستنبط الحلول ولكنى لم أفكر فى شيء عملى على الإطلاق حتى تنظيم مظاهرة أو إضراب عن العمل . كنت أفتى بالصواب أو الخطأ . هل هذه سلبية ؟ هل هى طبيعة فىّ لا أملك التخلى عنها ؟ هل فى هذا شيء من الجبن والخوف من نتائج الانغمار فى السياسة العملية ؟ لا أستطيع الإجابة بشكل يقينى مع أننى كنت متأكدا أن هذا الموقف لم يكن عن جبن أو خوف، على الرغم من مواجهتى العنيدة مع نفسى وحسابها حسابا عسيرا .

٤٢

نهاية المشروع القومي

كان قد مضى على وجودى فى بريطانيا أكثر من ثمانية أعوام، كانت كلها قلق واضطراب وانكسار . فمن الواضح أن المشروع القومى الذى ظل ينسج خيوطه فى شراييننا منذ الصغر ينكسر ويتقطع إلى حد الاهتراء . كنا نحلم ببلد مستقل حر تسوده ثقافة حداثية تؤمن بكرامة الإنسان وبقدراته على حل المشاكل الاجتماعية والوجودية . وكان المصرى يتجلى أمامنا كائنا ممتازا قادرا على الإبداع فى مختلف مجالات النشاط الإنسانى، وكل ما كان ينقصه هو الفرصة لأن يعمل ويبتكر . ربما كان فينا شىء من الغلو فى الثقة بالنفس ولكن كيف لا يتوقع أى مراقب محايد، أن هذا الشعب المنحدر من أقدم حضارة والذى وقف بشجاعة أمام أكبر إمبراطورية فى هذا الزمان أكثر من وقفة حازمة أن يكون واعداً بالكثير من الإنجازات . كنا نريد تغيير النظام الملكى الفاسد وبالفعل حدث هذا فى ثورة ٢٣ يوليو وكنا نريد الاستقلال عن الهيمنة البريطانية وبالفعل تحقق هذا . كنا نحلم بإنهاء النظام الطبقى وخلق مجتمع يقوم على المساواة والإخاء والمحبة وتكافؤ الفرصة وحب العلم والمعرفة إلى حد العبادة . كنا نحلم بعالم عربى متحد ومتساند، بل كنا نحلم بعالم إنسانى تختفى فيه الحدود السياسية، وينعم فيه البشر بخيرات العلم والتكنولوجيا والفن والأدب والجمال والحرية . ولم نكد نضع أقدامنا على أول درجة من درجات سلم هذا المشروع العظيم حتى بدأنا نتعثر سقطة وراء سقطة . وكم هو شاق أن نستفيق فنرى كم كنا خياليين وكم كنا جاهلين بالطبيعة الإنسانية التى يفترسها ويدمر كيانها حب السلطة والثروة وأن أبناء جيلنا أنفسهم الحالمين بنفس الحلم لم يكونوا فى حجم المهام الثقيلة الملقاة على أكتافهم، وأن العالم الذى كنا نظنه قادرا على العبور إلى آفاق المدينة الفاضلة، مازالت أقدامه غارقة فى وحل الغرائز الدنيا، والتسابق والصراع إلى حد الهلاك الكامل . وحتى بعيدا عن هذه اللغة الإنشائية كم تبدد المشروع القومى المحدود بقطرنا المصرى، فلم نعرف الحرية فى أية لحظة من اللحظات . ربما شعرت بها فترة قصيرة وفى مناسبات محدودة عندما كانت قيادة الثورة تحقق إنجازا مهما مثل تأميم قناة السويس أو القوانين الاشتراكية أو مجانية التعليم الشاملة أو العمالة الكاملة لكل القادرين على العمل . ولكنها كانت حرية غير مباشرة . كانت تلك الحرية الكريمة التى تملك حق الاختيار والمشاركة المتساوية كامنة فى هذه المشروعات ولكنها لا تسفر عن نفسها إلا من خلال هذا الكمون الذى كان ينقصه السفور والإعلان .

كانت الأخطاء تبدو أمام أعيننا وكنا ننبه إليها ولكننا لم نكن نملك الإمساك بالخطأ وتغييره . وكم كانت الفرص تضيع بين أيدينا بسبب الغرور والتكبر والافتقار إلى تواضع العلماء والمثقفين والأقوياء .

الآن هأنذا أجلس في تلك الحديقة العامة الجميلة في قلب مدينة لندن، أنظر إلى أحواض الزهور الرائعة الألوان . كنت قد اكتشفت منذ وقت مبكر أن هذا الضباب البريطاني يدفع الألوان إلى أن تبرق وتزدهي لتقاومه وكأنها امرأة جميلة تتبرج لتلفت النظر إلى روعة حسنها . ماذا جرى لي في هذا العالم ؟ نعم هأنذا أنظر إلى هذا الجمال الذي نسقته يد ذواقة مدربة وتحت شمس رائعة لا تلهب الجلد أو تحر البدن . ثم ماذا بعد ؟ لقد أحسست بأن روحي مجرحة في أكثر من موقع وعليّ أن أسترخي تماما حتى تندمل هذه الجراح .

لعلي قلت لنفسي عليك أن تدع كل شيء خلف ظهرك وعليك أن تحاول فهم هذا البلد الذي جئت إليه باختيارك . قررت أن أكتب عن المسرح البريطاني فرحت أذهب إلى المسارح أكثر من مرة في الأسبوع . وكنت أشترك في برنامج إذاعي في إذاعة الـ "بي بي سي" العربية يجعلني أشاهد مسرحية لأتحدث عنها كل أسبوع، وكنت أكتب أيضا مقالا في جريدة الشرق الأوسط عن المسرحية . ولعلي قلت لنفسي فلتلق نظرة أيضا على ما يحدث في الأدب المصري الآن، وبالفعل بدأت سلسلة مقالات بعنوان "بعد غيبة خمسة عشر عاما" ألقيت فيها نظرة على الإبداعات الجديدة بعد تلك الغيبة الطويلة . لكن ما هذه الكآبة التي تعتريني ؟ وكيف انطفأ حب الحياة في نفسي . حتى الموقف الكوميدي الذي يجعل الإنسان ينظر إلى العالم بحياد ويتفرج على مفارقاته ويضحك عليها لم يعد هو موقفي . إني أنظر إلى العالم وكأني لا أنتمي إليه، وبالتالي بغير اهتمام .

اكتشفت أنه من الصعب عندما يأتي الإنسان إلى بلد هجرة وهو في سن متقدمة لا يستطيع الاندماج فيه بشكل كامل . وكان يجلس معي في غرفة واحدة في جريدة الشرق الأوسط زميل عراقي هو نجيب المانع . كان كاتبا جيدا ومترجما ممتازا وأظنه الذي ترجم كتاب بروست الشهير «البحث عن الزمن الضائع» كان مولعا بالعالم الغربي إلى حد الوله . وكنت أحاول تنبيهه إلى أن الولع بالثقافة الغربية شيء وبالمجتمع الغربي شيء آخر . كان يظن أن موظف البنك الشاب يشاركه في حب موسيقى موزار أو بمسرح شكسبير أو بفلسفة شوبنهاور وكان يظن أن الشابة البريطانية أو الشاب البريطاني الذي يتعامل معه سوف يحترمه ويقدره لأنه يتكلم الإنجليزية بشكل جيد ولأنه محب للثقافة الغربية إلى حد الوله، ولذلك كان يأتيني كل يوم تقريبا بقصة جديدة أحبطته عن الجهل وقلة الذوق الذي يعامله به هذا الموظف أو ذاك . كان «مستغربا» بشكل حماسي ولذلك كانت صدماته اليومية كثيرة . وبشكل عام كان محبطا إلى حد الاكتئاب الذي يقف على أبواب المرض . كان يسكن وحيدا وقد ترك زوجته وأبناءه ـ وكانوا قد كبروا – في العراق أو في السعودية لا أذكر، وكانت مهمتي طول الوقت أن أخفف عنه وأن أرى فيه أيضا بعض الأسباب التي تؤرقني وأتعلم منها ومن آثارها المخيفة التي تتجلى أمامي في شخصه . كان بالطبع نافرا من النظام في العراق وكان يظن أنه سيجد سعادته في جنة الثقافة الغربية التي أحبها لحد الوله ولكنه انتهى إلى أن يعمل محررا في جريدة عربية هي الشرق الأوسط في مدينة لندن التي طار إليها بأشواق حارقة .

في أحد الأيام تنبهوا إلى أنه لم يغادر منزله وعندما ذهبوا إلى بيته وجدوه جالسا في كرسيه الفوتيه وعلى حجره كتاب. لم يكن نائما بل ميتا .

كانت علاقاتى الاجتماعية أفضل منه، وكنت أحضر كل يوم إلى مكتبى فى الجريدة، وأقابل الناس وأتحدث معهم . كما كانت لى لقاءات أسبوعية مع الأصدقاء، وكانوا تشكيلة من المثقفين العرب من مختلف البلدان العربية، وكان أحيانا ينضم إلينا كاتب أو مثقف إنجليزى ممن لهم اهتمامات بالشرق الأوسط . وكنت أحضر احتفالات السفارات التى توجه إلىّ الدعوات . وكنت معنيا بشكل جاد أن أرى العالم من هذه النافذة البريطانية التى تبينت أنها أكثر اتساعا من النافذة المصرية أو العراقية . وبدأت أدرك أهمية اتساع مجال الرؤية فى فهم العالم بشكل أفضل . ولكننى أكثر من كل ذلك كنت محاطا بأسرتى، زوجتى وأولادى . ولعلنى رحت أتأمل هذا الاختراع البشرى الناجع وهو مؤسسة الزواج . كيف يعمل وما الفائدة منه وكيف تشكل وعلى أى أسس بيولوجية ونفسية واجتماعية قام . راح البشر يعيشون أشكالا اجتماعية من العلاقات بين الذكور والإناث وينسلون وفق هذه النظم إلى أن ترسخت هذه المؤسسة فى غالبية العالم المتحضر بين رجل وامرأة ربطهما - غالب - من اللحظة الأولى شىء من التجاذب يعجز الإنسان عن تحديده .

وكنت أقرأ ذات مرة للروائية الإنجليزية "إيريس مردوخ"، التى نضجت كأنثى مع ثورة الجنس فى بداية الستينيات، وخاضت العديد من تجارب الحب، فوجدتنى أمام محاولة منها لمعرفة تلك الحالة التى نسميها انجذابا ثم حبا بين رجل وامرأة، وإذا بها مثلى لم تستطع أن تجد إجابة مقنعة أو شبه مؤكدة . ولعلى كنت أتساءل من الذى يختار أولا المرأة أم الرجل، وأظن أننى أكثر اقتناعا بأن الذى يختار هو المرأة . فالرجل يلف ويدور حتى تتصيده امرأة أو "توقعه فى شباكها" كما تقول الأحاديث الجارية، على أنه توجد فى النهاية كيمياء معينة هى التى توصل هذا التجاذب إلى الالتحام وإنشاء هذه المؤسسة الأكثر أهمية فى تاريخ الاجتماع البشرى، وعلى مدار السنين واختلاف الحضارات والمفاهيم والقفزات الكبرى فى الكثير من مجالات الحياة الإنسانية، فإن هذه المؤسسة ظلت باقية، ومن المحتمل أنها صارت أكثر رسوخا . وكنت جالسا ذات يوم فى بيتى أقرأ واكتشفت أننى مبتهج بالحياة ولعلى سرحت سعيا وراء معرفة الأسباب .

كنت قد تعرضت مثل غالبية الكتاب والفنانين، ولعل الكتاب هم أكثر المشتغلين بما يسمى الفن أو الفكر تعرضا لحالة من الشك فى النفس . هل كنت على صواب فى كل تلك الرحلة الغريبة التى مرت بها حياتى ؟ وهل آذيت أسرتى بهذه المسيرة التى يمكن أن تكون حمقا خالصا، وكثيرا ما يجد الكاتب أو المشتغل بالحياة العامة نفسه منبوذا من كل مراكز القوة فى مجتمعه وخاصة فى الأنظمة الديكتاتورية، التى تتركز فيها السلطة فى موقع معين، ومنه تتحدد المواقف وتتوزع على سائر المراكز بحيث تردد جميعا نغمة واحدة .

يشعر هذا الرجل أو هذه المرأة بالاغتراب الكامل وبوحدة قاتلة بالفعل، وبالشىء الكثير من الإنكار والإذلال . وبالتالى يتحول إلى كائن زرى ومنفر . هل تحول الأدمى إلى "صرصار" كما جاء فى إحدى كتابات فرانز كافكا هو تعبير عن هذه الحالة ؟ وكثيرا ما يجد هذا الرجل أو هذه المرأة نفسه مهاجما من الجميع ويبحث بهلع عن نصير فلا يجد .

أظن أن هذا أسوأ ما يحدثه الاجتماع البشرى فى نفوس أفراده المبدعين قبل أن تخترع الديمقراطية الحقيقية وتتعدد وتختلف مراكز السلطة . على أنى اكتشفت أن مؤسسة الأسرة هى التى حافظت على هؤلاء المبدعين وأنقذتهم من الضياع الكامل وأنقذت أفكارهم من

الاندثار والاختفاء أو التشويش حتى فى العصور القديمة . فى لحظة من هذه اللحظات وكانت كل أسرتى تقريبا مجتمعة وكنت فى أقصى حالات الشك فى نفسى وفى اختياراتى فإذا بهم يهاجمون لحظة الضعف هذه ويتبارون فى تأكيد صحة هذه الاختيارات بل وشرفها . فاجأتنى هذه الإجابة الحماسية ورحت أرقب نفسى والنشاط يدب فيها والثقة تعود إليها والنور الباهر الذى تنجلى تحته كل صور وأفكار الحياة يشرق من جديد .

بالطبع تلعب الغريزة دورا رئيسيا فى تكاتف مجموعة من الأفراد يطلقون عليها الأسرة . فالحب يجذب الرجل والمرأة والشراكة تؤكد على الديمومة وعلى الدفاع عن المصالح المشتركة، ومهما تكن الخلافات التى من الممكن أن تحدث بين أى رجل وامرأة، إلا أن قوة الجذب البيولوجية والنفسية والثقافية التى تربط بينهما والمصالح المشتركة، وفى مقدمتها بالطبع الأبناء، تكتسح هذه الخلافات وتعيد التوازن إلى هذه المؤسسة العجيبة . ولعل أهم ما فى هذه الشراكة هو الأبناء فهم رباط قد يكون أحيانا أقوى من كل الروابط الأخرى بين الرجل والمرأة قطبى الأسرة، وهم إلى جانب ذلك يساعدون الأب والأم فى التغلب على فكرة الموت والانزياح فهم استمرار لهما والجينات الخاصة بهما . ولكنى اعتقد أن الرعاية والتضامن، اللذين من الممكن أن يكونا بتأثير الغريزة أيضا، هما أقوى أنواع الحماية التى تغدقها مؤسسة الزواج على أفرادها وتنقذهم بالفعل من الضياع .

كان أولادى قد كبروا وأصبحوا رجالاً، وكان وقوفهم إلى جانبى فى هذه الرحلة الشاقة ليس إنقاذا من اليأس والإحباط فقط، بل فيضا من السعادة المبهجة التى لم أتذوق مثيلا لها فى أى من المواقف التى مرت بها حياتى .

كنت قد تركت نفسى لمؤثرات المجتمع الإنجليزى علىّ دون مقاومة تقريبا، بصرف النظر عن التصحيحات التى قمت بها، مثل قراءة التاريخ البريطانى بشىء من التفصيل والانتباه، ومثل إعادة النظر فى تاريخ الثقافة والعلم والفلسفة فقد كان المجتمع البريطانى يصب على رأسى عاداته ومفاهيمه من خلال الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية وقنوات البث التليفزيونى والسينما والمسرح والمطاعم والمشارب والمهرجانات الثقافية والفضائح الأخلاقية والسياسية وظهور واختفاء نجومه وثباته الفكرية وتراجعاته . وفى لحظة من اللحظات تكتشف بأنك أصبحت جزءا من هذا المجتمع، وأن الإنسان هو الإنسان سواء كان فى القاهرة أو لندن أو باريس، وأن هذا الكائن الذى يظن نفسه محور الكون وأن كل هذه الأكوان التى تستعصى على التصور البشرى قد خلقت من أجله، مازال مخلوقا بدائيا، وما زالت تقوده نفس الغرائز والطموحات أو قل الأطماع، وما زال مسكينا وضائعا يتخبط فى كل الاتجاهات .

وليس صحيحا أن إنسان مجتمع لندن مختلف عن إنسان مجتمع القاهرة . حقا أن الرؤية هنا أوسع وأعمق والمجتمع أنضج، ولكن كل هذا مازال على السطح وفى الهامش، ومازال هذا الكائن العجيب واقفا فى فضاء لانهائى يتطلع حواليه فى حيرة ولا يجد شيئا يفعله إلا ارتكاب المزيد من الحماقات . قد تأتى أحيانا لحظة تفاؤل باكتشاف علمى، أو أداء تكنولوجى، ولكن الخيبات الأخرى تتوالى أيضا .

بالطبع مازالت فكرة التقدم موجودة، رغم التشكيك فيها فلسفيا بين وقت وآخر . هناك صدمة معرفة إلى حد ما فهذا اليقين الشرقى لم يعد موجودا إلا فى نسب ضئيلة وأصبح أغلب الناس حتى من متوسطى الثقافة يعرفون أنهم يعيشون مغامرة قصيرة أتيحت لهم لسبب

أو لآخر، وأن عليهم أن يمضوا فيها بشيء من الترف النسبي كلما أمكن ذلك، ولقد أفلحت هذه المجتمعات في أن تقدم لأبنائها الحد الأدنى من الرفاهية الاجتماعية المتواضعة، والتي قد تكون كبيرة بالنسبة لمجتمعات العالم الثالث ولكنها على أى حال تقى من الجوع والعرى والفقر الثقافي .

ربما كان هذا الإدراك كامنا وبغير وعى وهو الذى يقود إلى الإغراق فى ملاذ الحياة وربما الفرح بها أحيانا، ولكنها تنطوى فى جميع الأحوال على فجيعة الانقطاع . هذا الفهم يكاد يكون سائدا فى أوروبا خاصة وربما أكثر من الولايات المتحدة أو الصين أو اليابان، ولكن هناك قدراً متقارباً منه فى غالبية المجتمعات البشرية المعاصرة . إنه فهم ينمى الشجاعة والمغامرة فى الإنسان وإن كان من الممكن فى نفس الوقت أن يهدد بالفزع والرغبة فى الهرب ولو عن طريق كل أشكال المغيبات .

وكنت أقرأ كتابا لأحد البيولوجيين الإنجليز من الداروينيين الجدد، الذى أرجع روح المخاطرة لدى الإنسان لقصر عمره، وضرب مثلا بذلك محاولة رجل أن يعبر شارعا مزدحما بسيارات المرور، فلو كان هذا الرجل يعلم أنه مقدر له بيولوجيا أن يعيش أربعمائة أو خمسمائة عام، لتردد فى العبور طويلا خوفا على هذا العمر الهائل الباقى أن يضيع . أما فى هذا العمر القصير الذى يقف فى المتوسط عند السبعين أو ما بعدها بقليل فان المخاطرة تكون أقل ضررا، وبالتالى يسرع بالإقدام عليها ويعبر الشارع . وهكذا بالنسبة لأنواع المخاطرات الأخرى . وقد يكون هذا صحيحا إلى حد كبير .

وأظن أننى أصبحت أعتقد أن تنوع الثقافات واختلاف الهويات الشخصية والثقافية قول يحتاج إلى مراجعة . وأن فكرة البنيوية الثقافية أو النموذج البنيوى المتفرد أرسلها بعض علماء الاجتماع دون أن يحددوا لنا أسس هذا التنوع أو الانفراد، وأظنها من نتائج الاعتقاد بتفرد الحضارة الأوروبية التى لها كيان مستقل تماما عن سائر الحضارات الإنسانية كلها وأنها انتقلت كما قلت سابقا من المعجزة اليونانية التى لم تتأثر بأية ثقافة أو حضارة سابقة عليها أو معاصرة لها وهى فكرة كما ترى سخيفة وفيها شيء من العنصرية وبعيدة تماما عن التفكير العلمى الموضوعى . وربما كان تنوع الأعراق من الأسود إلى الأصفر إلى الأبيض والأحمر هو الذى قاد إلى فكرة تفرد الهويات الثقافية واختلافها . فقد لاحظت أن الأمور تتعلق بالتطور الاجتماعى والنمو الثقافى، ومراحل النضوج بشكل عام. فكل مشاكل الإنسان متعلقة بتكوينه الطبيعى والبيولوجى ومراحل نضوجه الثقافى . نعم هناك مشاكل اجتماعية وفكرية ونفسية تنتج بسبب اختلاف الثقافات، ولم يكد يخلو أدب من الآداب الحديثة من مشكلة التفاعل بين ثقافة وأخرى، وبصفة خاصة بين الثقافة الأوروبية والثقافات الأخرى القادمة من الشرق الأوسط أو من أواسط آسيا والصين واليابان .

وعندنا فى الأدب العربى أكثر من عمل أدبى يعبر عن هذا الاختلاف والمعاناة المترتبة عليه، وكذلك الأمر بالنسبة للأدب الآسيوى، والصدمات المختلفة التى يعانيها كاتب قادم من ركن ما من أركان القارات الأخرى . ولكنها مشاكل مختلفة بسبب اختلاف درجات النضج الاجتماعى . ونحن نرى الآن فى حركة العولمة،ليس بسبب روح الهيمنة فقط كما يقال، بل بسبب التلاقح الثقافى الذى يتسارع فى معدلات سريعة أن موسيقى «البوب» الشعبية الغربية مثلا تنتقل بسرعة إلى غالبية المجتمعات المعاصرة، والتى تختلف اختلافا كبيرا فى درجات النضج

الاجتماعى، دعك من الأشكال المعرفية والثقافية الأخرى . وفكرة اختلاف الثقافات أو الهويات هى التى تبرر أسباب النزاعات تبريراً خادعاً وهى التى تخلق لدى شعب ما شعوراً بالاختلاف والتميز مما يدعو إلى التلاحم بين أفراده، والإحساس أحيانا بالتميز والتفوق والمواجهة العدائية مع الآخرين، وهى كما ترى آفة كبرى من آفات هذا العصر الذى نعيشه .

فاختلاف الثقافات راجع لمراحل النضوج الاجتماعية والثقافية بشكل خاص التى تمر بها المجتمعات البشرية، وأن هذه المجتمعات إذا مرت بنفس الظروف، من حيث النضوج الاجتماعى، من شأنها أن تتشابه وتتقارب . ولعله من هذه النقطة بدأت أفكر فى أن المجتمعات المتقدمة يتنامى فيها الإحساس بالمسئولية عن المجتمعات البشرية الأخرى . حقا أن الثقافة الغربية السائدة قد ترسخت فيها فكرة المخاطرة والمسئولية عن أجيالها التالية فى تحسين وتطوير الأوضاع . وحقا أن هناك إدراكاً كامناً فى الحصول على كل الخيرات الممكنة حتى تلك التى يملكها الآخرون والاستمتاع بها إلى أقصى درجة فى هذه الحياة القصيرة العمر . ثم هذا المعيار الجديد الذى أصبح كالوثن المعبود وهو «الربح»، فالربح لم يعد غاية فحسب، بل معيارا للنجاح أو الفشل، للفطنة أو الغباء، للصواب أو الخطأ . ومع ذلك فكم عرفت أيضا أن الأخلاقيات الغربية ليست تدور وجودا وعدما مع هاتين الفكرتين الأساسيتين، بل تنهض حركات أخرى تؤمن بوحدة الجنس البشرى، وبضرورة السلام والتعاون بين البشر، وأن لتقدم المجتمعات البشرية وتأخرها أسبابا اجتماعية أو تاريخية وأن سلام البشر ممكن بل وضرورى . وقد عشت هذه الوحدة الثقافية والروحية، إن صحت العبارة، وأنا فى مظاهرة وصلت إلى المليون شخص فى حديقة الـ "هايد بارك" الكبرى فى العاصمة البريطانية ضد السلاح النووى وضد الحرب بشكل عام فنسيت نفسى وأصبحت جزءا من هذا التجمع الهائل الذى يمثل الجنس البشرى كله وبجميع أشكاله . لقد تحدثت عن هذه الحالة من قبل ولكننى أضيف هنا أنه تولَّد لدىَّ اعتقاد بأن إصلاح العالم كله أصبح منوطا بهذه الجموع أكثر من أى عنصر آخر . نعم أن هذه التيارات تُضرب وتنتكس، ولكنها تعود دائما بصورة أو بأخرى، كما أنها تؤثر فى الثقافات المنتشرة وتنجح إلى حد ما فى خلخلتها وتصحيحها . وربما هى التى تعطى الأمل بعد فشل مشروعنا القومى فى بلادنا .

ولكن بعد كل هذه التطورات انتشرت ثقافة يمينية فى العالم المتقدم، ورأينا بوادر تكاد تشبه الفترة الاستعمارية السابقة فى الكثير من مفاهيمها . وبدلا من أن يأتى الإصلاح من هناك أصبحت مقاومة الاتجاهات اليمينية الجديدة ضرورة من جانب هذه المجتمعات . حقا هناك انتكاسة على مستوى العالم كله . ولكن بالنسبة لى فى إنجلترا كنت سعيدا بالتغييرات التى حدثت فى المجتمع الإنجليزى وانتهاء عصر مارجريت تاتشر الذى لم يكد يخلو من النزعة الاستعمارية ومنطق القوة والذى يسمى نفسه بالنظر الواقعى . وعندما كنت أتأمل الوضع فى بريطانيا كنت أرى أن اليمين المحافظ الجديد يعتقد أن الكلام عن توزيع الثروة ومسئولية الدولة عن حياة المواطن وسعادته ضربا من الخيال لا ينسجم مع الواقع الذى يجب أن ينبنى على الصراع وحق القوة فى الاستئثار بما تحصل عليه . وكانت السيدة تاتشر تريد أن تنهى كل الإجراءات التى تمت فى المجتمع البريطانى باسم العدالة الاجتماعية . كانت المنافسة بين العالمين الاشتراكى والرأسمالى قد انتهت بسقوط النظام الاشتراكى وفك معسكره بالكامل إلا فى حدود ضئيلة . وكان هذا اليمين التاتشرى بعد هذا السقوط يعتبر أن الإجراءات

الاشتراكية بما فيها التأمينات والتأمين الصحى وإعانات البطالة ونظم التعليم، كل ذلك لم تعد له ضرورة وربما كانت تقبله فى فترة المنافسة بين النظامين أما بعد سقوط النظام المنافس فلا حاجة له . وهكذا بدأت تهاجم التأمين الصحى وراحت تعيد المشاريع المؤممة إلى القطاع الخاص . ونفس الشىء حصل فى الولايات المتحدة التى كانت - فى الواقع - قد استقرت على نظم للتأمين الصحى تقوم بها شركات كبرى للتأمين ولكن من الناحية الأخرى كان المفكرون اليساريون يبحثون عن حلول مغايرة . إذ كان هناك تسليم بأن سقوط النظم الاشتراكية يعنى فشل هذه النظم فى التنمية الاقتصادية والتطور الاقتصادى والاجتماعى . وهكذا ظهرت فكرة الطريق الثالث وهى فكرة تحاول أن تميز نفسها عن الفكر اليمينى التاتشرى بصفة خاصة والفكر الماركسى التقليدى والذى كان حزب العمال البريطانى مازال يعتبره خلفيته الفكرية . وهكذا بدأت تحولات جديدة فى المجتمع البريطانى وقفزت إلى قيادة حزب العمال مجموعة الوسط التى كان يقودها تونى بلير وجوردون براون .

راقبت هذا كله وقد جعلتنى إقامتى فى بريطانيا كل هذه المدة الطويلة أهتم بكل هذه التفاصيل لأنها تتصل بأساس المعيشة نفسه . ولعلى اكتشفت أن الصراعات بين الاتجاهات وحتى فى الحزب الواحد من أجل التميز والسيطرة أكثر عنفا وقسوة مما كنت أعتقد . وأظنها أعنف كثيرا من مثيلاتها فى المجتمع المصرى . وكان من نتيجة ذلك انتشار الأزمات القلبية بين السياسيين فضلا عن المصاعب الأخرى .

٤٣

رحلة إلى أمريكا

بعد فترة من إقامتى بلندن كان أولادى جميعا قد أنهوا دراساتهم وبدءوا يندمجون فى العمل . الأطباء يعملون فى المستشفيات والمهندسان المدنى والإليكترونى يعملان، أحدهما فى الحكومة والآخر فى شركة كبرى . لم أتدخل على الإطلاق لدرجة أننى نسيت كيف اشتغلا، فنظام العمل فى بريطانيا له آليات معينة على الخريج أن يتبعها فيجد الوظيفة . وبدأت أحوال هذا المجتمع تهمنى فالمهندس المدنى اشتغل فى إحدى البلديات القريبة من لندن وعاش تقريبا مستقلا إلى أن جاءنى يوما وقال لى أنه سيستقيل من عمله فى الحكومة لأنه درس موقفه فوجد أن مرتب رئيسه البالغ من العمر خمسين سنة بالغ الضآلة ولا يمكن أن ينتظر ليعيش فى هذه السن بمثل هذا المرتب . كان قد أصبح مهندسا استشاريا بعد أن اجتاز فترات التدريب ثم الامتحانات التى تعقد للمهندسين ليصبحوا استشاريين وذلك معناه أن يصبح هذا المهندس مسئولا بالكامل عن المشروع الهندسى الذى يعمل به . كان قد اشتغل فى بناء الجسور وقد ثقفنى ثقافة ما كنت أحلم بها عن هندسة الجسور ومشاكلها، وقد فهمت منه أن مستقبل الهندسة المدنية فى بلد مثل بريطانيا لم يعد مجديا لأن حركة البناء بطؤت خطاها بسبب الإنجازات الكثيرة التى تمت فى طرقها ومدنها منذ زمن بعيد . وبالفعل قرر الاستقالة والتقدم لنيل درجة جامعية فى إدارة الأعمال وتقتضى هذه الدرجة التفرغ لمدة عامين أو لمدة عام مكثف .

كنت أصغى إليه بدهشة فكيف يتخلى الإنسان عن وظيفة حكومية مضمونة ويدخل مغامرة جديدة لا يعرف نتائجها بشكل مؤكد . وانقضى العام بالفعل وحصل على هذه الدرجة، على أنه وأثناء الدراسة كان قد تم اختياره للعمل بإحدى الشركات العابرة للقارات كما يقال . وانفتح أمامه الطريق إلى الإبداع والتفوق . هل أستطيع أن أقول أن النظام العالمى الجديد يغير فى الكثير من سلوكيات العمل ؟ لقد نشأ قطاع جديد فى العمل يختص فقط بالخبرات الإدارية والمالية وتكونت شركات عالمية محددة مهمتها وضع استراتيجيات الشركات المصرفية أو الصناعية أو التجارية أو تصحيح المسارات، وبدأت هذه الشركات تستقطب جميع العقول أيا كان مصدرها، وبصرف النظر عن دينها أو لونها أو بلدها . وكانت تتقصى تاريخ عامليها منذ المدرسة الابتدائية حتى التخرج، فضلا عن الاختبارات المختلفة التى على المرشح أن يجتازها

حتى يتم التأكد من تفوقه العقلى والعلمى ليمكن ضمه إلى تلك الكتيبة الجديدة التى صار لها الدور المؤثر فى توجيه النشاط الاقتصادى فى العالم كله .

لم تقتضى اختيارات ابنى أى تدخل أو مساعدة منى . أما الابن الثانى فلم يكد ينهى درجة الماجستير فى الهندسة الإليكترونية من جامعة الـ «إمبريال كوليدج» الشهيرة، حتى وجدته يعمل فى إحدى كبريات هذه الشركات . لم يسألنى عن شىء وإن كان بين وقت وآخر يروى لى ما يصادفه أثناء العمل . وذات يوم جاءنى ليقول أنه قرر الاستقالة ليعمل فى شركة أخرى لأنهم سيضاعفون مرتبه، ولكن عندما عرف رئيس القسم الذى يعمل به أنه ينوى الاستقالة عرض عليه نفس المرتب الذى عرضته الشركة الجديدة لكنه رفض . استغربت لرفضه ولما سألته قال لى بضيق أنه يبحث عن التغيير وليست المسألة مسألة مرتب فقط . عرفت فيما بعد أن تنقل الشخص من شركة إلى أخرى هو شىء يحسب لصالحه لأن هذا التنقل دليل على أنه مطلوب فى ساحة العمل فضلا عن أن فيه خبرات جديدة .

أما نحن فقد تربينا على أن الاستقرار فى الوظيفة هو ركن أساسى فى حياتنا . بعد قليل جاءنى هو الآخر ليقول لى أنه قرر الاستقالة ليحصل على درجة علمية فى إدارة الأعمال وأنه قبل فى معهد "الانسياد" الفرنسى الذى يعتبر من أهم الجهات العلمية فى العالم التى تمنح هذه الدرجة وبالفعل نفذ غرضه إلى أن أنهى هذه الدراسة .

لم تكن لدى مشاكل بالنسبة لأفراد أسرتى وهذا يحسب لاشك لنظام العمل فى بلد مثل بريطانيا، وهو نظام متبع فى غالبية المجتمعات الغربية بما فيها الولايات المتحدة .

وأخيرا هأنذا يُرفع عن كاهلى أية مسئوليات تجاه أولادى . ولعلى تعجبت أن النقود التى أخرجها من جيبى هى ملك خالص لى وكان هذا شيئا غريبا فى تاريخى الطويل، إذ لم أشعر فى أى يوم من الأيام بأنى حر فى التصرف فيما أكتسبه من مال .

ومع ذلك فإن البطالة جزء من النظام الاقتصادى، وكثيرا ما يتعرض العاملون للبطالة وقد يقضون وقتا يطول أو يقصر - حسب الظروف - قبل أن تدور عجلة الاقتصاد من جديد ويخرج المجتمع من مرحلة الكساد إلى شىء من الازدهار . ومهما تكن فضائل أو عيوب هذا النظام فى العمل إلا أنه يقوم على تنافس مهلك من أجل التفوق ومن أجل أن يصبح الإنسان سلعة مطلوبة فى هذا المجتمع، الذى تدور عجلاته على أساس الاستهلاك السلعى فى هذا المجال أو ذاك .

❖ ❖ ❖

هأنذا - ربما لأول مرة فى حياتى - أشعر بشىء من الأمان المالى . ولكننى فى الواقع لم أحقق شيئا من أحلامى حتى فى مجال الكتابة إذ كنت دائما ملاحقا بالعمل الصحفى باعتباره مصدر الرزق الأساسى . لم أكتب الكتب التى كنت أريدها، لم أكتب الروايات أو المسرحيات التى حلمت بكتابتها فهل علىَّ أن أبدأ الآن ؟ ولكن المشوار كان شاقا وبدأ جسمى يضطرب وصحتى تتعثر شيئا ما . ولكن الذى كان شاقا علىَّ بالفعل هو مرض زوجتى واكتشافنا أن كبدها قد أصيب بفيروس "سى" الذى تسرب إليها غالبا من طبيب الأسنان . كانت تعالج عند طبيب مشهور ومع ذلك تسلل إليها هذا الفيروس اللعين الذى يشكل نوعا من الوباء فى المجتمع المصرى . وهنا بدأت قصة طويلة ترددنا فيها على الولايات المتحدة وقضينا فى المرة الأخيرة

حوالى عام أو أكثر فى إحدى مستشفياتها المشهورة . عشت فيها وحيدا إلى جانب زوجتى التماسا لعلاج ناجع بعد أن استأصلنا جزءا من الكبد ثم عدنا لنزرع لها كبدا جديدة .

لم تبدأ الرحلة الأمريكية بمرض زوجتى بل بدأت قبل ذلك بسنين طويلة . ففى إحدى إجازاتى السنوية فى العراق قررت أن أذهب إلى أخوى اللذين كانا يعملان فى أمريكا . كان كل منهما معيدا فى الجامعات المصرية جاء أحدهما لدراسة الدكتوراه فى الكيمياء الحيوية وجاء الآخر لدراسة فسيولوجيا المخ، وبعد أن أنهيا الدكتوراه عمل الأول باحثا مع أستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة بركلى وكان أحد الحاصلين على جائزة نوبل بينما التحق الثانى بمؤسسة "ناسا" للفضاء ليبحث فى نظام الساعة البيولوجية . طرت من بغداد إلى سان فرانسيسكو حيث كان مقر الناسا فى ضواحى المدينة الشهيرة وحيث كان يقيم أخى الثانى .

كنت قد خرجت من الأزمة القلبية الأولى وعملت على تخفيض وزنى حسب نصائح الأطباء وكففت عن التدخين وعشت عاما كاملا تقريبا فى دوامات الخوف من الموت والتآلف معه . ولعل زيارتى لأخوى كان الغرض منها رؤيتهما قبل أن يداهمنى الموت .

فى البدء ظننت أن السفارة الأمريكية فى بغداد لن تعطينى الفيزا بسهولة وكان يزاملنا فى أكاديمية الفنون أستاذ عراقى قضى حوالى عشرة أعوام فى الولايات المتحدة وربما كان حاصلا على الجنسية الأمريكية فأخذته معى إلى السفارة ليضمننى أو ليوصى بى . شرحنا الأمر لموظف بالسفارة وبعد أن استمع إلينا ذهب ليقابل القنصل الذى لم يلبث أن خرج لنا وحيانى بترحاب أثار دهشتى، ودعانى إلى الدخول إلى مكتبه دون أن يدعو زميلى معى . عرف منى القصة وأنى أريد زيارة أخوى اللذين يعملان فى ولاية كاليفورنيا . وأثناء الحديث جاءت القهوة ثم أصدر القنصل أوامره ولم أكد أنهى القهوة ونحن نتحدث حديثا هينا لينا فى مادة المسرح التى كنت أقوم بتدريسها فى الأكاديمية العراقية حتى جاء جوازى مختوما وفيه فيزا لزيارة الولايات المتحدة لمدة خمسة أعوام ودون رسوم . صافحت الرجل بحرارة وشكرته وأنا مندهش لهذه المعاملة الطيبة التى لم أتوقعها .

خرجت لأجد زميلى جالسا ينتظرنى . أوصلنى القنصل إلى الباب وودعنى ومعى زميلى دون أن يقول له كلمة واحدة . لعلى عبرت عن دهشتى لزميلى لهذه المعاملة الطيبة وكنت أظن أنى غير مرغوب فىَّ فى الولايات المتحدة وأنا الذى كنت أكتب بحرارة ضد سياسات أمريكا . وكانت مجلة "الكاتب" حريصة على أن تفضح السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط، وكنا نحن الذين فضحنا المؤسسة الثقافية الأمريكية التى كانت تصدر عددا من المجلات الفكرية والثقافية فى عدة بلاد منها لبنان، التى كانت تصدر مجلة "حوار"، ومنها بريطانيا، التى كانت تصدر فيها مجلة "انكاونتر"، التى كان يرأس تحريرها الشاعر البريطانى الشهير ستيفن اسبندر، والذى كان يحسب على اليسار البريطانى . وأثبتنا أن هذه المجلات تمول من جهاز المخابرات الأمريكية الـ (سى آى إيه) . كان من إنجازات مجلة "الكاتب" الكبرى، هذه الفضيحة والتى كشفها المنطق البسيط، إذ تولى زملائى فى "الكاتب" المرحوم عبد الجليل حسن والمرحوم جلال السيد ونبيل زكى فحص هذه المجلات ومصادر تمويلها حتى توصلوا إلى تبعيتها الكاملة لـ "سى آى إيه" .

وأحدثت التحقيقات التى قمنا بها هزة كبرى فى عالم الثقافة، إذ نقلت صحف العالم نتائج هذا التحقيق على نطاق واسع واضطر رؤساء التحرير فى أكثر من بلد حيث تصدر مطبوعات

هذه المؤسسة المريبة إلى الاستقالة واستقال ستيفن سبندر من رئاسة التحرير، معلنا أنه لم يكن يعلم بأن التمويل يأتى من هذه المؤسسة الاستخباراتية، وأرسل إلينا خطابا يوضح فيه ذلك ويعتذر . وكذلك أغلقت مجلة "حوار" وغيرها من المجلات الأخرى . ثم قرأ لويس عوض صفحة كاملة فى جريدة النيويورك تايمز فترجمها فى نفس المساحة فى جريدة الأهرام، حيث نسبت الجريدة الأمريكية معلوماتنا هذه إلى المخابرات المصرية التى زودتنا بها، ولكن الحقيقة -وها قد مضى على هذه الحادثة أكثر من أربعين عاما - أن الزملاء الثلاثة كانت لديهم القدرة على البحث والاستقصاء والاستنتاج الصحيح، ولم يكن لأى منا أية صلة بهذه الأجهزة المصرية المنسوب إليها هذه المعلومات . وأذكر أن هذه التحقيقات نشرت تباعا فى أكثر من عدد من أعداد مجلة "الكاتب".

قبيل هذا الكشف الذى قمنا به، رصدت مجلة حوار جائزة لأعظم كاتب قصة عربى، واختارت لجنة من كبار الأدباء المصريين والعرب، أذكر منهم لويس عوض ومحمد مندور، وقد رشحا فى ذلك الوقت نجيب محفوظ لنيل هذه الجائزة . وكان المبلغ المرصود للجائزة هو ألفان وخمسمائة جنيه وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت قادر على أن يشترى سيارة محترمة على الزيرو . ولما رفض نجيب محفوظ هذه الجائزة بسبب ما كان يثار حولها من شكوك، عادت اللجنة فرشحت يوسف إدريس، الذى كان عضوا فى مجلس تحرير مجلة "الكاتب" . وقبل أن يحدثنى يوسف إدريس عن هذا الترشيح للجائزة أخبرنى نجيب محفوظ فى مناسبة عابرة أنهم اتصلوا به وعرضوا عليه الجائزة فرفضها . قلت هذا ليوسف إدريس الذى كان قد أعطى موافقته وربما كان الذى اتصل به واحدا من الأستاذين المصريين لويس عوض أو مندور وأعقبه المسئول عن المجلة والجائزة، وتجادلنا طويلا . كان يوسف إدريس مرحبا بالجائزة فإلى هذا الوقت لم تكن الدولة المصرية قد منحته أى جائزة . وكان اشتراك هذين الناقدين الكبيرين فى لجنة الجائزة يعنى اعترافا ذا قيمة أدبية كبيرة بأدب يوسف إدريس بالإضافة إلى الأعضاء العرب الآخرين الذين كانت لهم أيضا سمعة أدبية جيدة . بالطبع كانت القيمة المالية لا يستهان بها . لم تكن مبلغا كبيرا جدا لكنها لم تكن شيئا هينا .

جادلنى يوسف إدريس بقوة وأصررت على أن يعتذر عن الجائزة . وكنت أفعل ذلك وأنا مدرك لكل أبعاد الموضوع بالنسبة له . وكان من الواضح أن المسألة متعلقة بالمبادئ الأساسية التى كنا ندافع عنها . ولعلى لم أستطع إقناع يوسف بالاعتذار، فدعوت مجلس التحرير وعرضت عليه الموقف فقرر رفع اسم يوسف إدريس من مجلس التحرير . لست أذكر ما إذا كان يوسف قد حضر هذه الجلسة، أم أننى الذى بلغته بالقرار آسفا . على أنه فى نفس اليوم عاد فاتصل بى وقال لى أنه اعتذر عن قبول الجائزة أرسل للجنة الجائزة برقية بالاعتذار وأطلعنى على صورتها . اجتمعنا مرة أخرى وقررنا إلغاء قرارنا السابق وعادت الأمور كما كانت . وكان كمال رفعت عضوا فى مجلس التحرير وكان هو صلتنا المباشرة بالرئيس جمال عبد الناصر فضلا عن أنه كان من كتاب المجلة ومن الطبيعى أن يروى رفعت القصة لعبد الناصر الذى ما إن استمع إليها حتى أمر سكرتيره سامى شرف بأن يدعو يوسف إدريس ويعطيه قيمة الجائزة.

بعد أيام قليلة تلقى يوسف إدريس مكالمة تليفونية من سكرتير عبد الناصر لمقابلته فى الرئاسة . وبالفعل ذهب إلى هناك فاستقبله سامى شرف وقدم له فنجانا من القهوة ثم فتح بعد قليل درج مكتبه وأخرج له ظرفا مغلقا وأعطاه له وتساءل يوسف عن محتوى هذا الظرف

فقال له السكرتير بكل بساطة : إنه مبلغ الجائزة التى رفضتها وقد أمر الرئيس بأن نعطيه لك.

روى لى يوسف إدريس عن مشاعره وعن الخجل الذى اعتراه والمهانة التى أحس بها وقرر رفض المبلغ ولكن السكرتير استهول هذا الرفض، إذ كيف يرفض إنسان هبة تأتيه من الرئيس . ولعله ألح إلحاحا شديدا على يوسف وفى شىء يشبه التهديد حسب روايته لى فأخذ المبلغ وهو يكاد يتعثر فى خطاه .

كانت لنا أيضا حربنا الثقافية، كنا ندعو للفكر الاشتراكى وكنا نفضح فى نفس الوقت المحاولات العديدة التى راحت الجهات الأمريكية تخوض بها معركتها ضد الفكر الاشتراكى مثل مؤسسة فرانكلين للنشر وغيرها من الأنشطة الثقافية الأخرى . وأثبت أحد التحقيقات، التى قامت بها مجموعة الكاتب، أن هذه المؤسسة كانت تدفع للمترجمين أجرة ترجمة الكتاب ولا تمانع إذا نشر المترجم الكتاب فى جهة أخرى وحصل منها أيضا على أجر آخر للترجمة، وكان هذا يتم عن طريق مؤسسات النشر التابعة للدولة .

من هذا المنطلق توقعت أن تعاكسنى الأجهزة الأمريكية عندما أطلب الفيزا لزيارة أخوىّ، ولكن هاهى ذى الفيزا تأتى بهذه السهولة وبذلك الأسلوب البالغ التهذيب .

كان قد مضى على هذه الحوادث عدة سنوات قد تقارب العشر . وكنت قد تركت مصر منذ حوالى ثلاث سنوات، وكان مغضوبا علىّ إلى حد ما . وكنت أيضا شخصا منهكا خرجت لتوى من أزمة قلبية خطيرة . حقا كنت أعامل بشكل جيد فى العراق أنا وأسرتى، ولكننى كنت شديد القلق فيما يبدو وكانت الأزمة القلبية إحدى علامات هذا القلق . لم تكن حياتى سعيدة فى مصر وكنت دائما أتعرض لمشاكل ولنكسات فى حياتى وربما كنت أشعر أنى لم أحصل على ما أستحق، إذ تعرضت للفصل أكثر من مرة وإن كنت قد أفلتّ من الاعتقال . ولكن كان ذلك محض صدفة لا أكثر ولا أقل، ولكننى على الرغم من كل ذلك وبسبب ثقافة وطنية طويلة النفس منذ الثورة الوطنية سنة ١٩١٩، كنت أتشرب مشاعر وانفعالات شديدة القوة تربطنا بهذا الوطن العجيب . ومهما تذرعت بالمنطق والعقلانية كانت تغلبنى هذه العاطفة غير المتعقلة . وكنت منبهرا بمقال رائع لـ "برنارد شو" يتحدث فيه عن الوطن، ويقول أنه المكان الذى تتحقق للمواطن فيه كل الحقوق، وتكفل فيه الكرامة والسعادة . ولكن هيهات كانت الجرعات التى ورثها جيلنا عن أجيال آبائنا وأجدادنا بالغة التركيز، وجرت فى شراييننا مع دمائنا على الرغم من سذاجتها البالغة .

كنت قد فقدت الكثير من وزنى بسبب الرجيم القاسى الذى قمت به، على الرغم من أننى لم أكن بدينا على الإطلاق فى أى يوم الأيام . وكانت الطائرة التى ستبرح العراق متجهة إلى الولايات المتحدة تمر أولا بمدينة كوبنهاجن . وكان علينا أن نقيم حوالى ثلاثة أيام حتى نأخذ الطائرة إلى نيويورك، ومن هناك إلى سان فرانسيسكو .

نزلت بى الطائرة فى هذه المدينة الرائعة ونزلت بفندق فخم مع سائر المسافرين . وفى خلال الأيام الثلاثة زرت أكثر الأماكن شهرة وتمتعت بالنظافة والهدوء العجيب . كانت القاهرة حتى فى تلك الأيام مدينة صاخبة مزدحمة بالسكان، وكذلك كانت بغداد إلى حد ما، أما فى كوبنهاجن فما أغرب هذا الهدوء وهذه الميادين المتسعة والنظيفة وتلك التماثيل المنحوتة نحتا جيدا والشوارع الأنيقة، ودور السينما وقاعات المسارح . ولعلى دخلت إحدى قاعات السينما

وشاهدت فيلما رائعا للمخرج السويدى الشهير "برجمان". وتسكعت فى الشوارع وأنا أشترك مع العابرين والواقفين من أمثالى فى الإحاطة بمجموعة من الشباب تعزف لحنا أو تغنى أغنية ما . وتعجبت أن الغناء كان باللغة الإنجليزية . ولكن المفاجأة حدثت لى وأنا أدخل إلى مطعم الفندق الفخيم لأتناول طعام العشاء .

كانت الموائد مستديرة مغطاة بمفارش ناصعة البياض تتوسطها فازة مليئة بالورد الأحمر الطبيعى، أما الجرسونات فكانوا يلبسون جاكت من الشاركسكين الأبيض على بنطلون أسود محبوك حبكا جيدا . وقفت حتى اختار لى أحد الجرسونات مائدة ما عندما عرف أننى وحدى ووضع أمامى قائمة الطعام والشراب . رحت أقرأ القائمة ولكن عينى وقعتا على رجل يقف فى صدارة المطعم فى مواجهتى يلبس بدلة سوداء كاملة علامة على أنه المتردوتيل المشرف على كل الموائد . حملق فىّ الرجل وتأرجح فى وقفته يمينا وشمالا حتى أقلقنى، ولكنه بعد قليل تقدم حتى جاء إلى مائدتى . قلت لنفسى لعله يريد أن يؤدى خدمة لى إذ كان تحركه فيه شىء من المودة . تطلعت إليه إلى أن وقف إلى جوارى وإذا به يهمس فى أذنى بلغة عربية وبلهجة مصرية واضحة : يا أستاذ أحمد أنا ينى . أنت فاكرنى ؟

حملقت فى وجهه وعرفته على التو، كان هو الجرسون اليونانى الذى يخدمنا فى قهوة ريش الشهيرة، التى نداوم على الجلوس فيها فى القاهرة منذ نهاية الأربعينيات حتى مغادرتنا لمصر .

صافحته بحرارة فالحق أنه كان جزءا من حياتنا، وأظن أن المصريين بشكل عام يألفون اليونانيين ويحبونهم . وكان ينى يفرح بنا ويحبنا وينظر إلينا كما ينظر زميله المصرى على أننا الشباب المثقف المهموم بشئون البلاد والمتعلم تعليما رفيعا، وكانا يبديان الإعجاب بنا وربما كانا يشجعاننا بمعاملتهما الطيبة واحترامهما الشديد لنا . وكثيرا ما كان ينى ينصت إلى حديثنا بانتباه شديد . وفى بعض الأحيان كان ينطلق بسؤال فنجيبه عليه، وكان مرحا وابن نكتة، ولا أظن أن أحدا فى مصر كان يفرق بين اليونانى والمصرى فى ذلك الوقت . وبالنسبة لنا كيساريين كنا نعلم الدور المتقدم الذى لعبته النقابات العمالية اليونانية فى مصر والإسكندرية تجاه القضايا الوطنية . ومن الشخصيات التى لا أنساها، شخصية رجل يونانى كان يملك مقهى صغيرا فى شارع فرعى يتفرع من شارع سليمان باشا (طلعت حرب حالياً) اخترناها لنلتقى فيها خصوصا أيام اشتغالى بالعمل السرى فى الحركة الشيوعية، وكان هو ذا اتجاهات يسارية، حتى أنه بعد مرور بعض الوقت اعتبر القهوة وقفا علينا . كنت أكتب أيضا فى هذه المقهى فلا يعكر صفوى أحد .

كان عمل المقهى تزويد المكاتب المحيطة بها بطلبات القهوة والشاى، وكان روادها لهذا السبب قليلين نتيجة لانزوائها فى هذا الشارع الجانبى . على أن هذا المقهى شهد الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى وكثيرين غيره من الأدباء العرب الذين كانوا يزورون مصر فى ذلك الزمان، وكان يأتيها الأدباء الكبار من الجيل الذى يسبقنا مثل مندور ولويس عوض وغيرهما . وكثيرا ما كان "مسيو باستونى" يحمينا عندما يتسكع المخبرون الذين يتجسسون علينا حولنا أو يسألونه عن الأحاديث التى تدور بيننا . وكان ينى من هذا النوع من الرجال الذين على الرغم من تعليمهم المحدود يعرفون أننا نخاطر بحرياتنا ومستقبلنا من أجل الرغبة فى إصلاح الأحوال .

لم يكن فى نظام هذا المطعم الدانمركى الفاخر ما يسمح بأن يقف المتردوتيل ليتجاذب أطراف الحديث مع أحد الزبائن، ولذلك كان ينصرف ثم يأتى بعد قليل ليكمل حديثه معى،

الذى تركز حول ذكرياته واستوحاشه لحياته القديمة وسؤاله عن أحوال الأماكن، والناس الذين عاشرهم، والذين يعرف أننى أعرفهم، وأوشك أن يعبر عن ندمه لفراق مصر . كانت آثار النعمة بادية عليه، ومع ذلك لم يكن سعيدا .

هل النوستالجيا عندما رآنى ؟ أم أن الحياة فى مصر فى ذلك الوقت كانت سعيدة بالنسبة له ؟ بعد ذلك وفى رحلات مختلفة التقيت بأشخاص من هذا النوع كان لديهم نفس الشعور والحنين .

طارت بنا الطائرة بعد هذه الأيام الثلاثة إلى نيويورك وكان من المفارقات الغريبة أن قائد الطائرة الأمريكى بعد أن أعلن وصولنا إلى مطار «جون كنيدى» فى نيويورك قال أنه تلقى تعليمات من المطار بتأجيل الهبوط لأن أحد الأشخاص اختطف سيارة نقل ويلف بها فى سرعة جنونية فى كل أرجاء المطار وأنهم يحاولون الإمساك به وإيقافه . وكان هذا استقبالا مناسبا تماما لتصوراتى عن الحياة فى المجتمع الأمريكى والتى تغرقنا بها الأفلام الأمريكية . وقد احتاج الأمر إلى حوالى نصف ساعة ونحن نحلق حول المطار حتى تمكن رجال الأمن من إيقاف هذا الشخص المضطرب عقليا بغير شك .

كان المطار مختلفا تماما عن المطارات الأوروبية، ويوشك بسبب الازدحام وعدم الانضباط أن يشبه مطارات دول العالم الثالث . على أننى عندما وصلت إلى رجال الجمارك فتح حقيبتى أحد الموظفين وكان فى الغالب من أصل يونانى أو أرمنى بشىء من التلقائية التى توشك أن تكون غير مهذبة، وقلّب فى الحقيبة قليلا وأمسك بأدوية القلب التى كنت أصطحبها معى بالطبع وقال متسائلا، وبشىء من الرقة لأول مرة : هل أصبت بأزمة قلبية ؟ فلما أجبته بالإيجاب راح يروى لى تجربته، إذ أنه خرج منذ قليل من أزمة مشابهة وراح يعرض علىّ مشاكله ويسألنى النصيحة . وبالفعل تبادلنا الحديث وكأننا أصدقاء، ولعلنا اشتركنا فى ذم النظم الاجتماعية القائمة والتوترات العصبية التى تصيب الناس بسبب اختلال الأوضاع وقلق الناس .

كان علىّ أن آخذ طائرة أخرى من موقع آخر داخل المطار البالغ الاتساع لأطير إلى سان فرانسيسكو . وبالفعل هبطت فى هذه المدينة الجميلة . ولكننى لم أجد أخى فى انتظارى، ولما كان عنوانه معى فإنى لم أتردد بعد انتظار طويل إلى حد ما وأخذت تاكسى أعطيته العنوان . كان موقع سكن أخى بالقرب من مبانى "الناسا" على بعد حوالى عشرين ميلا استغرقت قرابة الساعة بالسيارة . كنت متعبا بعد رحلة طويلة، وكنت غاضبا إلى حد ما بسبب هذه الفوضى، إذ كنت أتوقع أن أجد أخى فى انتظارى، وكنت قد أرسلت له مواعيد وصولى، ولذلك لم ألتفت إلى السائق إلا حين تكلمت معه وأنا أعطيه العنوان . وهأنذا أنظر إليه الآن من وراء رأسه وهو يقود السيارة فى صمت . كانت له ضفيرة شعر طويلة قد جمعها فى ربطة ما . كان أوروبيا من أصول ألمانية فى الغالب . ولاحظت أنه ينظر إلىّ من خلال المرآة، ولما لاحظ أننى أتطلع إليه، سألنى من أى البلاد أنا، فلما قلت له من مصر ولكننى قادم من العراق، ظهر عليه شىء من الحماس وقال ما معناه أننى جئت من أقدم حضارتين فى العالم، وأنه درس فى الجامعة علم الآثار المصرى على يدى عالم الآثار الشهير "إمرى" .

لم أسأله لماذا يعمل سائقا للتاكسى، ورحت أستمع إليه وهو يتكلم عن خبراته فى هذا العلم ومشاكله العلمية . ولعلى فهمت أنه عانى من شىء من الاضطرابات الخاصة بأسرته جعلته

ينصرف عن هذا العمل الأكاديمى، والذى لم يكن عليه طلب فى هذا المجتمع السلعى، ويعمل على تاكسى . وحدثنى بالفعل حديث رجل مثقف ملم بما يدور فى العالم حوله، بحيث شعرت إلى أى مدى من الممكن أن يكون الناس قريبين جدا من بعضهم البعض وأن تلك الفوارق التى يتحدثون عنها ليست صحيحة على الإطلاق .

كان للرجل ولع شديد بالحضارة المصرية القديمة، وكان على علم أيضا بالحضارة العراقية القديمة . وعندما وصلنا إلى العنوان كنا قد أصبحنا بالفعل أقرب ما نكون إلى صديقين . ولكن لأننا وصلنا ليلا، وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساءً، وكان المبنى الكبير الذى يسكن فى أحد شققه أخى مطفأ تماما إلا من قليل من الإضاءة . لم نجد بوابا أو مكتبا للاستقبال وكان الباب الرئيسى مغلقا، فدققنا الجرس وكررنا الدق إلى أن سمعنا صوتا مضطربا وخائفا خلف الباب يسأل فى غضب عما نريد، دون أن يفتح الباب، فلما قلنا له أننى جئت لزيارة أخى فلان، طلب منا جواز السفر ووارب الباب قليلا ثم أقفله سريعا، وبعد قليل فتحه مرة ثانية وأعطانى الجواز قائلا أن أخى فى "هوائى" وسيعود غدا . ثم أقفل الباب وانتهت المناقشة .

عجبت لهذا الرعب الغريب، فشرح لى صديقى عالم الآثار سبب هذا الاضطراب، إذ كانت جرائم السطو منتشرة . وكان على الناس فى هذه الضاحية البعيدة عن سان فرانسيسكو، أن يتخذوا من أسباب الحذر ما يجعلهم بعيدين عن أى ذوق أو تهذيب . وليس أمامى إلا أن أبحث عن موتيل قريب . وبالفعل عدنا بالتاكسى إلى أن وجدنا موتيلاً مضاءً وحجزت غرفة ووضعت حقائبى وساعدنى فى كل ذلك عالم الآثار، فدعوته لتناول شىء من الشراب فقبل . وجلسنا نتحدث قليلا ثم استأذن للانصراف، فلما سألته عن الأجر طلب منى عشرين دولارا . وكان هذا مبلغا قليلا بالنسبة لطول المشوار وللجهد الذى بذله معى، ولكنه رفض أن يزيد هذا المبلغ، حتى أنه أوشك أن يعتبر إلحاحى من أجل الزيادة عملاً لا معنى له ومضيعة للوقت فى كلام فارغ . أعطيته العشرين دولارا وصافحته بحرارة، ولعلنا تبادلنا البطاقات .

عندما استلقيت فى الفراش كنت سعيدا وكنت أشعر بأننى أنتمى إلى عالم ليس سيئا كما كنت أظن فى بعض الأحيان، وهأنذا أكتشف ما يؤكد اعتقادى بوحدة الجنس البشرى وغلبة العنصر الطيب فى الإنسان . كانت الماركسية تؤمن بالطبيعة الخيرة للإنسان، وأنه حين تتوافر فرص للعلاقات السليمة من الممكن أن تصل المجتمعات البشرية إلى مرحلة المدينة الفاضلة التى يحلمون بها منذ أقدم العصور .

فى الصباح اتصلت بالمجمع السكنى الذى يسكن فيه أخى فعلمت أنه اتصل بالتليفون وعلم بوصولى، وأنه فى طريق العودة وتركت رقم تليفونى ورحت أتجول فى الشوارع المحيطة لأن وصول أخى سيكون قبل الظهر بقليل . سرت فى شارع طويل عريض فلم أجد من المارة إلا عددا ضئيلا يعد على أصابع اليد الواحدة . وبين وقت وآخر تعبر سيارة متهادية دون أن تتوقف تقريبا . دخلت أحد المحلات واشتريت بعض الأشياء تضييعا للوقت ولميل كامن فى نفس أى إنسان فى الحديث والتعامل مع الناس . كان كل شىء هادئا بل وجميلا . ولما عدت إلى الموتيل اتصلت بأخى الثانى الذى يعمل باحثا فى جامعة "بركلى" ويسكن فى "ديفز" على بعد عشرين أو ثلاثين ميلا، لأن زوجته التى كانت تلميذته فى كلية الزراعة بمصر، تدرس للدكتوراه فى جامعة ديفز، التى أنهى فيها أخى دراسته للدكتوراة منذ عدة سنوات . رد علىّ أخى الثانى وقاد سيارته قادما إلىّ . وعند الظهر تقريبا اجتمع شملنا، وكان لقاءً جميلاً رغم اضطرابات المواعيد وعدم توفيقنا فى ضبط الأمور بشكل جيد .

كنا فى صيف سنة ١٩٧٧ وكان الجو معتدلا إلى حد ما . أخذنى أخى مصطفى إلى مكتبه أو معمله فى مبنى الـ «نـاسـا» فدخلنا هذا المبنى الخطير دون أى تلكؤ أو تحريات . حيا أخى الحراس فى مودة ظاهرة ودخلنا إلى معمله حيث وجدت عددا من القرود وقد عصبت رءوسهم عقب جراحة ما أجراها أخى . وعلمت منه أن هذه القرود جزء من التجارب التى يقوم بها فى بحثه عن نظام عمل الساعة البيولوجية . ووجدت جهازا ضخما قال لى فى ذلك الوقت أنه كمبيوتر متصل بالكمبيوتر المركزى . وسألنى ما الذى أريده من معلومات ليستحضرها أمامى على هذا الكمبيوتر، وبالفعل سألت عن معلومات متعلقة بالأدب فجاءتنى البيانات المختصرة مع ملاحظة أننى لو أردت الاستفاضة فعلى أن أطلب ذلك . لم يكن الكمبيوتر الشخصى قد انتشر بعد . وكان هذا الجهاز ضخما ولا يتناسب فى حجمه مع الأجهزة التى نعرفها الآن .

زرنا بعد ذلك المواقع الأخرى وبخاصة ذلك الموقع الذى يتدرب فيه رواد الفضاء على حالة انعدام الوزن . كان شعورى غريبا، إذ كانت تصوراتنا عن تلك الثورات العلمية والتكنولوجية خيالية وكأنها من عالم السحر والخرافة، بينما كان الواقع بسيطا تظهر فيه اليد الإنسانية التى تخوض تجربة وراء أخرى حتى تستقر على شىء من النجاح .

زرت هـذا المكان أكثر من مـرة لأرى أكثر من موقع وكنـا فى الصباح نجد - كل يوم - نشرة مطبوعة فيها أخبار كل إنجازات البحث فى المجال الذى يشتغل فيه أخى فى جميع أنحاء العالم وكانت توزع على الباحثين فى مقر الناسا وبهذه الطريقة كان الباحث الأمريكى ملما بكل التطورات التى تحدث فى العالم بالنسبة لفرع العلوم الذى يشتغل فيه .

كانت الحياة بسيطة بالفعل، إذ كان أخى يسكن فى هذا المجمع السكنى الذى يحتوى على حمام للسباحة ومكان للاحتفالات ومغسلة متعددة الماكينات للسكان، فضلا عن شقة استديو جميلة وبسيطة وفيها كل ما يحتاج إليه الإنسان . لكن الأهم من كل ذلك، هو الاستعدادات التى تزود بها معامل أو مكاتب الباحثين حتى فى الـ "ناسا" . فهناك ثلاجة فيها ما يحتاج إليه الباحث من الشراب أو الطعام الخفيف والسريع إلى جانب غلاية القهوة وكأنه يعيش فى بيته . وكان الباحث يقضى كل يومه تقريبا فى ذلك المكان . وكان من الطبيعى أن يزود بكل وسائل الراحة التى يحتاجها مقيم لفترة طويلة . ولذلك لم يكن غريبا أن يقضى الباحث كل يومه تقريبا فى مكان عمله . وعلمت من أخى أنه كثيرا ما كان يخرج من بيته حتى بعد منتصف الليل ليذهب إلى معمله، ليتأكد من فكرة أو ليراقب نتيجة تجربة سوف تظهر عند ساعة معينة من الليل . ولم يكن الراتب أو المنحة التى يتقاضاها كبيرا ولكنه كان كافيا ليعيش حياة كريمة ويصرف منها لقضاء إجازات قد تكون مكلفة أحيانا ويسمح له أيضا باقتناء سيارة جيدة والتمتع بطيبات الحياة بشكل عام .

فى نفس اليوم جاءنا أخى محمود من بركلى حيث أخذنى لنزور هذه الجامعة العريقة ويرينا مبانيها وأقسامها المختلفة والمكان الذى كان يعيش فيه العالم "ألبرت أينشتاين" عندما كلف بتشكيل كتيبة العلماء والمهندسين الذين كان عليهم أن ينتجوا أول قنبلة ذرية تلك التى أطلقت على هيروشيما وناجازاكى فى اليابان، والتى أدت إلى إنهاء الحرب العالمية الثانية . ولعلى رحت أتأمل هذا الأسلوب فى البحث العلمى والتكنولوجى، إذ كانت الإدارة التى تريد أن تحقق شيئا فى المجال العلمى أو التكنولوجى ليس عليها أكثر من أن تختار العالم أو المهندس المشهود له فى تخصصه ثم تفرد له ميزانية مناسبة، وتترك له أن يشكل جماعات البحث التى

يعتقد أنها سوف توصله إلى النتيجة المنشودة . وهذا هو ما فعله أينشتاين، إذ اختار هو الآخر الكفاءات العلمية والتكنولوجية التى توصله إلى النتيجة المرجوة وهى صناعة القنبلة النووية . وينطبق هذا على سائر الأبحاث الأخرى وفى مختلف المجالات . وهو نظام اعتقد أنه مناسب جدا وأثبت نجاحه بشكل دائم .

زرت أغلب المواقع فى هذه الجامعة الضخمة والتى لم تكن فى ذلك الوقت مكتظة بالطلبة بل كانت أقرب إلى الهدوء إذا قسناها بأية جامعة فى مصر أو البلاد العربية الأخرى .

عندما انتقلنا إلى "ديفز" وهى قرية جامعية اشتهرت بالدراسات الزراعية، أحسست كما لو كنت أسير فى حى المعادى على أطراف مدينة القاهرة بمصر . وكان الجو حارا بطبيعة الحال وأقرب ما يكون إلى نفس الجو المصرى فى هذه الضاحية فى ذلك الوقت من السنة، وكانت القرية قريبة من مدينة سكرامنتو التى كانت العاصمة لولاية كاليفورنيا، وفيها يسكن حاكم الولاية ويباشر عمله مع الإدارات المختلفة، وأظنه كان فى هذا الوقت "رونالد ريجان" الذى صار رئيسا بارزا للولايات المتحدة، وقائدا للتيارات اليمينية المتطرفة التى عمدت منذ وقت مبكر إلى تربية هذا الممثل الذى تخصص فى الأدوار الثانية فى أفلام السينما الأمريكية، والذى كان ربيب أجهزة الأمن الأمريكية، وخاصة فى المرحلة الماكارثية عندما نشط نقابيا وصار عليه أن يبلغ عن زملائه من الفنانين الذين كانت لهم ميول يسارية .

كانت مدينة سكرامنتو هادئة تماما والغريب أنها اختيرت عاصمة للولاية الكبيرة التى كانت تضم مدينة "لوس أنجلس" ثانى أكبر مدينة فى الولايات المتحدة كلها، وفيها ضاحية هوليوود الشهيرة باستوديوهاتها الهائلة ونشاطها السينمائى الذى انتشر فى كل أنحاء العالم .

قضينا يوما ممتعا فى "سكرامنتو" وذهبت إلى إحدى دور السينما، وكانت جزءا من مجمع يضم حوالى خمس دور للعرض السينمائى فى بناية بسيطة جدا، ولعلى شاهدت فيلما عن القائد العسكرى الأمريكى "ماك أرثر" الذى وقع أمامه إمبراطور اليابان وثيقة الاستسلام بعد إلقاء قنبلتى هيروشيما وناجازاكى .

لست أدرى لماذا وجدت أمريكا مختلفة تماما عن الصورة التى تقدمها لنا السينما الأمريكية . فها هنا الحياة لا تكاد تختلف عن الحياة فى مدن العالم المتحضر الأخرى، والصورة الهوليوودية بعيدة تماما عن الحقيقة من حيث المبالغة والتهويل . وحتى عندما سرقت سيارتنا فى سان فرانسيسكو عندما كنت فى صحبة أخى مصطفى لنتفرج على المدينة الشهيرة لم أشعر بأن هذا شىء غريب إذ أننى تعرضت لسرقة سيارتى فى مصر مرتين .

❖ ❖ ❖

٤٤

الحنين إلى الوطن

قلت لأخى لنترك السيارة ونمشى على الأقدام، فهذه خير وسيلة للتعرف على بلد من البلاد . وبالفعل ظللنا نتجول لعدة ساعات حتى هدنا التعب .

كم كانت سان فرنسيسكو جميلة، وكم كان ترامها قريبا إلى نفسى أنا الذى عاشرت الترام فى مدينة القاهرة سنوات طويلة . كنا قد اقتربنا من الغروب فتوجهنا إلى الشارع الذى تركنا فيه السيارة ولكننا لم نجدها، وقلنا لعلنا تركناها فى الشارع الموازى، وهكذا من شارع إلى آخر دون أن نعثر لها على أثر، وعندما لاحظ أخى تعبى قادنى إلى مطعم ولعله أحد فروع مطاعم ماكدونالد أو نوع من كافيتريا، فجلست إلى مائدة من الموائد بعد أن أخذت فنجانا من القهوة فى انتظار أخى الذى لم يفقد الأمل فى العثور على السيارة . وسرعان ما تبينت أننى جلست فى مكان مشبوه إذ كانت هناك طرقة طويلة تنتهى إلى باب مقفل رأيت الناس يأتون من الشارع ويدخلون من هذا الباب الذى ظننته أول الأمر دورة مياه ولكننى لاحظتهم يخرجون وهم يترنحون . وعندما التفت إلى جانبى حيث مائدة بجوار نافذة، وجدت رجلا أسود يجلس إلى المائدة وفى الناحية الأخرى يجلس شاب أبيض ينظر من زجاج النافذة المغلق إلى الخارج، وكان من الواضح أنهما ليسا معا، وقبل أن أحول رأسى إلى جهة أخرى، وأنا أتفحص المكان، سمعت الرجل يقول بصوت ماجن : "هالو شوجر" (أى مرحبا يا سكر) .

وكان فى الواقع مشهدا من مشاهد الغزل يحاول فيه الرجل الأسود إغراء الشاب الذى كان يبدى من الخجل مثلما تفعله أى فتاة فى مثل هذا الموقف . حولت رأسى سريعا لأجد شابا يأتى إلى مائدتى ويجلس قبالتى وهو ممسك بساندوتش وكوب من الكوكاكولا، ومن اللحظة الأولى لاحظت أنه شخص غير طبيعى . كان يحملق فى وجهى بعينين مفتوحتين على آخرهما حتى أربكنى، فحولت ناظرى عنه لأراقب مشهد الإغراء الآخر حتى أتجنب هذه الحملقة الغريبة . وفى هذه الأثناء وجدت رجلين يمشيان فى ردهات المطعم ويتحدثان بصوت عال جدا ذهابا وإيابا، وبعد قليل جاء شاب أسود يحجل فى مشيته ولشدة دهشتى وجدت أحد الرجلين اللذين يجوبان هذه الردهات يصرع الشاب بلكمة مفاجئة فيسقط على الأرض، ثم يسحبه على الأرض ويلقى به خارج المطعم . أدركت أننى دخلت مكانا مشبوها وأننى قد أتعرض لمشكلة ولذلك قررت الخروج من المطعم والانتظار فى الشارع .

خرجت وأنا أتجنب نظرات ذلك الشاب الغريبة . كان المطعم على ناصية شارع منحدر ، وغالبية شوارع سان فرانسيسكو مثل المدن الساحلية منحدرة فى اتجاه البحر، ما كدت اخرج حتى شممت رائحة بول آدمى بالغة النفاذ والتفت لأعرف مصدرها فوجدت مجرى للبول ينحدر مع انحدار الشارع ووجدت رجلين نائمين أو مغمى عليهما وكانا فى الغالب المسئولين عن هذه الرائحة الكريهة . وقفت حائرا أين أذهب . إذ كان علىّ أن انتظر أخى فى ذلك المكان وليس شيئا سواه . والغريب أننى وجدت رجلى بوليس أمريكيين فى لباسهما الرسمى وكانا ضخمى الجثة يتمنطقان بحزام يلف وسط كل منهما ويتدلى منه مسدس ضخم . كانا يسيران فى الشارع دون أن يبدو عليهما أنهما لاحظا شيئا غير عادى . عدت مرغما إلى الداخل مرة أخرى . كان الشاب المحملق قد انكب على طعامه ولكن بهدوء بل أقرب إلى البطء الشديد حيث راح يمضغ بدون أن يبدو عليه أنه يستطعم طعامه . لم أجرؤ على العودة إلى نفس المائدة وذهبت إلى مائدة أخرى وكانت مخاوفى وقلقى قد ازداد بحيث قل تركيزى فى تأمل هؤلاء الناس .

كان المطعم أو الكافيتريا أقرب إلى الشعبية وكان رواده من السابلة أو المتشردين أو المدمنين وكان من الواضح أن وراء هذا الباب الذى يدخله الزائرون شخصا أو أشخاصا يحقنون الزبائن بحقن المخدرات وكان هذا سبب خروجهم المترنح . إذن أنا فى مكان خطر . ولست أدرى كيف قضيت ما بقى من الزمن إلى أن جاء أخى دون أن يعثر على السيارة وكان قد أبلغ البوليس وكان من المستحيل أن نجد مواصلة سهلة وقد جاوزت الساعة منتصف الليل فذهبنا إلى أحد الفنادق ونمنا ليلة بالغة الصعوبة .

لم يكن ما رأيته فى ذلك المطعم شيئا غريبا علىّ، فلم أكن قادما من مدن لا تعرف الإدمان أو الانحراف فى هذا الاتجاه أو ذاك . ولكن كيف فى مدينة رائعة الجمال بحق مثل سان فرانسيسكو تعيش شريحة من شعبها أو شرائح أيا كان تصنيفها هذه الحياة الشاقة بل والبائسة . لماذا يلجأ الناس بهذه الكثرة إلى المخدرات ؟ لماذا يبدو البؤس والفقر على جزء من سكان هذه المدينة الجميلة والبالغة الثراء . وكيف لم يستطع التقدم العلمى والتكنولوجى وربما الثقافى أيضا أن يخلص مجتمع سان فرانسيسكو من هذا البؤس البشرى ؟ لقد سرقت سيارتنا وقضينا يوما مزعجا فى مدينة كان من المفترض أن تكون سعيدة ومستقرة وآمنة . إذن أمامنا سنوات طويلة وأجيال أخرى قبل أن تتمكن المجتمعات البشرية من أن تحل مشكلاتها وتصل بالجنس البشرى إلى بر الأمان . فهانحن فى مدينة من أهم المدن الأمريكية ومن أغناها ومع ذلك فالحياة بائسة ومحزنة ومليئة بالألم والجنون والرغبة فى الفرار ؟

❖ ❖ ❖

انتقلنا بعد ذلك إلى مدينة أو قرية ديفز الجامعية ومن هناك قرر أخواى أن يصحبانى فى سفرة طويلة خلال هذه الإجازة لزيارة أكثر من ولاية بالسيارة ، وبالفعل قضينا حوالى شهر ننتقل من ولاية إلى أخرى حتى زرنا حوالى إحدى عشرة ولاية، أغلبها كان على الشاطئ الغربى للولايات المتحدة .

ربما كان الشىء الوحيد الذى لاحظت أنه مختلف عن حياتنا فى القاهرة أو بغداد هو أننى كنت أتحرك فى مساحات هائلة من الفضاءات والأقل ازدحاما من أى مدينة عشت فيها ولعلى سرحت مرة فى تأثير هذا الفضاء البالغ الاتساع على الناس فى أمريكا . استيقظت ذات يوم

مبكرا وأخذت حمامى وجلست على دكة خارج الموتيل الذى نزلنا فيه أنا وأخواى وزوجة أحدهما فى انتظار أن يلحقوا بى لاستكمال هذه الرحلة العجيبة، فوجدت شابا يجلس إلى دكه خشبية فى نفس المكان، حييته تحية الصباح . كان شابا فى العشرين من عمره وكان ينظر إلى موتوسيكل مركون إلى جوار حائط الموتيل فسألته هل هو ملكه ؟ فأجاب بالإيجاب، ثم قال لى أنه قرر أن يقوم برحلة يلف بها أكبر قدر من الولايات، وأن هذه إحدى الرياضات التى يحبها ويفعلها دائما عندما تسنح له الفرصة .

رحت أرقب الشاب وأنا أبادله الحديث . كان متوحدا إلى أقصى درجة، قليل الكلام مكتفيا بذاته تماما . ولعلى تذكرت حكاياتنا فى ألف ليلة وليلة وغيرها والرجل الذى يخرج من بيته بلاد تشيله وبلاد تحطه، وهو يقابل أشكالا مختلفة من البشر ويتعلم الشىء الكثير عن البلاد والناس . ولكن هذا يستلزم قدرا كبيرا من الاعتماد على الذات والاكتفاء الذاتى بمعنى القدرة على الحياة والتجوال وحيدا تماما . ولعلى رحت اتأمله، وخيل لى أننى وجدت وراء هاتين العينين عالما من الصور والخيالات والأفكار تكفى لأن يجلس زمنا طويلا مع نفسه يتأملها ويراجعها ويتفهمها دون شىء من الضجر أو الملل . ويبدو أن العيش فى بلاد مفرطة فى الضخامة والاتساع مثل الولايات المتحدة يخلق هذا النوع من الهوايات وكان الناس قديما يعيشون هذه التجربة أيام الإمبراطوريات الكبرى التى تضم العديد من الأقاليم والبلاد مثل الإمبراطورية الرومانية والإسلامية وحين نشأت الدولة القومية أو قل الوطنية أصبحت الحدود الجغرافية عائقا يوقف الحلم بالتجوال فى أنحاء الأرض ولقاء مختلف الأجناس البشرية التى تعمر الأرض فى هذا المكان أو ذاك .

وبعد زيارتى العجيبة هذه لأمريكا وإقامتى فى بريطانيا شاهدت على شاشة التليفزيون الكاتب الروسى المنشق(سولجنتسين) والذى حصل على جائزة نوبل فى الأدب، يرد على المذيع البريطانى الذى يحاوره والذى سأله لماذا ترك الإقامة فى بريطانيا وسافر إلى الولايات المتحدة ؟ فقال أنه اكتشف أنه لا يستطيع أن يعيش فى بلد صغير مثل بريطانيا . وأنه تعود على المسافات الشاسعة والأقاليم المختلفة عرقيا وثقافيا فى الاتحاد السوفيتى، حيث يسافر القطار عدة أيام ويخترق عوالم وأراضى مختلفة ومتنوعة إلى درجة الثراء الفاحش .

أظن أننى أدركت معنى هذا الكلام على الفور وكان فى الحقيقة غريبا تماما عن تجاربى الحياتية من خلال تلك المعايشة المحدودة داخل الولايات المتحدة . ولقد جربت فى تلك الرحلة البرية بالسيارة النوم فى الخيام والسير ساعات طويلة بل أن أخواى أعدا شيئا من المنامة فى آخر السيارة "الستيشان واجن" وكنت أنام فيها أثناء السفر وكانا يتبادلان السواقة إذ أننا فى الواقع زرنا إحدى عشرة ولاية فى تلك السفرة التى اعتقد أنها استغرقت شهرا .

كانت التجربة بالنسبة لى غريبة ومثيرة مثلما كانت تجربة العيش فى بلد صغير مثل بريطانيا غريبة بالنسبة لكاتبنا الروسى الشهير . وفى مثل هذا العالم الشاسع والبالغ الاتساع يتعود الناس على السفر مسافات طويلة وعلى توقع الغرائب . ولست أدرى ما إذا كان هناك علاقة بين هذا السفر الذى يعتمد فى الكثير من الأحيان على اعتياد الوحدة وحسن التعامل مع الضجر والملل وبين الأفكار الغريبة التى تظهر بين وقت وآخر فى الولايات المتحدة مثل الأديان أو الملل والنحل الغريبة وقد شاهدت ولاية كاملة يؤمن سكانها بمذهب أو ديانة "المورمون" وهى خليط من المسيحية واليهودية لها نبى يدعى "سميث" وسيم الصورة لدرجة

الجمال وقيل أنه عثر على كتاب مقدس فى الجبل لم يلبث أن صار كتاب هذه الجماعة باعتباره مرسلا من السماء . والواقع أن فى الكتاب شيئا من الخطرات الإسلامية أيضا . وقد صبرت على قراءة الكتاب وكان ترددا للكثير من القصص والأساطير المتداولة فى الكتب السماوية المقدسة .

وعرفت أن عدد المؤمنين بهذه الديانة يصل إلى حوالى خمسة ملايين وكان هذا النبى الجديد قد ظهر فى الولايات المتحدة منذ مائة سنة فقط .

كانت هذه طائفة كبيرة معترفا بها ولكن إلى جانب ذلك تظهر نحل أخرى قد يكون بعضها بالغ الغرابة . هل هذا الفضاء الرهيب وما فيه من غرائب جغرافية أو بشرية يطلق العنان للخيال البشرى فتتلبسه مثل تلك الأفكار ؟ لقد سرنا ساعات طويلة وعلى يميننا أو يسارنا غابات تحتوى على نوع واحد من الشجر لا يكاد يتغير فى ألوانه أو أطواله وأشكاله . ولمثل هذا التكرار شديد الإلحاح تأثيره القوى على الوعى الإنسانى وعلى سرحاته وكأنه نوع من التنويم المغناطيسى وهنا تتفجر كل الكوامن فى لاوعى الإنسان ويفسح العقل الواعى المجال للاوعى يتحرك فى كل اتجاه .

هل من هذه الحالات الغريبة تنطلق التصرفات الجنونية المتمثلة فى الانتحار الجماعى، أو فى أعمال العنف غير المفهومة مثل تفجير المبنى الفيدرالى فى "أوكلاهوما" والذى راح ضحيته أكثر من مائتى قتيل لا تربطهم بالقاتل أية علاقة أو خصومة، والذى حدث بالصدفة أثناء إقامتى فى هذه المدينة . لقد رأيت على شاشات التليفزيون الشاب الذى فجر المبنى بعد القبض عليه وكان من السهل علىّ أن اقرأ فى وجهه هذه الحالة الغريبة التى يشكلها العيش والتحرك فى مساحات شاسعة وفى تكرار لا نهائى لبعض مظاهر الطبيعة . وربما كان السير ببطء والحديث ببطء والتفكير ببطء أحد مظاهر هذه الحالة المغناطيسية .

أنهينا هذه الجولة فى حوالى شهر أو أكثر وعدنا إلى ديفز التى تعتبر ضاحية من ضواحى العاصمة سكرامنتو . بعد أسبوع أو أقل كنت قد تشبعت بكل ما يمكن أن تعطيه أمريكا الجغرافية، واشتقت إلى المدن الصاخبة التى عشت حياتى كلها فيها مثل القاهرة أو بغداد أو لندن وبالفعل ودعت أخوى وسافرت إلى لندن لأكمل قضاء إجازتى الصيفية وكنت قد انتويت من قبل أن أقضى الشهور الثلاثة لهذه الإجازة معهما . لم يمض إلا يوم أو يومان حتى كنت قد استرددت نفسى وذهبت عنى هذه الحالة من الخدر الذهنى والبدنى أو التنويم المغناطيسى وعاد إلى إيقاع الحركة السريع والصاخب الذى تعودت عليه .

قضيت الشهر الباقى من إجازتى الصيفية فى لندن . كان لى فيها أصدقاء كثيرون من العرب والمصريين، وكان صديقى وزميلى محمود السعدنى يصدر فى لندن مجلة أسبوعية هى على ما أذكر "٢٣ يوليو" وكنت قد شرعت فى كتابة وصف لرحلتى إلى الولايات المتحدة فأخذ هذه المقالات ونشرها على عدة أعداد وإلى اليوم لم أنشرها فى كتاب .

وكانت لندن قد تحولت إلى ملجأ للكثيرين من السياسيين والكتاب العرب الذين يعارضون أنظمة الحكم فى بلادهم، وكانوا يشكلون كل ألوان الطيف السياسى، فقد تجد المهاجر اليمينى المفرط فى يمينيته أو اليسارى المتطرف أو الليبرالى العادى . إذ كانت الأنظمة العربية هى الأخرى متنوعة فى كل شىء إلا فى الديمقراطية حيث كان من الصعب أن تجد نظاما عربيا واحدا يطبقها . ولكن هذه الأنظمة التى تحسب بشكل ما على الأنظمة الديكتاتورية أو

الشمولية تتصارع، وكانت بؤرة الصراع بين الاشتراكية والنظم (الآسيوية)، على حد التعبير الماركسى، الذى أخرج هذه الأنظمة من تصنيفاته التقليدية كالإقطاعية والرأسمالية والاشتراكية . كانت بالفعل أنظمة تتداخل فيها كل هذه المراحل ولكنها جميعا كانت ذات طابع أبوى يحكمها شخص يلعب دور الأب الذى يعرف مصلحة مجتمعه أفضل من أى شخص آخر وعلى الجميع أن ينفذوا ويطيعوا قراراته . على أن الخلافات بينها كانت رهيبة لأنها انقسمت إلى قسمين أساسيين : الاشتراكى الذى يؤمن بإعادة توزيع الثروة وبالكثير من الكفالات الاجتماعية مثل حق التعليم والعلاج والعمل وأن كان المجتمع يحكم بشكل أبوى ديكتاتورى وكان يحاول أن يخرج من نظام اجتماعى يوشك أن يكون إقطاعيا إلى مجتمع صناعى ذى طابع اشتراكى .

وعلى الناحية الأخرى كانت النظم القبلية التى يتحكم فى مواردها شيوخ القبائل أو شيخ القبيلة الأكبر والتى لها الغلبة على الآخرين والتى قد يسمى فيها الرئيس بالأمير أو الشيخ أو الملك ، وكان توزيع الثروة –والتى كانت فى الغالب ربما يأتى من البترول –حسب إرادة رئيس هذه السلطة، وبالطبع كان النصيب الأكبر من هذه العائدات لهذا الرئيس وعائلته . ومثل هذا النظام يتوجس خيفة من هذه الأفكار التى طبقها العسكريون فى بعض الدول العربية وفى مصر بصفة خاصة، التى كانت تتحرك السياسة فيها على أرض ثقافية ذات طابع اشتراكى . وهكذا كانت الحرب بين النظامين بالغة العنف واشتركت فى تأجيجها الحرب الثقافية والسياسية بين النظام الرأسمالى العالمى وبين النظام الاشتراكى العالمى هو الآخر .

وفى لندن وجد الكثير من الكتاب والصحفيين والسياسيين من كلا النظامين . وكانت الهجرة المصرية قد زادت بعد وصول السادات إلى السلطة فى مصر والذى كان قد خلع العباءة الناصرية وتحول إلى اقتصاد السوق والنظام الرأسمالى بادئا بما أسماه له الاقتصاديون اليمينيون بسياسة الانفتاح . وهكذا تحولت مدينة لندن إلى مسرح للحرب الثقافية والسياسية بين الأنظمة العربية استخدمت كل منها الصحفيين والكتاب المعارضين، وتم ذلك عن طريق إنشاء الصحف والمجلات . وكان النظام الذى ينفق على الجريدة أو المجلة يدخلها إلى بلاده كبوق آخر للدعاية له .

وكان هناك تنبه مثير للدهشة من هذه الأنظمة لكل من يعارضها حتى أن بعض رؤساء تحرير هذه الصحف والمجلات التى صدرت للمعارضة ضد نظام ما لقى مصرعه بالاغتيال والبعض منهم عذب بقطع الأصابع أو اليد كناية عن أنها رمز للكتابة ثم أذيب الصحفى فى مادة كيماوية لا تكاد تبقى من جثته شيئا .

على أننى قضيت إجازتى بعيدا عن هذه الأجواء وأن كنت قد تحدثت مرة أو أكثر لإذاعة البى بى سى العربية عن موضوعات أدبية . وعلى الرغم من أننى كتبت رحلتى إلى أمريكا خلال هذه الإجازة إلا أننى استمتعت بالكثير من المباهج الثقافية التى توفرها مدينة لندن .

كانت أسرتى تقضى إجازتها فى القاهرة ولم أكن أملك أن أسافر معهم بسبب القيود التى وضعت أمام عودتى . التقينا مرة أخرى فى بغداد وواصل أولادى الدراسة بينما عدت إلى قسم الدراما فى أكاديمية الفنون العراقية .

بعد هذه الزيارة الأولى للولايات المتحدة كنت أقضى إجازتى الصيفية فى إيطاليا التى كنت أحبها وأرى أن فى روما شيئا كثيرا من القاهرة كما أن الإيطاليين كانوا أقرب إلينا من أى

شعب أوروبى آخر فيما عدا اليونانيين بطبيعة الحال . ولست أدرى لماذا كان غائبا عن ذهننا أننا عشنا مع اليونانيين أكثر من أربعة قرون منذ الإسكندر الأكبر وعشنا مع الإيطاليين أو الرومان أكثر من ثمانية قرون . وربما كانت هى الدوافع الدينية التى جعلتنا ننسى هذه العهود الطويلة وتنسحب من ذاكرتنا الجماعية بسبب الفتح الإسلامى ثم انخراطنا فى الدين الجديد واندماجنا العجيب فى الثقافة الجديدة والإسهام فى الكثير من مبتكراتها الثقافية والدينية . على أننى قد أكتشف أننى قريب جدا إلى هذه الثقافة الإيطالية وأننى قريب أيضا إلى هذا النوع من العمارة الذى ألقاه فى الشوارع والطرقات وأكثر من هذا اقترابى من الشبه الشائع بين الإيطاليين بهذه الملامح المتوسطة واللون القمحى وكان الناس يحادثوننى بالإيطالية بوهم أننى إيطالى .

كنت قد عدت مرة أخرى إلى لندن حيث أجريت جراحة القلب على يدى الطبيب المصرى مجدى يعقوب وقضيت فى العاصمة البريطانية أكثر من ثلاثة شهور لكننى بعد الشفاء رحت أداوم على قضاء إجازتى فى إيطاليا .

على أن الرحلة الأمريكية الطويلة بدأت بعد استقرارنا فى لندن منذ ديسمبر سنة ١٩٨١ إلى سنة ٢٠٠٤ كان صديقى الدكتور جلال الزيادى الطبيب المتخصص فى أمراض القلب والذى كان أستاذا لأولادى فى كلية الطب فى مصر قد انتقل للعمل فى الولايات المتحدة . وفى نفس الوقت كان أخى محمود قد عاد إلى أمريكا حتى يتيح الفرصة لزوجته فى أن تتقدم لدراسة الدكتوراه فى نفس الجامعة التى تخرج منها . وكان قد عاد إلى مصر وعمل أستاذا بكليته فى جامعة القاهرة لفترة ما قبل أن يعود من جديد إلى أمريكا .

فى هذه الفترة كان الرئيس حسنى مبارك قد تسلم السلطة فى مصر بعد اغتيال الرئيس السادات، وبدأ بالتزام سياسة جديدة فيها شيء من الانفتاح السياسى والحرية . وبالفعل اتصل أصدقائى بالمرحوم شعراوى جمعة الذى كان وزيرا للداخلية فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وكنت أعرفه معرفة شخصية عن طريق صديقنا المشترك كمال الحناوى، وكانت للرجل علاقات جيدة بوزارة الداخلية، حتى بعد تركه للوزارة، وبعد اعتقاله ومحاكمته فى عهد الرئيس السادات . وقلت له أننى أريد العودة لمصر . وبالفعل قام بالاتصال بالأجهزة الأمنية واستطاع أن يؤمن عودتى إلى القاهرة لأول مرة بعد حوالى أحد عشر عاما .

فى مطار القاهرة استقبلت استقبالا جيدا وأدخلونى قاعة كبار الزوار ريثما تنتهى الإجراءات . وجدت زوجتى وبعض أقاربى فى انتظارى وحين جلست ودرت بعينى فى أرجاء تلك القاعة المصرية الطابع وجدتنى أجهش بالبكاء . خجلت من نفسى ولكننى لم أملك أن أتوقف عن البكاء . ولعلى تساءلت بعد ذلك : إلى هذا الحد نحب هذا البلد ؟ ولكن ألم نضيع عمرنا من أجل أن نجعله بلدا عظيما؟ حقا شقينا فيه كثيرا، ولكن كم لقينا فيه من السعادة، وكم كنا نشعر أننا نمتلكه أكثر من أى مكان آخر عشنا فيه . ولكن هذا الوطن كان يتسرب من أيدينا، كانت الحياة تتغير فيه . الشوارع تتغير والأبنية والضواحى والمدن الجديدة بل والناس أيضا .

وكنت قد لاحظت أثناء إقامتى الطويلة فى الخارج أن الكتاب المصريين الذين صاروا يكتبون باللغة الإنجليزية أو الفرنسية قد أصبح لديهم شغف بوصف الأماكن والضغط على الكلمات المتداولة والتى يمكن أن تكون شعبية حتى أن كاتبة مصرية هى أهداف سويف جعلت فى

روايتها "خارطة الحب" ملحقا يفسر الكلمات العامية الكثيرة أو المصطلحات التى ضمنتها الرواية المكتوبة بالإنجليزية. ولعلى رحت أدرك هذه "النوستالجية" أو الحنين إلى الوطن الذى تشعر به الكاتبة، ولعلى أحسست بأن هذه الأوصاف التفصيلية للأماكن نوع من الإمساك بالوطن قبل أن يتسرب من بين أصابع اليدين بسبب ما يلحق المبانى والشوارع و الحياة فيه من تغيير .

نعم ذهبت إلى الأماكن التى عشت وتربيت فيها . قد تكون بقيت مبانيها وشوارعها كما كانت - إلى حد ما - ولكن التغيير لحق كل شىء بما فى ذلك الناس حتى فى سحنهم وسلوكهم، أما المعالم الأخرى كالدكاكين وشكل الحياة فقد تغير . أصبحت الدنيا أكثر ازدحاما وسلوك الناس أكثر خشونة وكانت المدينة التى عرفناها تنسحب من ذاكرتنا شيئا فشيئا أمام هذا الكم الهائل من التغيير وكان شيئا محزنا ومؤلما فى بعض الأحيان .

بعد هذه الزيارة وعودتى إلى لندن رحت أعانى من مشاكل فى البروستاتة، وأجريت بالفعل جراحة فى لندن، ولكن تبين أن لدى إصابة بشىء من السرطان ليس فى أشد حالاته، ونصحت بأن أذهب للعلاج فى الولايات المتحدة، وفى مستشفى جون هوبكنز بصفة خاصة، التى كان فيها طبيب عالمى السمعة . ولم يكن لدى قدرة على مصاريف العلاج فى أمريكا، وأظن أن الدكتور عبد العظيم رمضان المؤرخ المعروف هو الذى أخذنى لنقابل الدكتور مصطفى الفقى الذى كان سكرتيرا للمعلومات فى مكتب الرئيس حسنى مبارك وقد رحب بى ترحيبا كريما، وحين أعلم الرئيس بحاجتى إلى العلاج فى الولايات المتحدة بادر على الفور بإصدار أوامره بسفرى إلى أمريكا والعلاج على حساب الدولة .

كم كان هذا شيئا عظيما بالنسبة لى أعادنى مرة أخرى إلى الوطن، وأزال وحشتى حتى أننى لم أعرف كيف أعبر عن امتنانى أكثر من الشكر والاعتراف بالجميل . وفى هذه الزيارة إلى الولايات المتحدة اصطحبت زوجتى ومررنا بتجربة التعامل مع المؤسسات الطبية فى أمريكا . وقد انتهى الأمر بى إلى أن علاجى بالأدوية وليس بالجراحة أو الكيمو ثيرابى، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أعالج بنوع من الحقن التى وصفها لى الطبيب والتى هنأنى بعد استعمالها أول مرة على أنها توافقت مع استعداداتى البدنية، فهناك بعض المرضى لا تصلح معهم هذه الحقن .

قضينا شهرين أو أكثر فى أمريكا وهناك التقينا بصديقى جلال الزيادى فى مدينة بتسبرج وبشقيقى محمود الذى كان يعمل أستاذا فى جامعة هوستن فى ولاية تكساس، هو وزوجته . والواقع أننى تجولت بين هذه الولايات الأربع من "ميرى لاند" إلى "واشنطن دى سى" إلى "هوستن" ثم إلى بنسلفانيا فى بتسبرج . وفى واشنطن علمت أن زميلى وصديقى موسى صبرى الذى كان مقربا إلى الرئيس السادات وكان رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم ورئيسا للتحرير، يعالج من السرطان فى مستشفى بواشنطن فذهبت لزيارته . كان شخصا آخر غير الذى أعرفه، ولكننى استطعت أن أستخرج من هذا الجسم البالغ النحول والمبتعد سريعا عن الحياة، الرجل الذى أعرفه . كان يمسك كتابا يقرأه لعله كان قصة ليحيى حقى . كان ممسكا بالكتاب بذراع بالغ النحول حتى أن ساعة يده المعلقة فى هذا الذراع كانت تنزلق حتى تبلغ كوعه . تحادثنا طويلا عن حياتنا هذه الغريبة وعن ذكرياتنا الصاخبة . كانت آراؤنا مختلفة وربما كانت متناقضة ولكننا لأمر ما كانت تربطنا مودة ما، لعلها بسبب البيئة التى أتينا منها والثقافة نفسها، فقد تخرج أيضا فى كلية الحقوق من نفس الجامعة التى تخرجت فيها وشارك فى

الحياة السياسية منذ باكورة شبابه، ولم يكن على أية حال رجلا متعصبا، وكان فى الحقيقة مهنيا ناجحا وأكثر اهتماما بالمهنة من التعصب لتيار سياسى ما . وكان حبه للسادات صادقا وقويا، وعندما توفاه الله لم يترك شيئا من المال لأولاده. كان نقيا فى هذه الناحية . وأذكر أننا كنا نسير فى شـوارع القاهـرة فى أيام شـبابنا نحلم بالمستقبل فقال لى : ياسلام لو أصبح مرتب الواحد مائة جنيه فى الشهر!

خرجت من المستشفى مكتئبا، وما إن استقر بنا المقام فى الشقة التى نسكنها حتى جاءتنا مكالمة تليفونية من القاهرة بأن الشيخ محمد، أخو زوجتى ولى الله وصاحب الكرامات المشهودة، قد توفاه الله بعد عملية فى البروستاتا غير ناجحة فى أسيوط . كان أصغر منى بعشر سنوات تقريبا وكان الأخ الأكثر قربا إلى زوجتى . أنهيت إليها الخبر بالتدريج فأجهشت بالبكاء ثم حاولنا كلانا أن ننسى الموضوع بسبب الظروف الأخرى التى نمر بها . وكانت متاعبنا أكثر من أن تعطينا ترف الحزن أو البكاء .

❖ ❖ ❖

٤٥

حلم العودة

قضينا شهرين أو ثلاثة فى هذه الزيارة، إذ كنت أعتقد أن جراحة جيدة فى البروستاتة قد تستأصل هذا المرض تماما، ولكن الطبيب لم يجد مبررا لهذه الجراحة . كنت مضطربا جدا وهأنذا هذه المرة أمام هذا المرض اللعين، وحين سألته سؤالا بالغ السذاجة هل سيقضى علىّ هذا المرض خلال شهور قليلة ؟ ولعل مصدر هذا السؤال هو أفلام السينما، التفت إلى ساخرا وقال : لا أحد يعلم قد تموت بعد شهور أو سنوات . ثم أوصى لى بحقن تتعادل مع الهرمون النشط الذى يحفز الورم وينشطه فتعمل على إيقافه . لم أرتح لهذه الإجابة السريعة وعدم الاكتراث بمخاوفى . ولذلك انتقلت من مستشفى "جون هوبكنز" فى "مارى لاند" إلى مستشفى متخصص فى أمراض السرطان فى هوستن، التى كان أخى يعمل بجامعتها . وهكذا قضينا فترة أخرى معه نتردد فيها على مستشفى هوستن التى علمت منها أيضا أنه من الأفضل ألا أجرى الجراحة وأن أجرب هذه الحقن التى كانت اكتشافا جديدا فى ذلك الوقت .

وربما اكتشفت فى هذه الزيارة الطويلة نسبيا بعض خصائص المجتمع الأمريكى، إذ قابلت فى هذا المستشفى عددا من الأطباء مختلفى الجنسيات، منهم مصريون وإيطاليون وألمان وإيرانيون وأسبان وغيرهم . وعلى الرغم من كل السمعة السياسية السيئة لأمريكا إلا أنها كانت بالفعل تجمعا بشريا من جميع أنحاء الأرض . قد يكون صحيحا أن العرق الانجلوساكسونى هو الأكثر تأثيرا وهيمنة لكن بقية الأجناس تعيش بنفس الحس الوطنى الذى يستشعره الآخرون . ومهما يكن الميل للسيطرة الذى يتجلى أكثر لدى العناصر الأوروبية وخاصة غرب أوروبا، إلا أن الحياة والثقافات المختلفة تفرض نفسها على الجميع .

ولعلى فهمت أن فكرة الوطن هنا مغايرة تماما لفكرة الوطن فى البلاد الأخرى. وكان المجتمع المهاجر يبحث فى الأساس عن حياة أفضل من البلد الذى جاء منه الأب أو الجد وأن هذا الهدف مازال راسخا فى الذهن حتى لدى الجيل الثالث من الأصل المهاجر . هل هذه صورة العالم الجديد الذى يمكن أن تتحول إليه كل الإنسانية بعد قرن أو قرنين ؟ كانت هناك تجارة واسعة للعلم الأمريكى، وكان الناس يشترونه ويعلقونه على شرفاتهم، وربما كان ذلك رمزا مذكرا للمواطن الأمريكى بأنه ينتمى لهذا العلم . وكان الناس مندمجين تماما فى أعمالهم من أجل المال وتحسين أوضاعهم المعاشية، وكنت قد قرأت فى أحد الإحصاءات الدولية أن إنتاجية العامل الأمريكى أعلى من إنتاجية العامل الإنجليزى .

ويبدو أن طريقة العمل فى أمريكا تجعل الإنسان يقضى أغلب أوقاته فى العمل، فيما عدا الإجازة الأسبوعية . بالنسبة للأطباء أو أساتذة الجامعة لاحظت أن مكاتبهم - كما سبق القول - تحتوى على كل ما يحتاجه الإنسان وكأنه فى بيته. ربما لهذا السبب يقضى الأمريكيون يوما كاملا فى مكاتبهم أو أعمالهم . وربما كانت فكرة أمريكا فى ذهن المواطن الأمريكى، هى مكان مشترك لأعراق كثيرة تذوب فى بوتقة من الممكن أن يطلق عليها "أمريكا"، وتهيئ لهم فرصا مختلفة عن سائر البلاد .

قد أقول أن الحس الوطنى الذى نعرفه فى البلاد التقليدية، أقوى كثيرا من الحس الوطنى الأمريكى، لتداخل الأعراق والهويات فيه، والتركيز على الانتفاع بالحياة باعتباره الهدف الأول ؟ سوف أحكى بعد ذلك عن الهوس الوطنى الذى انتشر فى أمريكا بعد حوادث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١، إذ كنت ترى الشعارات مكتوبة على السيارات وواجهات المحلات فى مباركة أمريكا وحبها، إلى جانب الأعلام الكبيرة والصغيرة، وهى مبالغة فى إظهار العواطف، ربما لنقصها فى حقيقة الأمر .

وعلى الرغم من أن اللغة الشائعة هى اللغة الإنجليزية الأمريكية، إلا أن اللغة الإسبانية أصبحت تنافس هذه اللغة، حتى أن محطات للبث التليفزيونى بدأت تعمل وتنتشر فى أمريكا باللغة الإسبانية . ومن أعجب الأمور أنى ذهبت مرة إلى سوق كبير للسمك كان عماله وموظفوه كلهم صينيون، وكان الذى يتكلم الإنجليزية عدد ضئيل جدا يعد على أصابع اليد الواحدة بين أكثر من خمسين شخصا من الذين داخل هذا السوق .

على أن أهم ما تعطيه أمريكا لزائرها هو أنه ليس غريبا، وأنه قد يكون أمريكيا فأمثاله كثيرون فى هذه القارة المتعددة الأشكال والألوان . فأنت إلى الآن تشعر بأنك مختلف عن الإنجليزى أو الفرنسى أو الهولندى بسبب السحنة الشرق أوسطية، إذا كنت تعيش فى هذا البلد الأوروبى أو ذاك، أما فى الولايات المتحدة فالافتراض الأول أنك أمريكى . وأظن أن لهذا تأثيرا بالغ الأهمية فى العلاقات الاجتماعية فى أمريكا .

حقا يعيش الناس المهاجرون من بلد معين معا كلما كان ذلك ممكنا، وهو أمر ليس مرفوضا من حيث التقاليد أو الأعراف، فقد رأينا أن الصينيين يعيشون معا ومنهم من لم يعرف الإنجليزية بعد . وقد نجح النظام الأمريكى على أية حال فى أن يزاوج بين ما هو خاص وما هو عام .

فعلى مستوى الصحف مثلا لكل مدينة أو عاصمة ولاية من الولايات الأمريكية الخمسين صحيفة تكاد تكون موادها كلها خاصة بشئون الحياة فى الولاية، بعيدا عن الأنشطة الفيدرالية. وهكذا أصبح هناك نوعان من الصحافة : المحلية والفيدرالية أو الاتحادية . وقد عشت فى عدة ولايات وكان علىّ أن أبحث بصعوبة عن الصحف الفيدرالية التى لم تكن متوافرة إلا فى المكتبات الكبرى . ولاحظت على أية حال أن سكان الولايات لا يهتمون كثيرا بما هو خارج ولايتهم إلا فيما يتعلق بارتباط هذه الولاية بظروف فيدرالية أو عالمية . وعلى الرغم من التقوقع اللغوى أو الثقافى أو العرقى إلا أن هذا التنوع يتسرب ويذوب تدريجا فى البوتقة الفيدرالية بشكل ما أو يتواصل على الأقل .

على أنه قُيض لى أن تتصل زياراتى إلى الولايات المتحدة كل سنة تقريبا، فقد سافر ابنى الأكبر خالد إلى الولايات المتحدة من أجل مزيد من التخصص فى أمراض القلب بعد أن حصل

على الزمالة البريطانية وأمضى بضع سنوات فى مستشفى بتسبرج الشهير فكنت أزوره هناك هو وأسرته، وعندما اكتشفنا إصابة والدته بتليف الكبد وأورامه جئنا إلى بتسبرج لشهرة هذا المستشفى فى علاج أمراض الكبد حتى أن بريطانيا كانت تبعث ببعض مرضاها الذين يعانون من تعقيدات فى أمراض الكبد أو الكلى إلى هذا المستشفى الذى كان قد سبق أيضا فى زراعة الأعضاء . وهكذا أمضينا وقتا أطول فى هذه المدينة الأمريكية العريقة، وكان فيها صديقى القديم جلال الزيادى الذى كان يعمل فى المستشفى الذى عمل فيه ابنى خالد .

أمضينا فى هذه الزيارة وقتا أطول ربما امتد إلى أربعة شهور حتى ألفنا الحياة فى أمريكا، وفكرت أن أنتقل إلى العيش هناك على أن تحول الجريدة التى كنت أعمل فيها مرتبى إلىّ بالدولار، ونكون إلى جوار المستشفى الذى لديه خبرة أكثر بمرض زوجتى، وكان من السهل أن يلحق بنا أولادى الآخرون إذا أرادوا ذلك ولست أدرى لماذا لم أفعل . فالحق أن الحياة هناك كانت أسهل كثيرا من حيث تكاليف المعيشة، إذ كنت بالإيجار الذى أدفعه لسكنى فى مدينة لندن أستطيع أن أسكن فى قصر أو أسكن فى شقة فاخرة بنصف هذا الإيجار، وكانت بقية الأسعار أرخص بالفعل . وكنت أقول دائما أن القوة الشرائية للدولار فى أمريكا تساوى القوة الشرائية للجنيه الإنجليزى فى لندن، على الرغم من أن قيمته النقدية أكبر كثيرا من الدولار فى سوق العملات .

هل أقول أننى وجدت الحياة أكثر انفتاحا فى أمريكا عنها فى إنجلترا ؟ كنت فى الشوارع أو المطاعم أو المحال أو أى مكان تُعامل على أنك مواطن عادى، حتى لو كانت لهجتك ليست أمريكية خالصة . حقا أن بعض العواصم الأوروبية الكبرى مثل مدينة لندن تعرف تعدد الأعراق هى الأخرى، ولعلها تقلد أيضا الحياة فى أمريكا . إذ بدأ العمل العام يضم الكثير من الأعراق التى تتمتع بالجنسية الإنجليزية ولكن تنتمى إلى أصل غير الأصول المعروفة من سكان المملكة المتحدة، كالايرلنديين أو الويلش أو الاسكتلنديين أو الإنجليز . وأصبح الناس يستمعون إلى مذيع أو مذيعة فى محطات التليفزيون البريطانية من أصول أفريقية أو آسيوية أو من أمريكا اللاتينية، وكذلك قد يرون وزيرا أو عضوا فى البرلمان من هذه الأصول، لكن يظل هذا الظهور استثنائيا بالقياس إلى الولايات المتحدة، التى صار هذا التنوع العرقى جزءا طبيعيا من التركيبة السكانية والثقافية فيها .

وعلى الرغم من أننا ناقشنا الفكرة أنا وزوجتى وبتشجيع من ابنى خالد إلا أننا لم نتخذ قرارا فى هذا الشأن، وعدنا بعد أن استؤصل الجزء المصاب من الكبد إلى لندن .

لم أفاتح المسئولين فى الجريدة عن رغبتى فى الانتقال إلى الولايات المتحدة . هل لم يكن هذا سهلا ؟ لا أعتقد إذ كان عملى الأساسى متصلا بالمقالات أو الدراسات وبعيدا عن الطابع الإخبارى الذى كان لهم مندوبون فيه . هل لأننى لم أكن أفكر بعقلية مهاجر على الرغم من كل هذه الغيبة ؟

لم يكن سفرى واغترابى على أية حال متعلقا بالشئون المعيشية، إذ كانت نشاطاتى الثقافية تعود علىّ بعائدات مادية كافية لحياة متوسطة جيدة، إذ كنت أكتب للسينما وللإذاعة، وكان يطلب منى أن أكتب للتليفزيون، فضلا عن عملى فى الصحف . لم أسافر إذن من أجل البحث عن ظروف معيشية أفضل، بل مغاضبا بسبب تغير الاتجاهات السياسية مثلى مثل كتاب آخرين . ولهذا لم تسيطر علىّ فكرة الهجرة . وكانت الولايات المتحدة باعتبارها دولة هجرة

بطبيعة إنشائها، أقرب إلى أن تشد انتباه المهاجر، فمن خلال هذه الزيارات المتعددة كانت الحياة فيها أكثر جذبا وكانت فرص العمل كثيرة أيضا على المستوى الصحفى أو الأكاديمى .

وعندما أسترجع فى ذاكرتى هذه الظروف، أتذكر أن علاقاتى الاجتماعية فى بعض المدن الأمريكية كانت جيدة، بل أقرب إلى أن تكون قوية، فقد كان لى أكثر من صديق فضلا عن شقيق يعمل فى إحدى الجامعات، وكان هناك الكثير من المصريين والعرب والحياة الاجتماعية الثرية، إذ رحت أُدعى إلى الأندية الفاخرة وأتعرف على أصدقاء جدد، وأكاد أدخل فى التركيبة الداخلية لهذا المجتمع . وهناك قبل كل شيء ابنى وأسرته، الذى يعيش فى نفس المدينة وبالقرب من المستشفى الذى بدأنا فيه علاجا بدا أنه سوف يطول .

عندما استرجع هذه السنوات أجد أننى لم أكن موقنا بأننى خرجت من مصر مهاجراً . لقد ذهبت إلى العراق فى شيء من الاحتجاج السياسى على السياسة الجديدة التى جاء بها السادات . ومع ذلك لم أكن راضيا تماما عن السياسة فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر لكننى كنت ألاحظ أننا نتقدم فى ظل حكم جمال عبد الناصر نحو سياسة أفضل وخصوصا على مستوى الداخل، لأن سياسة جمال عبد الناصر الخارجية، خاصة فى الفترة الأخيرة من حكمه، كان عليها شبه إجماع من جانب القوى التقدمية أو قل اليسارية .

حقا كان حلمنا بديمقراطية حقيقية يتعثر ولكن كانت قرارات جمال عبد الناصر شعبية خالصة حتى أننا رحنا نتأمل مفهوم القرار الديمقراطى، هل هو ما يحقق مصالح الغالبية العظمى من الجماهير مثل قوانين الإصلاح الزراعى أو تأميم قناة السويس أو بناء السد العالى أو مجانية التعليم أو قرارات التأميم الاشتراكية ؟ ولعلنا تفلسفنا حول الشكل والمضمون فى القـرار الاشتراكى كما كنا نفعل ذلك بالنسبة لإشكاليات النقد الأدبى . وبالطبع كان لدينا ارتياح ما بأن العبرة فى ديمقراطية القرار فى مضمونه وليس فى الشكل الذى صدر به وعلى الرغم من انقطاع هذه المسيرة بالهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧ إلا أن أملنا فى الإصلاح الديمقراطى كان كبيرا وكان ممكنا فى رأينا .

حقا كنا تعانى بصورة أو بأخرى بسبب مراكز القوى، التى كانت تنعقد حول الرئيس المركز المحورى لكل نشاط سياسى، ولكننا صرنا نعتقد أن النقد الذى زاولناه منذ بداية الثورة وتحمل الكثير من زملائنا السجن من أجله أو الفصل والأبعاد، جاء بثمرات جيدة، وأن الأمور بشكل عام تتحول فى الاتجاه الصحيح . وبدلا من أن يأتى السادات فيصلح الأوضاع الاقتصادية ويخلق إدارة جديدة قادرة على التنمية الصحيحة، اتجه إلى أقصى الخط المقابل وهو التحول الكامل إلى اقتصاد السوق، وشرع بالفعل فى خلق طبقة جديدة من الاقتصاديين تأسست من التصاريح والأذون التى تعطى لها للاستثمار فى هذا الجانب أو ذاك، وكله من أموال الشعب المصرى، وبالتالى كانت رأسمالية خائبة استولت على أموال الشعب بواسطة تصريح أو إذن حكومى . وهى مسألة ينبغى أن تدرس لأنها لم تقم على أساس الاجتهاد الشخصى أو الثروات الخاصة بل بالمِنَحْ والإقطاعيات الشبيهة بتراكمات الثروة فى العصور القديمة وفى النظم الديكتاتورية بشكل عام .

أما بالنسبة لحرب سنة ١٩٧٣ فكان عليها إجماع تقريبا بصرف النظر عن النكسات التى حدثت بعد ذلك . ولكن سياسة الاستسلام التام للسياسة الأمريكية باعتبارها تملك ٩٩٪ من أوراق اللعب لم تكن مقبولة من هذه القطاعات اليسارية العريضة فى المجتمع المصرى

حينذاك، وكان لدينا اعتقاد أنه من الممكن الوصول إلى استرداد الأرض والإصلاح الاقتصادى دون هذه التنازلات التى رأيناها هائلة فى ذلك الوقت .

كان هذا الخروج أو النفى الاختيارى نوعا من أنواع الاحتجاج كما كان النظام فى العراق وقد راح يردد نفس الأفكار التى كنا نتحدث عنها فى الفترة الناصرية يشكل قوة جذب جديدة . وكان إحساسنا القومى العربى قويا جدا فالمشاركة فى بناء المجتمع العراقى إذن مهمة جليلة سوف تعود بالفائدة على الجميع بما فى ذلك مصر . ولكن لم يخطر على بالى قط أننى خرجت لكى لا أعود، إذ لم أفقد الأمل فى أن مصر ستعود للاتجاه الصحيح .

على أن الذى فت فى عضدى كما يقال هو الانقلاب الثقافى الذى أحدثه نظام السادات، إذ تغير الخطاب السياسى والثقافى تغييرا كليا، وكان الأمر يبدو سهلا ومثيرا للغيظ فى نفس الوقت، لأن أية دولة تهيمن بشكل كامل على أجهزة الاتصال الجماهيرى مثل مصر كالهيمنة على الإذاعة والتليفزيون والصحف والتعليم قادرة على أن تغير هذا الخطاب من النقيض إلى النقيض . وقد بدأت أرى نتائج هذا الانقلاب وأتحسر على الجهود التى بذلت فى المجتمع المصرى منذ بدايات القرن التاسع عشر إلى اليوم، من أجل تحديث مصر وتطويرها، ونجاح الفكر الليبرالى ثم الاشتراكى فى أن يؤسس له قواعد راسخة فى المجتمع المصرى . حتى أصيبت بشىء من الإحباط وأصبحت أحس بيد الدولة الثقيلة القادرة على قلب الثقافة ظهرا لبطن .

لم تعد لدى رغبة فى الكتابة وكنت متعجلا وسطحيا إذ اعتقدت أن الشعب الذى أنتمى إليه قد جر من أنفه إلى ثقافة مزيفة ومضللة دون أن يبدى أية مقاومة . وبدأت حالة من الاضطراب النفسى تتملكنى على أنى لذت بالثقافة العالمية التى كانت زاخرة بالأفكار الصحيحة . والواقع أن الأفراد فى كل المجتمعات كانوا أشبه بالأرض المتنازع عليها بين الثقافتين الأساسيتين فى ذلك الوقت : الثقافة الاشتراكية والثقافة الرأسمالية ولا أقول الليبرالية . وكانت هذه الحرب الثقافية أخطر من سائر الحروب الأخرى من سياسية واقتصادية، واستعملت فيها كل الوسائل بما فى ذلك ضغوط غير إنسانية على الكتاب والفنانين ذوى السمعة العالمية الطيبة ليقفوا إلى جانب واحدة من الثقافتين المتحاربتين . وكان الوجود فى الخارج مناسبا تماما لشخص مثلى يقف على أعتاب الاكتئاب .

ولعلى أدركت فى لحظة من اللحظات أن خروجى هذا كان ضروريا لكى أستعيد توازنى الثقافى والنفسى وكان هذا مبررا كافيا ومقبولا بما فيه من مخاطرات . ولذلك لم ترد على ذهنى فكرة الهجرة وقطع الجذور بأى حال من الأحوال .

عندما عدت إلى لندن بعد الجراحة التى أجريت لزوجتى فى مستشفى بتسبرج لم تكن هذه الأفكار واضحة فى ذهنى، وربما كانت كامنة فى ركامات اللاوعى، ولهذا لم أتحمس لفكرة الذهاب إلى أمريكا بشكل نهائى، فبلد المهاجرين ذاك يفكر فيه الناس على أساس هذه الهجرة ولم تكن هذه الفكرة غالبة على أفكارى فى ذلك الوقت وهكذا عدلت عن اتخاذ أية خطوة نحو تحقيق هذا الهدف . ولست أستبعد أيضا أننى أصبحت آلف الحياة فى مدينة لندن وحولى أغلب أبنائى الذين كانوا يزاولون أعمالهم بالفعل فى هذا البلد .

من الناحية الأخرى، كانت أحاديثى مع صديقى محمد عبد الحى شعبان الذى كان قد تقاعد من رئاسته لقسم الدراسات الشرقية فى جامعة إكستر تدور حول عودتنا . وكأن لنا

بالفعل أصدقاء مشتركون فى مصر حلمنا بالجلوس إليهم وقضاء الباقى من أعمارنا فى البلد الذى ولدنا فيه وعشنا أغلب سنوات عمرنا . ويبدو أن شعبان كان عمليا أكثر منى إذ نزل إلى القاهرة واشترى شقة فاخرة فى المهندسين وراح يشرف على تأثيثها بواسطة أشقائه وشقيقاته . وعندما عاد إلى لندن راح يحكى لى أنه أعد كل شىء لكى يعيش باقى عمره فى القاهرة . وكانت زوجة شعبان إنجليزية أو قل إسكتلندية ورحبت بالمشروع أما ابنه الذى كان على اسم واحد من أبنائى "تميم" فكان قد تخرج فى الجامعة وتزوج وعمل واستقر بالطبع فى بريطانيا .

بالفعل كنت أحلم بهذه العودة وهاهو ذا شعبان الذى قضى سنوات أكثر من التى قضيتها ما بين الولايات المتحدة وبريطانيا واندمج فى المجتمع البريطانى إلى أعمق أعماقه يباشر العودة بالفعل إلى القاهرة وكان فى تقديرى أن الأمر لا يحتاج إلا لقليل من الوقت حتى أصل إلى القاهرة بصورة نهائية .

كان شعبان يذهلنى بواقعيته، إذ كان ينظر إلى وقائع الحياة من جذورها، أعنى من أصلها الغرائزى، ويجردها من أى مغزى روحى أو أخلاقى أو فكرى . وكانت الحياة الإنسانية تبدو له من خلال تجلى تلك الطبيعة الخشنة باعتبارها مجموعة من القوانين الفيزيائية أو الكيميائية أو غير ذلك من قوانين الوجود، التى لم يدخل عليها تأمل الإنسان الفكرى أو الروحى . وكانت المناقشة معه ممتعة بسبب هذا الاختلاف بين طبيعتى وطبيعته . وكان واسع الخبرة بالتاريخ الإسلامى ونحله وتياراته المختلفة . كان يجيد الفارسية إلى جانب لغات أخرى، وكان قارئا ممتازا وكان يمتلك مكتبة غنية، وعندما قرر الاعتزال توقف عن كل شىء، حتى عن القراءة المعمقة، وترك نفسه لمتعة وحيدة كانت باقية فى نفسه هى متعة لقاء الأصدقاء والسباحة فى الحقول الثقافية المختلفة المطلقة من كل غرض إلا متعة الفهم والتواصل . وكنت مثله استمتع بهذه اللقاءات وتبادل الأفكار ولكنى لم افقد الرغبة فى مشاركة الآخرين بما أظن أننى حصلته من تجارب أو مفاهيم وكان يسعدنى أن نلتقى فى القاهرة مع صديقنا المشترك شكرى عياد، والذى كان هو الآخر نتاجا عجيبا للتيارات الثقافية العديدة، التى تهب على المجتمع المصرى والتى امتدت إلى خبرات أوسع فى الخارج .

كنت قد أعددت نفسى أنا وزوجتى لهذه العودة وكان علىّ أن أعتاد على فراق أبنائى الذين كانوا قد استقروا فى الحياة فى بريطانيا أو أمريكا على أن نتردد عليهم بين وقت وآخر وأن يترددوا هم علينا أيضا فى القاهرة . ولكنى لم أفعل كما فعل شعبان الذى أهدى مكتبته القيمة لأحد أصدقائه أو تلاميذه وأنهى دوره الاجتماعى تماما باعتباره أستاذا للتاريخ الإسلامى، وقرر أن يعيش فقط ليستمتع بالحياة الخالية من أى هدف غيرها، وكان قد نجح على أى حال فى أن يهيئ لنفسه دخلا معقولا يعيش به هذه الحياة الجديدة الخالية من المسئولية .

كنت مازلت فى حاجة لمزيد من الفهم والتعلم، وكنت فى الواقع مشبعا من ملذات الحياة الحسية والعاطفية حتى كانت تنتابنى نوبات من الزهد والاستهتار بل والازدراء لتلك المباهج الحياتية .

كان شعبان رجلا ربعة قوى الجسم مما أهله للانخراط فى الكلية الحربية فى إبان شبابه وقضى سنوات الدراسة فى تلك التدريبات البدنية مما انعكس على تكوينه الجسمانى، وكنت إذا حملت شيئا وأنا أصعد السلالم فى مكان ما وهو معى، يسارع فيأخذ حملى هذا ويحمله بنشاط مثير للدهشة، ولذلك اندهشنا كثيرا عندما أسفرت الفحوص الطبية بعد تعب ألم به

عن أنه يعانى من مشاكل فى القلب وأنه يحتاج إلى جراحة فى القلب لتغيير الشرايين، وقد أجرى هذه العملية وأنا معه فى لندن حتى استرد صحته .

كان يحب تدخين السيجار ولم تفلح تحذيرات الطبيبة البريطانية المعالجة فى أن تثنيه عن هذه العادة واضطرت إلى موافقته بشرط التقليل من التدخين . وعلى الرغم من كل هذه الحقائق كان يبدو صحيحا تماما . ولذلك لم يخطر على بالى أن هذا الحلم الذى نسجناه معا بحياة ممتعة فى القاهرة لن يتحقق .

كانت متاعب أمراض الكبد قد بدأت تعود إلى زوجتى وعدنا مرة أخرى إلى المستشفيات والفحوص لنكتشف أن الكبد فى حاجة إلى تغيير كامل، وهكذا انشغلنا فى البحث عن أسلم الطرق لزرع كبد جديدة، ولم يكن الأمر ميسورا على أى حال فى بريطانيا وصار علىّ أن أتدبر أمرى لعلاجها فى الولايات المتحدة وفى نفس المستشفى الذى أجرت فيه العملية الأولى وكان هذا يحتاج إلى مبالغ كثيرة جدا تفوق طاقتى تماما .

فكرت فى أن ألجأ إلى الدولة المصرية ولكن كان على أن أسافر فورا إلى أمريكا إذ راحت الحالة تتفاقم ولعلى قلت لنفسى سوف أنجح فى تدبير أمرى والأولوية الآن للسفر . وأثناء إعدادنا لكل هذه الأمور البالغة الصعوبة فوجئنا بمكالمة تليفونية من القاهرة بأن عبد الحى شعبان قد مات . وحكت لنا زوجته أنه عندما بدأ يشكو من قصور فى عضلة قلبه زاره الأطباء فى مصر أعطوه دواء يساعده على مقاومة هذا القصور ريثما يعود إلى لندن ليتلقى علاجا جديدا .

ولا يعلم أحد ما الذى كان يفكر فيه شعبان عندما قرر فجأة أن يرمى بهذه الأقراص وأن يجلس فى السرير متحملا آلام الموت حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وهو جالس على السرير ممسكا بيد زوجته من ناحية وبيد شقيقته من ناحية أخرى .

هكذا انتهى الحلم بعودة خصبة إلى القاهرة ومن حسن الحظ أن التحضير لسفر زوجتى والظروف الصعبة المحيطة بمرضها لم تترك لنا أن نحزن بالقدر الكافى على ضياع حلم كان يبدو لنا جميلا بالعودة السريعة إلى بلدنا الأصلى . ولعلى أحيانا نظرت إلى جانبه الكوميدى أكثر من جانبه المأساوى فكما تخلص شعبان من مكتبته واهتماماته العلمية والحياة الثقافية بشكل عام، تخلص من الحياة ذاتها ولعله فكر، على طريقته، بأن الحياة بجسم مريض غير قادر على ممارسة الحياة بشكل صحى، ليست جديرة بأن يحتفظ بها الإنسان . ولعله كان يريد أن يقول لنا أن هذه هى الحياة لا أكثر ولا أقل وبعيدا عن مهاتراتنا وأوهامنا بمضامين أو فلسفات أو أخلاقيات وراء هذه الكينونة البيولوجية الخالصة والخالية من أى شىء آخر .

❖ ❖ ❖

٤٦

وداع رفيقة الدرب

قبل أن نسافر إلى "بتسبرج" أخبرنى صديقى جلال الزيادى أن المجموعة التى تقوم بزرع الكبد فى المستشفى قد انتقل جزء كبير منها إلى أوكلاهوما فى مستشفاها الكبير . وكان من بينهم طبيب مصرى هو الدكتور بكر نور، الذى سمعنا عنه بالفعل أثناء إقامتنا فى بتسبرج، بأنه واحد من البارزين فى جراحة زرع الكبد . وأكثر من ذلك أن هذه المجموعة جعلت لزرع الكبد مبلغا كليا هو ثلاثمائة ألف دولار، وكان هذا أقل كثيرا من الذى كانت تتقاضاه منا مستشفى بتسبرج، حتى لو كان بكر نور هو الذى سيجرى العملية . ولعلى قلت فى عقلى إننى لو بعت الشقق التى كنا قد اشتريناها فى القاهرة لأبنائنا وجمعت مدخراتى من هنا وهناك، ربما نستطيع أن ندبر مبلغا قريبا من ذلك، ولهذا وافقنا على أن نذهب إلى "أوكلاهوما سيتى" حيث التقينا هناك بهؤلاء الأطباء .

لم يكن الأمر سهلا كما توقعنا، إذ كان علينا أن نحصل على كبد وكان هذا يقتضى إجراءات معينة وظروفا مواتية أيضا، وأثناء انتظارنا للحصول على هذه الكبد كانت حالة زوجتى تتدهور حتى أنها أصيبت مرة بغيبوبة كاملة جعلتنى أجن ولم أكن أتصور أبدا أن هذه المرأة التى تتجسد فيها حياتى كلها فى الواقع سوف تضيع منى هكذا .

كان يوما باردا وقد غطت الثلوج الشوارع ودرجات السلم المؤدى إلى الشقة التى استأجرناها ولكن رجال الإسعاف الذين حضروا لنقلها إلى المستشفى كان لديهم خبرة بالتعامل مع هذه الظروف الصعبة وكان نور ومساعدوه فى انتظارنا وبالتالى تم إسعافها، وعادت إلى الحياة مرة أخرى .

كان المستشفى بالغ الضخامة ولعل هذه كانت أول مرة أعرف نظام المؤسسة التى لا تهدف إلى الربح، وهو شكل قانونى تتأسس به بعض المستشفيات والجامعات والمدارس ودور الحضانة . وهو عبارة عن دعوة للتبرع يتقدم بها أحد الأشخاص لإنشاء مستشفى مثلا، ويبدأ التبرع حتى إذا جمع المبلغ المناسب يختار مجتمع هذه المدينة أو هذا المكان مجلسا لإدارة المؤسسة، وتبدأ العمل على أن الربح الذى يعود من نشاط هذه المؤسسة لا يوزع على أحد بل يضاف إلى أصل المشروع للتوسع فيه، وهكذا إلى ما لا نهاية، ولقد بدأ مستشفى أوكلاهوما بخمسة وعشرين مليون من الدولارات ثم وصل الآن إلى ما يقرب من اثنين من المليارات، وفى أحد

الإحصاءات التى رحت أتابعها وجدت أن الاقتصاد الأمريكى الضخم تمثل هذه المؤسسات ثلث إجماليه كله . إذ كانت تشمل أكثر الجامعات شهرة وكذلك الأمر بالنسبة للمؤسسات الأخرى .

وكان نظام العلاج فى الولايات المتحدة بالغ الدقة، إذ كان الطبيب المعالج والمستشفى الذى يعمل فيه مسئولين عن أى خطأ، وكانت المحكمة تحكم بتعويضات باهظة فيما لو ثبت خطأ فى العلاج يصل فى الحالة الواحدة إلى عدة ملايين . وكثيرا ما أفلس الأطباء بسبب خطأ وقعوا فيه ولم تستطع التأمينات التى يقومون بها لتعويضهم عند وقوعهم فى الخطأ أن تغطى مبلغ التعويض المحكوم به . وكذلك الأمر بالنسبة للمستشفى . ولذلك كانت هناك يقظة كاملة فى العلاج، ويبدو أن هذه التعويضات الهائلة أصبحت قاعدة ثابتة وغالبة بالنسبة لأحكام المحاكم . ومن ناحية أخرى يلعب نظام التأمين الطبى الدور الأساسى فى النظام الصحى فى الولايات المتحدة، إذ كان على المؤسسة التى يعمل فيه الشخص أن تدفع مبلغا شهريا لتأمين علاجه إلى جانب مبلغ آخر يقوم بدفعه شهريا الموظف نفسه . أما الذى يعمل عملا حرا فكان عليه أن يقوم بدفع التأمين لهذه الشركات له ولعائلته . وكان التأمين يغطى كل مصاريف العلاج حتى لو بلغت مئات الألوف من الدولارات، ولكن إذا كان علاج المريض خارج الولاية التى يسكنها فعليه أن يتحمل عشرين فى المائة من مصاريف العلاج .

وكان هذا النظام سليما وقادرا على أن يطور النظام الصحى ولكن كان هناك نسبة عالية جدا بلغت حوالى خمسة وثلاثين مليونا من الأشخاص يعيشون خارج التأمين الصحى، وليس لهم ملاذ إلا بعض المستشفيات الخيرية وهى قليلة، وهم غالبا من أصحاب الدكاكين الفقراء أو العمال المستقلين أو الذين يعملون فى مجالات ضيقة لا تقدر على دفع أقساط التأمين، وهؤلاء هم الذين حاول الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون أن يدخلهم فى التأمين الصحى فهوجم هجوما عنيفا ولم يتمكن من فعل ذلك . وكانت العملية الصحية من دواء وعلاج تسير فى هذه الدائرة المحكمة وتعمل فى عدة تريليونات .

لم أشغل نفسى بالتفكير فى أى شىء . كان مصيرى معلقا فى جسد هذه السيدة الحبيبة الراقدة أمام عينيّ، والتى كانت تفيق فترانى فتبتسم وتطمئن . كانت الحياة فى جيلى مختلفة إلى حد كبير عن أى زمن سابق أو لاحق . نعم تربيت فى حضن أم متعلمة محبة للقراءة وكان لى إلى جانب أشقائى الأربعة الرجال أربع أخوات، كن يحطن بى بكل الحب إذ كنت الأخ الأكبر، وكنت أحيانا العائل الرئيسى . وتربيت على حب المرأة واحترامها وكان مجتمع الطبقة الوسطى المصرية مجتمعا مختلطا خاليا من أى عقد نفسية، وكان النساء يشاركننا فى الجامعة أو فى العمل وفى المجالات المختلفة التى نتحرك فيها . لم يكن هناك حجاب أو نقاب أو قلق من ناحية الفتاة تجاه قرنائها من الشباب، ولعلنا كنا الجيل الذى تم فيه نضج العلاقة بين الرجل والمرأة منذ إنجازات ثقافة مصر الحديثة أيام المفكر قاسم أمين والإمام محمد عبده وسعد زغلول ولطفى السيد وغيرهم من هذه الكوكبة الذهبية التى فتحت الآفاق أمام المصريين .

وعندما ظهر جيلى كان تلاميذهم من طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل والعقاد وتلاميذهم أيضا قد ثبتوا دعائم من قيم المساواة والاحترام بين الرجل والمرأة . وقد التقيت بزوجتى وهى طالبة فى كلية الحقوق بالجامعة وكانت مثل كثيرات من بنات جيلها ممتلئة بالثقة فى نفسها متابعة للحركة الثقافية تتمتع بحاسة أدبية أو قل ثقافية ناضجة، وكان فيها بسبب هذه الثقة جرأة وفضول، وكانت كيانا مستقلا بحق .

الآن وأنا أستعيد اليوم الذى رأيتها فيه أتذكر أننى كنت أعمل فى مجلة روزاليوسف، وكانت قد جاءت لتأخذ صورة فوتوغرافية لها ظهرت فى أحد تحقيقات المجلة وكان معها صديقة . كنت أمر فى طرقة طويلة تصطف فيها المكاتب على الجانبين وأنا فى طريقى إلى الحجرة التى فيها مكتبى مشاركا لثلاثة آخرين كان إلى جانبى صلاح جاهين وفى الركن الآخر الفنان حسن فؤاد وفى مواجهته كامل زهيرى، وكانت هى تقف أمام زميل هو عبد المنعم سرى الدين الذى كان قد أجرى التحقيق معها وزميلات لها فى الجامعة . التقت عيناى بعينيها وكان شيئا عجيبا . لقد شدتنى هاتان العينان اللتان رأيتهما بالغتى الجمال وفيهما الكثير من الجرأة والحيوية وكأننى قرأت فيهما عالما فياضا بالحياة والإقبال على الدنيا ورقة بالغة ومع ذلك الكثير من القوة، توقفت ورحت أشاغبها . كانت صاحبتها أبعد من أن تكون جميلة، ولعلى تساءلت هل هذا نوع من المكر المتعمد، حتى يبدو جمالها مبهرا . ولست أذكر بعد ذلك ما حدث تماما، لعلها جاءت أكثر من مرة، ولعلى شاغبتها فى هذه المرات وبالفعل صرنا أصدقاء .

عندما تزوجنا كان هذا شيئا خارقا، إذ أننى فى الواقع لم أكن مخططا للزواج بسبب مسئولياتى العائلية، ولكنى كنت أكتشف كل يوم أنها ليست مجرد امرأة جميلة أو حتى صديقة وفية بل قوة وسند لى وكان من المستحيل أن أكمل مشوار حياتى بدونها . بالطبع طالت خطبتنا لكنها أفادتنا كثيرا لاكتشاف أنفسنا وأننا نكمل بعضنا تماما . وبعد أن فقدتها استمعت بالصدفة إلى أغنية قد تبدو ساذجة تغنيها وردة الجزائرية تقول : روحى وروحك حبايب من قبل دا العالم والله .

لقد اغرورقت عيناى بالدموع، وشعرت بعمق أن هذا قد يكون صحيحا بالنسبة لى ولها، وأنه من الممكن فى عالم الميتافيزيقا الغريب وهذا الكون الذى لا نفهمه شىء أقوى من تلك الحياة البيولوجية ترتبط فيه الروح حتى ذروة السعادة، وإلا فما هذا الشعور الغريب الذى ربطنا حتى الاندماج الكامل وفنائنا كل منا فى الآخر ؟

أتذكر أيامنا الجميلة ولا أستطيع أن أحكم بالضبط أينا كان أكثر سعادة من الآخر، ولعلى اكتشفت وعلى الرغم من كل العلاقات العظيمة كالأمومة والأبوة والأخوة أن العلاقة بين زوجين محبين أقوى من أية علاقة أخرى . كان الحب يجددنا كل يوم، كنت أنزل إلى الشارع متجها إلى عملى مشرق الوجه منشرح الصدر واثقا من الحياة، وعندما أعود إلى البيت كنت أشعر أننى أعود إلى جنتى. وعلى الفور راح أولادنا يجيئون وكانت لا تضع وليدها إلا إذا كنت واقفا بالباب، ومع ذلك مررنا مثل أى زوجين بالخلافات وكانت حادة أحيانا والحق أنها لم تكن السبب فيها بل أنا إذ كانت شديدة الغيرة، على أننى ومهما تكن الهفوات كنت أعتبرها دائما مركز حياتى .

الآن هاهى ذى مسجاة على الفراش تعانى من مرض عضال وهأنذا إلى جانبها أفعل المستحيل من أجل إنقاذها . كنت دائما أجلها واحترمها إلى جانب حبى الطاغى لها، ولكنها كانت دائما تريد أن تسمع منى كلمات الحب والاحترام والإجلال، وفى يوم من أيام صحوها التفتت إلى وأمسكت يدى بحنان شديد وقالت بعينين مغرورقتين : لم أكن أعلم أنك تحبنى إلى هذه الدرجة .

طال بقاؤنا فى المستشفى دون أن يأتى دورنا للحصول على كبد جديدة . وكنت قد أقمت علاقة ود صارت إلى صداقة مع الطبيب المسئول عن قسم زرع الأعضاء فى مستشفى

أوكلاهوما وكان بالصدفة من أصل سورى . كان جراح قلب واسع الشهرة وكان قد جاء إلى الولايات المتحدة مبكرا حتى أنه كان يحتاج إلى اللغة الإنجليزية ليعبر لى عن الأفكار الصعبة . كان مسلما وفيه شىء من الإيمان الصوفى وكان يحكى لى عن طفولته وعن شعوره وهو يجلس فى صحن الجامع الذى تنفذ إليه أشعة الشمس من زجاج ملون أحيانا فتنتابه حالة من النشوة مازال يبحث عنها فى عالمه الجديد ولعله لهذا السبب بنى على نفقته جامعا صغيرا فى مدينته أوكلاهوما صحبنى إليه وكأنه يكشف لى عن سر من أسراره، كان قد طلق زوجته السورية منذ زمن بعيد وتزوج من أمريكية مازالت تعيش معه وأنجب عددا من الصبيان والبنات كانوا رجالا ونساء عندما تعرفت عليه وكان أحدهم محاميا ناجحا فى المدينة .

فوجئت بأن حساباتنا فى المستشفى تجاوزت كل ما كنت أتوقعه وكان على أن أبحث بسرعة عن المال . فكرت أن أذهب إلى مصر طالبا المساعدة من الدولة التى لم أفقد الثقة فى مساعدتها ولكن كيف أتركها ثم إننى أعرف البيروقراطية المصرية وكم سيستغرق الوقت الذى تحتاجه اتصالاتى ؟ فكرت فى صديقى الكاتب السعودى غازى القصيبى، وهو شاعر ممتاز وكاتب روائى، وإنسان رائع وكان سفيرا لبلاده فى بريطانيا . جلست وكتبت له خطابا لنجدتى وأرسلته بالفاكس وأنا فى أقصى حالات اليأس . وفى اليوم التالى على الفور - وربما بسبب فرق التوقيت بين لندن وأوكلاهوما - تلقيت منه مكالمة تليفونية نزلت على قلبى بردا وسلاما وأنبأنى بتحويل مبلغ مناسب فورا ريثما يستصدر قرارا من الدولة بتحمل نفقات العلاج وبالفعل تم تحويل المبلغ إلى المستشفى وجاء الدور على صديقى الدكتور زودى رئيس قسم زرع الأعضاء بالمستشفى ليعجل باستلام كبد جديد حتى يتم زرعه لزوجتى، وبالفعل نجح فى ذلك وسافر الدكتور بكر نور ليعود بهذا الكبد وتتم الجراحة أخيرا لإنقاذها .

استغرقت العملية عدة ساعات ربما تجاوزت العشر على أنها تمت بسلام وفى هذه الأثناء كان القرار من الدولة السعودية بتحمل نفقات العلاج قد صدر وأبلغت به . كم كان هذا شيئا عظيما بالنسبة لى . وهأنذا من الناحية العملية أعرف للمرة الثانية أو الثالثة أن المشاعر العربية القومية ليست مسألة خرافية أو أنها مجرد شعارات . هناك بالفعل رباط وثيق لا ينقصه إلا سياسة سليمة ليرتبط هؤلاء الناطقون باللغة العربية والذين يعيشون تاريخا مشتركا امتد إلى أكثر من أربعة عشر قرنا بأواصر هذه الثقافة وهذا التاريخ . كانت ليبيا قد ساعدتنى وساعدنى العراق فى مرضى ومرض ابنى ثم هاهى ذى السعودية تبادر إلى مساعدتى فى أصعب تجربة يمر بها إنسان فى حياته .

وهأنذا أتصالح مع الحياة فالعالم ليس مغلقا والنجدة والنخوة ما زالت موجودة فى الحياة . حقا كان الفضل الأكبر للصديق الشاعر والروائى الرائع غازى القصيبى ولكن الوشائج العربية كانت موجودة فى قلب القرار . ولكننى كنت قد مررت أيضا بتجربة أخرى أكدت مصالحتى للحياة عندما ذهبت للعلاج من سرطان البروستاتة، إذ وجدت أن المجتمع الأمريكى لم يكن مجتمعا استغلاليا كريها بل كان فيه جانب رائع آخر إذ تشكلت فيه جمعيات خيرية لمساعدة مرضى السرطان، كانت تيسر للمرضى إقامة رخيصة أحيانا، مواصلات بالطائرات مجانية، وأظن أننى انتقلت بطائرة خاصة من ماريلاند إلى هوستن دبرتها إحدى هذه الجمعيات لى ولزوجتى، إذ كان لديها خريطة بحركة كل الطائرات الخاصة التى يتنقل فيها رؤساء أو مديرو الشركات داخل الولايات المتحدة، وكانت غالبا ما تتسع لراكبين أو ثلاثة آخرين ولم يكن على الجمعية إلا أن تتصل بالشركة وتدبر الحجز والسفر .

وعندما جئت لعلاج زوجتى فى المرة الأولى، أرشدنا المستشفى إلى عمارة كاملة أنشأتها إحدى الجمعيات الخيرية، وسكنّا فى إحدى شققها التى تحتوى على غرفة وحمام ومطبخ صغير فى قلب المدينة بمبلغ لا يزيد عن عشرين دولارا بينما هى فى الواقع تستحق على الأقل ١٥٠ دولارا فى اليوم، وكنا نقرأ على بعض الغرف اسم الشخص الذى تبرع بقيمة الغرفة وكان مثل هذا نصادفه كثيرا.

لم يكن العالم البشرى سيئا تماما فى حقيقة الأمر، وكثيرا ما كنا نجد التعاطف والمودة ممن قابلناهم من الأمريكان وغيرهم . وأثناء مرض زوجتى الأول تقدمت سيدة أمريكية لمساعدتى، وكانت تقوم بالطبخ لى ولزوجتى عن طيب خاطر . وكثيرا ما كنت أتحدث مع هؤلاء الذين نلتقى بهم فى هذه الجولة العلاجية فأجد أن الجنس البشرى ينطوى أيضا على ميل فطرى أو غريزى للتعاطف والمودة، وأن خلق ظروف سليمة من الممكن أن تؤدى إلى المدينة الفاضلة التى يحلم بها الناس منذ بدء الحياة البشرية .

وعلى الرغم من كل ذلك وأثناء وجودى فى أوكلاهوما، بينما زوجتى طريحة الفراش فى المستشفى وكنت أتهيأ للذهاب إليها، إذا بى أسمع انفجارا رهيبا اهتزت له أركان البيت الذى كنت أعيش فيه . جريت خارجا لأرى عن بعد سحابة كبرى من دخان تتصاعد من وسط المدينة . بعد قليل عرفنا أن شخصا قد فجر المبنى الفيدرالى الضخم فى المدينة وهو مبنى يشغله موظفون عديدون، وشاهدنا عمليات الإنقاذ التى انطلقت سريعا لتنقذ الجرحى وتخرج الموتى . كان عملا فظيعا قتل فيه أكثر من مائتى شخص لا ذنب لهم فضلا عن الجرحى .

فى البدء اتجه الظن إلى أن الذى قام بالتفجير هم العرب المسلمون، وخرج الناس غاضبين يهاجمون العرب المقيمين فى المدينة، وعلى الفور نشط العرب للدفاع عن أنفسهم ولشرح حقيقة مشاعرهم، ووجدتنى فى قلب هذه العملية، إذ لجأ إلى العرب الموجودون لأكون لسانهم فى هذا الموقف العصيب وفى نفس الوقت اتصلت بى الجريدة التى أعمل بها لموافاتهم بتفاصيل الخبر ومتابعته وبالفعل أصبحت رسائلى تظهر على الصفحة الأولى حول هذا الحادث الرهيب، ورحت أدلى بالأحاديث إلى إذاعة الـ "بى بى سى" وبعض محطات البث التليفزيونى البريطانية والمحلية، وجاءنى رجل أمريكى من أصل سورى لينظم دخولى فى هذه المعركة الإعلامية للدفاع عن صورة العرب . وكان الرجل لا يعرف كلمة عربية واحدة، إذ كان هو الجيل الثالث من أب سورى مهاجر جاء إلى هذا البلد منذ سنين طويلة . وكان الرجل مسيحيا، ولكن أحدا لم يكن يفرق حينئذ بين مسلم ومسيحى ما دام عربيا . وبدأ كبار الساسة يفدون على البلد بمن فيهم الرئيس كلينتون على ما أذكر .

على أنى دعيت لأتناول العشاء مع السناتور القسيس جيسى جاكسون الذى جاء خصيصا ليشارك شعب أوكلاهوما فى هذه المأساة، وكان الذى دبر هذا اللقاء سيدة من أصل لبنانى كانت تساعد جاكسون فى حملاته الانتخابية . وفى هذا العشاء جلست إلى جانب عضو الشيوخ الأمريكى الشهير وكان علىّ أن أشرح له الحالة الصعبة التى أصبح يعيشها العرب بسبب هذه الحادثة . وكان البوليس حتى فى إنجلترا يقبض على أشخاص عرب فى مطار هيثرو بشبهة أنهم مرتكبو هذا الحادث، وتنهال القصص عن خلفياته وعن الشكوك التى تحيط به، ولكننا استطعنا أن نهدئ الموقف إلى حد ما . وفى جلسة العشاء مع جيسى جاكسون تحدث الرجل عن الأخطاء الكثيرة التى يرتكبها النظام الأمريكى ولكنه فى نفس الوقت كان يعتقد بأن

آليات الديمقراطية تعمل بشكل صحيح، إذ كان القضاء الأمريكى موضوعيا ومحايدا، وكذلك الجهاز الإعلامى . وحدثنا عن كفاح السود ونجاحهم إلى حد كبير فى أن يخرجوا من سجن الاضطهاد والتمييز العنصرى، بسبب تلك القوة الكامنة فى المجتمع الأمريكى والقادرة على تصحيح المسار . وقال أن على العرب أن يسيروا فى هذا الاتجاه . ولعله أشار أيضا إلى أن الدور على العرب الآن، وأن عليهم أن يستعدوا له منذ هذه اللحظة .

تحدثت وتحدث غيرى مدافعين عن الروح العربية والثقافة العربية، وعن الأسلوب الذى ينبغى أن نتبعه لنخلص من هذا الاضطهاد، الذى بدا أنه يتفشى فى الصفوف الشعبية الأمريكية المتعجلة بطبيعتها، والتى تحكمها قوالب فكرية شائعة لا تعطيها أى فرصة للتأمل والتفكير الموضوعى .

كان المطعم الذى دعانا إليه هذا المليونير الأمريكى من أصل سورى فاخرا، وقد أحطنا بالمائدة حول السيناتور الأمريكى . وكان قد لفت نظرى فى قائمة الطعام طبق من الكبدة المشوية فطلبته باعتباره الطبق الرئيسى، وعندما وضع أمامى وجدته شيئا رائعا إذ كان مرصوصا على شكل كروى جذاب، حول شىء من الأرز الأبيض، وما إن تذوقت أول قطعة حتى عرفت ما هو معنى المطعم الممتاز .

كان جاكسون يتحدث إلينا وقد جلس بين اثنين من مساعديه على يمينه وعن يساره، بينما كنت أجلس أنا على يمين الرجل الذى على يمينه وكنت أقرب الجالسين إلى مكانه . رمق الرجل الطبق الموضوع أمامى ومد يده ونقل الطبق أمامه وهو منطلق فى الحديث وكأنه يفعل ذلك بشكل تلقائى ودون تفكير، وعلى الفور راح يلتهم الطبق دون أن يبدى أية حركة تدل على أنه سحب الطبق الذى يخصنى من أمامى . لم أفعل شيئا بالطبع إذ أنه كان ضيفنا أولا وآخر. ولكننى رحت أتأمل رجل الدين الأسود هذا الذى كان أقرب إلى ملاكم عالمى منه إلى رجل دين . كان طويل القامة عريض الصدر ومفتول العضلات . كان مقاتلا بغير شك، وكان محدثا بارعا وملما بأطراف الموضوعات التى يتحدث فيها، وكان خطيبا مفوها أيضا . ولكنه كان رجل دنيا تماما أكثر من أى شىء آخر، محبا للطعام محبا للحياة، وبدا لى أنه قليلا ما يفكر فى عالم الديانات الرومانسى الجميل .

على أنه بعد أيام من الحادثة والمعاناة التى عاناها العرب بسبب الشك فى مسئوليتهم عن الحادث ظهر الفاعل الحقيقى نتيجة خطأ بسيط منه أمكن للبوليس أن يتعرف عليه وأن يعتقله . وتنفسنا الصعداء ونحن نرى على شاشات التليفزيون شابا فى أوائل العشرينيات من عمره فى بدلة برتقالية مقيد اليدين يمشى بين رجال البوليس مساقا إلى السجن والمحاكمة . وكانت قصة غريبة من القصص الغريبة الكثيرة التى يذخر بها هذا المجتمع الغريب الذى تتقاذفه عشرات الأخيلة والعقائد .

واتضح أن هذا الشاب ينتمى إلى جماعة لديها معتقدات غريبة، وأنه فجر المبنى انتقاما لمهاجمة عنيفة قام بها البوليس الأمريكى ضد هذه الجماعة وأحرق الملجأ الذى لجئوا إليه حتى قضى عليهم فيه . رحت أتطلع إلى وجه هذا الفتى الصغير الذى كان يمشى بين حراسه هادئا دون أن يشعر بأى تأنيب ضمير، ولعل وجهه كان يدل على راحة نفسية، وذكرنى بالفتى الذى قابلته فى جولاتنا مع أخوىّ فى الولايات الغربية فى زيارة سابقة، فيه نفس الهدوء الذى قرأته على وجه ذلك الفتى الذى خرج وحيدا فى رحلة هائلة على دراجة بخارية يجوب

الولايات بلا غاية إلا الانطلاق فى أرض الله الواسعة . هناك شىء ما فى هذه البرارى الممتدة يشد الإنسان إلى العصور البدائية وربما يستفز فيه المشاعر الأولية عندما كان الإنسان يضرب فى أنحاء الأرض تقوده خيالات ومعتقدات سحرية قبل ظهور المجتمع والديانات، وحيث كان يصعب التمييز بين الخير والشر.

ومهما يكن من أمر، فإنه بسبب انفراد الفرد بالطبيعة البكر المترامية الأطراف، تنحل فى رأسه الكثير من المفاهيم الاجتماعية والمنظومات الأخلاقية التى حصلها من المجتمع الإنسانى، ويجد نفسه فجأة أمام وحدة خالصة فى كون يفوق قدرة الإنسان على الفهم والاستيعاب . الأمر ما فكرت فى هذه الوقائع الغريبة على هذا الأساس . فإلى الآن تظهر فى الولايات المتحدة نحلات جديدة يدفع بعضها إلى انتحار جماعى نتيجة لرؤية ما أو فلسفة ما . وهاهو ذا نوع من الجنون لم يفرق بالطبع بين الخير والشر دفع هذا الفتى إلى تفجير مبنى هائل وقتل المئات من البشر الذين لا يعرفهم ولا تربطهم به أية رابطة .

تنفس العرب الصعداء بعد أن ظهرت الحقيقة وكان الدكتور زودى قد دعا إلى تبرعات من العرب المقيمين وأقام نوعا من النصب الرمزى لتضامن العرب والمسلمين مع زملائهم الأمريكيين الآخرين، إجلالا وتكريما لضحايا الحادثة، وقد صحبنى إلى الحفل الكبير الذى أقيم من أجل هذا الغرض .

تماثلت زوجتى للشفاء ونصحنى الطبيب أن آخذها فى رحلة سهلة داخل الولايات المتحدة وكان لها أصدقاء مصريون كانوا قد هاجروا إلى الولايات المتحدة وأصبحوا يقيمون فى ولاية كاليفورنيا فى لوس أنجلوس وأخذتها بالفعل وأنا لا أكاد أصدق نفسى . هانحن قد أفلتنا من خطر داهم . كانت بالغة الضعف بطبيعة الحال ولكنها كانت تعيش بكبد جديدة وكان أملى كبيرا فى أننا ستقضى بقية عمرنا فى شىء من راحة البال . سافرنا إلى "لوس أنجلوس" دون متاعب وقابلت أصدقاءها القدامى والذين كنت أعرفهم مسبقا، وأخذتها وصديقتها القديمة إلى مدينة والت ديزنى وصحبتها إلى هوليوود مدينة السينما وتناولنا الطعام فى المطاعم الفاخرة ولكنها لم تكن بعد مقبلة على الطعام بشكل طبيعى . وكانت جولة رائعة أظن أنها أسعدتها . ولعلنا بعد أن عدنا لأوكلاهوما وصرح لنا الطبيب بالسفر ذهبنا إلى ابننا خالد وأسرته فى مدينة بيتسبرج وقضينا معه ومع صديقنا جلال الزيادى وزوجته بعض الوقت قبل أن نعود إلى لندن .

لست أذكر تفاصيل هذه العودة ولكننى أذكر أننى أخذتها إلى إحدى المدن البريطانية السياحية، وربما كان معنا الزيادى وزوجته الذى جاء ليقضى إجازته فى لندن معنا . كنت أتأبط ذراعها وأنا أسير إلى جوارها فالتفتت إلى ضاحكة وقالت : مالك فخور هكذا بالسير إلى جوارى ؟ ثم أعقبت هل أنت سعيد ؟

تنبهت إلى أننى ربما كنت بالفعل سعيدا وفخورا بأننى أتأبط ذراع امرأتى أخيرا بعد محنتنا الكبرى والتى أفلتنا منها بمعجزة . على أنه لم تمض إلا شهور قليلة حتى بدأت متاعب جديدة وبسرعة خارقة، ظهر أن خلية من الخلايا السرطانية قد أفلتت لسبب أو آخر وأنها راحت تنفجر وتنتشر بشراهة داخل كبدها الجديدة ولم يكن هناك علاج آخر . رحنا نتردد على المستشفى فى لندن وكانت تستقبلنا ممرضة إنجليزية عالية الحرفية قبل أن نلتقى بالطبيب وسألتها مرة وأنا جالس معهما : هل أنت مؤمنة بالله ؟

أجابت زوجتى بدهشة على هذا السؤال الذى كان عجيبا بالنسبة لها قائلة : بالطبع أنا مؤمنة بالله .

وكانت زوجتى بالفعل متدينة وكنا قد ذهبنا إلى الحج من أجلها وبسبب رغبتها الملحة فى أداء هذه الفريضة . قالت الممرضة وهى لا تنظر فى عينيها : أنت سعيدة لأنك فى حاجة إلى هذا الإيمان . أما أنا فلا أملك هذا الإيمان .

نظرت إليها زوجتى بدهشة ثم راحت تتدفق فى الحديث عن الإيمان وحقيقته ومنطقياته فضلا عن ضرورته للإنسان . وعندما خرجنا من المستشفى لم تعلق على هذا الحديث بأكثر من قولها : هذه امرأة طيبة لكنها مسكينة . كيف تعيش ؟

تدهورت حالتها سريعا جدا وفى خلال أسابيع قليلة كانت راقدة فى المستشفى بين الحياة والموت بينما قال الطبيب الشاب الطيب : لا فائدة . علينا أن نجنبها الألم ونجعلها تموت بكرامة .

وكان يعطيها جرعات من المسكنات القوية التى تنتمى إلى مادة المورفين . كنا جميعا قد التففنا حولها . جاء ابننا من أمريكا بينما التف أولادها الخمسة وزوجاتهم حولها . كنت أدخل عليها محزونا منكس الرأس محنى الجسد فالتفتت إلى أولادها وقالت : مال أبيكم منهارا إلى هذا الحد ؟

لم أفهم هذا التعليق إلى اليوم وما الذى كانت تقصده، وهل كان ذلك شيئا ضايقها أم كانت تريد أن تقوى أزرى وأن أحتمل أسوأ الاحتمالات ؟

كنت إلى جوارها عندما لفظت نفسها الأخير فى هدوء وفى كرامة كما قال الطبيب ودون أن تشعر بألم .

عندما تسلمنا الجثمان أزحنا الغطاء عن وجهها وقفت مشدوها . كان وجها باسما بل ضاحكا يكشف عن أسنانها البيضاء مرتاحا وكان بالغ الجمال ولعلى تذكرت حالتى عند الأزمة القلبية التى داهمتنى وأنا فى ليبيا، عندما بدأ الوجع القاتل يذهب عنى وأشعر براحة شديدة تصل إلى درجة السعادة وأنا أدخل فى الغيبوبة . هل هذا هو ما حدث لها ؟ أرجو ذلك .

❖ ❖ ❖

٤٧

وحيد في المدينة

بعد وفاتها لم أطق شقتنا فى لندن . وعلى الفور بحثنا عن سكن آخر . كنت أسكن عمارة فى أول وصولى إلى لندن وكانت زوجتى تحبها إذ كانت أول مكان تسكنه فى هذه المدينة بعد اللحاق بى، هل لهذا السبب اخترت أن أسكن هذه العمارة مرة أخرى ؟

لم أعش وحيدا على الإطلاق فى جميع مراحل عمرى . كنت أعيش مع أسرتى الضخمة منذ ولدت حتى تزوجت، وأجد دائما نفس وروح المرأة الحنون من أمى وأخواتى فضلا عن أبى وأشقائى البنين . وطوال فترة زواجى عشت أيضا بين زوجتى وأبنائى، وكانت حياتنا دائما صاخبة، تحيط بنا أسرة راحت تتسع وتنتشر وكانوا يزوروننى ويقضون وقتا طويلا معى حتى عندما انتقلت إلى العمل بالعراق. وهأنذا أجد نفسى وحيدا إلا من ابنى الأصغر الذى كان يعيش معى .

كنت أذهب كل يوم إلى مبنى الجريدة التى أعمل بها فى لندن وأظل بها حتى ساعات الغروب فأعود إلى بيتى . وكان ابنى الأصغر يعمل وكثيرا ما كنت أتلقى منه مكالمة تليفونية يعتذر عن مجيئه لتناول العشاء معى بسبب ارتباط بينه وبين أحد أصدقائه، وغالبا ما كنت أعود مرهقا، إذ كنت أقضى الوقت فى قراءة الصحف وتتبع وكالات الأنباء وأكتب التعليقات التى تطلبها منى الجريدة فضلا عن مقالتى الأسبوعية أو الموضوعات الأخرى التى تعن لى . وعندما أصل إلى البيت تكون رغبتى فى القراءة قد انطفأت ولا يبقى أمامى إلا متابعة مشاهدة التليفزيون والتقليب فى محطاته حتى يجىء ابنى أو يغلبنى النوم .

كنت أحضر الحفلات الرسمية التى تقيمها السفارات العربية فى لندن أو تلك المنظمات المشتركة التى تضم العرب والبريطانيين والتقى بالناس، كما كان لى أصدقاء مقربون نلتقى بين وقت وآخر أو نتهاتف بالتليفون، لكن حياتى اختلفت تماما فالبيت لم يعد هو البيت . على أنى اكتشفت أن طموحاتى قد اختفت أو على الأقل تضاءلت . عندما كنت أفكر فى سفرة جميلة أو حتى أفكر فى شراء سيارة جديدة كان ذلك من أجل أن أرى الفرحة فى عينيها وكان سعيى الحثيث فى الحياة من أجلها حتى نجاحى فى هذا العمل أو ذاك كان من أجل أن ألمح فى عينيها نظرة رضى أو الإحساس بالفوز والظفر . هأنذا لم أعد أريد شيئا . لا يهمنى حتى أن أشترى بدلة جديدة وكأنها كانت الحافز الأساسى الذى كان يدفع حياتى . ومع ذلك فكم

تشاجرنا وكم غضبت منى وأغضبتنى، ولكن هـأنذا اكتشف هـذا الفراغ الرهيب، وفى أيامنا الأخيرة اقتربنا بعضنا إلى بعض بدرجة كانت تدهشنى . كنا نجلس معا وربما كنت أقرأ فى صحيفة أو كتاب أو كانت هى تقرأ، وتعن لى فكرة متعلقة بأحد أبنائنا أو بأى موضوع يخص حياتنا فما أكاد أفتح فمى حتى أجدها تسبقنى إلى فتح الموضوع وكأن التليباثى (التخاطر) كان موصولا بيننا، وربما عرفت فى هذه الفترة أن لكل مرحلة من العمر يمر بها الزوجان ظروفها، وأن المرحلة الأخيرة قرب الشيخوخة باهرة الجمال، إذ كان أهم شىء يربط الرجل بالمرأة وهو المحبة الصافية التى لا تلتوى بها أى أهواء هنا أو هناك، هى الكنز الروحى والعاطفى الذى ينعم به الإنسان فى هذه المرحلة . ولعله لهذا السبب ما إن يموت أحد الطرفين حتى يلحق به الطرف الآخر بعد أيام أو شهور، ولكننى لم أمت، ويبدو أننى لم أتمنّ الموت، فمازال حبى للمعرفة والكتابة طاغيا، ومازلت أشعر بأننى أدور حول البوابات المغلقة أمام الفهم البشرى، وأننى أستجدى هذه المعرفة مثل شحات نجيب محفوظ، وعلى أى حال لم أفقد الأمل فى أننى فجأة وربما بدون سبب ظاهر قد أعثر بمفتاح يدخلنى إلى شىء ولو قليل من الفهم .

والواقع أن القراءة فى حد ذاتها كانت ممتعة ومغرية حتى دون أن يكون وراءها بحث ما أو غرض ما، ومع تطور المعرفة البشرية وقيادة "العلم" للمسيرة البشرية، كنت انتقى الكتب العلمية التى تشرح أو تكتشف شيئا جديدا، وكم وجدت أننى ضيعت عمرى فيما يسمى بالأدب والفن والتاريخ وغير ذلك من هذه المجالات التى اكتسبنا فيها خبرة لا بأس بها، لكننا قفزنا قفزا على العلوم التجريبية، وهانحن نقرأ بصعوبة تلك الكتب التى تسمى علمية، حتى تلك التى يكتبها رجال تمرسوا بالكتابة العلمية الشعبية السهلة .

وعندما عشت فى بريطانيا سنة كاملة فى أواخر ستينيات القرن الماضى، كانت قضية "الثقافتان" تشغل بال الكتاب والمفكرين، وكان المقصود تغيير مناهج التعليم حتى تتداخل بشكل أقوى مما عليه الحال بالنسبة لتعليم العلوم إلى جانب المواد الأخرى، إذ كان المجتمع المثقف يعيش انقساما بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية أو الخالصة، ولعلى حلمت بأن هذا لن يتحقق إلا إذا تقدمت المجتمعات الإنسانية، وأصبحت فرص التعليم أوسع كثيرا مما هى عليه الآن . بمعنى أن العمل من أجل سد طلبات المعيشة، قد لا يحتاج من الإنسان العامل أكثر من يومين أو ثلاثة فيستطيع استغلال الأيام الباقية فى اكتساب علوم أخرى، وبصفة خاصة تلك العلوم التى نسميها تجريبية أو خالصة، على يدى معلمين متخصصين فى هذا المجال . ومع ذلك، ومن خلال محاولتى متابعة الأنشطة العلمية الجديدة كنت أعرف أن المعرفة الأخرى سواء فى الفن أو الفلسفة أو التاريخ أو الاجتماع، قد تكون أكثر تعقيدا و تحتاج إلى خبرة أعمق فى تفهمها و استيعابها و بالتالى فى الابتكار فيها .

❖ ❖ ❖

٤٨

العودة إلى الوطن

هل لهذا لم أفكر فى الموت، أو أزهد فى الحياة ؟ ربما كان هذا صحيحا . على أنى بدأت أشعر بالغربة على الرغم من أننى أعيش بين أولادى وبعض الزملاء والأصدقاء . وبدأت أفكر فى العودة إلى مصر . فمازال الكثير من أصدقائى على قيد الحياة ومازالوا يجاهدون من أجل حياة أفضل ومعرفة أوسع ومهما اختلفت السبل فإننا نسعى إلى نفس الهدف، وفضلا عن ذلك فهناك أسرتى الكبيرة التى لم أنقطع عنها فى الواقع .

نعم كنت متنبها إلى التغييرات التى طرأت على طريقة تفكيرى، فإن تعيش مدة طويلة فى بلد كبير مثل بريطانيا، تتعلم أن تنظر إلى العالم من حولك بنظرة أوسع، وربما بسبب الكثير من الانفعالات المتداخلة بين الانتماء الوطنى والانتماء الواسع إلى الجنس البشرى، ونوع المعايشة للسياسات التى تدور أمام عينيك، يتجه تفكير الإنسان إلى مصير الجنس البشرى فى مجموعه . فالتقدم البريطانى مثلا ليس أكثر من اجتهاد مازالت نتائجه منقوصة، وأنت لا تستطيع أن تعيش مدة طويلة سعيدا بالإنجازات التى وقعت فى هذا المجتمع فى المجال الفكرى والثقافى بشكل عام، وفى النظام السياسى ومستوى المعيشة الاقتصادى، دون أن تبدأ حاسة النقد عندك نشاطها، وتتطلع مثل غالبية المثقفين البريطانيين إلى تقدم أبعد وتجأر بالشكوى كما كنت تفعل فى مصر .

وكثيرا ما تجد نفسك غارقا فى تيارات من التفكير الذى يتناول المعضلات فى بريطانيا والعالم، مثل التحولات التى تحدث فى حزب العمال البريطانى، ومثل ما سمته السيدة مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء لفترة طويلة بالرأسمالية الشعبية، ومثل الطريق الثالث المغاير للنظام الرأسمالى الدارج والنظام الاشتراكى التقليدى، ثم النظام الانتخابى ووسائل التأثير فيه، وظهور خبراء الدعاية الذين يعيدون تشكيل صورة المرشح أمام الناخبين، ثم تأثير المال الخطير على التوجيهات السياسية والمرشحين الأساسيين . وأخيرا المحاولات الدءوبة للصحافة أن تستقل وأن تفلت من التأثيرات المختلفة . وكذلك المحاولات الشجاعة التى يحاول فيها القضاء البريطانى أن يستقل أيضا وألا يخضع لتأثير السلطات الأخرى . ثم الصراعات القاسية من أجل السلطة والمصالح والتى تبدو أحيانا على درجة عالية من القسوة والعنف .

ولقد مضى وقت طويل على إقامتى فى بريطانيا حتى ظننت أن الخطاب السياسى فيها لا يختلف كثيرا عن الخطاب السياسى فى مصر أو مجتمعات الشرق الأوسط . اعتدت على أن

أصحاب السلطة ليسوا إلا رجالا أو نساء لا يبَجِّلون أو ينافقون، بل يُنتَقَدون بشدة بما فى ذلك الملكة، والنظام الملكى فى مجموعه، حيث يطالب الكثيرون بالتخلص منه وفقا للمبدأ الديمقراطى بأن رئيس الدولة ينبغى أن يأتى إلى السلطة بواسطة الانتخاب . وكنت من قبل أفزع حين أرى هجوما ضاريا على الأشخاص القياديين لدرجة تدمير حياتهم ولعلى فقدت الدهشة شيئا فشيئا وأنا أرى أنه لا هيبة للحكام فى بريطانيا وأن على الحاكم أن يدافع عن نفسه وعن أفكاره كل يوم تقريبا سواء فى الصحافة أو التليفزيون أو المجلس النيابى .

ومع مرور الأيام تتكشف صورة الحكام فى عيون القوى الاجتماعية البريطانية كموظفين مختارين لأداء وظيفة معينة وفق برنامج معين واختفت الصورة القديمة للحاكم المهاب الذى يختفى وراء الحجاب والموظفين التابعين وأصبح يواجه وحده ناقديه، وهو يعلم أنه يفعل ذلك تحت عين الجماهير التى تراقبه . وأخيرا تلك الجرأة فى طرح الأفكار، لقد عشت طويلا وأنا أحسب حساباتى فى كل كلمة أكتبها وكل فكرة أطرحها ليس من أجل تجنب سلطة الحكم فقط، بل من أجل تجنب سلطة ثقافة سائدة مليئة بالمخاوف والشكوك والأغاليط وهيمنة العقل الخرافى والاستسلام له .

بالطبع هناك تأثيرات قوية على السياسيين من هذا الجانب أو ذاك وهناك حسابات قد لا تكون خالصة لوجه الحقيقة ولكنها تشكل مشكلة من مشاكل التفكير فى المجتمع البريطانى، وبعد قليل يتحول الإنسان العائش فى هذا المجتمع إلى باحث وناقد فى الأمور الجارية وغير الجارية . وما قد يعتبره بعض المثقفين البريطانيين قيدا على حرية التفكير يبدو مذهلا خارج ثقافة هذا المجتمع فحجم الحرية فى التفكير بالغ الضخامة حتى فى الجوانب التى تتمتع بقداسة معينة مثل المعتقدات الدينية لدرجة أن يلاحظ الإنسان أن الكنيسة البريطانية تناضل من أجل أن تجتذب وتقنع مواطنيها وكثيراً ما تثير الإشفاق بل والتقدير من أجل هذا النضال، حتى من جانب غير المتدينين .

وكم تذكرت قول يوسف إدريس ذات مرة أن الحرية المتاحة فى مصر لا تكفى لتجب نصف كاتب .

ولعلى لم أفهم مدلول الحرية إلا بعد الكثير من تأمل الحياة التى نحياها .

كنت من قبل أستريب فى كلمة الحرية بمعناها السياسى أو الاجتماعى، إذ كانت تستخدم ضد الفكرة الاشتراكية التى كانت تضع المجتمع ومصالحه فى المقدمة، بينما تعمل على ضبط حرية الأفراد أو تضييقها حتى تحقق العدالة للمجتمع فى مجموعه . وكان العالم الرأسمالى يسمى نفسه العالم الحر، ولكن باسم هذه الحرية كان يقع الاستغلال والبطالة والفقر الشديد ويتفشى الجهل والمرض . ومهما تكن أهمية الحرية للأفراد، فانهم يعيشون أولا وأخيرا فى مجتمع، وهذا يقتضى نوعا من التنظيم ليتعايش الناس مع بعضهم البعض، فالأفراد فى الواقع ليسوا مجرد أفراد منتشرين على رقعة من الأرض كل منهم يفعل ما يشاء .

وهناك فرق كبير بين التجمع والمجتمع، فحيث يعيش الناس بعضهم مع البعض الآخر، ويعتمد نشاط كل منهم على نشاطات الآخرين، تنشأ ظروف أخرى تفرض نفسها على ما يمكن أن نسميه بالتنظيم الاجتماعى . نعم أن الفكر الأوروبى قضى وقتا طويلا فى تحديد مفهوم الحرية فى المجتمع الإنسانى، وحتى كبار فلاسفة المذهب الليبرالى لم يقولوا بتلك الحرية الساذجة، وكان من رأيهم أن التبادل الحر بين الناس وحرص كل منهم على أن يحصل على

أفضل النتائج المادية من جهده، من شأنه فى النهاية أن يضبط حركة المجتمع ويدفعه إلى التقدم، ويحل بشكل طبيعى المشاكل الناجمة عن حياة البشر فى شكل اجتماعى . وكان هناك اعتقاد - خاصة فى فترة بزوغ الليبرالية - أن كل ما هو متروك للطبيعة ودون تدخل خارجى، يصبح دائما صحيحا . ألم تقل بذلك نظرية التطور فى الكتاب الشهير أصل الأنواع ؟

لكنى عندما نشأت كانت الحياة صعبة فى بلدى كان الفقر سائدا بدرجة مخيفة، وأذكر الآن أننى كنت أرى العابرين فى الشارع من بائعين متجولين أو عاملين فى مجال ما وهم حفاة . حتى أنه قامت دعوة لمقاومة الحفاء فضلا عن تفشى الأمية والأمراض . ولم تفلح الحرية الليبرالية فى إصلاح المجتمع . لقد احتاج النشاط الطبيعى فى تطور الأحياء إلى مئات الملايين من السنين للتلاؤم مع البيئة المحيطة . فهل على المجتمع أن ينتظر هو الآخر ملايين السنين حتى تتطور العلاقات الاجتماعية إلى الشكل الملائم لطبيعة الحياة فى مجتمع ؟

على الأقل كنت أفكر بهذه الطريقة، ولذلك ظل قلقى ورغبتى فى حياة أفضل يدفعنى إلى الفكرة الاشتراكية، التى كانت جديدة إلى حد ما فى شبابى المبكر . ولم تكن الاشتراكية مجرد فكرة للعدالة الاجتماعية، بل مذهبا وإيديولوجية كاملة زعمت لنفسها أنها استخلاص علمى من متابعتها للتاريخ وللاقتصاد والفلسفة والاجتماع، فضلا عن العلوم البحتة أو التجريبية، أيا كان الاسم .

نعم بدأ بعض المثقفين فى مصر يفكرون فى الاشتراكية فى أعقاب الثورة الاشتراكية الروسية فى سنة ١٩١٧، وفى أوائل عشرينيات القرن الماضى أنشأ بعضهم حزبا شيوعيا، ولكن عندما كبرت وشدتنى القراءة كان ذلك أمرا قد انقضى وأصبح تاريخا منسيا .

على أن الحرب العالمية الثانية، والتى حضرت بدايتها وأنا صبى فتحت الأبواب من جديد أمام الكثير من الأفكار المتلاطمة فى ذلك الصراع الدموى الرهيب . وفى نهاية الحرب كنت قد عرفت شيئا عن الاشتراكية، وأذكر أن سعادتى كانت فائقة وأنا أنهى قراءة كتاب يشرح المادية التاريخية، وهى نظرية تفسر التاريخ وتستخرج ما أسمته بالقوانين الاجتماعية، أسوة بالقوانين الطبيعية، واعتبرت أن التاريخ يتطور جبرا أو اختيارا نحو الاشتراكية، باعتبارها تطورا حتميا، استنتاجا من قراءة التاريخ البشرى منذ القدم، واكتشاف قوانين تطور المجتمعات البشرية . ووقفت طويلا أمام عبارة «الحتمية التاريخية»، لم تبد لى فى ذلك الوقت مجرد أمنية أو حلم طوباوى بل حقيقة علمية لا تقبل الشك أو الجدل . لقد وصل ماركس إلى هذه النتيجة من خلال بناء بالغ الإحكام ومن خلال ما أسماه بالقوانين الاجتماعية ومنهج المادية الجدلية وتطبيقاتها الاجتماعية ومفهوم الصراع الطبقى . كنت على ثقة بأننا سنصل إلى الاشتراكية إن عاجلا أو آجلا، فهذا أمر حتمى يبينه منظور علمى تطبيقى، وأذكر أن زوجتى طالبتنى مرة بأن أحاول أن أدخر بعض ما أتكسبه من مال للمستقبل فأجبتها ساخرا أن المستقبل لن يحتاج إلى هذا المال، ولعلنا كنا فى بداية الستينيات بعد القرارات الاشتراكية الشهيرة وكنا قد بدأنا أيضا نستعمل كلمة "الحتمية العلمية" .

الآن وبعد انقضاء زمن طويل وأحداث عالمية ومحلية عديدة أرى أننى مازلت مؤمنا بفكرة العدالة الاجتماعية وبالدولة الاشتراكية ليس بسبب وجود «حتمية تاريخية» تؤدى إلى ذلك، ولكن لاعتقادى أنه مهما تكن نوازع التمايز كجزء من الطبيعة البشرية، إلا أن المجتمعات البشرية مضطرة إلى أن تنظم أوضاعها، بما يحقق الاستقرار بدون قوة قمعية بالغة . وفى

خلال الخمسين سنة الماضية أقرت المجتمعات وخاصة فى أوروبا والغرب بشكل عام بمبدأ تكافؤ الفرص وحقوق الإنسان ومنها حق العمل وتأمين حياة الناس بشكل أو بآخر .

لقد بدأت أقدر دور الفن أكثر من ذى قبل، فالفن بأبعاده المتعددة يحفز الحس الجمالى، ويعبر عن الأحلام الكامنة فى الروح البشرية . إن الرسام أو النحات لا يحقق الجمال فحسب، إنما يكشف أيضا عن رؤى جديدة يتصورها ويحلم بها متجاوزا الواقع القائم، ولعل هذا هو ما نسميه الجمال فى الفن . ولا يختلف الأمر بالنسبة للفنون الأخرى كأدب الرواية أو المسرح أو حتى الموسيقى، فإن هناك سعيا مستمرا لكشف وإبداع عوالم جديدة وقيم جديدة، وكلها تسعى إلى تجميل وتصويب الكائن البشرى .

بالطبع فطن المتصارعون فى العالم الاجتماعى إلى دور الفن فى توجيهات الإنسان، وبالتالى عملوا على توجيهه بما يتفق مع المصالح الذاتية التى ينشدونها، ولكن الإبداع الفنى نفسه ولد من أولاد الحرية . فالفن ليس إلا نقدا للواقع الجارى وتجسيدا لبدائل، أو قل خروجا من الضرورات الاجتماعية والفكرية القائمة، ولأن الإنسان يعيش مخنوقا بالعديد من الضرورات الطبيعية والبيولوجية، فالحرية هى جوهر حياته ومسعاه الأساسى، مهما بدا أنه كثيرا ما يخلد إلى الاستسلام والرضى بكل ما هو مفروض عليه، سواء من جانب الطبيعة أو المجتمع .

ولعلى لذلك أعتقد أن كل الإنجازات العلمية ألتى شهدناها فى الخمسين سنة الماضية لم تكن لتولد لولا ذلك الحفز الذى يدفع إليه الفن .

نعم أن جهود السيطرة على توجهات الفن قائمة، وقد بلغت فى عصرنا الحديث مبلغا عاليا من المهارة والتعمية والسلطان، إلا أن طبيعة الفن باعتباره ابنا للحرية، تتأبى على هذه الهيمنة وتخترقها وتعيد بشكل دائم بناء الإنسان من أجل الانفلات من الضرورات المحيطة .

والفن ليس إلا جانبا من جوانب الإبداع، فالنقد والتفكير هما الجانب الآخر، وكلا الوجهين يعكسان ما يدور فى عالم الوعى واللاوعى الاجتماعى، فالأول يركب والثانى يحلل ويفكك، وبهذا يعرف الإنسان نفسه وعالمه المحيط .

كنت منذ الصبا أشعر أننى أمام لغز فلم تكن لدى إجابات شافية أو مقنعة عن تساؤلات كثيرة، ولكننى على أية حال تلقيت بعض الإجابات المقنعة على مدار حياتى الطويلة . كم كنت أسرح وأنا أتتطلع إلى النجوم فى السماء بعد أن صار لدى بعض معرفة بعلم الفلك . كنت أعرف أن القمر كتلة صخرية وأنه يدور حول الأرض، ولكن لم أتصور مطلقا أننى سوف أعيش لأرى رجلا يهبط على القمر وتُرسل لنا صورٌ منه ونتأكد أن معلوماتنا الراصدة لم تكن عبثا . ولست أذكر متى أكتشف أهمية العقل كظاهرة طبيعية مضافة إلى الطبيعة، وأنه ليس مجرد أداة للضبط والهيمنة على توجهات الحياة البشرية العضوية أو الاجتماعية، لكنه أيضا من الممكن أن يكون أداة للضبط خارج الدائرة البيولوجية أو الاجتماعية . وقد ساقتنى الموسيقى إلى هذا الاكتشاف، فالأصوات موجودة فى الطبيعة ولكنها متفرقة ولا تكاد تعنى شيئا فى تفرقها، ولكن عندما يدخل عليها العقل البشرى ويضبطها وينشئ علاقات منظمة فيما بينها، تصبح موسيقى باهرة الجمال، وربما أكثر إيحاء للإنسان من أى إبداع آخر، وهكذا فى سائر الفنون، فالحياة الإنسانية مبعثرة بين الأيام والليالى الطوال لكن الرواية أو المسرحية تضبطها وتجمع شذراتها وتنشئ منها شيئا ذا دلالة .

بالطبع كانت الماركسية تتحدث عن ذلك الصراع بين الطبيعة والإنسان بغرض الهيمنة عليها، وأن الإنسانية بعد أن تنتهى من الصراع الطبقى فى ظل ملكية اشتراكية سوف تلتفت إلى الصراع الرئيسى والجوهرى مع الطبيعة، للهيمنة عليها لصالح الوجود البشرى، ولكن اكتشافى للعقل كقوة ضبط وإعطاء المعنى وإخراج العالم من الفوضى إلى النظام، جاء من قراءات أخرى .

ظلت هذه الأفكار مسيطرة على وتعطينى معنى للحياة والكفاح من أجل تحسينها ومن أجل مزيد من المعرفة، لكننى شيئا فشيئا أصبحت أكثر تواضعا وأدركت بشكل مؤلم أن الظاهرة الإنسانية على ظهر كوكب الأرض قد لا تكون إلا شيئا عارضا، وأن تلك الأحلام الكبرى بأن دور الإنسان فى الوجود أساسى وجوهرى قد لا تكون صحيحة تماما، وأننى فى واقع الأمر لم أفلت من تأثير ثقافة القرن التاسع عشر التى أفرطت فى تقدير قيمة الإنسان، وأنه محور الكون والقوة المفوضة للتغيير، كما زعم نيتشه فى أواخر القرن التاسع عشر، وتأويلاته المبالغة لنظرية تطور الأنواع، التى نشرها عالم الحيوان دارون وسيطرت على تفكير المفكرين طوال القرن السابق وحتى الآن .

لقد كان حجم الخيبات التى عشتها من الضخامة بحيث أعادنى إلى المربع الأول من التفكير ووقوفى أمام لغز الحياة حائرا، وقد هزتنى محاولة المفكر الفرنسى "ميشيل فيكو" فى هدم تلك الصورة التأليهية للإنسان، وإعلانه موت الإنسان، كما قال نيتشه من قبل بموت الإله.

فهاهى الاشتراكية قد انهارت، وهأنذا ألاحظ أثناء التحالف المصرى السوفيتى أن الأمور تدار بنفس الأساليب التى تدار بها التحالفات فى الجانب الآخر أيضا . وهأأنا ذا أرى فشل التطبيق الاشتراكى فى الدول الاشتراكية، وكم ساورتنى فكرة أن الإنسان بحكم تكوينه البيولوجى غير قادر على إنشاء عالم غير قائم على التنافس الضار والرغبة فى الهيمنة . ولعلى اكتشفت مؤخرا الأهمية القصوى للحرية السياسية والفكرية، وأنها جوهر حياة الإنسان بالفعل حتى بعيدا عن حلم الانفلات من كل الضرورات أيا كان شكلها .

بالطبع لا أزعم أننى رفضت المجتمع البريطانى على الرغم من تاريخنا العدائى طوال ما يزيد على سبعين عاما، فقد كان موفقا إلى حد ما بالنسبة لما كنت أريده لبلادى، فهنا الانتخابات حرة إلى حد ما، فكل التدخلات الأخرى ليست عن طريق القسر أو التزييف أو الرشوة، بل عن طريق الاستمالة بوسائل مختلفة، ولكنها فى النهاية تقوم على الإقناع . كما كانت الحقوق الأساسية مكفولة للبريطانيين، بما فى ذلك حق العلاج المؤمن لجميع المواطنين وحق العمل أو التعويض بالإعانة وكذلك حق التعليم وتكافؤ الفرص . وقد تقلبت السلطة فى بريطانيا بين العمال والمحافظين، ولكن هذه المكاسب لم تستطع أية قوة سياسية أن تسحبها من الجمهور، حتى التيارات اليمينية المتطرفة .

وقد شاهدت بعينى معنى عبارة "السلطة الرابعة" التى تمثلها الصحافة . نعم يسيطر بعض كبار المولين على الكثير من الصحف، وكثيرا ما يحاول هؤلاء توجيه سياسة الصحيفة، ولكن الأمور أصبحت أكثر صعوبة يوما بعد يوم، وأصبحت الصحافة - كما تحدثت من قبل - صناعة أكثر منها تعبيرا عن هذا الحزب أو ذاك، وبسبب النفقات العالية لإصدار صحيفة، أصبح مناط بقاء الصحيفة أو سقوطها هو للقارئ . وكأنها هى الأخرى صارت عملا انتخابيا، وأصبح على أية صحيفة أن تعتمد على هذا القارئ . كما أصبح النشاط الاقتصادى أكثر

اقتصادية. بمعنى ابتعاده عن الأغراض السياسية. وسعيه إلى اجتذاب المستهلكين بما يعرضه عليهم من سلع من خلال الجريدة أو المحطة التليفزيونية . بالطبع لم تصبح الصحافة خالصة لنفسها مهنيا كمصدر للخبر والرأي، فمحاولات الهيمنة موجودة ولكنها تحارب وتساعد الظروف الاجتماعية أيضا على نجاح محاولات الاستقلال عن أية هيمنة .

نعم أن قوى التقدم تنجح إلى حد ما ولكن يحدث بشكل مفاجئ أن ينقلب كل شيء، ومازال الكثير من المثقفين والمفكرين السياسيين يصلون إلى أقصى الطرف المعارض من حيث النزوع إلى القوة والإيمان بها كمصدر وحيد للحق. وينجح هؤلاء لسبب أو آخر في الوصول إلى السلطة في هذا البلد الديمقراطي أو ذلك، مؤيدين من أصحاب مصالح اقتصادية بالغي القوة، فلا يعبأون بمفاهيم الحق والعدل في المنظومة الأخلاقية المتداولة، ويشعلون الحروب الدامية متذرعين بحيل مخادعة، مستغلين ظاهرة الخوف لدى غالبية الناس عندما يداهمهم خطر ما . وهكذا نجح غلاة اليمين من أصحاب فلسفة القوة في السيطرة على الإدارة الأمريكية وتوجيهها لتحقيق أغراضهم . لقد نجحوا في الولايات المتحدة وفي خلال أقل من دورتين فقط من رئاسة رجل بسيط استطاع بالكاد أن يهرب من آفة الإدمان على الخمر بواسطة تحريك العواطف الدينية في نفسه والإيمان بقوى غيبية تساعده على الخلاص . لاشك أن هذه الإحالة خارج العقل والموضوعية واللجوء إلى عالم الميتافيزيقا لها تأثيرها على نظام تفكيره وتغليب الانفعال على العقل وهي التي جعلت نجاح فلسفة القوة بعد كل هذا الجهاد البشري من أجل نشر فكرة العدل ممكنة في أكبر وأقوى دولة في العالم .

ليست ظاهرة التقدم قادرة على التواصل في المجتمعات البشرية بعد، وهناك الكثير من تضارب الأفكار والمواقف بما قد يصيب الإنسان بالقلق وعدم الثقة في أي مستقبل للجنس البشري، ولذلك وعلى الرغم مما أحرزناه من تقدم في الكثير من المجالات، فإن هناك من يشكك في فكرة التقدم ذاتها وله أسبابه المنطقية دون شك .

بهذه الصورة من المشاعر والأفكار عدت إلى مصر .

لم أكن منقطع الصلة بالطبع عما يدور في البلد الذي ولدت وعشت فيه أغلب سنوات عمري وكان لدى مثل غالبية أفراد الجنس البشري حنين إلى الأماكن التي عشت فيها والناس الذين خالطتهم، ولكن عندما تجولت في تلك الشوارع القديمة لم أجدها، بل وجدت مساحات أخرى وبتشكيلات مختلفة . وكثيرا ما كنت أقف متأملا هذا الزحام الخطير وأفهم من خلال الرؤية المباشرة معنى كلمة "الانفجار السكاني"، فعندما غادرت القاهرة كان تعداد الشعب المصري حوالي خمسة وثلاثين مليون شخص، والآن تتحدث الإحصاءات عما يزيد عن سبعين مليوناً . وحين بدأت أسوق السيارة، أدركت أنني فقدت تلك اللغة الداخلية التي يفهم السائق بها احتمالات تصرفات السائقين الآخرين، حتى يحسن المناورة والسواقة بشكل سليم. كان الأمر يحتاج إلى وقت ولإعادة تدريب، ولكنه كان بالنسبة لي شيئا من النفي أو الاغتراب أسفت عليه أسفا شديدا،فهأنذا ولو إلى حين قد فقدت لغة من لغات التواصل .

❖ ❖ ❖

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

هذا الكتاب حافل بالمشاهد والأفكار والوقائع والمفاجآت كما تحتوى صفحاته على سلسلة طويلة من المعارك الثقافية والفكرية والسياسية ومواقع الصراع والصدام.

إنه ينتقل بنا من مصر أيام الملكية الى مصر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . مصر عبد الناصر . والسادات ثم يصحبنا إلى العالم العربى وأجواء عراق ما قبل الغزو الأمريكى ثم الى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية : لكى نلامس عن قرب تيارات الفكر وأنماط الحياة المتنوعة .

إنها رحلة فى دروب الحياة نتجول خلالها فى دهاليز الأزهر والصحافة والإذاعة والسينما وتدريس النقد ورئاسة تحرير واحدة من أهم المجلات الثقافية المصرية وسط تقلبات وانعطافات حادة .

صاحب السيرة صاحب ثقافة موسوعية وراهب فى معبد الفكر وكان صديقًا لعمالقة عصره ولذلك يتحدث عنهم ويطلق العنان لقلمه لكى يعبر عن رأيه وتقييماته ومشاعره .

فى هذه الصفحات ... يعيش القارئ مع المؤلف رحلته كلها ... متابعًا كل تفصيلاتها دون أن تفارقه متعة القراءة لحظة واحدة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠.٥٠ جنية

ISBN# 9789774202556

6 221149 006706

ملحق مرفقات

هذه الصفحات القادمة ليست من أصل الكتاب ولكنها عبارة عن مقالات تم نشرها فى جريدة القاهرة المصرية كتعقيب على بعض فقرات فى الكتاب عند نشره كحلقات فى الجريدة.
أردت إرفاقها للكتاب كنوع من الإثراء له.

تحياتى

https://www.facebook.com/histoc

في الحلقة الثامنة من مذكرات الكاتب الكبير أحمد عباس صالح أشار إلى موقف المفكر الراحل «عباس محمود العقاد» من ثورة ٢٣ يوليو، فقال إن «العقاد» ظل صامتا تقريبا منذ اندلاع الثورة لمدة عام ونصف العام ويبدو أن الذاكرة قد خانت الكاتب الكبير، إذ أن الأستاذ العقاد، عبر عن رأيه في «حركة ٢٣ يوليو» كما كانت توصف آنذاك، بمقال نشره بجريدة « الأساس»، وهى يومية كانت لسان حزب الهيئة السعدية الذى كان الأستاذ العقاد أحد أعضائه، وأبرز كتاب صحيفته، بعنوان «ليست ثورة ولكنها قضاء على الثورة» نشر بعد ٣٥ يوما فقط من قيام الثورة، وفى ٢٧ أغسطس ١٩٥٢ وأعيد نشره فى كتاب «قيم ومعايير» التى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٤ بعد وفاة العقاد بعشر سنوات وهو واحد من ١٧ كتابا صدرت للعقاد بعيد وفاته، نشر أولها عام ١٩٦٤ بعنوان «أنا» ونشر آخرها عام ١٩٧٥ بعنوان «مذهب ذوى الحاجات» وفيما يلى نص مقال العقاد الذى يذهب فيه إلى أن الثورة هى الانقلاب على سلطة الأمة، وأن ٢٣ يوليو تعيد الأمور إلى طبيعتها، وتزيل العقبات التى كانت تقف أمام سلطة الأمة.

مصطفى الملطاوى

وثيقة تاريخية حول موقف كاتب العبقريات من يوليو

جريدة القاهرة - الثلاثاء ١٥ يونيو ٢٠٠٤م - ٢٧ ربيع الآخرة ١٤٢٥هـ تعقيب على صفحة ٦٩ فى الكتاب

ليست ثورة... ولكنها قضاء على الثورة

■ العقاد قال إن الثورة خروج عن مجرى الأمور... وما حدث فى ٢٣ يوليو يزيل العقبات التي تقف فى مجراها ليستقيم كل شىء

كان سعد رحمه الله رضى العظمة فى كثير من صفاته، كما كان رضى العظمة فى كثير من أعماله وأقواله ونظراته.

ومن آيات عظمته أن تذكرنا به الحوادث بعد خمس وعشرين سنة من وفاته، وأن نرجع إلى رأيه فيها، فإذا هو مقطع الصواب وفصل الخطاب.

كان «الرجعيون» يتهمون طلاب الإصلاح والحرية بالثورة على العرش والثورة على القانون، فكان سعد يجيب عن تلك «التهمة» بأن الحكومة هى الثائرة على الأمة، ويشرح تلك الفكرة القوية بمقالاته التى جعل عنوانها «ثورة الوزارة على الدستور»، وكان يوقعها بحرفى «س.أ» أى سعد إبراهيم، واسم أبيه كما هو معلوم «إبراهيم زغلول».

لم تكن الأمة ثائرة، بل كانت هناك ثورة على سلطة الأمة، وكانت الثورة ثورة الحكام لا ثورة المحكومين لأنهم يغتصبون ما ليس لهم من سلطان.

الملك العاصى

إن الذى حدث اليوم بعد خمس وعشرين سنة هو قمع ثورة وليس بثورة، وفى هذا الفهم الصادق لحقيقة الواقع تصحيح لأقوال القائلين عما جرى حتى الساعة، وعما سيجرى بعد الساعة فى هذا الاتجاه القويم.

إن الثورة خروج عن مجرى الأمور.

أما الذى حدث فى مصر فهو إزالة العقبات التى كانت و اقفة فى مجراها ثم يستقيم كل شىء على أحسن سبيل.

إن هذه الأمة لم تخرج عن مجراها فى سنة من سنن الحكم أو سنن الاجتماع، ولكنها كانت تتعثر فى مجراها كلما صدمتها العقبات ووقفت فى طريقها السدود، ثم زالت العقبات والسدود، فأقبلت تمضى على اطراد فى طريق الهداية والتوفيق.

كان فاروق سدا فى مجرى النهر يصده ويفرق مسيله، ثم ارتفع السد فاستقام المسيل واجتمعت شعب الماء من حيث تفرقت قبل ذلك فلا تغيير فى مجرى الأمور. بل كل ما هنالك من التغيير - وأصلح ما يكون التغيير المطلوب - أن يخلو سبيل التقدم من العوائق والحوائل فليس ثمة ما يعوق أو ما يحول.

كان الملك «العاصى» ثائرا على الأمة فقمعت ثورته وليس من الوصف الصحيح للحوادث أن يقال إن أمة ثارت على ملك فى هذا الزمان، فإنما يثور الملوك إذا خالفوا الدساتير، فأما أن تثور الأمم وهى مصدر الدساتير، فذلك المحال الذى لا يستقيم به المقال.



العقاد



نجيب

فى يومى الخميس والجمعة السابقين ليوم السبت الذى نزل فيه فاروق عن الملك، شاءت المصادفة أن أحضر مجامع كثيرة من مختلف البيئات والآراء.

حضرت مجمعا فيه نخبة من الشيوخ والنواب الذين تولوا النيابة عن الأمة غير مرة، وحضرت اجتماعا فى مكتبة، وسمعت سيدة فى نحو الخمسين بين ذويها وأبنائها، وسمعت صناعا يتحدثون وهم يشتغلون بتبديل إطارات السيارات، فوالله لقد كان السؤال واحداً فى هذه المجامع قاطبة كلما جرى ذكر الانقلاب الأخير!

كان السؤال الذى اتفق عليه الجميع: وهل يبقى فاروق ملكاً بعد هذا؟ إن بقى فياضيعة العمل الذى تعبوا فيه.

وكنت فى الإسكندرية فهمنى أن أعرف جواب المصلين فى المساجد على الدعاء المألوف بعد خطبة الجمعة، وسألت عن خمسة مساجد متفرقة بين أنحاء المدينة، فلم يكن منها غير مسجد واحد ذكر خطيبة اسم فاروق كما هو مكتوب عنده، فلم يجبه أحد قط بالتأمين.

أما بقية المساجد فمنها مسجد دعا فيه الخطيب بالنصر لجيش المسلمين، ومسجد دعا فيه بالنصر للملك غير مشفوع باسم من الاسماء، ومسجد حذفت فيه العبارة حذفاً بجملتها ولم يستغرب أحد حذفها، وقيل لى أن وزير الأوقاف كان حاضراً فى أحد هذه المساجد التى أهملت الدعاء المحفوظ.

كان هذا يوم الجمعة..

وفى يوم السبت طلب الجيش المصرى من فاروق أن ينزل عن عرشه باسم الأمة، فتمم فى الواقع ما كانت الأمة تريدة وتتمناه.

ليست هى ثورة بأى معنى من معانى الثورة، ولكنها قمع للثورة وتقرير لسلطان الأمة، وإنجاز بالفعل لما جاشت به الصدور وتجاوبت به الألسنة فى المحافل والمنازل والطرقات.

تحديد الملكية

ونعود فنقول أن الثورة لا تفهم على وجه من الوجوه إلا إذا تغير مجرى الأمور فى البلاد.

ومجرى الأمور فى البلاد المصرية لم يتغير، بل هو قد اعتدل واستقام، بعد أن قامت فى طريقة العقبات تعترضه وتقطعه وتفرقه، وتتركه من هنا وهناك هدراً مضاعاً بين الوحول والرمال.

ليس عملا من الأعمال التى يدور عليها البحث اليوم خليقاً أن يحسب من قلب الأوضاع وتغيير مجرى الأمور، ولا استثناء فى هذا لحدود الملكية الزراعية وما إليها من الحدود الاقتصادية التى تبدو للناس أنها خارقة من الخوارق فى أوضاع هذا البلد.

فلا خارقة فى هذه الحدود حيث نذكر أن الملكية الزراعية لم يكن لها وجود بمصر فى أول القرن التاسع عشر، وأن المصرى الذى غبر له جدان اثنان يملكان الضياع الواسعة أندر من الكبريت الأحمر.

كل هذا من الأمور التى تقبل فى مصر التعديل والتنظيم ولا تسمى قلباً للأوضاع أو تغييراً لمجرى الأمور.

كلا! إن الأمور لتعود إلى مجراها، وتستقيم فى اتجاهها، وأياً كان الرأى الذى يستقر عليه البحث فى شئون الثروة الزراعية أو التجارية فليست مصر فى ثورة ولا فى انقلاب، ولكنها تقمع الثورة وتحول دون الانقلاب الذى كان وشيكاً أن يحدث لو بقيت المحنة حيث كانت، وقد ذهبت بحمد الله إلى غير رجعة، واعتدلت هذه الأمة على النهج السوى حاكمة بأمرها قاضية على الثورة فى حكومتها، وخيراً إن شاء الله عاقبة هذا القضاء.

■ عباس محمود العقاد

الأساس فى: ٢٧ / ٨ / ١٩٥٢

فى الحلقة التاسعة عشرة من مذكراته وعنوانها «عمر فى العاصفة» يسجل الأستاذ «أحمد عباس صالح» لقطات من حياته، ويعرج بنا على هجرته إلى العراق الشقيق إبان حكم البعث أستاذا بأكاديمية الفنون وكيف أنه توقف عن الكتابة فى جريدة هذا الحزب. حزب البعث. لما قد تسببه هذه الكتابة من قلق للمثقفين العراقيين، والأهم حتى لا يقال فى القاهرة إنه يهاجم مصر، لأن أى نقد للسلطة الحاكمة – إذ ذاك – كان يفسر بذاك، ثم هو يتعجب فيقول:«وكان النظام يسجن المصريين ويعذبهم، وفى الوقت نفسه كان النظام يتحدث عن حبه الواله لمصر.



د. عُبادة كُحيلة

يحاور «أحمد عباس صالح»

جريدة القاهرة - الثلاثاء - ٧ سبتمبر ٢٠٠٤ - ٢٢ رجب ١٤٢٥هـ

تعقيب على صفحة ١٥٨ فى الكتاب

«جمال حمدان» تحدث عن مصر.. لا عن المصريين

وكأن مصر فكرة غيبية هلامية لا علاقة لها بالمصريين، وكم كتبت وأنا فى مصر أن مصر تعنى المصريين ولا شىء آخر ومن يسىء إلى المصريين أيا كان السبب فهو يسىء إلى مصر، ولكن فكرة مصر ذلك التابو المعبود الغريب كانت متغلغلة فى اللاوعى لدى الكثير من المثقفين، وكان تجريد مصر يعنى إبعادها عما يدور فيها من تدهور حضارى وتبعية واستعمار وسلطات استبدادية وشعب يعانى من كل ذلك، وربما كان هذا التصور وراء فكرة «شخصية مصر» لأستاذ الجغرافيا «جمال حمدان».

الوطن والنظام

أوافق الكاتب على فصله بين الوطن والنظام، فكل منهما كيان بذاته وأوافقه كذلك على أن من يسىء إلى المصريين فهو يسىء إلى مصر، لكننى أعجب ويشتد بى العجب وهو يزج بـ«جمال حمدان» وكتابه فى سياق بعيد عن الاثنين معا – الكاتب والكتاب – فالسادات فى حبه لمصر «كذا» كان يصدر من منطلقات تختلف عن المنطلقات التى كان يصدر منها «حمدان» فى حب مصر، كما إن مرامى كل منهما ـ «السادات» و«حمدان» ـ ليست واحدة، وإذا كان حب الأول لها – بعبارة الكاتب – فكرة غيبية هلامية لا علاقة لها بالمصريين، فإن حب الآخر لها كان فكرة علمية صارمة لها علاقة بالمصريين، أليست الجغرافيا هى دراسة المكان بكل ما يشتمل عليه هذا المكان بما فيه الإنسان!! بل إنه ربما يراودك هاجس وأنت تطالع «شخصية مصر» بأنك تطالع كتاباً فى التاريخ «أى الإنسان» وليس كتاباً فى الجغرافيا «أى المكان» .. إذن فتصور الكاتب عن فكرة كتاب «شخصية مصر» غير صحيح.

هذه واحدة

يمضى الأستاذ أحمد عباس صالح – بعد ذلك – فيقول «جمال حمدان» ما لم يقله، اقصد حديثه عن الحتمية الجغرافية فحمدان نفسه لم يقل بهذه الحتمية .. فقط يقول بالحسم الجغرافى وفارق بين الاثنين وإنكار هذا الأخير إنكار للسببيه العلمية برمتها، بل إنه يقول بالحرف الواحد «وعندنا باختصار أن الجغرافيا عامل مهم فى تفسير الحياة والحضارة والتاريخ فى مصر، ولكنها بالتأكيد ليست العامل الوحيد وليست العامل الأهم بالضرورة وسيرى القارئ بالفعل أن بعضا من غير الجغرافيين أكثر قرباً من الجغرافيين إلى البيئة الجغرافية بل وأحيانا إلى الحتم الجغرافى نفسه».

هذه أيضا واحدة

يستطرد الكاتب فيحكى عن أنه استقبل «شخصية مصر» حين صدورها بدراسة طويلة، وجه خلالها نقدا إلى هذا الكتاب، أغضبت صاحبه وجعلته يتوقف عن الكتابة فى مجلة «الكاتب»، كما إنه امتنع عن المشاركة فى مناقشة حول هذا الكتاب فى إذاعة البرنامج الثانى «البرنامج الثقافى الآن» مع الكاتب والدكتورة سهير القلماوى.

لماذا اعتذر؟

ولما كنت أنا كاتب هذه السطور قريبا من «حمدان» فى تلك الأونة، وتربطنى به علاقة امتدت لسنوات، فإننى أشهد بانه لم يكن ليغضب من نقد يوجه إليه، واذكر أننى حين كتبت عن «شخصية مصر» فى إصدارها الثانى «الفكر المعاصر يوليو ١٩٧٠» وكان فى بعض ما كتبت نقدات رأيتها فى هذا الكتاب، فإنه تقبل هذه النقدات بروح طيبة واستمرت علاقتى به لا يعكر صفوها شىء.

أما عن عدم مشاركة «حمدان» فى مناقشة كتابه فى الإذاعة، فالواقع أنه منذ أن بدأ عزلته الرائعة صار ينأى بنفسه عن وسائل الإعلام وضجيج وسائل الإعلام، وإن واصل الكتابة أحيانا فى بعض الصحف والمجلات بينها «الكاتب» و«المجلة» و«الفكر المعاصر» على أنه عندما كانت هذه المجلة الأخيرة بسبيلها إلى إصدار عدد عن الشخصية المصرية «صدر فى أبريل ١٩٦٩» كلفتنى بأن أجرى حديثا معه، لكنه اعتذر اعتذارا رقيقا وتفهمت اعتذاره.

فى ضوء ذلك يمكن أن نفسر لماذا اعتذر «حمدان» عن عدم المشاركة فى مناقشة كتابه بإذاعة البرنامج الثانى، وأضيف تصحيحا آخر، فربما غربت عن ذهن الكاتب حقيقة هى أننى وليست «سهير القلماوى» كنت شريكه فى مناقشة هذا الكتاب بدعوة من المذيع المسئول وقتها وهو الصديق «السيد حسين» ويعمل الآن محررا بجريدة «العرب» اللندنية.



سهير



صالح

■ حب «جمال حمدان» لمصر يختلف عن حب «السادات» لها .. والفكرة التى يدور حولها فكرة علمية صارمة .. ودراسته للمكان شملت كل ما عليه بما فيه الإنسان



حمدان

■ هناك فارق بين الحديث عن الحتمية الجغرافية .. والحسم الجغرافى وكان «جمال حمدان» يرى أن الجغرافيا عامل مهم فى تفسير الحياة.. ولكنه ليس العامل الوحيد أو الأهم

وهذه واحدة ثالثة

عبقرية المكان والإنسان

لا يتوقف الكاتب عند هذا الحد، إذ يحمل حمدان أكثر مما يحتمل، حين يذهب إلى أن «شخصية مصر» تبلغ عنده – أى عند حمدان – من العظمة أقصى مدى، منفصلة عن شعبها، فيتغنى بها بشكل تجريدى باعتبارها مكانا جغرافيا فذا وأن عظمة المكان هى التى أدت إلى نشوء الحضارة ونهضتها بعد ذلك.

ونرى من الناحية المنهجية أن ما يقوله الكاتب مبالغ فيه، فالكتاب كما يتضح من عنوانه عن «شخصية مصر» وليس عن شخصية المصريين وفارق كبير بين الاثنين، هو الفارق بين حمدان «شخصية مصر» من ناحية وبين العقاد «سعد زغلول .. سيرة وتحية» وغربال «تكوين مصر» وحسين فوزى «سندباد مصرى» وحسين مؤنس «مصر ورسالتها» فحمدان كتب عن «شخصية مصر» وهؤلاء كتبوا عن «شخصية المصريين».

ليس مطلوبا من الجغرافى أن يكتب عن شخصية شعب ما فهذا من شأن المؤرخين والأدباء وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والفولكلور .. المطلوب منه فقط أن يكتب عن شخصية وطن ما، وهذا ما نهض به حمدان فى مصر ونهض به جغرافيون غيره «لابلاش، زيجفريد، ماكيندر وغيرهم» فى أقطار أخرى غير مصر.

يقول «حمدان» على نحو صارم إن كتابه عن «شخصية مصر» لا «الشخصية المصرية» والفارق حاسم كما هو دقيق فرغم قدر من التداخل الحتمى منطقيا ومن حيث المبدأ ورغم فكرة الجغرافية كجغرافية الإنسان التى نصدر عنها هنا منهجيا، ورغم تركيز الجزء الأكبر من مادة هذا الكتاب فعلا على أبناء مصر وأهل مصر وسكان مصر بالضرورة عمليا، فإن هذه أساسا دراسة لشخصية مصر البلد والأقليم لا لشخصية المصرى أو الإنسان المصرى من حيث هو».



العقاد

الجغرافيا هى الأساس

أما ما يأخذه الأستاذ عباس صالح على «حمدان» من مغالاة فى تأثير البيئة الجغرافية فليس صحيحا لأنه فى المراحل المبكرة من الحضارة الإنسانية تكون الجغرافيا هى العامل الأهم فى نشأة هذه الحضارة وفى تطورها ومن خلالها يمكن أن نفسر العديد من وقائع التاريخ، فالإمكانات المحدودة للإنسان فى تلك المرحلة كانت أدنى من أن يتحكم فى البيئة حوله .. هذه الإمكانات كانت تنمو على نحو وئيد، ولم يقدر لها أن يصبح لها شأنها إلا مع مطالع العصر الحديث، أى قبل مئات قليلة من السنين، ورغما عما جرى من تطورات هائلة فى العلوم وتطبيقاتها فى عصرنا هذا الذى نعيشه فما تزال الجغرافيا عنصرا فاعلا بين جملة أخرى من العناصر الفاعلة، فقد انتصر جنرالات هتلر على كل جنرالات أوروبا إلى أن صادف هؤلاء الجنرالات أمام بوابات موسكو جنرالا اسمه الشتاء وتحولت انتصاراتهم إلى هزائم.

وإذا كان الكاتب ينوه إلى نظرية «توينبى» عن «التحدى والاستجابة» فإن هذه النظرية تعزز ما يذهب إليه «حمدان» لا ما يذهب إليه هو، لأن الاستجابة، هى منوطة أساسا بالإنسان هى ردة فعل على التحدى وهو منوط أساسا بالمكان – أى أنه لولا التحدى ما كانت الاستجابة، بعبارة أخرى، إن التحدى هو الذى صنع الاستجابة فهو سابق عليها وليس لاحقا بها.

وهذه واحدة رابعة

قبل الهزيمة لا بعدها

أخيرا يقرر الأستاذ أحمد عباس صالح أن «حمدان» كتب كتابه بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ «وما أحدثته من إحباط مفاجئ بلغ حد اليأس وكراهية الذات لدى غالبية المصريين وأنه فى مثل هذه الظروف يكون رد الفعل إما بمواجهة كل ما حدث ونقده واكتشاف الأخطاء، ثم العمل على إعادة البناء والتغلب على أسباب الهزيمة، وإما بتقوية العزيمة بالاعتزاز بالنفس وبتاريخها وبث الحماسة فى النفوس، وخطورة الاتجاه الثانى هو أن تنسب الهزيمة إلى ظروف خارجية، ويتولد نوع من المكابرة وتجاهل الأسباب الحقيقية .. والحق أن كتاب «جمال حمدان» كان يقدم الحل الثانى، وقد جاء فى وقته ليعيد الثقة إلى المصريين وفى مقدمتهم مثقفوهم، وقد قرأت لبعض كبار الكتاب وصفا لكتاب «شخصية مصر» على أنه سفر عظيم من الأسفار الكبرى ولكنه فى الحقيقة كان تعويضا عن عقدة الشعور بالنقص بالادعاء بالتفوق بدلا من معالجة مشاكل النقص».

ما هذا ..؟ إن كل ما يقوله الأستاذ «أحمد عباس صالح» هنا لا محل له من الإعراب، ولا علاقة له بالتحليل النفسى ولا أى تحليل آخر غير نفسى لسبب بسيط هو أن «حمدان» انتهى من تأليف كتابه «فى طبعته الأولى» قبيل هزيمة يونية ١٩٦٧، وصدر فى أعقابها مباشرة «كتاب الهلال يوليو ١٩٦٧» أى أنه ليس ردة فعل لهذه الهزيمة والكاتب نفسه يناقض نفسه، لأنه يذكر أن فصولا من هذا الكتاب نشرت بمجلة «المجلة» فى عهد رئاسة «يحيى حقى» وفى مجلة «الكاتب» فى عهد رئاسته هو لتحريرها وذلك قبل أن يتم جمعها فى كتاب واحد.

وهذه واحدة خامسة

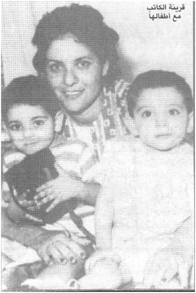
رائد لم يسبقه أحد

تبقى لنا فى النهاية كلمة هى أن «حمدان» ورغما عن هنات بله نقدات لكتابه الفلتة يبقى رائدا فى مجال لم يسبقه إليه أحد ولم يلحق به أحد، ويكفيه شرف الريادة وهو فى هذا الكتاب وفى غيره من كتب، كان باعتراف الكاتب نفسه يعمل فى ظروف حياتية صعبة وأضيف – كما كتبت عنه ذات يوم أنه كان فى إمكانه أن يبحث عن نفسه خارج الجامعة، بل خارج الوطن، وسنحت الفرصة غير مرة بل إنها كانت تلهث وراءه فى زمان صار الكثرة ولا أقول إن الكاتب أصرهم يلهثون وراء النفط، لكنه كان نسيج وحده، آثر أن ينصرف عن دنيانا هذه الرديئة إلى دنياه التى أحب، ورغما عن موارد مادية محدودة ومتاعب صحية كان يعانى منها إلا أنه أدار ظهره لكل شىء.

لست أدرى إلى أين تمضى بنا هذه الكتابات والهدف منها فى زمان ضاع منا كل شىء، «الشرف الرفيع والقلاع والحصون والمال والبنون» كما يقول نزار ولم يتبق لنا سوى ثقافتنا و «جمال حمدان» معلم مهم من معالم هذه الثقافة.

صدفنا عن تكريم حمدان فى حياته، وها نحن نصدف عن تكريمه فى مماته.

متى نكف عن جحد العلماء؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله.



قرينة الكاتب
مع أطفالها